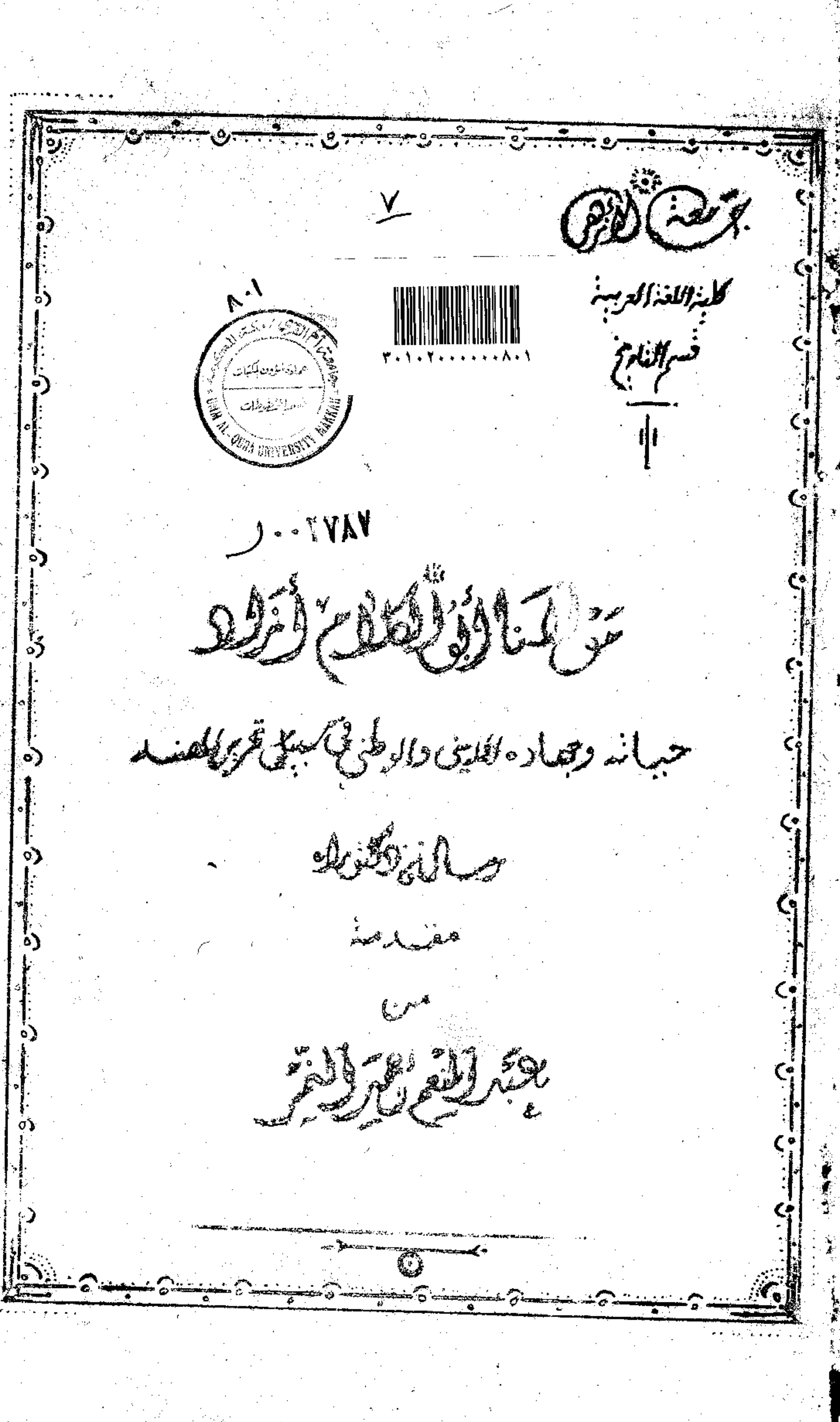


جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية
قسم التاريخ

٧

مولانا أبو الكلام آزاد

حياته وجهاده الديني والوطني في سبيل تحرير الهند

رسالة دكتوراه

مقدمة

من

عبد المنعم محمد عمر النمر

الاهـــداء

الـى الذين أناروا لـى طريـق الحياة بالعلم والمعرفـة .

والى الذين سار الاسلام الى أرض الـهند مع خطواتـهم الطيبة .

والى الذين صنعوا ولا يزالون يصنعون هذا الحقل الاسلامـــى الخصب فى هذه الأرض على مر القرون .

والى الذين يمرهم بل يسعدهم أن يعرفوا صفحات مجيدة ومجهولة من تاريخهم الاسلامى العظيم .

والى الذين يغريهم البحث عن الكنوز الدفينة من تاريخهم .

الى هؤلاء جميعـا ، والى الأزهـر الشريف الـذى تعلمنا فـى رحابـه ، ونستظـل بأمجاده ، ونعمل مع العاملـين لأداء رسالتـه ، ورفـع منارتـه .

أهدى هذا البحث انصافا للعاملين ، وخطوة على طريـق الباحثين والمنقبـين .

واللــه ولــى التوفيـــق ...

عبد المنعم احمد النمر
مدير البحوث الاسلامية ـ مجمع البحوث بالازهـر

" بسم الله الرحمن الرحيم "

وبه أستعين ومنه التوفيق والرشاد

قد يكون لكل انسان منا نقطة في حياته غيرت مجراها ، أو كانت سببا في لفت نظره واتجاهه الى العناية بشيء والاهتمام به ، وكل تغيير يبدأ من نقطة صغيرة حتى في وجهة القطار وهو يجرى على قضبان من حديد .. واذا رجع كل واحد منا بذاكرته الى سلسلة حياته فانه سيجد فيها بعض هذه النقط التى شكلت حياته .. أوصرفت اهتمامه الى شيء من الأشياء أوناحية من النواحى قد يسميها بعض الناس صدفا ولكنها الأقدار المحكمة ..

ولقد كان مما قدر الله لى أن أكون مبعوثا للأزهر وللمؤتمر الاسلامى الى الهند وأن أصل اليها في الثالث عشر من يناير سنة ١٩٥٦ ، دون أن تكون لدى حصيلة أوشبهها عن تاريخ المسلمين فى هذه البلاد الواسعة بعد أن تعبت فى الحصول على مصادر تنير لى الطريق قبيل سفرى اليها مما لابد أن يعرفه المبعوث عن أى بلد سيعمل فيها .

كان كل ما أعرفه هو ما يذكره مؤرخونا القدامى عن الفتح الاسلامى للسند على يد " محمد بن قاسم الثقفى " فى عهد الخليفة الأموى ، الوليد بن عبد الملك " ، كما فتحها من بعده السلطان محمود الغزنوى ، أما غير ذلك فكان مجهولا لدى ، ولدى كثير من المثقفين ، وان كان مؤرخونا القدامى قد أرخوا للقرون الأولى الاسلامية حتى زمنهم ، مما يتصل بالمد الاسلامى فى هذه البلاد ، أما تاريخ المسلمين فى الهند بعد ذلك ، والى عصرنا الحاضر ، فكنت لا أظفر عنه بشيء يبل ظمئى للمعرفة ..

وكانت اللافتة الحديثة للهند أمامنا هى غاندى ونهرو .. وحركة

العصيان المدنى ،وتقسيم الهند الى دولتين .. كانت باكستان احداهما ، وذلك فى نطاق معلومات قليلة ، وحتى بالنسبة لهذا التاريخ الحديث كانت الفكرة الغالبة حتى لدى المثقفين : أن الهند لم يعد بها مسلمون بعد قيام باكستان التى ضمت — فى ذهنهم وتصورهم — كل المسلمين ،فى شبه القارة الهندية وخلت الهند تماما من المسلمين .. حتى كانوا يتعجبون كلما سمعوا منى أننى مسافر الى المسلمين فى الهند فيحاولون أن يصححوا ما يظنون أننى أخطأت فيه ،فيقولون باكستان .. فأقول : الهند ،ويثير ذلك فى نفسى ذكرى واقعة حدثت فى جمعية الشبان المسلمين حين زار مصر حوالى سنة ١٩٥٠ أحد علماء الهند وهو السيد أبوالحسن على الحسنى الندوى وأقامت الجمعية له حفلا دعت اليه بعض المثقفين وأعضاء الجمعية ،وقام أحدهم يرحب بالأستاذ على أنه من علماء باكستان ، واستطرد فذكر مشاعره الطيبة نحوها كدولة مسلمة شقيقة .... الخ مما حدا بالاستاذ الندوى الى التصحيح وذكر شىء عن أحوال المسلمين فى الهند ، وهو من مدينة " لكنو " احدى المدن الكبيرة فى الهند ومدير لمدرسة دار العلوم ندوة العلماء بها التى تعتبر من معاقل الدراسة العربية الاسلامية فى الهند ،وبالرغم من مرور بضع سنين على هذه الواقعة عند ما سافرت فقد كانت هذه الحالة من المعرفة هى السائدة تقريبا لدى الكثيرين.

"وسافرت والضباب يحيط بى بالنسبة لماضى المسلمين وحاضرهم فى هذه البلاد ،حتى اذا وصلت اليها وأقمت فيها مدة ،أخذت أشعة المعرفة تمزق الضباب الذى أحاط بى شيئا فشيئا .. وكانت مفاجأة رائعة لى حقا : أن أعرف أن المسلمين قد حكموا هذه البلاد حكما متواصلا قرابة ثمانية قرون ونصف وتركوا فيها من الآثار الخالدة الرائعة ما تزال الهند الحاضرة للآن تعتز به ،كأثمن شىء تعتز

به أمة في ماضيها ، وأن هذا الحكم الاسلامي المتهد أو هذا الفردوس الاسلامي الشرقي قد انتهى على يد الانجليز سنة ١٨٥٧ م حين سيطروا على الهند وقضوا على آخر امبراطور إسلامي فيها ونفوه الى مدينة "رانجون " عاصمة بورما وتركوه في سجنه حتى مات ـ عليه رحمة الله .

" ولقد أغراني ذلك بالبحث والتنقيب طوال اقامتي في الهند التي استمرت حتى ابريل سنة ١٩٥٨ م واستعنت على ذلك أولا بالرجوع الى ذخائرنا التاريخية القديمة التي عنيت بتتبع حركة المد الاسلامي للهند ، ثم بتعلم اللغة الأوردية حتى استطعت مطالعة الكتب التاريخية الاسلامية بها يعاونني على مايستغلق على فهمه منها بعض المحيطين بي من طلابي وأصدقائي في مدرسة "دار العلوم ـ ديوبند " التي كنت أتخذها مركزا لنشاطي فيها وفي سائر أنحاء الهند ، فتفتحت لي جوانب مشرقة لجهود المسلمين وجهادهم في هذه البلاد الواسعة الشاسعة ، سواء أكانوا ملوكا أم علماء حتى كتبوا بهذه الجهود في تاريخ الاسلام صفحات خالدة في هذا الجزء من العالم .

" وعز على كثيرا أن يكون هذا التاريخ المجيد مجهولا من قراء اللغة العربية ، وأن لا يجد منا العناية الواجبة في مناهجنا الدراسية ، اللهم الا لمحات خاطفة لاتعطى الصورة التي يجب معرفتها من تاريخنا ، في الوقت الذي نعنى فيه بتاريخ الغرب الى حد الوقوف على تفاصيله والاهتمام بنهضاته وأبطاله ، مع أن هذا التاريخ الاسلامي المزدهر في الهند هو جزء من تاريخنا ، وصفحة مشرقة من صفحات أجدادنا ، كأمة واحدة يظلها علم الاسلام ، ولم يكن تاريخا هزيلا بل كان تاريخا عملاقا ، استمر كل هذه القرون ، وصنع حضارة من أزهى الحضارات الاسلامية والانسانية التي عرفناها في عواصم البلاد العربية يوم أن كانت هذه العواصم تصنع التاريخ ، وتصنع معه الحضارات ، بل أن حكم المسلمين في الهند قد وصل من القوة والاعتزاز الى الحد الذي جعل سفير

"جيمس الأول " ملك انجلترا يمكث أكثر من سنتين فى الهند يحاول مقابلة الامبراطور المسلم "جهانكير " فلم يظفر بما يريد ، فتضرع أن يأخذ كتابا منه الى ملك انجلترا فرد عليه الوزير الأول قائلا : أن مما لا يناسب قدر ملك مغولى مسلم أن يكتب كتابا الى سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون ،وكان ذلك فى أوائل القرن السابع عشر بعد ما تأسست شركة الهند الانجليزية سنة ١٦٠٠ م وأرادت اقامة صلات مع الحكم فى الهند ..

نعم عز على اهمال هذا التاريخ المجيد ،وشعرت بأننى أمام عبء أو واجب جديد ، وأمانة يجب أن أؤديها مهما يصادفنى من صعاب .. وكان هذا الشعور بدء جهود مضنية بذلتها وأنا سعيد بها طوال اقامتى فى الهند ،ومن خلال تنقلاتى التى شملت أكثر المدن والولايات الهندية من أقصى الشمال حتى آخر نقطة يابسة فى جنوب الهند .. وأتاحت لى فرصة المعرفة الواقعية على حقيقة التاريخ الاسلامى وأثر المسلمين السابقين على أرض الهند الحاضرة ،فكان ذلك كله يشد من عزمى ،ويستحثنى على متابعة هذا التاريخ المجيد وتقديمه لقراء العربية ..

فكانت أولى ثمار هذا الجهد كتاب "تاريخ الاسلام فى الهند " الذى قدمته للمطبعة فور عودتى لأرض الوطن سنة ١٩٥٨ فكان أول[1] مرجع مفصل بالعربية عن المسلمين فى الهند منذ دخل الاسلام أرض الهند فى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم

(١) بعد أن قدمت كتابى للمطبعة عقب عودتى من الهند عرفت أن الدكتور أحمد محمود الساداتى قد أخرجت له ادارة الثقافة بوزارة التربية كتابا فى سلسلة "الألف كتاب" بعنوان "تاريخ المسلمين فى نشأة القارة الهندية " الجزء الأول من الفتح العربى سنة ٨٩ هـ – ٧٠٧ م الى قيام الدولة المغولية ٩٣٢ هـ ١٥٢٦ م " وذلك فى سنة ١٩٥٧ م حين وجودى بالهند ثم أصدرت له بعد ظهور كتابى الجزء الثانى عن الدولة المغولية .

ثم قيام الحكم الاسلامى فيها بعد ذلك قرونا طويلة حتى سقطت الامبراطورية الاسلامية المغولية سنة ١٨٥٧ م على يد الانجليز مضيفا الى التاريخ مشاهداتى لآثاره ووصفى لها مع بعض الصور والخرائط فجاء الكتاب فى ٤٨٠ صفحة .

وفى سنة ١٩٦٤ أخرجت كتابى الثانى عن الهند "كفاح المسلمين فى تحرير الهند" الذى أرخ لحالة المسلمين فى تلك البلاد ابان عهد الاستعمار الانجليزى من سنة ١٨٥٧ حتى سنة ١٩٤٧ حين ظفرت بالاستقلال وانقسمت الى دولتين .. وقد حفزنى لاخراج هذا الكتاب مالمسته من عدم الالمام -حتى من المثقفين المتخصصين - بموقف المسلمين فى الهند فى هذه الفترة ، بل ما أفزعنى حين كنت أجد بينهم صورة عامة ظالمة لاخوانهم فى هذه البلاد وتصويرهم بأنهم كانوا ضالعين مع المستعمرين ، معوقين لحركة الاستقلال التى قادها - فى رأيهم - غاندى ونهرو .. مع أنه كان للمسلمين موقف عظيم ، ودور حاسم فى الوقوف ضد الانجليز منذ بدأ شبحهم يخيم على أرض الهند فى عهد الشركة ، فقد قام الشهيد السيد أحمد عرفان بحركته فى البنجاب (١٢٤٠ هـ - ١٨٢٤م) للقضاء على السيك والانجليز معا [1] ونجحت حركته فى بادئ أمرها ثم انتهت باغتياله غدرا ثم جاءت بعد ذلك حركة العلماء الذين أشعلوا الثورة ضد الانجليز سنة ١٨٥٧ والتى قادها مولانا امداد الله حيث دارت رحى الحرب بينهم وبين الانجليز فى موقعة عرفت بموقعة شاملى وانتهت بهزيمتهم بعد فشل الثورة فى دلهى [2] ولم تنطفئ جذوة المقاومة لدى العلماء والمتأثرين بدعوتهم وجهادهم

---

(١) راجع ص ٤١٧ من كتابى تاريخ الاسلام فى الهند ومابعدها ، والسيك تكتب أحيانا "السيخ" وهم أتباع مذهب أنشأه "جرونانك" ١٤٦٩ - ١٥٣٨ م وتأثر فيه بالاسلام فى التوحيد كما تأثر بالهندوسية فى أشياء أخرى (انظر ص ٢٩٤ ومابعدها من كتابى "تاريخ الاسلام فى الهند")

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٠

فظلوا يعملون سرا كما يعملون جهرا على الحدود ضد المستعمرين يمدهم أعوانهم من الداخل بالمال والسلاح(١) مثل حركة جعفر ويحيى سنة ١٨٦٤ م .

ونذكر مع هذا حركة مولانا محمود الحسن المتوفى سنة ١٩٢٠ فى صدر هذا القرن التى عرفت بحركة المكاتيب الحريرية " لأنه كان يبلغ تعليماته الى أعوانه فى الخارج وأتباعه بالداخل على المناديل بحبر لا يظهر عليها .. مما أدى أخيرا للقبض عليه سنة ١٩١٧ واعتقاله فى مالطا - ويقول عنها الانجليز فى تقرير لجنة رولات "أنهم كشفوها سنة ١٩١٦ وكانت تهدف الى انهاء الحكم البريطانى فى الهند بتدبير هجوم على الحدود الشمالية الغربية من الخارج والثورات الداخلية فجأة فى نفس الوقت. (٢)

وقد سبقوا غيرهم فى حركة مقاطعة الانجليز ، وإعلان عدم الولاء لهم ، وحين نادى غاندى بحركته كان غيره من علماء المسلمين والمتأثرين بهم قد سبقوه ، مما جعل المسلمين عامة أكثر استجابة وحماسا فى كل حركة لتحرير البلاد ، ففى سنة ١٩٢٠ دعا مولانا محمود الحسن الملقب بشيخ الهند الى مقاطعة جامعة عليكرة ومقاطعة الانجليز وقال فى احدى خطبه : " ومن حسن حظنا أن الهندوس قد بدءوا يوافقوننا فى هذه الحركة ويؤيدوننا " ويقول الأستاذ فتحى رضوان فى كتابه المهاتما غاندى ص ١٦٩ (لقد اقترح المسلمون وهم دائما العنصر النشيط الجرىء عدم التعاون مع الانجليز فأقر غاندى هذا الاتجاه ولكنه لخوفه من التطرف رفض مقاطعة البضائع الانجليزية ... الخ " أنظر كفاح المسلمين ص ١٢٨ ومابعدها ".

لهذا كله رأيت أن أنصف هؤلاء بتقديم تاريخ لهذه الفترة التى عمل المستعمرون عندنا وعندهم على الحيلولة التامة بيننا وبينهم فلم نعرف عنهم شيئا

---

(١) أنظر محاكمة الثوار جعفر ويحيى وزملائهما سنة ١٨٦٤ م فى ص ٣٢ ومابعدها من كتاب كفاح المسلمين .

(٢) ص ١٢٤ من المصدر السابق .

اللهم الا معلومات مشوهة ،أومبتورة مما كان يسمح المستعمر بتسربها .

وكان هذا الكتاب ـ بحق ـ ولا يزال المرجع المفصل ولعله الوحيد في تاريخ هذه الفترة حيث قدم الحقائق كما هي ووضع أمام المؤرخين الصورة الواقعية للمسلمين وغيرهم في حركة تحرير الهند وتقسيمها ، وما صاحب الاستقلال من حوادث ومذابح ، وما تركه المستعمرون وراءهم من مشكلات كانت مشكلة كشمير ـ ولا تزال ـ من أعقدها .. وأضفت للكتاب بعض الصور والخرائط فجاء في ٣٦٥ صفحة .

وحين عزمت على أن أتقدم برسالة للدكتوراه لم أتردد كثيرا في اختيار الموضوع ،فقد كان في نيتي أن أقدم للقراء جديدا فيما يمكن أن نسميه " مكتبة التاريخ الاسلامي في الهند " حيث عرض لي أثناء كتابتي للكتابين السابقين موضوعات وأشخاص من المسلمين كان لهم دور أي دور في حركة التحرير ، ومع ذلك لم يحظوا بشيء من القاء ضوء عليهم ، كما حظى غاندى ونهرو اللذان صدرت عنهم ولهم كتب كثيرة ترجمت للغة العربية .

ومولانا أبوالكلام أزاد من الزعماء المسلمين الذين كان لهم دور فعال في ايقاظ المسلمين وفي حركة التحرير بل لا أكون مغاليا اذا قلت انه كان الربان الماهر ،والعقل المفكر لقيادة هذه الحركة ،وكان هو الذي يتولى المفاوضات باسم الهند مع الانجليز حتى نالت البلاد استقلالها . بعد أن قام من فجر شبابه بحركته الاصلاحية الدينية التحررية بين المسلمين ،ونفخ فيهم من روح الاسلام التي تأبى الذلة والخنوع ،،وعمل على تحطيم كثير من الحواجز والمخاوف التي كانت تفصل بينهم وبين اخوانهم الهندوس نتيجة لرواسب كثيرة تفاعلت على مر السنين وأوجدت بعض العقد في النفوس كما سنعرف ذلك ..

فأغرانى ذلك بالكتابة عن هذا المصلح الدينى والزعيم السياسى وزادنى اغراء انه بدأ جهاده ، وهو عالم من علماء المسلمين بحركة اصلاح اسلامية تستمد من الدين قوتها وصلابتها وايمانها ،بدأ جهاده ، من واقع دينه ونظرته للحياة واحتفاله بالحرية ، وكراهته للاستعباد ، وكانت هذه الدعوة تقوم على تفهم الاسلام من منبعه الأصيل ـ القرآن والسنة الصحيحة ،ونبذ التقليد والجمود ، والقضاء على البدع والخرافات.

وقد وهبه الله عقلا ذكيا وأسلوبا ساحرا قويا فى اللغة الأوردية فاستعمل كل الأساليب المتاحة له : من الخطابة والكتابة والتدريس لايقاظ المسلمين ،ولفت أنظارهم الى حقائق دينهم.

فكان باعثا لحركة الاصلاح الدينى بين المسلمين ، كما كان من أبرز قواد حركة التحرير الوطنى مدفوعا بروحه الدينية وأبلى فى كلتا الحركتين بلاء حسنا ،ومع ذلك كله لم يحظ بما حظى به غيره من زملائه فى حركة التحرير من تعريف به ،وتقديمه لقراء العربية.

ومن أجل هذا رأيت من واجب الانصاف لأحد علماء الهند المجاهدين بل وللمسلمين فيها أن أجعله موضوع هذه الرسالة،وأن أكشف عما قام به وبذله من جهود ،لاحياء الروح الاسلامية فى النفوس ،ولدفع المسلمين الى أن يتقدموا حركة التحرير الوطنى ،تطبيقا لتعاليم دينهم وتحقيقا للعزة التى كتبها الله لهم .. وأكشف كذلك عما تحقق له من نجاح فى كلتا الجبهتين.

وتحقيقا لهذه الغاية رأيت أن أجعل هذه الرسالة قائمة على هذه المقدمة ومدخل وخمسة فصول ،وخاتمة.

المقدمـــة : لماذا اخترت أبا الكلام موضوعا للرسالة .

المدخـل : أضواء على المسلمين في الهند منذ دخلها الاسـلام حتى عصر أزاد

الفصل الأول : التعريف به من حيث : أسرته ونشأته والعوامـل التى أثرت فى تكوينه حتى بلغ سن العشرين .

" الثانى : أزاد المصلح الدينى

" الثالث : " الزعيم السياسى

" الرابع : أخطر مراحل الكفاح يقودها أزاد

" الخامس: أزاد وقضايا البلاد الاسلامية

الخاتمـــة :

وقد ألحقت بالرسالة عدة ملاحق تضم بعض أبحـــاث له تكشف عن اتجاهه فى دعوته الاصلاحية ،ومدى تعمقه فى فهمه لدينـه وسعة اطلاعه والمامه بتاريخ أمته وهى : ـ

أ = بحث عن المسلمين بين التقليد والاجتهاد . وعن التفسير والمفسرين .

ب = بحث عن ذى القرنين والسد ويأجوج ومأجوج .

جـ = مرافعتـه أمام المحكمة .

د = بحث عن الخلافة .

المدخـــــــل

أضواء على الهند منذ دخلها الاسلام حتى عصر أزاد[١]

كانت كلمة " الهنـد " حينما يذكرها الكاتب قبل سنة ١٩٤٧ تنصرف الى تلك البـــلاد الواسعة التى تشمل دولتى الهند وباكستان الآن .. ونحن هنا نريد — حين نكتب عن الهند — ذلك المعنى الواسع القديم ،ولم نكـــن فى حاجة الى مثل هذه الملاحظة قبل سنة التقسيم أعنى سنة ١٩٤٧ .

وتعتبر الهند من الأمم المعروفـة ذات الحضارة القديمة ، الـــتى كانت لها على مر التاريخ صلات مع الأمم حولها ولاسيما فارس والجزيرة العربية وكان التجار والبحـارة من العرب والهنود من دعائم هذه الصلات ،ومن الطبيعى حين نتحدث عن الهند والاسلام أن نذكر الدور الذى قام به هؤلاء فى وقت مبكر كما نذكر دورا آخر جاء متأخرا بعض الوقت أشرف عليه الحكام المسلمون على مختلف أزمانهم وبلادهم ،فحين ظهر الاسلام ،ودخل العرب فى دين الله أفواجـــــا كان من هؤلاء التجار والبحارة العرب مسلمون[٢] ،فحملوا معهم دينهم الجديـد الى هذه البلاد التى يتعاملون معها ، وكان من الطبيعى أن يتحدث هـــؤلاء فى حماسة عن دينهم الجديد وعن رسولهم الذى ظهر فى بلادهم ، يدعو الناس الى التوحيد والاخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعا ، وكانـــت الهند تئن تحت ثقل التفرقة ونظام الطبقات القاسى وتعدد الآلهة مما تزخـــر

(١) اعتمدت فى هذا المدخل غالبا على كتابين لى : تاريخ الاسلام فى الهنـد ، وكفاح المسلمين فى تحرير الهند ،ومشاهداتى ومعلوماتى الخاصة عـن الهند ،وكتب أخرى منصوص عليها فى مواضعها .

(٢) يراجع ما كتبته فى ذلك بتفصيل فى كتاب "تاريخ الاسلام فى الهنـــد" ص ٦٠ — ٧٠ الطبعة الأولى .

به الديانة الهندوسية السائدة في ذلك الوقت . (١)

فكان حديث المساواة والتوحيد نغمة جديدة لدى الهنود يحلو لبعضهم أن يسمعوها ، وتخفق قلوبهم لها ، وكان من الطبيعي أن تنفتح قلوب لهذه الدعوة الجديدة ، ويعتنقوا الاسلام ، ليتخلصوا من هذا العناء النفسي والاجتماعي الذي يعيشون فيه ، كما ينفضون عن أنفسهم غبار الوثنية المحشوة بالخرافات والخيالات .. ولذا وجدت دعوة الاسلام أرضا خصبة حتى أصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون العرب جماعة من الهند اعتنقوا الاسلام ، وأقاموا المساجد ، وباشروا شعائرهم في حرية تامة ، لما كان للمسلمين العرب من مكانة عند حكام هذه المدن باعتبارهم من أكبر العوامل لرواج تجارتهم ، ولما كان يظهر منهم من صدق واخلاص في المعاملة ، ومما لا شك فيه أن هؤلاء بالاضافة الى العلماء والدعاة العرب الذين ارتحلوا الى هذه البلاد ظل أثرهم ممتدا على مر السنين .

أما الدور الآخر الذي قام به الحكام المسلمون فقد بدأ ضعيفا في شكل محاولات أو حملات قام بها الولاة منذ عهد الخلفاء الراشدين ، ولم يكن لهذه المحاولات أو الحملات الخاطفة من الأثر ما كان للدور الهادئ الذي قام به التجار والعلماء ، ففي عهد عمر بن الخطاب بدأت أولى هذه الحملات تطرق أبواب الهند الساحلية ..

يقول البلاذري في كتابه (فتوح البلدان ص ٤٣٨)

ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاص الثقفي

---

(١) يراجع ما كتبته عن الأديان في الهند قبل الاسلام ص ٢٦ ـ ٥٨ المصدر السابق .

البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم بن أبي العاص الى البحرين ومضى الى عمان ، فأقطع جيشا الى "تانة"(١) ، فلما رجع الجيش كتب الى عمر يعلمه بذلك ، فكتب له عمر : يا أخا ثقيف ، حملت دودا على عود ، واني أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم " ويظهر من هذا أن قيام هذه الحملة البحرية لم يكن باذن من عمر ، كما يظهر أنها كانت حملة خاطفة لم يذكر لنا البلاذري نتائجها ، ثم يقول البلاذري :(ووجه الحكم أيضا (من البحرين) الى "بروص"(٢) ، ووجه أخاه المغيرة بن أبي العاص الى "الديبل"(٣) ، فلقى العدو فظفر به) .

---

(١) (تانة) تقع شمال بومباى على بعد ١٥ ميلا منها على الساحل (هامش تاريخ الاسلام في الهند ص ٧١)

(٢) تقع الآن شمال مدينة "سورت" في اقليم كجرات الهندي الآن . وكان ميناء قديما لكنه فقد أهميته على مر الزمن ، وقد مررت بها عند ذهابي لمدينة "سورت" في أكتوبر سنة ١٩٥٦ : أ هـ المصدر السابق هامش ص ٧١ .

(٣) كان موقعها قريبا من كراتشي واندرست جاء في صبح الأعشى للقلقشندي ص ٦٤ جـ ١٥ " أن الديبل بلدة على ساحل البحر" وفي تقويم البلدان : بلدة صغيرة على ساحل ماء السند شديدة الحر" هامش ٧٤/ المصدر السابق .

ويستمر البلاذري " فلما ولى عثمان رضى الله عنه وولى عبدالله بن عامر بن كريز العراق كتب اليه يأمره أن يوجه الى ثغر الهند من يعلم علمه، وينصرف اليه يخبره فوجه "حكيم بن جبلة العبدى " فلما رجع أوفده الى عثمان فسأله عن حال البلاد، فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفتها، قال : صفها لي قال : ماؤها وشل، وثمرها دقل ولصها بطل، ان قل الجيش فيها ضاعوا، وان كثروا جاعوا، فقال له عثمان : أخابر أنت أم ساجع ؟!! قال له : بل خابر " فلم يغزها أحد، فلما كان آخر عام ٣٨ هـ وأول ٣٩ هـ في خلافة على رضى الله عنه توجه الى ذلك الثغر (يريد ساحل الهند) "الحارث بن مرة العبدى" متطوعا باذن على فظفر وأصاب مغنما وسبيا ..الخ (١)

ويظهر من هذا أنها كانت شبه حملات استطلاعية على ساحل الهند، ولم تكن على مستوى الدولة الاسلامية، ولذلك لم تترك أثرا الا أنها على كل حال وجهت الأنظار الى هذا الجزء من العالم الشرقى القريب من جزيرة العرب مما كان له أثره بعد ذلك في أيام الدولة الأموية حيث توجهت حملات من والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى سنة ٩٥ هـ ٧١٣م الى بلاد السند ففشلت في أولها ثم اختار ابن عمه الشاب الشجاع "محمد بن القاسم الثقفى سنة ٩٢هـ ٧١١ م ووجهه بحملة في عهد الوليد بن عبدالملك الخليفة الأموى (٨٦ هـ ٧٠٥م ـ ٩٦ ـ ٧١٥م)، وقد نجحت هذه الحملة أيما نجاح حيث انتصر القائد الشاب

---

(١) وشل : قليل ، دقل : ردىء

فى كل المعارك التى خاضها حتى وصل الى "مولتان" فى شمال الهند وساس البلاد بالحلم والعدل حتى تعلق به أهلها وحزنوا عندما سحبه سليمان بن عبدالملك الذى جاء بعد وفاة الوليد ،وكان يكره الحجاج وأسرته ،وكان الحجاج قد توفى فنكل سليمان بمحمد بن القاسم حتى توفى فى سجنه وجوزى جزاء سنمار على نجاحه ،وثارت الفتن فى البلاد التى فتحها حتى جاء عمربن عبدالعزيز فكتب لملوك السند يدعوهم للاسلام على أن يظلوا فى مراكزهم فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء عربية وانتشر الاسلام فى ولاياتهم • وظل الأمر على ذلك حتى جاءت الدولة العباسية عام ١٣٢ / هـ ٧٤٩م فواصل خلفاؤها ارسال الولاة وتوسيع رقعة الفتح وقد فتحت كشمير فى عهد المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) ثم أخذ نفوذ العباسيين يتقلص عن الهند ، بضعف دولة الخلافة فى بغداد فاستقل بحكمها بعض الأمراء فقامت هناك امارتان اسلاميتان مستقلتان امارة فى الجنوب وعاصمتها المنصورة ،وأخرى فى الشمال وعاصمتها "ملتان" وقد أتيح لهما الاستقرار والازدهار وأصبحتا ملجأ للفارين من بطش الحكام فى بغداد ،وكان هذا النفوذ غالبا فى غرب الهند أوان شئنا التحديد قلنا فى أرض السند ،وهى المنطقة التى تكون باكستان الغربية اليوم •

وهكذا انحسرت الحملات الاسلامية من الغرب على أرض الهند مدة ، لكنها تجددت بقوة مرة أخرى فى عهد الدولة الغزنوية (١) على يد يمين الدولة "محمود الغزنوى" (٣٥٧ هـ ٩٦٣ م ـ ٤٢١ هـ ـ ١٠٣٠م) الذى اتخذ من مدينة "غزنة" فى أفغانستان الآن عاصمة له واتجه للجهاد فى سبيل الله على : أرض الهند التى تشيع فيها عبادة الأصنام ،وقاد أولى حملاته الناجحة اليها ـ

---

(١) مؤسسها ناصر الدين سبكتكين سنة ٣٦٦ هـ ٩٧٧ م وظل يحكم حتى توفى سنة ٣٨٧ هـ ٩٩٧ م

سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠١م ... وتابع حملاته وانتصاراته التى بلغت نحو عشرين حملة حتى ضم الى حكمه جزءا كبيرا من أرض الهند من الغرب والشمال والجنوب الغربى وقد هدم كثيرا من المعابد الوثنية وأقام المساجد بدلا منها ، وأعاد بفتوحاته وتوطيد الحكم الاسلامى فى هذه البلاد ذكرى الفتوحات الاسلامية العربية ثم جاء بعده ابنه مسعود الذى اغتاله أخوه سنة ٤٣٢ هـ ـ ١٠٤٠ م بعد أن سار سيرة أبيه فى الفتح والتوسع واحتضان العلماء ،ثم توالى ملوك ضعاف حتى انتهت الدولة الغزنوية سنة ٥٤٧ هـ ـ ١١٥٢م.

ثم جاءت الدولة الغورية (١) فسارت على خطتها فى فتح الهند لا سيما فى عهد شهاب الدين ٥٨٢ ـ ١١٨٦ م وأرسى دعائم الاستقرار للحكم الاسلامى فى الهند ولم يقل فى غيرته وشجاعته عن محمود الغزنوى (٢)، وتولى شئون الهند من بعده أحد قوادها من المماليك وهو "قطب الدين أيبك" ففتح دهلى سنة ٥٨٩ هـ ـ ١١٩٣ م وظل حاكما لها من قبل الدولة الغورية ،ثم استقل بحكم الهند سنة ٦٠٢ هـ ،سنة ١٢٠٥م واتخذ دهلى (٣) عاصمة له بعد أن أعتقه الملك الغورى وأنعم عليه بالمظلة الملوكية ، واليه ينسب الأثر الباقى حتى الآن .. منار "قطب منار" كما تنطق فى الهند ،واعتبر قطب الدين مؤسسا لدولة المماليك فى الهند التى كانت لها مواقف مشهودة فى صد غارات التتار عن الهند كما كان لاخوانهم المماليك فى مصر .

---

(١) مؤسسها علاء الدين الغورى فى منطقة غورستان ثم استولى على غزنة سنة ٥٤٧ هـ ـ ١١٥٢م .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩١ جـ ٤

(٣) أسسها أحد الملوك الهندوس على نهر جمنا سنة ٣٠٧ هـ ـ ٩١٨ م وظلت تحت حكم الهندوس حتى استولى عليها قطب الدين أيبك ،ولما جاء الانجليز حرفوها الى "دلهى"

ومنذ ذلك الوقت تتابع على حكم دهلى دول اسلامية واحدة بعد أخرى وهى على التوالى الدولة الخلجية ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م ثم الدولة التغلقية (٧٢١ هـ ١٣٢١ م) ثم هجم تيمور لنك على الهند عند ما ضعف الحكم الاسلامى بها ودخل دهلى باسم الجهاد فى سبيل الله وحماية المسلمين من تلاعب الكافرين بهم سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م ولكنه لم يلبث أن تركها فعاد لها سلطانها الفار ، ثم حكمت أسرة السادات سنة ٨١٧ هـ ١٤١٤ م وجاء بعدها أسرة لودى سنة ٨٥٥هـ ١٤٥١ م ثم جاءت الدولة التيمورية أوالمغولية التى أسسها "بابرشاه" من نسل "تيمور" أو "تيمور لنك" حسب[(١)] الشهرة ،وكان ذلك سنة ٩٣٢ هـ ١٥٢٦ م فكان عهدها أزهى عصور الحكم الاسلامى فى الهند ..

وقد بلغ الحكم الاسلامى للهند ذروة القوة والاتساع فى عهد أحد ملوكها الامبراطور "أورنجزيب" أو "عالمكير"[(٢)] (١٠٦٩ هـ ١٦٥٩ م الى ١١١٨ هـ ـ ١٧٠٧ م) الذى ضم الهند كلها تقريبا تحت سلطانه مالم يسبق له مثيل من قبل .

ثم أخذت الدولة الاسلامية من بعده تتهاوى من فوق القمة التى أقعدها فوقها هذا الملك ، حيث جاء بعده ملوك ضعاف ،لم يكونوا على مستواه أومايقاربه ، فبدأت رقعة الدولة تتفتت شيئا فشيئا ،ويستقل هنا أوهناك أمير بحكم ولايته ،وتتاح الفرصة لبعض الأمراء الهندوس والسيخ ليجمعوا الجيوش ويشنوا حربا على الدولة الاسلامية ،ويقتطعوا من جسمها الكبير ولايات لهم يحكمونها ، والملوك المسلمون يضعفون شيئا فشيئا ،وينحسر نفوذهم ،وينكمش سلطانهم حتى أصبحوا صورة لا نفوذ

---

(١) كلمة "لنك" معناها الأعرج ، وقد التصق هذا الوصف باسم تيمور واشتهر به وهذه الكاف تنطق نطق الجيم فى القاهرة .

(٢) معنى "أورنكزيب" زينة العرش : أورنك معناها عرش ،وزيب معناها زينة ،ومعنى عالمكير آخذ الدنيا وسيد العالم .

لها ولا سلطان ..

ومن خلال هذا التفتت وهذا الضعف أخذت الدول الغربية مثل البرتغال وانجلترا وفرنسا وهولاندا تتصارع فى بسط نفوذها على رقعة هذه الدولة الاسلامية بواسطة شركاتها التجارية .. وكانت هذه الشركات (١) قد بدأت عملها التجارى على أرض الهند ، ابان قوة الحكم الاسلامى فيها وازدهاره ، وكان الأباطرة فى أوج قوتهم لا يأبهون كثيرا لهؤلاء فهم لا يزيدون فى رأيهم عن أنهم تجار متنافسون ، يتلمسون الوسائل للتقرب من الأباطرة ، من أجل الحصول على مركز تجارى ممتاز يتيح لهم مكسبا تجاريا كبيرا من محصولات الهند ، ولكن كانت هذه الشركات تعمل ، ومن ورائها حكوماتها التى تسعى الى التوسع والاستعمار ، فلما أتتها الفرصة حين ضعف الحكم الاسلامى ، انطلقت كالذئاب المسعورة تتصارع على الفريسة الدسمة ، كل يريد أن يلتهمها وحده ، دون شريك .

انجلترا تنفرد بالفريسة :

وقد استطاعت شركة الهند الشرقية الانجليزية أن تحظى أخيرا بالمقام الأول فى الهند ، وتقضى على النفوذ البرتغالى والهولاندى والفرنسى ، ويخلو لها الجو وتبسط سلطانها عليها حتى وصل نفوذها الى القلب ، الى الامبراطور المسلم القابع على عرشه فى دهلى ، فشلت كل نفوذ له ، حتى تحكمت فى زواره وحركاته ، واستمالت كل من حوله من رجال حاشيته ، حتى زوجته ، فأصبح مجرد صورة لا روح فيها ولا نفوذ لها ..

(١) كان البرتغاليون أسبق الأمم طمعا فى الهند حيث وصل فاسكودى جاما بحملته الى كالكوت فى ملابار سنة ٩٠٥ هـ ١٤٩٩ وواصلت البرتغال تثبيت نفوذها على الساحل الغربى للهند والاستفادة من خيرات البلاد مما فتح عيون الدول الأخرى فتوالت على الهند حيث تأسست شركة الهند الشرقية الانجليزية سنة ١٠٠٩ هـ ـ ١٦٠٠ م ثم شركة الهند الهولاندية ١٠١١ هـ ـ ١٦٠٢ م ثم جاءت فرنسا متأخرة وأسست شركة الهند الفرنسية الشرقية ١٠٧٥ ـ ١٦٦٤ م وقد دخلت الهند كلها باسم التجارة ماعدا البرتغال التى هجمت على ملابار ولم تكن تحت حكم المسلمين فى ذلك الوقت (يراجع فصل تحرك الغرب نحو الهند ص ٣٣٢ من كتابى تاريخ الاسلام فى الهند) .

وكان المسلمون الغيارى يرقبون كل ذلك فى أسى وأسف ،ويحاولـــون أن يوقفوا سريان هذا السرطان الذى يسرى فى جسم الدولة ،ولكن دون جدوى ..

مما جعل شبح الخطر على ضياع الحكم الاسلامى نهائيا يزداد ،ويزداد بالتالى السخط والغيظ فى قلوب المسلمين الذين وضح أمام أعينهم صورة الاستعمـــار الشرير القادم من الغرب ليفتت بأنيابه كل معنويات البلاد وامكانياتها ، ويقضى علـى اعتزاز المسلمين بوجود حكم اسلامى ..

ولمعت عيون بالشرر ،وفاضت قلوب بالحقد ،وتوثبت نفوس للانتقـــام والدفاع عن الشرف والدين والحكم الاسلامى .. والامبراطور المغلوب على أمره وتلاقى ذلك كله ،ليصب فى مجرى واحد هو ..

الثورة ضد الانجليز :

فقامت ثورة جامحـــة سنة ١٢٧٤ هـ ـ ١٨٥٧م لانقاذ البلاد من هـــذا العار ، وتزعمها المسلمون ،وانضم اليهم بعض الهندوس الذين نكبهم الانجليز ،وشملت أكثر نواحى الهند ولكنها كانت أشد لهيبا فى العاصمة .. "دهلى" .. وكان مـــن الممكن أن ينجح الثوار وينقذوا الامبراطور المسلم "سراج الدين أبوظفرشاه" (١) ، وينقـذوا البلاد من شر الاستعمار لولا أنها جاءت متأخرة بعد ما سرى السرطان الانجليزى فـــى كل شىء ففشلت ،وتحمل المسلمون وحدهم نتائج هذا الفشل ،أمام العدو المنتصــر فمثل بهم شر تمثيل واستباح لنفسه كل شىء ،وعمل على اذلالهم بكل الطرق وطاردهم أينما وجدوا ،والقضاء على كل حيوية فيهم ،وقبضوا على الامبراطور المسلم الذى اتخـــذوه

(١) وهو سراج الدين أبوظفر بهادرشاه الذى تولى الحكم ١٢٥٣ هـ ـ ١٨٣٧ وعين له الانجليز راتبا سنويا يتقاضاه منهم وهم يتولون كل شىء فى حكم الدولة ، وقـــد وجهوا اليه انذارا بأنه آخر ملك يسكن القلعة (ص ٢١٣ ومابعدها المصدر السابق) .

الثوار زعيما رمزيا لهم ،وهدفوا من ثورتهم الى تثبيت عرشه وتمكين نفوذه وسلطانه كما قتلوا أولاده وقدموا رؤوسهم له على أطباق على مائدة طعامه زيادة في التنكيل به ،وحاكموه بتهمة تزعمه للثورة ، وحكموا عليه بالاعدام ،ثم خففوا هذا الحكم بنفيه الى "رانگون " عاصمة بورما ، ونفذ هذا النفى فى أكتوبر سنة ١٨٥٨م حيث رحل هو وأسرته وبعض أفراد حاشيته وأودعوا جميعا السجون .. حيث ظل يعانى آلام السجن حتى توفى فى سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٢م .

وفى أول نوفمبر سنة ١٨٥٨م أعلنت الملكة فكتوريا قرارا بنقل حكم الهند من الشركة الانجليزية الى يد الحكومة البريطانية ،وضمت الهند لمستعمرات التاج .. وقبضت على البلاد بيد من حديد .. وبدأ بذلك العهد الرسمى للاستعمار البريطانى للهند ، وتسلم العدو المنتصر حكم البلاد وقلبه يتقد بالحقد على المسلمين — أصحاب الحكم السابق والثائرين الذين أرادوا القضاء عليه — وانفرد بهم يفعل كل ما يمليه عليه حقده ،ويمكنه منه سلطانه ،وكما يقول نهرو " كانت الحكومة البريطانية قد تعمدت سحقهم وقمعهم الى درجة أكبر مما فعلت بالهندوس . (١)

وكان المسلمون هم أصحاب الحكم وأهل الثقافة والحضارة والمال والنفوذ فى طول البلاد وعرضها برغم ماانتاب حكمهم من ضعف فى أواخر حكمهم ولم يكن من الطبيعى أن يترك العدو المسلمين يتمتعون ولو بشئ مما كان لهم .

كانت المدارس مدارسهم والثقافة ثقافتهم فكان لابد له أن يقضى على ذلك كله ويميت كل أثر فيها للحكم الاسلامى السابق ليفتح الطريق لثقافته ونفوذه .

كان أمام الانجليز حقيقة لم يملكوا الا الجهر بها ووضع خططهم على ضوئها وقد عبر عن هذه الحقيقة حاكم الهند فى أيام الشركة وقبل أن تتسلمها الحكومة

---

(١) ص ٢٣٧ من كتابه " من السجن الى الرئاسة "

رسميا وان كانت من وراء كل ما حدث باسم الشركة وهو اللورد النبرو (١) سنة ١٢٥٩هـ ١٨٤٣م " أنه لايمكن الاغضاء عن حقيقة جلية وهي أن الأمة المسلمة معادية لنا بطبيعتها فالبرنامج الحقيقي عندنا أن نحتفي مرضاة الهنادك ".

فبدأت الحكومة الانجليزية بعد أن تولت مسئولية الحكم في الهند تنفيذ هذه السياسة في قوانين مدروسة وخطط مرسومة.

وكان الهدف منها تقليم أظافر المسلمين والقضاء على معنوياتهم، وقتل كل أمل يراودهم في استرداد أيامهم الماضية، وملاحقة كل مايتصورونه من شيء يؤدي الى هذا الأمل بكل الطرق، وكل الحيل ..

اتجهوا الى أضعاف المسلمين من الناحية الاقتصادية بمهارتهم في اختراع الحيل والأساليب فضاعفوا ديونهم، وساعدوا المرابين الهندوس على انتزاع أملاكهم، وسدوا في وجوههم كل الوظائف الكبيرة والصغيرة ، وكان المسلمون سابقا يفوزون بأكثرها ، يقول مستر هنتر : " ان المسلمين وان كانوا يملكون المؤهلات والكفاءة المطلوبة لوظيفة ولكنهم يحمون عن ذلك ببلاغ رسمي " من كتاب: "المسلمون في الهند ص ٩١ لأبي الحسن الندوي " ووضعوا العراقيل المادية في سبيل الذين يحترفون التجارة منهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

واتجهوا الى قتلهم والقضاء عليهم بالجهل وكانوا ـ حين دخل الانجليز الهند ـ أرقى السكان عقلا وعلما (٢) ، وسياسة وحكما كما قال مؤرخوهم أنفسهم ـ فحاربوا مدارسهم التي كانت منبع الثقافة والعلم في الهند يتعلم فيها المسلمون والهندوس معا ، ونزعوا الأوقاف الاسلامية التي كانت موقوفة على هذه المدارس

---

(١) المعروف ب (دوق ولنجتن) في تقرير له . كتاب تاريخ الاسلام في الهند ص ٤٠٦ نقلا عن كتاب : "Unhappy India" ص ٣٩٩

(٢) من كتاب "مسلمو الهند" لمستر هنترص ٢٣٧ ـ تاريخ الاسلام في الهند ص ٤٠٩

وعمدوا الى الأغنياء الذين كانت تدفعهم حميتهم لمساعدة هذه المدارس فأرهبوهم أو أغروهم بالبعد عن المساعدة حتى كفوا عنها .. فأغلق كثير من المدارس أبوابها (١).

وكانت هناك المدارس التى أنشأها الانجليز حسب نظامهم وبرامجهم ولكن المسلمين من قبل كانوا يحاربون هذه المدارس ويعملون على مقاطعتها ليحولوا بين الشباب المسلم وبين التربية فى هذه المدارس خوفا على عقليتهم وروحهم ودينهم فازدادوا بعد الاحتلال شدة فى هذه المقاطعة ، وكان منطقهم أنهم اذا كان قد ضاع منهم سلطانهم فليحافظوا على دينهم وروحهم بالبعد عن هذه المدارس . واتخذت هذه الخطة شعار الدين والوطنية معا وكانت أشبه مايكون بالتقوقع على ثقافتهم ودينهم وتقاليدهم خوفا على ذلك كله من الضياع بعد ما ضاع منهم سلطانهم — وتلاقت هذه النظرة الاسلامية مع أغراض الانجليز الخبيثة .

وكان هذا يجرى بينما كان الهندوس يقبلون على هذه المدارس التى أنشأها الانجليز منذ وطئت أقدامهم الهند ، فليست لدى الهندوس نظرة عداء للانجليز كتلك التى لدى المسلمين ، ثم ان لهم هدفا من التعليم وهو أن يعملوا فى الوظائف الصغيرة التى يوفرها لهم الانجليز ، وكان هؤلاء يلقون تشجيعا من الانجليز لأنهم — فى رأيهم وربما تكون الحقيقة أيضا — غير موالين قلبيا للحاكم المسلم فهم أضمن لتنفيذ سياستهم ومآربهم ، ولهذا كله احتضنوهم .. وعملوا على

---

(١) يقول المؤرخ الانجليزى "هنتر" *Hunter* فى كتاب : مسلمو الهند المترجم للأوردية ص ٣٥٥ " من الحقائق التى لا يمكن انكارها اننا لو لم نجانف الأمانة والتدين حين استولينا على الأوقاف الاسلامية لما حرم مسلمو الهند اليوم من معاهدهم العلمية وأنظمتهم المالية (تاريخ الاسلام فى الهند ص ٤١٠) .

زيادة الفرقة بينهم وبين المسلمين ليضمنوا ولاءهم .. واجزيدوا شحنة الحقد في نفوسهم ، فأصبح المسلمون تحت مطرقتين : مطرقة الانجليز ومطرقة الهندوس ومن ذلك كله تأخر المسلمون تأخرا واضحا في النواحي الثقافية والاقتصادية مما لانزال نلمح آثاره حتى اليوم .

لقد كانت الفترة التي مرت بالمسلمين بعد انهزامهم في ثورة سنة ١٨٥٧م وتمكن قبضة المستعمر من البلاد فترة يأس قاتل ، واضطهاد مرير يشبه تشبهه من بعض نواحيها الفترة التي مرت بالمصريين بعد فشل الثورة العرابية من اليأس والركود والاستسلام ..

لكن مع ذلك كانت هناك ومضات قليلة تلمع وسط ظلام اليأس ، ومضات كانت تنبعث من قلوب المجاهدين المسلمين الذين ظلوا متمسكين بروحهم النضالية ولم يعرف اليأس طريقا الى قلوبهم .

وكان هؤلاء يمثلون الشوكة في جنب المستعمر ، ويخيل له الخوف أنها أكبر وأقوى من حقيقتها ، ويخشى أن تزداد وتكبر وتحدث مضاعفات تقضي على حياته ومن أجل هذا كان يشتد في مطاردتهم .

كان هؤلاء يرفعون فكرة الجهاد في سبيل الله ضد العدو المغتصب .. وكانوا يجمعون حولهم بعض المخلصين الشجعان وربما لاذوا بأطراف البلاد ، أو التجئوا الى العمل السري .. وكان هذا كله يخيف المستعمرين الذين كانوا يرتعدون من فكرة الجهاد الذي أفتى بعض العلماء بوجوبه من قديم (١) ، ولذلك كان الانجليز يعملون

---

(١) يرجع أصل هذه الفتوى الى شاه عبد العزيز الدهلوي المتوفى ١٢٣٩هـ ١٨٢٣م ابن شاه ولي الله الدهلوي ، وقد أصدر فتواه في أن الهند بعد تسلط الشركة الانجليزية على السلطة الاسلامية أصبحت دار حرب وعلى المسلمين أن يهبوا للجهاد ضد الانجليز ولما قضى المستعمرون على الحكم الاسلامي نهائيا تحمس العلماء لاعلان هذه الفتوى والأخذ بها (تاريخ الاسلام في الهند ص ٤١٦ وكفاح المسلمين ص ١٢١

على أخذ فتاوى من علماء آخرين بأن الجهاد فى حالة عدم تكافؤ القوى غير واجب ، بل عبث وضيعة وضرر على المسلمين ..

وكان العلماء يمثلون فى هذه الفترة روح المقاومة الصلبة وان كان هناك بجانبهم بعض علماء عملاء للمستعمرين ، وهذا لا يخلو منه زمن من الأزمان ولا سيما فى مثل هذه الظروف .

لكن العلماء الذين يمثلون فكرة النضال والجهاد ضد المستعمر ظلوا يواصلون رسالتهم فى المحيط الذى يتأثر بهم بواسطة الفتاوى والتعليم والدروس والعظات ..

وبدأ هؤلاء ينشئون المدارس الدينية العربية كما يطلقون عليها فى الهند لتعمل على الحفاظ على الثقافة الاسلامية وأدواتها الأصيلة من علوم اللغة العربية .. والانجليز يتهيبون أن يغلقوها حتى لا ينقضوا عهودهم بعدم التدخل فى الأديان .. ولكنهم كانوا يراقبونها ويطاردونها بأساليبهم الخاصة حتى لا تشعل فكرة الجهاد ضدهم ، وكانت هذه المدارس تقوم على تبرعات المسلمين الخاصة ولا تقبل معونة من الحكومة ولا من الأغنياء المتصلين بها حتى تظل لها حريتها . وقد أعلن هؤلاء العلماء شعار مقاطعة الانجليز فى كل ثقافة أتوا بها ..

وتكونت على هذه الأسس مدرسة فكرية تزعمها علماء أكبر مدرسة وأقواها فى الهند وهى : مدرسة دار العلوم ديوبند[١] التى يسمونها "أزهر آسيا" وأصبح لعلمائها

---

(١) أسس هذه المدرسة علماء من الذين شاركوا فى ثورة سنة ١٨٥٧م ضد الانجليز ليواصلوا عن طريقها جهادهم السلمى وعلى رأس المؤسسين لها مولانا محمد قاسم المتوفى ١٢٩٨ هـ ١٨٧٩م ومولانا رشيد أحمد المتوفى ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥م وقد تأسست المدرسة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٧م فى بلدة "ديوبند" باسم "دار العلوم" وتقع شمال دلهى بنحو ١٠٠ كيلومتر .

نفوذ وسلطان على عقول المسلمين فى كل أنحاء الهند نظرا لمكانة مؤسسيها ومواقفهم فى الثورة ضد الانجليز واستمرارهم فى الثورة السلمية عن طريق هذه المدرسة .. ولما يحمله الشعب المسلم من روح عدائية ضد المستعمر الذى سلب ملكهم وبالغ فى اضطهادهم والتنكيل بهم ..

وسار ركب الحياة فى الهند ابان العهد الأول من الاحتلال ، والأغلبية العظمى من المسلمين تحجم عن التعاون مع المستعمر وتقاطع مدارسه وثقافته عاكفة على ثقافتها الاسلامية فرحة بها عاملة على تنميتها بالاكثار من انشاء المدارس بواسطة العلماء المتخرجين فى ديوبند على نمط الثقافة الأزهرية القديمة ، فى الوقت الذى كانت فيه الأكثرية الهندوسية تتعاون مع المحتل وتتعلم فى مدارسه وتقبل على الوظائف الصغيرة التى كان يمنحها اياها المحتل ..

ولم يكن فى استطاعة الأقلية الاسلامية أن توقف ركب الحياة التى يصنعها المحتل فى الهند ، فكانت النتيجة انزواء المسلمين عن الركب بينما سار فيه الهندوس دون قيود واستفادوا من الوضع الجديد فى كل نواحى الحياة بالقدر الذى يسمح به الانجليز الذى كانوا يعاملون الهندوس كالزوجة المدللة .

وقد هالت هذه الحالة نفرا من المسلمين لا ينظرون الى الانجليز وثقافتهم النظرة العدائية التى يحملها العلماء المجاهدون ومن سار على فكرتهم وتأثر بهم من المسلمين ، ورأوا أن النتيجة الطبيعية لنظرية العلماء هذه أن يتأخر المسلمون عن ركب الثقافة الحديثة بينما يتقدم غيرهم من الهندوس الذين أقبلوا على هذه الثقافة وأخذوا يشاركون شيئا فشيئا فى تسيير جهاز الحكم فى البلاد ، فوق أن استمرار النظرة العدائية بين المسلمين وأسياد البلاد الجدد سيؤدي الى حرمان المسلمين من المشاركة فى خيرات البلاد ووظائفها العامة ، وهذا من شأنه أن يلقى ظلالا كثيفة

على مستقبل المسلمين فى الهند ..

من أجل هذا قام هؤلاء النفر وعلى رأسهم (سير سيد أحمد خان (١)) بالدعوة لازالة الجفوة بين المسلمين والانجليز .. ولكن السيد أحمد خان كان متهما فى وطنيته لمساعدته الانجليز ابان الثورة ضدهم .. فوقف العلماء فى طريق دعوته ..

ولما وجد أنه ليس من السهل اقناع المسلمين بادخال أولادهم المدارس الحكومية عمل على انشاء مدرسة تحت اشرافه تسير على مناهج الحكومة فى مدينة "على كره (٢)" بعد تأسيس مدرسة ديوبند بنحو عشر سنوات . سميت "مدرسة عليكره الاسلامية" سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م ..

وكان من الطبيعى أن يساعده الانجليز فى فكرته لصلته بهم ، ويعاونوه بالمال والمدرسين مما كان سببا فى ازدياد معارضة العلماء لهذه المدرسة واعتبارها كالمدارس الحكومية ..

واشتد الخلاف بين أحمد خان وبين العلماء ، فازداد فى استعانتـــه بالانجليز ودفاعه عنهم وازداد الانجليز فى احتضانه ومساعدته مما كثف الشبه ضده وضد مدرسته وزاد الطين بلة انه أخذ يفسر القرآن ويفتى برأيه فى قضاياه ، فمكن ذلـــك العلماء من تشديد الحملة عليه واتهامه بالخروج عن الدين .

ثم كان من تصاريف الأقدار أن يصل السيد جمال الدين الأفغانى الى الهند سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٧٩ م ويستقر فى "حيدأباد" وهذه المناقشات والاتهامات تدور حول السيد أحمد خان ومدرسته وآرائه .. فحمل السيد جمال الدين عليه حملة عنيفة

---

(١) توفى سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٨ م ودفن داخل مبانى جامعة عليكره ، يراجع تاريخه فى ص ٤٢ ومابعدها من كتابى كفاح المسلمين فى تحرير الهند .

(٢) "كره" معناها فى اللغة الهندية : مدينة أوحصن . وقد سميت هـــذه المدينة باسم على أى : مدينة على .

متفقا مع العلماء فى رميه بالالحاد وافساد أولاد المسلمين ارضاء لسادته الانجليز واستمر فى هذه الحملة بواسطة مجلته (العروة الوثقى)(١) التى أصدرها من باريس

ولكن بالرغم من هذه العاصفة القوية التى وجهها العلماء لأحمد خان استمر فى سياسته ومدرسته بمساعدة مسلمين على مثل رأيه ومساعدة الانجليز .. حتى تطورت هذه المدرسة الى جامعة هى المعروفة الآن بجامعة عليكره التى تخرج فيها الكثير من أبناء المسلمين وشاركوا فى الحياة العامة فيما بعد وكان منهم كثيرون قادوا الحركة العلمية والسياسية الوطنية فى الهند ،برغم السمة العامة لجامعة عليكره والمتخرجين فيها وهى انحيازهم للسياسة الانجليزية ، واعتبار الجامعة وكرا لهذه السياسة ..

وقد استمر العداء بين هاتين المدرستين الفكريتين : مدرسة العلماء ومن ورائهم من أغلبية المسلمين الذين تحكمهم النزعة العدائية للمستعمر ،ومدرسة عليكرة الموالية له ،واقتسمت المسلمين ،كل مدرسة لها أنصارها وهدفها ،وظل هذا الخلاف الفكرى يلقى ظلاله على المسلمين الى وقت قريب وان كانت حدته قد أخذت تخف بمرور الزمن ..

ونترك المسلمين والاتجاهات الدينية الوطنية التى تتقاسمهم لنلقى نظرة على لون آخر من ألوان النشاط الذى شغلت به الهند ،أومعنى أصح عمل الانجليز على أن يشغلوها به ، فبعد نحو ربع قرن من ضم الهند لمستعمرات التاج ،كان قد ظهرت فى البلاد روح تململ من السلطة الانجليزية المستبدة بالحكم ،نتيجة

---

(١) يراجع ص ٥٢ من كتاب جمال الدين الأفغانى للدكتور محمود قاسم وص ٤٨ ومابعدها من كتابى كفاح المسلمين ..

لوجود شباب مثقف أتم تعليمه فى انجلترا وبهرته فيها الحرية التى ينعم بها الشعب البريطانى ، وعادوا لبلادهم وفى نفوسهم دائما مقارنة بين نوع الحكم الانجليزى فى الهند ونوعه فى انجلترا ، وتولد عن هذا روح سخط عامة بين الشباب عملت على تجميعهم وتأليفهم لبعض الجمعيات الاصلاحية الوطنية فى بومباى ومدراس وكلكتا ، وقيامهم ببعض المظاهرات للاحتجاج على تقييد حرية الصحافة الناشئة ، ووجد هذا كله صداه فى نفوس الشعب الذى يئن من وطأة الحكم الانجليزى وكان الانجليز قد هدأت ثائرتهم بعد مضى هذه المدة على الثورة وأحداثها ، ومكنوا قبضتهم من حكم البلاد ، فرأوا أن يلهوا الشعب بلعبة ينفس بها عن نفسه ، ويمتصون مابدر من مظاهر السخط بوساطتها ..

وتقدم أحد الانجليز المتقاعدين فى الهند "مستر ألن هيوم" بفكرة انشاء جمعية وطنية من أبناء الهند يحمل أعضاؤها مطالب الشعب ومظالمه الى الحكومة لبحثها ، واحتضن "اللورد دوفرين" نائب الملك فى الهند وقتذاك الفكرة وعمل على اخراجها الى حيز الوجود لتكون صمام أمن فى يد الحكومة ، وتكون جلساتها معرضا تتبين فيه الأفكار والتيارات ، والموالين لها والمتطرفين ، فكانت الجمعية الوطنية التى تطورت حتى صارت حزب المؤتمر الوطنى الذى قاد سياسة الهند نحو الاستقلال ، والذى حكم الهند بعد ذلك حتى الآن باعتباره أكبر وأقوى حزب فى البلاد .. وكان من الطبيعى وقد ولدت هذه الجمعية فى حجر الانجليز ورعايتهم أن تبدأ عملها باعلان الولاء التام للحكومة التى فعلت الكثير لخير الهند فى أول اجتماع لها فى بومباى سنة ١٨٨٥ م وما أسعد المستعمر بمثل هذه التصريحات أو القرارات التى تملئها جمعية وطنية من أبناء البلاد . (١)

---

(١) ص ٥١ ومابعدها من كتاب كفاح المسلمين .

وقد حرص الانجليز من بادىء الأمر أن تضم هذه الجمعية الوطنية ممثلين من المسلمين حتى تأخذ الصبغة العامة فى التعبير عن رأى البلاد ، فاشترك فيها بعض المسلمين ..

وبدأت الجمعية تمارس نشاطها ، وتحتضن بحكم تأليفها مطالب الشعب وتعمل على تحقيقها .

ومرور الزمن بدأت تقف من الحكومة مواقف لا ترضيها ، وتفقد لذلك بعض عطفها وتأييدها بينما يتكون لها رصيد على الجانب الآخر وهو الجانب الشعبى .. هذا الرصيد الذى أغراها بالمزيد من المواقف الوطنية لصالح الشعب .

وكان من الطبيعى أن يحس الانجليز كثيرا من الامتعاض نحو وليدهم الذى دللوه ، وبتوجسوا خيفة من اطراد نموه وازدياد رصيده وسط الشعب ، فأخذوا يعملون على عرقلة نموه ، ووضع الأشواك فى طريقه ..

وكانت الأقلية المسلمة الكبيرة قد طال العهد عليها وهى ترزح تحت عنت الانجليز وتعسفهم واثارة أحقاد الهندوس عليهم بشتى الوسائل ، من صحافة ومؤلفات يفترون فيها على الحكم الاسلامى ومواقفه من الهندوس ، ومناهج يدرسونها للطلبة فى المدارس . ، ربما قاسى منه المسلمون ألوانا شتى من الشدائد من أبناء وطنهم فوق الشدائد التى كانوا يعانونها من المستعمر نفسه ..

وهذه سياسة معروفة عن الانجليز فى أى بلد يستعمرونه وهى سياسة : فرق تسد " لم يحجموا عن اعلانها على لسان أحد رجالهم سيرجون ملكم الذى يقول : " ان بناء حكمنا لهذه البلاد الكبيرة " الهند " متوقف على أن نفرق بين جماعاتها الكبيرة القوية ، ثم نقسم كل جماعة منها الى فرق متعددة . (١)

---

(١) من كتاب التعليم فى عهد الشركة لميجرباسو ص ١٤٧ أنظر ص ٥٥ من كتاب كفاح المسلمين .

ونفذوا هذه السياسة التى عملت على تفتيت الشعب الهندى واثارة العداء الشديد بين الهندوس والمسلمين حتى ليقول "جون ميورد" عضو المجلس البريطاني لحاكم بنجاب "ان الخلاف بين الهندوكيين والمسلمين على العموم بدأ فى عهد بريطانيا . (١)

وانتهز الكثيرون من الهندوس المحنة التى يمر بها المسلمون وراحوا يدعون الى التخلص منهم باعتبارهم دخلاء غزاة فاتحين ..

وكان من الطبيعى أن تزيد هذه الأصوات المخاوف فى نفوس المسلمين وتدعوهم الى التكتل وفى الوقت الذى بلغت فيه المحنة بالمسلمين مداها مبدأ الانجليز يفكرون فى التوجه اليهم والتخفيف عنهم والتلويح لهم بالرغبة فى انصافهم ورفع الظلم عنهم والنظر فى مطالبهم لا حبا فى سواد عيونهم ولكن ليوجدوا قوة تقف أمام الجمعية الوطنية أوحزب المؤتمر الوطنى وتياره الشعبى . واعتمدوا فى ذلك على النواة التى فى أيديهم "جماعة عليكرة السياسية" التى كانت ترى فى ازدياد قوة المؤتمر الوطنى خطرا على كيانها وكيان المسلمين .. وأخذ أحمد خان ومؤيدوه وعلى رأسهم .. أغاخان فى تأليف جماعات اسلامية تحت شعار تحقيق مصالح المسلمين الى أن انتهى الأمر بهذه المدرسة السياسية الى تأليف "الرابطة الاسلامية" سنة ١٩٠٦ لترعى هذه المصالح وكان تأليفها أيضا بتشجيع من الانجليز كما كان الأمر فى بدء نشأة حزب المؤتمر الوطنى ..

ودخلت مدرسة العلماء طرفا ثالثا فى النزاع الذى قام بين المؤتمر الوطنى وبين جماعة عليكره .. وأعلن زعماء هذه المدرسة تأييدهم لحزب المؤتمر (٢)

---

(١) من كتاب التعليم فى عهد الشركة لميجها سو ص ٥٦ من كتاب كفاح المسلمين

(٢) أصدر هذه الفتاوى الشيخ عبد القادر الله هيانوى ووقع عليها كبار العلماء فى الهند وفى المدينة المنورة وبغداد وكان عنوان هذه الفتاوى "نصرة الأبرار" ص ٩٥ كتاب المسلمون فى الهند للسيد أبى الحسن الندوى نشر دار الفتح بدمشق .

وأصدروا فتاوى بعدم حرمة انتساب المسلمين اليه والعمل تحت لوائه ردا علـى فتاوى أخذتها جماعة عليكره من بعض العلماء بحرمة انتساب المسلمين للمؤتمر .. وكان موقف العلماء متمشيا مع سياستهم المعادية من جماعة عليكره، وليس هذا فقط بل لأن حزب المؤتمر احتضن المصالح الوطنية وبدأ الانجليز يحاربونه وهم دائمـا ضد الانجليز ومع كل من يحارب سياستهم ويحاربونه. (١)

وبدأ القرن العشرون ، وحزب المؤتمر الوطنى قد شب عن الطوق ونمـا ومكن جذوره فى الأوساط الشعبية بعد ما اتخذ بعض المواقف الشعبية التى تغضب الانجليز وترضى الشعب ، تمده مدرسة العلماء بعونها وتأييدها وينتسب لعضويته كثير من الوطنيين المسلمين باعتباره قوة تعبر عن أمانى الشعب ومطالبه.

والانجليز قد أداروا وجههم للمسلمين وأخذوا ينمون الأمل فى نفوسهـم ويغرونهم بالنشاط والعمل من أجل تحقيق مصالحهم ،ويحتضنون قيام رابطة اسلاميـة تنطق باسمهم ،وترعى مطالبهم ليضربوا بها نشاط حزب المؤتمر ويحيوا قوة ثانيـة تقف فى وجهه ،وتعرقل نشاطه ،وتغض من شأنه تحت شعار رعاية مصالح الأقليـة الكبيرة المسلمة التى طال اضطهادها ،وحمايتها من عسف الأكثرية وظلمها ..

وفى هذا الجو ولد مولانا أزاد وبدأ يفتح عينيه على الحياة ومـا يسودها من تيارات..

---

(١) أنظر صـ ٦٠ وما بعدها من كتاب كفاح المسلمين .

الفصل الأول

نسبه ، نشأته ، وثقافته

محيى الدين أحمد أو أبوالكلام أزاد :

محيى الدين أحمد اسم اختاره له والداه حين ولادته ، وظل ملازما له في صغره والأيام الأولى من شبابه حين كان كأى شاب يتعلم في كنف أسرته ويدور في فلكها لايخرج عن محيطها ، محيط الذين يعيشون حوله ، أويعيش وسطهم ..

حتى اذا خرج من هذا النطاق واتخذ لنفسه طريقا جديدا في حياته اختار لنفسه لقبا له معنى (أزاد) يعنى حر ثم عرف فيما بعد واشتهر باسم " أبوالكلام أزاد " وهو اسم ملأ الأسماع والقلوب في الهند وخارجها ، والكثير منا يذكرون هذا الاسم وربط لايعرفون عن صاحبه شيئا . مع أنه شخصية نادرة قل أن يجود الزمان بمثلها ، جمع بين الامامة والزعامة في الدين والعلم والأدب والامامة في السياسة .. حتى كان لقبه الذى يطلقه عليه غاندى والزعماء ورجال الفكر من المسلمين وغيرهم بل وعامة الشعب " الامام " فهو في حركة التجديد الدينى لايقل شأنا ولا أثرا في الهند عن جمال الدين ومحمد عبده في البلاد العربية ، ومن حيث السياسة لايقل شأنا عن غاندى بل يفوقه في ادارة الدفة السياسية لبلاده بحكمة ولباقة وفهم لمقتضيات الكفاح ، ونهرو يعتبر من تلامذته في السياسة ، وممن كانوا يتحسنون في مطلع شبابهم أن يروه ، ويجلسوا معه .. حتى اذا تولى رياسة الوزارة كان لايقطع برأى دون استشارته ..

فمن هو ذلك الرجل العظيم ؟

أسرته :

لم تكن أسرته أصلا أسرة هندية .. ولكنها أسرة وفدت على الهند من "هراة" من بلاد الأفغان أيام الامبراطور "بابر" المغولى الذى أسس الدولة المغولية أوالتيمورية فى الهند سنة ٩٣٢ هـ ١٥٢٦ ، واستقرت الأسرة فى مدينة (أكره" أولا ، ثم انتقلت الى دهلى .. وقد نبه شأنها ، وعمل بعض أفرادها فى مناصب كبيرة علمية وادارية .. وحظوا بالقرب من الأباطرة المغول أيام ازدهار دولتهم ، فكان أحد أجداده "مولانا منور الدين" يشغل وظيفة "ركن الدين" وهى وظيفة يشرف منها على التعليم فى الدولة ،وكان ذلك فى عهد الامبراطور العظيم "شاهجهان" الذى تولى الحكم سنة ١٠٣٧ هـ ـ ١٦٦٨ م .. وكانت أيامه هى العصر الذهبى فى دولة المغول .. وحين أخذ شأن هذه الدولة فى الاضمحلال بعد الامبراطور "أورنجزيب" أصبح كل شىء فيها بيد الانكليز تدريجيا حتى الامبراطور القابع فى قلعته "أبوظفر سراج الدين شاه" لم يعد يملك من أمره شيئا .

فى هذه الظروف توفى جد مولانا أزاد لأبيه ، وترك ابنه "خيرالدين" والد أزاد ـ صغيرا فكفله جده لأمه ورباه تربية دينية صوفية ولكن الجد لم يطق المقام فى دهلى وهو يرى أشلاء الدولة الاسلامية تتمزق ، والانجليز يتحكمون فى كل شىء فيها فاستقر رأيه على الهجرة منها بأسرته ومعه خيرالدين الى مكة ليقضى حياته بجوار البيت..

وبدأ رحلته من دهلى ، ومر بمدينة "بهوبال" فى وسط الهند ، وهو فى طريقه الى "بومباى" ليستقل الباخرة منها الى جدة ، ولكن أميرة "بهوبال" (١) سكندر جيهان بيكم" استوقفته وأبقته نحو سنتين ،ثم استأذنها فى مواصلة

---

(١) امارة اسلامية فى وسط الهند أسسها دوست محمد خان سنة ١٧١٧ حين استقل بها بعد وفاة أورنجزيب ،وقد توالت ذريته من الرجال والنساء على حكمها حتى أخذتها الحكومة الهندية سنة ١٩٤٧ بعد الاستقلال ،وكانت سكندر جيهان احدى أربع أميرات تولين الحكم فى هذه الامارة وكان عرف الأسرة يسمح بذلك وتولت الحكم بعد شاهجهان بيكم زوجة المؤلف الهندى المعروف صديق حسن خان ثم سلطان جهان بيكم ثم كان آخر الأسرة نواب حميد الله (مذكراتى الخاصة من نادى الهلال)

رحلته سنة ١٨٦٠م فأذن له ،ولكنه وهو فى بومباى قبل أن يستقل باخرته وافته منيته . وكان حفيده ابن بنته "مولانا خيرالدين" والد أزاد فى الخامسة والعشرين آنذاك فواصل رحلته مع الأسرة الى مكة .. حيث استقربها ،وبنى له دارا فيها .. وتزوج بنت أحد كبار علماء المدينة المعروفين وهو الشيخ محمد طاهر الوطرى ،وهنا تبدأ صفحة جديدة لمولانا خيرالدين والد مولانا أزاد (مترجم عن مذكراته "الهند تفوز بحريتها صـ ٢٢١")

فخير الدين حين وصل الى مكة يظهر أنه لم يكن معدما بل كان موسرا فبنى له دارا ،وتزوج بنت أحد العلماء الظاهرين ،ثم هو شاب قوى على علم ودين وخلق ،وفيه غيرة موروثة . وهنا يضطلع بمهمة جليلة كأن القدر قد اختاره لها ،مهمة كان لها أثرها الحى على أهل مكة . وعلى حجاج بيت الله ،اذ رأى عين زبيدة التى كانت تمد مكة بمياهها منذ أنشأتها السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسى "هارون الرشيد" قد تهدمت ،وجف ماؤها ،وتعطلت قنواتها . فهب لاصلاحها .. وأهاب بالمسلمين فى الهند والبلاد العربية وتركيا أن يساهموا بأموالهم فى هذا المشروع العظيم .. وجاءته التبرعات من كل مكان ، وجمع منها حوالى مليونى روبية استطاع بهما أن يجدد العين وقنواتها . ويجرى الماء الى مكة

---

(١) بهوبال امارة اسلامية فى وسط الهند أسسها دوس محمد خان سنة ١٧١٧ حين استقل بها بعد وفاة أورنجزيب ،وقد توالت ذريته من الرجال والنساء حكمها حتى أخذتها الحكومة الهندية سنة ١٩٤٧ بعد الاستقلال ،وكانت مكندرجيهان احدى أربع أميرات تولين الحكم فى هذه الامارة وكان عرف الأسرة يسمح بذلك وتولت الحكم بعدها شاهجهان بيكم زوجة المؤلف الهندى المعروف صديق حسن خان ثم سلطان جهان بيكم ثم كان آخر الأسرة نواب حميدالله .(مذكراتى الخاصة من زيارتى لبهوبال) .

وأهلها وقصادها ..

وكافأه السلطان عبدالحميد الثانى(١) على هذا العمل فمنحه أرفع الأوسمة تقديرا لجهوده .

وكان مولانا خيرالدين عالما جليلا صوفيا متعبدا ، له أتباع ومريدون فى الهند وغيرها .. وعاش بين ذلك كله وهو قرير العين مطمئن البال متنقلا بين مكة وبين الهند ، والبلاد العربية وتركيا .

لكن حادثا وقع له غير مجرى حياته ،فقد انكسرت ساقه وهو فى جدة ، وحاول علاجها بما تيسر له ، لكن العلاج لم يفلح ،فأشار عليه أصدقاؤه أن يسافر الى كلكتا ، حيث العلاج متوفر هناك فسافر .. وهناك ألح عليه أحباؤه أن يستقر ، فاستجاب لرغبتهم ، واستقر فى كلكتا بأسرته سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠م ..

وفى مكة وقبل أن يعود نهائيا للهند ولد له ولد سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨م سماه "محيى الدين أحمد " ولكنه لم يمكث طويلا ، فقد رحل به أبوه مع أمه الى كلكتا بعد سنتين من ولادته .. ومن الطبيعى أنه فى هذه السن كان قد بدأ يتعلم النطق العربى كوسطه الذى نبت فيه ، (وان كان ذلك لايترك آثارا واضحة فى لغته لو لم تتم هذه الباكورة كما حدث ، فمولانا أزاد أمه عربية من المدينة وبنت عالم فاضل ،ووالده هندى لكنه تعرب فقد مكث فى مكة نحو ثلاثين عاما وهى مدة كافية لمثله أن ينطلق لسانه انطلاقا عاديا باللغة العربية ،فوق أنه عالم جليل وصوفى متعبد ،وله شهرته وأثره الجليل فى مكة وفى الهند — ولكن القدر لم يمهل والدته بعد سفرها للهند طويلا حيث توفيت بعد ذلك بسنة ودفنت

(١) ولد سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م وتولى الخلافة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م وبسبب معارضته للاصلاحات الدستورية خلعته جمعية الاتحاد والترقى سنة ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م وسجن حتى توفى سنة ١٣٣٧هـ ١٩١٨م "الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٨٠ والتاريخ الاسلامى" للدكتور أحمد شلبى ص ٥٥٣ " .

بترابها وفى أحضان الوالد العالم الصوفى المجاهد تربى الصبى "محى الدين" الذى فقد أمه صغيرا . ونتركه يحكى فى مذكراته هذه الفترة من تاريخه (١) فيقول :

قدم أجدادى من "هراة" إلى الهند أيام الامبراطور "بابر" واستقروا أولا فى "أكره" ثم انتقلوا منها الى دهلى ، وكانت الأسرة فى عصر الامبراطور "أكبر" تولى من ١٥٥٦ ــ ١٦٠٥ م " أسرة علمية واشتهر منها مولانا "جمال الدين" كعالم تقى لكن الأسرة أخذت بعد ذلك تزداد ميلا الى الشئون الدنيوية ، فشغل عدد من أعضاء الأسرة الوظائف المدنية وعين "محمد هادى حسن" أحد أفرادها أيام الامبراطور "شاهجهان (تولى الحكم من سنة ١٦٢٨ ــ ١٦٥٧ م) حاكما على قلعة "أكره"

وكان منهم مولانا "منور الدين" آخر من شغل وظيفة " ركن الدين فى عهد الامبراطور "شاهجهان" أيضا ، وكان الغرض منها الاشراف على النشاط الحكومى فى قطاع العلوم والآداب وترقيتهما ، كما يدير شئون ادارة الأوقاف والمنح للعلماء والأساتذة المتقاعدين ، مما يمكن أن نعطيه الآن لقب وزير التعليم ، وتوفى جدى ، (أبو والدى) فى وقت كان لايزال فيه والدى " مولانا خير الدين " صغير السن فكفله جده لأمه ، وكان تقيا صالحا .. مما حمله على أن يضيق ذرعا بما آلت اليه أمور الحكم الاسلامى فى الهند (أيام الامبراطور أبوظفر سراج الدين شاه (١٨٣٧ ــ ١٨٥٧) آخر الأباطرة المسلمين ، فلم يطق المقام فيها ، وشد رحاله الى مكة

---

(١) نشرت الطبعة الأولى من هذه المذكرات باللغة الانجليزية فى دلهى تحت عنوان " INDIA WINS FREEDOM " بعد نشر فى يناير سنة ١٩٥٩ بعد وفاته وترجم بعضها للغة العربية ونشر فى مجلة ثقافة الهند التى تصدرها الحكومة الهندية باللغة العربية ، فى أعداد متفرقة بدأت بعدد سبتمبر ١٩٥٨ م وانتهت بعدد يوليو سنة ١٩٦٢ ، ويظهر أنه بدئ بترجمة هذه المذكرات ونشرها بالعربية وهى تعد للطبع .

المكرمة .. ولما بلغ مدينة "بهوبال " استوقفته واليتها " سكندر جيهان بيگم "ونشبت الثورة ضد الانجليز وهو فى "بهوبال " فلم يتمكن من مغادرتها حتى عامين ، ثم استأنف رحلته الى بومباى حيث فاجأته منيته فيها قبل أن يتم رحلته ."

" كان والدى حينذاك فى الخامسة والعشرين من عمره ، فذهب الى مكة واستقر هنالك وبنى لنفسه دارا ، واقترن بكريمة الشيخ محمد طاهر الوطرى .. وكان أحد العلماء الكبار فى المدينة المنورة ، وممن ذاع صيتهم خارج الجزيرة العربية " واشتهر والدى فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه عند مانشر فى مصر مؤلفا له باللغة العربية فى عشرة مجلدات .. وكان دائم السفر الى البلاد العربية مثل مصر وسوريا والعراق والى تركيا ، والى بومباى وكلكتا بالهند حتى أصبح له فى كلتا المدينتين ، عدد كبير من مريديه ومقدريه ، وكانت عين زبيدة منهما رئيسها للمياه التى يعيش عليها أهل مكة ، وقد حفرته السيدة زبيدة قرينة الخليفة هارون الرشيد (وكان ذلك سنة ١٨٦ هـ ٨٠٢ م — مروج الذهب ج ٤ ص ٣٩٧) لكنها أصبحت فى حالة سيئة مع الزمن ، وكادت مكة تفقد المياه اللازمة لسد الحاجة اليها فى موسم الحج ، وكان الحجاج يعانون لذلك متاعب جمة ، فقام والدى باصلاح "العين" وجمع لهذا الغرض مليونى روبية هندية من الهند ومصر وسوريا وتركيا ، وشيد العين وقنواتها تشييدا لم يجد الدهر بعد ذلك فرصة لتدميرها وكان الحصر عصر السلطان عبدالمجيد (١) امبراطور تركيا فقدر خدمات والدى ومنحه أعلى الأوسمة المجيدية .

"ولدت فى مكة المكرمة سنة ١٨٨٨ م وعاد والدى فى عام (٢) ١٨٩٠ م الى كلكتا

---

(١) صحتها السلطان عبدالحميد لأن السلطان عبدالمجيد الأول توفى سنة ١٨٦١ عند وصول والد ازاد لمكة تقريبا وتولى السلطان عبدالحميد الثانى الحكم سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م وخلع سنة ١٩٠٩ وقد رجعت الى الأصل الانجليزى ص ٢ ظنا أن هذا الخطأ من المترجم فوجدت الموجود بالأصل (عبدالمجيد) لا عبدالحميد وهو خطأ كما عرفت .

(٢) فى بعض المراجع الهندية الرسمية عن تاريخ أزاد أنه غادر مكة مع والده سنة ١٨٩٨ م كمجلة ثقافة الهند عدد مارس ويونيو الخاص عن حياة الفقيد ص ٣٩ ، ٤١ ومذكرات الفقيد أضبط وأصح وقد جاء ذلك بها فى الصفحة الثانية من الأصل الانجليزى .

مع جميع أسرته ،وكان الداعى الى عودته أنسقط مرة فى "جدة " فانكسرت ساقه ، ولم يجد من يرجعها الى استقامتها ، فأشار عليه أصدقاؤه بأن أطباء كلكتا يستطيعون علاجه .. فسافر للعلاج وكان عازما على الرجوع الى مكة بعد الانتهاء منه ،لكن أتباعه ومقدريه ألحوا عليه بالبقاء ،ولم يدعوه يعود الى مكة .. وتوفيت والدتى بعد قدومنا الى كلكتا بسنة ١٨٩١ ودفنت فى ترابها "أ هـ "

ولأمر اراده الله لهذا المولود الصغير ،وأراده للهند وللمسلمين فيها حدث ما حدث لوالده .. وتعلق به أتباعه ألا يرجع لمكة ، ولورجع وأقام وتربى الصغير فيها حتى كبر ،واستمر كما استمر الكثيرون وعاشوا فى مكة ولاسيما من المسلمين الهنود ،اذن لما كان لمولانا أزاد هذه الصفحات المشرقة التى نعرضها .. ولما كان لنا نحن هنا أن نتحدث عن هذا العبقرى المجاهد المصلح الدينى الذى ولد فى مكة ،وتربى فى الهند ، وجاهد من أجل دينه وتحرير بلاده حتى تحررت ودفن فى ترابها بعد أن رأى ثمرات عمله وجهاده .. قدر أراده الله ..

نشأتـه :

لقد كان من الطبيعى أن تكون نشأة مولانا أزاد وتربيته متسقة تماما مع الجو الذى كان يعيش فيه والده ، ووالده قد صحب جده لأمه فى هجرته من الهند الى مكة ،لأنه لم يستطع صبرا على أن يرى المستعمرين الانجليز يتحكمون من شئون البلد ،ويتصرفون فيها ،ويقضون على النفوذ الاسلامى بها ، فبدأ رحلته الى مكة .. ولم يكملها لأنه توفى فى بومباى ، وكان الوالد فى سن الخامسة والعشرين يعنى أنه كان متشبعا بفكرة جده ، والا لما شاركه هجرته ، ولبقى فى الهند يستقل بحياته فقد أصبح رجلا ، وعلى فرض أنه وقع تحت تأثير جده فسايره فى رحلته فقد كان من الممكن له لوكان غير مقتنع بفكرة الجد أن يلوى عنانه من بومباى بعد

وفاة الجد ، ويعود الى دهلى أوالى أى مكان آخر تطيب له الاقامة فيه بوطنه بين أقاربه ومعارفه أوفى "بهوبال " ، لكنه استمر فى الرحلة ، برغم مجابهة مسئوليات الأسرة لأول مرة فى حياته ، وفى بلد غير بلده ، فهو اذن مقتنع تماما بأن من الخير على الرجل المتمسك بدينه الغيور على الحكم الاسلامى ألا يبقى ليشهد مصرع ما يحب ، بيد مستعمر يخالفه فى دينه ، ويعمل على تقويض دعائم حكمه ، ويبث مدارسه فى كل مكان لزعزعة العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين ..

وحتى بعد أن قضى فى مكة زمنا ليس بالقصير ، نحو ثلث قرن تقريبا فانه لم يكن يحب أن يقيم فى الهند بعد أن تمكن النفوذ الانجليزى فيها ، وضمت نهائيا لمستعمرات التاج ، لولا أن أصحابه ومريديه ألحوا عليه ، وهو فى حالة مرض ، تكون العزيمة أثناءه غير مكتملة ، ويكون الميل للبقاء فى الوطن الأصلى بجانب الأصدقاء والمريدين أقرب الى نفس الانسان ..

فالوالد اذن كاره للانجليز ومدارسهم ونسق حياتهم ، لا مجرد كراهة عابرة بل كراهة نابعة من العقيدة .. ولو رجعنا الى موقف المسلمين الغيارى على دينهم فى هذه الفترة التى عاش فيها الوالد وتربى لرأينا أن بعضهم آثر ترك الهند كلها للاقامة فى بلد اسلامى يستطيع فيه أن يطمئن على عقيدته وعقيدة أبنائه ولا يغض بما يراه أويسمعه مما يسىء الى الاسلام والمسلمين .. ووالد مولانا أزاد .. كان من هؤلاء الذين آثروا ترك الهند بأجمعها لهذه الأسباب .

لكن ظروفه التى عرفنا أجبرته على العودة لوطنه والاقامة فيه ، فلا بد له — والحالة هذه — من الاستمرار فى فكرته والاستمساك برأيه — وهو رجل صوفى — والمحافظة محافظة تامة على ابنه بحيث لا يدفعه الى هذه المدارس الانجليزية بل لا يريد له أن يتعلم مطلقا — حتى ولو كان فى البيت — ما تعلمه هذه المدارس من

مواد مستحدثة .

ولم تكن الهند الاسلامية تعرف قبل وفود المستعمرين عليها ، من البرتغال وهولاندا وفرنسا وانجلترا ، الا مدارسها الاسلامية العربية .. التى يقوم التعليم فيها على دراسة اللغة العربية واللغة الفارسية والمواد الدينية والفلسفة الاسلامية ومايضاف الى ذلك من حساب وجبر وفلك ومنطق وطب عربى أويونانى ،كما يسمى أحيانا .. وكان الهندوس أنفسهم يضطرون للتعلم فى هذه المدارس أحيانا لأنها مدارس الدولة ، أوالمدارس التى تحتضنها وتقرها حتى يكون لهم شأن فى وظائف الحكومة وبالرغم مما أصاب هذه المدارس على يد الاستعمار الا أن بعضها ظل يؤدى رسالته محاطا بتأييد الشعب المسلم .

فكان من الطبيعى أن يتجه الوالد فى تعليم ابنه المنهج الذى تسير عليه هذه المدارس الاسلامية العربية ، ويظهر أن الوالد كان حريصا الحرص كله على حسن تربية ابنه وتعليمه ، كما كان على جانب من الثراء يمكنه من أن يفى بهذا الحرص أويستجيب له .. فلم يرسل ابنه كبقية أبناء الآخرين الى المدارس الدينية بل أخذ يعلمه هو نفسه ثم استقدم له فى بيته العلماء المتخصصين ليتولوا تعليمه تحت رعايته وتوجيهه ومع مشاركة منه أيضا .. وكانت تبدو عليه منذ نعومة أظفاره علامات الذكاء والنبوغ ، مما جعله يقبل على ما يتعلمه ، ويفهم فهمه وينتهى من دراسته فى وقت مبكر عن أقرانه .. وهو فى السادسة عشرة من عمره أى حوالى سنة ١٩٠٤م ، ويسر الوالد بما وصل اليه الابن ، وهو يريد أن يراه من العلماء الذين حصلوا ما يحتاج الى تحصيله عادة كل عالم ،لكنه مع ذلك يريد أن يرى ابنه يقصد مقاعد العلماء ويدرس ما تعلمه للطلاب فعمل على أن يجمع له بعض الطلاب فى بيته ليدرس لهم وقام الابن الشاب العالم بالتدريس ، وقررت

عين الوالد واستراح ..

يقول مولانا أزاد في مذكراته (١) :

وكان والدى من المؤمنين بالتقاليد القديمة ولم يقل قط بالتعليم العربي فلم يخطر بباله أن يدربنى تدريبا حديثا أويعلمنى على نمط جديد ، فقد كان يعتقد أن التعليم الجديد سيقضى على العقيدة الدينية ومن أجل هذا اهتم بتعليمى وفق الطرق التقليدية المعهودة ..

وكان منهاج التعليم القديم السائد بين مسلمى الهند أن يتعلم الأطفال أولا اللغة العربية والفارسية وعقب حصولهم على العلم ما بهاتين اللغتين يتعلمون الفلسفة والحساب والفلك والجبر ، وكل هذه العلوم باللغة العربية ، وكان لهم بجانب ذلك منهاج لدراسة الدين الاسلامى يعتبر جزءا أساسيا لهذا التعليم واعتنى والدى بتعليمى فى داره ولم يرأن يرسلنى الى أية مدرسة ، بالرغم من أنه كانت هناك "مدرسة كلكتا العربية الاسلامية" لكن والدى لم يطمئن اليها اطمئنانا تاما ، وعلمنى بنفسه فى بداية الأمر ثم عين لى عدة مدرسين لتدريس العلوم المختلفة وحرص دائما على أن أتلقى كل فن من أستاذه المتخصص.

وكان من المعتاد أن يتخرج الطلبة فى العلوم المتداولة طبقا لمنهاج التعليم القديم وأعمارهم تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ سنة وهذا يشمل الفترة التى كان المتخرج يتولى التدريس فيها لبعض الطلاب ليتأكد أويتأكد أساتذته من حذقه ومهارته فى العلوم التى تلقاها .. أما أنا فقد كنت فى سن السادسة عشرة من عمرى حين انتهيت من دراساتى وجمع والدى نحو ١٥ طالبا علمتهم الفلسفة والمنطق والحساب للدرجة العالية ..

وكان تخرج أزاد وهو فى هذه السن أولى علامات الذكاء الفطرى الذى كان له أثره فى حياته كلها .

---

(١) ص ٢ ، ٣ من الأصل الانجليزى ، وعدد سبتمبر ١٩٥٨ من مجلة ثقافة الهند ص ٢٤ ، ٢٥ .

مرحلة جديدة ، أومعركة بين القديم والحديث

الى هنا كان مولانا آزاد قد أعد ليكون أحد المشايخ الذين تعلموا ليتولوا أمر الاسلام والمسلمين فيما يتصل بارشادهم أوالصلاة بهم ،وكان من الممكن أن يكون مدرسا للدين فى احدى المدارس الدينية .. ويستمر على الدرب الطويل الذى سلكه كثير من أمثاله قبله ، وسلكه الكثير كذلك بعده ،يقنعون بما تعلموا من علوم ،ثم يعيشون متقوقعين داخلها ، ينفقون ما تعلموه ولا يزيدون عليه ، متعصبين له ، معتقدين أنه الخير — كل الخير — لكل من تسلح بسلاح العلم الاسلامى العربى ليكون جنديا مدافعا عن دينه وتراثه ضد ألاعيب الأفاعى المستعمرين .. وكان من الممكن أن يمضى كما مضى ويمضى المئات بل الآلاف من أشباهه.

لكن الشاب لم يكن من هذا الطراز الذى يقنعه ما تعلمه ، ويدعوه للتعصب له ،بل كانت له عقلية تتطلع الى ماوراء ذلك — ويظهر أن حالة والده المالية يسرت له العيش دون أن يضطر لأجر التدريس فى احدى المدارس الدينية عند تخرجه ، أوالعمل اماما فى أحد المساجد مما يضطره للمحافظة والتعصب لما تعلمه واتخاذه وسيلة للعيش ولومجاراة لعامة المسلمين الذين يعدون هذه المدارس والمساجد ومن يعمل فيها بالاعانات .. مما يقضى على كثير من العقليات المتطلعة ويلزمها بأن تعيش فى دائرة أفكار العامة ومعتقداتها وتقاليدها حفاظا على لقمة العيش

وهكذا يسر الله له الانعتاق من هذا القيد والانفكاك من هذه الحاجة فانطلق فى حياته على سجيته .. وأخذ يتطلع الى مجال أوسع فى العلوم والمعرفة شأنه فى ذلك شأن كل شاب متفتح الذهن لايقنع بما وصل اليه من معرفة فى دراسته التقليدية .

لماذا لقب بـ "أزاد" وكنى بـ (أبى الكلام)

وهنا نجد مولانا أزاد يتجه الى الاطلاع على ماليهد رسه ولم يتعلمه من قبل يقرأ لأحمد خان ويتأثر بفكرته ودعوته العلمية لا دعوته السياسية ،ويلتهم كل مايجده من كتب لم يكن قد اطلع عليها ،ويتعلم اللغة الانجليزية التى تكره المدارس الدينية تعلمها ولكن بجهده الخاص ، مع ارشاد بعض الأساتذة ،ويبذل فى فى ذلك جهدا تدفعه اليه رغبته الشديدة فى التعلم أويقرأ الانجيل باللغات الانجليزية والفارسية والأوردية ليعينه ذلك على مزيد من معرفة اللغة الانجليزية كما بدأ يقرأ الصحف الانجليزية وبجانبه القاموس يستعين به على معرفة مالم يعرفه .. وهكذا سار فى هذا الطريق بجهده الخاص حتى أتقن الانجليزية وبدأ منها ومن قراءاته الأخرى بالأوردية والفارسية يطل على معالم ومعارف جديدة ولا سيما فى التاريخ والفلسفة الحديثة .. لم يكن يعرفها من قبل .

ولكن ماذا ننتظر لشاب مثل "أزاد" تكونت عقليته وأفكاره فى ظل مدرسة دينيـــة تقليدية تشبه الى حد كبير جدا الأفكار أوالعقلية المحدودة التى كانت تسود الأزهر قبل الشيخ عبده وفى أيامه بل أشد ، ثم خرج منها الى رحـــاب أوسع ؟

ان ذلك قد أدى الى صراع نفسى أومعركة بين القديم الموروث والجديد الذى اطلع عليه، فقد اصطدمت عقليته القديمة بما أخذ يطلع عليه من المعارف والعلوم الجديدة وما انفتح له من نوافذ أضاءت له كثيرا من جوانب عقله ،وأطـــل منها على كثير مما كان يجهله شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أمثاله الذين عرفناهم من تاريخ حياتهم .. فدارت معركة فى نفسه بين القديم والحديث ،بين الحسن

المتنازع عليه ، أين هو ؟ مع هؤلاء أم هؤلاء ؟ هل يؤثر القديم الذى تعلمه فيقف عنده ؟ أويخطو نحو الحديث ويحسب ممكنه ؟ .. مع أنه لا يخلو من معلومات قد تناقض ماعرفه من قبل أوعلى الأقل تتغلب عليها ، وتجذب النفس اليها ، هل يستطيع أن يجمع بينهما ، أو يتخلى عن القديم منها ؟

وكانت أياما فاصلة فى حياته ، كان يقف فيها حائرا على مفترق الطرق بين القديم الموروث وبين الحديث الجذاب ، هل يخرج على تقاليد الأسرة نهائيا ويمشى مع التيار الحديث ؟ وقد كان ذلك يعد فى هذا الوقت سبة وعارا ولاسيما عند الأسر المحافظة حتى كانت الأسر يعير بعضها بعضا بالولد غيرا وتعلم على النمط الحديث ويمشى فى تيار أحمد خان ومدرسته ؟

ولكن الشهاب نفسه ثورة .. وأزاد كان من طراز خاص من هذا الشباب كان ذكيا ، وله عقلية متفتحة منذ صغره ، فهل يستكين ويرسو على المرفأ القديم ويستريح من تعنيف الأسرة ، وما يسببه لها من لوم وتأنيب وما يجره هو على نفسه من متاعب ؟

لم يكن أزاد ممن يؤثر هذا الركون أوالركود .. فخرج من عراكه النفسى الى قرار اتخذه ، هو أن يتحرر من القديم الموروث ، ومن كل تأثير له عليه ، ثم يبدأ فيدرس على ضوء عقله وفكره ومعلوماته الجديدة ليصل بدراسته وفكره وعقله الى مايراه الحق ، مما كان سببا فى سوء العلاقة بينه وبين أبيه ، فأقصاه عنه ولكن ذلك لم يؤثر على عزمه ، فاستمر فى طريقه الجديد متنقلا بين كلكتا وبومباى متصلا بمن يختاره ويميل اليه من العلماء وأهل الرأى (نزهة الخواطر جـ ٨)

وهنا رأى أن يختار لنفسه رمزا أولقبا جديدا على عادة أهل الهند ، بحيث يعبر هذا اللقب عن حالته النفسية ، وعن الخطة التى وضعها لنفسه وهى

خطة التحرر .. فاختار لقب "أزاد" ومعنى أزاد الحر .. وأخذ يكتب ويتحدث تحت هذا اللقب الجديد حتى اشتهر به .. وأضيفت له كنية أخرى هي "أبوالكلام" فاشتهر باسم "أبوالكلام أزاد"

وقد حاولت العثور على سبب لهذه الكنية (أبوالكلام) كما عرفنا سبب لقب "أزاد" فلم أعثر على قول قاطع ، ورجعت الى بعض علماء الهند المعاصرين والى بعض ما كتب بهذا الصدد .. فلم أجد جوابا شافيا .

واكثر ما سمعته أوقرأته يميل الى أن هذه الكنية ترجع الى شهرته المبكرة في الخطابة والكتابة وامتلاكه زمام البلاغة في اللغة الأوردية بصورة جديدة أنيقة .. وهذا هو الذي أميل اليه ، ومن الرسائل التي جاءتني رسالة من أحد علماء الهند "الأستاذ محمد الرابع الندوى" ردا على استفسارى منه عن سبب هذه الكنية يقول فيها "أما كنية مولانا أبي الكلام فاني ما وجدت الى الآن شيئا يومىء الى مبدئها وسببها لا في كتاب ولا في جواب من احدى الشخصيات التي سألتها ممن عاصروا مولانا وعرفوه عن كثب ، وما كان جوابه الا أن قال ، ان هذه التكنية موغلة في القدم وما عرفت مولانا الا مكنى بهذه الكنية ولعله كنى بها نفسه منذ أوائل حياته الثقافية على طريقة شقيقه الذي كان يتكنى بكنية مماثلة ،واذا صح هذا فاني أظن أن تكنية مولانا نفسه بأبي الكلام تعبير منه لرغبته في أن يكون بارعا في البيان والكلام وقد تحققت رغبته كما دلت عليه ترجمة حياته "أ هـ" . وترى من هذا أن مثقفي الهند المسلمين الذين عاصروه يميلون الى أنه هو الذي اختار هذه الكنية كما اختار "أزاد" ، وعلى كل حال فقد اختفى اسمه الأصلي تقريبا "محيي الدين أحمد" واشتهر مولانا "أبوالكلام أزاد" على ألسنة الناس في كل مكان وفي الرسميات وفي كل ما يكتبه أويكتب عنه ،وان كان هو قد حرص أحيانا على أن يكتب اسمه الأصلي في مراسلاته فكان يكتب أحيانا "أحمد الدهلوى"

كما كان يكتب "أبوالكلام الدهلوى " وهو بهذا الاختيار لم يخرج عن الأوضاع السائدة في الهند حيث لايلتزمون بما يلتزم به في الشرق العربي من الانتساب الى اللقب العام المشهور للأسرة .. بل ينتسبون الى بلدهم أوالمدرسة التى تعلموا فيها أو أستاذ مشهور تلقوا عنه العلم (١)

ولم تكن الآفاق الجديدة التى اطلع عليها هى وحدها التى صنعت الحيرة والشك فى نفسه .. بل كان هناك مع ذلك شيء آخر .. أثر فى نفسه ، وهو ماكانت تثيره الاختلافات المذهبية من معارك بين علماء المسلمين ، والخلافات الدينية بينهم وبين أهل الديانات الأخرى ..

فالاختلاف بين علماء المسلمين هناك يقوم حتى على الأمور الشكلية البسيطة ويتزايد حتى يحتد فيما بينهم .. وهذه ظاهرة لمستها خلال اقامتى فى الهند .. وربما كان لها شبيه عندنا فى حدتها ولكن من زمن مضى .. حيث كانت تدور المعارك العنيفة بين المنتسبين للمذاهب الفقهية لمجرد التعصب لها .. وصل الخلاف بين الجماعات الاسلامية هناك الى أن يكفر بعضهم بعضا ، ويفتى أحدهم بعدم جواز التناكح مع البعض الآخر منهما اياه بأنه مشرك (٢)

---

(١) فمثلا شاه ولى الله الدهلوى اسمه أحمد بن عبدالرحيم ، وقد اشتهر بغير اسمه الأصلى كما نرى وقد ولد بدهلى فى ١٤ شوال سنة ١١١٤ هـ ـ ١٧٠٤م وتوفى ١١٧٦ هـ ـ ١٧٦٢ م وهو من كبار المجددين فى العالم الاسلامى وأشهر كتبه عندنا "حجة الله البالغة" ، ومثل عبدالحليم السيالكوتى (نسبة الى بلدة سيالكوت فى شمال الهند)وقد توفى سنة ١٠٦٧ هـ الذى نعرفه عندنا بمؤلفاته فى علم الكلام . ومثل أبوالحسن الندوى العالم المعاصر المعروف نسبة الى دارالعلوم ندوة العلماء ، وأكثرالذين تخرجوا فى هذه المدرسة يلقبون أنفسهم بالندوى وهكذا .

(٢) قرأت فتوى فى ذلك فى مجلة "سنى "التى تصدرها جماعة اسلامية فى مدينة "لكنو" وذلك بتاريخ رجب ١٣٧٦ هـ ـ فبراير ١٩٥٧ م وتحت يدى هذه المجلة ، والفتوى صادرة ضد المتخرجين فى مدرسة دارالعلوم ـ ديوبند " ومن على طريقتهم من المسلمين وسبب اتهامهم بالشرك ما تعتقده الجماعة الأخرى فيهم من أنهم يتبعون المذهب الوهابى !!

و ولو كان مجرد خلاف فى الرأى لكان من الممكن الترحيب به ،ولكنه يتعدى الرأى أحيانا الى ماوراءه من التصرفات ..

واذا تركنا هذا جانبا ووسعنا الدائرة قليلا لتشمل المسلمين وغير المسلمين نجد الخلافات بينهم فيما يتصل بأمور الدين تأخذ ذروتها ،فلا يمكن أن يكون هناك تلاق بين من يعبدون الله كالمسلمين وبين الذين يتقربون فى معابدهم الى أصنام وتماثيل ويقدسون البقر كالهندوس ..

وبعد أن جاء الغرب بثقافته ومدارسه دخل عنصر جديد هو عنصر المسيحية التى احتضنها الاستعمار الغربى ،وبشرها ،وكسب ملايين من الهنود ضمهم اليها .

والمبشرون فى هذا الحقل الجديد ومن ورائهم قوة الاستعمار يبذلون كل نشاط ،ويثيرون كل شبهة ،ويتحاملون على الاسلام ، وعلماء الاسلام لا يسكتون .. وتقوم بينهم المناظرات السرية فى تياراتها بين الناس ،أو العلنية حيث تعقد المجالس لها ..

كل هذا تفتح عليه عقل مولانا أزاد : المسلمون فيما بينهم يختلفون على أمور دينهم ،والمسلمون بينهم وبين أهل الأديان الأخرى خلافات ومناظرات .. فأثار الحيرة فى نفسه ،وحمله على أن يعقد العزم على التخلص من آثار الموروث ، والنظر من جديد فى كل ما يقرؤه أو يسمعه ليصل الى الحقيقة بنفسه .

والوصول الى الحقيقة ليس أمرا سهلا ، ليس سلعة يمكن أن تحصل عليها بسهولة من السوق ،ولكنه يقتضى دراسة ومعاناة ، والدخول فى معارك نفسية عقلية ،قد لا يخرج الانسان منها سليما .. ويقتضى وقتا لذلك كله حتى يصل الى قرار وتصفية ، هذا ان أمكنه الوصول .. ومن هنا كانت السنون التى ظل فيها أزاد واقفا فى مفترق الطرق لا يدرى أين يتجه ، حتى امتدت اليه عناية الله فأنقذته من هذه الحيرة

لكنه لم يرجع الى مرفئه القديم الذى قضى فيه شبابه الأول ، بل اتخذ لنفسه مرفأ ، وأعد فيه منارة جديدة .. يطلق منها أنوارا جديدة ، ذات شعاع اسلامى خاص يمتاز بتحطيم القيود التى كبلته ، والحل لدينه ودنياه معا، فى ظل الحرية الفكرية بعيدا عن العوائق والتقاليد الموروثة . ومن هذا المنطلق أطل على المسلمين فلم يعجبه مايدور بينهم ، ولا أسلوب تفكيرهم وحياتهم ، فبدأ يدعو الى أن يتجمع الناس حول منارته ليسيروا فى ضوء شعاعها ، ومن هنا بدأ مسيرة حياته الطويلة الحافلة بالأعمال والجهاد فى سبيل دينه ووطنه ، ليكون له تاريخ مع تاريخ وطنه أوتاريخ يؤثر على تاريخ وطنه .

وما أورده مولانا "أزاد" عن هذه الفترة من حياته يؤيد ماذهبنا اليه يقول : "لم يمض كثير من الزمن حتى اهتديت الى مطالعة بعض مقالات سير سيد أحمد خان وتأثرت بها تأثرا بالغا ، وأدركت أنه ليس لأحد أن يصبح عالما بمعناه الحقيقى فى العالم الحاضر ، الا اذا درس الفلسفة والعلوم والآداب الحديثة فعزمت على دراسة اللغة الانجليزية ، وتحدثت فى هذا الشأن الى المولوى "محمد يوسف جعفرى" الذى كان اذ ذاك رئيس الممتحنين للدراسات الشرقية ، فعلمنى الحروف الهجائية وأعطانى الكتاب الأول لدراسة الانجليزية ، وبمجرد أن تعلمت قليلا منها أخذت فى قراءة الانجيل المقدس ، وأرواء لغلتى الأدبية هذه حصلت على تراجمه الأوردية والفارسية والانجليزية وقرأتها قراءة مقارنة (وكانت لغته الأصلية الأوردية وتعلم من صغره الفارسية) وساعدتنى هذه الطريقة على فهم نصوصه الى حد كبير وشرعت كذلك فى قراءة الصحف الانجليزية بمساعدة قاموس انجليزى ، وكان هذا خير طريق ، اذ سرعان ماحصلت على معرفة أهلتنى لقراءة الكتب الانجليزية ، فعكفت "بوجه خاص" على دراسة التاريخ والفلسفة .[1]

---

(١) ص ٢٥ من مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر ١٩٥٨ ، ص ٣ من كتابه بالانجليزية "..."

بهذه الألفاظ الصريحة يعبر "أزاد" من خلجات نفسه فى هذه الفترة الشائكة من حياته ، وماكان يزدحم به عقله من تيارات وأفكار كثيرا ماتكون لدى الشباب فى هذه الفترة من حياتهم ، وبعض هؤلاء الشاكين القلقين قد يجرفهم تيار الشك الى مداه الطويل ، فيظلون بعيدين عن موارد دينهم وبعضهم من يرجع لأنهم برغم شكهم كانوا ذوى صلة ولو خفية بدينهم نتيجة تربيتهم الأولى .. فيستقرون بعد ذلك على ما تهديه اليه عقولهم ودراساتهم ، ويعودون بذلك الى دينهم ولكن بعقلية متجددة تكون أقوى على التعبير عنه وخدمته أكثر مما كانوا من قبل .. اذ أنهم يكونون قد حصنوا ايمانهم بالأدلة وبالنظر فى غيره من الأديان الأخرى ، وبما اطلعوا عليه من علوم وفنون تزيد صلتهم بالله توثقا ، وتعطيهم مزيدا من وسائل الاقناع ، وتقربهم كثيرا من حوادث الحياة والتيارات السائدة فيها والعقليات التى تزخر بها ..

ويذكر بعض المؤرخين من الهند[1] أن اتجاه أزاد الى التحرر الفكرى بعد تخرجه جعله " يخالف أباه المحافظ على القديم فى بعض المسائل فغضب عليه وأقصاه فشمر عن ساق الجد فى الطلب والتحصيل على أساتذة من كلكتا وبومباى ولما حصلت له الملكة الراسخة فى اللغة العربية أقبل على مطالعة الكتب وجد واجتهد .. الخ " يعنى بهذه الكتب مالم يكن قد قرأه من قبل .. ولاشك أن هذا الاصطدام الفكرى بين الأب المحافظ والابن المتحرر أمر طبيعى لكن الذى يلفت النظر هو اصرار الشاب على السير فى طريقه الذى اختاره بعناد واصرار وشدة اقبال بعد أن أقصاه والده ، فلم يفت ذلك فى عضده ، كما يحصل لكثير من الشباب ، وهذا

---

(١) مولانا عبدالحى اللكنوى فى كتابه نزهة الخواطر الجزء الثامن وقد أرسل الأستاذ "محمد الرابع " من لكنو بترجمة عن أزاد قبل أن يطبع الكتاب فى دائرة المعارف العثمانية حيدرأباد كتب بعضها المرحوم مولانا عبدالحى وتوفى فكملها ولده مولانا أبوالحسن الندوى العالم الهندى المعاصر .

وكانت الفترة لى فترة أزمة عقلية كبيرة فقد ولدت فى أسرة متمسكـــة بالتقاليد الدينية الى آخر حد ، والتقاليد المألوفة للحياة كانت متبولة لدى أسرتى دون أن ينحرف أحد أعضائها عن العوائد الموروثة أى انحراف ، على أننى لم استطع الانسجام مع العادات والمعتقدات السائدة .. وكان قلبى — على العكس — مفعما بفكرة ثورية ضد هذه التقاليد ، ولم تعد الأفكار الموروثة أو التربية الأولى تقنعـــنى بها ، وشعرت بحافز قوى يدفعنى الى البحث عن الحقيقة ، وأصبحت مدفوعا بهـــذا الحافز الى تخطى الدائرة العائلية بحثا عن طريق خاص لنفسى وأول ما أثار قلقـــى كانت تلك الخلافات السائدة بين مختلف طوائف المسلمين ، ولاسيما مظهر هـــذه الخلافات اذ بقيت عاجزا عن ادراك الأسباب الدافعة الى مثل هذه الاختلافـــات الشديدة موضوعا ، حينما زعموا جميعهم بأنهم يستلهمون ويستوحون من منبع واحد .

كما لم أستطع الانسجام مع الايمان الراسخ الذى تعتمد عليه كل طائفـــة فى تخطئة غيرها وتكفيرها فلم ألبث أن أثارت هذه الاختلافات الجارية بين الفـــرق المتعددة القديمة شكوكا فى عقلى بالنسبة الى الدين نفسه ، فان الدين اذا كان عبارة عن الحق العالى فمابال هذه الاختلافات والمنازعات التى تستفحل بين أتبـــاع الديانات المختلفة ؟ ولماذا تزعم كل ديانة بأنها هى المنبع الوحيد للحق والصدق ؟ ولماذا تكذب الديانات الأخرى ؟

وما زلت لثلاث سنوات مضطربا حائرا أرتاد حلا وافيا لشكوكى ، حتى بلغـــت مرحلة انحلت فيها جميع عرى القيود التى كبلتنى بها الأسرة فى تربيتى الأولـــى التقليدية ، وألفيت نفسى حرا من جميع هذه العوائق ، فصممت على أن أرسم لنفسى طريقا خاصا ، وكان هذا سببا فى أن اتخذت لنفسى حول هذه الفترة لقـــب "أزاد" أى الحر ، رمزا الى أننى لم أعد مقيدا بالمعتقدات الموروثة فى نظرتـــى للأمور .

يعطينا صورة جانبية أويكون عندنا فكرة عما كان عليه من عزم واصرار واستقلال فكري منذ صدر شبابه (جاء في نزهة الخواطر ج ٨ " مما لا شك فيه أنه كان من نوابغ الوجدان ونوادر العصر فطنة وذكاء ، وحدة ذهن ، وتوقد فكر وثقة بالنفس واعتداد ابها واعتزازا بكرامته ، وتمسكا برأيه وعقيدته ، وثباتا على المبدأ وإباء للضيم وترفعا عن خسائس الأمور " ، وقد حدث ذلك كله وهو مابين السادسة عشرة والعشرين من عمره فقد كان ميلاده سنة ١٨٨٨ واستكمل دراسته سنة ١٩٠٤ ثم قام برحلته للخارج سنة ١٩٠٨ حيث كان عمره عشرين عاما .

وقد عنيت بإثبات هذه التواريخ لغاية مهمة هي :

أولا : أن ندرك مدى النضج والتفتح المبكر في عقلية أزاد حيث لم يقتنع بالقديم الذي تعلمه بل فتح لنفسه ما عرفناه من الآفاق الجديدة في ميدان الثقافة والمعرفة وتخلص من عوامل الشك والحيرة وهو لما يبلغ العشرين من عمره

ثانيا : والسبب الثاني أن هذه التواريخ ترتبط بأحداث مرت ببلاد "الهند" ورحلته الى البلاد العربية وغيرها ، مما كان له أثره في حياته .

تقسيم البنغال :

ومن أبرز هذه الأحداث تقسيم "البنغال " الى قسمين : قسم هندوسي أغلب سكانه من الهندوس وقسم اسلامي أغلب سكانه من المسلمين ، وذلك سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م وقد أحدث هذا التقسيم رجة كبيرة في الهند في الأوساط الاسلامية والأوساط الهندوسية .. فقد اعتبره المسلمون انصافا لهم وتحقيقا لأمل من آمالهم . (١)

---

(١) يقول سليم الله خان نواب "داكا" المسلم وأحد وجهائها "لقد منحنا التقسيم فرصة عظيمة لكي نتحرك ، وأيقظ في قلوبنا خفقات قومية جديدة سكتت دقاتها خلال تعاقب الفصول في البنغال "أنظر ص ٦٢ من كتابي "كفاح المسلمين في تحرير الهند" ص ٤٣ من كتاب باكستان في ماضيها وحاضرها .

بينما اعتبرها الهندوس هضما لحقوقهم ،ومقدمة لضياع نفوذهم وسلطانهم على جزء من أرض الهند حين يجلو الانجليز عنها باقامة دولة للمسلمين عليها .(١)

وظل الأمر محتدما بين الأطراف المعنية كلها نحو ست سنوات حيث خضع الانجليز فى نهاية الأمر لمطالب حزب الهندوس وألغوا قرار التقسيم السابق هذه ١٣٣١ هـ ـ ١٩١١م فكانت خيبة أمل عنيفة للمسلمين ،وصدمة شديدة لكل ما رتبوه على التقسيم من آمال بينما كان نصرا للهندوس .. أو لحزب المؤتمر ..سيان ..

ومن هذا يتضح لنا أن الفترة ما بين سنة ١٩٠٥ ،سنة ١٩١١ م كانت فترة اضطرابات عنيفة من أجل تقسيم البنغال ، وفى هذه الفترة نفسها بدأ أزاد يفتح عقله للآفاق الجديدة ويتأثر بالأحداث الجارية حوله وهى فترة الشك والقلق فى نفسه ، فكان لا بد أن تجذبه اليها بأحداثها وهذا هو الذى كان ..

ولكنا نلاحظ أنه عند ما بدأ يشتغل بالسياسة والجهاد من أجل الوطن .. لم يتجه الى الزعماء المسلمين الذين كانوا فى هذه الفترة يمثلون وجهة النظر الاسلامية فى الترحيب بتقسيم البنغال والذين أسسوا أيضا الرابطة الاسلامية لترعى حقوق المسلمين عامة فى جميع أنحاء الهند عن طريق ارضاء الانجليز ومصالحهم وكان من هؤلاء الزعماء أغا خان وسليم الله خان وغيرهم من المسلمين البارزين .

بل اتجه الى الثوار الهندوس ، وبذل محاولات لاقناعهم بقبوله فى صفوفهم

---

(١) وقد أفصحت جريدة "ستيتسمان" الهندوسية الناطقة بلسان المصالح الهندوسية أن المقصود به هو تهيئة قوة اسلامية فى شرق البنغال ،يرجى أن تكبح جماح تلك القوة المتزايدة فى زمرة المتعلمين البرهميين " أنظر ص ٦٣ من كتابى السابق وص ١٠٢ من كتاب محمد على جناح للعقاد .

ويقول الدكتور أمبيدكر Ambedcar كان تقسيم البنغال محاولة لخلق دولة مسلمة فى مساحة تماثل مساحة اقليم شرق البنغال الجديد وأسام ولقد كانت هذه المساحة باستثناء بعض أجزاء أسام ـ تستوطنها أغلبية مسلمة كبيرة "كتاب قيام باكستان ص ٩٨ "

غير أنهم كانوا في ذلك الوقت ينظرون الى المسلمين نظرة عدائية ،ويرون في احتضان الاستعمار لرغبتهم في تقسيم المستقبل ما يبعث على الشك فيهم .. وفي مولانا أزاد بالتالي .. فلم يرحبوا به في بادئ الأمر .. ولكنه أصر على اقناعهم بضرورة دخوله في صفوفهم حتى اقتنعوا به أخيرا ..

فما السر اذن في هذا الاتجاه الذي يمكن أن يعتبر صادمة لآمال المسلمين التي ينتظر أن تشغل مثل هذا الشباب وتغريه بالدفاع عنها ؟

الواقع أن هذا التصرف من أزاد يدل على حكمة وحنكة وتمسك بمثل وقيم قد تبدو لشاب مثله أكبر من سنه ، ولكنها طبيعية مع الممتازين الموهوبين من أمثاله .

فأزاد قد تشرب من صغره كراهة الانجليز المستعمرين ، والهندوس متكتلين في حزب المؤتمر الوطني" متمردون على الانجليز ، ثائرون عليهم من أجل التقسيم ،بينما كثير من الزعماء المسلمين مسالمون للانجليز ، ساعون لارضائهم أملا في تحقيق المزيد من طلباتهم وشتان بين الموقفين لدى شاب مثل أزاد ، فانضم للهندوس ، وقد كان في حزب المؤتمر كثير من المسلمين البارزين الذين كانوا يهاجمون التقسيم بعنف وعلى رأسهم في ذلك الوقت" محمد على جناح" الذي غير وجهته السياسية بعد ذلك فصار زعيم التقسيم وقيام باكستان وأزاد الشاب كان يرى أن الكفاح لتحرير الوطن من المحتلين أمر مفروض على المواطنين جميعا والمسلمون في مقدمتهم باعتبارهم أمة الاسلام الذي يفرض الجهاد عليهم في مثل هذه الظروف ، ولا بد أن المستعمر سيرحل في يوم من الأيام ولا يليق بالمسلمين أن يسجلوا في تاريخهم قعودهم عن المشاركة في اخراج المستعمر ، فيسجلوا بذلك عليهم عار الأبد .

ثم ان العداء بين القوتين ـ الهندوسية والاسلامية ـ يستفيد منه المستعمر الذي أعلن التقسيم تنفيذا لسياسته "فرق تسد " ومن مصلحة الوطن أن تجتمع القوتان

وقد ترك التقسيم وما جره من أحداث ومناقشات شكوكا عميقة فى نفوس الزعماء الهندوس نحو المسلمين ، ومن الضرورى العمل على ازالة هذه الشكوك أو الحد منها حتى تتلاقى القوتان .

فمن أجل الولاء للوطن وتحريره ، ومن أجل ولائه لاخوانه المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم خطا أزاد خطوته هذه نحو الهندوس بايمان وتحمس ، وتأثر بجهاد بعض زعمائهم متحملا فى سبيل ذلك ما يمضى كثير من الشباب أنفسهم فيه ومن تحمل تبعاته ، ما نراه ماثلا فى مذكراته عن هذه الفترة من حياته حيث يقول :

(وكانت هذه الفترة كذلك هى نفس الفترة التى أخذت فيها أفكارى السياسية فى التغيير ، وكان " اللورد كيرزن " اذ ذاك حاكما عاما على الهند ، وأحدثت نزعاته السياسية والاجراءات الادارية التى اتخذها اضطرابا سياسيا فى الهند ، وكانت الاضطرابات التى حدثت فى ولاية البنغال صورة كبيرة لهذا الاضطراب فان "اللورد كيرزن " خص هذه الولاية باهتمامه ، نظرا لأنها كانت منطقة أكثر تقدما سياسيا من المناطق الأخرى الهندية ، ولقد لعب الهندوس فى الوعى السياسى الهندى دورا رئيسيا فقرر اللورد كيرزن سنة ١٩٠٥ تقسيم الولاية ، مطمئنا الى أن تقسيمها سيضعف من شأن الهندوس ، ويخلق الانقسام الدائم بين سكان الولاية "المسلمين والهندوس " .

بيد أن ولاية بنغال لم تتجاهل هذه السياسة ، وانفجرت فيها ثورة سياسية مع حماس غير مسبوق ، وغادر "شرى أرابند غوش " مدينة " برودا " (١) الى مدينة "كلكتا " ليجعلها مركزا لنشاطه ، وأصبحت جريدته "كريم يوجيه " رمزا لليقظة والثورة الوطنية .

---

(١) فى وسط الهند - الى كلكتا فى الشرق

وتعرفت خلال هذه الفترة على "شرى شيام سندر شكرورتى" وكان أحد أركان الثورة البارزين وقابلت بواسطته الثوار الآخرين ، وأتذكر اجتماعى مع "شرى أرابندغوش" مرتين أو ثلاث مرات " .

وأريد أن أقف هنا قليلا لنتأمل سويا موقف هذا الشهاب الذى لم يبلغ العشرين والذى تدفعه ثورته الداخلية ضد المستعمرين على أن يعرض نفسه على الثوار من الهندوس ، ويحرص الشاب فى هذه السن على أن يجتمع بالزعماء البارزين منهم بالرغم من حدة الخلاف بينهم وبين المسلمين مما يعرضه لسوء ظن هؤلاء بـه وهو بعد شاب لم يكمل العقد الثانى من عمره " أعتقد أن هذا الموقف أو هذه الصورة مع ما سبقها تستحق أن نسجلها بعناية ونقف عندها لندرك تماما مدى الثقة بالنفس ومدى النضج المبكر لهذا الشهاب .. ذلك الذى يؤتاه السائرون على دروب العظمة الى ميدان التاريخ الواسع ..

ويواصل مولانا أزاد الحديث عن ظروف انضمامه للثوار ، وعن نظرة الهندوس السيئة للمسلمين فى ذلك الوقت وعن الجهد الذى بذله لاقناعهم بقبوله ، ثم لاقناعهم بأن نظرتهم للمسلمين فيها خطأ كبير ، ربما ساعدت عليه بعض الظروف المحيطة التى صنعها المستعمرون .. ثم عما اتخذه بعد ذلك مع بعض الشباب المسلم من محاولات لضمه اليه وما بذله مع الزعماء ، لتوسيع نطاق الثورة خارج حدود البنغال ، وعن نجاحه فى هذه المحاولات كلها .. فيقول :

(وكانت الطوائف الثائرة قاطبة – فى هذه الأيام – من الطبقة المتوسطة الهندوسية ، وكانوا جميعا من الذين يسيئون الظن بالمسلمين ، ويرون أن الحكومة البريطانية تستغلهم لتضرب بهم الكفاح السياسى ، وأنهم يلعبون فى ذلك دورا تختاره لهم لهم الحكومة البريطانية)

" وبعد ما تم التقسيم وأصبحت ولاية البنغال الشرقية خاصة بالمسلمين ،وبعد ما صرح "بام فيلدفلر" (Pam Field Fuller) نائب الحاكم بأن الحكومة تنظر الى الطائفة المسلمة نظرتها الى الزوجة المحببة ازدادت ثورة الهندوس وقوى سوء ظنهم بالمسلمين ، واعتقدوا أنهم عرقلة فى سبيل الحرية للهند وأنه لا مناص من ازاحتهم عن الطريق كالعراقيل الأخرى ، وكان للثوار عامل آخر يبرر مقتهم للمسلمين ، وهو أن الوعى السياسى بين الهندوس فى البنغال قد بلغ الى حد أن شعرت الحكومة بأنه من العسير أن تعتمد اعتمادا كليا على موظف هندوسى فى قمع النشاط الثورى ،فاستوردت من الولايات المتحدة (أوتربرادش) أوالولاية الشمالية عددا من الموظفين المسلمين ،لاستخدامهم فى المخابرات السرية للبوليس، وأسفرت هذه العملية عن شعور هندوس البنغال بأن المسلمين ضد الحرية السياسية وضد الطائفة الهندوسية ،

وبعد ما عرفنى " شيام سندر شكروتى " بالثوار الآخرين ،واطلع اصدقاء،على أنى راغب فى الانضمام اليهم استولت عليهم الدهشة والحيرة .. وكادوا يثقون بى فى بداية الأمر ،وحاولوا ابعادى عن مجالسهم الداخلية ،على أنهم أدركوا على مرالزمن أنهم كانوا على خطأ ،وظفرت أخيرا بثقتهم ،وأخذت أبرهن لهم على أنهم مخطئون فى مزاعمهم نحو المسلمين ،فهم ليسوا من حيث الجماعة أعداء لهم ،وقلت لهم : أنه لا ينبغى أن يطبقوا على جموع المسلمين ما جربوه من بعض الموظفين منهم ،فالمسلمون بطبيعتهم ضد الاستعمار ، طلاب حرية وعزة واستقلال .. وهؤلاء هم المسلمون فى مصر وايران وتركيا يقومون بنشاط ثورى لنيل الحرية والديموقراطية ولا شك أن مسلمى الهند سيقبلون على الكفاح السياسى معنا ، والثورة ضد الانجليز ،اذا نحن وسعنا النشاط بينهم وحاولنا التفاهم معهم واستمالتهم وصادقتهم وأوضحت لهم كذلك

أن اتخاذهم موقفا عدائيا من المسلمين أو عدم الاكتراث بهم ـ على الأقل ـ سيزيد الكفاح فى سبيل الحرية السياسية صعوبة ، فلا مناص ـ اذن ـ من بذل الجهود الصادقة لايجاد الثقة بينهم وبين المسلمين مبل وصادقتهم ليكونوا عونا على كسب الحرية والاستقلال) .

ولم ـ أتمكن ـ أولا ـ من اقناع أصدقائى الثوار بصحة ما أقول ، لكن بعضهم اقتنعوا بوجهة نظرى فيما بعد ، وبدأت ـ أثناء ذلك ـ نشاطى بين المسلمين لأبرهن لهم على صدق ما أقول ، ووجدت فيهم طائفة من الشباب مستعدة لاحتمال مسئولية العمل السياسى الثورى .." أهـ . ~~وحرصت على أن أنقل هذا هنا لأ~~

حرصت على أن أنقل هذا هنا لأنه صورة من التفكير ، والمنطق المتزن ، والنظرة البعيدة للأمور من أزاد الشاب تستدعى الاعجاب حقا .

وقد أصبح الشاب الصغير بذلك وعلى مستوى جهده محورا للعمل الثورى مع الهندوس ومع المسلمين معا ، وأخذ يعمل على التقريب بين القوى التى كانت تبدو شبه متنافرة وغير واثقة من بعضها البعض ..

واذا كان هناك بين المسلمين من كان يعمل فى هذه الفترة ضد الانجليز مقتنعا بفكرة الجهاد فى الاسلام ، وكان الانجليز يعانون من هؤلاء الكثير ويذيقونهم الكثير أيضا فلقد كان هؤلاء المسلمون يعملون فى سرية واستقلال عن القوى الأخرى التى تعادى الانجليز لعدم ثقتهم فى غيرهم من الهندوس ..

ولكن الضرورة ـ ضرورة المصلحة الوطنية للجميع ـ كانت تقتضى التقاء القوى المعادية للاستعمار ، حتى تكون قوتها حسب حسابها .. الا أنه كان يحول دون هذا اللقاء فقدان الثقة بينهما ..

وكان من الضرورى كذلك أن تلتقى الطلائع الشابة من الهندوس والمسلمين معا

على خط الثورة ضد المستعمر باعتبار هذه الطلائع قوة المستقبل وقادته وحملة المسئولية فيه .

وكان مولانا أزاد باتصاله المبكر بالثوار الهندوس ومحاولته اقناعهم بجدوى اللقاء بينهم وبين المسلمين ، وبث الثقة فى نفوسهم نحو العناصر المسلمة ، وظهور بوادر نجاحه فى هذا المسعى ، أقول : كان مولانا أزاد فى ذلك يقوم بدور هام يشبه الوصلة الكهربائية بين قوتين متباعدتين فتحدث بينهما من الاتصال ما يضاعف قواهما ، ويزيد من حركتهما .. وذلك أمر بالغ الأهمية ، وله أثاره البعيدة فى تاريخ الحركة التحريرية الهندية فيما بعد .. لابد من تسجيله لمولانا أزاد فى سنه المبكرة بالاعجاب والتقدير .

وهناك أمر آخر بالغ الأهمية كذلك يمكن أن نعتبره من طبيعة الشباب وما يضفونه على الجو الذى يعملون فيه من حركة واقدام وحيوية ومغامرة .

ذلك أن مولانا أزاد وجد الثوار الهندوس يعملون فى دائرة ضيقة فى شرق الهند فى ولايتى البنغال وبيهار .. وقد كان وجود الانجليز فى هاتين الولايتين مبكرا قبل وجودهم فى الولايات الوسطى والغربية .. مما أتاح لأبنائهما تقدما فى التعليم الحديث الذى أدخله الانجليز ، كما أتاح لهم السفر الى انجلترا الاطلاع المبكر على الحياة الغربية وما يتمتع به الانجليز فى بلادهم من حرية ورفاهية .. الأمر الذى أغرى المتعلمين الهندوس بالتطلع الى حياة مماثلة ، وحملهم على المطالبة بتوفير هذه الحياة لهم فى بلادهم .. وكان ذلك هو السر فى ظهور الحركة الثورية فى هذه المنطقة من الهند قبل غيرها ..

والهند قارة كبيرة ، ولم يكن من السهل فى ذلك الوقت كما هو الآن أن تتلاقى الأفكار فيها سريعا ، وأن يتم تبادل وجهات النظر بين المعنيين بقضية الهند فى شرق البلاد وغربها ، ولاسيما اذا أخذنا فى اعتبارنا عين الاستعمار المفتوحة

التى ترصد كل حركة ، وتتابعها بالكبت والقمع ..

ولكن ليس من صلحة الحركة الثورية فى أى بلد من البلاد أن تظل محصورة .. بل ان من طبيعتها أن تمتد ، ومن طبيعتها كذلك أن تسرى فيها روح الاقدام .. أو ما يمكن أن نسميه بالمجازفة فتلك طبيعة الأعمال الثورية ..

ومع ذلك لا يمكن أن تأخذ أية حركة ثورية هذا الطابع الا اذا دخلها عنصر الشباب وغذاها بفورته وحماسته واندفاعه ..

وهذه الحركة الثورية التى قادها الهندوس لا بد أن يكون فيها شباب فالهـا ولكنا مع ذلك نجد لانضمام مولانا أزاد تأثيرا على الجماعة ، هو تأثير الشباب وروح الاندفاع والمخاطرة فيه ، اذ أنه عرض عليهم أن يوسعوا حركتهم فلا يجعلوها قاصرة على المنطقة الشرقية ، بل يجعلوا لها فروعا فى أجزاء الهند الأخرى .. ولم يكن ذلك خافيا على هؤلاء ، لكنهم كانوا يتخوفون من اتساع الحركة أن تمتد عيون المستعمر الى القائمين بهـا المنظمين لها .. فكانت السرية والتحفظ طابع أعمالهم .. لكن يظهر أن الشاب المسلم الجديد الذى انضم اليهم بعد اقتناعهم به نزع من نفوسهم شيئا من الخوف ، وجعلهم يوافقون على رأيه فى انشاء فروع لجماعتهم فى بلاد أخرى فى الهند .. ولعله بذلك أراد أيضا أن يقدم برهانا لهم — كمسلم — على اخلاصه وتفانيه فى عمله معهم .. ولعله استعان فى رأيه هذا ببعض الشبان فى هذه الجماعة الذين وجدوا معه فى هـذه المغامرة ما يرضى نزعتهم وطموحهم .. فتم له ولهم ما أرادوا وقامت فروع لهذه الجماعة الثورية فى بعض المدن الهامة فى الهند الشمالية وفى بومباى بعد أن كانت تقتصر فى نشاطها على شرق الهند .. ذلك أثر من آثار أزاد بعد انضمامه للجماعة يتحدث عنه فى مذكراته (١) فيقول :

" وجدت الثوار أول ما انضممت اليهم أن نشاطهم لا يعدو ولا يتى البنغـال

---

(١) فى محكمة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٨

وبهار التى كانت فى ذلك الوقت جزءا من البنغال فأشرت على أصدقائى أن يوسعوا دائرة نشاطهم فتمتد الى المناطق الأخرى من الهند ، فاعتذروا عن ذلك فى بادىء الأمر محتجين بأن أعمالهم كانت فى طبيعتها سرية فلا يخلو الأمر من المخاطرة لو امتدت الى المناطق الأخرى الا أننى استطعت أخيرا اقناعهم ، وفى خلال عامين من انضمامى أنشئت الجمعيات السرية فى عدة مدن هامة فى الهند الشمالية وفى بومباى ".

رحلته الى خارج الهند :

كانت البلاد الاسلامية : تركيا والبلاد العربية تتطلع اليها دائما أنظار المسلمين فى الهند ولاسيما تركيا دولة الخلافة التى كانوا يرونها محط آمالهم ورجائهم ، كما يرون فى سلطانها ، الخليفة الذى تجب طاعته وحمايته .. ولم يكونوا فى الهند يحسون ما يصدر عن دولة الخلافة من ظلم واهانات فى تركيا نفسها وفى البلاد العربية ، ولذلك كان حبهم لها وتعلقهم بها أكثر من حب العرب لها ..

ولذلك كان البعض منهم يحرص على الارتحال الى هذه البلاد الاسلامية ليتعرف أحوالها عن قرب ويقف على ما يجرى فيها من تيارات .. وهذا هو ما جعل أبا الكلام الشاب يقوم برحلته اليها من كلكتا فى سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨م وهو فى سن العشرين ، ولم يقم أزاد بهذه الرحلة وهو فى هذه السن للترفيه كما جرت عادة أمثاله بل قام بها ليستزيد من معارفه عن الحركات الدينية والوطنية فى هذه البلاد ، ويقف على تطوراتها وأساليبها ، ويتعرف بشخصيات زعمائها ، بعد أن عرف عنها شيئا قبل هذه الرحلة مما ذكره الهندوس كدليل على أن المسلمين بطبيعة دينهم يطلبون العزة ويقاومون الاستبداد والاستعمار "كما رأى كمن سمعا"

وكانت هذه البلاد تموج بتيارات دينية اصلاحية وتيارات وطنية ضد

المستعمرين وضد استبداد الحكام فى تركيا التى كانت تسيطر فى ذلك الوقت علـى البلاد العربية كلها ما عدا مصر التى كانت تحت الاستعمار الانجليزى ٠

وكانت صيحة جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ هـ ١٨٣٩ م ــ ١٣١٤ هـ ١٨٩٧) قد أخذت تؤتى ثمارها ويستيقظ عليها الشرق ، وقد ارتكزت على الديـن ودعوته للنهوض والتحرر من الاستعمار والاستبداد ٠٠ وحملها بعد وفاته تلامذتـه وفى مقدمتهم الامام الشيخ محمد عبده (١٢٦١ هـ ١٨٤٥م ــ ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥م) الذى كان له بدوره تلامذة واصلوا السير على منهجه فى دعوته الاصلاحية ،وكان أبـرز هؤلاء فى مقام الدعوة والتربية السيد محمد رشيد رضا (١٢٨٢هـ ١٨٦٥م ـ ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م) الذى اتخذ من مجلـة "المنار" منبرا قويا لدعوته ، وكانت مصر قـــد استيقظت من ناحية أخرى على دعوة الزعيم الوطنى الشاب "مصطفى كامل" (١٢٩١هـ ١٨٧٤ م ــ ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨م الذى حمل لواءه من بعده زميله الزعيم ــ محمد فريـد ١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م ــ ١٣٣٨هـ ١٩١٩)

وقد جاء أزاد الى مصر وحركة الوعى الدينى والوطنى ، يشتد ساعدها فقد حضر الى مصر فى السنة التى توفى فيها مصطفى كامل ، وكما كانت الحركة الوطنيـــة يشتد ساعدها فى مصر ضد المستعمرين كانت الحركات الوطنية فى البلاد العربية الأخرى تسعى الى التحرر من استبداد الأتراك ،بل كان الأتراك أنفسهم فى بلادهم يقاومـون استبداد السلطان عبدالحميد (١) حتى نجحت جمعية الاتحاد والترقى فى اجباره علـى اعلان الدستور ١٩٠٨ م ثم عزله بعد ذلك فى ابريل سنة ١٩٠٩ م وابداعه السجـن حيث توفى سنة ١٩١٨ م (١)

ومما لاشك فيه أنه عنى وهو ينتقل فى هذه البلاد بدراسة حركاتها الدينية والوطنية ، واتصل بمـن أمكنه الاتصال بهم من زعماء هذه الحركات ،وأخذ خبرة وطاقة

---

(١) التاريخ الاسلامى ج ٥ للدكتور أحمد شلبى

من كل من رآهم وسمع منهم.

وكان من هؤلاء الذى رآهم وسمع منهم وتأثر بهم السيد / محمد رشيد رضا الذى عقد معه صلات ظلت قائمة وطيدة بعد رجوعه للهند سنين طويلة كما سنعرف فى مكان آخر من الرسائل المتبادلة بينهما ..

وقد اتصل كذلك برجال الأزهر فى ذلك الوقت ووقف على سير الدراسة فيه ومناهجه ولكنها لم تجذبه اليها .. بل انتقدها فى مذكراته حين تناول هذه الفترة من حياته فيقول :

" وكان النظام السائد فى الأزهر حينما زرت القاهرة (١٩٠٨ (١٣٢٦هـ) ناقصا غير واف فلم يكن يثقف العقول أو يساعد على تحصيل معلومات وافية عن اللغة العربية الكلاسيكية القديمة وحاول الشيخ عبده اصلاح النظام ولكن العلماء المحافظين أحبطوا جميع جهوده، وبعد ما قنط الشيخ من اصلاح الأزهر أسس مدرسة جديدة سماها " دار العلوم " وهى باقية الى يومنا واذا كانت الأمور تجرى فى الأزهر هذا المجرى فمالى أذهب اليه للدراسة "ولقد كان أزاد فى هذه المذكرات التى كتبها فى آخر حياته يصحح فكرة سادت فى الأوساط الهندية وتغلغلت حتى فى النشرات الرسمية والكتب التاريخية وهى أنه تعلم فى الأزهر حتى وجدنا الزعيم نهرو يقول عنه فى كتابه " من السجن الى الرياسة (١) .

" وكان أزاد شابا المعيا تلقى علومه الأولى فى جامعة الأزهر بالقاهرة ... الخ ".

ثم عدل عن ذلك وأعلن الحقيقة فى كلمته التى ألقاها فى البرلمان الهندى فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٨ حين قال : " اشتهر عن مولانا أزاد أنه تعلم فى الجامع الأزهر والحقيقة أن هذا خطأ وقعت فيه كما وقع الكثيرون حتى كتابات الحكومة ونشراتها

---

(١) ص ٢٤١ طبع دار العلم للملايين فى بيروت وقد كتبه وهو فى سجن أحمد نكر سنة ١٩٤٤م

الرسمية اشتملت على هذا الخطأ والحقيقة أنه ذهب الى القاهرة زائرا ، وزار الجامع الأزهر ولكنه لم يقم فيه للتعلم " (١)

وبعد أن زار أزاد البلاد العربية ذهب من مصر الى تركيا ، ومن هناك الى أوربا لزيارة فرنسا وانجلترا والوقوف على سير الحياة فيهما .. لكنه لم يتم رحلته هذه اذ تلقى وهو فى باريس نبأ مرض والده فعاد سريعا الى الهند ليكون بجانبه ودون أن يكمل رحلته الى لندن .

عاد الى وطنه وفى جعبته الكثير مما رآه وسمعه عن أحوال البلاد التى زارها وقد تزود بمعارف وتجارب جديدة لا شك أنها كانت ذات أثر كبير فى مسيرة حياته وتكوين شخصيته .

(١) نقلا عما جاء بجريدة "الجمعية" لسان حال جمعية علماء الهند فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٨ وكنت موجودا حينذاك بالهند .

الفصل الثانى

أزاد المصلح الدينى

أثر الرحلة فى حياته :

عاد أزاد من رحلته الى وطنه وقد انطبعت فى ذهنه صور شتى من الزعماء والعلماء الذين يجاهدون من أجل تحرير أوطانهم والرقى بها .. ومن الحركات الاصلاحية التى تموج بها هذه البلاد ، ولا شك أن هذا كله قد أضاف الى طاقته شحنة جديدة من الحماس للعمل من أجل بعث الروح الاسلامية فى نفوس المسلمين الهنود كى ينهضوا ويعملوا لتحرير وطنهم جنبا الى جنب مع الهندوس ..

وقد عرفنا أنه كان قبل رحلته قد انضم لجماعة الثوار من الهندوس ضد الانجليز وكان يجتهد فى ضم أكبر عدد ممكن من شباب المسلمين للثوار ، باذلا جهده فى اقناع المسلمين بوضع يدهم فى يد الهندوس الذين يعملون ضد الانجليز لتحرير أوطانهم ويبدو لى أن طبيعة تكوينه ونشأته كعالم من علماء الدين ثم ما لمسه أثناء رحلته الى مصر والشرق الأوسط من الدعوة الاصلاحية التى بعثها جمال الدين وتابعها تلميذه الامام محمد عبده ومن بعد السيد رشيد رضا فى احياء الروح الدينية واتخاذ ذلك أساسا للنهوض والرقى بالأمة وتحريرها دون تعصب دينى ، أقول : يبدو لى أن ذلك أثر كثيرا فى اختياره للمنهج الذى يسلكه فى دعوته اخوانه المسلمين الهنود لليقظة والثورة على المستعمرين ، فجعله يتجه الى وسائل علنية لاحياء الروح الدينية السليمة كباعث للمسلمين على الرقى والنهوض والجهاد لتحرير بلادهم بدلا من العمل فى الجمعيات السرية .. فيقول فى مذكراته (١) :

" سبق أن قلت أن نظرياتى السياسية كانت قد اتجهت الى النشاط الثورى

---

(١) ص ٣٠ ، ٣١ من مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٨ ص ٦ من الأصل الانجليزى .

قبل أن أغادر كلكتا فى سنة ١٩٠٨ ،وعند ما وصلت الى العراق اجتمعت مع بعض الثوار الايرانيين ،على نحو مااتصلت فى مصر باتباع "مصطفى كامل باشا "، والى جانب ذلك تيسر لى لقاء جماعة من الشباب الأتراك الذين أسسوا فى القاهرة مركزا ، وكانـــوا يصدرون منها جريدة أسبوعية ،وأثر قدومى الى تركيا صادقت بعض زعماء الحركة التركية الجديدة (١) ، وواظبت على المراسلة معهم الى عدة سنوات بعد عودتى الى الهند ".

" وكانت نتيجة هذه الاتصالات بالثوار الأتراك والعرب أن زدت تمسكا بمعتقداتى السياسية وكانوا يستغربون اهمال المسلمين الهنود المطالبة الوطنية أومعارضتهم اياها ورأوا أن واجب مسلمى الهند هو قيادة الكفاح الوطنى فى سبيل الحرية ،فكانوا عاجزين عن ادراك الأسباب التى تجعل من مسلمى الهند موالين لبريطانيا فى هذه الظروف(٢) ، وأنا شخصيا اقتنعت أكثر من ذى قبل بأن مسلمى الهند يجب عليهم التعاون فى حرية البلاد السياسية ، فلا بد من خطوات لازمة فى هذا السبيل مخافة أن تستغلهم الحكومة البريطانية ،ورأيت من واجبى الضرورى انشاء حركة جديدة بين المسلمين الهنود فزدت حماسا وقوى عزمى على الاعتناء بالأعمال السياسية بعد عودتى الى الهند "

"بعد رجوعى الى الهند فكرت بعض الوقت فيما يكون منهاجى للعمل فـــى المستقبل وانتهيت الى ضرورة تربية الرأى العام ، وتحقيقا لهذه الغاية لم يكن بد من اصدار مجلة " أ . هـ

هنا نجد التحول ظاهرا فى خطته لا فى هدفه ، فقد كان قبل سفره مشتركا فى الجماعات الثورية السرية قبل ساعيا اليها متحمسا لها ، من أجل طرد الانجليز من البلاد .

ولكنه بعد عودته كان قد وقف على خطط وآراء الزعماء العرب ، ولاسيما فـــى

---

(١) جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تطالب السلطان عبد الحميد باصلاحات دستورية
(٢) فى هذه الفترة التى زار فيها البلاد العربية كانت حوادث تقسيم البنغال الـــى قسمين : اسلامى وهندوسى كما أشرنا من قبل .

مصر من رجال الحزب الوطني وتلامذة الأفغاني ومحمد عبده للنهضة بالبلاد عن طريق التربية واحياء الرأى العام بإزكاء الروح الدينية والوطنية فى النفوس بالخطب والصحف والدروس، فعاد مقتنعا بهذه الخطة نحو الأهداف الوطنية ويمضى بها تحرير وطنه، وانتهى رأيه كما يقول، الى اصدار مجلة تتولى هذه المهمة صارفا نظره عن الاستمرار مع الجماعات السرية الثورية التى كان قد التحق بها قبل سفره..

كان الحزب الوطني فى مصر يعلن الحرب السافرة على الانجليز ويخاصم كل من هادنهم أو يتقبل الأمر الواقع، ويعمل على تربية الشعب باصدار الصحف وانشاء المدارس والدعوة لانشاء جامعة، وقد وقف أزاد على ذلك وتأثر به..

وقد حضر أزاد الى مصر وأراء الأفغاني ومحمد عبده تفعل فعلها فى النفوس ووقف على هذه الآراء التى كانت تتخذ من الدين قاعدة لتحرير البلاد وحكمها حكما شوريا، وعرف الطرق التى كان يسلكها الأفغاني ومحمد عبده فى تربية الشعب وبث آرائهما الثورية خلال الدروس والصحف والأحاديث، كما عرف ما تحمله الأفغاني فى سبيل آرائه سواء من رجال الدين الجامدين أم من المستعمرين وعملائهم من الحكام المحليين .

وعرف عن الشيخ عبده برامجه الاصلاحية فى التعليم وفى الأزهر بنوع خاص وماكان يقوم به من دروس فى التفسير على نمط جديد، يبث من خلالها أراءه الاصلاحية ويحمل على الجمود والتقليد السائدين فى ذلك الوقت بين العلماء، واتصل بالسيد رشيد رضا ووقف على ماقام به بواسطة مجلة المنار التى أصدرها (١) بتشجيع من الشيخ عبده وتوجيهه "لنشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية واقامة الحجة على أن الاسلام باعتباره نظاما دينيا لايتنافر مع الظروف الحاضرة" (٢)، ولا بد أنه قرأ ماينشر

(١) صدر العدد الأول من المنار فى ٢٢ شوال سنة ١٣١٥ هـ ١٧ مارس سنة ١٨٩٨ فى ثمانى صفحات .

(٢) رشيد رضا اعلام العرب للدكتور ابراهيم العدوى ص ١٣٥

فيها من تفسير بقلم الشيخ رشيد متأثرا بتوجيهات أستاذه ، ورأى منهجه وتشبع به
كما قرأ ما تضمه من بحوث وتعليقات حية ، وسمع عن مجلة العروة الوثقى " التى أصدرها
جمال الدين وتلميذه محمد عبده من باريس سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ م وأثرها
فى الهاب شعور المسلمين وتوجيههم نحو دينهم والاعتماد عليه فى نهضتهم .. الخ .

وقد أزاد على هذا كله وتأثر به تأثرا حدد له معالم الطريق الذى يجب
أن يسلكه بعد عودته فرأيناه يعنى بالقاء دروس فى التفسير ويؤلف جماعة دينية سماها
جماعة حزب الله وشعارها الآية الكريمة : "من أنصارى الى الله" ثم أسس فيما بعد
مدرسة سماها "دار الارشاد" على نسق "دار الدعوة والارشاد" التى أسسها السيد
رشيد رضا . (١)

كما أخذ بعد عودته بعد المدة لاصدار مجلة سماها " الهلال " ومن على منبرها
أخذ يدعو المسلمين الى التحرر العقلى والسياسى ، ويوقظ فيهم الروح الدينية ، ويحمل
على الجمود والتقليد بين العلماء كما يحمل على البدع والخرافات ، ويبين للمسلمين حقيقة
دينهم ونظرته للحياة ، وتشريعه الكامل لكل أحداثها ، ودعوته الى أن يعيشوا أحرارا
وينفضوا عن كاهلهم أعباء الذل والاستعمار . ثم يتجه للقرآن وللسنة يستمد منهما
زاده فى دعوته ، ويأخذ فى القاء الدروس فى التفسير ، ونشرها فى مجلته هذه ، ثم
يتوسع فى ذلك فيما بعد ، ويحزم أمره على ترجمة للقرآن كله باللغة الأوردية ليفهمه
المسلمون فى الهند .. نفس الخطوط التى سارت عليها مدرسة جمال الدين ،
ومحمد عبده ، ونفس الدعوة لتجديد الدين وتحرير الأوطان .. ولشدة تأثره بجمال الدين
ومدرسته كتب عدة مقالات فى الهلال ، يعرف القراء بهذه الشخصية الاصلاحية الثائرة
ودعوتها للنهوض بالمسلمين وتحريرهم عن طريق الدين ..

---

(١) سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م وكان أزاد على اتصال مستمر بالمراسلة مع السيد رشيد رضا بعد عودته للهند كما سنعرف فيما بعد .

عهد جديد :

وبذلك بدأ أزاد عهدا جديدا فى حياته .. ونشاطه ووضع قدمه على بدء الطريق الذى سار فيه حتى نهاية حياته وان اختلفت مظاهر هذا الطريق ،لقد كان عالما تربى التربية الدينية ونشأ فى بيت يحرص على تعاليم الدين ، وحين طرأت عليه فترة الشك خرج منها سليم الروح متين العقيدة واستزاد من المعارف الحديثة فاستطاع أن يرتفع بمستواه الفكرى ،ويخاطب الأجيال القديمة والحديثة معا بالأسلوب المؤثر الناجح ووهبه الله مع ذلك قدرة على الخطابة والكتابة سبقت سنى حياته ، حتى كان الذين يقرؤون له يظنون أنه عالم كبير تقدمت به السن ،وحنكته التجارب ،وصقلته المعارف التى حصلها على مر السنين ..

دعاه أعضاء "جمعية حماية الاسلام "فى لاهور " مرة الى القاء محاضرة عن "الأساس العقلى للدين "وكان وقتذاك حول العشرين من عمره .. بعد ما قرأوا له من بحوث رصينة كان ينشرها فى المجلات ،وظنوه رجلا كبير السن ، ولكن أخذتهم الدهشة حين لبى الدعوة ورأوا أمامهم شابا صغيرا جاء ليلقى محاضرة فى هذا الموضوع الدقيق فاتجهت أذهانهم الى أن يكون هذا الشاب نائبا عن مولانا أزاد يقرأ محاضرته ولكنهم حين عرفوا أن الذى أمامهم هو أزاد الذى سمعوا عنه ،وقرؤوا له ،واعجبوا به ازدادت دهشتهم واكبارهم له ..

ولقد كان من الطبيعى لرجل مثل أزاد أن يعتمد فى دعوته لايقاظ المسلمين للتحرر على احياء الروح الدينية فى نفوسهم ،والاسلام دين ينفر من الاستعباد ويلقى بالراضين به الى أسوأ مصير يتلظون فيه بنار جهنم فى الآخرة بعد ما يعانونه فى الدنيا من ذل الاستعباد وهو دين الحرية والشورى ،فلا يرضى لمسلم أن يستبد باخوانه المسلمين وهو من باب أولى لا يرضى للمسلمين أن يستكينوا لاستبداد غير المسلم ،ويفتح أبواب الجنة على مصاريعها لمن يلقى مصرعه فى مقاومة الاستبداد .. والنصوص فى هذا من

الكتاب والسنة والشواهد من حياة الرسول والمسلمين من بعده كثيرة ، ومع ذلك لا ينتبه لها المسلمون .

فليشعل أزاد الروح الاسلامية فى المسلمين بهذه النصوص والشواهد وليدعهم دعوة صادقة الى أن ينفضوا عنهم غبار الذل والخوف ، وينهضوا لكسر قيود الاستعمار غير مبالين بتضحيات يبذلونها اذا كانوا مؤمنين بدينهم ..

وعن هذا الطريق بدأ أزاد حركته الاصلاحية وجهاده ضد الاستعمار بالكتابة والخطابة والدروس الدينية كما كان يفعل الأفغانى ومحمد عبده من قبله وكما رأى السيد رشيد رضا يقوم به .

الدين والسياسة :

ولم يكن واحد من هؤلاء المصلحين يقر الأفكار السائدة فى ذلك الوقت من فصل الدين وابعاده عن الحياة ومصالح البلاد ، بل كانوا يعتقدون أن الدين هو أساس العمل للحياة بما وضعه من نظم محكمة لاصلاحها ، وأن من الواجب على المسلمين أن يفهموا دينهم فهما صحيحا حتى يعينهم على التخلص من الاستعمار ، والقضاء على التخلف والضعف ، فخيل لعامة المسلمين أن هؤلاء المشايخ يشتغلون بالسياسة ، ويقحمون أنفسهم فى مشاكلها فى الوقت الذى كانوا يعملون فيه لدينهم الذى لا يفرق بين عبادة وسياسة ..

ولهذا رأينا أزاد ينطلق من هذا الفهم ويقول : " قرعزمى على الاشتغال بالسياسة بعد عودتى للهند .. وانتهيت الى ضرورة توعية الرأى العام باصدار مجلة .. " وكانت دعوة هذه المجلة — كما سترى — مرتكزة على الدين وتجميع المسلمين حوله ، واتخاذه أساسا لحياتهم ولتحريرهم من مستعمريهم ..

ولهذا رأينا صرخات أزاد فى المسلمين لكى ينهضوا فى الهند تلتقى مع صرخات الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا فى المسلمين فى مصر والشرق العربى ، كلها ترتكز على الاسلام ونفوره من الذل والاستعباد ، ودعوته للحرية والعزة ، فهل يمكن أن يقال ان أزاد حين قرعزمه على الاشتغال بالسياسة ، قد فهم من السياسة معناها المتداول بين الناس ؟

لا ٠٠ والا استمر فى الجمعيات السرية الثورية ،انه حين قال هذا أراد العمل لتحرير وطنه ولكن عن طريق قيامه بواجبه الدينى ودعوة الناس اليه وتبصيرهم به ، ليصل الى غايته وغاية الاسلام فى أن يعيش المسلمون أحرارا أعزاء ،لا عبيدا متخلفين ضعفاء ، وهذه الدعوة وان كانت هى حقيقة الاسلام ،الا أنها انطمست فى نفوس المسلمين ابان عصور الضعف والانحلال الدينى ،فأصبحوا فى حاجة الى كشفها والى جهود جبارة لاحيائها ولهذا تركزت كل كتابته فى مجلاته كما سترى على بيان شمول الاسلام لنظم الحياة واصلاحها وعلى اثارة الروح الدينية والعزة الاسلامية فى النفوس حتى حق له أن يقول فى مرافعته سنة ١٩٢٢ " ان مايفعله المهاتما غاندى من بث الروح الدينية فى النفوس كانت "الهلال " قد فرغت منه سنة ١٩١٤ .

وكتب يرد على من اعترض عليه بأنه يخلط بين السياسة والدين فقال له(١) " انك تقول ان علينا أن نفرق بين الأفكار السياسية والدين ،لكنا اذا فرقنا بينهما فماذا يبقى لنا ؟ اننا لم نتعلم السياسة الا بالدين ،فالدين هو الذى خلقها ،فكيف نفرق بينه وبينها ،ونحن نعتقد أن كل فكرة مأخوذة من غير القرآن كفر صريح ؟ والسياسة ان هى الا فكرة ،ومع الأسف انك لم تعرف الاسلام فى عظمته "وما قدروا الله حق قدره"

ويقول فى مكان آخر : " انه ليس هناك ما هو أدعى للخزى والمهانة من أن يحنى المسلمون رؤوسهم أمام أفكار غيرهم السياسية : ان الاسلام لا يسمح لهم أن يكونوا ذيلا لغيرهم فى أفكارهم ،بل عليهم أن يدعوا غيرهم الى مشاركتهم واتباعهم ، ولو أنهم خفضوا رؤوسهم لله تعالى لخفض العالم رأسه أمامهم ،ان الاسلام قد وضع لهم طريقهم الخاصة ،فلماذا يستعيرون من غيرهم الطرق ،واذا كان الله قد رفع رؤوسهم فلا ينبغى لهم أن يخفضوها أمام غيرهم ،هذه ارادة الله ،وغيرة الله (والغيرة من شأن حضرة الربوبية) لا تسمح لمن أسلم له أن يستسلم لغيره ،ان الله لا يغفر أن يشرك به "

بهذا الفهم العميق للاسلام وبهذا الأسلوب القوى المثير وبهذه الروح والأفكار

---

(١) مأخوذ عن رسالة الماجستير ص ١٥٨ وما بعدها للأستاذ مقبول أحمد الهندى قدمها لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر .

وبهذا الاتجاه نزل الى ميدان العمل ، ومن الطبيعى وهذه أفكاره ألا يعتمد على سلاح غير سلاح القرآن ، لأنه كان يعتقد " ان الذى يدعى الاسلام ثم يتبع شيئا غير القرآن فى عقائده وأعماله فليس من الاسلام فى شئ ، بل أنه كمن يشك فى صفات القرآن مع الشك فى صفات الله [(١)] .

واذا كان هذا حكمه على من لا يتبع القرآن كان من الضرورى أن يشرع قلمه ولسانه لتفهيم المسلمين حقيقة الاسلام ودعوة القرآن ، والمسلمون على ماتعرف من ضمور فى الفهم لديهم وفى حاجة الى أن يتسع فهمهم ويستقيم ، وقد وضع هذه المهمة نصب عينيه من اصدار الهلال ، وجعلها هدفه الذى يشكل كل مايكتبه ويلونه بهذا اللون .. ويصرح بهذا فيما كتبه فى الهلال (٨ سبتمبر سنة ١٩١٢) فيقول :

" لا هدف للهلال الا أن يدعو المسلمين الى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله فى كل الأعمال والمعتقدات ، وهو يريد أن يرى المسلمين مؤمنين بالمعنى الكامل للايمان فى كل المسائل التعليمية والمدنية والسياسية ، ليس له نداء الا : (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم " .

وقوله هذا يؤكد لنا أن نزعته فى الاشتغال بالسياسة لم يكن يعنى بها ابتعاده عن العمل للدين ، لأن الأمور السياسية فى رأيه من صلب الدين ، وهى جزء من مسائله المتعددة الجوانب ولا بد للمؤمن الكامل الايمان أن يفهم هذا ويعمل به محق لا يحتاج الى أن يسرق الأنوار الباهتة وعنده هذا الضوء الغامر " القرآن الكريم " ..

واذا كان هذا ايمانه وفهمه للاسلام ، فلم يكن غريبا علينا ولا عليه أن نراه يقول " قر عزمى على الاشتغال بالسياسة " ويتخذ منهجا لذلك قائما على التربية الدينية ، ثم يتجه بكل قوته الى احياء الروح الاسلامية فى المسلمين ، ويدعوهم الى الخروج من التقوقع فى فهم دينهم الى الرحاب الواسعة التى فتحها أمامهم هذا الدين ، تماما كما فعل الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا .

ولقد عمل أزاد بكل مافيه من قوة وشباب وعلم ولسان وقلم فى سبيل هذه الغاية

---

(١) هلال سبتمبر ١٩١٢ م — ١٣٣١ هـ

وكانت مرحلة بدأها بقوة ،وكرس لها كل وقته منذ أصدر الهلال فى ١٢ يونيو سنة ١٩١٢م حتى خرج من سجنه أول يناير سنة ١٩٢٠ م ورأى دعوته قد أثمرت ثمرتها فى الأوساط الاسلامية حتى أصبح كل مسلم كما يقول : " يردد صدى دعوة الهلال والبلاغ للعمل من أجل تحرير البلاد فلم يكن من الممكن لى فى هذه الحالة أن أتغافل عما يجرى حولى فاندفعت فى العمل السياسى وفى حركة العصيان المدنى بكل قوتى دون الالتفات الى أى شىء آخر" ..

وهنا يمكن أن نقول انه انتقل فى جهاده من مرحلة الى مرحلة ،من مرحلة الدعوة والاثارة الفكرية الى مرحلة العمل والتطبيق .. فقد عنى أولا بتعبئة الأمة بأفكاره ودعوتها للجهاد عن طريق تبصيرها بالدين وشموله ،وها هو ذا قد رآها تستجيب لأفكاره فهل يظل قابعا أمام مكتبه يمسك بقلمه ليكتب ما كان يكتبه طوال هذه السنوات ،أو ينزل للميدان العملى ،ويقود الناس الى ما كان يدعوهم اليه من الجهاد ؟ لقد كان كما يقول ، لم يكن من الممكن لى فى هذه الحالة أن أتغافل عما يجرى حولى ... الخ ".

ولقد كان أزاد أسعد حظا من جمال الدين ومحمد عبده اللذين دعا الحياة وأفكارهما لا تزال تتفاعل فى النفوس لم يكتمل تفاعلها ،وتظهر فى شكل ثورة أو جهاد كما رأى أزاد ثمرة أفكاره ،وقاد ثورة شعبه وجاهد معه حتى تحرر من الاستعمار .

وكان كل منهم يستقى من معين واحد ويدعو دعوة واحدة .. مرتكزة على الدين والعقل ، واقرأ معى :

" ان العقل موهبة من الله وهبها ايانا لنستخدمها فى الاصلاح ،لا لنضيعها فى الغفلة فما بالنا لا نميز بين اليقظة والنوم ،وبين الموت والحياة ،ولا نفكر فيما سيقوله عنا التاريخ اذا لم ننهض ، وكيف لا تفجع أكبادنا وتلتهب أرواحنا وتلتاع قلوبنا ؟ وما يمنعنا أن نعنى بجروحنا الدامية التى تكاد تقضى على القوة الروحية ؟ ما يمنعنا أن نرى ما يجب على العيون أن تراه وأن نفقه ما يجب على القلوب أن تفقهه ،ونسمع ما على الآذان أن تسمعه ؟ ألسنا من أتباع الدين القويم ،وحاملين أمانة الله وخلفائه فى الأرض؟ فما بالنا

نخاف ونتخاذل ولا نجاهد لكى نصبح أحرارا ذوى سيادة نتمتع بالكرامة ،ونخطو خطوات واسعة فى سبيل تخليص الأمم المستعبدة من ربقة العبودية ؟ ..

واذا أعرضنا ولم نستغل مواهبنا فسيطوى التاريخ طخصه لنا من باب حافل بالمجد والشرف ،ويفتح لنا بابا آخر يسجل فيه أمام الأجيال أن الهند سمت الى الحرية ،وجاهدت فى نيل الاستقلال ونادت أبناءها لحمل لواء الجهاد ،فلبى قوم نداءها ،واحجم آخرون ، ولجئوا الى مغارات الذلة .. واحسرتا حين يقول :" ان هؤلاء كانوا أمة مسلمةتزعم أنها قائدة الأمم وزعيمة الأقوام !! " ـ ثقافة الهند عدد خاص بأزاد مارس ويونيو ٨ ص ٥٠

وفى هذا الكلام تجد التشابه الواضح بينه وبين دعوة الأفغانى ومحمد عبده ، وأسلوبهما الفكرى للنهوض بالمسلمين .

فلو رفعنا كلمة "الهند " التى جاءت فى ثنايا هذا الكلام ،وتركنا هذا النص أمامنا لصعب علينا أن نتجه أولا الى أزاد بل تتجه أذهاننا فورا الى الشيخ محمد عبده ، ولمحنا فى هذا الكلام طابع الأفغانى وتفكير مدرسته فى الدعوة التى تعتمد على العقل والعاطفة الدينية فى ايقاظ المسلمين ليتخلصوا من الاستعمار .

لم يتجه أزاد للوطنية فى ايقاظ المسلمين ،بل اتجه للدين ولتاريخ المسلمين ولما يحملونه على عاتقهم أمام الله من مسئولية عن أنفسهم ،وعن الأمم المستعبدة التى يجب على المسلمين أصحاب رسالة الحرية والكرامة أن يعملوا لتخليصها من ربقة العبودية "تماما كما كان يفعل الأفغانى ومحمد عبده فى مصر .

ولم يسلك أزاد هذا الطريق تصنعا ،ولم يتخذه مركبا لأغراضه ،بل كان مؤمنا عميق الايمان بدينه ورسالته التحريرية للانسان ـ وكانت دعوته المسلمين تنطلق من هذا الايمان العميق ،وكانت كل مواقفه بعد ذلك ترتكز على هذا الايمان ،يخاطب به الروح والعقل معا .

اقرأ معى كذلك هذه الكلمة التى جاءت فى افتتاحية العدد الأول من مجلة الهلال التى أصدرها سنة ١٩١٢ :

"ومالنا نشتغل ـ كعادتنا ـ بالحديث عن الفشل والخيبة وشكوى الدهر ؟

ليت شعرى ، ما دعا الناس الى الايمان بأن الحياة لابد أن تكون مقرونة بالطمأنينة والهدوء ؟ وما يضحنا أن نقوم فى وجه النوائب والآلام ؟ ألا ترون أن الغواصين يغوصون البحر الى شاطئ السلام ، بينما يرتجف الخائفون وجلا وهم راكبون فى السفن ؟ ألا أن الحياة مقرونة بالشدائد لافكاك لها قبل الموت مفهلا روض الشاكون نفوسهم لاحتمال المشاق ، ومكابدة الشدائد فعبروا الأبحر دون خوف أوخشية ؟

ولماذا الدين ؟

ولم يكن أزاد واهما ، أومتعصبا ، أومجانبا طريق الصواب حين اختار الدين مهمازا لاحياء المسلمين واحياء روح الجهاد والعزة والكرامة والتماسك فيهم ، فالأمة التى تدين بعقيدة أية عقيدة وتسلم نفسها لها لايجد المصلحون فيها شيئا أقرب الى اثارتها من تحريك هذه العقيدة فى نفسها .. وكلما أثرت هذه العقيدة وقويتها استطعت أن ترتكز عليها فى الانطلاق الى كثير من الفضائل والأعمال التى تحقق لك وللأمة ما ترجوه من رقى ونهوض .

ولا شئ فى الحياة يوازى ارتكان ظهر الأمة الى عقيدتها فى جهادها للتحرر وفى جهودها للنهضة ، والاسلام الذى ربط المسلم بربه ولاشئ غيره ، وربط عمله بعقيدته ، كما ربط عزته بايمانه ، وجعل الحياة الكريمة الطيبة فى الدنيا والجزاء الحسن فى الآخرة نتيجة الايمان والعمل الصالح المتقن فى كل مجال يتحرك فيه الانسان لعمل ما من الأعمال .. أقول الاسلام الذى فعل هذا لا يوازيه دين أوعقيدة فى قوته وتفتحه وشموله — ومن هنا كان المصلحون المسلمون هم أولى المصلحين بالانطلاق من قاعدة الدين والايمان والعقيدة .. اذا أرادوا أن ينطلقوا مع أممهم بسرعة الى غايتهم ، ويوفروا عليهم وعلى أممهم كثيرا من الجهد والعثرات ..
ولهذا كان أزاد فى الهند منطقيا مع الحقيقة أومتجاوبا معها ، ماهرا فى معرفة دخائل الأمور ، مخلصا فى رغبته النهوض بأمته ، كما كان الأفغانى ومحمد عبده ،

وكل داع على طريقهما .

حتى غاندى مع الهندوس :

ولعلك لاتعجب بعد هذا اذا عرفت أن غاندى الزعيم الهندى المعروف لم يسلك غير هذا الطريق فى دعوته لتحرير الهند .. لقد كان جهاده كله لاحياء المعانى الدينية فى النفوس ،لاحياء حب الخير والحق والتفانى فى سبيلهما . ولم يدفع أتباعه لتحمل الرصاص دون مقاومة الا باحياء هذه المعانى فى نفوسهم ،وكان يؤمن بأن التربية الروحية هى أساس كل مجتمع سليم وأن مجتمعا بدون هذه التربية انما هو مجتمع هياكل وتماثيل .. فيقول :

"لقد كنت أدرك حتى قبل أن أتولى تعليم الصغار فى مزرعة "تولستوى" أن المران الروحى ناحية قائمة بذاتها ،ذلك أن تربية الروح تستهدف تكوين الخلق السليم ،وتساعد صاحبها على تحقيق ذاتيته وزيادة معرفته بالله . ولذلك كنت مؤمنا بأن التربية الروحية لا بد منها للشباب . وأن كل تعليم تعوزه الثقافة الروحية هو تعليم لا جدوى منه . بل هو تعليم قد يكون محفوفا بكثير من الأوضار . (١)

ولهذا حرص غاندى طول حياته على احياء الروح الدينية بين قومه . واتخذ من هذا وسيلته لجمع الشعب حوله ،وتوحيد صفوفه ،وتقوية كلمته..

وفى هذا يقول أزاد فى مواقفه الخالدة أمام المحكمة التى كانت تحاكمه بتهمة اثارة الشعب ضد الحكومة سنة ١٩٢١ م.

وانى أصرح هنا بأن "الهلال"(٢) لم تكن الا دعوة للحرية أو الموت . وأن ما

---

(١) ص١٧٤ من كتاب "فى سبيل الحق" تأليف مهاغاندى وترجمة الأستاذ سامى عاشور وهو يتحدث فى هذه الفقرة عن تجاربه فى جنوب أفريقيا وهو شاب

(٢) المجلة التى أنشأها .

يحمله الآن " المهاتما غاندى " من بعث الروح الدينية فى النفوس كانت [illegible] قد توقفت منه سنة ١٩١٤ ، وأن من المصادفات العجيبة أن المسلمين والهندوس ماقاموا بالحركة الجديدة القوية الا بعد أن حلت فيهم الروحانية الدينية محل المدنية الغربية المادية.(١)

ولهذا يقول غاندى ملتقيا مع أزاد فى وجهة النظر هذه :

" انى مقتنع بأن الذى سحق الهند ليس الانجليز ، وانما الحضارة الحديثة وهى تئن تحت ثقل هذا الوحش المخيف ،ومازال هناك وسائل للتخلص من براثن هذا الوحش ولكن كلما طال الوقت أصبح ذلك أصعب ،أن الدين عزيز جدا على ، واذا كان هناك ما آسف له فهو كون الهند قد ابتعدت عن الدين ، وترد ت فى الكفر والالحاد ، وأنا هنا لا أقصد الديانة الهندوسية أوالاسلامية أوغيرهما بالذات ، بل التى تجمع بين هذه كلها ،اننا الآن نديرظهورنا لله.(٢)

وقداستطاع غاندى وأزاد بما قاما به كل منهما من أحياء الروح الدينية فى نفوس المسلمين والهندوس أن يجمعا شعب الهند على الوقوف فى وجه أعتى دولة استعمارية وهى انجلترا فى ذلك الوقت حتى نال استقلاله.

فارتكاز أزاد على نقطة احياء الروح الدينية فى نفوس المسلمين كمبدأ انطلاق لجهادهم ضد الاستعمار كان هو الارتكاز الطبيعى الذى يتمشى مع نفسيات الشعوب، وقد رأينا ثورة الجزائر كذلك ترتكز على هذا الأساس نفسه الذى رعاه العلماء وعلى رأسهم عبدالحميد بن باديس ، وهذه الحقيقة أضع تحتها خطوطا متعددة لكل دعاة نهضة الشعوب فى كل مكان — ونحن فى المقدمة — يلتفتون اليها ،ويمنون بها ، بعد أن أثمرت الدعوات الاصلاحية الدينية ثمرتها فى ايقاظ الشرق والغرب ونهضته.

---

(١) ستاتى هذه المرافعة فى مكان آخر ملحق ـ ج ـ فى آخر الرسالة

(٢) ص ٦٨ من كتاب "حضارتنا وحضارتهم" للمهاتما غاندى تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز الطبعة الأولى فى بيروت ١٩٥٩ .

مجلتا الهلال والبلاغ وأثرهما في ايقاظ المسلمين

لم يكن اتجاه مولانا أزاد لاخراج مجلة الهلال لتكون منبرا لدعوته اتجاها أومملا مفاجئا بالنسبة له ، فقد سبقته محاولات وارهاصات في هذا الاتجاه .. فقد كان وهو لما يكمل العقد الثاني من عمره يكتب المقالات والاشعار ويرسلها الى مجلة "أرمغان فرخ الأوردية" وفي مجلة خدنك نظر " التي تصدر من لكنو ، وفي مجلتي أحسن الأخبار ، وتحفة أحمدية "اللتين تصدران من كلكتا ، ثم خطا خطوة أكبر فأصدر هو مجلات خاصة[1] به ليروي غلته من نشر ما يريد أن ينشره من أفكار ، وأخذ يكتب المقالات المؤثرة التي كانت لها قيمتها الأدبية في وسط القراء ، لاسيما وكان يتولى بالنقد بعض أفكار المعاصرين مما أضفى عليه في نظر قرائه صورة رجل محنك .

ولهذا كانوا يدهشون وتأخذهم المفاجأة حين يعلمون أن هذه الأفكار والكتابات انما هي لشاب في نحو العشرين من عمره ..

وقد كانت هذه المحاولات الصحفية البارزة من هذا الشاب العالي الهمة الطموح مقدمة للعمل الكبير الذي أقدم عليه فكان له دويه وصداه .

الهــــلال :

فقد أصدر مجلة الهلال أسبوعيا ووضع لها كل الترتيبات والأسس لتكون كما يقول .

" أنيقة الطباعة ، قوية الدعوة ليست على غرار ما يصدر من الصحف والمجلات الأوردية المحرومة من ميزات الصحافة الحديثة " .

ولهذا أسس لها مطبعة خاصة ، وصدر العدد الأول منها من كلكتا في ١٢ من شهر يونيو سنة ١٩١٢ م سنة ١٣٣٠ هـ ، وكان مولانا أزاد ذا أسلوب جديد وممتاز في

---

(١) جاء في كتاب نزهة الخواطر الجزء الثامن للسيد عبدالحي الحسيني اللكنوي المطبوع في الهند " أنشأ مجلة شهرية في بومبي ثم قدم لكنو وولي انشاء مجلة الندوة لسان حال ندوة العلماء فأقام بها زمنا ، ثم سار الى أمرتسر " وتولى انشاء صحيفة الوكيل الأسبوعية (من رسالة بعث بها الى الأستاذ محمد الرابع الندوي من لكنو بالهند والكتاب بعد للطبع) ، وتضيف مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر ٥٨ ص ٤٢ أنه أنشأ كذلك مجلة سماها لسان الصدق .

الأوردية ، له طابعه الذى عرف به .. جاء فى نزهة الخواطر [(١)] " ثم سار السجن كلكتا وأنشأ "الهلال " الأسبوعية سنة ١٣٣٠ هـ وحصل له القبول العظيم ببلاد الهند لمهارته فى أساليب الكلام ، وبراعته فى الانشاء ، والترسل ".

ويقول نهرو فى كتابه من السجن الى الرياسة [(٢)] :

" ولقد تكلم أبوالكلام بلغة جديدة فى صحيفته الأسبوعية "الهلال " ولم تكن جديدة فى الفكرة والنظرة فحسب بل ان تركيبها كان مختلفا ، ذلك أن أسلوب " أزاد " كان رجوليا وشديدا وكان مؤثرا وقاطعا ".

وكان أزاد حين يكتب فى الدين يصدر فيما يكتب عن فكرة عميقة ونيرة ، وعن ايمان بالاسلام فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وعن علم بدقائقه وتشريعاته ، فهو أولا وقبل كل شىء عالم من علماء الهند ، وكان طابعه المميز له فكره المستقبل ، وايمانه النابع من دراسته واقتناعه أوكما يقول : "لا أستطيع أن أؤمن بأمر وأقربه قبل أن أغربله بغربال عقلى ، وأعرضه على محك فكرى ".

وحين كان يعالج أمرا من أمور السياسة الوطنية كان يعالجه بالعقلية المتحررة البصيرة التى كان يعالج بها قضايا الدين ، يساعده على ذلك الم واسع بالقضايا الوطنية والحركات التحررية فى البلاد الأخرى ، والأدوار التى مرت بها ، حتى أصبح بذلك كله اماما فى الدين واماما فى السياسة ، وصاحب الامامتين .. وان كانت امامته فى الدين سابقة على امامته فى السياسة ، ولقد انتهى به الأمر أخيرا الى أنه كان هو الذى يتولى عن الهند أمر المفاوضات المعقدة فى شأن منح الهند استقلالها مع كريبس ومونتباتن ..

يقول عنه الدكتور همايون كبير .. وهو من أشد الناس تعلقا والتصاقا ومعرفة به : " كنت أظن أن مولانا أزاد عالم من كبار علماء الدين ـ كما ظنه كثيرون غيرى ـ ولا يعرف من السياسة وحل المشاكل على المنهج الحديث الا قليلا ، ولكنى دهشت حينما عرفت أن معالجته لكثير من القضايا السياسية كانت معالجة علمية دقيقة ، وأحسن من معالجة

---

(١) المصدر السابق (٢) ص ٢٤١ طبعة دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٩

كثير من السادة الهنود الذين تلقوا علوما حديثة "(١)

وكان غاندى يقول عنه " انه لا يبارى فى العلوم الاسلامية كما كان متبحرا فى اللغة العربية ، ووطنيته متينة صادقة كايمانه بالاسلام " (٢)

ولم يقل الزعيم غاندى هذا الكلام الا بعد أن خبره فى معترك الحياة وشدائدها وعرف مقدار ما يتمتع به من مزايا متعددة الجوانب .

ولقد كان أزاد يحرص دائما على أن يشيد بفضل الاسلام على الانسانية وتحريرها من رق العبودية .

.. ويعلن ذلك حتى فى أشد المواقف حرجا أمام قضاة الانجليز فى مواجهته التى سنذكرها فيما بعد ." الملحق جـ "

" ان أثمن الكنوز التى قدمها الدين الحنيف للعالم هى رسالة الديموقراطية والتساوى بين البشر ، أنا مسلم وأعتز باسلامى .. وبأن تقاليد الاسلام تراثى ، وتعاليم الاسلام وتاريخه وفنونه وآدابه وحضارته هى غنائى وثروتى ، وواجبى أن أحتفظ بهذا التراث وبهذه الثروة "

وعن هذا الايمان كان يعبر ويكتب للناس فى مجلته .

ولم يكن يعتمد على التلاعب بالألفاظ ، ولا على مجرد الاثارة العاطفية ولكنه كان مع بلاغته وسحر بيانه بالأوردية يصدر فيما يقول أو يكتب عن عقل وتفكير ، وبحث وتنقيب ، غير منساق وراء التقليد بل كان يدرس كل أمر وكأنه جديد حتى اذا اقتنع به آمن ، واذا آمن عمل وانطلق بقوة الايمان لا ترده الصعاب ..

---

(١) من مقال عن " ازاد كما عرفته " للدكتور همايون كبير فى العدد الخاص عن ازاد مارس ويونيو سنة ١٩٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥

— يقـــول :

"ما وهبت لى أسرتى وبيئتى ،وأسلمت الى من أوضاع المجتمع وتقاليده ،أبيـت أن أقتنع به منذ أول يوم مما حالت دونى قيود التقليد وعوائده ، فى أية ناحية قضيتهـا ، ولم تزل عاطفة الفحص والتنقيب منى ظامئة أينما حللت ، فلى فى داخل فؤادى اليـــوم يقين ، شاكته الظنون بأصنافها وألوانها ولى فى أعماق روحى عقيدة ابتليت بكل بـــلاء العصيان ،وعذاب الشك ،ولقد شربت السم من كل كأس ،واختبرت دواء المضاد من كـل مستشفى ، وحينما كنت ظمآن لم يكن ظمئى كغيرى ، وكان مشربى غير المنهل العـــام الذى يشرب منه الناس". (١)

ذكرت هذا وقدمته وأنا بصدد الحديث عن مجلة "الهلال" لتعرف مزيـدا من ملامح الشخصية التى كانت من وراء هذه المجلة ولتدرك مقدما ما يمكن أن تكـــون عليه ، وقد اجتمع لها الايمان العميق بالاسلام والالمام الواسع بتعاليمه ، والاعتـــداد القوى بالعقل والبحث ،والبصيرة النافذة بأحوال المجتمع ، وتاريخ الاسلام والأمـــم فى القديم والحديث مع معرفة عميقة باللغات الأوردية والفارسية والعربية ويضاف اليها الانجليزية ومع ذلك كله أسلوب جميل حديث يأخذ بالألباب ..

هذه القوى المتعددة الجوانب هى التى كانت من وراء هذه المجلـــة (الهلال) فصدرت فى صورة لم يألفها قراء المجلات الأوردية من قبل .. سواء من ناحيـــة المستوى الفكرى والأسلوب ، أم من ناحية الشكل والطباعة.

يقول أزاد : " ولا مراء فى أنه كان هناك عدد كبير من الجرائد اليوميـــة والأسبوعية والمجلات الشهرية التى تصدر من الولايات المتحدة (٢) ، والبنجاب باللغـــة

---

(١) من مقدمة تفسيره "ترجمان القرآن" طبعة الهند ص٤٦ ، ٤٧ من عدد مارس-يونيو ١٩٥٨ ثقافة الهند .

(٢) اسم لاحدى ولايات الهند الشمالية وتشتهر باسم "اوتربرديش" فى الهند وهى أكبر الولايات اذ يقرب عدد سكانها من مائة مليون وعاصمتها "لكنو".

الأوردية ، لكنها كانت منحطة المستوى ولم تكن في مظهرها أقل سخافة من محتوياتها وتطبع كلها على المطابع الحجرية ، ومن أجل هذا كانت محرومة من مميزات الصحافة الحديثة وقاصرة عن طباعة الصور ، فصممت على أن تكون مجلتي أنيقة الطباعة قوية الدعوة والفكرة وتطبع على الآلات الطابعة لا على الطباعة الحجرية التقليدية ، ولهذا أسست مطبعة جديدة لطبع الهلال ..

" وصدر العدد الأول منها في شهر يونيو ١٩١٢ م ، وكان صدوره نقطة تحول في تاريخ الصحافة : اذ نالت في أقل وقت اقبالا لم يسبق له نظير ، وأعجب بها الشعب أيما اعجاب لا من ناحية طباعتها الراقية ، والأوراق الجيدة فحسب ، بل تأثروا بدروسها القوية ، التي نشرتها على صفحاتها ، وخلقت الهلال بين عامة المسلمين حركة ثورية ، وبلغ من تلهفهم عليها أن اضطررنا خلال الأشهر الثلاثة الأولى الى طبع الاعداد السابقة مرة ثانية ، لرغبة كل مشترك في الاحتفاظ بمجلدها الكامل (١)

ولعل من المناسب هنا أن نذكر الكلمة الافتتاحية التي افتتح بها العدد الأول من الهلال كنموذج من كتاباته ومنهجه الفكري في مخاطبة القراء وشحذ هممهم قال :

" رب أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا " "الاسراء : الآية : ٨٠"

وبعد : فقد رأيت رؤيا بعين اليقظة النابهة سنة ١٩٠٦ م ومكثت سنين متتالية أبحث عن التعبير العملي لهذه الرؤيا ، وكنت في غاية الاشتياق لتحقيق هذه البغية ، ومازالت بين الآمال والعزائم ، ولطالما هاجمني القنوط مهاجمة عنيفة ، للتغلب على عزائمي ، والنيل من ارادتي ، ولكني تشبثت بعزيمتي المستحكمة ، معتمدا على عون الله ، واثقا من تأييده الى أن حان يوم أقول فيه " هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها

---

(١) مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ٥٨ ص ٣١ من مذكرات حياتي لمولانا أزاد

بى حقا " ، ولا يخفى على عالم السرائر ، وعارف الخفايا ،وما يحيط بى من المشاكل المضنية ،وما يهددنى من الآلام والأحزان ،مما يكاد يذهب معه وعيى ،ويحرمنى طمأنينة البال ،بيد أننا لانجد مبررا لترك حياتنا تسير معطلة ،وتضيع سدى " .

"ومالنا نشتغل — كعادتنا — بالحديث عن الفشل والخيبة وشكوى الدهر ؟ ليت شعرى .. مادعا الناس الى الايمان بأن الحياة لابد أن تكون مقرونة بالطمأنينة والهدوء ؟ وما يمنعنا أن نقوم فى وجه النوائب والآلام ؟ ألا ترون أن الغواصين يمسحون البحر الى شاطئ السلام ،بينما يرتعد الخائفون وجلا وهم راكبون فى السفن ،أوواقفون على الشواطئ !! .

" ألا أن الحياة مقرونة بالشدائد لافكاك لها قبل الموت ،فهلا روض الشاكون أنفسهم على احتمال المشاق ،ومكابدة الشدائد فعبروا الا بحر دون خوف أوخشية ؟ "(١)

هكذا بدأ يخاطب العقل بجانب العاطفة ، ويلمس النفس المسلمة بالأمثال المحسوسة فيهزها وينبهها الى حقائق ملموسة : ولكنها قد تخفى على الناس : وذلك لتنفض عنها غبار الجبن والخوف ، وتقتحم الحياة وصعابها دون تردد ، ويذكرهم بأمجادهم وأسلافهم ،ليعيدوا سيرتهم ،ويكونوا خير خلف لخير سلف ، وينذرهم عاقبة القعود والجمود ، وترك الميدان لغيرهم يحوز فخر السبق فيه ،بينما يسجل لهم التاريخ صفحة خزى وعار .

فيقول مفتتحا احدى كلماته فى الهلال بآيات فاصلة من القرآن الكريم :

" ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار،ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون "(٢) ، ثم يقول بعد

---

(١) مجلة ثقافة الهند عدد مارس ويونيو ١٩٥٨

(٢) سورة يوسف الآيتان : ٣٩ ، ٤٠

ذلك : " ياقوم اعلموا وأدركوا بأنه ما قدر أن يكون لابد أن سيكون ،وما من أحد يحـول دون حدوثه ، وسيأتي اليوم الذي تكون فيه الهند قد اجتازت آخر مراحل التطـــور السياسي ،وسيسجل التاريخ تقدم الهند بخطواتها في سبيل النهضة ،أفلا فكرتم فيما سيسجله التاريخ عنكم .. "

بهذا الأسلوب الناري الملتهب ، الذي يستمد قوته من الدين ، كان يتحدث مولانا أزاد ويستثير همم المسلمين ، حتى يتقدموا الصفوف في الكفاح ضد الاستعمار وهم الذين سجل لهم التاريخ صفحات المجد والفخار ،فكانت كلماته تنفذ الى الأعماق وتحدث أثرها في نفوس المسلمين حتى وجدنا عالما زعيما من مجاهدي الهند العلماء وهو مولانا "محمود الحسن " الذي كان يحمل لقب شيخ الهند ، وكان يتزعم حركة سريـــة ضد الانجليز وتوفى سنة ١٩٢٠م نجد هذا الراجل مع قدره في الجهاد والعمل ، ومع تقدمه في السن والتجربة ، تلفت "الهلال " نظره ،وتنتزع تقديره فيقول : " كدنا ننسى مهماتنا فذكرتنا بها "الهلال " :

وليست هذه كلمة عابرة من رجل عادي ،ولكنها شهادة صدق من رجل مجاهد يعتبر أستاذا لازاد في الدين والوطنية ،وتزعم حركة سرية لاخراج الانجليز من الهند ..

ورجل في مثل هذه المنزلة لايقول "كدنا ننسى مهماتنا فذكرتنا بها "الهـــلال " تبرعا ،أومجاملة لزميل أوصديق ،فقد كان أزاد شابا في العقد الثالث من عمره ،ومولانا محمود الحسن شيخ الهند في نحو ~~الخمسين~~ الستين من عمره .. فشهادته للهلال وأثرها ، شهادة لهـا وزنها وتقديرها ..

مجلة الهلال تشق طريقها في طريق صعب :

ولا بد لكي ندرك أثر الهلال تماما في هذه الفترة مع الصعوبات التي كانت تعانيها لا بد أن نضع في اعتبارنا ماذكرناه سابقا من الظروف السياسية والنفسية التي كانت تمر بها الهند من تقسيم للبنغال سنة ١٩٠٥ ورجوع عنه سنة ١٩١١ ، وما آثاره ذلك من فتن بين

المسلمين والهندوس ، وقيام حزب الرابطة الاسلامية سنة ١٩٠٦ واتباعها لسياسة أحمد خان من مسالمة الانجليز طمعا فى حصولهم على حقوقهم .

فى هذا الجو ظهرت الهلال بدعوتها التى تبناها مولانا أزاد لايقاظ همم المسلمين وتوجيههم لمحاربة العدو الأصيل الذى نزع الملك من أيدى الأباطرة المسلمين وليضعوا أيديهم فى أيدى الهندوس للتخلص من هذا العدو ..

الهلال أمام قوتين :

فكان من الطبيعى فى هذه الحالة أن تصطدم "الهلال" فى دعوتها بقوتين وان كانتا فى نهاية الأمر قوة واحدة .. هما : (جماعة عليكرة أومدرسة أحمد خان السياسية ومن يسير فى فلكها من رجال الرابطة الاسلامية ..

والقوة الثانية وهى الأهم والأخطر هى قوة الانجليز الحاكمة المستبدة فى الهند ..

وان شئنا الاختصار قلنا : ان الهلال اصطدمت بالانجليز ومن سايرهم وسالمهم من المسلمين ، وهى تكاد تكون الظروف نفسها التى اصطدم بها الأفغانى ومدرسته فى مصر والشرق العربى ، فكانت الأرض الجديدة التى تكسبها الهلال فى المسلمين تنتزعها من أيدى زعامة مدرسة على كره السياسية .

فكل كسب للهلال فى دعوتها ضد الانجليز كان يعنى خسارة لزعامة الفريق المسالم الذى كان لابد له أن يدافع عن كيانه بحرب عنيفة يشنها على الهلال وصاحبه أوكما قال مولانا أزاد نفسه فى مذكراته :

" وكانت الزعامة السياسية للمسلمين اذ ذاك فى أيدى "جماعة على كره" وكان أعضاؤها يعتبرون أنفسهم من أتباع سير سيد أحمد خان ، ويقتدون به فى سياسته وكانت عقيدتهم تقوم على وجوب ولاء المسلمين للتاج البريطانى والبعد عن الحركة

الوطنية ، فما ان وجهت " الهلال " دعوتها الجديدة ،وتضاعف انتشارها ، واتسعت شهرتها ،حتى شعروا بأن زعامتهم فى خطر ،فقاموا يعارضون "الهلال " حتى لم يستنكر بعضهم من تهديد رئيسها بالاغتيال ،وكلما خالفت "الهلال " الزعامة القديمة ،أقبل المسلمون اقبالا عليها وفى خلال عامين من صدورها بلغ انتشارها ٢٦ ألفا كل أسبوع وهو رقم لم يكن للصحافة الأوردية عهد به من قبل (١) .

أما الحكومة فقد أحست هى الأخرى خطرها ، ورأت أن تتخذ موقفا مباشرا منها لتقضى على دعوتها ، وتحول بين الشعب وبين أفكارها الثائرة ، فلجأت أول الأمر الى مضايقتها والتضييق عليها ، ومحاولة اعجازها عن الصدور ،وتذرعت بقانون المطابع ،وطلبت ألفى روبية كضمان لصدورها ، وكان ذلك أول تحرش من الحكومة بمولانا أزاد ،وان كان متسترا بستار القانون ،وهى تأمل أن يثقل هذا الضمان كاهله ،فيحاول التخلص منه بمداهنة الحكومة والتخفيف من لهجته ، ولكنه أدرك هدفها وفوت عليها غرضها ودفع الضمان ،واستمر فى لهجته ودعوته ولم يكن من المنتظر أن تقف الحكومة عند هذا الحد ،وتلقى السلاح ، بل سارت فى طريقها تنتحل الأساليب لتضيق على الهلال الخناق حتى تقضى عليها ، ففرضت عليه غرامة أخرى باهظة مقدارها عشرة آلاف روبية فدفعها واستمر فى طريقه ، فزاد ضيق الحكومة به ،ولاسيما عند ماقامت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ وحاولت أخذ تعهد عليه بتخفيف حدته مراعاة للظروف فأبى أن يعطى هذا التعهد ، وازداد فى مهاجمة الانجليز واثارة عواطف المسلمين ضدهم لمحاربتهم دولة الخلافة ، فأغلقت الهلال وصادرت مطبعتها فى يونيو سنة ١٩١٥ م ،ويتحدث أزاد عن هذا فى كلمات قليلة فيقول :

" انى لم أسمح لنفسى بالاستسلام لمثل هذه التحرشات ،وسرعان ما التهمت الحكومة الضمان وطالبت بضمان آخر مقداره عشرة آلاف روبية أخرى فدفعتها حتى أحول بينها وبين ما تريد ،وقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فطالبتنى الحكومة بتخفيف

---

(١) ثقافة الهند سبتمبر ١٩٥٨ ص ٣٢ مترجمة من كتابه

حدتى ، وأرادت أخذ تعهد على بذلك فأبيت فصادرت الهلال ومطبعتها سنة ١٩١٥[١]

مجلة البلاغ :

لم يستسلم أزاد ، ولم يلق السلاح ، وصمم على مواصلة الكفاح لأداء رسالته فعمل على اصدار مجلة جديدة تحمل اسم "البلاغ" لتواصل رسالة زميلتها السابقة "الهلال" ولم يطل الوقت في الاستعداد لاخراج البلاغ .. فبعد نحو خمسة أشهر من تعطيل الهلال صدر العدد الأول من البلاغ بتاريخ يوم الجمعة ٤ من المحرم سنة ١٣٣٤هـ – ١٢ نوفمبر ١٩١٥م وأنشأ مطبعة أخرى سميت مطبعة البلاغ لتتولى طبع المجلة .

ولم يكن ذلك سهلا على رجل يكافح في سبيل فكرة يعيش لها ، ولكن ايمانه العميق بفكرته ودعوته جعله يستهين بكل صعب ، ويتخطى كل عقبة .. وبدأت البلاغ تؤدى رسالتها التي كانت تحملها أختها "الهلال" من قبل ..

الحكومة تطارده :

وضاقت الحكومة ذرعا بأزاد وأيقنت أن المصادرة والغرامات لا تثنى عزيمته ، ولا توقف صدور المجلات .. فاتجهت رأسا الى الرجل .. الفكر المدبر والعزيمة القاطعة ، واللسان الموجه والقلم الحر الثائر – اتجهت اليه لتقضى مضجعه وتحول بينه وبين نشاطه المتركز في مدينة "كلكتا" في ولاية البنغال ، فأصدرت أمرا عسكريا بابعاده عن مدينة "كلكتا" وحظر صدور البلاغ واغلاق المطبعة وذلك بحجة تمكره لصفو الأمن كما تقضى بذلك قوانين الطوارئ للدفاع وكان ذلك في ٣ مارس سنة ١٩١٦م " قصة التفسير مقدمة ترجمان القرآن "

وقبل أن تبعده عن مدينته التى تربى فيها ، وباشر نشاطه في ربوعها ، أوعزت الى الحكومات الفرعية في ولايات البنجاب ودلهى ، والولايات المتحدة الشمالية

---

(١) ثقافة الهند سبتمبر ١٩٥٨ ص ٣٢ مترجمة من كتابه .

بومباى بحظر دخوله فى تلك الولايات .. متذرعة بقانون الداوارى، حفظا للأمن من هذا الرجل الشرير الذى يعكر صفوه.

ولم تكن أمامه الا ولاية بيهار المجاورة للبنغال[1] .. فقصد الى مدينة "رانشى" القريبة من كلكتا حتى يباشر منها مصالحه فى كلكتا ، وواصل كتابته فى التفسير وترجمة معانى القرآن للأوردية كما وعد القراء من قبل ،وأخذ يبذل محاولات لاعادة السماح له باصدار مجلة البلاغ وفتح المطبعة ،ولكن الحكومة لم تستجب له الا فيما يختص بفتح المطبعة فى يونيو سنة ١٩١٦ فأخذ يعد العدة لطبع ما أنجزه من التفسير والترجمة ولكن الفرصة لم تطل .

ففى يوليو سنة ١٩١٦ أى بعد شهور من قدومه اليها وفى الشهر التالى للشهر الذى أذنت فيه بفتح المطبعة صدر الأمر باعتقاله وزج به الى المعتقل وبذلك توقفت أعماله خارجه وبقى فى معتقله حتى آخر يوم من ديسمبر ١٩١٩ حيث أطلق سراحه فى أول يناير سنة ١٩٢٠ م بعد أن قضى فى هذا المعتقل ثلاث سنين ونصف سنة ، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة وبدون تعليق أن غاندى كان أثناء هذه الفترة يطوف البلاد ويدعو مواطنيه لمساعدة الانجليز ومدهم بالمئونة والرجال ،ويقول الأستاذ فتحى رضوان[2] "ظل غاندى حتى سنة ١٩٢٠ م ينصح بالتعاون مع الانجليز على الرغم من هجمات أعدائه عليه وانتقاد خصومه له".

---

(١) لاحظت أن مولانا أزاد ذكر فى مقدمة تفسيره أنه لم تبق أمامه فى هذه الحالة إلا ولايتان (بومباى وبيهار) يمكن أن يذهب اليهما ولكن فى مذكرات حياته قال ان بومباى كانت من الولايات التى أصدرت حظرها علي من قبل .. وكلا الخبرين كتبهما أزاد ولكن بعد الحادثة بخمسة عشر عاما على الأقل فى مقدمة التفسير وأكثر من ذلك فى مذكرات حياته ،وقد اخترنا ماذكره فى مذكراته لأنه أكده بقوله لم يكن لى مأوى الا بيهار بعد أن ذكر أن بومباى حظرت دخوله.

(٢) فى كتابه المهاتما غاندى ص ١٦٢ ،ويراجع فصل : حركة العصيان المدنى بين غاندى والمسلمين من كتابى "كفاح المسلمين فى تحرير الهند"

وقفة مع الهلال والبلاغ :

هل كانت الهلال أو البلاغ مجلة سياسية كالمجلات السياسية المعهودة ؟ أو كانت مجلة دينية كالمجلات الدينية الصرفة ؟

الواقع أن كلا منهما كان منبرا لدعوة اسلامية اصلاحية تشمل كل نواحي الاصلاح الدينية والسياسية على ضوء ما يراه رجل مثل أزاد في فهمه للاسلام ولأوضاع أمته ..

ففي الوقت الذي كان يدعو المسلمين فيه ولاسيما علماؤهم للتحرر من الجمود والتقليد ، والخلافات المذهبية الحادة التي تهدد قوتهم والقضاء على البدع والخرافات كان يدعوهم باسم الدين كذلك للتحرر من سيطرة الاستعمار ..

وفي الوقت الذي كان يبث فيهم الوعي بحقائق دينهم وتعاليمه ويدعوهم الى الأخذ به والتأدب بآدابه ، كان يبث فيهم الوعي كذلك بأخطار الاستعمار وأساليبه الماكرة الخداعة ، ويدعوهم الى الاتحاد بعضهم مع بعض ومع المسلمين في كل مكان لمساندة قضاياهم ولاسيما قضية الخلافة والى وضع أيديهم في أيدي مواطنيهم الآخرين من الهندوس وغيرهم للتخلص من براثن هذا الخطر الجاثم على صدورهم .

وكان يعتمد في دعوته لهذا وذاك على الكتاب والسنة ، وعلى التاريخ المجيد لأسلافهم المسلمين .. وبدأ ينشر ترجمة لمعاني القرآن مع ايضاحات لها لتقريب هذه المعاني الى المسلمين .. وكان أهم شيء أمامه هو اثارة الروح الدينية وتقوية العقيدة في نفوسهم ليتمسكوا بدينهم في كل مظاهر حياتهم ويهبوا لنفض كل ضعف عنهم ، سواء في أساليب حياتهم أو في مجابهة أخطار الاستعمار عليهم كما كان يدعو جمال الدين وتلامذته .

وكل ذلك بأسلوبه الساحر الأخاذ الذي جمعهم حوله ، وشدهم اليه والى دعوته .

ومن هنا كان خطره على الاستعمار وعملائه ، كما كان خطر جمال الدين الأفغاني وكل داعية مسلم يحرك همم المسلمين للنهوض وتخليص الصيد من شباك صياديه .

وقد لخص مولانا عبدالرزاق المليح أبادى (١) — وهو من ألصق الناس بمولانا أزاد طول حياته — دعوة الهلال والبلاغ الاجتماعية والسياسية فى النقاط الآتية :

(١) أن العبودية سواء كانت للأجانب أو المستبدين من الأمة نفسها لا تجتمع مع الاسلام ، وان السعى للحرية والاستقلال وتحمل الشدائد والمصائب ، والاغتباط بالموت فى سبيله كل ذلك واجب على المسلمين ،وهو تراثهم الملى الذى ورثوه عن أجدادهم فاما أن يعيشوا أحرارا أو يموتوا كراما ، وليس بين هذا وذاك من سبيل فى الاسلام ،لأن شريعته مادامت لاتبيح استبداد الولاة من المسلمين أنفسهم ، فكيف تبيح لهم أن يعيشوا خاضعين لظلم الأجانب واستبدادهم ؟ والمسلم الذى يقنع ويرضى بهذه المعيشة لا ريب فى حرمانه من روح الحياة الاسلامية .

(٢) على المسلم الهندى واجبان : واجب اسلامى ، وواجب وطنى ،فالواجب الاسلامى يطالبهم بألا يحصروا نظرهم فى حدود أرضهم ،فان جنسية الاسلام لا تتقيد بالوطن أو النسل ، فعليهم أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة لاخوانهم المسلمين فى العالم كذلك وأما الواجب الوطنى فيطالبهم بالاتحاد مع أبناء وطنهم وبذل نفوسهم وأموالهم فى سبيل الحرية والاستقلال .

(٣) لا تهدد الدول الغربية الاسلام أو المسلمين فقط ،ولكنها تهدد الشرق بأسره فيجب على الشرق أن يتماسك ويتعاضد لصون حريته وحياته .

(٤) اللغة العربية هى اللغة العلمية للمسلمين كافة ،وأنه من العوامل الأساسية للانحطاط الدينى للمسلمين هجران اللغة العربية ،وشيوع العجمة .. فيجب عليهم

---

(١) من علماء الهند الذين حضروا لمصر وتتلمذوا على السيد رشيد رضا فى مدرسة الدعوة التى أنشأها السيد رشيد فى أوائل هذا القرن لتخريج دعاة متنورين على طريقته .. وعاد للهند ولازم مولانا أزاد طول حياته ،وقد اجتمعت به مرات حينما كنت بالهند سنة ٥٦ — ١٩٥٨ م وكان يعمل مديرا للقسم العربى بالاذاعة الهندية ويتحدث بالعربية فى طلاقة ،وقد كتب مقدمة لمرافعة مولانا أزاد فى محاكمته التى جرت عقب القبض عليه سنة ١٩٢١ والتى ترجمها للعربية ونشرت فى مصر تحت عنوان : "ثورة الهند السياسية فى مجلة المنار سنة ١٣٤١ هـ . ١٩٢٣ م ،ثم طبعت فى كتيب صغير بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤١١ عام ١٩٦٦ خاص ونشرتها بنصها مجلة ثقافة الهند فى العدد المخصوص بمولانا أزاد (مارس ويونيو سنة ١٩٥٨)

احياء اللغة العربية" .

ترى من هذه النقاط التي لخصت أغراض مولانا أزاد من اصدار مجلتيه الهلال والبلاغ كيف ارتكز في دعوته على الاسلام ،ونظرته للحرية ،والواجبات التي ألقاها على عاتق المسلم للدفاع عن حريته في وطنه والدفاع عن المسلمين في كل مكان : لأن جنسية الاسلام لا تتقيد بوطن أونسل . ومن تركيز دعوته على الاسلام كانت نظرته الى اللغة العربية باعتبارها اللغة العليا للمسلمين كافة ،ومن واجب المسلمين في كل مكان أن يعملوا على احيائها باعتبارها لغة دينهم حتى يكونوا أكثر فهما له ،وانصياعا لأوامره ، وتدبرا للقرآن والحديث تدبرا مباشرا .. وكل هذا ينبعث أو يقوم على أساس واحد كان هدف الهلال الذى أعلن عنه مولانا أزاد : لا هدف للهلال ..

وكان لا بد لهذا التوجيه الديني العام للمسلمين الذى تولاه مولانا "أزاد" أن يصاحبه بحث في العلل والأمراض التي أدت الى ضعف المسلمين ،وتفتيح الأذهان على هذه العلل كي يتخلصوا منها .. ومن أجل هذا كان يركز أحيانا على توجيه العلماء الذين يتولون بدورهم توجيه المسلمين وتثقيفهم ليدركوا هذه العيوب أوالعلل ،ويتلافوها في فهم الدين وتوجيه المسلمين ..

وكان لا بد لذلك من دعوتهم ليتحرروا من جمودهم على التقليد ، دون نظر وأعمال فكر ، ودعوتهم للقضاء على البدع والخرافات التي علقت بالدين وشوهت مفاهيمه فكان دائما يدعو للتحرر العقلي ، وتناول قضايا الدين بروح العالم الفاهم لأهدافه ومقاصده وروحه ، العالم الذى لا يتمسك بالقشور ،ويثير من أجلها الخلافات التي تفرق كلمة المسلمين وتزيد من ضعفهم ، حتى اذا فهم العلماء هذا واقتنعوا به ، تولوا بدورهم التوجيه النافع لعامة المسلمين ،واستغلوا نفوذهم بينهم لبعث الهمم الراكدة ورفض الاستسلام المهين .. ولا شك أن هذا النهج الذى سلكه قد خلق المتاعب التي يثيرها عادة الجامدون والمتعلقون بالبدع والخرافات أمام هذه الدعوة بينما كان

يرحب به ويلتف حوله المتنورون طلاب التحرر الفكرى والمواصى المتبرمون بمظاهر التخلف فى فهم الدين.

وحينما كنت بالهند سنة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ وأنا أزور أحد العلماء اطلعنى على العدد الأول من مجلة البلاغ وكان بتاريخ الجمعة ٤ من المحرم ١٣٣٤ هـ ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٥ م) ، وكانت افتتاحية هذا العدد باللغة العربية ففرحت بها أيما فرح ، فقد مضى على صدور العدد حينذاك نيف وأربعون سنة .. وكان احتفاظه به يعبر عن مدى احتفال العلماء المثقفين بالبلاغ ، وكان هذا العدد هو الوحيد فى مكتبة زميلنا العالم ، ورغم ما أعرفه من حرصه على ارضائى ، فقد دفعه اعتزازه بهذا العدد الى ألا يسمح لى الا بنسخ المقال ، وارجاع العدد اليه ليظل محتفظا به ، وأنا من ناحيتى قدرت هذا الحرص ، ولذلك قمت بنسخ المقال ، وأرجعت اليه كنزه ،وأنا أشعر من ناحيتى كذلك بأننى عثرت على "كنز" أو وثيقة مهمة .. ولم أكن يومها أعرف أن الأيام تخبئ بين طياتها أننى سأجعل هذه الوثيقة ضمن ترجمة لمولانا أزاد .. ولكنها كانت هواية العالم التى يحسها العلماء فى كل مجال من مجالات العلم والثقافة ..

وقد زاد من قيمة المقال عندى أنه يعالج موضوعا مهما وبالغ الحساسية فى ذلك الوقت فى البلاد الاسلامية كلها ، ولا سيما الهند التى يمسك العلماء فيها بتلابيب التقليد ،أويمسك هو بخناقهم ، حتى لا يجعلهم يتنفسون الا فى رحابه ..

وقد جعل عنوانه " المسلمون بين الاجتهاد والتقليد " وهو مقال طويل ينبئك تماما عن مدى ثقافة أزاد ، وقدرته العلمية الدينية ،وبراعته فى عرض فكرته والاستشهاد بالقرآن وبالحديث فى الموضع المناسب تماما ، وقد اتجهت أولا الى اختيار بعض فقرات منه كشاهد على ما أقول ، ولكنى احترت : أى الفقرات أختار وأيها أترك .. فكل فقرة لها موضعها ونهضها بالحياة الفكرية ،فلماذا أوقف هذا

النهض ؟ ولماذا لا أفسح لها المجال الذى تستحقه هذه الرسالة، لنطلع على صورة من تفكير هذا الرجل العظيم وقدرته فى عرض فكرته ، ونلمس التلاقى الكبير بينه وبين السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والسيد رشيد فى الفكر ومنهج الدعوة ،ولهذا جعلتها من ملاحق هذه الرسالة ٣ الملحق ٩، ١٠

ومما يجدر ذكره هنا أن أزاد بعد رجوعه للهند ظل على صلته بالسيد رشيد رضا ، حيث كان يتبادل الرسائل معه فى المسائل المهمة التى تشغل المسلمين فى ذلك الوقت ،مما يدل على الصلة الوثيقة بينهما فى الاهتمام بشئون المسلمين ، وان اختلفا أحيانا فى وجهة النظر نحو بعض القضايا ..

وقد حصلت على[(١)] بعض الرسائل التى كان يكتبها أزاد للسيد رشيد باللغة العربية وهى رسائل تدور حول مسألة الخلافة والعناية العامة بأحوال المسلمين والعمل على تجميع كلمتهم ، وقد حاولت الحصول على رسائل السيد رشيد رضا اليه ولكنى لم أوفق ،ومع ذلك يمكننا أن نستشف من ردود أزاد ما كانت تدور حوله رسائل السيد رشيد ..

ومن خلال الرسائل الثلاث التى حصلت عليها وتاريخ كل منها يظهر لنا أن أزاد وثق صلته بالسيد رشيد حين رحلته الى مصر مما جعله يديم هذه الصلة ويوثقها بعد رجوعه للهند بوساطة هذه الرسائل .. كما يظهر لنا أيضا أن هذه الصلة ظلت طويلا .

فأولى هذه الرسائل كان تاريخها المحرم ١٣٣١ هـ ــ ديسمبر ١٩١٢ م صادرة من كلكتا ولاحظت أن السيد رشيد علق عليها بالقلم الرصاص فى أعلاها بقوله : أجبت عليه فى الحال ١٩/١/١٣٣١ هـ) مما يدل على احتفاله برسائل أزاد وعنايته

---

(١) أمدنى بها مشكورا فضيلة الزميل الأخ الدكتور الشيخ أحمد الشرباصى وقد عثر عليها وهو يبحث فى أوراق السيد رشيد ليكتب رسالته عنه.

بها بالمسائل التى تثيرها .

وثانى هذه الرسائل كان تاريخها ٢٨ مايو سنة ١٩١٣ م (جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ) صادرة من كلكتا أيضا ومكتوبة على ورق لمجلة الهلال ، وكانت تدور كتابتها حول مسألة الخلافة ويخبره فيها أنه عزم على اصدار صحيفة عربية باسم "الاتحاد الاسلامى "لتوطيد الأخوة بين مسلمى العالم ،ويطلب عونه ومساعدته فى مادة الصحيفة ويقول فى آخر الرسالة " لا أزال أراكم صلحا مخلصا لوجه الله داعيا للقرآن الكريم والسنة النبوية وقامع البدع والخرافات .

أما الرسالة الثالثة فكان تاريخها ٧ ذى الحجة ١٣٤٢ هـ ــ ١٩٢٤ م ، ويبدو أن الصلة استمرت بينهما حتى هذه الفترة وغالبا بعدها ،برغم الظروف التى مرت بـأزاد من اعتقال وسجن ، ويشير فى هذه الرسالة الى أن كتب السيد رشيد تصله ويأسف لعدم وصول ردوده بانتظام ،وهو يتحدث فيها عن الخلافة وما طرأ عليها فى هذه الفترة ..

وسأذكر نص هذه الرسائل فى الفصل الخامس مكتفيا هنا بالاشارة اليها لنعلم مدى الارتباط الفكرى الوثيق بين أزاد والسيد رشيد .. ومما لا شك فيه أن الرسائل كانت قائمة بينهما باستمرار والى زمن طويل لا يمكن تحديده وان كنت أظن أنها ظلت حتى انتقل السيد رشيد الى جوار ربه .

والحق أن الهلال والبلاغ قد أدتا دورهما فى ايقاظ المسلمين وتبصيرهم بحقائق دينهم ،واثارة الحمية الاسلامية فى نفوسهم مع قصر المدة التى ظهرت فيها كل منهما ،فقد رأى المسلمون فى دعوتهما وأسلوبهما الجديد فى عرض مبادئ الاسلام ومعانى القرآن ما جعلهم يتعلقون بهما ،ويحرصون على قراءتهما والاحتفاظ بهما يرون فى "أزاد " نموذجا فريدا قل نظيره فى زمانه وبحثوا له عن شبيه فى تاريخ الدعوة الاسلامية والوقوف فى وجه الاستعمار ،ومحاربته البدع والخرافات فجعلوه ابن تيمية زمانه[(١)] ، ولقد عرفنا من قبل كيف اضطر بعد صدور ثلاثة أعداد من الهلال

(١) مجلة معارف الهندية عدد أكتوبر سنة ١٩٣٢

الى اعادة طبعها تلبية لحاجة القراء ورغبتهم فى الاحتفاظ بأعداده منذ صدوره وانه كان يوزع فى مفتتح حياته ٢٦ ألفا كل أسبوع مما لم يحدث مثله فى تاريخ الصحافة الأوردية

وأرى مع هذه الحقائق الهامة أنه لا بأس من أن أنقل هنا بعض ما نشر فى الهلال من رسائل القراء وترجمة الأستاذ مقبول أحمد الهندى فى رسالة الماجستير التى قدمها فى قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر عن أثر أبى الكلام فى الفكر الاسلامى الحديث .

فمن سيد تاج محمد ناظر المدرسة الإسلامية العالية فى هوشيارپور :

" ان دعوة الهلال هى دعوة الحق التى تتبعث من كتاب الله وسنة رسوله فكيف يمكن لمسلم أن ينحرف عن هذه الدعوة ".

ومن قارئ فى بهرايچ :

" ان سياسة الهلال وبلاغته وتعاليمه وطريقة دعوته كل هذه تجد طريقها الى القلب حتى أننى كثيرا ما رأيت عدة مجالس يقرأ فيها واحد من الحاضرين والجميع ينصتون اليه بلهفة واشتياق "

ومن شيخ عالم بانكى پور فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٢ :

" ان صورة الهلال ولغته وحجمه وأسلوبه ودعوته وبلاغته الكلامية كل هذا قد ساهم مساهمة فعالة فى رفع مستوى اللغة الأوردية بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك وفضلا عن هذا فانى أحب جريدتكم خاصة بسبب اهتمامكم البالغ بتعاليم الاسلام وتزيينكم كلامكم بآيات القرآن ، وجذبكم القراء الى تدبر معانى القرآن .. ولقد قرأت كل مقالاتكم معجبا بها ، وكم يحتاج هذا العصر الملحد الى أمثالكم وعملكم " .

ومن الأستاذ عزيز الدين محمد فى مدارس فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٣ :

"سيدى : ان هذه الأمة لا تستطيع أن تنسى جميلكم فى حماسكم الدينى [الهوى] وشعوركم الصادق ، اننى أستطيع أن أقول بكل ثقة : ان هذه الروح الجديدة التى تسرى فى مسلمى الهند مدينة الى حد كبير للهلال تلك الروح التى نتمنى أن تنمو وتخلد ، ونرجو

الله أن يزيد من أمثالك من الذين وهبوا حياتهم للوطن والدين وأن يوفقكم فيما تحملتم من أمانات ".

ومن السيد المولوى عبد الله ـ أمجهير الهلال فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٣:

" لانستطيع أن نعبر عن العظمة التى شعرنا بها فى قلوبنا نحن المسلمين.. البائسين ، والآمال التى ترعرعت فى نفوسنا من أساليب بيانكم وهدايتكم الصلبة وبراهينكم القرآنية ، وان ذاتكم وأسلوبكم لأكبر برهان على أن هناك نفوسا قدسية فى سنوات تحفظ الرجال نفوسا لاتخاف فى الله لومة لائم ، انكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتحيون القلوب الميتة بأسلوبكم المعجز ما أعظم سحره وما أروع اعجازه .. الخ .

ومن رسالة من (شيخ شهير فى ٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ :

انى مداوم على قراءة الهلال منذ صدورها حتى الآن ، وليست هناك مقالة من مقالاتكم الا قرأتها بجد وعناية ، وانى أوقن بأنه لاتوجد مجلة فى الهند ولا فى العالم الاسلامى مثل الهلال التى تنشر تعاليم الاسلام وان الله سبحانه وهبكم هذه الموهبة الخاصة التى جعلتكم تنظرون الى كل مسألة بمنظار الدين حتى وقفتم تدافعون عنه كما لم يدافع أحد متمسكا بأن القرآن الكريم جامع لكل معالم الرقى والرفاهية ".

ولقد أعلن مولانا محمد على رئيس جمعية الخلافة أنه تعلم الزعامة والقيادة من النثر الكتابى لأبى الكلام والشعر البليغ للعلامة " اقبال ".

وأعلن أخوه شوكت على بأنه تأثر تأثرا عظيما بآراء ابى الكلام وأنه أضاء له الطريق ومهد له السبيل (ص ١٦٦ من الرسالة)

وما قاله الشاعر الهندى الكبير " أكبر اله آبادى ".

ان الحق لايمكن أن يزال ولا أن يهدم فى هذه الدنيا بينما يكون الهلال دائما وأبدا مشرقا عليها " ، وقد سبق أن ذكرنا ماقاله شيخ الهند مولانا محمود الحسن : " كدنا ننسى مهماتنا فذكرنا الهلال بها " ، ونذكر مع هذا ما قاله السيد سلمان الندوى وهو من كبار المثقفين والرواد المسلمين " لاشك أن مجلتى الهلال والبلاغ لابى الكلام أزاد قد كونتا

الذوق القرآني لدى الشبان المسلمين وفتحت نوافذ جديدة أمام الجيل الجديد وعرضت الآيات القرآنية بأسلوب بلاغي يتسم بالحكمة وجودة الصياغة والقوالب الفنية التي أثارت القلوب بنور الايمان واليقين ، وفتحت أبواب البيان والتبيين ، وكشفت معاني القرآن وسمو قول الرحمن وروعة بيانه"[١] . هـ

ولقد كان من الطبيعي لمولانا أزاد أن يتبنى القضايا العامة للمسلمين خارج الهند على صفحات مجلته ويعرضها ويدافع عنها ، ويلهب مشاعر قرائه نحوها ولا سيما ما يتصل منها بدولة الخلافة التي كانت هدفا لنيل الدول الغربية منها وبعض أراضيها كما حدث في هجوم ايطاليا على طرابلس ... ليبيا ، وتمرد دول البلقان وحربها لدولة الخلافة مستعينة بالدول الغربية .. فلقد ألهبت هذه الأحداث قلم أزاد فكتب المقالات الاسلامية النارية التي يستحث فيها المسلمين على مساعدة دولة الخلافة بكل ما يستطيعون وكان لذلك صداه فيما قدمته الهند من معونات مالية وبعثات طبية للأتراك في ذلك الوقت .. ومما قاله في ذلك : " ان كل مسلم أينما كان في أية رقعة من الأرض اذا كان من أهم واجباته أن يعمل على بقاء الاسلام فان من فرائض الدين أن يحافظ على مكانة الخلافة العثمانية في قلبه ، وأن يعد الدولة التي تعتدى عليها من أعداء الاسلام والتي تصادقها من أصدقاء الاسلام ، لأن صداقة المسلمين أو عداوتهم ينبغي ألا تكون لغرض شخصي بل تكون للدين الحنيف فقط " "الهلال ١٦/١١/١٢" .

وكان يعتبر الجهاد أصلا لبناء الاسلام فمن لم يقم به لم يقبل منه فروض أخرى فرعية ، لأن الأصل اذا سقط والأساس اذا فقد فانه لا تقوم فرعيات .

ويقول مولانا يوسف البنوري[١] وهو من كبار علماء الهند وباكستان وصاحب المدرسة

---

(١) في كتابه "مشكلات القرآن" المطبوع بالهند ص ٣٢

العربية الاسلامية فى كراتشى ومثل الباكستان عدة مرات فى مجمع البحوث وهو ينقـد آراء أزاد فى التفسير .

" والحقيقة أن أبا الكلام أحمد الدهلوى رجل وقاد القريحة ،واسع الاطلاع صاحب بيان وبنان بالأوردية ،وعسى أن يكون فريدا فى بدائع الانشاء ومحاسن الخطابة فى الأوردية فى عصره ،بل كاد يكون مخترعا لبديع أسلوبه وحياته قبل عشرين عاما كانت أنقع للقوم (كتب هذا سنة ١٩٣٧) فهو يحكم عليه حين كان يصدر الهلال والبلاغ) من حياته الحاضرة ولقدم راسخة فى السعى لانقاذ الوطن من مخالب الحكومة الأجنبية ولم يأخذه خوف الحكومة وصولتها ،وفى قلبى له منزلة من مساعيه الحميدة فى سبيل حرية الوطن وانه استحث فى أوائل أمره كثيرا من أولى الهمم المتوانية وأيقظ الرقود فى سبيل جهاد الحرية باجراء جريدتيه : الهلال ،ثم البلاغ ،وبخطابته الجذابة للقلوب فى المحافل السياسية ".

ونحب أن نضيف لما سبق من تقييم لمجلتى الهلال والبلاغ وأثرهما فى حياة المسلمين ما كتبه الزعيم نهرو (١) عن ذلك من وجهة نظره ..

(اشتهرت سنة ١٩١٢ بتطور العقلية الاسلامية فى الهند بسبب من ظهور صحيفتين أسبوعيتين جديدتين "الهلال" باللغة الأوردية و "كومراد" ــ الرفيق باللغة الانكليزية ،ولقد أصدر "الهلال" "أبو الكلام أزاد" (الرئيس الحالى للمؤتمر سنة ١٩٤٤م" وكان شابا ألمعيا فى الرابعة والعشرين من عمره تلقى علومه الأولى فى جامعة الأزهر (٢) بالقاهرة ،واشتهر وهو بعد فى العقد الثانى من عمره بمعرفته العميقة بالفنون العربية والفارسية الى جانب الماه بالعالم الاسلامى خارج الهند وبالحركات الاصلاحية التى

---

(١) ص ٢٤١ ومابعدها من كتابه " من السجن الى الرياسة أو اكتشاف الهند" الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ اصدار دار العلم للملايين فى بيروت.

(٢) غير صحيح ورجع نهرو نفسه وصحح خطأه فى الكلمة التى ألقاها فى جلسة البرلمان الهندى لتأبين أزاد فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٨.

كانت آخذة مجراها فيه مع التطورات الأوربية أيضا ، واذ كان متشربا للتاريخ الاسلامــى وذا صلات شخصية كثيرة مع زعماء مصلحين مسلمين بارزين فى مصر وتركيا وسوريا وفلسطــين والعراق وايران فقد تأثر تأثرا قويا بالتطورات السياسية والثقافية فى هذه البلــدان ... والحروب التى خاضتها تركيا أثارت فيه الاهتمام والعطف الشديدين ، ومع ذلك فان وسيلتــه للتعبير عن هذا الاهتمام وهذا العطف كانت تختلف عن تلك التى اتبعها زعماء المسلمــين الأكبر سنا .. الى أن يقول :

ولقد تكلم أبو الكلام أزاد اليهم بلغة جديدة فى صحيفته الأسبوعية "الهلال " أنها لم تكن لغة جديدة فى الفكر والنظرة فحسب ، بل ان تركيبها كان مختلفا ، ذلك أن أسلــوب أزاد كان شديدا وبطوليا ولو أنه كان فى بعض الأحيان على جانب ضئيل عن الغموضـــة بسبب من أساسه الفارسى ، لقد استعمل تعابير جديدة لفكرات جديدة ، وكان مؤثـــرا قاطعا مصاغ اللغة الأوردية وجعلها على ما هى عليه اليوم ، ولم يكن رد الفعل لدى الزعماء المسلمين الأكبر سنا مؤاتيا ولم يحبذوا كل هذا ، بل انتقدوا آراء أزاد وطريقته ، ومع ذلــك فان أعلمهم لم يكن باستطاعته أن يصارع آزاد حجة ، حتى على أساس من القرآن الكريم والحديث النبوى ذلك أن معرفة أزاد بهما كانت أكبر من معرفتهم بهما .

ومن بين الجيل السابق كان هناك عدد قليل يوافقون على كتابات أزاد وكان مــن بينهم مولانا شبلى النعمانى الذى كان هو نفسه قد زار تركيا والذى كان على اتصال بالسيد سيد أحمد خان فى كليــة عليكره ، غير أن تقليد عليكرة كان مختلفا ومحافظا من الناحيتــين : السياسية والاجتماعية وكانت هذه الجماعة قد أصبحوا النخبة الاسلامية المثقفة ، وأثروا علنــا أحيانا ومن وراء الستار أحيانا أكثر فى كل حركة اسلامية تقريبا وانما أوجدت العصبــــية الاسلامية نتيجة لجهودهم .

ولم يهاجم أبو الكلام أزاد هذا المعقل المحافظ المعادى للقومية بصورة مباشرة بل بنشر آراء تنسف تقليد عليكرة ، وقد أحدث هذا الكاتب والصحفى الشاب تأثيرا عظيمــا فى الأوساط الاسلامية المثقفة ، وبالرغم من أنه لم يحجب الشيوخ فان كلماته قد كونت خميرة فى

عقول الجيل الناشيء ، وكانت تلك الخميرة قد بدأت من قبل بسبب من حوادث تركيا ومصر وايران وكذلك بسبب من تطور الحركة الوطنية الهندية ، ولكن أزاد وجهها وجهة نهائية عند ما أشار بأنه لم يكن هناك تعارض بين الاسلام والعطف على البلدان الاسلامية ، وبين الوطنية الهندية ، مما ساعد على تقريب العصبة الاسلامية من المؤتمر الوطني الهندي .

ترجمة معانى القرآن أوكتابه ((ترجمان القـــــــرآن))

لقد كان اصدار أزاد لمجلتى الهلال والبلاغ فى صدر شبابه يمثل قصة أولـــى نشاطه الدينى ودعوته الاصلاحية بين المسلمين ،ولكن الأثر القيم الخالد الذى تركه فـــى هذا المجال من بعده هو "ترجمان القرآن الكريم" وقد بدأ فيه وهو فى هذه الفترة وان كانت الظروف قد حالت دون اخراجه للناس لمدة طويلة حيث لم ينشر الا فى سنة ١٩٣١ لظروف ستعرفها ..

واذا كانت ظروف الجهاد الوطنى لتحرير الهند ، قد استولت على وقته ونشاطـــه بعد أن خرج من الاعتقال فى أول سنة ١٩٢٠ حتى آخر حياته ،الا أنه ظل ـ برغم ذلـك ـ وفيا لدعوته الاصلاحية ،متشبثا باتمام ما بدأه من خدمة القرآن الكريم ..

والحق أن أزاد كان رجلا موهوبا فى فكره ونظرته للدين وللحياة متبحرا فـــى العلوم الاسلامية من تفسير وحديث وفقه ، مع المامه الواسع بالتاريخ الاسلامى القديـــم والحديث ، ودرايته بأحوال الأمم فى ماضيها وحاضرها بجانب موهبته الخطابية والكتابيـــة ولو أنه ظل فى طريقه الذى بدأ به حياته ونشاطه .. وهو طريق الاصلاح الدينى ـ لكان له شأن أوسع مدى فى تاريخ الحركات الاسلامية الاصلاحية لا فى الهند وحدها ، بل فـــى العالم الاسلامى كله .. وقد أحس ذلك كل من اتصل به وعرفه حتى من غير المسلمين ..

يقول "غاندى" عنه فى مقدمة كتاب كتبه أحد مؤرخى الهند المعاصريـــن عن مولانا أزاد "انه لايدانيه أحد فى التبحر فى العلوم الاسلامية كما أنه متمكن من اللغـــة العربية .

ويقول "نهرو" عنه فى كلمته التى أبنه فيها[1] "لواستمر مولانا أزاد فى جهاده الكتابى بعيدا عن تيار السياسة لكان لذلك أثره البعيد المدى فى تكوين الشعب تكوينـــا فكريا نظيفا ، وتكوينا علميا منظما يرسم له طريق العمل الواضح المستنير ،ولكن الظـــروف السياسية أجبرته على أن يتخلى عن هذا ولا يعطيه كل اهتمامه"

---

(١) ونشرت بجريدة "الجمعية" لسان حال جمعية علماء الهند فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٨م

ويقول في معرض حديثه عن أزاد في كتابه "من السجن الى الرياسة" ص ٢٤٢ وعن نقد بعض الزعماء المسلمين الأكبر سنا منه لآرائه" ومع ذلك فان أعلمهم لم يكن باستطاعته أن يضارع أزاد حجة حتى على أساس القرآن الكريم والحديث النبوى ، ذلك أن معرفة أزاد بهما كانت أكبر من معرفتهم بهما ".

ان أضواء أزاد السياسية ونجاحه المنقطع النظير في ميدان الحركة الثورية وتحدثه باسم الهند مع الانجليز في مفاوضات الاستقلال لا يمكن أن تخطف أبصارنا عن جانبه الديني الأصيل واللامع ، فأزاد في أصل تكوينه عالم من علماء الاسلام وعلى مستوى رفيع في فهمه والتعبير عنه .. بل ان الذى دفعه لخوض غمار السياسة هو فكره الديني وشعوره بالواجب الذى يحمله دينه اياه نحو وطنه واخوانه ، فكان لقوة شخصيته وايمانه بواجبه اماما في الميدانين الديني والسياسي معا حتى أطلق عليه صاحب الامامتين ، وكان دوره في الاصلاح الديني في الهند يضارع دور الأفغاني ومحمد عبده مع تأثره بهما كما سبق القول .

ولقد كانت "الهلال" ثم "البلاغ" الصوت القوى لدعوته الاصلاحية ونشاطه الديني وعلى صفحاتهما أخذ يبث دعوته وآراءه ، وكان لابد لداعية مثله أن يعتمد — قبل كل شيء — على القرآن الكريم في هذه الدعوة ، كما يقول " لاهدف للهلال الا دعوة المسلمين للتمسك بالقرآن الكريم وسنة رسوله .. الخ " ، ومن خلال دراساته التي تلقاها في صدر شبابه ، ومطالعاته للتفاسير وتأثره بمدرسة الأفغاني ومن قبلها بابن تيمية (١) ، وابن القيم (٢) ، واحساسه وفهمه لقضايا العصر والفجوة التي تفصل المسلمين عن مسايرة الركب

(١) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني ولد بحران في سوريا سنة ٦٦٢ هـ ١٢٦٧ م ، وكان اماما في فهمه للاسلام والدفاع عنه في شجاعة في الرأى مما جعل له خصوما وشوا به الى الحكام في مصر وسوريا فسجنوه ، وقد توفي وهو في سجنه بدمشق سنة ٧٢٩ هـ — ١٣٢٨ م .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ، كان أبرز تلامذة ابن تيمية وحامل علمه ومنهجه ، وتحمل ما تحمله استاذه من اضطهاد ولد سنة ٦٩١ هـ ١٢٩١ م . وتوفي بدمشق سنة ٧٥٢ هـ ١٣٥١ م

أنتطور لعدم فهمهم لدينهم فهما سليما ، ثم احساسه كذلك بحاجة المسلمين فى الهند بخاصة — لتقريب معانى القرآن اليهم فى صفاء ونقاء ، وفهمهم لأغراضه ومراميه ليعتمدوا عليه فى نهضتهم ومن خلال ذلك كله أوعلى ضوئه اتجه للقيام بهذه المهمة كأساس أول لانطلاق الى دعوته الاصلاحية .

ولتحقيق غرضه بدأ بترجمة لمعانى القرآن بأسلوبه الممتاز فى اللغة الأوردية ، وأعلن ذلك للناس وبدأ ينشر فى مجلته ما يقوم به من ترجمة ، وراعى فيها أم تكون مبسطة يفهمها طلاب العلم والقراء العاديون ، وشاء الله ألا تتم هذه الترجمة كما أراد ولا يظهر منها الا مجلدان فى سنة ١٩٣١ م بعنوان "ترجمان القرآن" وقف فيهما عند آخر سورة "المؤمنون".

ولكى يزداد فهمنا للدوافع التى دفعته لهذه الترجمة ، وفهمنا كذلك لمولانا أزاد المصلح الدينى أرى أن أسجل هنا مشروعه الذى وضعه لخدمة القرآن الكريم واشاعة تعاليمه .. والذى بدأ التفكير فيه وتنفيذ ما أمكنه تنفيذه منه منذ كان يصدر مجلة الهلال ، ثم وقفت عقبات فى طريق هذا المشروع ، أمكنه التغلب على بعضها ، وعجز عن التغلب على البعض الآخر .. فتركه لغيره ممن يفكرون ويعملون لخدمة القرآن الكريم وقد أتيح له أن يتحدث عن هذا المشروع وهو يكتب مقدمة المجلد الأول من "ترجمان القرآن" بعد أن توفرت له وسائل نشره لأول مرة سنة ١٩٣١ م .

وهذه هى المقدمة (١) بعد ترجمتها :

" يجرى الآن نشر المجلد الأول من "ترجمان القرآن" والثانى تحت الطبع ، ويمكن أن أقول الآن فى جرأة : أن أصعب العوائق فى طريق الاصلاح الدينى للمسلمين قد ذللت ".

لقد كان من أول ضرورات الاصلاح الدينى العمل على تعليم القرآن وفهمه بأسلوب العصر ، وطبقا لمقتضياته ، ومن سوء الحظ أن ذلك لم يكن متيسرا ، اذ كان

---

(١) رجعت فى ترجمتها الى أحد الاخوة الازهريين الذين يجيدون الاوردية وهو الأستاذ جمال مناع والى مقال نشره مولانا عبد الحميد النعمانى العالم الهندى فى مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٢ تحت عنون "تسع وعشرون عاما".

من الضروري لتحقيق هذا الغرض ما يلي :

(١) تنحية المشكلات التي[1] نشأت في طريق فهم القرآن وتدبره ،والتي بسببها لم نستطع الوصول الى جوهر القرآن وأسراره ،وطالما بقيت هذه المشكلات فان محض الترجمات أوكتابة التفاسير لاتمثل كسبا ،ولا تلقى قبولا أورواجا . لذلك كان من الضروري اعداد كتاب في الأردو ، يمكن أن يقال عنه في ثقة أن قراءته وتدريسه كافيان لفهم مقاصد القرآن واعطاء صورة عن جوهره وحقيقته ،ليس ضخما أوطولا يضيق عنه وقت الدارس ، وليس مختصرا يتعثر القارئ في فهمه بسبب اختصاره ،له طابع الترجمة ،ولكنها الترجمة التي لا يتوقف وضوحها على شيء آخر[2] ، بحيث يمكن اعتباره معيارا ومنهجا لدراسة وتدريس القرآن .

(٢) كان من الضروري كذلك ،لنشر القرآن عالميا ،أن ينتقل الى مختلف اللغات وأن يوضع معيار أساسي للنقل والترجمة ،ولكن لسوء الحظ لم يكن هناك أي كتاب في هذا الصدد يمكن الاعتماد عليه .

كان من نتيجة تلك الحال ، رؤية الطريق مسدودا أمام أية محاولة اصلاحية .

ان دعوة المسلمين الى دراسة القرآن بطريق مباشر وعملي ،تمثل أولى الخطوات الضرورية للاصلاح ،ولكن هذه الدعوة لم تنجح ،لأن وسائل الفهم والدراسة كانت مفقودة .

وكان من الضروري كذلك الاهتمام بوضع منهج سليم للتعليم الديني في المدارس ولما كان القرآن هو الأصل في ذلك ، وكانت وسائل تعليمه غير ميسرة ، لم يكن اصلاح منهج التعليم الديني ،وبالتالي لم يمكن اصلاح المدارس العربية ، وان كان اصلاحها من أهم

---

(١) تحدث أزاد عن هذه المشكلات كما يراها في مقدمة أخرى كتبها لترجمان القرآن سنذكرها فيما بعد .

(٢) ذكر أزاد أنه عند بدئه في الترجمة راعى هذه الناحية وكان يختبر درجة وضوحها بعرضها على متوسطي الثقافة وطلاب العلم ليعرف مدى وضوحها من درجة فهمهم لها ..

زوايا الاصلاح ، لأنه لم يكن هناك كتاب تفسير ملائم.

ولهذا لم نستطع أن ندعو العالم الى دراسة القرآن ،لأنه اذا أراد الآخرون تلك الدراسة فليس لدينا أى كتاب يمكن أن يقدم لهم فى لغتهم ،ويقال عنه : هذه مرآة تستطيعون أن تروا من خلالها صورة القرآن.

وانه لمن المخجل جدا فى هذا الصدد ،أن الانجيل ترجم الى كل لغات الدنيا المعروفة مئات الآلاف من الترجمات والطبوعات قد تمت كذلك فى اللغات غير المشهورة ، على حين أننا لم نستطع حتى اليوم أن ننشر ترجمة للقرآن فى لغات وطننا التى يتحدثها ملايين الهنود صحيح أنه قد تمت بعض الترجمات فى الأردو ،وأن هناك ترجمات قديمة فى الانجليزية أضيف اليها جديد باقلام بعض المسلمين ،ولا يمكننى أن أنكر المجهود المبذول فى أى منها ولكنى أقول أنها لا تفى بالمقصد ،فى ضوء ما قدمنا من الملاحظات.

ولقد مرت فترة مالم يحس المسلمون فيها ضرورة الاصلاح الدينى ،ولكن فى سنة ١٩١٢ أصدرت "الهلال" ولاح للناس طريق جديد (١) فى فهم القرآن ،ومنذ ذلك الوقت وأنا أدرك بصفة مستمرة احساس مسلمى الهند بضرورة الاصلاح ،وكذلك رغبة عالمية فى ذلك.

ان الناس يودون بلاشك أن يفهموا القرآن فى صورته الأصلية ،ولكنهم لم يهتدوا الى الطريق ،يرغبون فى اقامة نظام تعليم دينى على أساس سليم ،ولكن أسباب ذلك لم تتيسر لهم ، ارتضى بناة المدارس والمشرفون عليها ،اصلاح مناهج التعليم ، ولكن لم يجدوا الوسيلة لذلك ،ومنذ سنة ١٩١٢ أظهرت لى مدارس عديدة رغبتها فى أن أعد لها منهجا سديدا ،وقد فعلت ،ولكن عندما كانوا يسألون : ماذا عن تعليم القرآن؟ لم أكن أجد بدا من النصح بالانتظار .

كان ذلك منذ ستة عشر عاما (٢) حين أحسست بضرورة هذا العمل وشرعت فيه

---

(١) عن طريق ما كان ينشره من ترجمة وفهم لمعانى القرآن فى مقالاته..

(٢) يلاحظ أنه كتب هذه المقدمة فى سنة ١٩٣١

ولكن لسوء الحظ كانت العوائق تأتي حينا فحينا ، ولم أستطع انجازها بدأت ، والآن بتوفيق الله يفسر "ترجمان القرآن" بعد تكميله ، وأحس أن أبواب الاصلاح تنفتح بعد أن كانت مغلقة بسوء تصرفنا وأعمالنا .

هذه بداية لها مابعدها :

والحق أن الذي تماما هو بداية ، وبقي جهد آخر يجب عمله ، ولا يمكن انجاز المقصد العظيم من تعليم القرآن ونشره مالم تتحقق الأمور التالية :

(١) نشر "ترجمان القرآن" بأعداد ضخمة وفي طبعات متنوعة من حيث نوع الأوراق والأحجام حتى يتمكن كل فرد وطائفة من الانتفاع به ، وحتى لا يخلو منه بيت مسلم .

(٢) تدوين علوم القرآن ومباحثه على نحو جديد ، فمثلا مبحث للغة القرآن وأسلوبه ، وآخر لمقاصده ، وثالث لطرق استدلاله ، ورابع لقصصه وأمثاله ، وخامس لتاريخ نزوله وتدوينه وهكذا ، وبذلك يمكن أن يتم بيان القرآن وايضاح مقاصده في سلسلة متكاملة سهلة وواضحة .

(٣) بعد بيان أسلوب القرآن وطرق استدلاله في اختصار ، ينبغي أن ترتب أبواب وعناوين تدخل تحتها المطالب والموضوعات القرآنية كل قسم على حدة ، فيصبح كل جانب توجيهي في القرآن محددا واضحا .

وقد اكتمل ترتيب "ترجمان القرآن" على وجه سهل بحيث يمكن أن ينشر كله سورة واحدة ، أوفي أجزاء مع ملاحظة ترتيب الأبواب والمضامين أووضع عناوين لها[٢] وكما هو ظاهر في تفسير الفاتحة . "

(٤) ينبغي اعداد كتاب على نهج المراجع والمصادر يسهل الاهتداء به الى بحوثه وألفاظه[٣] ، فترتب مثلا ألفاظ القرآن ترتيبا مفهوما يشمل كل الجوانب ، ويمكن أن تدلهم

---

(١) وقد ظهر مثل ذلك باللغة العربية مترجما وغير مترجم مثل تفصيل آيات القرآن لجون لابوم ترجمة الاستاذ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) يلاحظ أن ذلك متبع في تفسير المنار وربما يكون ازاد قد تأثر به .

(٣) ظهر مثل ذلك باللغة العربية وهو المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي عليه رحمة الله

بعض الخرائط التاريخية والجغرافية ، التي وردت اشارات في القرآن اليها ، حتى يمكن أن تعين على توضيح الأماكن والحوادث (١) .

ولقد أحس بعض مستشرقي أوربا بضرورة كل ذلك ، وسبقونا اليه كما سبقونا في ميادين كثيرة ، ولكن ما تم حتى الآن غير كاف ، ويجب أن يتم ذلك على نحو يفي بالمقصد .

لقد تم طبع الانجيل طبعة عادية لم يتيسر لنا أن نصل بأفضل طبعاتنا للقرآن الكريم الى مستوى اعدادها ، نحن لم نستطع لا في الهند ولا في العالم الاسلامي ، أن ننشر القرآن في طبعة تجتمع فيها محاسن الطباعة العصرية (٢) ، ولا زلنا نظن أن أجل خدماتنا للقرآن هي أن نطبعه في اطار مذهب أونزين سطوره بالألوان .

٥) أخيرا في الذكر وأولا في الأهمية ، يجب ترجمة القرآن الى لغات متعددة وطبعه في اعداد كثيرة ، بحيث يصل الى أهل اللغات التي اتفق الناس على أهميتها .

ويجب أن تقام ادارة (٣) أو هيئة تشرف على نشر القرآن وطبعه وخدمته ، على نحو ما يتم في أوربا وأمريكا من جهود الروابط والجمعيات التي تسمى " جماعات الانجيل " والى أن يتم انشاء تلك الادارة ، واختيار نخبة من الرجال للعمل بها والى أن تتوفر احتياجات الطبع والنشر ، فلن يزيد الأمر عن أن يكون محض خيال .

كنت قد خططت لادارة مثل هذه منذ عامين ، وقد أدهشني أن أعرف أنه يمكن بقليل من المال انجاز عمل كبير مثل هذا ، كان في تقديري أن نجمع مبلغا للطبع والنشر مرة واحدة ، ثم نجمع مبلغا شهريا لمدة ثلاثة أعوام من أجل جهاز العاملين وبذا يمكن أن تنشأ ادارة كبيرة ، وفي خلال ثلاث سنوات تكتمل أسس العمل وقواعده ، ثم يمكن أن يرصد

---

(١) لم أطلع على مثل هذا باللغة العربية ، وقد فصل أزاد مثل هذا عند حديثه عن ذي القرنين .

(٢) ربما كان ذلك في وقته أو أنه لم يطلع على كل ما طبع في البلاد الاسلامية ، واعتقد أن ذلك متوفر الآن والحمد لله .

(٣) خططت لمثل ذلك وزارة الأوقاف المصرية من عدة سنين ووضع الحجر الأساسي لدار القرآن في ميدان رمسيس والمطلة بالقاهرة حين كان الدكتور محمد البهي وزيرا للأوقاف .. ويبقى مع ذلك لأزاد فضل التفكير والتخطيط والعناية المبكرة بهذا المشروع .

دخل المطبوعات للصرف على الادارة مستقبلا .

وفيما يتعلق بترجمة القرآن ،ينبغى اتمام ذلك فى الانجليزية والفرنسية أولا ،لأن العمل فى بقية الألسنة الأوربية بعد ذلك يصبح ميسورا .

وكذلك فى اللغات الشرقية : الفارسية والتركية ،والباشتو (الأفغانية)لأن أغلب المسلمين يتحدثون بهذه اللغات ،كما يجب العناية بترجمته للألسنة السائدة فى الهند مثل البنغالية ،الكجراتية ،المرهتية ، التامل ــ التلجو ــ الهندية ،كما ينبغى طبعه باللغـــة الهندية ،ويفرض الدراسة فى المدارس العربية ،والنشر فى البلاد العربية ،لا بد من اعداد طبعة عربية .

انى أقول فى ثقة أنه لو أقيمت ادارة مثل هذه ،ففى خلال سنوات ثلاث يمكـــن أن يتم الجزء الأكبر من هذا العمل ،ويمكن أن تبقى مطابع ذلك المشروع مفتوحة ،تعمل علـــى مدى الزمن .

ان عملا مثل هذا يعتبر من أكبر مقاصد المسلمين ،أوهو على الأقل عمل ينتظـــره منا الغير ،وأنا لا أقول أن هذا العمل يتم فى الحال .

ان هناك طريقين لتحقيق ذلك : أن يسهم العامة فى المشروع ،أو أن يتبرع تجار المواطنين ،وأنا لا أحب الأولى ،ولا أنتظر الثانية ،وفى الظروف الحالية ليس لى من سبيـــل سوى الاعتماد على جهودى الذاتية ،فأعمل ما أستطيع ،وأرجىء الباقى الى المستقبل ،وقـــد صممت على أن أترجم "ترجمان القرآن" (١) الى الانجليزية والهندية بعد الانتهاء من نشـــره ان شاء الله ..

من هذه الخطوط التى رسمها مولانا أزاد للطريقة التى يمكن بها خدمة القـــرآن الكريم ،وبالتالى البدء فى طريق الاصلاح الدينى ،يمكن أن تكون فكرة عن هذا العالم المصلح ومدى غيرته واهتمامه للنهوض بالمسلمين .. وترى فيما عرضه من تخطيط أنه لم يقف عنـــد دور الكلام ،بل أخذ على عاتقه البدء بالعمل ،وكان أهم الأمور التى عرضها للاصلاح الدينى

---

(١) مع الأسف لم يتم له ما أراد وصمم عليه .

هو تقديم ترجمة لمعانى القرآن بأسلوب عصرى مع مراعاة مقتضيات العصر .. ومحاولة فهم القرآن بعيدا عما أحاط به على مر القرون من تفسيرات أضافت للنبع الالهى الصافى كثيرا من الآراء والأهواء والحشويات كما يكشف عن ذلك فى مقدمته الآتية " قيمة التفسير " وكانت خطته للقيام بهذه المهمة الجليلة أن يقدم ترجمة لمعانى الآيات بأسلوب أوردى واضح يستطيع أن يفهمه القراء على اختلاف مستوياتهم يسميه "ترجمان القرآن" وأن يجعل بجواره تفسيرا وتوضيحا لمعانى الآيات وأغراضها يسميه " تفسير البيان " وأن يضع لذلك مقدمة للتفسير تتصل بدراسة القرآن من حيث نزوله وأسبابه وغير ذلك مما نسميه بعلوم القرآن ،وبذلك يكون قد قدم للقراء الثقافة القرآنية من جميع نواحيها ،ينهل منها كل قارئ حسب ثقافته ومستواه الفكرى ، ثم كان عزمه كذلك أن يقوم بنقل ترجمان القرآن الى اللغتين الانجليزية والفرنسية .. ولكن مع الأسف لم يتم اخراج هذا المشروع كاملا والى حيز الوجود ،ولم يصدر منه الا ثلاثة مجلدات من ترجمان القرآن وصلت الى آخر سورة " المؤمنون " وقد تركه أزاد لمن يتمه من المهتمين بأمر المسلمين ، على أنه أعطى عناية خاصة لسورة الفاتحة ففسرها بتوسع وافاضة ، حيث أخذ تفسيرها وحده مجلدا خاصا من نحو ٢٠٠ صفحة فى الطبعة الثالثة لترجمان القرآن ،ويمكن اعتبار هذا التفسير نموذجا لما كان يريد أزاد كتابته .

تاريخ الترجمة فى الهند :

وبمناسبة حديثنا عن قيام مولانا أزاد بترجمة القرآن أى ترجمة معانيه أحب أن ألفت الأنظار هنا الى أن ترجمة معانى القرآن قد استقر الاجماع بين العلماء فى الهند على ضرورتها ، والقيام بها منذ نحو قرنين من الزمان ، وذلك تلبية لضرورة واقعية تتمثل فى عدم فهم المسلمين للغة العربية ، فى الوقت الذى يحتاجون فيه لفهم القرآن ،فلم يكن هناك بد من الترجمة .. وكان أول من قام بها فى الهند هو العالم المحقق الحجة شاه ولى الله الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦هـ١٧٦٢م فقد ترجمه الى الفارسية ترجمة " على شاكلة النظم العربى فى قدر الكلام وخصوص اللفظ وعمومه وغير ذلك . (١)

---

(١) ص ٤٠٧ من كتاب نزهة الخواطر ج ٦ للعلامة مولانا عبد الحى بن فخر الدين الحسنى اللكنوى طبع دائرة المعارف العثمانية فى حيدرأباد الهند ،ويلاحظ فى الهند أنهم يقولون : "ترجمة القرآن "دون أن يحسوا حاجة للقول بترجمة معانى القرآن كما نحتاط هنا .

ثم قام ابنه العالم المحقق مولانا عبد القادر الدهلوى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٤م بترجمته كذلك ، ولكن باللغة الأوردية " فكان من أعظم ما من الله به سبحانه عليه أن وفق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره فى لغة أهل الهند " (١) ، وكانت هذه الترجمة هى أول ترجمة بالأوردية ، وتتابعت الترجمات بعد ذلك ، يقوم بها فطاحل العلماء المقتدى بهم ، وتعد من مفاخرهم .. وكان ممن قام بذلك فى هذا القرن من كبار العلماء مولانا محمود الحسن شيخ الهند المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ ١٩٢٠م حيث عكف وهو معتقل فى مالطا أيام الحرب العالمية الأولى على كتابة ترجمة مختصرة ، تكتب تحت كل سطر من القرآن الكريم حيث تجد السطر العربى ، وتحته ترجمته أو تفسير لألفاظه بالأوردية يستعين بها القارىء الذى لا يعرف العربية على فهم ما يقرأ أولا بأول ، وهو متداول كثيرا فى الهند كما لمست وأنا هناك ، وهو – كما قلت – قاصر على بيان معانى الألفاظ القرآنية بما يؤدى معناها باللغة الأوردية ..

أردت بهذا العرض السريع لتاريخ ترجمة القرآن فى الهند أن أبين أن هذا الأمر الذى اشتد .. ولا زال حتى الآن يشتد الجدل حوله هنا فى مصر والبلاد العربية كان علماء الهند الكبار قد فرغوا منه ، وقاموا به خدمة للقرآن وللمسلمين ، وعد ذلك من أجل مفاخرهم وخدماتهم للاسلام منذ أكثر من مائتى سنة .

ولكن مما لا شك فيه أن كل ترجمة من هذه الترجمات قد حملت لغة وأفكار العصر الذى تمت فيه ، واللغة الأوردية لغة حديثة لا يزيد عمرها عن خمسمائة سنة وهى تتطور بسرعة ، ويدخلها الكثير من ألفاظ مختلف اللغات الفارسية والهندوكية والعربية والتركية والانجليزية ، ولا ترفض دخول لفظ غريب عليها مهل تقبله وتهضمه وتمسح من ألفاظها .. وهى لذلك تتبدل وتتغير حسب الزمان والظروف . ومن أجل هذا صارت أول ترجمة بالأوردية ترجمة صعبة الألفاظ ، لا يفهمها قراء العصر بسهولة ويحاول القادرون منهم على الترجمة ، أن يقوموا بترجمة جديدة مناسبة للغة المتداولة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٥ .

ولذلك تعددت الترجمات ، وكثرت باللغة الأوردية حتى جاء مولانا أزاد بأفكاره الجديدة عما يجب أن يكون عليه تفسير القرآن وترجمته .. فوضع الخطط لهذا المشروع وبدأ فيه ، ولكن تعرض مشروعه هذا لصعوبات كثيرة تحدث عنها فى مقدمة أخرى وضعها حين أتيح له نشر "ترجمان القرآن " ، وهى تعطينا صورة عما عاناه هذا الرجل فى سبيل مشروعه ، وعن اصراره برغم ذلك على اخراجه للقراء ، ولذلك أرى من الخير أن نسوق هنا فى اختصار هذه المقدمة التى جعل عنوانها :

قصة هذا التفسير :

وقد أشار فى أول حديثه الى واقعة أثارت ذكراها عاطفته ، وهو يكتب مقدمته وهى واقعة لها مغزاها فيما كان يتمتع به وهو فى صدر شبابه من ثقة دينية فى نفوس أهل الهند جميعا من المسلمين ، وقد حدثت هذه الواقعة وهو محدد الاقامة فى بلدة " رانچى " حين خرج من المسجد بعد صلاة العشاء ، فيقول :

" فشعرت كأن أحدا يقتفى أثرى ، فانثنيت ، فاذا برجل ملتف بثوبه رأيته ماثلا أمام عينى فقلت له : هل لك من حاجة ؟

قال : نعم ياسيدى ، وأنا قاصد اليك من أبعد الحدود .. من وراء "سرحد " "شمال الهند "وقد وصلت اليوم مساء وأنا رجل فقير ، غادرت "قندهار"(١) راحلا حتى صادفت بعض التجار قادمين الى " أكرا " فعملت لهم خادما ، وها أنذا قادم اليك من "أكرا "ماشيا على قدمى " قلت له : وما الذى دعاك لأن تتعب نفسك هكذا ؟

قال : لأفهم بعض المواضع من القرآن المجيد .. وقد قرأت ما تنشره فى الهلال والبلاغ حرفا حرفا " ويقول مولانا أزاد .. "لبث الرجل بضعة أيام ثم انصرف فجأة من غير وداع مخافة أن أقدم له بعض مصاريف الذهاب .. اننى لا أذكر

---

(١) احدى مدن أفغانستان .

اسمه الآن ، ولا أدرى هل مات الرجل أولا يزال حيا ،ولوكنت أذكر اسمه الآن لأهديت كتابى اليه" ..

صورة لها مغزاها المتعدد الجوانب أسردها دون تعليق فتركها أبلغ أثرا من كل تعليق عليها .

وانتقل بعد ذلك مع مولانا أزاد وهو يتحدث عن قصة مشروعه فى ترجمة القرآن وتفسيره

" بعد ما أعلنت فى سنة ١٩١٦ على صفحات البلاغ عن "ترجمان القرآن" و"تفسير البيان" لم يكن يدور بخلدى أن هذا العمل الذى أعلنته سيبقى معلقا دون اتمامه خمسة عشر عاما ،وأن هذا التأخير سيكون مبعث ضيق الذين ينتظرونه ،ومبعث ألم لى كذلك ..

فقد مرت الحوادث بعد ذلك سريعا وكأنها دوامة أوعاصفة أبعدتنى عن الشاطئ الهادئ الذى كنت أركن اليه وأباشر عملى منه .. ففى ٣ مارس سنة ١٩١٦ وقبل مضى ثلاثة أشهر على ذلك الاعلان أصدرت حكومة البنغال أمرها العسكرى باخراجى من مدينة كلكتا وحظرت صدور البلاغ وكل مطبوعاته ،وأغلقت المطبعة .. ولم يكن أمامى مكان أذهب اليه الا مدينة "رانشى" بولاية بيهار المجاورة لولاية البنغال (عاصمتها كلكتا) ظنا منى أننى أستطيع منها متابعة مصالحى فى كلكتا ..

ولقد كنت حين فكرت فى هذا العمل سنة ١٩١٥ أضع أمامى ثلاثة أمور متصلة بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضا .. الترجمة ،والتفسير ،ومدخل للتفسير .. حيث كنت أرى أنه لفهم القرآن ودراسته لا بد من انجاز كتب ثلاثة ،وفاء لضرورات ثلاثة : كتاب ترجمة للدراسة العامة ،ووضع تفسير لتوضيح بعض نقط الترجمة .. وكتاب علوم التفسير كمدخل للتفسير من أجل المتخصصين .

وبعد ما أعلنت فى "البلاغ" سنة ١٩١٦ عن نشر الترجمة والتفسير لها كنت قد أتممت من ترجمة وتفسير نحو خمسة أجزاء حتى سورة النساء .. وبدأت بجوار ذلك فى كتاب المدخل أو المقدمة[1] ، وكنت أتصور تبعا لذلك أن العمل حين يسير بهذه الصورة سيتم أكثره فى وقت

---

(١) يقول القاضى سجاد حسن من علماء الهند المعاصرين فى خطابه الى أن ازاد نشر بعض مقالات فى ذلك الموضوع فى العدد ٣ من البلاغ ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٥ ،وأنه نشر جزء من هذه المقدمة بالفعل فى سنة ١٩١٨ م ،وهو فى المعتقل ولكن لم يستطع العثور على شئ منذ ذلك .

قصير ، وأن الترجمة ستتم خلال عام ، وقسمت أيام الأسبوع بحيث تكون ثلاثة أيام لاعداد المعاجم ويومين للترجمة ويومين للتفسير ..

وحين غادرت كلكتا في ٣ مارس كان قد تم طبع بعض الصفحات من التفسير وكان العمل سائرا كذلك في الترجمة ، وقد حاولت حين أبعدت عن كلكتا أن يستمر العمل على الأقل في الترجمة والتفسير .. حتى صدر الأمر بفتح المطبعة في يونيو سنة ١٩١٦ م فاهتممت بترتيب المسودات لتسليمها للمطبعة ..

ولكن في ٨ يوليو سنة ١٩١٦ صدر الأمر باعتقالي ، فمات الأمل في نفسي حيث انقطعت علاقاتي تماما بما وراء جدران السجن .. ولم يبق أمامي الا عمل واحد هو التصنيف ولم يكن في قانون المعتقل ما يمنعني من ذلك .. وشعرت وأنا في سجني بأنني في غاية السعادة بهذا العمل ، وخيل الى أنني لو حرمت حريتي كلها ، وأتيح لي فقط حرية القراءة والكتابة لم أشعر أنني فقدت شيئا من طمأنينة الحياة ، بل في استطاعتي أن أقضي العمر كله في هذا الجو ، مع القرآن الكريم وترجمته وتفسيره وتهيأت نفسي لمواصلة العمل داخل السجن ولكنني للأسف لم يمض على نحو ثلاثة شهور حتى حرموني هذه اللذة التي شعرت بها داخل السجن وأفقدوني صوابي .. فقد علمت أنهم أعادوا تفتيش مقرى في "كلكتا" وفي "رانچي" وحملوا كل ما وجدوا من أوراق ومسودات ، وبعثوا بها الى الحكومة المركزية في "دهلي" لفحصها .. وكان أهمها ما أتممته من ترجمة وتفسير .. وكنت قد بلغت في الترجمة الى الجزء الثامن وفي التفسير حتى آخر سورة النساء .. فوقع على الخبر كالصاعقة ، اذ شعرت بأن مجهودي قد ضاع .. ولم يعد تحت يدي ولا ورقة واحدة مما كتبت .. وفقدت الأمل في رد ما أخذوا واستولى على نفسي الاكتئاب ..

ولكني مع ذلك لم ألبث حتى تفتحت نفسي لمواصلة العمل في الترجمة بعد ما سمحوا لي بذلك ، وبدأت من النقطة التي انتهيت منها على أمل ضعيف في رد ما أخذوا من الأجزاء الثمانية فأكملت ترجمة ما بقى من القرآن سنة ١٩١٨ م وأخذت أطالب الحكومة برد ما أخذت من أوراقي ولكني لم أكن أجد الا التسويف والمماطلة ، فعزمت على اعادة الترجمة .. ولكني وجدت مشقة بالغة في هذه الاعادة .. فما أشق على الكاتب من أن يعيد من جديد كتابة ما كتبه .. ومع

ذلك غالبت نفسى وسرت فى العمل حتى ترجمت الأجزاء المفقودة لدى الحكومة .. واكتملت عندى ترجمة القرآن كله ، وأصبحت صالحة للنشر .

وفى آخر ديسمبر سنة ١٩١٩ صدر قرار الافراج عنى مع رفع الحظر عن المطبعة .. وكان من الممكن أن أبدأ الطبع فورا .. ولكن البلاد فى ذلك الوقت كانت تموج بحركة سياسية ضد المستعمر .. وكان المسلمون يرددون صدى دعوة "الهلال ، والبلاغ " للعمل من أجل تحرير البلاد فى كل أنحاء الهند ، ولم يكن من الممكن فى هذه الحالة أن أتغافل عما يجرى حولى فاندفعت فى العمل السياسى وفى حركة العصيان المدنى بكل قوتى ، دون الالتفات الى أى شىء آخر " .

وهنا نقف وقفة عابرة لنسجل لحظة التحول فى مجرى حياة مولانا أزاد حيث ألقى بنفسه فى قيادة الحركة السياسية معطيا اياها كل جهوده ، ضاما جهوده الى جهود الحزب الوطنى كأحد زعمائه البارزين ، وبذا بدأ فترة جديدة من حياته تتطبع بالطابع السياسى وسترى أن هذا أثر على جهوده الدينية تأثيرا كبيرا كما سنحدث فيما بعد .

صدمة جديدة :

ونعود الى مواصلة حديثه عن قصة تفسيره حيث يقول : "وكان من نتيجة حركة العصيان المدنى واشتدادها أن اعتقلت مع بعض زعماء حزب المؤتمر فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وكان الكتاب مكتملا على أهبة الطبع قد اعددت العدة لطبعه حتى أثناء غيابى ، ولكن ما حدث بعد اعتقالى كان صدمة قاسية بالنسبة لى .. قضت على آمالى فى نشر الكتاب ، وأخمدت جذوة حماستى العلمية ، فقد فتشت الحكومة منزلى ، وحمل رجالها كل ما وجدوه من أوراق مكتوبة فى أكوام مكدسة ، مختلط بعضها ببعض ، وظلت هذه الأكوام خمسة عشر شهرا لدى الحكومة ، تعبث بها الأيدى غير المسئولة كما تشاء ، حتى عاد لى ما عاد منها بعد الافراج عنى وهى تالفة ممزقة متناثرة ، وكان هذا أمر كأس شربته فى حياتى حيث ضاعت كل جهودى ، ولم يكن من السهل على أن أبدأ من جديد فى "ولادة " ما كتبته من قبل .. وهذا أمر يحسه كل كاتب مثلى ..

ويعلق أزاد على هذا الموقف المر فيقول :

ان الحركات السياسية وتبعاتها لايمكن أن تجتمع مع الحياة العلمية والجو الهادئ الذي يجب أن يتوفر لها ، وليس من الممكن الجمع بين الاثنين ، كما لا يمكن الجمع بين القطن والنار ، وقد كنت أظن في بادئ الأمر أن في امكاني القيام بمهماتي السياسية ، ومهماتي الدينية معا وخطوت خطوات في ذلك ، ولكنني كنت كمن يجمع أفكاره ومخطوطاته من جهة ، ثم يستنزل عليها الصواعق لاحراقها من جهة أخرى .. وقد تحطمت نتيجة على هذا في مرارة وصمت أفسدا على مزاجي ، وسدا الأبواب أمام أفكاري ..

ولكني مع ذلك لم تتحول عزيمتي عن اصدار هذه الترجمة ، ولم أيأس من اخراجها للناس ، برغم ما كان ينتابني كلما حاولت أن أبدأ الكتابة من جديد ..

ولقد مرت سنوات وأنا أحاول الكتابة ، ولكني لم أستطع أن أروض نفسي عليها ، وكنت أحيانا أبدأ العمل ، وأكتب عدة صفحات وأجمع مابقي من القصاصات القديمة ، ولكن عندما كان يقع بصري عليها يعاودني الاكتئاب فأترك ماكتبت ..

سنوات قاسية مرت علي .. وأنا بين هذا الصدود والاكتئاب ، وبين شعوري بأن هذا العمل من أقصى الضرورات للمسلمين ، وكنت أخشى أن يمر الوقت دون اتمامه ، وتضيع الفرص كلها من يدي ..

ثم جاء الفرج ونهاية سنة ١٩٢٧ تقترب ، اذ دبت في نفسي فجأة الحركة التي خمدت مدة طويلة ووجدت القلب المغلق ، والذهن الراكد اللذين لم أستطع تحريكهما بمحاولاتي الطويلة من قبل ، قد انشرحا وتفتحا دون عناء .

سبحان الله .. ان عالم الأرواح والقلوب غريب ، كانت الطبيعة مكتئبة رغم محاولاتي والآن تتفتح دون محاولة ، لدرجة أنني لم أستطع أن أوقف القلم عن تدوين ما يفيضه الله علي من خواطر وسرت في العمل .. وبدأت بسورة الفاتحة التي وقفت معها طويلا (١) باعتبارها أم الكتاب ، ثم أخذت في الترجمة بين الظروف السياسية التي كانت

---

(١) صدر مجلد خاص بترجمتها وتفسيرها يقع في نحو ٥٦٠ صفحة في أحسن واخر طبعة لترجمان القرآن ، وحبذا لو قام أحد العارفين باللغة الأوردية واللغة العربية من العلماء بترجمتها .

سائدة فى ذلك الوقت ، وبين ما كنت أشعر به من ضعف فى الصحة .. ومع تأرجح العمل بين القلة والكثرة فرغت من ترجمة وترتيب آخر سورة من القرآن فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٣٠ بحمد الله .(١)

تلك هى قصة التفسير أو الترجمة مع مولانا أزاد وظروفه التى مرت به تبين مدى إصرار الرجل على خدمة القرآن الكريم أوردت ترجمتها فى اختصار نوعا ما حتى لا أطيل فى ذكر التفاصيل .. ومن المهم هنا أن أشير الى أن هذه الفترة التى استطاع فيها أزاد أن يعيد كتابة الترجمة وتفسير الفاتحة كانت فترة هدوء وخمول فى الحركة السياسية فى الهند .. كرد فعل للخلافات والانقسامات التى حدثت بعد عنوان حركة العصيان المدنى فى أوائل العشرينات فوفر هذا الهدوء أو الخمول السياسى النسبى الذى ظل حتى سنة ١٩٣٠ م أن يفرغ من مشروع الترجمة كما قال فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٠ م ..

ثم جرى من احداث السياسة فى هذه السنة أن بعث حركة العصيان المدنى الثانية مما جعل الحكومة تبادر هى الأخرى باعتقال الزعماء وفى مقدمتهم مولانا أزاد حيث حكمت عليه بالسجن مدة قضاها فى سجن مدينة "ميرت" شمال دهلى . وفى هذا السجن كتب بحثا آخر عما يريده من الكتابة عن التفسير والمفسرين وعن معيار القرون السابقة فى دراسة القرآن وتدبره ، وعن بعض العوائق والمؤثرات فى فهم القرآن ، مع رأيه فى التفاسير القديمة ، وفى القرآن والعلم الحديث ، وفى معنى التفسير بالرأى الى غير ذلك من المباحث التى تعطينا صورة عن سعة أفق هذا الرجل وتعمقه فى العلوم الدينية وشمول نظرته مع غيرته الملموسة على القرآن الكريم وشدة رغبته فى خدمته وتفسيره وحسن تفهمه .

وسنذكر هذا البحث فى ملاحق الرسالة تابع الملحق (١) مكتفين هنا بذكر خاتمته لما لها من دلالة خاصة تدعونا للمبادرة بإثباتها .. حيث يقول :

---

(١) يلاحظ أن ما صدر من "ترجمان القرآن" وصل الى آخر سورة "المؤمنون" وأن السيد أجمل خان وهو من أصدق النا شرين لمولانا أزاد وما يرمكتبه صرح بأن أزاد لم يكمل الترجمة وأنه عثر أخيرا على ترجمة وتفسير سورة "النور" ستضاف لما طبع وقد كتب هذا فى آخر طبعة صدرت بتفسير سورة الفاتحة ص ٥٤٩ .

" لقد مضى على سبع وعشرون عاما بالتمام (١) ، والقرآن كان موضوع مطالعتى ودراستى ليلى ونهارى وذهب بى الفحص والتفكير وراء سور القرآن وآياتها بل وكلماتها الى أبعد حدوده وأوسع نواحيه فدقق فكرى سورة سورة وحقق نظرى آية آية وبقيت دراستى لفظا لفظا ، ولى أن أقول اننى قرأت من كل ما يوجد من الكتب والتفاسير خطية كانت أم مطبوعة أكثرها فلم تفتنى ناحية من نواحى علوم القرآن ، واذا كانوا قد قالوا أن فى العلم قديما وحديثا فاننى لم أقف عند واحد منهما ، فالقديم قد ورثته ، وأما الجديد فقد فلقته بعصاى وجعلت لنفسى اليه سبيلا فهو عندى كالقديم علما وخبرة ..

ان كل ما وهبت لى أسرتى وبيئتى وما أسلمتالى من أوضاع الاجتماع والتعليم أبيت أن أقتنع به من أول وهلة فطحالت دونى قيود التقليد وعوائده ، فى أية ناحية قصدتها ، ولم تزل عاطفة الفحص والتنقيب منى عطشى أينما حللت ، فلى فى داخل فؤادى اليوم يقين شالته الظنون وألوانها ، ولى فى أعماق روحى عقيد تابتليت لكل بلاء العصيان وعذاب الجحود والتمرد ، ولقد شربت السم من كل كأس واختبرت مضاده من كل مستشفى ، وحينما كنت ظمآن لم يكن ظمئى كغيرى ، وعندما ارتويت كان مشربى غير المنهل الذى يشرب منه عامة الناس .

وبعد الفحص والطلب طوال هذه السنوات بحثت من القرآن كما علمت وقد رماعلمت على هذه الصفحات ..

"ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" (٢)

١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٠

"سجن ناحيقسيرت"

أبو الكلام

* * *
*

---

(١) كتب هذا فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وكان عمره اذ ذاك ٤٢ سنة فقد ولد سنة ١٨٨٨م ويلاحظ أنه أدخل فى هذه المدة فترة من دراسته ، وقد أثبت هذا البحث فى صدر كتابه "ترجمان القرآن" .

(٢) آخر سورة يوسف .

الدكتور ذاكر حسين رئيس جمهورية الهند السابق وترجمان القرآن :

في الطبعة الثالثة والأخيرة لترجمان القرآن كتب الدكتور ذاكر حسين رئيس جمهورية الهند السابق عليه رحمة الله (١) .. مقدمة قصيرة قدم بها هذه الطبعة فقال :

"القرآن المجيد هو منبع الحكمة والمعرفة الذى لا يرتوى به المسلمون وحدهم بل ارتوى ويرتوى به جميع أهل القلوب المتعطشة الى معرفة الحقيقة .. ومن خصائص بلادنا (الهند) أن صوت الحق أيا كان مصدره يجد آذانا صاغية ، لذلك نجد فيها أكبر عدد من غير المسلمين يقدرون القرآن حق قدره وقلما نجد مثل هذا العدد الضخم فى البلاد الأخرى وذلك برغم وجود مشكلة عدم وجود تراجم للقرآن فى غير اللغة الأوردية (وفى الهند لغات كثيرة غير الأردية) حتى التراجم الأوردية القديمة لم تكن بالقوة التى تجذب قلوب غير المسلمين وتشدها للقرآن ..

ولقد جاءت ترجمة مولانا أزاد فسدت هذا النقص الى حد كبير ، وكان الاقبال الشديد على هذه الترجمة تعبيرا عمليا على هذا .. والواقع أن هذا الاقبال يرجع الى سببين :

الأول : أسلوب مولانا أزاد وطريقة عرضه للموضوع فيه ندرة وطرافة جعلتا من تفسيره وشرحه للقرآن روعة من روائع الأدب الأردى ..

والثانى : أنه يعرف روح العصر حق المعرفة ، ولذا فانه يشرح مطالب الكلام الالهى بأسلوب يروى غليل كل من لديه نقد من الذين تأثروا بتيارات العصر الحاضر ويقال من هذا التأثر ، وقد قررت "ساهتيه أكاديمى" طبع ونشر جميع مؤلفات مولانا أزاد باهتمام خاص ، وكانت بداية ثمارها طبع "ترجمان القرآن" وقد صدرت طبعتان قبل هذه الطبعة ولكن مع الأسف الشديد وقعت فيهما أخطاء كثيرة محزن لها المرحوم كثيرا ، واستطعنا فى هذه الطبعة تلافيها وقد شرح مولانا سورة الفاتحة شرحا وافيا نظرا لما كان يعتقده من أنها عصارة القرآن "وأم الكتاب" فرأى أن يفرد لشرحها وترجمتها وتفسيرها مجلدا خاصا وبقية الأجزاء فى مجلدين آخرين .

ولهذا فترجمان القرآن يصدر الآن فى ثلاث مجلدات بدلا من مجلدين "أ هـ" مختصرا

---

(١) أول مسلم يتولى رياسة الجمهورية فى عصر الاستقلال وكان محل تقدير عام من شعب الهند وله جهاد وجهود فى تحرير البلاد وفى المجالات العلمية التى تولى أرفع مناصبها .

ذكر بعد ذلك الجهود التى بذلت فى اخراج هذه الطبعة سليمة من الأخطاء التى كانت فى الطبعات السابقة ذاكرا أن مولانا أزاد كان دائم التنقيح لمؤلفاته حتى حين طبع الكتاب .

هذا الجهد الكبير الذى بذله هذا العالم المفكر المصرى المؤمن بدينه لم يستفد منه الا الذين يعرفون اللغة الأوردية التى كتب بها ، وقد وعد أزاد — كما جاء فى مقدمته — أن يترجمه الى اللغة الانجليزية وغيرها من اللغات الحية ولكن القدر حال بينه وبين ذلك بالنشاط السياسى الذى عاقه فى حياته عن كثير من أوجه النشاط الدينى ..

واذا كان قد أثبت فى مقدمته أنه انتهى من الترجمة فى سنة ١٩٣٠ فان التفسير الذى وعد به والذى قال عنه أنه سيكتبه للخاصة والمثقفين قد حال القدر بينه وبين اتمامه كذلك ولم نر منه الا تفسير سورة الفاتحة — أما الترجمة فان ما طبع منها وتداولته الأيدى انتهى الى آخر سورة "المؤمنون" وآخر طبعة منه صدرت سنة ١٩٦٤ فى ثلاثة مجلدات المجلد الأول خصص لسورة "الفاتحة" والمجلدان الآخران للترجمة من أول سورة البقرة حتى آخر سورة "المؤمنون" أى سبعة عشر جزءا ونصف جزء تقريبا ، وقد عثروا بعد ذلك على ترجمة سورة النور ستضاف للطبعة الآتية .

وحينما كنت فى الهند مبعوثا من الأزهر والمؤتمر الاسلامى من يناير سنة ١٩٥٦ الى ابريل سنة ١٩٥٨ طلب منى المؤتمر أن أحصل على نسخة من "ترجمان القرآن" وبحثت عنه فى المكتبات كلها بدهلى وغيرها فلم أعثر عليه فكتبت الى مولانا أزاد بهذا الشأن ولم يكن قد تيسر لى مقابلته قبل ذلك ، فتلقيت فى الأسبوع نفسه ردا مؤرخا ٣ مايو سنة ١٩٥٦ من مدير مكتبه الأستاذ محمد أجمل خان ما باللغة العربية أثبته هنا بعد الديباجة مع ملاحظة التعبير عن صاحب الفضيلة مع أنه كان فى ذلك الوقت وزير المعارف فى الحكومة المركزية .

وبعد : فقد تلقى صاحب الفضيلة مولانا أبو الكلام أزاد كتابكم الكريم بالشكر الجزيل وهو يأسف أشد الأسف لعدم مقابلتكم لأنه كان مريضا عند قدومكم ، ونصحه الأطباء بامتناع الزيارات فلم يتمكن من الاجتماع بكم وانه ليقابلكم بكل سرور فى فرصة أخرى آتية .

أما الكتاب فلا يوجد الآن الا فى مكتبة فى "لاهور — باكستان" وقد طبع منه

مجلدان[١] ولا يزال ثلاثة عشر جزءا من القرآن الكريم تنتظر التفسير عسى الله أن يمن بفراغ من الوقت ويوفق الى اتمامه٠

والسلام عليكم ورحمـــة الله ٠

ولكن مولانا أزاد قد انتقل الى جوار ربه فى فبراير سنة ١٩٥٨ دون أن يتم التفســـير المرجو ودون أن أتمكن كذلك من الاجتماع به بعد كتب كلما سافرت الى "دهلى" تحول ظروف عن هذا الاجتماع حتى توفى الى رحمة الله٠٠

وكما أنه لم يتم التفسير الذى وعد به ، فانه كذلك لم يخرج لنا بقية مشروعه فى خدمة القرآن وهو الشاى مقدمة التفسير أو علوم القرآن كما تسميها ٠

ولا زال ما كتبه فى تفسير الفاتحة وهو مجلد بتمامه ، وما نشره من ترجمة وتعليق على بعض الآيات ، وتلخيص لأغراض كل سورة ومباحثها حتى آخر سورة "المؤمنون" فى مجلدين آخرين ، لا زال ذلك كله بما تضمنه من آراء وبحوث لهذا العالم الفذ حبيس اللغة الأوردية لم يترجم منها الا رأيه فى أهل الكهف ورأيه فى ذى القرنين الواردة قصتهما فى سورة "الكهف" وقد نشرت هذه الترجمة فى مجلة "ثقافة الهند"[٢] التى تصدرها حكومة الهند باللغة العربية وسأورد فى مكان آخــر رأيه عن ذى القرنين "الملحق" ب"

واذا أردنا أن نذكر الملامح العامة عن هذه الترجمة وما أضافه اليها أزاد من تفســـير وايضاحات فانه يمكن أن نذكر الخطوط العريضة الآتية :

١ = أنه متأثر بمدرسة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قديما وبمدرسة الامام محمد عبده والسيـــد رشيد رضا حديثا ٠

٢ = أنه يؤثر قول الصحابى فى تفسير القرآن حين يتأكد من صحته بخلاف قول التابعين

---

(١) الطبعات السابقة لى الطبعة الأخيرة كانت فى مجلدين أما الأخيرة ففى ثلاثة مجلدات٠

(٢) وقد أهدانى مولانا أزاد هذه الاعداد مع رده على كتابى الذى أرسلتـــــه اليـــــه٠

٣ = لا يرى أن نشد القرآن أونخضعه للمصطلحات العلمية التى جدت على المجتمع الاسلامى نتيجة الترجمة عن اليونان والفرس.

٤ = كما لا يرى اخضاعه للاسرائيليات والروايات المشكوك فيها .

٥ = لا يرى التقيد بالآراء التى ظهرت فى عصر الضعف الفكرى .

٦ = لا يرى اخضاع القرآن للمذاهب الكلامية والفقهية والصوفية ..

٧ = لا يرى انزال معانى القرآن على ما كشف من نظريات علمية حديثة قابلة للنقض بنظريات مثلها ..

وهذه الملامح التى ميزت تفسيره لا يتفق على التقيد بها جميع العلماء ولذلك وجد له أنصار كثيرون كما وجد له معارضون نقدوه فى بعض ما ذكره من آراء نقدا أدى الى رميه أحيانا بالخروج عن الاسلام ولعل أمره فى هذا يشبه ما أثير حول آراء الشيخ عبده والسيد رشيد فى تفسيرهما للقرآن ..

"حول آراء " أزاد " فى التفسير "

الخلاف فى الرأى حول المسألة الواحدة ،ولوكانت صغيرة ،ظاهرة مألوفة ، لاختلاف العقول والمؤثرات التى تحيط بالانسان ،ومن الطبيعى المألوف كذلك أن البيئات الجامدة على ماعندها القائمة بالتقليد تقف موقف المعارضة من الآراء الجديدة التى تخالف آراءها المألوفة.

كان ذلك شأن الناس مع رسلهم ،ومع دعاة الاصلاح فيهم ، ومع كل صاحب رأى جديد " انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون " والمراد بالأمة هنا الدين والملة والطريقة (سورة الزخرف (٢٣)

لكنا عرفنا مع ذلك أن الآراء الجديدة تأخذ طريقها دائما الى العقول والقلوب ولو بعد حين ،ومن قبل عرفنا أزاد بأنه رجل دعوة وتجديد واصلاح ،وأنه تأثر بآراء الأفغانى ومحمد عبده ، ومن قبلهما بابن تيمية ،وهاجم التقليد والمقلدين .. فكان من الطبيعى أن تثير بعض آرائه فى مقالاته وبحوثه ،وفى ترجمته للقرآن وتفسيره معارضة ونقدا من جانب بعض العلماء أصحاب الاختصاص فى الموضوعات والآراء التى أثارها وأبداها وظنوها مخالفة لما عرفوه وألفوه .

والأمر فى ذلك ليس بغريب علينا هنا فقد أثارت آراء الشيخ عبده فى الدين والاصلاح كثيرا من النقد والمعارضة من جانب علماء الأزهر .. فى حياته وبعد وفاته حتى أنهم تجاوزوا النقد والمعارضة الى رميه بالكفر والالحاد .

ومن أهم النقاط التى أثارت الجدل والمعارضة لأزاد هى تفسيره لمعنى الهداية والدين والاسلام فى الآيات الكريمة" اهدنا الصراط المستقيم " من سورة الفاتحة ، "ان الدين عند الله الاسلام " الآية ١٩ من سورة آل عمران .. وقوله تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون "الآية ٦٢ من سورة البقرة.

فقد فسر أزاد هذه الكلمات "الهداية . الدين . الاسلام " بمعناها العام

فقال من الهداية بأنها هداية الوحى الالهى العامة التى جاء بها الرسل على مر القرون كذلك فسر معنى الدين والاسلام ، ولم يجعله خاصا بالدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقال ان الله أعطى الانسان من أول يوم دينا واحدا هو هذا الاسلام واليه دعا جميع الرسل ..

وان الآية "ان الذين آمنوا والذين هادوا .. " تقرر حقيقة : وهى ان كل من اتبع الدين الالهى الذى دعا اليه كل رسول فلا خوف عليه .. الخ .

وهذا العموم الذى فسر به معنى الهداية والدين والاسلام أوقع الكثيرين فى سوء الظن به ومهاجمة آرائه ، واتهامه بأنه يرى أن الذى لا يؤمن الآن بمحمد صلى الله عليه وسلم ويؤمن برسوله فحسب مثل موسى أوعيسى عليهما السلام يعتبر ناجيا دون أن ينظروا ... وآرائه فى مواطن أخرى ..

وكان هذا أخطر اتهام وجه اليه ، وهوجم من أجله هجوما شديدا .

ولهذا أرى أن أذكرهنا رأى أحد العلماء المعارضين له الذين تولوا نقده ، واتهامه بالتهمة السابقة ، وهو مولانا محمد يوسف البنورى خريج دار العلوم بديوبند بالهند ، ومؤسس المدرسة العربية الاسلامية فى كراتشى ، والذى مثل باكستان فى مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية منذ المؤتمر الأول حتى المؤتمر الأخير "السادس" وله كتب وبحوث اسلامية متعددة ، وقد عرفته وزرته فى كراتشى فى يناير سنة ١٩٥٦ وانا فى طريقى للهند .

ولما علمت — وأنا أكتب عن أزاد — ان له آراء حول تفسير أزاد راسلته لأتبين منه بعض آرائه ومعلوماته وهو معاصر له وعن سبب تسميته بأبى الكلام ، وعما اذا كان يجيد العربية كتابة ويتحدث بها ... الخ ..

وقد رد على فى يناير سنة ١٩٧١ بخطاب ذكر فيه أن قدرته على العربية "لا شك أنه كان قديرا بها لفظا وكتابة وكان ذكيا للغاية وصاحب حافظة جيدة ، وانه سمى نفسه أبا الكلام فكان أبا الكلام لقدرته على الكلام بأبلغ مايكون وهو اسم كمسماه صحيح فهو صادق فى هذه التسمية ".

وتفضل مولانا البنوري فأهدى الى كتابا من تأليفه تعرض فيه لآراء أزاد ، وهو كتاب "مشكلات القرآن" (١) ، حيث تحدث في "ص ٣٣ ومابعدها عن ترجمان القرآن وصاحبه وهو حديث طويل بعض الشيء ولذلك أرى أن اقتطف منه هنا ما يفي بالغرض

قال :

"ترجمان القرآن ترجمة أوردية للقرآن وعليها فوائد وجيزة ومبسوطة لأبي الكلام أحمد الدهلوي ، ولا بد أن أبين شأن هذا الكتاب ومافيه من مخالفة السنة واجماع الأمة وانما حثني على ذلك كلمة لبعض أهل المصر (٢) اشاعها في جريدة القاهرة "الفتح" العدد ٥٦٢ وأثنى عليه بمالا يليق به ، وأغمضها فيه من المثالث أولم يدرها ، ولا يجوزلنا أن نخدع علماء مصر ونغرهم بالثناء الكاذب على رجل من رجالات الهند ، وقد كتبت من قبل عن بعض هفواته في رسالتي "نفحة العنبر" طلبا لرضا الله ، ولم أكن أدري أن الناس سيفتحون أفواههم ومحابرهم للازدراء بي والطعن علي والرمي بالجمود والعصبية والجهالة (٣)

---

(١) وهو أصلا لمولانا محمد أنورشاه الكشميري تحدث فيه عن مشكلات القرآن من ناحية تفسيره لبعض الآيات وأضاف اليه مولانا البنوري مقدمة طويلة ترجم فيها الأستاذه أنور شاه ونوه بماكتبه وأضاف اليه فوائد مهمة وآراء خاصة له ، منها حديثه عن ترجمان القرآن وهو مطبوع في دهلي .

(٢) هو العالم الهندي المرحوم مولانا مسعود عالم الندوي صاحب الكتاب المعروف نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند وباكستان " الذي طبع في مصر وقد توفي [illegible] نحو عشرين سنة وقد كان يجيد العربية ومن المهتمين بشأنها وشأن الدعوة الاسلامية في الهند والبلاد العربية ، وقد تعرض لتفسير أبي الكلام في جملة قصيرة هي كل مانقله عنه مولانا البنوري وذلك ضمن مقال طويل تقد فيه التقرير الذي وضعته بعثة الأزهر للهند سنة ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م برياسة المرحوم الشيخ ابراهيم الجبالي ونشر تحت عنوان "دراسة لأحوال الطوائف والهيئات الاسلامية بالهند وبحث عن شئون المبعوثين "وقد نشرت مجلة الفتح لصاحبها المرحوم محب الدين الخطيب هذا النقد في عددها ٥٦٢ لسنة ١٩٣٧ ، ولا شك أن رأي الأستاذ مسعود الندوي في تفسير أزاد له وزنه وتقديره .

(٣) لعلنا نلمس من هذا مدى تعلق الكثيرين بآراء آزاد وتقديرها .

وقد قال صاحب الكلمة المنشورة فى جريدة الفتح "ومن التفاسير التى ألفت باللغة الهندوستانية (الأوردية) تفسير الامام أبى الكلام الذى لا يضاهيه تفسير فى العالم الاسلامى غير تفسير الامام الحجة المغفور له السيد رشيد رضا " أ هـ . ويتابع مولانا البنورى حديثه وتعليقه فيقول :

" والحقيقة أن أبا الكلام أحمد الدهلوى رجل وقاد القريحة ، واسع الاطلاع صاحب بيان وبنان فى الأوردية ، وعسى أن يكون فريدا فى بدائع الانشاء ومحاسن الخطابة فى الأوردية فى عصره بل كاد يكون مخترعا لبديع أسلوب ، وحياته قبل عشرين عاما (كتب هذا حول سنة ١٩٣٧) كانت أنفع للقوم من حياته الحاضرة ، وله قدم راسخة فى السعى لانقاذ الوطن من مخالب الحكومة الأجنبية ولم يأخذه فيه خوف الحكومة وصولتها ، ومن ثم سكت كثير من علماء الحق فى شأنه وحاله ، وفى قلبى له منزلة من مساعيه الجميلة فى سبيل حرية الوطن رأيته استحصد فى أوائل أمره كثيرا من أولى الهمم المتوانية ، وأيقظ الرقود فى سبيل جهاد الحرية مباجراء جريدتيه " الهلال " و" البلاغ " ومخطابته الجذابة للقلوب فى المحافل السياسية ، بيد أنه رجل معجب برأيه وفكرته ، يزدرى العلماء بل أكابر علماء الملة اذا خالفت أقوالهم رأيه وهواه .. كان فى أول أمره رجلا صحيح الاعتقاد فيما نعلم منه ، ويشهد به آثاره ومقالاته فى جرائده ورسائله ، الا أنه لم يكن مقلدا فى الفروع لأحد من الأئمة كاهل الحديث من القاضى الشوكانى والنواب صديق حسن خان وغيرهما ، غير أنه لم يكتف بهذا بل أخذته الموجدة على العلماء الحنفية ، وسعى لأن يكون اماما متفقا على امامته فى الهند وأميرا للمسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، وحاول أن يجعلوه امام الهند بالاجماع (١) ولكن كان فى الهند رجال أولو علم صحيح وأصحاب معرفة وتقوى وديانة حقة ، وكان هو كما قلت فى سعة من أمر دينه محيله على غاربه ، غير مقيد فى رأيه ، وكان من هؤلاء فى العلم

---

(١) لعل هذا يدل من ناحية خلقية على عظة آزاد ووجود ما يشبه الاجماع على أنه امام الهند فى عصره .

والعمل بمراحل مقام علماء ديوبند (١) وصدعوا بالحق بأنه ليس أهلا لذلك .

وقد أعلن أنه يؤلف تفسيرا فاستشرفت اليه الأعناق ، وارتقبه الناس ترقب الهيمان الى الزلال العذب والنمير البارد (٢) ، حتى طبع جزء ثم جزء ، ثم ترجمة القرآن ، وعليها فوائد مختصرة ومطولة وسماها "ترجمان القرآن" وبسط القول فى تفسير سورة الفاتحة فأخذته باشتياق وطالعت تفسير الفاتحة بأسره وعدة مواضع من تفسير آيات مختلفة متفرقة فانطفأت فى قلبى لوعة الاشتياق بل تأسفت وودت أن لم يطبع .. فقد تشعبت به الأهـــواء وأحسست أن اعجابه بنفسه وبرأيه أورده الى الانخلاع من ربقة التقليد وانتهى به الى أمـور حائدة عن الصراط المستقيم "

مواضع النقد :

وبعد أن ذكر رأيه فى الرجل ماله وما عليه اجمالا أخذ يبين كما يقول شيئا من هفواته من وجهة نظره ، فقال : مما حقق ذلك الرجل فى تفسير "اهدنا الصراط المستقيم" ان كـل دين من الأديان فى العالم سواء النصرانية أو اليهودية أو الصابئية لو دان به الرجل فـــى صورته التى أتى بها شارع ذلك الدين كفى لنجاته يوم القيامة ، فان أصل هذه الأديـان كلها واحد ، وهو الايمان بالله والعمل الصالح ، وشارع كل دين أتى بالتوحيد وهدى الــى العمل الصالح ، وانما الشرك وأعمال الشر نشأت من أتباع المذاهب من تحزبهم وتشيعهم ، ويردد ذلك فى تفسيره ويدندن حوله بعبارات مختلفة ".

"وهو يقول ان القرآن ينادى بأعلى نداء الى ذلك ، ويزعم أن ذلك الذى فهمه هـو مغزى القرآن وغرضه ويستدل لذلك بقوله تعالى .. ان الذين آمنوا والذين هـــــادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف

---

(١) يريد الذين تخرجوا فى مدرسة دار العلوم فى بلدة "ديوبند" وهى مدرسة عربية اسلامية والدراسة فيها على نسق الدراسة القديمة بالأزهر ولها شهرتها فى الهند وما جاورها حتى سموها "أزهر آسيا" وقد سبق الكتابة عنها .

(٢) وهذا أيضـا له دلالته على عظمة أزاد وتعلق المسلمين ولا سيما المثقفـــين بــه .

عليهم ولا هم يحزنون (البقرة آية ٦٢) والعمل الصالح ليس عنده الأحكام التكليفية والشرائع وليس الدار عليها عنده ويقول : ان تلك العبادات وتلك الشرائع رسوم وظواهر وانها صور وأجساد ، وليست هي حقيقة الدين ولا روحه".

ويستمر الهنوري في عرض هفوات أزاد فيقول :

وقال في تفسير قوله تعالى "ان الدين عند الله الاسلام" (آية ١٩ من سورة آل عمران آية ٨٥) ان الاسلام عبارة عن الوحدة الدينية العامة لاتختص بشرع دون شرع فالملل كلها تدعو الى هذه الوحدة العامة فليست الملة الاسلامية عنده مجموع الاعتقادات الخاصة والعبادات المخصوصة (أى التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم).

وهو يقول : "ان اختلاف هذه الرسوم والشرائع ومناهج البحث والتعبد مما لم يكن عنه محيص فليس مما ينكر أو يستحق الملام فلا أوسعوا له صدوركم الضيقة ولا رواما أنتم عليه من التضييق والتحجر . فلو تعبد أحد بالشريعة الموسوية وأحل حلالها وحرم حرامها ولم يتمسك بالشريعة المحمدية ولم يحل حلالها ولم يحرم حرامها بعد أن جاء الاسلام ونسخ الشرائع السابقة فذلك الرجل لا محالة مسلم ناج على ما تصدع به أصوله الموضوعة وغير ذلك مما موهه وزخرفه" ولاحظ هنا قوله : "بعد أن جاء الاسلام .. الخ .

ثم قال : "وأما تحويل كثير من الآيات الى ما يهواه والتأويل فيها بما لا يحبه الله ولا يرضاه فكثير ليس هذا موضع سرده والرد عليه وانما نقتصر على ايراد تفسيره لبعض الآيات ايقاظا للغافلين وتحذيرا للمغرورين فقال في تفسيره "كونو قردة خاسئين" (١) كونوا اذلاء مهانين كالقردة منحطين نازلين عن مرتبة الانسان فتخرجون من محافل المروءة الانسانية مدحورين : أ هـ .

وقال في تفسير قوله تعالى : "فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم" (٢) أى لكم الموت يعني : يغلبكم العدو وتحرمون من حياة الفتح والظفر عليه ، ثم أحياهم الله أى أنشأ فيهم روح العزم والثبات حتى استعدوا للقتال فرزقوا الفتح والنصر " أ هـ .

---

(١) آية ٦٥ من سورة البقرة (٢) آية ٢٤٣ من سورة البقرة .

الى أن قال "وكل تفسيره مشحون بامثال هذه التأويلات الركيكة الخ " اهـ "

هذه خلاصة لما كتبه مولانا البنوري في نقده لأزاد ويبدو لنا منها أنه كتب ماكتب من اخلاص واقتناع فهو قد وصف آزاد واثنى عليه بما يعتقده فيه .

ولكنه بجوار ذلك انتقده فيما يعتقد أنه أخطأ فيه ، ولا حجر عليه فيما يـــراه ويعتقده ، وللقارئ بعد ذلك رأيه في هذا النقد .

ولكن على من يريد أن يحكم على هذا النقد أن يرجع لكلام أزاد نفسه ويرجع كذلك لآراء بعض المفسرين القدماء والمحدثين ليرى هل قال أزاد فعلا ما نقده فيـه البنوري ، وهل كان أزاد وحده هو صاحب هذا الرأي أوشاركه فيه آخرون ؟

ذلك هو ما نحب أن نعرضه حتى نتبين وجه الحقيقة ونخرج برأينا في هـذا النقد ..

ففي مباحث تفسير سورة الفاتحة ص ١٨٠ من الجزء الأول الطبعة الأولى وص ٣٤٩ الطبعة الحديثة والأخيرة سنة ١٩٦٤ الجزء الأول الخاص بتفسير سورة الفاتحة وحدها وتحت عنوان " الهدى " بحث أزاد كل مايتعلق ويتصل بمعنى هذه الكلمة بحثا وافيـا استغرق من ص ٣٤٩ الى ص ٤٥٨ من الطبعة الحديثة نقتطف منه ماقاله حول معنى قوله تعالى : "قل ان هدى الله هو الهدى " قال ما ترجمته :

" ماالطريق الوحيد للهدى أوالهداية " ؟

"يقول القرآن : ان الهداية هي عن طريق الوحي الالهي أوهي هداية الوحي الالهي العالمية التي وجدت في الدنيا من أول يومها ، وهي لجميع أنواع البشر بـــدون تمييز وتفريق ، فكما ان الله سبحانه لم يفرق في هداية العقل والحواس والوجدان بين قـوم وقوم ولا بين لسان ولسان ، ولا بين مكان ومكان ، لم يفرق كذلك في هـذه الهداية عن طريق الوحي فهداية الوحي منزهة عن التفرقة ، وهي للجميع ، أما الهدايات التي عرفها الانسان عـن غير هداية الوحي فهي كلها هدايات اصطنعها الانسان ، وفرق بها بين الناس ، أما طريـق الله فهو هذا الطريق الوحيد .. ولهذا ينكر الله جميع صور الهدايات التي أتت بهــــا

الخارقات والجماعات بعد انحرافها عن الهداية الأصلية التي هي هداية الله ، وادعت هذه الجماعات لنفسها حقيقة الهداية والسعادة والنجاة كميراث لها وحدها "

"ان هذه الطرق التي اصطنعها الانسان ليست هي طريق الهداية وانما طريقها هو الطريق العالمي لكل الناس ، الذي جاء به الوحي من الله ، ويذكره باسم "الدين" أي الدين الحقيقي للنوع الانساني كله ، ويذكره كذلك باسم "الاسلام "

ويقول أزاد في تفسير قوله تعالى : " ان الدين عند الله الاسلام "الآية ١٩ من سورة آل عمران : " لقد أعطى الله الانسان من أول يوم دينا واحدا هو هذا الاسلام ، واليه دعا جميع الرسل دائما ، ونهوا عن التفرقة والخلاف ، وما وقعت الفرقة والانشقاق بين اليهود والنصارى الا لأنهم انحرفوا عن الدين الحقيقي بغيا بينهم ".

ويقول أزاد حول تفسير قوله تعالى "واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة " الآية ٨١ من سورة آل عمران ..

" هذا يشير الى أصل عظيم للدين الحق ، وهو أن أنبياء الله كلهم ، كانوا دعاة دين واحد ، ولذا كانوا يصدق بعضهم بعضا ، ولما كان دين الله واحدا ، وجميع الدعاة حلقات في سلسلة واحدة ، فمن فرق بينهم بأن آمن ببعض وكفر ببعض فهو منكر حقيقة لسلسلة الرسل والهداية ."

هذا هو توضيح أزاد لمعنى : الهداية ، والدين ، والاسلام .

ومنه يتبين لنا أنه يتحدث عن المعنى العام الحقيقي لهذه الكلمات وهو وحي الله لرسله جميعا بالأصول والمبادئ ليدعوا البشر الى اعتناقها دون تفريق بين قوم وقوم .. فدين الله واحد وهدايته واحدة والاسلام الذي يريده الله من البشر ودعا اليه جميع الرسل واحد .

وهو بهذا لا يتحدث عن دين خاص أتى به نبي من الأنبياء أو عن هداية خاصة أو اسلام خاص برسول من الرسل ، وانما يوضح أن الدين أو الهداية أو الاسلام الذي جاء به الرسل ودعوا اليه واحد في أصوله ، وأن كل من اتبع نبيا في زمن رسالته والتزم بدعوته ، فهو

فهو على الدين الالهى أوالهداية الالهية أوالاسلام ،ويمكن أن نطلق عليه أنه مسلم ، وهو بذلك ناج عند الله ومرضى عنه .. وأن من الضرورى على كل مسلم بهذا المعنى أن يصدق برسل الله جميعا ولا يفرق بينهم لأنهم جميعا حلقات فى سلسلة واحدة ،فمن كذب واحدا ولم يؤمن به فهو غير مؤمن بالسلسلة كلها وبالتالى غير مسلم وغير ناج ..

وهذا الذى يقوله أزاد فى تفسيره هو الذى ينطق به القرآن الكريم " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه "الآية ١٣ من سورة الشورى ..

وقد قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لاشريك له ،وفى الحديث "نحن معشر الأنبياء أولاد علات (١) ديننا واحد "أى القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لاشريك له وان اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله تعالى : " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " (٢) أ هـ

ويقول القرطبى فى تفسير قوله تعالى : " ان الدين عند الله الاسلام " الدين فى هذه الآية الطاعة والملة ،والاسلام بمعنى الايمان والطاعات وعليه جمهور المتكلمين .

ويقول تفسير المنار جـ ٣ عن معنى "الاسلام "فى هذه الآية : " ان الدين عند الله الاسلام " .

انه يتناول جميع الملل التى جاء بها الأنبياء ،لأنه هو روحها الكلى الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف وصور الأعمال فيها ،وبه كانوا يوصون ،الى أن قال : وبذلك تعلم أن المسلم الحقيقى فى حكم القرآن من كان خالصا من شوائب الشرك بالرحمن مخلصا فى أعماله مع الايمان من أى ملة كان ،وفى أى زمان وجد ومكان ،وهذا هو المراد بقوله : "ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين "الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

ويلاحظ الشبه القوى بين هذا التفسير وتفسير أزاد علما بأن تفسير المنار سابق

---

(١) العلات بفتح العين : الاخوة من نسوة شتى أبوهم واحد .

(٢) ص ١٠٩ جـ ٤ الطبعة الثالثة مطبعة الاستقامة سنة ١٩٥٤ ، والآية ٤٨ من سورة المائدة .

على تنصر زاد .

ويقول ابن كثير فى تفسير "ومن يبتغ غير الاسلام الآية " ص ٣٥٤ ج ١ طبع مطبعة الاستقامة :

" أخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختموا بمحمد ، فمن لقى الله بعد بعثة محمد بدين على غير شريعته فليس بمتقبل . أهـ

ويقول الشيخ عبد الجليل عيسى فى كتابه تيسير التفسير ص ٦٦ عن تفسير :

"ان الدين عند الله الاسلام " :

" ان الدين المرضى عند الله هو الاسلام الذى بعث به جميع الرسل الخ ... ويقول أيضا فى تفسير قوله تعالى "ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه " :

"ومن يطلب دينا غير دين الاسلام الذى هو دين جميع الأنبياء فلن يقبل منه الخ ... " وهو الدين الذى جاء به محمد فمن طلب غيره فلن يقبل منه .

وقد جاء فى القرآن الكريم اطلاق كلمة مسلم على الرسل وعلى أتباعهم :

فابراهيم عليه السلام يدعو له ولابنه اسماعيل وذريتهما " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك " ١٢٨ البقرة ، ويقول الله تعالى عنه "ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين " ٦٧ آل عمران ، ويوصى ابراهيم ويعقوب أبناءهما "يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون " ١٣٢ البقرة ، وأبناء يعقوب يقولون له حين سألهم "ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون " ١٣٣ البقرة .

والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام "آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون" ٥٢ آل عمران

والجن يقولون : " وانا منا المسلمون ومنا القاسطون " ١٤ سورة الجن .

وسليمان يدعو بلقيس وتابعيها "ألا تعلوا على وآتونى مسلمين " ٣١ سورة النمل

والملائكة تقول عن قوم لوط وقراهم "فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين "

٢٦ الذاريات .

وغير هذه الآيات كثيرة تشهد بأن كلمة "مسلم ، ومسلمون" أطلقت على جميع الذين آمنوا برسلهم الذين بعثوا اليهم مدة رسالتهم ومنهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم الآن وحدهم الذين يتحقق فيهم معنى الاسلام لأنهم يصدقون ويؤمنون بكل الرسل ، دون تفرقة ، أما غيرهم فانهم يفرقون ، ولذلك لا ينطبق عليهم أنهم مسلمون .

فكلمة اسلام فى حقيقتها ليست خاصة باتباع رسول دون رسول آخر بل شاملة للجميع والدين عند الله الاسلام .. فكلمة الدين وكلمة الاسلام يطلق كل منهما على كل ما أتى به رسول من الرسل من أول رسول أرسله الله الى خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام فالقواعد والمبادئ واحدة فيها كلها ، وعلى هذا المعنى الحقيقى تكلم ازاد كما تكلم المفسرون .. ولم يقصر آزاد كلمة اسلام على الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا كلمة "مسلمون" على أتباعه ، كما هو الشائع المعروف بل فسرها كما جاء بها القرآن ، وأطلقها على أتباع كل رسول لا على أتباع رسولنا فحسب ، ولهذا وجدنا صاحب المنار يفطن الى هذا المعنى الشائع ، وينبه الى أن قصر الاسلام على ما عليه المسلمون أتباع محمد صلى الله عليه وسلم انما هو اصطلاح حادث فيقول بعد أن بين حقيقة معنى اسلام "كما بينها أزاد " .

"أما اطلاق الاسلام بمعنى ما عليه هؤلاء الأقوام المعروفون بالمسلمين من عقائد وتقاليد وأعمال فهو اصطلاح حادث "ص ٣٦٠ ج ٣ فى تفسير ومن يبتغ غير الاسلام دينا .. الآية" .

وأظن أن هذا الاصطلاح الحادث المشهور لدينا جميعا والذى أطلق على اتباع رسولنا منذ أرسل هو الذى تعلق به وحده مولانا الهنورى ولم يلتفت الى المعنى الحقيقى لهذه الكلمة الذى يشملنا نحن ويشمل كل مصدق برسوله فى زمن رسالته .

ومن هنا اعترض على كل ما قاله أزاد عن هذا المعنى العام .. وليرجع الى آراء المفسرين القدامى والمحدثين بل الى آيات من القرآن الكريم نفسه لما اعترض على أزاد

بل عرف أنه لم يخرج عما قاله أئمة التفسير الذين نقلنا سابقا بعض أقوالهم ، ومن ثم فلا وجه لمولانا البنوري فى أن يعيب على أزاد قوله : ان الاسلام عبارة عن الوحدة الدينية لا تختص بشرع دون شرع الخ ، ولا يعيب عليه قوله الذى أورده هو "فليست الملة الاسلامية عنده (أى عند أزاد) مجموع الاعتقادات الخاصة والعبادات المخصوصة "أى التى أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا يعيب عليه قوله "ان اختلاف هذه الرسوم والشرائع ومناهج التعبد مالم يكن عنه محيص " لأن القرآن الكريم ينطق بهذا "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " فالمبادئ واحدة فى جميع الأديان السماوية وانما الاختلاف بينها جاء فى بعض التكاليف واشكالها وكيفية أدائها .

وهذا أمر يكاد يكون بديهيا حتى لغير علماء الدين المتخصصين ، فكيف يخفى أويخفى على مولانا البنورى ؟

وننتقل من هذا الى اتهام آخر وجهه مولانا البنورى لمولانا أزاد حيث ينقل عنه أنه قال : " فلو تعبد أحد بالشريعة الموسوية وأحل حلالها وحرم حرامها ولم يتمسك بالشريعة المحمدية ، ولم يحل حلالها ولم يحرم حرامها بعد أن جاء الاسلام (يريد بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم بشريعته) ونسخ الشرائع السابقة فذلك الرجل لا محالة مسلم ناج .. الخ "

وهذا اتهام خطير لمولانا أزاد يؤدى الى أنه لا يرى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته ضروريا للنجاة من النار ، وأن من آمن بموسى أو عيسى وتمسك بشريعته بعد بعثة محمد يعتبر مسلما ناجيا !! وهو اتهام أسارع بنفيه عن رجل كرس حياته لخدمة الاسلام والدعوة اليه ، وكان اماما يؤم الناس فى صلواتهم ويعظهم ويعمل على نشر الاسلام بكل الوسائل طول حياته .

ومع هذا فقد رأيت أن أرجع لتفسير مولانا أزاد نفسه ، وما قاله حول الآيات التى تتصل بهذا الموضوع ليكون قوله حكما فصلا .. فوجدته يقول فى تفسير قوله تعالى "لا نفرق

بين أحد من رسله "الآية ٢٨٥ من سورة البقرة ماترجمته بالنص :/ لانفرق بين أحد من رسله بأن نؤ من بواحد ونكفر بآخرين أونؤمن بالجميع ونكفر بواحد بل نؤ من بجميع الرسل "

ووجدته يقول في تفسير آية مشابهة : " لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" الاية ١٣٦ من سورة البقرة : "ان انكار واحد من دعاة الأديان هوانكار للكل ،ومن يفرق بين الرسل بأن يؤ من ببعض ويكفر ببعض فهو منكر حقيقة لسلسلة هداية الله كلها "

وهذا صريح في أنه يرى وجوب الايمان بمحمد (ص) بعد بعثته مع التمسك بشريعته وتحليل حلالها وتحريم حرامها مع الايمان بجميع الرسل السابقين وان من لم يؤمن به فهو كافر بالرسل كلهم ومنكر لسلسلتهم التي حملت هداية الله للناس ،ومن ثم لا يعتبر مسلما ولا ناجيا ..

ولذلك أراني في غاية الدهشة لتوجيه مولانا البنوري هذا الاتهام لمولانا أزاد ،اذ كان عليه قبل أن يوجهه ،يكاد بتوجيهه يخرج مولانا أزاد من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن تصديق القرآن ويرميه بالكفر ،كان عليه أن يرجع لما قاله أزاد نفسه في هذه الآيات التي ذكرناها .. وهو (أي البنوري) عالم معروف في بلاده وخارج بلاده وله قدره ومؤلفاته ،ويبدو مما كتبه من تقدير لأزاد أنه يحاول أن يظهر أمام قرائه بالانصاف فهل هي غفلة أصابت العالم الكبير ،أوضياع كتيب أثير حول بعض آراء أزاد في تفسير الآيات حالت بينه وبين الرؤية السليمة ،أوآراء أنصاف العوام أنصاف العلماء في أزاد أثرت على مولانا البنوري فاندفع لمجاراتها ،أوهذا كله ؟!!

ومن الانصاف مع ذلك أن نقول : ليس مولانا البنوري وحده هوالذي وقع في توجيه هذا الاتهام وسوء الظن بمولانا أزاد .. بل ان هناك من يشارك البنوري الشك في آراء أزاد من هذه الناحية والظن فيه أنه لا يرى الايمان بمحمد بعد بعثته شرطا للنجاة حتى انتقلت هذه الشكوك الى الهنود المسلمين في شرق افريقيا ووسطها وشغلوا بها في صحفهم التي ينشرونها ولكنهم لم يتهموا بل وجهوا الى أزاد أسئلة حولها يستوضحونه رأيه القاطع فيها .

فقد نشرت جريدة "الرسالة" الأسبوعية التى تصدر بمدينة "دربن نيتال" بأفريقيا الجنوبية مناقشات حول هذه المسألة ثم نشرت رسالة طويلة موجهة لمولانا أزاد من أحد العلماء يستفسر فيها عن عدة مسائل نذكر منها هنا :

يذهب البعض الى الزعم بأن من لم يتيقن صدق الاسلام وحقيقته ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يؤاخذ يوم القيامة "وقصد بالاسلام هنا الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ثم ذكر فى رسالته أن هؤلاء البعض يستندون على ما ذكره أزاد فى تفسيره لآية : "ان الذين آمنوا والذين هادوا .." من سورة البقرة وطلب فى النهاية من مولانا أزاد البيان ..

فكان رد أزاد مختصرا فى هذه السطور :

" لقد قرر القرآن أساسات وشروطا فى الايمان ، منها ألا يفرق بين الرسل "لانفرق بين أحد من رسله" هكذا قال القرآن ، وأن نؤمن بالرسل من غير استثناء أحد منهم والذى لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين يفرق بين الرسل ، وهذا كفر"(1) أ هـ .

ولعل السبب فى هذا الشك كله هو تفسيره لمعنى الدين والاسلام والمسلم بالمعنى الحقيقى العام الذى يشمل كل دين جاء به رسول ، وكل من آمن برسوله الذى أرسل اليه حتى يأتى رسول آخر فيلزم تصديقه .. فى الوقت الذى استقر فى أذهانهم أن الدين هو الاسلام الذى جاء به محمد فحسب ، وأن المسلم لا يطلق الا على أتباعه فقط .. وأنهم وحدهم هم الناجون .. فهالهم أن يجدوا هذا التفسير الواسع لمعنى كلمات : الدين الاسلام . المسلم . دون أن يلتفتوا الى ما قرره القرآن فى هذا ومن هنا تولد شكهم .

ويضاف الى هذا مافهموه خطأ من تفسير أزاد لقوله تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله .. " الآية ٦٢ من سورة البقرة ، لأن هذا التفسير لا يؤدى الى مافهموه لوكان عندهم شئ من الامعان والتدقيق ، فقد فسر مولانا

(1) ملخصا من رسالة ماجستير عن أبى الكلام وأثره فى الفكر الاسلامى الحديث ص ٤٣ (مقدمة لكلية أصول الدين من الأستاذ "مقبول أحمد الهندى" فى قسم العقيدة والفلسفة .

هذه الآية على أساس أنها تضع القاعدة العامة لنجاة الانسان أمام الله فى أى وقت وفى أى مكان وليست خاصة بالقوم بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وان كانت تشملهم باعتبارها قاعدة عامة فيقول : " ان الذين آمنوا برسول الاسلام (بالمعنى العام للاسلام) سواء أكانوا من اليهود أوالنصارى أوالصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وكانت أعماله صالحة ،فلا بد أن يجد أجر الايمان والعمل من ربه " .

" وهذه الآية تعتبر اعلانا لأصل عظيم هوأن السعادة والنجاة تتعلق بالايمان والعمل الصالح لا بالنسب والأسرة والجماعة .. وأن اليهود لما حرموا من الايمان والعمل لم ينفعهم نسبهم ولم تنفعهم يهوديتهم فان الله لاينظر الى من هم ؟ ولا مع أية جماعة هم ،بل ينظر الى أعمالهم وايمانهم ،فلما لم يمتثلوا امتثالا كاملا أصبحوا من المغضوب عليهم " . هـ

وقد جاءت هذه الآية وسط الآيات التى تحكى قصة اليهود وتمردهم وادعاءاتهم وكأنها تلفت أنظار اليهود الى أنه لافائدة عند الله من الارتكان على نسب أوغيره لأن القاعدة العامة التى يعامل على أساسها جميع الناس بطوائفهم المختلفة هى الايمان والعمل الصالح "ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به " الآية ١٢٣ سورة النساء

وقد جاءت آية المائدة ٦٨ المشابهة لهذه الآية "ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" أقول جاءت عقب قوله تعالى : " قل ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وماأنزل اليكم من ربكم " وهى صريحة فى دعوتهم الى عدم الارتكان على شىء الا العمل بالتوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم ،ومقتضى العمل بالتوراة أن يؤمنوا (اليهود والنصارى) بمحمد بعد بعثته لأنه آخر حلقة فى سلسلة الرسل الذين جاءوا بدين واحد من عند الله .

ولهذا نجد أزاد يعلق على آية المائدة بقوله :

" ليس مدار النجاة والسعادة على جماعاتكم التى استحدثتموها بل المدار هو قانون الايمان والعمل وهو الدين الحقيقى الذى دعا اليه الجميع وبه أخذ منكم الميثاق "

ومولانا أزاد يضغط على هذا المعنى ويركز عليه كما ركز القرآن لهدف مقصود وهو أن يفهم اليهود والنصارى بعد بعثة محمد انه ليس بدعا من الرسل وأن دعوته هي دعوة الرسل السابقين في أصولها ، وأن إيمانهم برسلهم يقتضي منهم الايمان بخاتم السلسلة التي أرسلها الله ..

وأزاد لم يخرج في تفسيره لهاتين الآيتين عما قرره الكثيرون من المفسرين قديما وحديثا ، حتى يعاب عليه تفسيره ، ويتهم بأنه لا يرى الايمان بمحمد بعد بعثته شرطا ضروريا للنجاة ، ولأجل أن يبرز هذا واضحا ننقل هنا ما يعيبه الندوي على أزاد من فهمه للقرآن في هذه المسألة ثم نتبعه بآراء مفسرين آخرين فيها أيضا .

يقول الندوي في معرض حديثه عن هفوات أزاد "مما حقق ذلك الرجل في تفسير اهدنا الصراط المستقيم" أن كل دين من الأديان في العالم سواء النصرانية واليهودية أو الصابئية لو دان به الرجل في صورته التي أتى بها شارع ذلك الدين كفى لنجاته يوم القيامة فان أصل هذه الأديان واحد، وهو الايمان بالله والعمل الصالح ، وشارع كل دين أتى بالتوحيد وهدى الى العمل الصالح "الى أن يقول : وهذا هو موضع البحث هنا . "وهو (أي أزاد) يقول ان القرآن ينادى بأعلى نداء الى ذلك ويزعم أن ذلك الذي فهمه هو مغزى القرآن وغرضه ويستدل لذلك بقوله تعالى : "ان الذين آمنوا والذين هادوا .. الآية " ، هذا تصوير الندوي لقول أزاد وفهمه للآية الذي يعيبه عليه !! فهل يعاب عليه حقا ؟

فلننتقل اذن الى ما قاله بعض المفسرين في هذه الآية :

جاء في تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٣ : " لا يقبل من أحد طريقة ولا عمل الا ما كان موافقا لشريعة محمد بعد أن بعثه الله .. فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة الى أن يقول : ايمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى حتى جاء عيسى ، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وسنة موسى فلم يدعها هالكا .. وايمان النصارى بتمسكهم بالانجيل وشرائع عيسى حتى جاء محمد فمن لم يتبعه

منهم ويدع ماكان عليه من سنة عيسى والانجيل كان هالكا ، قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير نحوهذا " أ هـ

وهذا معناه الصريح أن الدين الذى أتى به الأنبياء على مراحل متعددة واحد فى أصوله ، وأن كل من آمن برسوله الذى بعث الله اليه وعمل بشريعته فهو ناج الى أن يبعث الله رسولا غيره فيجب عليه الايمان واتباعه ، وهذا الفهم هو فهم أزاد للآية .. فهل يعيبه على ابن كثير أيضا ؟

وجاء فى تفسير المنار ج ١ ص ٣٣٦ عن هذه الآية :

"أى أن حكم الله العادل سواء ، وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يحابى فريقا ويظلم فريقا وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسولهم .. فالآية بيان لسنة الله تعالى فى معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت .. ظهر بذلك أنه لا اشكال فى عدم اشتراط الايمان بالنبى صلى الله عليه وسلم لأن الكلام فى معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبى ووحى بخصوصها الظانة أن فوزها فى الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة (بالمعنى الخاص) أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلا فالله يقول ان الفوز ليس بالجنسيات الدينية وانما يكون بايمان صحيح وعمل يصلح به حال الناس " أ هـ

وهذا المعنى يتفق مع ماقاله أزاد فى تفسيره لآية البقرة وآية المائدة من أنهما تضمان قاعدة عامة للجزاء تنطبق على جميع الأمم مع رسلها ..

ويقول الشيخ عبد الجليل عيسى فى تفسيره (١) لهذه الآية من سورة البقرة :

" من آمن من كل هذه الطوائف ايمانا صحيحا بالله فلا يضيع أجره عند الله ولا يخاف من مكروه يناله يوم القيامة " وهذه هى القاعدة العامة التى يتحدث عنها أزاد .

ويقول ابن جزى الكلبى فى تفسيره (٢) المختصر :

قال ابن عباس انها منسوخة بقوله تعالى : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن

---

(١) فى كتابه تيسير التفسير .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل طباعة المكتبة التجارية ١٣٥٥ الطبعة الأولى

يقبل منه " وقيل معناها أن هؤلاء الطوائف من آمن منهم ايمانا صحيحا فله أجره ،وقيل انها فيمن كان قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم فلانسخ ".وهذا القول الأخير هو الصحيح عندنا لأنه يتفق مع مايقوله أزاد من أن الآية تضع قاعدة للجزاء منذ أرسل الله الرسل الى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ونخلص من هذا العرض بأن مولانا أزاد في تفسيره لمعنى الهداية والدين والاسلام وتفسيره لآية "ان الذين آمنوا والذين هادوا .. "لم يبتدع ،ولم يخترع رأيا لم يقل به أحد من المفسرين حتى نأخذ بتلابيبه ونتهمه بأنه لايرى الايمان بمحمد شرطا للنجاة بل وجدنا كثيرا من المفسرين الموثوق بهم من القدماء والمحدثين ممن ذكرنا آراء بعضهم سابقا يقولون ماقاله أزاد ،ولم نجد أحدا ولا مولانا البنوري نفسه يعد أقوالهم هذه من الهفوات ويوجه اليهم الاتهامات ،ويغمزهم في دينهم ويعتبرهم غير مؤمنين بالدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كما يقول عن أزاد !!

ان أزاد مصلح ديني يمثل المدرسة الحديثة الدينية من أمثال الأفغاني ومحمد عبده وهو متأثر بآرائهما الدينية الاصلاحية ،ومولانا البنوري يمثل المدرسة الفكرية القديمة القائمة على التقليد المتمسكة به حتى انه جعل من مساوئ أزاد "ان اعجابه برأيه أورده الى الانخلاع من ربقة التقليد ،وأنه لم يكن مقلدا في الفروع لأحد من الأئمة شأنه شأن أهل الحديث كالقاضي الشوكاني وصديق حسن خان " !!

فلا عجب أن يصدر من البنوري هذا النقد لأزاد ،لكنا كنا نحب للبنوري أن يتريث ويتصبر ،ويرجع لآراء المفسرين القدامى ولأقوال المحدثين أيضا قبل أن يصدر مثل هذه الأحكام على أزاد ،ولكنه الخلاف بين المدرستين والعقليتين ،والتسرع في الحكم .

لقد وجدنا البنوري يتهم أزاد مثلا بأنه يرى "أن العمل الصالح ليس عنده الأحكام التكليفية والشرائع " .

وأرى أن هذا يعتبر تجاوزا في الاتهام .. لأن المعنى الأول والبديهي للعمل الصالح هو القيام بالأحكام التكليفية والشرائع ،لأن القرآن يذكر دائما الايمان والعمل الصالح

والايمان هو جانب العقيدة ، ويتبعه العمل الصالح القائم عليه المنبعث منه ولا يكون صالحا الا اذا كان قائما على أساس العقيدة ، والأحكام التكليفية والشرائع هي التي شرعها الله على لسان رسوله الذي أرسله الى قومه فلا يعقل أن يفصل انسان بين العمل الصالح والأحكام التكليفية والشرائع ، لأنهما شيء واحد ، ثم ان أزاد نفسه اعتبر أساس النجاة شيئين : الايمان والعمل الصالح فهو يقول في تفسير آية " ان الذين آمنوا والذين هادوا .. " من سورة البقرة " ان الذين آمنوا برسول الاسلام سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو الصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وكانت أعماله صالحة فلا بد أن يجد أجر الايمان والعمل الصالح من ربه"

ويزيد الأمر وضوحا فيقول : تعتبر الآية اعلانا لأصل عظيم هو أن السعادة والنجاة تتعلق بالايمان والعمل الصالح لا بالنسب والأسرة .. الخ

صحيح أن مولانا أزاد ركز عنايته على الأصول وهي العقائد التي يجب الايمان بها ايمانا عميقا تفيض آثاره على الأعمال .. فالأعمال بدون ركيزة قوية من الايمان يوجهها الى هدفها تصبح صورا وهياكل ولا تؤتي ثمرتها (١) .. وهذا أمر مفهوم يقول به كل مسلم ويشدد عليه ، لاسيما في وقت تتجه فيه عناية المسلمين الى الشكل والمظهر دون العناية بالهدف الحقيقي من العبادة ، وكل الأحكام التكليفية أراد الله بها أن تكون متصلة بالأصل اتصال استمداد وامداد ، تستمد منه ، وتمده وتزيده قوة "انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون " الآية ٢ من سورة الأنفال

ولعل عناية أزاد بالأصل والجوهر وهو الايمان وقوة العقيدة واعتبار هذا الأصل هو المدار الذي يقوم عليه الدين وتنبعث منه الأعمال خيل لبعض الناس أنه لا يعني بالأحكام التكليفية لكن هذا خطأ فالرجل كان اماما يصلي بالناس ويحثهم على الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات والمعاملات وكتب في ذلك مقالات وكتبا خاصة ، وفي تفسيره لآيتي : قل

---

(١) يقول صلى الله عليه وسلم "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه "رواه البخاري وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله " ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر "قال (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا "تفسير ابن كثير ج٣ ص٤١٤ الطبعة الثالثة .

ان كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين " (٣١ ، ٣٢ من سورة آل عمران) يقول :

"من يدعى حب الله سبحانه وتعالى فعليه أن يتبع رسوله الذى يهدى اليه ويبلغ عنه فادعاء حب الله وانكار اتباع رسوله الذى يهدى اليه لا يجتمعان فى قلب واحد فقل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان سبيل النجاح والسعادة فى طاعة الله ورسوله .. الخ ".

وكتب فى قوله تعالى : "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما "الآية ٦٥ من سورة النساء : يقول القرآن بكل وضوح وعزم ان الذى لا يذعن لحكم رسول الله ولا يعتمد عليه لا يكون مؤمنا " (١)

فلا يقبل اذن من انسان أن يدعى على مولانا أزاد أنه "يرى أن العمل الصالح ليس عنده الأحكام التكليفية .. فالعمل الصالح هو الأحكام التكليفية أو الشريعة التى أتى بها الرسول وطاعته فيها واجبة لكن المدار الأصلى هو العقيدة ، هو الايمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر .. أما الأحكام التكليفية فهى كما قال رسوم وعلامات وظواهر وشعائر : "ان الصفا والمروة من شعائر الله"(٢) وليست هى حقيقة الدين ولا روحه كما قال أزاد ولكن لا بد منها ولا بد

---

(١) ملخص من رسالة الماجستير للأستاذ مقبول أحمد الهندى التى تقدم بها لكلية أصول الدين بالأزهر عن أزاد وفكره الدينى وفلسفته .

(٢) الآية ١٥٨ من سورة البقرة ، وفى المائدة : "لا تحلوا شعائر الله "الآية (٢) والشعار والشعيرة تطلق على المكان أو الشىء الذى يشعر بأمر له شأن وأطلق على معالم الحج ومواضع النسك كما يطلق على العمل المخصوص الذى هو عبادة ونسك ولا تحلوا شعائر الله "أى مناسك الحج ومعالمه ، ومنه اشعار الهدى وهو جرح ما يهدى الى الحرم ، وشعار الحرب وهو ما يتعارف به الجيش ووجه كون المناسك والأعمال شعائر وعلامات أن القيام بها علامة على الخضوع لله وعبادته قال فى الصحاح : الشعائر أعمال الحج وكل ما جعل علما لطاعة الله عز وجل " (ملخص من تفسير المنار جـ ٢ ص ٤٣).

أن تقوم على الأصل وتترحت عنه ..

فأعمال بدون قاعدة لا تقبل ، وبيت يشيد على غير أساس لا يقوم ، وهذا أمر مفهوم فلا وجه لمولانا البنوري في الانكار عليه .. ولكنه الاختلاف بين المدرستين الفكريتين في الفهم والاستيعاب كما قلنا .

وننتقل الى صورة أخرى من صور النقد الذي يمكن اعتباره تحاملا ولكني أسميه اختلافا في وجهة النظر ما كان يصح أن يرقى الى التنقيص من المخالف ، لأن أزاد لم يقل ما يستحق عليه أن يرمى "بأنه يتبع هواه ويقول مالا يحبه الله ويرضاه ، مما يوجب ايقاظ الغافلين وتحذير المغرورين "!! قال مولانا البنوري في معرض نقده لأزاد :

" وأما تحويل كثير من الآيات الى ما يهواه والتأويل فيها بما لا يحبه الله ويرضاه فكثير ليس هذا موضع سرده ، وانما نقتصر على ايراد تفسيره لبعض الآيات ايقاظا للغافلين وتحذيرا للمغرورين ، فقد قال في تفسير "كونوا قردة خاسئين"(١) كونوا أذلاء مهانين كالقردة منحطين نازلين عن مرتبة الانسان فتخرجون من محافل المروءة والانسانية مدحورين "وقال في تفسير قوله تعالى "فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم " أي لكم الموت بجبنكم يعني : يغلبكم العدو وتحرمون من حياة الفتح والظفر عليه ، ثم أحياهم(٢) الله أي أنشأ فيهم روح العزم والثبات حتى استعدوا للقتال فرزقوا الفتح والنصر "ثم حكم البنوري على تفسير أزاد حكما عاما فيقول : " وكل تفسيره مشحون بأمثال هذه التأويلات الركيكة الخ .. " اهـ

فهل فسر أزاد هذا التفسير بما يهواه ، وهل قوله في معنى قوله تعالى : "قردة خاسئين "وقوله " موتوا ثم أحياهم " قول اخترعه حسب هواه ، وتأول بما لا يحبه الله ويرضاه ..؟

---

(١) آية ٦٥ من سورة البقرة " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين " .

(٢) آية ٢٤٣ من سورة البقرة "ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ".

فلنبحث اذن فى كتب التفسير القديمة والحديثة .

لقد وجدت من يأخذ بظاهر اللفظ فيعتبر المسخ والموت حقيقيين ، ومن يؤول ظاهر اللفظ الى معنى الذلة والمهانة فى الآية الأولى وكذلك فى الآية الثانية واليك نماذج من أقوال المفسرين :

فى الآية الأولى :

جاء فى تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٥ طبع المكتبة التجارية ١٣٧٣هـ ١٩٥٤ م

"روى عن مجاهد قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وانما هو مثل ضربه الله مثل قوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا (١)) ورواه ابن جرير (الطبرى) كذلك عن مجاهد (٢) باسناد جيد وهو قول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وغيره"

وبهذا اختار ابن كثير كعادته السير على ظاهر اللفظ مخالفا ماروى عن مجاهد ، وعلى رأى ابن كثير سار القرطبى فى عدم التأويل .. ثم نقل رأى مجاهد وقال ان الجمهور على غير رأيه .

وفى "مفردات القرآن" للراغب الأصفهانى . مادة "قرد" قال :

"قيل جعل صورهم المشاهدة كصور القردة ، وقيل بل جعل أخلاقهم كأخلاقها وان لم تكن صورتهم كصورتها "

ونقل تفسير المنار ج ١ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ماروى عن مجاهد وقال : الخسوء : الطرد والصغار والأمر للتكوين فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ؛ ثم قال وذهب الجمهور الى أن معنى "كونوا قردة"

---

(١) "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا .. الآية ٥ من سورة الجمعة .

(٢) هو مجاهد بن جبر المكى المقرىء المفسر أحد تلامذة مدرسة ابن عباس فى التفسير بمكة ولد ٢١ هـ وهو من الموالى التابعين وتوفى سنة ١٠٤ هـ بمكة وعمره ٨٣ سنة جاء فى فجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين عنه "انه أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه ولكنه أوثقهم ولهذا اعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى فيما نقله فى كتاب التفسير من صحيحه الجامع أ هـ

ان صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين ، والآية ليست نصا فيه ولم يبق الا النقل ، ولو صح أن المسخ حقيقي لما كان في الآية عبرة وموعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة ان الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان الى أن قال : فاختيار ما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة ".

وفي تيسير التفسير للشيخ عبد الجليل عيسى ص ٢٢٠ في تفسير آية الأعراف ١٦٦ نقل القولين : المسخ الحقيقي ، والمسخ المعنوي أي مسخت قلوبهم فصارت لا تقبل نصحا وأصبحوا كالقردة والخنازير في الاحتقار .. الخ . "

في الآية الثانية : " فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم " .

مشى ابن كثير كعادته على ظاهر اللفظ واعتبر الموت حقيقيا وذكر في ذلك روايات بدأها بقوله " ذكر غير واحد من السلف " ، ومثل هذا النقل لا يعتمد عليه اذ أن هذه أمور مجملة غيبية عنا فلا تلتزم تفصيلا لها الا عن طريق القرآن أو السنة الصحيحة . لا عن مجرد قول واحد أو أكثر من السلف .. وسار على مثل ذلك القرطبي ، ومال الى أن الموت حصل بسبب وباء ليرتب على ذلك أحكام القدوم على أرض الوباء أو الخروج منها ، وصال وجال في هذه الناحية من الأحكام ، ونحا غيرهما هذا النحو ، وغرق في روايات اسرائيلية اعتقد أنها مدسوسة من الاسرائيليين ليبعدوا جو الآية عن فهم معنى الموت : بأنه الموت المعنوي بالذلة والاستكانة وتمكين العدو منهم ..

أما تفسير المنار جزء ٢ فقد صال وجال في بيان أن الموت هنا موت معنوي وما قاله :

فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم ، وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة بأن تفرق شملها ، وذهبت جامعتها ... الى أن قال " ومعنى حياتهم هو عودة الاستقلال اليهم بعد أن تطهرت نفوسهم بالبلاء الذي أصابهم فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وخرجوا من ذل العبودية فهذا معنى حياة الأمم وموتها .. "

ثم أخذ يعضد هذا الرأى فقال : واطلاق الحياة على الحالة المعنوية الشريفة فى الأشخاص والأمم والموت على مقابلها معهود كقوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم " الآية ٢٤ من سورة الأنفال .. وقوله " أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها .. الآية ٢٢ سورة الأنعام " واستطرد بعد ذلك فى سرد مايؤيد رأيه ".

وفى تيسير التفسير للشيخ عبد الجليل عيسى يقول :

" الم تر " بقلبك يامن يصح منك العلم الى الذين خرجوا من ديارهم ومع أنهم كثيرون فقد خافوا الموت بجبنهم فجزاهم الله بموتهم الأدبى واذلال عدوهم لهم وبعد انقراض هذا الجيل الجبان أحياهم الله باخراج جيل جديد ارجع ملكهم ... " أ هـ

ونكتفى بهذا لنقول : ظهر أن المعنى الذى رآه أزاد فى تفسير الآيتين ذهب اليه غيره من بعض المفسرين الذين لهم وزنهم وقدرهم ، وان كان هناك مفسرون آخرون اختاروا ظاهر اللفظ .. لكن مادام هناك مفسرون من قبل أزاد ، ومن بعده ، ذهبوا لما ذهب هو اليه ، ولم ينكر عليهم أحد ولا مولانا البنورى أو يتهمهم بأنهم يتبعون هواهم ويذهبون لما لا يرضى ربهم .. فكيف يجوز لمولانا البنورى أن ينكر على أزاد ما رآه فى تفسير الآيتين ويتهمه بأنه يؤولهما حسب هواه ، بما لا يحبه الله ولا يرضاه ، والله (أى البنورى) بنقده ، يريد أن يوقظ الغافلين ويحذر المغرورين بأزاد حتى لا يتبعوه فى هواه ؟ أفهل كل هؤلاء المفسرين حتى مجاهد اتبعوا هواهم وذهبوا لما لا يحبه الله .

الحق ان هذه حدة ومبالغة فى النقد ، كنت أرجو من مولانا البنورى أن يقتصد فيها فالأمر لا يعدو خلافا فى وجهة النظر بين رأيين واردين فى كتب التفسير القديمة والحديثة ، ومن الطبيعى أن يختار كل عالم أو قارىء مايميل اليه عقله ، ومايترجح منهما لديه ولقد قال مجاهد من قديم أن المسخ مسخ معنوى وذكرت كتب التفسير كلها تقريبا قوله ولم نر فى أى واحد منها طعنا عليه ولا تجريحا له .. بل اختار بعض المفسرين غير هذا القول مع احترامهم لمجاهد ورأيه وكان هذا هو المنتظر كذلك من مولانا البنورى العالم الذى يجب

الاقتداء والاتباع .. فيجتهد فى ترجيح الرأى الذى يختاره دون أن يجرح مخالفيه ويتهمهم بأنهم يتبعون أهواءهم ويذهبون لمالا يرضى ربهم . لاسيما أن أول من قال هذا القول هو الامام مجاهد المفسر التابعى الراوية عن ابن عباس رضى الله عنهما ومن أوثق من روى عنه ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم . (١)

النتيجة

أظن أننى أستطيع بعد هذه المناقشة وهذا العرض أن أقول باطمئنان وثقة أن شيئا من النقد الذى وجهه مولانا المنورى لأزاد لم يثبت ،بل اننى أرى أن رأى أزاد هو الرأى السديد فى كل ماذهب اليه من بيان معنى الهداية والدين والاسلام ووحدة الدين الذى جاء به رسل الله جميعهم والايمان بهم جميعهم كذلك . وأن الذين آمنوا برسولهم الذى أرسل اليهم مدة رسالته وبالرسل قبله واتبعوا شريعته مسلمون ناجون وأن من كذب رسولا فقد خرج على الدين وفقد سبيل النجاة ،وأنه بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم يصبح الايمان به كذلك واتباع شريعته هو سبيل النجاة الوحيد ..

وكذلك ما ذهب اليه من اختيار المسخ المعنوى والموت المعنوى لا يمكن أن يعاب عليه ،بل هو الذى يميل اليه العقل وتؤيده سنة الله والتاريخ .. فاليهود عاشوا ويعيشون أذلاء مهانين مهما تكن لهم سيطرة المال فان القلوب تمجهم وتبغضهم وتحتقر وسائلهم الدنيئة فى الوصول الى أغراضهم ،والذين يجبنون عن القتال والدفاع عن أنفسهم مصيرهم أن يسحقهم عدوهم ويصيروا أذلاء له ويعيشوا حياة كالموت بل الموت أفضل منها .

ليس من مات فاستراح بميت ** انما الميت ميت الأحياء

ولقد مر اليهود فى تاريخهم بأدوار أذلهم فيها أعداء لهم ثم عادوا فتخلصوا من عدوهم واسترجعوا ملكهم حين شعروا بعيوبهم وعرفوا عاقبة جبنهم وتخاذلهم ،وهذه سنة الله فى الأمم تكبو فتتعلم من كبوتها فتنهض ،وهذا هو المناسب لوضع الآية وسياقها وسط

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٥١ الطبعة الثالثة للمرحوم أحمد أمين .

آيات تتحدث عن القتال وتدعو اليه ،وتسوق من أجل ذلك العبرة بقصة من جبن نفسه وخاف الموت فعاش حياة ذليلة ،كان الموت أفضل منها ولاسيما الموت فى ميدان الشرف والدفاع عن الوطن . .

بحثه عن ذى القرنين

تعود مولانا أزاد فى ترجمة القرآن ، أن يقف عند بعض المواضع من آيات القرآن الكريم ويعلق عليها تعليقا قصيرا أوطويلا حسبما يقتضيه المقام ، كما رأيناه عندما يتم ترجمة السورة يتحدث حديثا مسهبا عن مقاصدها وأهم المباحث التى وردت بها على نسق ما فعله السيد رشيد رضا فى تفسير المنار .

ونحن هنا لا نستطيع أن نتابع مولانا أزاد فى كل ماوقف عنده ، وتحدث باسهاب عنه ، ولذا فانى أختار موضوعا واحدا من هذه الموضوعات ، وذلك لأن المفسرين جميعا وكتب التاريخ كذلك قد تحدثت فى هذا الموضوع وذكرت فيه كثيرا من الآراء ، ومع كثرتها لا أعتقد أن أحدا وجد فيها ما يطمئن اليه من آراء وكنت واحدا من هؤلاء الذين لم يطمئنوا الى رأى من هذه الآراء ، ولذلك كان هذا الموضوع عندى من الموضوعات التى كنت أتوقف عن الخوض فى تفاصيلها أوالبت فيها برأى :

هذا الموضوع هو ماذكرته سورة الكهف فى أواخرها من آية : ٨٣ ومابعدها .. حين قصت قصة ذى القرنين والسد الذى أقامه فى وجه يأجوج ومأجوج ، ولا شك أنه يتوارد على الخاطر عدة أسئلة عند قراءة هذه الآيات الكريمة ، هى : من هو ذو القرنين ؟ ومن يأجوج ومأجوج ؟ وأين مكان السد ؟ .. أسئلة لم أجد فيما قرأت من كتب التفسير والتاريخ رأيا أطمئن اليه كما قلت حتى أرسل لى مولانا أزاد عليه رحمة الله بعض أعداد من مجلة ثقافة الهند (١) تحتوى على ترجمة كاملة لما كتبه عن ذى القرنين فى آخر سورة الكهف ، فأقبلت على قراءة الموضوع بشغف لعلى أجد فيه جديدا فلمست فيما قرأت مدى تعمق مولانا أزاد فى فهم القرآن واطلاعه الواسع على التاريخ والتوراة والانجيل والكتب العربية وغير العربية التى تعرضت لهذا الموضوع ، كما لمست مقدار شغفه بالوصول الى الحقيقة ، وبذله الجهود فى سبيل ذلك ، شأن العلماء المحققين .

---

(١) أعداد مارس ويونيو وسبتمبر سنة ١٩٥٠ حين كنت مبعوثا من الأزهر والمؤتمر الاسلامى للهند فى سنة ١٩٥٦ م .

وأعتقد أن الرأى الذى وصل اليه فى هذا الموضوع رأى جديد لم يسبق اليه ، وقد دعمه بالأدلة الكثيرة النقلية والعقلية والأثرية والجغرافية ، كما ارتحل الى المنطقة التى أدى بحثه الى وجود السد فيها ، واطلع على ماكتبه الغربيون من المعنيين بآثار المنطقة حتى انتهى أخيرا الى رأيه ، ووجدناه يعنى فى تفسيره برسم خريطة لملك ذى القرنين واتجاهه لمغرب الشمس ومطلعها وبين السدين ، ويحصل على صورة للتمثال الذى عثر عليه لذى القرنين وينشرها فى أحد أعداد المجلة التى نشرت هذا البحث .

وقد أخذ هذا البحث من صفحات المجلة مايقرب من المائة صفحة ، وقد كنت أود منذ قرأته واقتنعت به أن أنشره مع مقدمة له فى كتيب خاص به لينشر على نطاق واسع لأننى وجدت أحد الكتاب ينشر فى احدى المجلات خلاصته ، وينسبه لنفسه .. الا أننى رأيت أن أؤخره حتى أنشره مع ترجمة وافية لمولانا أزاد فى كتاب خاص ، وشاء الله سبحانه أن يتأخر ذلك كله لأقدمه فى هذه الرسالة ، ونظرا لطول هذا البحث وماضمه من تفاصيل فقد رأيت أن أقدمه هنا موجزا على أن أعنى باثباته فى ملحق خاص فى آخر هذه الرسالة "ملحق ب" .

وقد قدم أزاد لبحثه بمقدمة رأيت أن أثبتها هنا بنصها لتلخيصها منهج هذا العالم فى بحثه ، ورأيه فيما كتبه المفسرون قبله ، ثم ألخص رأيه وأذكر النتيجة التى انتهى اليها .

ولكن يحسن قبل أن نعرض رأى أزاد ، أن نستعرض ماقيل فى كتب التفسير والتاريخ حول هذا الموضوع مما أمكن الاطلاع عليه منها ، وقد رأيت بعد ما استعرضت بعضها أن الآراء المذكورة فيها واحدة أو متقاربة ، وينقل بعض المفسرين غالبا عن بعض ، ولهذا أنقلها هنا باختصار اتماما للفائدة ، ولكى تعين على توضيح الفرق بين آراء أزاد وآراء من سبقه ، أوجاء بعده من الكتاب الذين تناولوا بحث هذا الموضوع .

آراء المفسرين والمؤرخين

تفسير الكشاف : ذو القرنين : الاسكندر . بعدا عالما سخر له النور والظلمة عجبا

ملكا ،وعن النبى صلى الله عليه وسلم سمى ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا يعنى جانبيها شرقا وغربا ،وقيل كان لتاجه قرنان " كان على رأسه ما يشبه القرنين .

يأجوج ومأجوج : اسمان أعجميان من ولد يافث ،وقيل يأجوج من الترك ،ومأجوج من الديلم

السد : سيبقى الى يوم القيامة بدليل أن فتح السد جعل غاية لرجوع الكافرين (فى سورة الأنبياء) .

تفسير ابن كثير : ذو القرنين : الاسكندر ،ثم أبطله ،كان فى زمن الخليل ابراهيم وطاف معه بالبيت .

وسمى ذا القرنين : لأن صفحتا رأسه كانتا من نحاس ،لأنه ملك الفرس والروم فى رأسه شبه القرنين ،وروى عن على (ض) أنه عبد صالح ضربه قومه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا الى الله فضربوه فمات ،وعنه : لأنه بلغ المشارق والمغارب وأورد فى البداية جـ ٢ ص ١٠٢ مثل ذلك وزاد أنه نبى أوملك ،انتهى الى بحر الظلمات وفيه جزر الخالدات

يأجوج ومأجوج : ذكر ما قاله النووى على شرح مسلم " أنهما خلقا من منى خرج من آدم فاختلط بالتراب ،فلم تكن حواء أمهم ... من نسل يافث بن نوح ـ وذكر عن ابن جرير أنه نقل عن وهب بن منبه اخبارا فيها طول وغرابة ونكارة ،وذكر فى البداية جـ ٢ حديثا فى الصحيحين يثبت أنهم أناس مثلنا (واحد فى الجنة و ٩٩٩ فى النار) فلما انزعجوا أخبرهم بأن الواحد منهم والباقى من يأجوج ومأجوج ،وأنكر ما قاله النووى سابقا ،وقال هم من نسل يافث أبو الترك .

السد : ذكر أن الخليفة الواثق أرسل اناسا لمعاينته فانتقلوا من بلاد لبلاد حتى وصلوا اليه ورأوا بناءه من نحاس وحديد وغابوا أكثر من سنتين ،وفى البداية ذكر ما نقله البخارى من أن رجلا وصفه للنبى ورد هذا الحديث وقال أن الطبرى ذكره مرسلا ، أما مكانه فيقول انه فى زاوية الأرض الشمالية الشرقية "ووراءه بلاد متسعة جدا يسكنها أناس يقتاتون من الزراعة والصيد .

القرطبي : نقل عن ابن اسحاق أقوالا كثيرة ،انتهى من المشرق والمغرب الى ماليس وراءه خلق ،كان من أهل مصر واسمه مرزبان ونقل عن ابن هشام انه الاسكندر وروى حديثا عن النبي "ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب "وعن عمر : أنه ملك وعن علي كذلك ،أو أنه عبد صالح واسمه الاسكندر المقدوني ،هرمس ، هرديس ، الصعب بن ذي يزن الحميري وذكر الطبري حديثا أنه شاب من الروم .

وسمى ذا القرنين لأنه كان ذا ضفيرتين مبلغ المشرق والمغرب ،ضربوه فشجوه (الرواية السابقة في ابن كثير) في وقتهيس . ابراهيم . الخضر صاحب لواءه الأعظم .. وأقوال كثيرة من باب التخمين ولا سند لها كغيرها .

ياجوج وماجوج : بهمزة وبدونها عربيان أو أعجميان من ولد يافث . من نطفة آدم . روى حديث (لا يموت رجل منهم حتى يخرج من صلبه ألف ذكر يحمل السلاح " ويذكر عن الحديث أوصافهم يأكلون الفيلة والوحوش والخنازير الى غير ذلك من الأقوال الغريبة

السد : ذكر قراءته بالضم والفتح ،ولكنه قال عن "بين السدين " أي جبلين من جهة أرمينيا وأذربيجان .

الألوسي : أورد الأقوال المذكورة في كتب التفسير وقال لا يكاد يسلم فيها رأى من قيل وقال ثم اختار أنه الاسكندر اليوناني ودافع عن رأيه بأن تلمذته لأرسطو لا تمنع من أنه كان عبدا صالحا فموسى الذى رباه فرعون مرسل .. الخ .

السدان : جبلا أرمينيا وأذربيجان ومال الى ذلك البيضاوي ثم قال ان هذا توهم ومن أخذ به قال عن السد انه باب الأبواب .

ثم انتهى الى أنهما بموضع من الأرض لا نعلمه وكم فيها من أرض مجهولة ودعوى استقراء سائر البراري غير مسلمه ويجيز العقل أن يكون في البحر أرض مثل امريكا لم نظفر بها حتى الآن .. ويجب علينا مع ذلك الايمان بما أخبر به الصادق ..

وأورد عن يأجوج ومأجوج ما قاله غيره .

جاء فى تفسير الشيخ حسنين محمد مخلوف (صفوة البيان) ج ١ ص٤٨٤ مايلى :
"ويسألونك عن ذى القرنين ،هو عبد صالح ملكه الله الأرض ،وأعطاه العلم والحكمة والسلطان وقيل : نبى كما يشهد له ظاهر قوله تعـالى : " قلنا ياذاالقرنين "وسمى ذا القرنين لبلوغه المشرق والمغرب ،فكأنه حاز قرنى الدنيا ،وليس هو الاسكندر المقدونى، تلميذ أرسطو بل كان قبله بقرون ..."

وفى صفحة ٤٨٤ ،يقول : " بين السدين "الجبلين ،وسمى الجبل سدا لأنـه سد فجـا من الأرض ،قيل : انهما فيما يقرب من عرض تسعين درجة من جهة الشمال ..(بين الصدفين) : جانبى الجبل وسمى كل واحد من الجانبين صدفا لكونه صادفا ومقابلا للآخر ... الخ ص ٤٨٥ هذا ولم يتعرض للمراد بياجوج ومأجوج مطلقا ولم يعط أى بيان عنهما .

(٢) ويقول الشيخ عبد الجليل عيسى فى تفسيره (تيسير التفسير) ص ٣٩٢ ومابعدها :
" .. وكان اليهود يحاولون احراجه صلى الله عليه وسلم ،فيوعزون الى مشركى مكة أن يسألوه صلى الله عليه وسلم عن الأشياء الغريبة المجهولة عند الناس الا قليلا منهم لعله يخطىء فيجدون منفذا للطعن فسألوه عن ذى القرنين ،وهل كان ذو القرنين رجلا صالحـا فقط ،أو نبيـا كما هو ظاهر قوله تعالى : "قلنا ياذا القرنين "الآتى فى آية : ٨٦ ،قل لهم أيها النبى (يريد محمد) سأتلو عليكم من اخباره قرآنا ،ثم بين ذلك بقوله : انا مكنـا ... الخ .

"قالوا ياذاالقرنين ان يأجوج ومأجوج .. الخ " ،يأجوج اسم لقبيلة عجميـة هى التـتر ،ومأجوج اسم لقبيلة أخـرى عجمية أيضا هى المغول ،وكانتا من أصل واحـد يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ،ويلحق بهما كل من كان مثلهما .. الخ .

وجاء فى كتاب (مروج الذهب) للمسعودى ج ١ ص ٦٥ الطبعة الثانيـة ١٩٤٨ ـ المكتبة التجارية الكبرى .

وقد حكى عن وهب بن منبه أن ذا القرنين وهو الاسكندر ،كان بعد المسيح عليـه السلام فى الفترة (أعنى مابين المسيح والنبى محمد عليه الصلاة والسلام) ،وأنه كان حلـم

حلما رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها فى شرقيها وغربيها ،فقص رؤياه علـى قومه فسموه : بذى القرنين وللناس فى ذى القرنين تنازع كبير ... الخ من ص ٦٥ .

وفى ص ٢٨٨ ج ١ يقول : " وقد تنازع الناس فيه (الاسكندر) : فمنهم مـــن رأى أنه ذو القرنين ،ومنهم من رأى أنه غيره ،وتنازعوا أيضا فى (ذى القرنين) : فمنهم من رأى أنه سمى بذى القرنين لبلوغه أطراف الأرض ،وأن الملك الموكل بجبل قاف سمـــاه بهذا الاسم ،ومنهم من رأى أنه من الملائكة ،وهذا قول يعزى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،والقول الأول لابن عباس فى تسمية الملك اياه ،ومنهم من رأى أنه كان بذؤابتين مـــن الذهب ،وهذا قول يعزى الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ،وقد قيل غير ذلك ... الخ

ويقول ابن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) ج ١ ص ١٦١ وما بعدهمـــا ٢٦٢ طبعة منير ١٣٤٨ هـ مايلى : تحت عنوان (ذكر الاسكندر ذى القرنين) :

" فلما فرغ من بلاد المغرب والمشرق وما بينهما قصد بلاد الشمال ،وملك تلـك البلاد ودان له من بها من الأمم المختلفة الى أن اتصل بديار يأجوج ومأجوج ، وقـــد اختلفت الأقوال فيهم ،والصحيح أنهم نوع من الترك لهم شوكة وفيهم شر ،وهم كثيرون وكانـوا يفسدون فيما يجاورهم من الأرض ويخربون ما قدروا عليه من البلاد ويؤذون من يقـــرب منهم ،فلما رأى أهل تلك البلاد الاسكندر شكوا اليه من شرهم كما أخبر الله عنهم فى قولـه : ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين ، وهما جبلا متقابلان لايرتقى فيهما ، وليـس لهما فى الا من الفرجة التى بينهما ،فلما بلغ الى تلك وقارب السدين (وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا ،قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال : ما مكنى فيه ربى خير ،فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما) ،يقول : ما مكنى ربى فيه خير من خرجكم ولكن أعينونـى بالقوة ،والقوة الفعلية والصناع والآلة التى يبنى بها ،فقال : (آتونى زبر الحديـد) أى قطع الحديد فأتوه بها فحفر الأساس حتى بلغ الماء ،ثم جعل الحديد والحطـــب صفوفا بعضها فوق بعض (حتى اذا ساوى بين الصدفين) وهما جبلان ،أشعل النار

فحص الحديد وأفرغ عليه القطر وهو النحاس المذاب فصار موضع الحطب وبين قطع الحديد ، فبقى كأنه برد محبر من حمرة النحاس وسواد الحديد ، وجعل أعلاه شرفا من حديد فامتنعت يأجوج ومأجوج من الخروج الى البلاد المجاورة لهم ، قال الله تعالى (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) .. الخ .

واليعقوبي في تاريخه ج ١ ص ١٣٦ طبعة النجف سنة ١٩٦٤ : يذكر أن الاسكندر هو ذو القرنين وانه قاتل دارا ملك الفرس .. الخ .

وهكذا نجد آراء المفسرين هنا والمؤرخين متقاربة أومتشابهة ينقل كل عن الآخر أقوالا فيها كثير من الغرابة ، ولم يصلوا الى رأى مقبول تطمئن اليه نفس الباحث مما تــرك الموضوع هائما بين الآراء المنقولة المحشوة بكثير من الخرافات وننتقل بعد ذلك الى مولانا أزاد ورأيه في هذا الموضوع ، يقول :

جاء في سورة الكهف ذكر شخص من التاريخ القديم ، لقب ب (ذى القرنين) والآيات هى : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، أنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا ، فأتبع سببا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيها حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ، كذلك ، وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد ، حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ، قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا) سورة الكهف من الآية ٨٣ ــ ٩٨

سبب النزول وبعض الروايات :

الظاهر من أسلوب الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فجاءت الآيات جوابا للسؤال ، فروى الترمذى والنسائى والامام أحمد فى مسنده ، أن قريشا بايعاز من علماء اليهود ـ سألت النبى عن أمور ، منها ذوالقرنين ، فقالت : "من هـذا الرجل وماهى أعماله" وروى القرطبى عن السدى : (قالت اليهود أخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة الا فى مكان واحد ، فقال : ومن ؟ قالوا : ذوالقرنين) ، وقد أحصـى ابن جرير وابن كثير والسيوطى الروايات بهذا الصدد فى تفاسيرهم .

خصائص ذى القرنين فى القرآن :

ان ماذكر فى الآيات من خصائص (ذى القرنين) يتلخص فيما يأتى :

١ = الرجل الذى سألوا النبى عنه ، كانوا يسمونه بـ "ذى القرنين" أى أن هذا الاسم أواللقب لم يضعه القرآن من عنده ، بل الذين سألوا عنه ، هم الذين أطلقوه عليه ولذلك قال : (ويسألونك عن ذى القرنين)

٢ = أعطاه الله الملك وهيأ له أسباب الحكم والغلبة .

٣ = كانت مهماته الحربية الكبرى ثلاثة :

الأولى : غربية ـ زحف من بلاده متوجها الى الغرب حتى وصل مكانا كان له حد المغرب فوجد الشمس هناك كأنها تغرب فى عين .

والثانية : شرقية ـ فمازال يتقدم حتى بلغ أرضا لاعمران فيها ، تقطنها القبائل البدوية

والمهمة الثالثة : وصلت به الى مكان به مضيق جبلى ، يشن من ورائه قوم الغارات علـى الأهالى الذين أطلقوا عليهم اسم يأجوج ومأجوج ، وكان هؤلاء همجا ، حرمـوا من المدنية والعقل .

٤ = أقام الملك سدا فى المضيق الجبلى لمنع غارات القوم .

٥ = لم يتكون هذا السد من الحجر والآجر فقط ، بل استهلك فيه الحديد وأفـرغ

عليه النحاس كذلك فأصبح سدا منيعا تعجز دونه هم المغيرين .

٦ - كان الملك مؤمنا بالله وبالآخرة .

٧ - كان ملكا عادلا رحيما برعيته ، لا يحب الفتك والقسوة بالمفتوحين ، فانه لما تغلب على قوم في الغرب ، ظنوا أنه يرهقهم كغيره من الملوك الفاتحين ، فلم يفعل ذلك بل قال لهم ، لا خوف على الأبرياء منهم ، أنه من يعمل خيرا يجز به ، كان القوم في قبضة يده ، لا ناصر لهم ، الا أنه أشفق عليهم وكسب قلوبهم بعدله واحسانه .

٨ - لم يكن حريصا على المال ، فانه لما أراد المفتوحون أن يجمعوا له المال لاقامة السد أبى أخذه منهم قائلا ان ما أعطاني الله يغنيني عن أموالكم ولكن أعينوني بقوة أيديكم ، أشيد لكم سدا حديديا .

حيرة المفسرين :

فالشخصية التاريخية التي هذه أعمالها وصفاتها ، هي شخصية "ذي القرنين" ولكن من هو هذا الرجل ومتى وأين وجد ؟

ان أول مسألة شغلت بال المفسرين في هذا الصدد ، هي اسم الرجل أولقبه ، اذ لم يعرف أن يكون لانسان قرن أوقرون ولم يعرف في التاريخ ملك لقب بهذا اللقب ، فتحيروا وتخبطوا في تفسيره خبط عشواء فقال بعضهم ان (القرن) لم يستعمل في معناه الظاهر بل أريد به الزمن ، ولما كان هذا الملك قد امتد حكمه واتسع نطاق فتوحاته الى عهدين كبيرين لقب بذى القرنين ، ثم اختلفوا في تحديد مدة القرن فقيل ثلاثون سنة وقيل خمس وعشرون سنة وقيل عشر سنين ، أقوال لا طائل تحتها .

وقد جمع ابن جرير الطبري في تفسيره آثار الصدر الأول في الباب غير أنها لا تلقى ضوءا على شخصية خاصة ، بل تبحث فيما اذا كان ذو القرنين نبيا أوغير نبي مبشرا أوملكا ؟ ولكن الآثار أجمعت على أن هذه الشخصية قديمة غارقة في القدم ، قيل في بعض الروايات أنه عاصر ابراهيم عليه السلام وأنه كان من الأنبياء ، فذكره البخاري مع الأنبياء القدماء وقدم ذكره على ابراهيم ، فكأن البخاري رأى أن ذا القرنين وجد قبل

ابراهيم بزمن قليل أوفى عصره .

ولما بدأ عهد جديد للبحث والنقد ، اتجهت أذهان بعض المؤرخين الى اليمن ، فظنوا أنه كما ذكرت الروايات أسماء الملوك الحميريين كـ " ذى المنار " ، و "ذى الأذار " فلا يبعد أنه وجد ملك يمنى سمى بـ "ذى القرنين" كذلك ، وقد صرح به أبو الريحان البيروني في "الآثار الباقية"(١) ووافقه عليه ابن خلدون ، ولكن هذه النظرية قامت على افتراض مخطىء لا يدعمه دليل تاريخى ، وتخالفه القرائن والشواهد كلها .

فنرى أولا أن الآثار أجمعت على أن الذين سألوا النبى عن ذى القرنين هم اليهود ، أوقريش بايعاز من اليهود ، فليس هنالك سبب يدعو اليهود الى معرفة ملك يمنى والاهتمام به الى حد أن يسألوا عنه أو يشيروا على قريش بالسؤال عنه .

وثانيا : ان فرضنا أن قريشا هم الذين تقدموا بالسؤال من تلقاء أنفسهم فمعناه أن أحوال الملوك الحميريين كانت معروفة لديهم ، وهذا الافتراض كذلك غير صحيح اذ لو كان الأمر هكذا لوجدنا له أثرا وذكرا فى روايات العرب وأساطيرهم ، أوفى أحاديث الصحابة والتابعين ، وهذا لا وجود له البتة ، ثم لا يغرب عن البال أن السائلين أرادوا تعجيز النبى ، فكانوا على يقين من أنه لم يصله خبر عن ذى القرنين من أبناء وطنه فيعجز عن الجواب ، ولو كان ذو القرنين رجلا من العرب وكان أهل الحجاز على علم منه لشاركهم النبى فيما يعلمونه ولما كان ثمة وجه للسؤال عن شىء معروف عنده .

والمسألة الحقيقية التى نحن بصددها هى : هل تنطبق الخصائص والأعمال التى ذكرها القرآن لذى القرنين على ملك حميرى يذكر القرآن فتوحا له فى الغرب وفتوحا له فى الشرق واقامة سد حديدى يمنع هجمات يأجوج ومأجوج ؟ ولم توجد الى الآن شهادة تاريخية على وجود ملك حميرى ، أمعن فى الشرق والغرب مسيرا فاتحا وبنى سدا حديديا كما ذكره القرآن ، أما كون بعض ملوك اليمن لقبوا بـ "ذى" فلا

---

(١) صـ ٤٠

أهمية له ،وكذلك التشهت بسد مأرب لايجدى نفعا ،اذ لم يذكر أن هذا السد بنى لصد هجمات قوم واستخدمت فى بنائه ألواح من الحديد . ثم ان القرآن أشار الى سد مأرب فى مكان آخر ولا شبه بينه وبين سد ذى القرنين بوجه من الوجوه.

ثم جاءت طبقة أصحاب النظر فذهبوا الى أن الاسكندر المقدونى قد اشتهر بملكه وانتصاراته فى الشرق والغرب ،فيكون هو ذا القرنين ،والظاهر أن الشيخ أبا على ابن سينا هو أول من قال بهذا فى كتابه (الشفاء) فانه عند بيان مناقب أرسطاطاليس ذكر أنه كان معلما للاسكندر الذى ذكره القرآن باسم ذى القرنين وأثنى على ايمانه وسلوكه القويم ،وتابع الامام فخرالدين الرازى ابن سينا فى رأيه ،وسرد فى تفسيره الشهير - على عادته ،كل ما قيل خلاف هذا الرأى ،ولكنه اقتنع كذلك - على عادته - بالأجوبة الواهية فى حين أن الاسكندر المقدونى لايمكن أن يكون ذا القرنين الذى ذكره القرآن بحال ،ولايقال عن فتوحه انها فتح فى الشرق والغرب ، وكذلك انه لم يبن سدا فى حياته كلها ،ثم اننا نستطيع أن نجزم بأنه ماكان مؤمنا بالله ولا شفيقا عادلا مع الشعوب المغلوبة ، ان هذا المقدونى قد دون تاريخ حياته ولا يوجد شبه بين أحواله وأحوال ذى القرنين ،وفوق هذا ليس ثمة سبب يسوغ تلقيبه بذى القرنين ، حتى أن الامام الرازى نفسه ، مع تفننه فى ايجاد النكات ،قد عجز عن اثباته.

((تاريخ اليهود القومى وتصور شخصية ذى القرنين))

والحاصل أن المفسرين لم يصلوا الى نتيجة مقنعة فى بحثهم عن ذى القرنين القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق ،والمتأخرون حاولوه ولكن كان نصيبهم الفشل .

ولا عجب فالطريق الذى سلكه المفسرون كان طريقا خاطئا ،لقد صرحت الآثار بأن السؤال كان من قبل اليهود ،فكان لائقا بالباحثين أن يرجعوا الى أسفار اليهود ،ويبحثوا هل يوجد فيها شئ يلقى الضوء على شخصية ذى القرنين ، انهم لوفعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة .

النتيجة التى انتهى اليها :

واتجه بعد ذلك الى البحث فى أسفار العهد القديم واستعراض ماجاء فيها مما قيل عنه نبوءات تشير الى ملك من فارس احتضن اليهود بعد غزوه لبابل وخلصهم من الأسر[1] واستعرض مع ذلك أقوال النقاد الأوربيين لهذه الأسفار وخاصة منهم الألمان ، وذكر أن كلمة "قرن" مشتركة بين العربية والعبرية مما جعل اليهود يسمون ذلك الملك بأنه "ذوالقرنين" لأنه جاء فى سفر دانيال اشارة الى رؤيا له بأنه رأى ذلك الملك فى شكل كبش (لوقرانا ئيم) وترجمتها بالعربية (ذوالقرنين) وأنهم يهتمون بتاريخ هذا الملك لأنه أنقذهم من الأسر وجدد لهم "يروشليم" كما يقولون ، وانهم لذلك سألوا الرسول اوحرضوا قريشا على سؤاله ، وكانوا يعرفونه باسم "ذوالقرنين" لأن تاريخه لم يعرفه العرب ، ولم يسمع عنه الرسول وكان السؤال لاعجازه واظهاره بأنه لايعرف ما يعرفونه ..

هذا الملك هو كورش " بالكاف الفارسية ، أحد ملوك فارس أوقورش ، أو غورش أوكورش كما يذكر بالعربية بعد أن انتهى مولانا أزاد الى هذه النتيجة قال :

" بهذا التفسير ارتفعت سائر الاشكالات دفعة واحدة فلا حاجة لأن تصرف كلمة "القرن" عن معناها اللغوى العام ولا أن نتيه فى بيداء التأويلات والتكلفات الباردة فشخصية "ذى القرنين" التاريخية قد برزت للأعين ، أما ماذكره القرآن من أوصاف وأحوال ذى القرنين فسنراها مطابقة لأوصاف غوروش التاريخية مطابقة تامة دون أن نجهد أنفسنا فى التطبيق ".

---

(١) هو الملك (كورش الثانى الفارسى الذى استطاع الانتصار على (بنونيدس) آخر ملك بابلى فاستعان (كورش) باليهود ليكونوا له عونا .. ، وأباح لهم العودة الى بلادهم سنة ٥٣٨ ق.م وقيل ٥٣٧ ق.م ، وكان (بختنصر) الملك الكلدانى البابلى الشهير قد اجتاح دولة يهوذا فى سنة ٥٨٦ ق.م وظلوا يعيشون فى بابل كأسرى حرب قرابة نصف قرن (كتاب صراع على أرض الميعاد) ص٩٥ - ٩٨ (المكتبة الثقافية) العدد ٤٥ فى ١٥ سبتمبر سنة (١٩٦١) ومذكرات التاريخ القديم - طبعة ثانية ١٩٣٤ / ١٩٣٥ لحسن مراد ص ٦٢
(وكورش ملك الفرس الذى خلص اليهود من أسر ملوك بابل - هو كورش الثانى الذى حكم من ٥٥٠ - ٥٢٧ ق.م) أما كورش الأول فكان حكمه من سنة ٦٠٠ ق.م وجاء من بعده (قمبيز الأول الى ٥٥٠ ق.م وتلاه كورش الثانى الذى يقال انه حفيده =

"العثور على تمثال غوروش الحجرى"

ولم يقف مولانا أزاد بمعلوماته عند هذا الحد من الاعتماد على كتب العهد القديم ومن المقارنة بل رجع الى ماكتبه مؤرخو اليونان فى هذا الموضوع، ثم لما ذهب بنفسه لزيارة أثار ايران العتيقة وقرأ مصنفات علماء الآثار فيها زال الحجاب ، ثم عرف أنه ظهر نتيجة للتنقيب عن الآثار تمثال حجرى لغورش نفسه موعلى رأسه تاج فى جوانبه قرنان فتأكد لديه تماما أن غورش هو مايعنيه القرآن بذى القرنين .. واقتطف هنا من هذا البحث ما يأتى مما يبين مدى اهتمام أزاد بالبحوث وسعة اطلاعه : "ان هذا الكشف الأثرى الهام هوتمثال لغورش عينه ، وجدوه منصوبا فى مكان يبعد عن عاصمة ايران القديمة "اسطخر" نحو خمسين ميلا على شاطئ نهر "مرغاب" وقد سبق "جيمس موريــر" (Morian) فاخبر بوجوده ، ثم جاء بعد سنوات السير روبرت كيربورتر Porter — فقام المكان وفحصه فحصا دقيقا ونشر رسما للتمثال بالقلم الرصاص وذلك فى كتاب رحلته الى ايران وجورجيا وقد تكلم القس فوستر Foster سنة ١٨٥١ م فى المجلد الثانى من كتابه on Primeval Language عن التمثال واستدل به على نصوص التوراة وكذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الأولى .

ولم يكن اللثام عن الخط المسمارى قد أزيح كلية الى ذلك الحين الا أنه كان قد تقرر أن التمثال لسائرس أى لغورش نفسه ، وقد دعمت البحوث المتأخرة هذا القرار تدعيما لايدع المجال للريب فيه ، ثم لما ألف الكاتب الفرنسى الشهير ديولافوى (Dieulafoy) كتابه عن الآثار القديمة فى ايران L'antiquité et Perse نشر فيه صورة عكسية (فوتوغرافية) للتمثال فعرفه الناس معرفة تامة .

---

(١) (والقرنين) .

وكورش : تكتب هكذا بالكاف كما يكتب بالقاف أحيانا وبالغين أحيانا لأنها ترجمة للكاف الفارسية التى تنطق نطق أهل القاهرة بالجيم وليس لها نظير فى الحروف العربية .

"وقد اعترف علماء الآثار فى القرن التاسع عشر بحسن التمثال الفنى ،ويريد يلافواى أنه نموذج ثمين جدا للنحت الفنى القديم قائلا "انه النموذج الفنى الآسيوى الوحيد الذى يضاهى أحسن التماثيل الاغريقية ،فلا عجب أن احتل التمثال أهم مكان فى الآثار المتبقة الفارسية وقد تحمل عدد من علماء الألمان مشاق السفر الى ايران ،لا لشىء الا ليشاهدوا التمثال الجميل ،انه تمثال على القامة الانسانية ظهر فيه غورش وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب ،وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش ،يده اليمنى ممتدة الى الامام ،ولباسه نفس اللباس المعهود الذى نراه فى صور ملوك ايران وبابل "

وبهذا كله انتهى مولانا أزاد الى القطع بأن غورش (المتوفى ٥٣٩ق٠م) هو المراد بذى القرنين فى القرآن الكريم ،وزاده اقتناعا أن الأوصاف التى يذكرها التاريخ عن هذا الرجل مطابقة للأوصاف التى ذكرها القرآن عنه بعد أن قام بالمقارنة المفصلة بين ماذكره التاريخ وماذكره القرآن من هذه الأوصاف •

وكان اعتماد أزاد فى وصوله لهذا الرأى كما رأينا على :

١) أسفار اليهود وتحدثها عن ملك من فارس له ارتباط بتاريخهم وانصافهم مما حدا بسؤال اليهود للرسول عن هذا الملك على سبيل التحدى لأنهم يعرفونه من كتبهم التى لم يطلع عليها الرسول ولم يعرفها العرب •

٢) ما كتبه مؤرخو اليونان وعلماء الآثار فى ايران عن هذا الموضوع وكذلك ماكتبه المؤرخون المعنيون بالآثار عن العرب •

٣) زيارته للمنطقة الأثرية القديمة فى ايران ورؤيته لتمثال غورش الذى عثر عليه فى هذه المنطقة وأوصاف هذا التمثال والتاج الموضوع على رأسه الذى يشبه القرنين •

٤) عقد مقارنة بين ماكتبه التاريخ عن هذا الملك من أوصاف وماذكره القرآن عنه ووجود تطابق تام بين القرآن والتاريخ الذى لم يعتمد فيه على ماذكره قومه بل اعتمد كذلك على ماذكره المؤرخون اليونانيون الذين كانوا على خلاف وعداء للفرس ولاسيما فى الفترة التى كتب فيها هذا التاريخ ••

"السـد" و"يأجوج ومأجوج":

ولما كانت شخصية ذى القرنين مرتبطة فى القرآن الكريم بيأجوج ومأجوج وبالسد الذى أقامه لحماية الناس من شرهم "قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا .. ؟ سورة الكهف .. وكان من الطبيعى أن يثور سؤال (كما سبق أن ذكرنا) عن يأجوج ومأجوج ؟ وأين أقيم هذا السد .. ؟

تولى مولانا آزاد فى بحثه عن ذى القرنين الاجابة عن هذين السؤالين فى تفصيل ،فتناول أولا يأجوج ومأجوج ونطقهما فى اللغات غير العربية فقال :

"ان هاتين الكلمتين تبدوان كأنهما عبريتان ولكنهما فى أصلهما قد لا تكونان كذلك فهما كلمتان أجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية فهما تنطقان باليونانية "گوگ Gog" و "ماگوگ Magog"[1] كما ذكرنا فى التوراة كذلك .

ومادام هذان اسمين لقبائل ،فالأسماء لا تتغير فى جميع اللغات وان كان التحريف القليل قد يصيبها عند ترجمتها من لغة الى لغة حسب نطق اللغة المترجم اليها لكن الأصل تظل ملامحه باقية .. فيأجوج ومأجوج معروفان مذكوران فى اليونانية وفى العبرية ،وفى الصينية علما على قوم من الناس ،فمن هم هؤلاء القوم؟ فاذا وصلنا الى معرفتهم كان من السهل تعيين مكان السد : ثم يقول أزاد :

(لقد تضافرت الشواهد التاريخية على أنهم لم يكونوا الا قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخى الى القرن التاسع الميلادى نحو البلاد الغربية والجنوبية ،وقد سميت بأسماء مختلفة فى عصور مختلفة وعرف قسم منها فى الزمن المتأخر باسم " ميغـر" أوميجر (ميكر) فى أوربا وباسم

---

(١) هذه كاف فارسية تنطق بين الجيم والكاف كما ينطق أهل القاهرة "الجيم" العربية مثل نطق حرف "g" فى كلمة "go" بمعنى الذهب فى الانجليزية وعند تعريبها نذكرها أحيانا "غ" وأحيانا "ج" كما مر فى "غورش" "كورش" فيقال جوج وغوغ ،ماجوج أغوغ .. ،وقد اختار القرآن التعبير بالجيم (يأجوج ومأجوج)

التتـــار فى آسيا ولا شك أن فرعا لهؤلاء القوم كان قد انتشر على سواحل البحر الأسود فى سنة ٦٠٠ ق ٠ م وأغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز ٠٠ ولنا أن نجـزم بأن هؤلاء هم الذين شكت من غاراتهم الشعوب الجبلية الى " كورش " فبنى السد الحديدى لمنعها) ٠

والبلاد التى كان يعيش فيها هؤلاء القوم هى البقعة الشمالية الشرقية من الأرض المعروفة باسم "منغوليا " وتسمى قبائلهم الرحالة باسم "منغول " وتقول المصادر الصينيـــة أن أصل هذه الكلمة هو "منكوك " وهى قريبة من المنطق العبرى "ماكوك" والنطـــــق اليونانى لها ، "ميكاك " ٠

وهذه البقعة من الأرض كانت معينا بشريا لاينضب تتدفق مياهه وتتجمع حتى اذا بلغت النهاية طفت وانصبت الى الغرب والجنوب ٠٠ وكلما استقرت موجة فى مكـان وتحضرت فيه نسيت خصائصها الأولى ، لكن الذين ظلوا منهم فى أماكنهم كانوا يتجمعون ويعيدون الصورة التى فعلها سابقوهم من قبل ، ويغيرون على البلاد المجاورة لهم وهـــو ماعرف فى التاريخ بموجات المغول أوالتتر

أين مكان السد ؟

وقد تحدث آزاد عن هذه الموجات المتكررة واتجاهها فى تفصيل ثم قال : ممـــا سبق نعرف أن معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات القبائل المنغولية من القرن السادس قبل الميلاد وأن الزمن الذى توقفت فيه هذه الهجمات بغتة هو زمن "غورش " فلا بـــد أن تكون هذه القبائل هى التى سميت يأجوج ومأجوج ، ولصد غاراتها بنى غورش السد الـذى يشير اليه القرآن الكريم "

ولأجل أن يخطو آزاد الخطوة الأخيرة ويعين مكان السد كان لابد له أن يعيـن مكان الخطر الذى يتدفق منه هؤلاء على آسيا الغربية ٠٠

وباستقراء التاريخ ومراجعة نصوص التوراة وماجاء فيها عن يأجوج ومأجوج وصـــل الى أنه أقيم فى مضيق جبال القوقاز وهو المضيق الذى كان يتدفق منه هؤلاء فى البقعـــة

بعد هذه الصفحة خريطة

الواقعة بين بحر الخزر شرقا والبحر الأسود غربا حيث تقوم سلسلة الجبال فى هذا المكان بسد طبيعى ماعدا بقعة صغيرة كانت ممرا بين الشمال والجنوب أقام فيها غورش سد ، وهذا المضيق يسمى فى أيامنا باسم "داريال" ويشار اليه فى الأطالس الحاضرة بين فلادى كوكس (Vladikaukas) وبين تفليس حيث يوجد الى الآن جدار حديدى من قديم الزمان .. وهو جدار غورش الذى ينطبق عليه وصف القرآن له"

ولا يقتصر أزاد على هذا لتدعيم وجهة نظره بل يستعين بالكتابات الأرمنية القديمة حيث يقيم الأرمن .. ويقول " ان الكتابات الأرمنية لها أهميتها لأنها بمثابة شهادة شهادة محلية وقد سمى هذا الجدار فى اللغة الأرمنية من الدهور السابقة باسم "بهاك غوراتى " و "كابان غوراتى " ومعنى الكلمتين واحد وهو "مضيق غورش" أو "ممر غورش" ويضيف الى هذا شهادة أهل جورجيا (القوقاز) الذين سموا هذا المضيق من قديم بالباب الحديدى وتوجمه الأتراك الى "دامركبيو".

جدار دربند :

ولأجل أن يزيل أزاد كل شبهة عن الرأى الذى وصل اليه تعقب ما ذكره البيضاوى والرازى وغيرهما من المفسرين من تسمية جدار آخر فى المنطقة يعرف باسم "جدار دربند" بأنه سد ذى القرنين .. وبين خطأهما فى هذا لأن .. جدار "دربند" يبدأ من الساحل الغربى لبحر الخزر عند بلدة تسمى بهذا الاسم ،ويرتفع على منحدرات الجبل صاعدا الى مرتفعاته حتى يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلا ، وليس بين جبلين أوسدين كما ذكر القرآن ،ثم ان هذا الجدار بنى من الحجر ،ولا أثر فيه للحديد كما ذكر القرآن عن سد ذى القرنين فلا ينطبق عليه ما ذكره القرآن من أوصاف السد ..

ثم كان لا بد لأزاد كذلك أن يسد ثغرة جديدة ، وهى : من الذى بنى "جدار دربند" ومتى ؟ ولماذا ؟ وقد بحث هذا الموضوع فى تفصيل وانتهى الى أن الذى بناه هو ملك الفرس "أنوشروان" (٥٣١ ــ ٥٧٩ م) وبين اقامة السدين

نحو ألف عام تقريبا والذى دعاه لاقامة هذا السد هو الخطر الجديد من قبل الدولة البيزنطية الرومانية الشرقية التى كانت تنافس الامبراطورية الفارسية ، وتحاول القضاء عليها ، والتى لم تكتف بطرق آسيا الصغرى المعروفة فى حروبها ، وكذلك الخطر الجديد من القبائل التركية التى انتشرت جماهيرها واستقرت فى الشمال ، وكانت تهاجم فارس من الناحية الشمالية ومن هذه الجهة أو الممر الذى بنى فيه جدار دربند "

ثم كان لابد لآزاد أن يتعرض فى بحثه لما اشتهر بين المؤرخين وعلى الألسنة من أن الاسكندر المقدونى هو ذو القرنين الذى بنى السد فنفى آزاد أن يكون الاسكندر هو الذى بناه لأن أوصاف ذى القرنين لا تنطبق على الاسكندر المقدونى .. على " أن حوادث الفتح الاسكندرى معروفة وليست بخافية فى التاريخ ، فلم يرو التاريخ قط أن الاسكندر تقدم الى هذه الجهة أو بنى جدارا فيها ، ومن المعلوم أن هذه الحصون لا تشيد الا اذا دعت الحاجة اليها ، والاسكندر لم تصادفه داعية تدعوه للتوقف لبناء هذا السد ، فقد هاجم ايران وهو فى طريقه من الشام الى الهند ، وزحف للهند فعلا ، ولما عاد من الهند توفى فى (بابل) ولم يكن عنده وقت ولا داعية لبناء هذا السد الذى لم يتطرق أحد من مؤرخيه الى ذكر بنائه له برواية لها سند صحيح ، وان كانت هناك أساطير كثيرة نسجت حول الاسكندر ، واذا كان بعض الافتراضيين يذكر أن قواد الاسكندر هم الذين تولوا البناء فانه لا توجد رواية عن أى عمل كهذا قام به قواد الاسكندر وخلفاؤه .

وبهذا البحث الدقيق المستفيض الذى قدمت تلخيصه انتهى مولانا آزاد الى حل المشكلة التى حار فيها المؤرخون والمفسرون من قديم .. والذى يطلع على هذا البحث يرى صورة طيبة لعقلية الباحث وتتبعه للوثائق والتواريخ ، ومناقشته لها فى دقة ، يقبل منها ما يقتنع به ، ويرفض ما لا يقتنع به .. كما يرى صورة طيبة كذلك لسعة الأفق والاطلاع قل نظيرها .

<u>علامة استفهــام :</u>

ومع اقتناعى بما ذكره أزاد ووصل اليه من تعيين الـمعانى للشخص وهو "غـورش"

وبما ذكر من يأجوج ومأجوج وعن المكان الذى أقيم فيه السد بما أورده من دلائل وشواهد مقنعة .

ومع اقتناعى أيضا بما ذكره عن سد " دربند " وأنه غير سد ذى القرنين للأدلة التى ذكرها ..

ومع اقتناعى بذلك فانه قامت أمامى علامة استفهام بعد ماذكره عن جدار "دربند ".

فالمنطقة الواقعة بين البحرين "الخزر والأسود " هى التى كان يتدفق من ممرفيها هجوم يأجوج ومأجوج على امبراطورية فارس فى الجنوب كما قيل ، وقيل أيضا ان غورش قضى على هذا الخطر بانشاء السد فى هذا الممر بين جبلين .. الخ .. وبذلك أمن دولته من ناحية الشمال ، هذا فى انشاء سد ذى القرنين.

ثم قيل فى انشاء واقامة "سد دربند " أن اقامه "أنوشروان" امبراطور الفرس أيضا بعد ألف سنة تقريبا لحماية دولته من ناحية الشمال حيث كان الغزو يأتيها هذه المرة من البيزنطيين ومن قبائل الأتراك المنتشرة شمال سلسلة الجبال التى بنى بينهما سد ذى القرنين من قبل ، ولا يهمنا ممن يأتى الخطر ؟ ولكن المهم أنه كانت هناك جهة أومنفذ يمكن أن ينفذ منه أهل الشمال يتمثل فى الجهة الشرقية لسلسلة جبال القوقاز التى تأخذ فى الانحدار عندما تتجه للشرق وتقترب من الساحل الغربى لبحر الخزر حتى تترك سهلا على الساحل رأى "أنوشروان " ان الخطر من الشمال يأتى من هذا الساحل فأقام "جدار دربند " على امتداد ٣٠ ميلا من الساحل الى أعلى الجبال وهو من الحجر الذى لا أثر فيه للحديد الذى جاء ذكره فى سد ذى القرنين ، ولا يفصل بين السدين سد قال آزاد الا مسافة قليلة .

والسؤال : ترى لماذا أقام ذو القرنين سده الذى أخذ من الجهد ما أخذ وترك بقربة منه منفذ آخر على ساحل بحر الخزر يمكن أن يتدفق منه الخطر ؟ هل غاب ذلك عن فطنته ؟ لا أظن ، فماذا يكون الأمر اذن ؟ وأمامنا جداران أوسدان ولكل منهما

خصائصه ، وكلاهما أقيم لايقاف الغارات الشمالية ،وبينهما ألف سنة ، وقيل فى اقامة الأول انه وفى بالغرض وحقق الأمن لأهل الجنوب ؟ إلا فهل يمكن أن يقال ذلك وهناك منفذ آخر للغزاة جاء أنوشروان فسده ؟ وهل غاب هذا السؤال عن مولانا أزاد فلم يتعرض للجواب عنه ، كما تعرض لكل جوانب الموضوع وأزال كل شبهة ترد عليه ؟

ان الاحتمال الذى أراه جوابا عن هذا السؤال كى يستقيم منطق الحوادث والتاريخ ان هذا المنفذ الموجود على الساحل الذى أقيم فيه "جدار دربند" لم يكن موجودا فى أيام غورش والا لتنبه له وأقام فيه سدا كذلك ، ليحكم السلسلة ويمنع تدفق الخطر الى الجنوب .. ثم كانت الألف سنة التى مرت من أيام غورش الى أنوشروان عاملا فى تكوين هذا المنفذ الساحلى بعوامل طبيعية من انحسار الماء وامتداد اليابس ومن عوامل التعرية والتآكل فى الجبال .. فبدأ الخطر يتدفق من هذا المنفذ الجديد من الشمال للجنوب فاضطر أنوشروان أن يحاكى السابقين ويبنى هذا السد الذى قيل عنه "جدار دربند" والذى سمته العرب "باب الأبواب".

وبهذا يسلم رأى آزاد ويستقر الى نتيجة يمكن الاطمئنان اليها ويكون آزاد هو صاحب الرأى الأول فى أن غورش هو ذو القرنين ،وقد تسرب هذا الرأى الى بعض العلماء العرب المحدثين فوجدناهم يذكرونه رأيا لهم ، دون أن يشيروا الى مصدره الحقيقى وهو "آزاد" الذى يعتبر أول من قال بهذا الرأى مدعما بالأدلة السابقة .. ولكى نزيد هذه الحقيقة وضوحا ــ أعنى أسبقية آزاد بهذا الرأى ــ نذكر فيما يأتى مادار حولها من ادعاءات الأسبقية الى كشفها :

" استدراك "

تحت هذا العنوان الذى أنقله بنصه نشر مدير مجلة ثقافة الهند فى عددها الصادر فى يونيو سنة ١٩٥١ تعقيبا على كتاب فارسى وصل اليه من أحد قراء المجلة ويبحث فى "ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج" رأيت أن أذكره هنا تتميما لهذا البحث : قال مدير المجلة يثبت انفراد آزاد بالكشف عن شخصية "ذى القرنين" : تلقت ادارة "ثقافة

الهند " كتبها باللغة الفارسية يسمى "ذوالقرنين يأجوج ومأجوج " طبع فى مدينة تبريز حديثا وجاء فى حاشية الصفحة الأخيرة منه • •

" كتب حضرة السيد غلام رضا السعيدى فى " مجموعة انتشارات تبليغ اسلام " أن المولوى محمد على الهندى صرح فى تفسيره للقرآن باللغة الانجليزية عن ذى القرنين بأنه "غورش الكبير " وقد أخبرنا السيد محمد تقى الدين الكيلانى بأن حكيم الهند الشهير السيرسيدأحمد خان ذهب كذلك الى نفس هذا الرأى ، وقد نشرت مجلة ثقافة الهند حديثا (١) مقالا للعلامة الأستاذ الكبير مولانا أبى الكلام آزاد وزير التعليم للدولة العظيمة هو فصل الخطاب فى المسألة ، فقد أثبت كذلك أن ذا القرنين هو غورش ، وقد حرر مقاله بغاية التحقيق فينبغى لأصحاب النظر والعلم أن يرجعوا اليه " • وعقب مديرالمجلة على هذا فقال :

وقد أخذنا العجب الشديد مما ذكر عن المرحوم السيرسيد أحمد خان والمولوى محمد على صاحب الترجمة الانكليزية ، ولا بد أن الذين ذكروا ذلك لم يطلعوا على مؤلفات هذين المؤلفين ناشدين الحقيقة ، بل تشبثوا بالظن والتخمين المحض ، وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا •

ولقد ألف السير سيد أحمد خان رسالة بذاتها فى المسألة سماها "ازالة الغين عن قصة ذى القرنين " وكذلك بحث هذه القصة فى تفسيره للقرآن عند ما وصل الى سورة الكهف ، وقد حاول فى المكانين أن يثبت أن المقصود من ذى القرنين المذكور فى القرآن هو امبراطور الصين "شين هوانغ طى " الذى شيد جدارالصين فى القرن الثالث قبل الميلاد وكان طريق بحثه أن يبحث أولا عن سد يأجوج ومأجوج فان تعرف عليه قرر بأن الذى بناه هو ذوالقرنين ، وعلى ذلك لما اطلع فى التاريخ على جدارالصين قرر أنه سد يأجوج ومأجوج ، وأن الذى شيده هو ذوالقرنين فى حين أنه لا ينطبق على هذا الجدار وصف من أوصاف سد يأجوج ومأجوج الذى ذكر فى القرآن ، ولا يسوغ أمام العقل أن تكون قريش ويهود الحجاز سألوا نبى

---

(١) كان قد نشر فى اعداد مارس ، يونيو ، سبتمبر ١٩٥٠ •

الاسلام صلى الله عليه وسلم عن ملك من ملوك الصين ، والحاصل لا يوجد فى تفسير المرحوم سيد أحمد خان اسمفورش فى مكانها ..

وقد جلنا ترجمة المولوى محمد على الانكليزية فوجدناه سلك مسلك البيضاوى والامام الرازى وقرر أن جدار دربند هو سد يأجوج ومأجوج الذى سماه الجغرافيون العرب "باب الأبواب" ثم نسب بناءه الى الامبراطور دار أيوش واستنتج أن داريوش هو ذو القرنين والحال أنه لا ينطبق على جدار دربند أوصاف سد يأجوج ومأجوج المذكور فى القرآن، ولا نسبة بنائه الى داريوش لها أصل فى التاريخ .

ولما كان الأمران لا يمتان الى الصواب بصلة أحببنا أن نصححهما ، والأمل أن يصحح مؤلف رسالة "ذو القرنين" المطبوعة بتبريز كذلك هذا الخطأ الذى وقع فيه فى ذكر المأخذين المذكورين " اهـ .

وبهذا انتهى مدير المجلة الى ما أراد أن يثبته وهو أن أبا الكلام آزاد هو أول باحث اسلامى على الاطلاق وصل الى الحقيقة فى ذى القرنين ويأجوج ومأجوج والسد .

على أنه ينبغى أن نذكر أن بعض الأقوال الجزئية التى وردت فى كتب التفسير قد تلتقى أحيانا مع ما ارتآه آزاد كما جاء فى الكشاف مثلا "وقيل كان لتاجه قرنان أو كان على رأسه ما يشبه القرنين وما جاء فى ابن كثير "فى رأسه شبه القرنين – ومع هذا فان أحدا من المفسرين لم يقطع برأى ولكنه اكتفى بسرد الأقوال التى سبق ذكرها وفيها ما فيها " ، لعلنا قد وقفنا طويلا عند آزاد العالم العملى الدينى وجهوده وآثاره فى هذه الناحية المهمة من حياته ، فلننتقل الى مرحلة أخرى من مراحل حياته الحافلة .

الفصل الثالث

أزاد الزعيم السياسي

انضمامه لحزب المؤتمر وموقفه البارز في حركة العصيان :

[في آخر ديسمبر سنة ١٩١٩ صدر الافراج عني مع رفع الحظر عن المطبعة ، وكان من الممكن أن أبدأ بالطبع فورا ولكن البلاد في ذلك الوقت كانت تموج بحركة سياسية ضد المستعمر ، وكان المسلمون يرددون صدى دعوة الهلال والبلاغ للعمل من أجل تحرير البلاد في كل أنحاء الهند ولم يكن من الممكن لي في هذه الحالة أن أتغافل عما يجرى حولي فاندفعت في العمل السياسي وفي حركة العصيان المدني بكل قوتي دون الالتفات الى أى شيء آخر] أزاد .

صدر قرار العفو عن المسجونين السياسيين في آخر ديسمبر ١٩١٩ م وخرج مولانا أزاد من سجنه — كما يقول — في أول يوم من يناير سنة ١٩٢٠ م ولهذا نجد بعض المؤرخين يذكرون أنه خرج من سجنه سنة ١٩١٩ م والبعض الآخر سنة ١٩٢٠ والحقيقة هي كما عرفنا وقد دخل السجن في يوليو سنة ١٩١٦ والحرب على أشدها بين الحلفاء وبين ألمانيا وتركيا .. والهند بكل امكانياتها تقف مرغمة — لخدمة بريطانيا — وكل من فيها وما فيها مسخر من أجل الحرب ..

وحين أعلنت بريطانيا الحرب على دولة الخلافة في تركيا كان رد الفعل عنيفا في نفوس المسلمين ضد الانجليز ، مما اضطرهم الى التحايل والتلاعب بعقول المسلمين ، وتصوير تركيا بأنها بأفعالها هي التي بدأت الحرب ، كما اضطروا ازاء ثورة المسلمين النفسية أن يعلنوا تعهدات بعدم المساس بدولة الخلافة لو انهزمت في الحرب .

ولقد كان مولانا أزاد شديد الحملة على الانجليز قبل دخوله السجن بل وهو في السجن لموقفهم من الخلافة ومن قضايا وطنه حتى ليقول في مرافعته امام المحكمة سنة ١٩٢٢ م .

" ولا تلوم الحكومة أحدا غير نفسها على سقوطها في هذا المأزق الذى يصعب عليها الخروج منه لأنني قد نبهتها سنة ١٩١٨ م من معتقلي في كتابي مني الى " اللورد جيمسفورد " الوالي السابق ، فصلت لها فيه الاحكام الاسلامية التي تتعلق بالخلافة وجزيرة العرب ، وصارحتها بأن الدولة البريطانية اذا نقضت عهودها ، واستولت على الخلافة والبلاد الاسلامية فانها توقع المسلمين (في الهند) في حالة شديدة الحرجة ، ولا يبقى لهم اذ ذاك الا أن يكونوا مع الاسلام أو مع بريطانيا . ومعلوم أنهم يؤثرون الاسلام " .

وكانت هذه الكلمات من مولانا أزاد تمثل الرأى العام المسلم في الهند من هذه المسألة ، اعني مسألة الخلافة التي كان لدى المسلمين في الهند

حساسية بالغة من ناحيتها ـ لا بالنسبة لموقف بريطانية منها أثناء الحرب فحسب بل نرى أنها ظهرت من قبل كذلك على أشدها عندما هاجمت ايطاليا تركيا فى حرب طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ، وفى حروب البلقان ضد تركيا سنة ١٩١٢ ، ١٩١٣ م٠

ذلك أن المسلمين فى الهند بعد مافقدوا ملكهم سنة ١٨٥٧ م واستولى الانجليز على الهند " وتعمدوا سحق المسلمين وقمعهم الى درجة أكبر مما فعلوا بالهندوس" كما يقول نهرو نفسه [1] ، اتجهوا بآمالهم وولائهم الى الخليفة العثمانى لحمايتهم وحماية العالم الاسلامى من دسائس الاستعمار ٠٠ وكانوا يرون فيه منقذا لهم وسندا مما كانو يعانون ، ومما كانوا يخشون ٠٠

لذلك كانت حساسيتهم بالغة ، وكانت غضبتهم من أجله شديدة ، حتى اضطر الانجليز لمصانعتهم ، وبذل الوعود لهم بالا يمسوه أو يمسوا دولته لو قدر لهم الانتصار عليه ، حتى يهدئوا من غضبتهم ، ويقللوا من ثورتهم ويستطيعوا الاعتماد على أبنائهم واخوانهم الجنود فى ميادين المعركة ٠٠

دخل مولانا أزاد السجن وهذه الحالة قائمة بين المسلمين ، وكانت حالة يصحبها أمل فى انتصار دولة الخلافة ، وخرج بعد أن انكسرت وتوالت عليها النكبات ، وأخذ الانجليز يديرون ظهورهم للوعود التى بذلوها من قبل للمسلمين ٠٠ فأخذ الغضب لذلك يعبئ النفوس ضدهم بصورة أشد وأعم ٠

فقامت بينهم حركة منظمة أو جمعية منظمة لمساندة الخلافة فى محنتها سميت

---

(١) فى كتاب من السجن الى الرياسة ص ٢٣٧

" بجمعية الخلافة " يرعاها مولانا محمد على جوهر (١) وأخوه شوكت على بعد خروجهما مباشرة من سجنهما فى آخر ديسمبر سنة ١٩١٩ بعد أن استمر سنى الحرب كلها .

وبجوار هذه الجمعية كان هناك نشاط علماء الهند الذى انتظم فى " جمعية علماء الهند " التى صارت على نهج العلماء السابقين فى معاداتها للمستعمرين ، وتلاقت مع جمعية الخلافة فى أهدافها كذلك وكان بجوار هذه الجمعية وتلك : " الرابطة الاسلامية " التى أسست (٢) لرعاية شئون المسلمين الهنود والعمل على تحقيق أكبر قدر من المكاسب لهم بمسالمة الانجليز ..

كما كان مع هذه المنظمات الاسلامية الخالصة " حزب المؤتمر الوطنى " الذى ضم فى رحابه الهندوس وكثيرا من المسلمين الذين كانوا يرون خلاص الهند فى اتحاد أبنائها ضد المستعمرين .

وكان غاندى فى ذلك الوقت قد أخذ يحبو على مسرح السياسة فى الهند بعد أن كون له رصيدا حسنا من مواقفه مع الهنود وحقوقهم فى أفريقيا ، فانتسب الى حزب المؤتمر ولكنه كان أثناء الحرب يدعو مواطنيه لمساعدة الانجليز على عكس ما كان يفعله الزعماء المسلمون مثل أزاد ومحمد على وشوكت على وغيرهما .. وكان من سوء حظ الانجليز أن أصدروا قانونا فى الهند سنة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب يبيح لهم الاعتقال والقمع دون تحقيق سمى بقانون " رولات " (٣) فأثار هذا أبناء الهند بكل طوائفها ، وحرك غاندى

---

(١) من كبار الزعماء المسلمين السياسيين فى الهند ولد سنة ١٨٧٨ م والتحق بجامعة عليكره وأتم دراسته فى أوكسفورد وعاد للهند ليدافع عن دينه ووطنه فأنشأ الصحف لذلك ، وأعلنها حربا شعواء على الانجليز من أجل اعتداءاتهم على الخلافة واستعمارهم لبلاده والبلاد الاسلامية ودخل السجن عدة مرات واشترك مع الحزب الوطنى الهندى فى جهاده ورأسه فى احدى دوراته ، وكان الصديق الاول لغاندى ولكن العلاقة فترت بينهما بعد الحوادث الطائفية فاعتزل حزب المؤتمر .. وظل عاملا فى جهاده .. وتوفى فى لندن حين كان هناك فى مؤتمر المائدة المستديرة للتفاوض فى شأن الهند وكانت وفاته فى ٤ يناير سنة ١٩٣٠ فاحدثت دويا شديدا فى العالم الاسلامى كله ودفن بالقدس فى احتفال مهيب وكان أخوه شوكت على يشاركه فى كل خطواته ولذلك كان يطلق عليهما الاخوان على . (٢) سبق الحديث عنها فى المدخل .

(٣) ص ٢٣٧ من كتاب فى سبيل الحق لغاندى .

للعمل مع بقية الزعماء لاظهار نقمتهم على هذا القانون ، وعلى عدم وفاء الانجليز بعهودهم بتحقيق اصلاحات حكم الهند بعد الحرب . وهكذا كانت الهند على اختلاف أديانها وهيآتها تموج بالغليان النفسى ضد الانجليز لنقضهم العهود التى قطعوها على أنفسهم أثناء الحرب بالنسبة لدولة الخلافة وبالنسبة لإصلاح الحكم فى الهند . ووحد هذا الغليان بين الجميع ، فلم يكن من الممكن لأزاد — كما يقول — أن يتغافل عما يجرى حوله وعن دعوته من قبل فى الهلال والبلاغ وقد أصبحت النفوس متهيئة لها أكثر من ذى قبل " فاندفع للعمل السياسى وحركة العصيان المدنى بكل قوته دون الالتفات الى أى شىء آخر " ، واختار العمل مع " حزب المؤتمر الوطنى " الذى لم تكن هناك فى ذلك الوقت مظاهر عدائية بينه وبين الهيآت الاخرى . بل قرب بينهما جميعا عداؤها للانجليز . حتى ان غاندى أعلن تأييده للمسلمين فى مطالبهم المتعلقة بالخلافة . ولذلك كان كثير من الزعماء المسلمين مشتركين فى حزب المؤتمر وجمعية الخلافة وجمعية العلماء . والرابطة أحيانا ..

ولعلنا نذكر أن أزاد قبل أن يبلغ العشرين من عمره انضم الى احدى الجمعيات السرية الهندوسية للعمل معها ضد الانجليز .. ثم بعد رحلته غير خطته ،واتجه الى العمل الجهرى الايجابى فى تربية المسلمين وتوجيههم بواسطة مجلتيه الهلال ثم البلاغ ، فلم يكن غريبا ولا بعيدا أن ينضم لحزب المؤتمر .

يقول نهرو ..

" لقد قضى أزاد فى السجن أربع سنوات تقريبا ، وعندما خرج منه احتل مكانه فورا بين زعماء حزب المؤتمر الوطنى . "

وأعتقد أن هذا كان مكسبا ضخما لحزب المؤتمر . فمولانا أزاد له رصيده الضخم فى العمل الوطنى ضد المستعمر منذ أصدر مجلته " الهلال " سنة ١٩١٢ م . كما أن له رصيده الدينى كذلك فى نفوس المسلمين الذين تأثروا به أيما تأثر . وقد برهنت الايام على ضخامة هذا المكسب لحزب المؤتمر . على أن أزاد لم يقصر جهوده على حزب المؤتمر ، بل كانت له جهوده أيضا فى الهيئات الاخرى كجمعية الخلافة وجمعية العلماء . لأنه لم تكن هناك فوارق كبيرة بين

هذا الحزب وبينها بالنظر لموقفها جميعها من الانجليز .

حركة العصيان المدنى بين غاندى والمسلمين :

وفى ذلك الوقت نشطت الدعوة لمقاطعة المستعمر من قبل المسلمين والهندوس معا . تعبيرا عما يثور فى نفوسهم من غضب عليه . وكان المسلمون هم السباقين لهذه الدعوة انطلاقا من دعوة دينهم بعدم الولاء لعدوهم .

وتلاقت فكرة غاندى التى سماها بالهندية (ساتياجراها " و " ساتيا " كما يقول غاندى نفسه فى كتابه " فى سبيل الحق " ، معناها الحق المنطوى كذلك على المحبة ، وجراها معناها " الصلابة " الموحية بالقوة . أى القوة المنبعثة من الحق والمحبة . أو بعبارة أخرى . الحركة المنزهة عن العنف ، وهى التى اشتهرت باسم " حركة العصيان المدنى " أو " المقاومة السلبية " أقول تلاقت هذه الفكرة مع دعوة الزعماء المسلمين الذين سبقوا بها غاندى فى عدم طاعة المستعمرين أو عدم الولاء لهم والتعاون معهم ، وهى دعوة مستمدة من نصوص القرآن الكريم ومن القواعد العامة للاسلام . " لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء " وغير ذلك من الآيات ..

فكانت النتيجة أن الاتجاه العام للمسلمين والهندوس قد تلاقى فى اتخاذ موقف موحد عدائى ضد الانجليز يتمثل فى مقاطعتهم واعلان عدم الولاء أو التعاون معهم . وهذا هو ما أعطى حركة العصيان المدنى قوة وبأسا ..

وهكذا سرت فى البلاد فكرة عدم التعاون يغذيها زعماء المسلمين بتوجيهاتهم الدينية كما يغذيها غاندى بدعوته .. وكان أزاد فى مقدمة الزعماء المسلمين حماسا للخلافة ولقضايا وطنه ولمقاطعة الانجليز ..

لعبة انجليزية :

ولما وجد الحاكم الانجليزى " اللورد ريدنك " أن الدعوة لحركة المقاطعة أخذت تشتد وأن الاصطدامات بين رجال البوليس والشعب أخذت تزداد ، تفتق ذهنه عن حيلة لاجهاض هذه الحركة أو الحد منها وهى : " قيام ولى عهد انجلترا بزيارة للبلاد الهندية " برنس افويلز " وتحدد لها موعد فى نوفمبر سنة ١٩٢١ م ، ظنا منه أن الهند

لا تأبى استقبال الضيف والترحيب به ، لأن العائلة المالكة عندهم تعتبر فوق المنازعات السياسية " وحينئذ تضعف الحركة وتفشل " وينتهى أمر المقاطعة ، وتعود الحياة الى مجاريها الهادئة بين الحكومة والزعماء ، هكذا توقع الحاكم .

ولكن الامر جاء على غير ما كان يتوقع ، فقد بادرت جمعية الخلافة ، وجمعية علماء الهند وغيرهما باعلان مقاطعتهم لهذه الزيارة ودعوة الناس لمقاطعتها " اذ رأوا فيها فرصة يظهرون فيها سخطهم على الحكومة الانجليزية لموقفها من الخلافة ومن المطالب الوطنية .. وكان لمولانا أزاد نشاط موفق فى اتخاذ هذا الموقف ..

وقد اتخذت الحكومة ــ عندما شعرت بهذا ــ عدة قوانين واجراءات مشددة للقضاء على حركة المقاطعة وبدأت بتنفيذ هذه القوانين فى " كلكتا " لقرب زيارة ولى العهد لها ، ولانها أكبر مدينة شبه أوربية لكثرة الأوربيين فيها ، ووقع المقاطعة فيها سيكون بارزا ومؤلما ..

ونترك مولانا أزاد يتحدث عن الفترة التى تلت خروجه من المعتقل فى يناير سنة ١٩٢٠ وعن أول لقاء له مع غاندى فيقول :[1]

" قدم غاندى الى " رانشى " وكان اذ ذاك قد ظهر على مسرح السياسة الهندية .. وأنا معتقل يومئذ ، فأعرب عن رغبته فى مقابلتى ، ولكن الحكومة لم تسمح له ، ومن أجل هذا لم يتيسر لنا اللقاء قبل أن يطلق سراحى فى أول يناير سنة ١٩٢٠ م فقابلته لأول مرة فى دلهى وكان من المقترح أن يذهب وفد الى نائب الملك فى الهند ليعرفه بما يضمره مسلمو الهند من احساسات نحو الخلافة ومستقبل تركيا ، واشترك غاندى فى المباحثة وأعرب عن اهتمامه وتأييده التام للمقترح ، وأعلن أنه مستعد للاشتراك مع المسلمين فى هذه القضية كما أعلن غيره من الزعماء الهندوس " .

" واجتمع الوفد مع نائب الملك ، وأنا أيضا وقعت على المذكرة ، لكنى لم أذهب مع الوفد ، لأننى كنت مقتنعا بأن الأوضاع قد تجاوزت نطاق المذكرات أو الوفود . وردا على المذكرة صرح نائب الملك بأن الحكومة ستوفر التسهيلات اللازمة اذا بعث بوفد الى لندن لشرح وجهة نظر المسلمين أمام الحكومة البريطانية أما هو فلا يستطيع البت فى شىء مما جاء بها " .

---

(١) ص ٣٣ من مجلة ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٨ .

" وازاء هذا عقد اجتماع ضم كبار المسلمين الزعماء .. وقدم غاندى برنامجه لعدم التعاون وقال انه لم تعد الآن أيام الوفود والمذكرات ، فلا بد أن نسحب كل تأييد للحكومة وهذا هو الطريق الوحيد لاجبار الحكومة لاجراء مصالحة معنا ، واقترح بأن ترد جميع الألقاب الحكومية وتقاطع المصالح القضائية والمعاهد التعليمية .. الخ وبمجرد أن عرض غاندى الاقتراح .. تذكرت أننى الآخر اقترحت برنامجا مماثلا فى مقالات الهلال .

فرق بسيط ومهم :

ويودى أن أقف قليلا عند خطة غاندى فى المقاطعة أو المقاومة ، وخطة المسلمين .. فالمسلمون حقيقة قد سبقوا غاندى فى فكرة المقاطعة وعدم التعاون أخذا بوجهة نظر الاسلام فى موقف المسلمين من أعدائهم ولا سيما الحاكمين لهم ، وهى عدم الولاء لهم أو عدم التعاون معهم ، ولكنهم لا يمتنعون عن مقابلة القوة بالقوة أو استعمال القوة معه بل قد يتعين عليهم استعمال هذه القوة ..

أما فكرة غاندى فتقوم على المقاومة الخالية من العنف ، بمعنى أنه لا يقابل القوة بالقوة بل يستقبل اللطمة ساكتا ، مستعدا لتلقى غيرها ، وهكذا .. حتى لا يؤذى الذى يؤذيه ، لأن نظريته قائمة على المقاومة الممتزجة بالمحبة ، أو المقاومة السلبية .

ولهذا رأينا أزاد يقول(1) حين عرض غاندى فكرته هذه :

" تذكرت أنه البرنامج نفسه الذى وضعه " تالستوى " منذ سنين كثيرة ، ففى سنة ١٩٠١ هاجم فوضوى ملك ايطاليا فبعث " تالستوى " برسالة الى الفوضوى ، كتب فيها : ان طريقة العدوان لا تبيحها الاخلاق ، ولا تجدى من الناحية السياسية أية جدوى ، وكما تقول أسطورة يونانية ان ٩٩٩ محاربا يتولدون من دماء محارب واحد حين يقتل ، فالانهماك فى الاغتيال السياسى عبارة عن غرس بذور المصائب وأوصى " تالستوى " بأن خير طريق لشل حكومة جائرة هو رفض دفع الضرائب والاستقالة من الوظائف ، ومقاطعة المعاهد التابعة للحكومة ، واعتقد أن برنامجا كهذا سيرغم كل حكومة على المصالحة " .

---

(١) المصدر السابق .

وقد دعا المسلمون من قبل اعلان غاندى فكرته هذه الى مقاطعة الحكومة ، وخطوا في ذلك خطوات في محيطهم وان لم يكن لها أثر على نطاق شعبي واسع باعتبارهم أقلية ، فمثلا رأينا الزعماء المسلمين انطلاقا من مبدأ عدم التعاون يدعون الى مقاطعة مدارس الحكومة ثم الى مقاطعة .. جامعة عليكَرة .. التى رأوا فيها وكرا للاستعمار ، وانشاء جامعة اسلامية جديدة فى أكتوبر سنة ١٩٢٠م هى المعروفة الآن فى دلهى باسم " الجامعة الملية " ليكون طلابها بعيدين عن تأثير الاستعمار عليهم فى جامعة " عليكَرة " وليتربوا تربية اسلامية وطنية مستقلة ..

حتى وجدنا أزاد يقول فى مرافعته أمام المحكمة سنة ١٩٢٢ التى كانت تحاكمه على دعوته للمقاطعة :

" انى أعلن على مسمع من الحكومة والمحكمة بأننى ارتكبت هذه الجناية ارتكابا ، واقترفتها اقترافا ، وان كانت الحكومة لا تعلم — وهى ولا شك تعلم — فلتعلم اننى من أولئك الجناة الذين بذروا بذور هذه الجناية فى قلب أمتهم ، ووقفوا حياتهم على سقيها ، وتنميتها وتثميرها ، بل انى ، ولا فخر ، أول مسلم فى الهند دعا أمته من اثنتى عشرة سنة الى هذه الجناية دعوة عامة . "

ويقول أيضا عن الخطبة التى تحاكمه المحكمة على القائها :

" ولقد شرحت فى هذه الخطبة أن الشريعة توجب على المسلمين فى الحالة الحاضرة أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة ، وأن يقاطعوها مقاطعة تامة . وهذا هو : اللاتعاون الذى أطلق عليه بعد اسم " Non Copration " وتولى مهاتما غاندى قيادته " .

فالدعوة للمقاطعة سابقة من المسلمين قطعا[1] ولكن غاندى حين دعا لمثلها اشترط لها قيدا لا بد منه وهو عدم استعمال العنف ، مع ضبط النفس ضبطا تاما حتى لا يرد المعتدى عليه على المعتدى .. وهذا لم يعرفه المسلمون من دينهم الذى يبيح لهم استعمال القوة فى رد السيئة والاعتداء ، بل يأمرهم بذلك أمرا ، " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا

---

(١) راجع كتابى " كفاح المسلمين فى تحرير الهند .. فصل : العصيان المدنى بين المسلمين وغاندى .

عليه بمثل ما اعتدى عليكم (١) " ولذلك كان غاندى شديد الخوف والشك من التزام المسلمين بدعوته ، وان كانوا أسرع الناس وأشدهم تجاوبا معها . يقول نهرو (٢) :

" كانت لجنة الخلافة هى البادئة بقبول هذا البرنامج ، وحددت الأول من أغسطس سنة ١٩٢٠ لبداية الحركة ، ولم يكن حزب المؤتمر قد نظر هذا الاقتراح — كان غاندى لا زال يقدمه ويدعو اليه بصفته الشخصية — والناس قد أخذوا يتفهمون هذا المبدأ الجديد ، وان كان الكثيرون من الزعماء كانوا فى شك من قدرتهم على التمسك به ، حتى غاندى نفسه كان يشك كثيرا فى ذلك ولا سيما فى المسلمين المتقدى حماسة ضد الانجليز .

فالنقطة التى كان يخشى منها غاندى والزعماء هى الرد على القوة بالقوة وعدم ضبط النفس ولا سيما من المسلمين المتحمسين ، وهذه النقطة هى الفاصلة بين دعوة غاندى للمقاطعة ودعوة المسلمين التى لا ترفض استعمال القوة حين الحاجة اليها .

ولهذا فلينا أزاد يقول " بمجرد أن عرض غاندى هذا الاقتراح تذكرت أنه نفس البرنامج الذى وضعه تالستوى " واننى اقترحت برنامجا مماثلا الخ . ولم يرجعه الى ما يعرفه عن الاسلام ، لأن الاسلام لم يركز على هذا الجانب السلبى ، بل ركز على الحكم وجزاء سيئة سيئة مثلها " وان كان يتقبل فكرة غاندى — مراعاة للظروف ، كما حدث للمسلمين فى أول الدعوة بمكة قبل الهجرة .. واستئناسا بقوله تعالى بعد ذلك .. " فمن عفا وأصلح فأجره على الله " (٣) وان كان هذا هنا مع المستعمرين لا يسمى عفوا بمعناه الصحيح .. وقوله " ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور (٤) " . ويتحدث أزاد عن تشبث غاندى الشديد بفكرة اللاعنف مهما أتت للهند من فوائد وينتقده ويبين وجهة نظره فيقول :

" وعاد غاندى يلح على فى أن أسانده فى وجهة نظره ما تسمنى المساندة ، وأنعمت النظر فى المشكلة واستعرضت جوانبها المختلفة ، بيد أنى لم أتمكن من ارغام نفسى على موافقة غاندى ، اذ " اللاعنف " كان فى رأيى مسألة سياسية محضة (٥) لا عقيدة من العقائد

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ (٢) راجع كتابى وكفاح المسلمين ص ٩٣ طبعة أولى .

(٣ و ٤) سورة الشورى آيتا ٤٠ ، ٤٣

(٥) جاء فى مختار الصحاح " محض " للذكر والانثى والمفرد والجمع وان شئت أنثت وجمعت .

كما يراها غاندى ، ولم أشك فى أن المسموح به للهنود أن يفزعوا للسلاح ان عجزوا عن تدبير أمورهم بالسلم على أن الجميل الفضل كان فى جميع الاحوال أن ندرك الحرية وننال الاستقلال بطرق سلمية ان استطعنا [١] " . ونحن نرى مدى ارتباط فكر ازاد بالاتجاه الاسلامى فى مثل هذه الحالة التى تدعو الى استعمال القوة وخوض الحرب .

والحق أن مولانا أزاد بعد خروجه من السجن سنة ١٩٢٠ ألقى بنفسه فى خضم المعركة الدائرة بين الشعب وبين الانجليز وأخذ يدعو الناس فى كل مكان ، وبكل أسلوب ، وفى كل جماعة أو حزب — الى عدم التعاون مع الحكومة ولم يدع فرصة تمر الا انتهزها لبث دعوته — يقول [٢] فى مرافعته أمام المحكمة : " ثم انى منذ خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أنشر هذه المبادئ بين الناس وأدعوهم اليها ففى مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بكلكتا نفسها والذى رأست جلساته حملت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتى :—

" ان أصرت الحكومة على غوايتها ، ولم تصغ لمطالبنا فى مسألة الخلافة يضطر المسلمون بأوامر دينهم أن يقطعوا جميع أواصر الولاء التى تربطهم بها " .

وفى هذا المؤتمر نفسه تقرر (أنه لا يحل للمسلمين أن ينخرطوا فى الخدمة العسكرية لهذه الحكومة لانها تحارب الخلافة والدولة الاسلامية " .

وقد صودق على هذا القرار فى ثلاثة مؤتمرات تحت رياستى : أولا فى كلكتا ، ثم فى بريلى ، ثم فى لاهور " .

ويقول :

" اننى قد طفت البلاد الهندية كلها عدة مرات خلال السنتين الماضيتين وحدى ومع " مهاتما غاندى " ولا توجد بلدة الا وخطبت فيها على مسألة الخلافة

---

(١) ثقافة الهند عدد يوليو ١٩٥٩م ص ١٠

(٢) ص ١١٨ من العدد الخاص بأزاد من مجلة ثقافة الهند مارس ويونيو ١٩٥٨ وكذلك كتاب ثورة الهند السياسية .

ونجاب[1] ، والحرية واللاتعاون " ولقد انعقدت جمعية الخلافة الكبرى فى ديسمبر ١٩٢٠ مع الجمعية الوطنية العامة (الحزب الوطنى) فى " ناكبور " وجمعية العلماء فى ابريل ٢١ فى " بريلى " ، وجمعية الخلافة لمقاطعة " أورمز " فى أكتوبر بمدينة أكره " وجمعية العلماء العامة فى نوفمبر فى مدينة لاهور .. وقد رأست هذه الجمعيات كلها وخطبت فيها خطبا طويلة قلت فيها ماقلت فى هاتين الخطبتين[2] بل أكثر منه وأشد " .

أوردت هنا هذه الفقرات من مرافعة أزاد وهو يتحدث عن جرائمه فى نظر المحكمة ، ويزيدها علما بها لنأخذ صورة عن نشاطه ومركزه فى هذه الفترة ، ويلفت النظر فى هذه المؤتمرات كلها ، انه هو الذى كان يتولى رياستها .. وهى مؤتمرات تابعة لجماعات أوهيآت متعددة ، ولكن يربطها هدف واحد تدعو كلها اليه . وكان هو الرجل البارز الذى تسند اليه الرياسة فى كل مؤتمر من هذه المؤتمرات على اختلاف الهيئات التى تدعو اليها ، وهذا له دلالته البالغة فى معرفة قدر هذا الرجل . على أن مولانا أزاد لم يذكر فى هذا الا بعض المواقف البارزة من مؤتمرات ترأسها وخطب فيها .. ولاشك أنه كان هناك على مدى الوقت الواسع بين هذه المؤتمرات نشاط له مستمر ، وتنظيم دائم على جميع الجبهات لمقاطعة الحكومة ..

لقد كانت كلكتا مركز اقامة مولانا أزاد ونشاطه الدائم .. وهى أكبر مدن الهند ، ولها حساسية مهمة ، نظرا لكثرة الأوربيين فيها ، وكانت حتى أوائل هذا القرن العاصمة حيث انتقلت العاصمة لدلهى سنة ١٩١١ ولذا كانت مهمة أزاد فيها مهمة شاقة نظرا لهذه الحساسية من الناحيتين : ناحية الحكومة وناحية الشعب .. ولاسيما بعد أن أعلن عن زيارة ولى عهد انجلترا لها وأعلن هو والزعماء مقاطعتهم لهذه الزيارة ..

---

(١) المذبحة التى حصلت فى مدينة " أمرتسر " باقليم البنجاب نتيجة تعسف الحكومة فى تطبيق قوانين الطوارئ التى أعلنتها حين تجمع الشعب فى هدوء متحديا هذه القوانين للاستماع لاحد الخطباء بعد اعتقال بعض الزعماء فسلطت الحكومة على المجتمعين المدافع الرشاشة فقتل ٤٠٠ شخص وجرح ثلاثة أضعاف هذا العدد (ص ٣٨ من كتاب باكستان ماضيها وحاضرها للدكتور عبد الحميد البطريق والاستاذ محمد مصطفى عطا) .

(٢) اللتين تحاكمه المحكمة من أجل ماورد فيهما من دعوة لمقاطعة الحكومة ..

كان على مولانا أزاد أن ينظم أمور المقاطعة فيها ، فى كل حى من أحيائها ، وأن يكون صفوفا ثانية للمتطوعين فى الحركة حتى اذا ذهب الصف الأول حل محله فورا الصف الثانى واستمر العمل ..

واستطاع أزاد بنشاطه واحكام تدبيره أن يجعل من كلكتا حصنا للوطنيين .. وأن ينزل الرعب فى قلب الحكومة خوفا مما سيحدث فى زيارة ولى العهد .

وفى الوقت نفسه كانت البلاد كلها تموج بحركة المقاطعة ، وكأن الشعب قد قام من نومه وانتفض حتى لم يعد من الممكن للحكومة بل ولا للزعماء أنفسهم أن يعيدوا رأسه الى الوسادة التى ظل نائما عليها مدة طويلة ، لقد دعى الشعب للمقاطعة والمقاومة السلبية فلبى دون مبالاة باجراءات الحكومة وقوانينها واندفع الآلاف الى السجون من تلقاء أنفسهم حتى لم تعد تتسع لهم ، وقطعوا بذلك على الحكومة ظنها أنها ترهب الشعب بالقبض والسجن ، فكانوا يعرضون أنفسهم للقبض عليهم حتى الصبيان منهم ، ولم يقتصر الامر على المتطوعين لحركة المقاطعة بل كان عامة الشعب أنفسهم يندفعون الى السجون حتى امتلأت وضاقت ، وعجزت الحكومة عن تدبير أمورهم داخل السجون ، من الطعام والشراب وضبط النظام فاضطرت أن تخلى سبيلهم فكان السجن يفتح أبوابه لهم ويدعون للخروج ، فيرفضون ، فيحملهم البوليس حملا على الخروج ، فيتوجهون للأماكن العامة ويعصون الأوامر ، ليعودوا الى السجن مرة أخرى فلما ثقل على الحكومة ذلك امتنعت من ادخالهم السجون فكانت تقبض عليهم نهارا وتطلقهم ليلا .

وحين زار ولى عهد انجلترا كلكتا فى نوفمبر سنة ١٩٢١ شاهد بعينى رأسه منظرا مدهشا لم يشاهد مثله ، فلم يدخل المدينة الا وجد الأسواق فيها مغلقة ، والأبواب موصدة ، والشوارع مهجورة وشاهد نفس ماشاهده عم أبيه " الدوق أف كنت " قبل ذلك بسنة ووصفت احدى الجرائد الباريسية هذه الحالة فقالت " ان الهند اليوم مثل ماكانت باريس عند دخول الجيش الألمانى فى حرب السبعين " (١)

القبض على مولانا أزاد ومحاكمته :

وكانت الحكومة قد ضاقت ذرعا بما فعل الشعب من قبل هذه الزيارة ، وفشلت كل أساليبها فى ارهابه ، أو الحيلولة بينه وبين زعمائه ، فاتجهت أولا الى بعض الزعماء كمولانا محمد على وأخيه شوكت ومولانا حسين أحمد مدنى وآخرين وقبضت عليهم فى يوليو سنة ١٩٢١ وحاكمتهم فى

---

(١) ثورة الهند السياسية ومجلة ثقافة الهند ص ٨٤ عدد مارس ويونيو ١٩٥٨ .

كراتشى وحكمت عليهم ـ ثم خطت خطوة أخرى حين اشتد الأمر حيث ألقت القبض على زعماء آخرين كان منهم مولانا أزاد حيث قبض عليه فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢١ " وكان قد أعلن قبل اعتقاله بساعات أنه سيلقى القبض عليه لا محالة ، وأن هذه الساعة ستكون ساعة اختبار عزم الأمة وثباتها ، وصدقت الأمة فى عزمها وأبلت بلاء حسنا ، فازدادت نشاطا وعزما ، وبلغ عدد المسجونين خمسين ألفا فى كلكتا وحدها [١] " .

وقدمت أزاد للمحاكمة بتهمة القاء الخطب التى تثير المشاعر ، وتحرض الشعب على كراهة الحكومة ومقاطعتها ، وكانت خطبه تقوم على النقط والخطط الآتية [٢] :ـ

١ ـ ان الخضوع لمثل هذه القوانين الجائرة [٣] معناه التنازل عن الحقوق المدنية والانسانية ، ولا يجوز للحكومة أن تحظر الاجتماعات السلمية ، والأعمال الوطنية البريئة ، فلو خضعنا لها خوفا من السجن والعقاب نكون مجرمين أمام ضمائرنا ، وأمام الانسانية على السواء ، فليس على محبى الحرية والحق الا أن يصمموا موطنين أنفسهم على احتمال جميع المصائب التى تصبها الحكومة على رؤسهم ، ولا يخضعوا لها فى حال من الأحوال .

٢ ـ توسيع نطاق التطوع ، فينبث المتطوعون فى كل شارع وزقاق معلنين المقاطعة الملكية التى تريد الحكومة منا التنازل عنها ، ولا يطيعون السلطات ، بل يقدمون أنفسهم للاعتقال بدون كره ولا مقاومة .

٣ ـ تعقد المجالس والمحافل فى الأماكن العامة ، ويسلم الحضور أنفسهم الى الشرطة اذ أرادت القبض عليهم .

٤ ـ واذا ألقى القبض على أحد فلا يدافع عن نفسه فى المحاكم التى تمثل الحكومة الجائرة ، وانما يقاطعها مقاطعة تامة .

٥ ـ تتوقف هزيمة الحكومة على العدد الذى يدخل منا السجن ، فلنهرول الى السجون زرافات زرافات ، حتى تتعب الحكومة من اعتقالنا ولا نتعب نحن من الاقبال عليه .

كانت هذه الأسس والخطط التى دعا اليها مولانا أزاد فى كل خطبه ، ومنها خطبته التى القاها فى مؤتمر جمعية الخلافة فى كلكتا فى ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ م .. والذى كان من قراراته : أن الحكومة اذا أصرت على غوايتها ولم تصغ لمطالبنا فى مسألة الخلافة يضطر المسلمون بأوامر دينهم أن يقطعوا جميع أواصر الولاء التى تربطهم بها .

وأنه " لايحل للمسلمين أن ينخرطوا فى سلك الخدمة العسكرية لهذه الحكومة لانها تحارب الخلافة والدولة الاسلامية " .

---

(١) المصدر السابق . (٢) المصدر السابق . (٣) وهى قوانين الطوارئ التى أصدرتها لقمع الحركة .

ومع ذلك رأينا الحكومة تتجنب الاصطدام به وهى تتلمس الحيل للقضاء على هذه الدعوة وتخشى أن تجابهها ..

ولكن رأيناها بعد ذلك بشهور تستأسد ، ولكن لغير مولانا أزاد فى غرب الهند ..

فقد انعقد مؤتمر لجمعية الخلافة فى كراتشى فى ٩ يوليو سنة ١٩٢١ برياسة مولانا محمد على واشترك فيه أخوه شوكت على ، ومولانا حسين أحمد مدنى (١) رئيس جمعية علماء الهند وغيرهم من الزعماء وأصدر المؤتمر قرارا مدعما بالقرآن والسنة يقضى بمقاطعة وظائف الحكومة البريطانية ، وعدم الانخراط فى سلك الجندية . وأن كل من يتعاون مع الحكومة فى الوظائف أو فى الجيش بأى لون من ألوان التعاون يعتبر آثما شرعا .

وبادرت الحكومة بعد المؤتمر بالقبض على محمد على وأخيه ، وعلى خمسة آخرين من الزعماء منهم شيخ الاسلام فى الهند مولانا حسين أحمد مدنى .. وقدمتهم للمحاكمة بتهمة اثارة الشعب ضد الحكومة فى الوقت الذى تركت فيه مولانا أزاد فى كلكتا شرق الهند وقد خطب قبلهم يدعو لمثل مادعوا اليه ولم تقبض عليه الا فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢١ مما كان موضوعا لتعليقه واستغرابه فى مرافعته وأثناء محاكمته حيث يقول :

" ولقد شرحت فى هذه الخطبة " التى يحاكم عليها " أن الشريعة توجب على المسلمين فى الحالة الحاضرة أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة ، وأن يقاطعوها مقاطعة تامة ، وهذا هو " اللاتعاون " الذى أطلق عليه بعد اسم "Non Coperation" وتولى غاندى قيادته .

---

(١) الملقب بشيخ الاسلام فى الهند ولد ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٩ م فى بلدة " فيض أباد " من الولاية الشمالية ، وتعلم فى مدرسة دار العلوم فى ديوبند ، متتلمذا على شيخ الهند وزعيمها مولانا محمود الحسن ثم ارتحل مع والده للمدينة المنورة وعمره عشرون عاما وأقام فيها دارسا ومدرسا حتى جاء استاذه محمود الحسن للحج سنة ١٩١٦ ومقابلة زعماء الترك للاتفاق معهم ضد الانجليز . فقامت ثورة الشريف حسين وقبض على شيخ الهند وتلميذه حسين وأودعا معتقل مالطا ولم يفرج عنهما الا فى سنة ١٩٢٠ . وبعد ما توفى شيخ الهند تولى القيادة بعده مولانا مدنى مشتركا مع المجاهدين فى حزب المؤتمر وجمعية الخلافة باسم جمعية العلماء فقبض عليه وحوكم عدة مرات ، وكان مع ذلك كله لا ينقطع عن التدريس فى دار العلوم ديوبند باعتباره شيخها وشيخ قسم الحديث بها كما كان دائم الاسفار لمريديه فى أنحاء الهند وكانوا يقدرون بالملايين ووقف ضد تقسيم الهند وأوذى بسبب ذلك ، وقد لقيته وعاشرته نحو سنتين وتوفى فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٥٧ حينما كنت بالهند .

وفى نفس هذا المؤتمر (مؤتمر الخلافة فى كلكتا) أعلن :(أنه لا يحل للمسلمين أن يدخلوا الخدمة العسكرية لهذه الحكومة لانها تحارب الخلافة والدولة الاسلامية .

" وان من أعجب العجب أن تؤاخذ الحكومة أناسا وتعاقبهم لاعلان هذا الحكم فى مدينة كراتشى . ولا تؤاخذنى به مع أننى صرحت مرارا على صفحات الجرائد . وفى خطبى أن أول من قدم هذا الاقتراح وأعلن هذا الحكم الدينى هو أنا بعينى "(١) .

محاكمتـــه :

وقدم مولانا أزاد الى المحاكمة حسب المادة ١٢٤ من قانون الهند الخاصة بالذيـن يحرضون على الثورة ضد الحكومة بأية واسطة من وسائط النشر : الصور أو الكلام أو الخطابــة وحكمت عليه بالسجن لمدة سنــة .

وسنقف عند هذه المحاكمة طويلا ،ولا نمر بها مرورا عابرا . لأنها خلفت لنا أروع مرافعة وأجرأها . وأصرحها . وأعقلها حديثا عن الاسلام . وموقفه من الطغاة المستبدين مع عرض نماذج كريمة من المسلمين فى موقفهم ضد المستبدين من حكامهم — ولأنها فى الوقت نفســه تكشف لنا عن قيمة هذا الرجل العلمية واحاطته بفهم القرآن والحديث ،وقضايا الدين والتاريخ الاسلامى ،وتكشف لنا عن نفسية رجل أعاد تاريخ النماذج الكريمة من رجالنا المسلمين الأفذاذ فى شخصه . حيث وقف وقفته الخالدة أمام عتو الدولة المتجبرة وسلطانها . وفى ساحة المحكمة . وعلى مسمع من القضـاة الانجليز والسلطات الانجليزية يهاجم الحكومة الانجليزيـة ويدعـو لاخراجها من الهند . ويصفها بأبشع ماتوصف به حكومة . وهى خارجة من الحرب منتصرة مغرورة بقوتها ونفوذها .. مرافعة هى فى الحقيقة صورة نادرة من الجهر بكلمة الحق أمام السلطـان الجائر . كما أوصى الاسلام . صورة يجب أن نعرفها . بل مرافعة يجب أن ندرسها لشبابنا . ليعرفوا منها موقف الاسلام من الظلم والظالمين والطغاة المستبدين . وليدركوا منهـا أن الاسلام ليس — كما يصوره بعض الحاقدين المغرضـين — مخدرا للشعوب .. عن طلب حقها فى الحيـاة والحريـة . ولا ملهيا لها عن محاربـة الظلم والظالـمين ... وليعرفوا مع هذا كلـه . مدى تأثير العقيدة فى الانسان . وكيف ترفعه الى مرتبـة الأبطال المجاهديـن

(١) المصـدر السابـق .

المضحين ، حين تحمله وهو أعزل — الا من سلاح الايمان — على أن يجابه القوة الجارفة المستبدة ، ويقول لها أمام المحكمة على ملأ الاشهاد : " انك ظالمة ، وأنا ظالم ان لم أقل لك انك ظالمة ، بل ويقول لها ماهو أشد من ذلك مما ستراه وتؤخذ بروعته وعظمته حين تقرأ هذه المرافعة ،

وقد أعجبتنى كلمة لفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ أحمد حسن الباقورى عن مولانا أزاد وتحليل لموقفه فى هذه المرافعة ، أعدها ليلقيها نائبا عن الجمهورية المصرية فى تكريم الهند له واحتفالها بعيد ميلاده ، فشاء الله أن يسبق القدر ذلك الموعد الذى كانت الهند تستعد لتكريمه فيه ، فنشرت هذه الكلمة بعد وفاته فى مجلة ثقافة الهند[1] ، ونقتطف منها هذا التحليل القيم لموقف أزاد فى هذه المرافعة ،

" وتظهر عظمة أزاد ، وتتجلى ايمانه الوثيق بالله ، وفهمه الصحيح للاسلام ، حين قدمه الانجليز للمحاكمة بتهمة التحريض على الثورة ، وجمعوا لذلك أدلة الاتهام من خطبتين كان قد ألقاهما فى مدينة " كلكتا " يدعو فيهما المسلمين خاصة والهنود عامة الى العصيان المدنى .. كان ذلك فى سنة ١٩٢١ وأزاد فى بقية من شباب[2] يحرص المرء عليها أشد الحرص ، ويضن بها أن تذهب فى مجال الحياة الجافية المظلمة ، ولو وقف أزاد هذا الموقف قبل ذلك بسنوات لقلنا أنها ثورة شباب ، ولو وقف هذا الموقف بعد ذلك بسنوات لقلنا انه يأس الشيخوخة حمله على أن يخرج من الحياة من هذا الباب فى صورة بطل من أبطال التاريخ ، ولكن شاء القدر ، أن يتخير لأزاد هذا الموقف بالذات فى هذا الدور من حياته ، ليثبت فى سجل الانسانية آية من آيات السمو البشرى ، ومثلا من أمثلة الانسانية الرفيعة فى الايمان بالحق ، والقيام فى وجه الظالمين الطغاة ، وتدور المعركة فى ساحة المحكمة فيشهد التاريخ أعف معركة وأعجبها ، يسجل فيها أزاد نصرا حاسما للانسانية ، به يتقرر مصيرها ، ويتحدد موقفها لاجيال عديدة مقبلة " (ونظرا لطول هذه المرافعة التى بلغت عشرات الصفحات ، فقد رأيت أن ألحقها بهذه الرسالة " ملحق ج " كأثر من آثاره الخالدة مع بعض آثاره الأخرى ،

---

(١) عدد سبتمبر سنة ١٩٥٨

(٢) [illegible] عمره اذ ذاك ٣٣ سنة لانه ولد سنة ١٨٨٨ م

انتخابه رئيسا للحزب وجهوده في صيانة وحدته ووحدة البلاد :

كانت الفترة التي تلت خروج أزاد من السجن سنة ١٩٢٠ حتى القبض عليه في ديسمبر سنة ١٩٢١ ومحاكمته فترة ذهبية حقا في تاريخ الهند .. حيث التقت جميع الطوائف والأحزاب على حركة العصيان المدني وشهدت البلاد خلال هذه الفترة وحدة شاملة بين أبنائها جميعا على اختلاف اجناسهم وأديانهم ولا سيما بين الهندوس والمسلمين .. أكبر أقلية لها شأنها وشخصيتها في الهند - حتى كانت البلاد قاب قوسين أو أدنى من القضاء على المستعمرين ..

كانت مجاملة غاندى للمسلمين في تعضيده لموقف المسلمين من حركة الخلافة سحرا جمع حوله قلوب المسلمين جميعا . وتلاقى المسلمون والهندوس في المسجد والمعبد .. الهندوسي يخطب من فوق منبر المسجد . والمسلم من منصة المعبد . وكان ذلك يحدث لأول مرة في تاريخ الهند .. وذلك بسحر الهدف الوطني الذي جمعهم كلهم من حوله . حتى تناسوا خلافاتهم القديمة كلها . كانت الهند كلها كموجة واحدة عاتية أو كجسم صلب متماسك . والانجليز حائرون فيما يفعلون ازاء هذا الشعب المتماسك في ثورته حتى ترددوا طويلا في الاقدام على اعتقال الزعماء خوفا من الهاب الحركة والقاء وقود جديد عليها حتى أصاب هذا التردد هيبتها في نظر الشعب .

أو كما يقول نهرو[1] " وتصدعت الدعامة التي كانت تسند الحكم البريطاني في الهند . ألا وهى هيبة الحكومة . ولم تكن وسائل القمع المحدودة الا لتزيد الحركة قوة الى قوتها . وترددت الحكومة طويلا قبل أن تقدم على عمل قوى حاسم مع كبار الزعماء . ذلك أنها لم تكن تأمن عاقبة هذا العمل . ترى هل تعتمد على الجيش ؟ وهل ينفذ رجال الشرطة الأوامر ؟ وتحيرت الحكومة فلم تدر ماذا تفعل - كما قال لورد ريدنك . نائب الملك في الهند في ديسمبر سنة ١٩٢١م "

وكان الموقف في ذلك الوقت في صالح الهند تماما حتى " لقد شهد " " لورد لويد " حاكم بومباى اذ ذاك أن غاندى كان في سنة ١٩٢٢ قاب قوسين أوأدنى من تحرير الهند

---

(١) ص ٤٩ من كتاب " نهرو " بقلمه ترجمة وتلخيص محمد بدران .

غير أن غاندى أعلن فجأة وقف حركة الكفاح السلمى (١) "

وقد أصدر غاندى قراره هذا لظروف عدة لا مجال هنا لشرحها ولا لما وجه اليها من نقد بعض الزعماء لها ولكنا نذكر فقط الأثر الذى تركه هذا القرار من كلام نهرو نفسه :

" وتنفست الحكومة الصعداء ، واستطاعت لأول مرة أن تكون هى البادئة بالعمل وكانت هذه البداية هى ما حدث بعد أسابيع قليلة من اعتقال " غاندى " والحكم عليه بالسجن لمدة طويلة " ذلك أن قرار غاندى بوقف الحركة وهى فى عنفوانها أحدث رد فعل عنيف فى نفوس الزعماء والشعب على السواء وأوجد خيبة أمل فى نفوسهم ، فتثبت قواهم ، كالسيارة السريعة حين تصطدم وتتوقف فجأة !!

فكان من السهل على الانجليز فى هذه الحالة اعتقال " غاندى " وضمه لبقية الزعماء الذين سيقوا الى السجن من قبل ..

وفى هذه الفترة الرهيبة الحاسمة التى كان يمر بها الشعب ، لم يكن له من قواده وزعمائه أحد خارج السجن يسوس أمره ، ويعالج نفسيته ، ويقوده ، فكان رعية بغير راع ، وسفينة أمام صخور فى جو عاصف بدون ربان .. وبذلك خلا الجو للانجليز ، ليفعلوا ، ويدبروا ما يشاءون ، ولينهالوا على الصخرة القوية التى حطمت قواهم — وهى صخرة الوحدة — ليهشموها " ويستريحوا من شرها ..

والانجليز بسياستهم الطويلة فى قهر الشعوب واستعمارها هم الأساتذة حقا فى سياسة التفرقة ورسم خططها وتنفيذها ..

ونجح الحاكم الانجليزى للهند " لورد ريدنك " فى ذلك الى أبعد مدى حتى قوبل — حين رجوعه لبلاده بعد ذلك — بتقدير عام من الحكومة والبرلمان والصحافة !!

وخرج الزعماء من السجون بعد ذلك ليجدوا البناء الذى تركوه متماسكا قويا ، قد انهار وعصفت به ريح هوجاء أو نار متأججة أتت على كل المعانى الطيبة فى النفوس ، وغرق الشعب فى بحار من الخلافات والدماء حتى نسى تماما أن له عدوا مشتركا يكتم أنفاس الجميع (٢) ..

---

(١) من كتاب " غاندى " للاستاذ عباس العقاد .

(٢) راجع فصل الخلاف بين المسلمين والهندوس ، من كتابى " كفاح المسلمين فى تحرير الهند " .

وكانت أهم لعبة لعبها " اللورد ريدنك " فى ذلك هى لعبة التفرقة الدينية ، وإثارة الخلافات بين المسلمين والهندوس ونجح فى ذلك الى حد بعيد .. وانفجرت — الاضطرابات الطائفية فى كل مكان بالهند وأخذت كل طائفة تلجأ الى الحكومة لانصافها من الطائفة الاخرى ، والانجليز طبعا فرحون بنجاح لعبتهم ..وامتدت هذه الخلافات الى حزب المؤتمر نفسه ، لأن المؤتمر يمثل مشاعر الهند كما هى — كما يقول نهـرو — بل ان حزب المؤتمر نفسه بدأ فيه خلاف من نوع آخر تحكمه نظرة اعضائه الى الامور العامة السياسية ، وطريقة العمل بعد ما تحطمت المقاومة ، وتصدعت الوحدة : فريق يرى دخول المجالس التشريعية فى ذلك الوقت ومحاربة الحكومة من داخليها ، وفريق يرى الاستمرار فى مقاطعتها والمحافظة على الخطة السابقة فى المقاطعة " وأخذت كفاءة رجال المؤتمر بأسرها تستهلك فى الكفاح الداخلى بين الفريقين : فريق المحافظين على القديم بما فيه ، وفريق يرحب بالتغيير " كما يقول أزاد فى مذكراته ..

أزاد رئيس للمؤتمر :

وخرج أزاد فيمن خرجوا من السجن فى يناير سنة ١٩٢٣ فوجد هذه الحالة أمامه ، فلم يدب الفتور الى نفسه وينزع الى العزلة كما حدث لنهرو الذى يقول " وكان من أسباب هذه النزعة بلا شك — نزعة العزلة ماحدث من تطورات لا سلطان لى عليها — وأهمها سوء العلاقة بين المسلمين والهندوس وما أدى اليه من شغب وفتن عمياء "[1] بل تحمل أزاد مسئوليته فى الحزب وفى قيادة الشعب فى هذه الفترة الحرجة ، وأتركه يتحدث هو عن هذه الفترة :

" خرجت من السجن فوجدت المؤتمر يواجه أزمة خطيرة ، وكانت النتيجة أن كل كفاءة رجال المؤتمر تضيع فى النزاع الداخلى بدلا من أن تستخدم فى الكفاح ضد بريطانيا ، وقاد المستر داس ، والبنديت موتى لال نهرو (والد نهرو) والحكيم اجمل خان ، جماعة المشايعين للحديث (وهو دخول المجالس التشريعية ومحاربة الحكومة من داخليها) . بينما كان راجاجى ، والسردار باتيل ، والدكتور " راجندر برساد " من المحافظين الذين

(١) ص ٨٥ من كتاب " نهرو " بقلمه تعريب محمد بدران .

يرون استمرار الموقف كما هو وحاول كلا الفريقين استمالتى اليه ، على اننى رفضت التحيز الى أى معسكر ، وادركت أن الخلافات الداخلية هذه خطرة ، وتكاد تؤدى الى تشتيت المؤتمر ، اذا لم نحاصرها سريعا ، فصممت على عدم الانحياز الى أحد الفريقين ، وحاولت توجيه كل اهتمام الاعضاء الى الكفاح السياسى ، ويسرنى أن أقول اننى كنت ناجحا فى مساعى ، فعقدت دورة خاصة للمؤتمر فى دلهى ، وانتخبت أنا رئيسا باجماع الفريقين ، ويروى أننى كنت أصغر الرجال الذين انتخبوا لرئاسة المؤتمر سنا "

ونقف قليلا لنشير الى مغزى ماحدث من التصرف الحكيم الذى تصرفه أزاد من عدم الانحياز بعد أن طمع كل من الفريقين المتنافسين فى ضمه اليه ، ثم الى انتخابه بالاجماع رئيسا لهذه الدورة .

ذلك يدل على ماكان يتمتع به أزاد من حسن تصرف ، ثم الى منزلته لدى الجميع ، ومنهم من كان يكبره سنا وتجربة .. فقد كان فى سن الخامسة والثلاثين فى ذلك الوقت ..

ويواصل أزاد حديثه ، فيقول :

" والقيت خطابى كرئيس للاجتماع ، وأكدت فيه أن هدفنا الحقيقى هو : تحرير البلاد ، ولا يخفى فى أننا نواصل السير على برنامج العمل المباشر منذ سنة ١٩١٩ م وجاء هذا البرنامج بنتائج لايمكن التغاضى عنها (وهذا الذى يتمسك المحافظون بالسير عليه) واذا رأى بعضنا الآن (وهم جماعة المشايعين للتغيير) أن نستمر فى كفاحنا ، ولكن من داخل المجالس التشريعية فما بالنا نسرف فى التمسك بقرارنا السابق ؟ ومادام الهدف فى النهاية هو ، فالواجب أن يبقى كل فريق حرا فى تنفيذ البرنامج الذى يفضله ".

وبذلك ألقى أزاد على النار المشتعلة بينهما ماء أطفأت الاشتعال وأوقفت اتهام كل فريق للآخر ومحاولة احراقه وتدميره .. وجعلهما جميعا سواء فى العمل للهدف الواحد ، كل له طريقته .. ولا داعى لأن يقف أحد فى طريق الآخر ، مادامت الغاية الأخيرة واحدة وهى العمل ضد المستعمر ولصالح البلاد ، والحزب يتسع لكلا التيارين .. أو لكلتا الجبهتين ..

" وكان القرار الذى وافق عليه المؤتمر فى اجتماعه المنعقد فى دلهى كما توقعته فاتفق على أن يبقى الداعون الى التغيير والمحافظون على القديم أحرارا فى تنفيذ برنامجهم ".

وبهذا الاسلوب نجح أزاد فى معالجة الخلاف داخل حزب المؤتمر ، وحافظ بحكمته على كيانه وفاعليته .

الخلاف الطائفى :

أما الخلاف الطائفى بين المسلمين والهندوس فكان أوسع دائرة وأعمق فى النفوس من الخلاف داخل الحزب ، فقد كان الانجليز قد أحكموا تدابيرهم لاشعال نار الفتنة الطائفية بعد أن خمدت مدة قليلة ، وفتحوا جراحات وسموها ، ووضعوا فيها الجراثيم الخطرة حتى عز على أطباء النفوس علاجها ..

يقول " جواهر لال نهرو [1] " :

" وكان من بين أعضاء المؤتمر كثيرون من المسلمين من ذوى الوطنية الصادقة ، ومنهم كثيرون من أشهر الزعماء المسلمين ، وأعظمهم كفاية فى الهند كلها ، فأخذ هؤلاء يقاومون النزعة الطائفية ، التى أخذت تنتشر فى البلاد ، ويعملون على ازالة أسباب النزاع ، وألفوا لهذا الغرض حزبا جديدا يدعى " الحزب الاسلامى القومى " وعقدت لهذا الغرض عدة مؤتمرات سميت " مؤتمرات الوحدة " كان أهمها المؤتمر الذى دعا اليه مولانا محمد على فى دلهى ، لكن هذه المؤتمرات لم تفلح فى ازالة أسباب النزاع ، ولم يكد مؤتمر الوحدة الذى عقد فى دلهى سنة ١٩٢٤ ينفض حتى حدثت فتنة جديدة بين المسلمين والهندوس فى مدينة " اله أباد " "

ان البناء دائما أصعب من الهدم ، واطفاء النار الملتهبة أشق من اشعالها ، والانجليز بكل قوتهم ودهائهم هم الذين يهدمون ، ويشعلون النار ويهيئون الأسباب لكل ذلك ..

لذلك لم ينجح أزاد ولا محمد على ولا غيرهما من أشهر الزعماء المسلمين والهندوس وأعظمهم كفاية .. كما يقول نهرو — فى اطفاء هذه الفتنة ، واعادة الوحدة التى برقت على أرض الهند فترة محدودة .. وكان من الطبيعى فى هذه الحالة أن تنشط الجماعات الدينية

---

(١) ص ٨٦ من كتابه " نهرو " بقلمه تحت عنوان " اشتداد النزاع الطائفى " تعريب محمد بدران .

فى كلتـا الناحيتين مثل جماعـة مهاسبها " الهندوسية " والرابطـة الاسلاميـة لتكسب لها أنصارا باسم الدفاع عن مصالحها .. فاشتد ساعد " الرابطة الاسلامية " التى تكونت من قبل على أساس الدفاع عن مصالح المسلمين .. وفى الوقت نفسه بدأ بعض الزعمـاء المسلمين البارزين فى حزب المؤتمر وحركة الخلافة معا يفترون فى تأييده ، وتثور فى نفوسهم الشكوك حوله ، ويقتربون من الجبهة الاسلامية شيئـا فشيئا ..

يقول السيد ابوالحسن على الندوى[1] :

" واستمرت الاضطرابات وعنفت حتى كانت سنة ١٩٢٧ وفى بضعة شهور منها وقـع خمسة وعشرون اضطرابا كانت حديث النوادى والصحف والشغل الشاغل للبلاد ولم يستطـع زعماء المؤتمر وحركة الخلافة أن يوقفوا هذه الاضطرابات ويرجعوا المسلمين والهنادك الى الصفاء والثقـة التى كانت تسود البلاد "

" وبدأ الناس يشعرون بخمود الحماسة الوطنية أو بضعفها فى الزعماء الوطنيـين ، وانحيازهم الى المعسكرات الطائفية ، وبدأ الزعماء المسلمون يشعرون بأن الزعماء الهنـادك وعلى رأسهم الزعيم غاندى — لم يستعملوا كل نفوذهم فى وقف هذه الاضطرابات الطائفية وفى محاسبـة شعبهم ".

" وسواء كان هذا الشعور صحيحا أم كـان فيه شئ من التشاؤم وسوء الفهـم فقد جعل هذا الشعور يضعف نشاط بعض الزعماء الوطنيـين المسلمين الذيـن كانوا مشعـل الحماسة والوطنية وجعلهم ينظرون الى المسلمين كأمتهم التى يأوون اليها ، ويشكون مـن زعماء المؤتمر ضيق التفكير وضيق الصدور فيما يتصل بالمسلمين .. الخ "

" كما أن كثيرا من الزعماء المسلمين الذين كانوا يجمعون بين عضوية المؤتمر وعضويـة الرابطة أو حركة الخلافة أخذوا يبتعدون شيئـا فشيئا عن المؤتمر "

ولعل الاستاذ الندوى يشير فى ذلك الى " محمد على جنه " الذى كان متحمسـا للوحدة بين المسلمين والهندوس حتى وقف متحمسا ضد تقسيم البنغال ، عدوا عنيدا لـرأى

---

(١) فى كتابه " المسلمون فى الهند " نشر وتوزيع مكتبة دار الفتح بدمشق .

المسلمين فى ذلك الوقت حتى اطلق عليه " رسول الوحدة " ثم كان هو بعد ذلك زعيم المطالبة بدولة باكستان حتى تم له ما أراد ..

كما يشير الى مولانا محمد على الذى كان رئيسا لحركة الخلافة ومن أبرز أعضاء حزب المؤتمر أيضا حتى رأس احدى دوراته فى سنة ١٩٢٣ وكان غاندى يفضل الاقامة دائما فى منزله بدلهى ، وكان محمدعلى لايعلق صورا فى منزله ولكنه استثنى صورة لغاندى للصداقة التى بينهما ..

وكل هذا ذهبت به الخلافات الطائفية وشعور هذين الزعيمين وغيرهما بعدم اخلاص حزب المؤتمر لقضايا المسلمين فانفصلوا وابتعدوا عنه وقل نشاطهم فيه ..

لماذا بقى أزاد :

كان حزب المؤتمر — كما سبق القول لنهرو — يمثل مشاعر الهند كلها ، ويضم بين أعضائه المتناقضات ويسمح بها — وقد رأينا مثلا لذلك فى خلاف المحافظين والمجددين الذى عالجه مولانا أزاد .. وكما يضم المسلمين المتطرفين كان يضم كذلك زعماء متعصبين من الهندوس يرأسون جماعات متعصبة تنادى بالقضاء على الاسلام والمسلمين مثل :

" بانديت مالافيا " زعيم جماعة " المهاسبها " الهندوكية المتعصبة .

وكان تعصب مثل هذا الرجل يذوب فى حرارة الحماسة الوطنية ، لكن حين تفتر هذه الحماسة يظهر وجه التعصب كالحا ويفعل فعله ، وكان له ولأمثاله بلا شك تأثير فى حزب المؤتمر وقراراته أو مواقفه ، لكن كان يحد منه — وأقول يحد منه — المسلمون البارزون فى الحزب ، والمعتدلون من الهندوس ، ولو خلا له ولأمثاله الجو فى الحزب لحولوه الى حزب هندوسى متعصب أو لجعله " جماعة المهاسبها " بتعصبها القبيح ولكن وجود مسلمين بارزين فى الحزب لهم تأثيرهم ووزنهم مع وجود أعضاء معتدلين متمسى الافق مثل نهرو وغيره حد من نشاطهم وقلم أظفارهم ، وحاصر تعصبهم فى أضيق نطاق ممكن ..

وهنا يبدو لنا أن نتساءل وقد انفصل عن الحزب بعض الزعماء البارزين وبقى فيه آخرون بارزون وفى مقدمتهم ، " أزاد " هل كان من الخير أن ينفصل المسلمون جميعا

عن حزب المؤتمر ليصير مؤسسة هندوسية تتزعم الأغلبية الكبيرة من الشعب ، ويسرح فيهما المتطرفون ويلعبون كما شاء لهم تعصبهم ؟ : أو كان من الخير أن يبقى المؤتمر (كما يعلن) ممثلا للشعب على اختلاف طوائفه ، وراعيا لصالحه ، وفيه بعض المسلمين الذين لهم وجهة نظرهم في العمل معه ، ولهم وزنهم في تسيير دفته ، واصدار قراراته ؟ .

أعتقد أن الجواب عن ذلك تختلف فيه وجهات النظر .. حتى الآن والى ما بعد الآن ، وقد اختلفت الانظار واقعيا من قبل ، ورأينا بعض الزعماء المسلمين يؤثرون الخروج منه للعمل في هيئات اسلامية وبعضهم يؤثر العمل معه مثل مولانا أزاد وغيره .

وأنا لاتجرفني العاطفة لهذا أو لذلك ، وأعتقد أن كلا منهم كان مخلصا في نظرته لصالح المسلمين وصالح الوطن ، ولكنه اختلف في تقديره لهذه المصالح عن تقدير الآخر ، هل تتحقق هذه المصالح في تركه للمؤتمر والعمل في جبهة اخرى مثل الرابطة الاسلامية مثلا ؟ أو أنها تتحقق بالبقاء فيه والعمل من داخله لهذه المصلحة ، والحد من التيارات المتعصبة داخله ؟ ولكل وجهة .

لقد كان أزاد يرى أن الخير للوطن وللمسلمين في أن يقود الشعب حزب يمثله بجميع طوائفه ، ويعمل من داخله على حفظ توازن المصالح بين الجميع ، حتى لا تطغى فئة على فئة ..

ومن أجل هذا ظل في مركزه في الحزب رئيسا له أحيانا ، وموجها من خارج منصة الرياسة أحيانا اخرى . وكان ذلك مما يعتز به المسلمون ومن الحق أن أقول حسب ما سمعت ولمست وأنا في الهند على سبيل المثال : ان وجود مسلمين بارزين كأزاد في حزب المؤتمر وهو حزب الأغلبية الحاكم منذ الاستقلال سنة ١٩٤٧ قد أتاح للمسلمين بصفة عامة المشاركة في كل ماحققه الحزب للبلاد من حرية ومن خدمات ، كما كان يحد كثيرا من غلواء المتعصبين ، ويحقق كثيرا من المصالح العامة والخاصة للمسلمين .. فقد كان ركنا يلجأ اليه المسلمون في حل مشكلاتهم ، ويستحي منه المتعصبون ، فيخففون من غلوائهم ، ويجمع

حوله المعتدلون ليكونوا سدا فى وجه المتعصبين .

كان المسلمون يعتزون به وبشخصيته ، ولم أشعر بذلك حقيقة الا يوم أن توفى ، ولمست أثر وفاته فى نفوس المسلمين .. والانسان منا حين يحيط باحساسه مع مركز أزاد ومع المسلمين — وهم أقلية — فى الهند يستطيع أن يشعر بهذا كله . ويكفينى مئونة تفصيله ..

لهذا بقى أزاد فى الحزب ، لاعضوا من أعضائه وكفى ، بل عضوا فذا من أفذاذ رجاله : رئيسا حينا ، وموجها من خارج مركز الرياسة حينا آخر ..

وظل متمسكا بوجهة نظره هذه ، حتى التقسيم ، وحتى انتقل الى جوار ربه ، بقى أزاد يضطلع بدوره المهم فى حزب المؤتمر ويواصل جهاده مع زملائه فى النهوض برسالة الحزب ..

ولقد مضت الفترة بعد خروج الزعماء من السجن وحدوث الفتنة الطائفية فى أنحاء البلاد اقول مضت السنون والبلاد تعانى جراح هذه الفتنة التى ظلت تضعف من قوة الوطنيين أمام المستعمرين ، وتفت فى عضد الزعماء ، فلم يستطيعوا أن يقودوا الشعب فى حركة عامة ضد المستعمرين ..

وكان غاندى قد خرج كذلك من السجن بعد أزاد فرأى هذه الحالة وحاول بجهده ونفوذه علاجها ولكن دون جدوى مما حمله هو والحزب كذلك على الانصراف الى اصلاحات شعبية أو مطالبة المستعمر باصلاحات داخلية ، فى الوقت الذى كان فيه أصحاب التيار الجديد فى الحزب الذين أطلق عليهم أخيرا " جماعة الحرية " يحاولون أن ينتزعوا من غاندى موافقته على خطتهم فى التغيير الذى كانوا يرونه وهو اعلان الحزب مطالبته بالاستقلال التام وغاندى فى عزلته منصرف عن السياسة الى توجيه الشعب للعمل اليدوى والطواف فى البلاد لنشر فكرته .. فمرت الفترة من سنة ١٩٢٣ الى ١٩٣٠ على هذا النحو تقريبا من النشاط والصراع الداخلى فى الحزب حتى استطاع أنصار الحرية أن يأخذوا قرارا من الحزب بطلب الاستقلال التام والعمل على تحقيقه فى مؤتمر " لاهور " آخر ديسمبر سنة ١٩٢٩ وحدد يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٣٠ موعدا لاذاعة هذا القرار ، وهو اليوم الذى لاتزال تحتفل به الهند حتى الآن تحت اسم " ذكرى اعلان الاستقلال " .

وفى فـترة الهدوء أو انصراف حزب المؤتمر للصراع الداخلى بين أعضائه كما ذكرنـا تمكن مولانا أزاد من اعادة كتابة " ترجمان القرآن " وتفسير جزء كبير منه .. بعد أن فقد ما كان قد أعده قبل ذلك على يد رجال البوليس اثناء تفتيشهم لمسكنه حين اعتقاله كمـا عرفنـا ذلك من قبـل .

حركـة العصيان الثانية سنة ١٩٣٠ :

وباعلان المطالبة بالاستقلال التام بدأ العمل السياسى النضالى يدب فى الحزب من جديد واعلن غاندى فى ابريل سنة ١٩٣٠ حركة العصيان المدنى الثانية المسماة بحركـة " الملح " لأن مظهر العصيان هذه المرة كان أبرزه عصيان أوامر الحكومة الخاصة بالملـح والعمل على الحصول عليه بالطرق الفردية أو الجماعية بعيدا عن نظام الحكومة ..

وأخذ أزاد دوره فى هذه الحركة التى عمت أنحاء الهند . وأخذت الحكومـة بدورها تقابل هذه الحركة بالشدة . فتعتقل الزعماء واحدا بعد الآخر . وكان كل رئيـس يعين من يخلفه فى الرياسة اذا ما اعتقل . واختار أزاد من بعده " الدكتور أنصـارى " وسار فى طريقه يتحدى الحكومة وألقى خطابا سياسيا فى مدينة " ميرت " شمال دلهى .. فقبض عليه وزج به فى سجنها [1] . ثم خرج من السجن . ولكنه عاد اليه مع كثير مـن الزعماء بعد أن رجع " غاندى " من " مؤتمر المائدة المستديرة " سنة ١٩٣١ دون أن تنجح المفاوضات فقضى فى سجنه اكثر من سنة .. وظلت البلاد فى اضطراب حتى أوقف غاندى حركـة العصيان فى مايو سنة ١٩٣٣ .

الانتخابات وفوز أزاد فيها :

وفى سنة ١٩٣٥ خاض حزب المؤتمر الانتخابات وفاز بالأغلبية فى عدة ولايات وكـان مولانا أزاد فى مقدمة الفائزين على مبادىء الحزب . ثم قبل الحزب أن يشترك فى الـوزارات الاقليمية على أساس قانون الحكم الذاتى الذى صدر سنة ١٩٣٥ م .. وكان لاشتراكه فـى الانتخابات وفى الحكم قصة أو مقدمة تتصل بمولانا أزاد نجد من الخير أن نذكرها لأنها تكشـف

---

(١) ولعلك لاحظت من قبل أنه كتب احدى مقدمات ترجمته لمعانى القرآن وهو فى هذا السجن .

عن حكمته وعن قدرته في قيادة الحزب .

فحين صدر قانون أو دستور الحكم الذاتي لم يوافق عليه المؤتمر ، واتجه الرأى من أجل ذلك الى عدم الاشتراك في الانتخابات ولكن أزاد رأى غير ذلك ، ونتركه هنا يعبر عن وجهة نظره فيقول[1] : " ووثقت بأنه سيكون من الخطأ مقاطعتنا للانتخابات ، لأن المؤتمر اذا تنحى عنها سيطر على المجالس التشريعية المركزية والفرعية عناصر غير مرغوب فيها ، وسيتحدثون باسم الشعب ، وبجانب ذلك رأيت في الانتخابات فرصة عظيمة لتربية الجمهور في أمور السياسة الهندية ، وأخيرا اقتنعت الأفكار بوجهة نظرى ، وساهمنا في الانتخابات ، وكانت النتيجة فوز المؤتمر بالأغلبية المطلقة في خمس ولايات رئيسية ، بينما صار أكبر حزب في أربع ولايات اخرى ولم تبق الا ولايتان (السند وبنجاب) لم يحصل فيهما على نجاح يستحق الذكر" وهما من الولايات الاسلامية .

هذا موقف لأزاد في قيادة الحزب جدير بالتنويه : يليه موقف له مشابه في قبول الحكم والاشتراك فيه .. فقد ظهر تيار في الحزب يتزعمه رئيسه في هذه الدورة (نهرو) بعدم الاشتراك في الحكم ، ولكن أزاد كان له رأى غير ذلك ونتركه أيضا يعبر عن وجهة نظره فيقول :

" واحتججت بأن السلطات المفوضة الى الولايات لابد أن نفيد منها افادة كاملة ، فان أدى ذلك الى نزاع مع الحاكم فسنعالجه حسبما تقتضيه الظروف والصالح ، ثم انه لا سبيل لنا الى انجاز برامج المؤتمر الا باستخدام السلطة الحقيقية والاشتراك في الحكم ، فان اضطرت الوزارة الى التخلى عن مناصبها لأجل قضية هامة فسيزيد هذا من قوة الحزب ونفوذه .. وعند اجتماع لجنة الحزب بينت في كلمات صريحة أن من واجب المؤتمر قبول الحكم ، وجرت المناقشة ، ووافق غاندى بعد برهة على وجهة نظرى ووافق المؤتمر ، وكان هذا القرار حدثا تاريخيا هاما فان المؤتمر انتهج حتى ذلك الحين سياسة سلبية برفضه قبول الحكم وها هو ذا يتخذ لأول مرة سياسة ايجابية ويضطلع بمسئولياته في الادارة ويستعد لتحمل أعباء الحكومة " .

وكانت تجربة لابد منها للمؤتمر ظهرت آثارها بعد نحو عشر سنين حين استقلت البلاد

---

(١) في مذكرات حياته عدد سبتمبر ١٩٥٨ ص ٤٠ ، ٤١

وتولى هو ادارة دفة الحكم فيها .. ولم يشترك أزاد ولا غيره من الزعماء البارزين فى هذه الوزارات ، ولكنه كان أحد أعضاء لجنة ثلاثة برلمانية عليا مهمتها الاشراف على أعمال الوزارات وارشادها فى الأمور السياسية . أو كما يقول كتاب " نزهة الخواطر[1] " : " كان أزاد من كبار المشرفين والموجهين فى هذا التأليف ، وله الكلمة النافذة والرأى الوجيه فى اختيار الوزراء " .

ومما يجدر ذكره فى هذا المناسبة أن الرابطة الاسلامية وجهت الى وزراء المؤتمر فى الحكومات الاقليمية اتهامات التحيز الطائفى واهمال مصالح المسلمين والحاق الظلم بهم وبغيرهم من الاقليات . وكان أزاد بحكم وضعه واشرافه مسئولا عن هذه الناحية ، ولهذا رأيناه فى مذكراته يعنى بهذه المسألة ويقول بشأنها :

" عندما قبل المؤتمر الحكم شكل مجلسا برلمانيا يشرف على أعمال الوزارات ويرشدها فى السياسة ارشادا عاما ، وكان المجلس مكونا من السردار باتيل ، والدكتور راجندر برساد ومنى . وهكذا أصبحت مسئولا عن الشئون البرلمانية فى عدة ولايات مثل : بنغال ، وبهار والولايات المتحدة الشمالية ، وبنجاب ، والسند ، وولاية الحدود . وكل حادثة تتعلق بالقضايا الطائفية رفعت الى ، ومن أجل هذا يمكننى أن أقول معتمدا على معلوماتى الخاصة ، وشاعرا بمسئوليتى : أن الاتهامات التى وجهها مستر " جنة " والرابطة الاسلامية من ظلم للمسلمين والأقليات الاخرى ، لم يكن لها أساس ، ولو كنت لمست فى احداها شائبة من الصدق لأمعنت فى اصلاحها ، وازالة الجور الحادث ، وكنت مستعدا لتقديم استقالتى لأجل قضية واحدة اذا أدت الظروف الى ذلك " .

ذلك موقف يجب أن نأخذه فى الاعتبار حين نقوم أثر وجود أزاد فى الحزب ، ونقوم رعايته لمصالح المسلمين .

وقد ظل هذا الوضع فى الهند حتى قامت الحرب الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ م وأعلن نائب الملك فى الهند دخولها مع بريطانيا فى هذه الحرب ، دون الرجوع الى رأى أحد من زعمائها ، فاعتبر رجال المؤتمر فى الوزارات وفى الحزب هذا القرار ماسا بكرامتهم وبلادهم ، فاستقال الوزراء ، ودخلت البلاد بقيادة حزب المؤتمر فى طور جديد من الكفاح كان لمولانا أزاد الأثر البارز فيه كما سنرى فى الفصل التالى :

---

(١) ج ٨ لمولانا عبد الحى الحسنى اللكنوى وابنه الاستاذ ابى الحسن على الندوى .

– الفصل الرابع

أخطر مراحل الكفاح .... يقودها أراد

الحـرب وموقف الهند منهـــا :

حين ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية أخذ زعماء المؤتمر يتشاورون فى وضع الهنـــد وموقفها من الحرب لو حدثت : هل تشترك فى الحرب وتقف فى صف انجلترا ، أو تحجم عن مساعدتها ، لأنها دولة استعمارية تسلبهم حرياتهم ؟ وبادر الحزب فأصدر قرارا قبيل اعلان الحرب يقول فيه :

" ان من الضرورى أن تتخذ الهند سياستها الخارجية الخاصة كشعب مستقل ، وتبقى محايدة بين الاستعمار والفاشية ، وتسلك مسلكها الخاص فى سبيل الحرية والسلام " .

ولما ازداد تلبد الجو بالغيوم ، وأصبحت الحرب منتظرة بين ساعة وأخرى ، ازداد تفكير الحزب فى موقف الهند وفى الاحتمالات التى يمكن أن تتخذ بشأنها .

فلما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بادر الحاكم البريطانى فى الهند الى اعلان الحرب على ألمانيا باسم الهند ، دون الرجوع الى الوزارة أو الى المجالس التشريعية الهندية المنتخبة القائمة فى ذلك الوقت ، ودون مشاورة أحد من زعماء الأحزاب وفى مقدمتهم حزب المؤتمر أقوى حزب فى الهند .

وكان فى هذا دليل جديد — ان كان الأمر فى حاجة الى دليل — على أن الانجليز لا يقيمون وزنا لمشاعر الشعب الهندى .

ولذا بادرت اللجنة التنفيذية للحزب بعقد اجتماع فى ١٥ سبتمبر ١٩٣٩ وأصدرت بيانا استنكرت فيه استخفاف الحكومة البريطانية بالشعب الهندى ، والزج به فى الحرب دون مشاورته أو تقديم أية ترضية له ، وأن الهند — لذلك — لا يمكن أن تنضم الى الحرب التى يقال عنها انها من أجل الدفاع عن الحرية مع انها محرومة منها .. بل حرمت من القليل التى كانت تتمتع به . وناشد البيان الشعب الهندى أن ينسى خلافاته الداخلية ، ويتحد من أجل الدفاع عن حريته .. وفكرت اللجنة فى اعلان حركة العصيان ولكنها اكتفت بالبيان دون اصدار قرار فاصل يدعو الشعب الى اتخاذ موقف خاص .

أزاد يرأس المؤتمر ويقود السفينـــة :

ولكن سرى فى الشعب احساس بعمق الطعنة التى وجهها المستعمر الى كرامته ، وأخذ الجو

يظهر أمام حزب المؤتمر ، وشعر يثقل مسئوليته ، فى الفترة الحرجة المقبلة ، وأنه بحاجـــة الى قيادة رشيدة حكيمة ، تقود سفينته فى هذا الجو العاصف الملئ بالمخاطر والاحتمالات فى مجابهة مستعمر قوى ، وفى ظروف الحرب الاستثنائيـــة ..

وكان الدكتور " راجندر برشاد " هو رئيس دورة المؤتمر قبيل قيام الحرب ، فمن الــذى تتجه اليه الأنظار ليرأس المؤتمر ، ويقود سفينة البلاد فى هذه الظروف العصيبة ؟ الرئيس القائم أم رئيس آخر ؟ .

نترك الكلام هنا لأزاد حيث يقول فى مذكراتــه :(١)

((وكانت الهند فى حالة من الرهبة والترقب ،وازدادت رياســة المؤتمر فى هـــــذه الظروف الحرجة الغامضة أهمية جديدة ، وكان قد ألح الأصدقاء على فى العام الماضــى أن أتولى رياسة المؤتمر ، لكنى رفضت لأسباب مختلفة ، على أننى أحسست فى هذه المرة بأن الموقف يختلف عن سابقه ، ولا يبعد أن أكون مقصرا فى أداء واجبى ان أبيت مرة ثانيــة .. وكــان بينى وبين غاندى خلاف بشأن مساهمة الهند فى الحرب فرأيت أن الحرب قد أنشبت مخالبهــا ولم يبق للهند الا أن تساعد القوات الديموقراطيــة . لكن المسألة ــ على كل حال ــ كانت: كيف تحارب الهند من أجل حرية الدول الأخرى ، وهى لا تزال ترسف فى أغلال العبودية؟ فاذا قامت الحكومة البريطانية باعلان عاجل عن استقلال الهند ، فسيكون من واجب الهنــــد قاطبة أن تضحى بكل نفس ونفيس فى سبيل حرية الشعوب الأخرى .. وبناء على ذلك رأيــت من واجبى حيال أزمة الحرب هذه أن أنتهز للخدمة كل فرصة تتاح لى ، وأؤدى واجبى بكــل طريق يفتح أمامى ، ولهذا لم أتردد فى قبول الرئاسة حين أعاد غاندى طلبه منى ، وتقدمـــت اليها بكل رغبـــة ، ولم تكن فى انتخاباتها منافسة ذات بال ، وفشل معارضى الوحيد أمـــام أغلبية ساحقـــة)) .

وهكذا أسند الحزب لأزاد قيادة سفينة البلاد فى أحلك الظروف ،وأشدها مخاضا بالأحداث الجسام ، وتسلمها من الدكتور راجندر برشاد ، الذى تولى رياسة الجمهورية بعد الاستقـــلال ، ولو كان هناك من يضطلع بهذه المهمة سوى أزاد ما اتجهت اليه الأنظار ، وما طلب منه غاندى ذاته أن يتولاها بعد أن رفضها فى العام السابق فى وقت السلم ، وفى الحزب زعماء ورجـــال

---

(١) عن ٦ من عدد يوليو ثقافة الهند ترجمة مذكرات حياتى لأزاد .

كثيرون غيره لهم شخصيتهم ومكانتهم .. ومن هنا تظهر عظمة أزاد ، كما ظهرت عظمته النفسية والوطنية مع ثقته بنفسه ، فى تقديره للظروف الجديدة التى جاءت مع أحداث الحرب ، فقبل الرياسة فى هذه الظروف المليئة بالأخطار بعد أن رفضها فى وقت السلم ، وتحمل المسئولية فى أدق المواقف حرجا ، وهو يشعر بقدرته على تحملها ، وبحاجة البلاد فى الفترة الحرجة المقبلة الى من يحمل العبء بجدارة وثقة ، واستعداد للتضحية ، وحقا : ان العظائم كفوها العظماء ..

ان طلب غاندى منه مرة ثانية فى هذه الظروف أن يقبل رياسة المؤتمر ، ثم فوزه بعد ذلك بأغلبية ساحقة فى انتخاباتها يشير الى شىء واحد لا جدال فيه هو : أنه الرجل الثانى فى الهند بعد غاندى ، أو أنه الرجل العملى الأول الذى يلجأ اليه الحزب فى وقت اشتداد الأزمات ، واحتياج البلاد الى الفكر المدبر ، والقائد الماهر .. بجانب زعامة غاندى الروحية ، ولقد برهنت الأحداث فيما بعد على أن أزاد كان ذلك الرجل ، فان من تقاليد الحزب أن تكون الرياسة فيه دورية بالانتخاب كل سنة ، وقد انتخب أزاد عند قيام الحرب لرياسته ، ومن المفروض أن يعاد النظر فى الرئيس كل سنة .. ولكن أزاد ظل فى الرياسة طول مدة الحرب وتولى المفاوضات باسمها حتى ظفرت البلاد باستقلالها سنة ١٩٤٧ ، بل وظل رئيسا للحزب بعد الاستقلال حتى سنة ١٩٥٠ .. عشر سنوات كانت أخطر سنوات مرت بها البلاد . وقررت مصيرها،كان أزاد هو الرئيس لأكبر حزب فى البلاد يتحدث باسمها .. فقد كان هذا الحزب قبل الاستقلال وبعده وحتى الآن هو حزب الأغلبية الذى تسلم اليه البلاد قيادها ..

وفى هذا دليل أى دليل على مانريد أن نسوقه عن عظمة هذا الرجل وخبرته السياسية ، كما كان عظيما فى اصلاحاته ودعوته الدينية .. وستزيدنا التفاصيل فيما بعد يقينا بذلك ..

عبء ثقيل :

والحق أن العبء كان ثقيلا ، بل اذا شئنا الدقة كان مزدوج الثقل على أزاد .. فقد كان عليه أن يقود الحزب والبلاد من ورائه الى ما يحقق للهند مطالبها فى الحرية ولابد فى هذا من مجابهة للمستعمر الغاشم .. وهذه لها خطورتها وثقلها ..

لكن كان بجوار هذا ماهو أخطر وأثقل .. ذلك لأن الجبهة الداخلية اذا كانت متفقة على رأى وخطة فان ذلك يسهل على القائد أو الرئيس قيادة السفينة ، لكن اذا كان فى السفينة نفسها خلاف على توجيهها وكيفية ادارتها ، فان الأمر حينئذ يكون من الخطورة بمكان ، ويصبح على الرئيس أن يواجه جبهتين ويتحمل خطورة هذه المواجهة المزدوجة ، وهذا هو ماكان حاصلا فى حزب المؤتمر عند ما تولى أزاد رياسته .

الخلاف بين أزاد وغانـدى :

فقد كان فى المؤتمر تياران فكريان ، أو نظريتان مختلفتان ومتباعدتان :

* تيار يمثله أزاد ووراءه جماعة من أعضاء الحزب يقتنعون بـه .
* وتيار آخر يمثله غاندى ، ووراءه هو الآخر أنصاره المؤمنون به ايمانا أعمى .. وظهر هذان التياران منذ بدأ المؤتمر يناقش ـ قبل قيام الحرب ـ فكرة دخول الهند الحرب مع بريطانيا واستمر الخلاف بينهما حتى انتهت الحرب ، وبدأت المفاوضات الأخيرة للاستقلال ، وكان فى الحقيقة خلافا بين عقليتين وأسلوبين فى الحياة ، لكن مع الاحترام المتبادل ، وأظهرت الأحداث صدق أزاد ، وبعد نظره فى كل ما كان يراه ويخالف فيه غاندى كما سترى .. فقد كان أزاد يرى أن الهند بطبيعتها تكره النازية والفاشية وتؤمن بالديمقراطية ، وأن وضعها الطبيعى لهذا مع الديموقراطية والمدافعين عنها وعن الحريـة ..

لكن ايمانها هذا شىء ، ودخولها الحرب فى صف المدافعين عن الديموقراطية ـ كما يقولون ـ شىء آخر .. فالهند لا يمكنها أن تدخل الحرب ، وتبذل التضحيات فى صف الذين يقولون انهم يدافعون عن الحريات ، وهم أنفسهم الذين يسلبونها حريتها ، فـاذا وافقت بريطانيا وتعهدت بأن تعطى الهند حريتها ـ ولو بعد الحرب ـ فان من الممكن فى هذه الحالة أن تشارك الهند فيها .. أما اذا لم توافق فان المؤتمر لا يمكن أن يوافق على دخول الحرب للدفاع عن الحريات .. ولا بد له أن يتخذ الموقف المناسب للحصول على الحرية ..

ويلخص مولانا أزاد وجهة نظره هذه فى كلمات من مذكراته فيقول :(١)

(١) ص ٩ من مجلة ثقافة الهند يوليو ١٩٥٩ .

(((وكانت مهمتى بصفتى رئيسا للمؤتمر ان أقود الهند الى المعسكر الديموقراطى بشرط أن تنال حريتها))) وكانت الهند فى ذلك الوقت مجندة بكل امكانياتها للحرب ، لكن بأمر الحاكم العام البريطانى ، وكان الزعماء يرون فى ذلك امتهانا لكرامة الشعب الهندى ، لعدم استشارته فى الدخول أو عدم الدخول .. وكانت مناقشة المؤتمر كلها تدور حول اتخاذ موقف مما وقع وبحث الشروط التى يمكن على أساسها قبوله الاشتراك فى الحرب .

أما غاندى فكان رأيه ينطلق من عقيدته فى مبدأ " اللاعنف " أو المقاومة السلبية ، فهو يكره العنف والحرب ، واراقة الدماء ، مهما يكن السبب الذى من أجله يكون العنف والحرب واراقة الدماء .. حتى ولو أدى استعمال العنف والاشتراك فى الحرب الى تحقيق الحرية للهند ، فانه يرفض هذه الحرية فى سبيل ايمانه بمبدأ " اللاعنف " !!

ومن أجل هذا رفض غاندى مناقشة فكرة دخول الهند الحرب ، ومناقشة الشروط التى يمكن على أساسها الاشتراك فى الحرب .. حتى كان يصيبه الهم والقلق حين يشم رائحة قبول بريطانيا لشروط الهند فى اعطائها حريتها لأن هذا سيؤدى الى اشتراك الهند فى الحرب !!

وبلغ ايمان غاندى بفكرته هذه حدا جعله يوجه نداء الى الشعب البريطانى يطلب منه فيه أن يتخلى عن مقاومة هتلر بالسلاح ، ويقاومه بالقوة الروحية أو " بالمقاومة السلمية " ولم يكتف بهذا النداء ، بل طلب مقابلة الحاكم البريطانى العام للهند ، واستجاب له الحاكم واستقبله ، فأبلغه وجهة نظره هذه ، وطلب منه أن يرفعها للحكومة البريطانية !!

وكان غاندى بذلك فى واد ، والدنيا كلها فى واد آخر ، حتى ان الحاكم البريطانى دهش وأصابته الحيرة لما سمع من غاندى وجهة نظره هذه ، حتى خرج عن اللياقة المعتادة مع غاندى وأنهى الجلسة وتركه يخرج دون أن يدق الجرس لياوره ليصحبه للخارج كما هى العادة .. مما ترك أثرا مؤلما فى نفسه .

ولكن مع بعد غاندى عن الواقع بتفكيره هذا كان هناك أعضاء فى المؤتمر يؤمنون به ايمانا أعمى ، وينقادون لرأيه دون مناقشة ، ولهم مكانتهم فى الحزب . وهؤلاء لم يستطيعوا أن يخرجوا على فكرة غاندى ، بل وقفوا معه يؤيدونه ..

ومن هنا نشأت الصعوبة وازداد العبء على رئيس المؤتمر مولانا أزاد ...

انه يجاهد فى جبهتين :

* جبهة المستعمر الذى يريد الاذلال للهند ، ويريد أزاد أن يستخلص منه حريتها ..
* وجبهة داخل الحزب نفسه ، وأمام من ؟ أمام غاندى الذى بدا وكأنه انصرف عن الغاية التى يسعى لها الجميع وهى الحرية ، الى غاية صوفية بعيدة عن الواقع ، وغير متلاسبة مع الوضع الراهن ، حتى رفض حرية الهند لو جاءت عن غير طريق " اللاعنف " وكأن غاندى بهذا قد انسلخ عن الجهاد من أجل حرية الهند ، الى الجهاد من أجل مبدأ " اللاعنف " حتى فنى فيه وذاب ، وأراد أن يقود البلاد وراءه الى ما يفنى هو فيه ويذوب !!

ويلخص مولانا أزاد هذا الموقف فى سطور قليلة من مذكراته فيقول :(١)

((كانت هذه الفترة من الفترات العصيبة الحرجة التى واجهها المؤتمر فى تاريخه فقد كنا قلقين على ما ينتاب البلاد الأخرى من أحداث مروعة تهز أركان العالم ، وتزلزل كيانه ، ولكن كان أكثر منها ازعاجا ، خلافاتنا الداخلية ، وكانت مهمتى بصفتى رئيسا للمؤتمر أن أقود الهند الى المعسكر الديموقراطى بشرط أن تنال حريتها ، ولا مراء فى أن قضية الديموقراطية كانت مما يعنى بها الهنود ، ويطمحون اليها ، ولم تكن فى طريقنا عرقلة ، الا عبودية الهند ، لكن غاندى نظر الى القضية غير نظرتنا ، وكانت القضية لديه هى : " قضية اللاعنف " لا قضية حرية الهند ، وأما أنا فقد صرحت علنا بأن حزب المؤتمر ليس منظمة مسالمة ، ولكنه منظمة مهمتها أن تسعى لتنال الهند حريتها ، ولهذا وجدت أن المسألة التى يثيرها غاندى لا تلائم حالتنا الراهنة ، ولا صلة لها بالحقيقة الواقعة)) . فأى عبء يتحمله أزاد ؟

فى ندوة عقدت فى الهند لبحث الطرق الغاندية - بعد وفاة غاندى - وقف مولانا أزاد يحلل موقف غاندى وتمسكه بمبدأ " اللاعنف " وقال :

((كان غاندى يرى لو أن بريطانيا نفسها تقدمت بمنح الهند استقلالها بشرط أن تشترك فى الحرب ، فانه سيرفض هذا الطلب حتما ، اذ أنه كان يعتقد أن " اللاعنف " قدر نهائى ، ولا يجد لنفسه مبررا للمساومة على هذه المسألة ، ولو لأجل حرية الهند)) !!

---

(١) المصدر السابق .

((ولكنى بصفتى رئيس حزب المؤتمر الوطنى اذ ذاك ، لم أستطع أن أوافقه لاعتقادى أن الحلفاء انما كانوا يحاربون لأجل مبدأ صحيح ، والشيء الوحيد الذى كان يمنعنا من الاشتراك فى بذل الجهود معهم هو الاستعمار البريطانى فى الهند ، فان زال هذا المانع فان الهند لن ترى مبررا فى الامتناع عن اسداء المعونة للقوات البريطانية التى تقاوم النازية)) (١) .

وقفة مع الرأيين :

ومن الضرورى أن نقف هنا قليلا لنقوم أو لنزن وجهة نظر كل من الزعيمين على ضوء العمل السياسى والمهمة التى من أجلها جاهد الرجلان .

لا شك أن فكرة غاندى فكرة أخلاقية جميلة تبلغ حد المثالية ، وقد استعملها غاندى فى ايقاظ الشعب ، وبعثه للعمل من اجل حريته ، أى اتخذها وسيلة للحصول على الحرية ، وكانت لا شك مناسبة لشعب أعزل لا يملك القوة لمجابهة قوة مستعمريه وسالبى حريته .. ولكن غاندى قلب أو انقلبت الوسيلة فى نفسه ، صارت غاية ، يعمل لها ، بل ورضى بأن يضحى بحرية الهند من أجلها !!

وهذا فى رأيى وضع مقلوب ، ان استساغه بعض الناس هياما بالمثل والثبات على المبدأ كما يقال ، فليس له مسوغ أمام غاية تسعى اليها البلاد وتبذل التضحيات من أجلها ، وهى الحرية .. وأعتقد أن غاندى بهذا قد عزل نفسه عن جو الواقع وجو المعركة القائمة بين الهند وبين الاستعمار ..

ولهذا أعجبنى تحليل الاستاذ قدرى قلعجى لموقف غاندى هذا حين يقول :(٢)

((لقد تغير الزمان فوجب أن يتغير حتى غاندى زعيم الهند ، ان غاندى قد أيقظ الهند ، وجعلها تنظر الى أهداف قومية واجتماعية وانسانية عظيمة ، ذلك هو دور غاندى ، هو دور عظيم جدا ، ورائع جدا ، ولكنه لا يكفى أمة تنشد الاستقلال والحرية والعزة الا لمرحلة معينة من مراحل الجهاد والنهوض ، وقد اجتازت الهند تلك المرحلة ، فسبقت قائدها ، لقد تفجرت أمواج ثورتها ، وعبثا يضع لها منشئها سدودا)) .

---

(١) كتابى " كفاح المسلمين فى تحرير الهند " طبعة أولى ص ١٠٢ ، ١٠٣
(٢) فى كتابه " غاندى أبو الهند " ص ٩٢ ، ٩٣

((لقد أصبحت الهند فى حاجة الى الفكر المنظم القائم على الادراك العلمى لأنظمة المجتمع ومشاكل العصر ، والى القائد الذى يبنى نظرياته وأعماله على الواقع الملموس ، والحقيقة الحية ، لا على القيم المطلقة التى تروح وتجيء ، ولكنها لا تكون الا مجرد أخيلة وأحلام ، اذا لم يكن لها من واقع الحياة أساس راسخ متين . لم يعد ممكنا أن تسير الحركة الوطنية ، وليس لها من هاد أو موجه غير هذا الرجل الذى هو أقرب لأن يكون قديسا أو نبيا ، من أن يكون قائدا سياسيا ، يستطيع التكيف بالظروف التى تلابسه ، ووضع الخطط والأهداف الملائمة لحاجة البلاد والمنسجمة مع روح العصر)) .

نعم كانت الهند فى هذه الفترة فى حاجة الى الفكر المنظم القائم على الادراك العلمى ، الى القائد الذى يعتمد على الواقع الملموس ، والحقيقة الحية ، لا على القيم التى يحولها الواقع الى مجرد أخيلة وأحلام .. ومن حسن حظ الهند أن توفر لها فى هذه الفترة هذا القائد العظيم فى شخص مولانا أزاد ، الذى لم يهضم آراء غاندى وصوفيته ، لبعدها عن الواقع ، وعن معالجة القضايا السياسية التى كانت تمر بها البلاد على ضوء هذا الواقع .. لقد كان من الغريب حقا أن يتصور غاندى أن دعوته يمكن أن تلقى قبولا فى هذا العالم ، وأن يتضخم خياله فى نفسه الى حد أنه يتصور أن فى قدرته ايقاف الحرب وتجنيب العالم ويلاتها !! حتى حمله هذا التصور على أن يفكر فى الانتحار ان عجز عن تحقيق غايته وحاول بكل جهوده أن يضم مولانا أزاد الى رأيه ، ولكن أزاد لم يكن من الذين يعيشون فى الخيالات ، أو يبنون خططهم على الأوهام والأحلام ، فلم يستطع غاندى مع عظمته ومركزه أن يؤثر عليه ، حتى حين أفضى اليه بما يساوره من تفكير فى الانتحار ، لأن المسألة فى نظره هى حرية البلاد ، وكيف يحصل عليها ، لا نظرية من النظريات ، ولا مثلا من المثل .. كانت حرية البلاد هى مثله ، وهى هدفه الذى لا يبعد عنه ، والذى يسعى اليه بكل الوسائل ، بالسلم أو بالعنف كما تعلم من دينه ومن تجارب الحياة يقول أزاد[1] فى هذا :

((وكان غاندى يلح على بين فترة وأخرى أن أسانده فى وجهة نظره ما تعنى المساندة ، ولكنى أمعنت النظر فى المشكلة ، واستعرضت جميع جوانبها ، فلم أتمكن من الاقتناع بوجهة

---

(١) (ص ١٠ عدد يوليو ٥٩) من مجلة ثقافة الهند .

نظر غاندى ، ولا بإرغام نفسى على قبولها [1] ، لأن " اللاعنف " كان فى رأيى مسألة سياسية محض ، لا عقيدة من العقائد ، كما يراها غاندى ، ولم أشك فى أن المسموح به للهنود أن يفزعوا للسلاح للحصول على الحرية ، ان عجزوا عن الحصول عليها بالطرق السليمة ، على أن الجميل المفضل هو الحصول على الحرية ، بالطرق السلمية ان استطعنا))

ولسنا هنا نريد أن نغض من شأن غاندى ، فان تمسكه بمبدئه وثباته عليه الى هذا الحد أمر لا يخلو من المعجبين به ، ما دام صادرا عن عقيدة واخلاص ، لكن هذا الرأى الغاندى لا يجدى فى قيادة أمة تجاهد من أجل الحصول على حريتها وتريد الوصول اليها ، ولا يناسب الظروف التى تمر بها البلاد ..

ان له الحق كل الحق كشخص فى أن يفنى فى مبدأ من المبادىء ، ولكن ليس له كقائد أن يجر الأمة وراءه لتفنى معه فى هذا المبدأ الذى لا يحقق لها هدفها .. ومن الخطر دائما على الأمم أن يعجب قوادها برأيهم أو مبدئهم ، دون أن يضعوا فى الميزان رأى الأمة أو مصلحتها فيقودوا أمتهم المسكينة وراءهم الى التخبط ومعاناة الأخطار وربما الى الهاوية ..

ان غاندى فى مثل موقفه هذا يبدو أنه لم يكن يتفاعل مع الزمن الذى يعيش فيه ، ولا مع قضايا أمته ومصالحها ، بقدر ما كان يتفاعل مع مبدئه ، ولم تعد عنده الصلاحية السياسية الكافية لأن يقود أمة كأمته تجابه عدوا لدودا عنيدا قويا ..

ماذا لو ترك الميدان له ولآرائه هذه ليقود سياسة الهند فى هذه الظروف ؟ ! أعود فأقول أنه كان من حسن حظ الهند فى هذه الفترة أن هيأ الله لها رجلا مثل أزاد فى حنكته السياسية ، وفى نظرته البعيدة للأمور ، فكان أزاد بحق رجل الساعة .

الخروج من المأزق :

لم يكن الخلاف مع غاندى أمرا سهلا فقد كان له منذ ظهر على مسرح السياسة تأثير السحر على الهنود جميعا حتى على الذين لا يهضمون آراءه ، الى حد أن بعضهم كان

---

(١) انظر ما كتبته فى الفصل الثالث عن الفرق فى حركة العصيان بين غاندى والمسلمين تحت عنوان " فرق بسيط ومهم " وما كتبته فى كتابى " كفاح المسلمين فى تحرير الهند فصل " حركة العصيان بين غاندى والمسلمين ".

يلغى نفسه وعقله ولا يلغى تبعيته لغاندى .. ومنهم رجال كبار فى الحزب مثل راجندر برشاد الذى تولى رياسة الجمهورية فيما بعد[1] .. وبعض الزعماء المسلمين فى الحزب أيضا ..

ولولا أن أزاد كان يتمتع بمكانة فى الحزب ، وبقدرة ماهرة فى السياسة ، وثقة كبيرة فى النفس ما استطاع أن يصادم آراء غاندى ، ويخرج عليها ، ويقترح طريقا غير طريقه .. ولكن اذا كان أزاد قد سار فى طريقه ، وجذب اليه الكثير من زعماء المؤتمر ، ومن ورائه الرأى العام تقريبا ، فان الخلاف داخل الحزب نفسه يضعفه كقوة وطنية ، ومن ناحية أخرى يضعف مركز غاندى وزعامته ، وقوة نفوذه أمام أعداء البلاد وليس هذا من مصلحة الهند فلا بد اذن من حكمة فى سياسة الأمور .. لقد وقف غاندى عند رأيه لا يتزحزح عنه ـ بالرغم من أنه يحس أن الرأى العام فى الهند لا يهضم رأيه ـ وان كان له مؤيدوه من زعماء الحزب . ومولانا أزاد لم يستطع ارغام نفسه على قبول رأى غاندى ، وتمسك هو الآخر بوجهة نظره ، ووراءه مؤيدوه فى الحزب وأغلبية الرأى العام . فما يكون الحل اذن ؟ وكيف الخروج من هذا المأزق ؟ .

هنا تظهر حكمة أزاد ، ولباقته كرئيس للمؤتمر وقائد له . حريص على تكتل الحزب ، وتكتل الأمة حوله فى هذه الظروف ..

عدعا الى انعقاد اللجنة التنفيذية للحزب فى يوليو سنة ١٩٤٠م ، وكان ثانى اجتماع برياسته ، وعرض الموقف كله على اللجنة ، وعرض عليها بعد الدراسة قرارين :

الأول : يقر بأن سياسة " اللاعنف " سياسة حكيمة ولها أثرها فى الجهاد من أجل تحرير الهند مع وجوب التمسك بهذه السياسة ..

الثانى : يقر أن الهند بوضعها واتجاهها تقف بعواطفها مع المعسكر الديمقراطى ، ولكنها لن تقر المساهمة فى الحرب مع هذا المعسكر الا اذا اعترفت بريطانيا بحريتها ..

وفرح غاندى كما فرح أتباعه فى اللجنة باقرار سياسة " اللاعنف " ، وكانوا يظنون فى بادئ الأمر أن أزاد بما يتمتع به من تأييد سيبعدها عن قرارات المؤتمر .. ويقتصر على تأييد

---

(١) وقد ألف كتابا عن الحركة الهندية بعنوان " عند تدمى غاندى " وترجم للعربية ؟

وجهة نظره .. ولذلك فرحوا ووافق الجميع على هذين القرارين .. وبعث غاندى برقية تهنئة لازاد ، لأنه استطاع أن يحمى فى اللجنة سياسة " اللاعنف " ولم يسقطها من الاعتبار .. وكان غاندى يساوره الخوف من أن فكرة أزاد بواقعيتها التى تجرف الرأى العام معها ستجعل أزاد يدير ظهره لغاندى وفكرته فى " اللاعنف " .

ولذلك فرح بما أقرته اللجنة وأرسل البرقية يهنئ أزاد على مقدرته فى الفوز من اللجنة باقرار سياسة اللاعنف مع أن اللجنة أقرت كذلك وجهة نظر أزاد التى يعارضها غاندى وأقرها كذلك أتباعه .

وبذلك عادت الوحدة لصفوف الحزب ، وبالتالى للرأى العام ، وشعر الجميع بالراحة للتخلص من هذا الكابوس .

ونعيد التنبيه هنا إلى أن هذا الخلاف فى الحقيقة كان مبنيا على أمر فرضى احتمالى ، وهو : اذا اعترفت بريطانيا بحرية الهند ، هل نقف معها فى الحرب ، أو نمتنع اتباعا لسياسة " اللاعنف " ؟ .

وكان الجميع يترقب موقف بريطانيا من هذه القضية : هل توافق ، أو ترفض ؟ ولو تبين الموقف من أول الأمر بالرفض لما كان هناك محل لهذا الخلاف .. وانصرف الجميع الى اتجاه واحد هو الكفاح الداخلى وعرقلة النشاط الحربى داخل الهند .. والتقى أزاد مع غاندى على طريق واحد واستراح الجميع من الخلاف . لكن بريطانيا لم تشأ أن تعلن رأيها ، وكانت قد جندت فعلا امكانيات الهند فى صالحها برغم أنف زعمائها .. فلماذا تتعجل بابداء رأيها ، وهى بارعة فى فن المماطلة والتسويف وكسب الوقت ، أو ترك المشاكل يحلها الوقت، أو تفعل فعلها فى تمزيق الحزب والأمة ..

على أن الاتفاق الذى تلاقى عليه أعضاء الحزب فى القرارين السابقين ، لم يدم طويلا ، فقد " ذهبت السكرة وجاءت الفكرة " كما يقال .. لقد فكر غاندى بعد فرحته هو واتباعه بقرار الحزب الخاص بهم — فكروا فى القرار الثانى ورأوا أنهم بالموافقة عليه قد أيدوا دخول الهند الحرب فيما لو ظفرت باعلان حريتها .. وهذا التأييد فى الواقع يخالف وجهة نظر غاندى ويبطل قضية " اللاعنف " أو ينقضها .. ولهذا لم يمض نحو شهر على هذا

الاجتماع حتى أرسلوا لرئيس المؤتمر ـ أزاد ـ يبلغونه وجهة نظرهم ، ويعرضون عليه استقالتهم من اللجنة التنفيذية ، أن دخلت القرارات فى دور التطبيق حين تعترف بريطانيا بحرية الهند !!

وبذلك عاد المأزق من جديد .. وشعر أزاد بالألم العميق لهذا الموقف ولكنه كرجل واسع الأفق ، قدر وجهة نظرهم ، وتقبل الموقف بهدوء ، لاسيما وشوقى ترقبه لموقف بريطانيا ، لم يجد ما يشير برجوعها عن غطرستها ، مما قد يؤدى فى النهاية الى ترك هذا الجدل حول فروض أو حلول مرتقبة . واتخاذ موقف عدائى حازم وموحد ازاء الحكومة ، فلم يشأ أن يترك الحزب ينفرط عقده ، وتضعف قوته أمام المستعمرين .

ولذلك رد عليهم أزاد ردا مطمئنا ، أفهمهم فيه أنه يدرك وجهة نظرهم تمام الادراك ويقدرها .. والتمس منهم أن يظلوا فى مواقعهم أعضاء فى اللجنة التنفيذية للحزب معه ، وبذلك عالج الموقف بالحكمة المعهودة فيه ، وجنب المؤتمر والبلاد شر الانقسام مرة ثانية .

يرفض مقابلة الحاكم :

وفى هذا الوقت أو فى أغسطس سنة ١٩٤٠ بالتحديد ، تلقى أزاد بصفته رئيسا للحزب دعوة من الحاكم العام لاجراء محادثات حول امكانية اشتراك الحزب فى حكم البلاد القائم على وجود مجلس تنفيذى واسع النطاق يخول اليه سلطات واسعة . يقول أزاد[1] " فبادرت الى رفض الدعوة حتى دون مراجعة أحد من زملائى واستشارتهم فى الأمر ، اذ ظهر لى أنه لم يكن هناك أساس مشترك بين مطالبة المؤتمر بالاستقلال ، وبين ما يعرضه علينا الحاكم من مجلس تنفيذى كبير .. فلم أر الاجتماع يعود بنفع ما ، ووجدت كثيرا من رجال المؤتمر لا يوافقون على قرارى واحتجوا بأنه كان من الأجدر أن البى دعوة الحاكم ، وأقابله وأتباحث معه . على أننى كنت ومازلت مقتنعا بأننى خطوت خطوة سديدة "

" وخلف هذا الحادث الخطير فى نفس غاندى أثرا يختلف تماما عنه فى أغلبية رجال المؤتمر ، فبعث لى بكتاب يؤيد فيه قرارى كل التأييد ، ورأى أن اباءى مقابلة الحاكم كان فضلا من الله تعالى ، فلم تقتض المشيئة الآلهية أن تساهم الهند فى الحزب ، لأن

(١) مذكرات حياته عدد يوليو ١٩٥٨ مجلة ثقافة الهند .

غاندى كان يخشى أن ينتهى الاجتماع الى تسوية تقود الهند الى الحرب ، ثم مالبث أن وجه نداء الى الشعب البريطانى وناشدهم مرة أخرى أن يتخلوا عن السلاح ، ويقاوموا " هتلر " بالقوة الروحية ولم يكتف بهذا بل قابل " اللورد لنلتهجو " الحاكم العام، وألح عليه فى أن يقبل وجهة نظره ويبلغها الى الحكومة البريطانية "

وأترك مولانا أزاد يقص علينا تفصيل ماجرى فى هذه المقابلة وماتبعها من شكوى غاندى له بعد أن ذكرتها من قبل اجمالا كشاهد على تفانى غاندى فى فكرته ، يقول أزاد :

((وما ان قال غاندى للحاكم العام ان واجب الشعب البريطانى هو التورع عن استخدام السلاح والاعتماد على المقاومة بالقوة الروحية ، حتى تملكت الحيرة " لورد لنلتهجو " واستغرب الاقتراح أشد استغراب ، واعتبره اقتراحا فوق العادة ، وكان من عادته دائما أن يدق الجرس ويبعث فى طلب ياوره ليذهب بغاندى الى سيارته ، وأما فى هذه المرة فلم يدق الجرس ولم يبعث فى طلب الياور ، فنهض غاندى وانصرف من عند الحاكم الحائر المدهوش ، واضطر الى أن يتلمس الطريق بنفسه الى سيارته ، ولما قابلنى غاندى ذكر لى ما جرى ، وأعرب عن حيرته وألمه لأن الحاكم ذاته أن يقوم بالمجاملة المعتادة ، فقلت له على الفور ان الحاكم أخذته الدهشة من اقتراحك حتى ذهل عن أدبه المعتاد ، فأغرق غاندى فى الضحك لما سمع منى هذا التعليق " (1)

بريطانيا تقطع حبل الجدل :

ولقد كانت العروض التى عرضها الحاكم ، وكان رفض أزاد لمقابلته على أساس هذه العروض لعدم جدواها فى نظره ، علامة على بدء تحول فى الموقف ، وعلى أن عواصف توشك أن تهب على أرض الهند ..

فقد ساعد موقف بريطانيا المتصلب ، وعدم نظرها فى طلب الهند ، ولو بوعد ينفذ بعد الحرب ، أقول ساعد هذا الموقف على أن يدب اليأس فى قلب أزاد ومن يناصرونه فى موقفه ، وبالتالى ساعد على قطع حبال الجدل بين رجال المؤتمر حول نظرية غاندى ، ونظرية أزاد .. فقد كان الوقت يمر ، وبريطانيا مصممة على موقفها ، وليس من مصلحة الحزب

(1) ص ١٤ من مجلة ثقافة الهند عدد يوليو سنة ١٩٥٩ مذكرات حياته .

ولا من مهمته أن يظل مشغولا بقضايا فرعية تكاد تتحول أو تحولت فعلا الى مناقشات بيزنطية أوجدت خلافا داخل الحزب .

لذلك رأى مولانا أزاد ألا داعى لاستمرار هذه المناقشات ، وبقاء معسكرين فى المؤتمر وأن الواجب يحتم عليهم ازاء موقف بريطانيا وأعمالها أن يتحركوا ويتخذوا موقفا جديدا غير السكوت والجدل اللذين طالا كل هذه المدة ..

حركة عصيان واعتقالات :

ولم يكن هذا الموقف مما يستدعى تفكيرا طويلا ، فالعصيان المدنى أو المقاومة السلمية من عدة الهند فى جهادها وسعيها للتحرر ، وقد عرفتها البلاد ومارستها .. ولهذا اتجهت الأنظار اليها رأسا .. كان العصيان هو السلاح الذى يضعه غاندى والشعب معه على الرف حتى اذا احتاجوا اليه استعملوه ..

وكان من الطبيعى أن يكون واردا على الأذهان عند كل أزمة ، ولذلك أثاره الحزب قبل ذلك فى أوائل سنى الحرب " وقرر فى دورته السنوية المنعقدة فى " رام گره " ، فى ولاية " بيهار " فى مارس سنة ١٩٤٠ برئاسة مولانا أبوالكلام أزاد ، قرر أن العصيان المدنى هو الطريقة الوحيدة الباقية ، ومع ذلك تحاشى اتخاذ أية خطوة ايجابية فى ذلك الحين وطلب من الشعب أن يستعد له " (١)

واذا كان المؤتمر قد أصدر القرار فى ذلك الوقت وأوقف اتخاذ الاجراءات لتنفيذه ، فان ذلك كان لأمل يداعب الزعماء فى استجابة بريطانيا لعروضهم ، أما وقد انقطع الأمل فلابد من استعمال هذا السلاح .. وتلاقى على هذا زعماء المؤتمر جميعا وفى مقدمتهم غاندى وأزاد .

غير أن غاندى رأى أن يكون الهدف من العصيان المدنى هو الاحتجاج على سوق الهند الى الحرب ، وبذلك يعلنون تبرؤهم من آثام هذه الحرب ، ثم يقدمون أنفسهم للاعتقال ..

أما أزاد فقد رأى أن حركة مثل هذه لابد أن يكون هدفها أوسع مما يريد غاندى

(١) ص ٣٣٤ من كتاب " من السجن الى الرياسة — لنهرو .

فيشتمل على الاحتجاج على سوق الهند للحرب ، والمطالبة بحريتها ..

وتقديرا للظروف التى تجتازها البلاد رأى أزاد أن من الحكمة أن تبدأ المقاومة فردية فلا تتخذ شكلا جماعيا يتيح للحكومة أن تصول وتجول ..

وبدأت الحركة الفردية ببعض زعماء المؤتمر .. لكنها سرت فى البلاد كالبرق فتحولت الى حركة شاملة للمقاومة السلمية الفردية دون حدوث تجمعات ..

ولم تكن الحكومة لتطيق هذه الحركة أو تصبر عليها والحرب قائمة ، فعملت بكل طرقها للقضاء عليها ، وقبضت على الزعماء ، وعلى رأسهم مولانا أزاد ونهرو وألقت بهم فى غياهب السجون فى أكتوبر سنة ١٩٤٠ وقد قبض على أزاد وهو راجع من الاشراف على الحركة فى ولاية "بنجاب"(١) وحكم عليه بالسجن سنتين ..

أزاد يتولى المفاوضة مع الانجليز :

ولكن فى سنة ١٩٤١ وقع تبدل كبير وخطير فى مجرى الحرب ، حيث هجم الألمان على الاتحاد السوفيتى فى يونيو ، ثم بعد شهور وفى نهاية السنة حدث الهجوم اليابانى المفاجىء على أسطول الولايات المتحدة فى ميناء اللؤلؤ "بيرل هاربر" واتسع بذلك نطاق الحرب حتى امتدت الى الشرق الأقصى وأصبح للهند وضع جديد أمام هذه الحالة .. فاليابان تضرب وتنجح ، وتزحف بسرعة .. حتى اقتربت من الهند .. والولايات المتحدة لابد لها أن تقف ومعها حلفاؤها فى وجه هذا الزحف ، وليس من مصلحتهم أن تبقى الهند بثقلها فى هذا الوضع القلق الذى يعرقل بلا شك جهود الحلفاء فى الحرب .. فلا بد – اذن – من اتخاذ خطوة تهدىء من هذا الوضع .. والانجليز قوم بارعون فى وضع الرذاذ على النار .

ويظهر أيضا أن انجلترا أرادت بذلك من ناحية أخرى أن ترضى الولايات المتحدة التى أصبحت تتولى العبء الأكبر فى الحرب . والتى تتوق الى الاستفادة من تعاون الشعب الهندى لصد الزحف اليابانى .

---

(١) تقع فى شمال الهند وهى الآن مقسمة بين الهند وباكستان الغربية وتسمى منطقة الانهر الخمسة لان بنج أو بنغ " معناها خمسة و "آب" معناه نهر وهى منطقة خصبة .

أو كما يقول أزاد نفسه فى مذكراته :

" لما دخلت اليابان الحرب اضطرت الولايات المتحدة الى أن تواجه مسئوليـــة الحرب مباشرة ، وكانت الى ذلك الحين تشير على الحكومة البريطانية بأن تتصالح مع الهنـــــد ، أما الآن وبعد دخول اليابان الحرب فقد تضاعفت من الحاحها على بريطانيـا بأن تســـوى مشكلتها مع الهند حتى تحصل على تعاونها ، وكما عرفنا فيما بعد ، اسرع " المستر روزفلت " أثر الهجوم اليابانى ، فطلب من الحكومة البريطانية أن تسترضى الزعماء الهنود وتتصالـــح معهم ، ولم يكن لهذه الحكومة أن تتجاهل هذه الطلبات فأرادت أن تغير موقفها السياسى " .

ولهذا قررت بريطانيا أن ترسل الى الهند أحد كبار رجالها البارزين المشهود لهـــم فى ذلك الوقت بالبراعة السياسية والدبلوماسية وهو سير ستافورد كريبس " .

واذا كان " كريبس " سيصل الى الهند فمن يتفاوض معه والزعماء فى السجون ومنهـم رئيس المؤتمر مولانا أزاد المتحدث باسم الحزب ؟

لهذا قررت حكومة الهند الانجليزية اطلاق سراحه مع جواهر لال نهرو فى ديسمبر سنـة ١٩٤١ قبل أن يكملا المدة المحكوم بها عليهمـــا ..

يقول أزاد : " ومهما تكن نوايا الحكومة نحو حزب المؤتمر فلم يكن بد أمامها مـــن اطلاق سراحى ، فان اللجنة التنفيذية لا يمكنها أن تعقد جلساتها مادمت أنا — رئيـــس المؤتمـر — فى المعتقل . "

ويقول : " ولم أضيع الوقت بعد خروجى من السجن ، فدعوت اللجنة التنفيذية الـــى الاجتماع ، ونظرا لأن غاندى فى تلك الأيام كان مقيما فى قريـــة " باردولى " عقدنا الاجتماع فى القرية نفسها تلبية لرغبته ، وزرت غاندى ، وسرعان ما شعرت بأننا زدنا اختلافـا فى وجهة نظر فان الاختلاف لم يكن فى بادئ الأمر الا فى المبادئ بينما وجدت الآن أننا نختلـف فى دراسة الموقف أيضا : فقد لمست من غاندى أنه مطمئن الى أن الحكومة مستعدة للاعتراف بحرية الهند اذا تقدمت الأخرى بكل مساعدة ممكنة " فى الجهود الحربية " ، أما أنـــا فكنت ارى — بعد دراسة الموقف — أن الحكومة البريطانية وان كانت فى غاية التطلع الـــى معاونتنا الا أنها لم تكن مستعدة للاعتراف بحرية الهند مادامت الحرب ناشبـــة .. " .

كان غاندى متفائلا يظن أن الموقف الجديد فى الشرق الأقصى سيحمل الانجليز على الاعتراف للهند بحريتها ، أما أزاد فلم يكن يرى هذا الرأى بل كان يرى أن غاية ماتقدمه بريطانيا فى هذه الظروف هو تشكيل مجلس تنفيذى تخول اليه سلطات واسعة — كما كان يعرض الحاكم العام من قبل حين رفض أزاد مقابلته والاستماع الى عرضه — أما منح الهند حريتها فلا ..

وهذه مسألة جانبية فى التفكير ، ولكل منهما رأيه .. لكن الظروف والوقائع فيما بعد برهنت على صدق نظرة أزاد .. وسنرى ذلك فى مفاوضات كريبس ..

مؤتمر صحفى :

وكان أزاد حين خروجه من السجن قد ذهب الى كلكتا ودعا الى مؤتمر صحفى .. ولما سأله الصحفيون عما اذا كان حزب المؤتمر راغبا فى تغيير سياسته نحو الحرب أجاب :

" ان ذلك يتوقف على موقف الحكومة البريطانية ، فان غيرت موقفها فسيغير المؤتمر كذلك موقفه فان موقف المؤتمر ليس عقيدة من العقائد التى لا تقبل تغييرا "

وعندما سألوه عما سيقوم به الهنود اذا هاجمت اليابان الهند ؟ قال فى صراحة " ان الهنود سيلجئون الى السلاح ، ويدافعون عن بلادهم ، ثم استدرك على ذلك فقال : " لكنا لن نقوم بمثل هذا العمل الا اذا تحطمت القيود التى تشل أيدينا والاغلال التى تكبل أقدامنا .. والا فانى لنا أن نحارب وأيدينا مغلولة وأقدامنا مكبلة ؟ " .

وكان أزاد فى تعبيره عن وجهة نظره الدائمة فى غاية الحصافة السياسية ، فان انجلترا ومن ورائها الولايات المتحدة يعلقان أملا على اشتراك الهند فى الحرب بكل قوتها الوطنية اذا هاجمتها اليابان دفاعا عن أرضها ، وذلك كسب كبير للحلفاء ، قد يتكلون عليه فلا ينظرون نظرة جدية لمطالب الهند .. ولا يسعون لارضائها حتى تعاونهم ضد اليابان ..

ولهذا كان أزاد فى غاية البراعة فى مناورته السياسية هذه حين صرح بأن الهند لا يمكنها أن تقف أمام اليابان ما دامت مقيدة بسلاسل الاستعمار وذلك هو شأن الزعماء المحنكين .

عودة الخلاف بين أزاد وغانـــدى :

لكن هذا قد أثار الخلاف من جديد بين القطبين ، فحين اجتمعت اللجنة التنفيذية كان عليها أن تناقش الموقف على ضوء ما جد من أمور . فالمفاوض البريطاني قادم للمفاوضـــة ولابد من تكوين رأى ، وتحديد مطالب يقف عندها المفاوض الهندى .. " ودامت المناقشة يومين حول الموقف الذى يجدر بالمؤتمر اتخاذه بيد أننا لم ننته الى قرار متفق عليه ، ومازال غاندى متمسكا برأيه القائل بأن " اللاعنف " عقيدة من العقائد التى لا يباح لنا أن نرتـــد عنها مهما تكن الظروف ، وكانت نتيجة اصراره أنه لم يصادق على مساهمة الهند فى الحـــرب سواء نالت بذلك حريتها أم لم تنلها . أما أنا فرددت رأيى السابق وأكدت بأن الأجـــدر بالمؤتمر أن يركز اهتمامه على حريـــة البلاد لا على اعتبـــار " اللاعنـــف " قضيـــة راسخـــة " يتخلى عنهـــا " (١)

ولم يكن هذا الخلاف جديدا كما هو معروف ، وكان مولانا أزاد يدرك — كما كـــان غاندى يدرك كذلك — أن الرأى الذى يتمسك به أزاد هو الرأى الذى يلقى قبولا عاما ، لأنه يضع الحرية كشرط للموافقـــة على دخول الحرب ، والهند كلها تجاهد من أجل الحرية لا من أجل قضية اللاعنف ، التى يتترس بها غاندى ، أو يتعبد لها فى صومعته .

لذلك كان الموقف واضحا أمام الذين سيتولون المفاوضات ، وكانت شروطهم تعبر عـــن رأى الهند حقيقة .. اذ لم يكن من الطبيعى لشعب يطلب حريته ، أن يتناساها فى غمـــرة تبعيته لمبدأ غاندى ، ويسير وراءه مثلا فى وجوب مقاومة هتلر بالقوى الروحية لا بالسلاح !!

ستافورد كريبـــس :

وأرى من الضرورى أن نعرف شيئا عن الشخصية التى اختارتها بريطانيا لتفاوض باسمها، وتتولى حل أعقد مشكلة تجابهها وهى مشكلة الهند ، والتى سيفاوضها مولانا أزاد .

لم يكن هذا الرجل غريبا على الهند وعلى مشكلتها ، فقد زارها من قبل أثناء الحرب زيارة ودية — كما يقال — واجتمع برجالها ، وفى مقدمتهم مولانا أزاد بوصفه رئيسا للمؤتمـــر وأجرى كريبس معه محادثات ودية لحل المشكلة ، أكد له فيها أزاد أن الشعب وأغلبيـــة

(١) من مذكرات أزاد فى كتابه " الهند تفوز بحريتها " ص ٨٥ من الترجمة المنشورة بمجلة ثقافة الهند عدد أكتوبر ١٩٥٩ .

المؤتمر سيوافقون على رأيه في الاشتراك في الحرب اذا قبلت بريطانيا اعطاء الهند حريتهـا واستقلالها ..

وبعد أن غادر كريبس الهند بعث الى مولانا ازاد برسالة ضمنها خلاصة المباحثات التي جرت بينهما وصرح فيها ان بريطانيا ستبادر الى اعلان عاجل بأن الهند ستنال حريتها بعد الحرب .. الخ .

وتلقى ردا من مولانا أزاد ضمنه رأيه في الرسالة وما جاء فيها ، لا يعنينا هنا أن نذكر تفاصيلها ، بقدر ما يعنينا أن أزاد اكد في رده تعهد الهند بوعدها اذا نالت استقلالها ..

ولم يلبث كريبس أن صار سفيرا لبريطانيا في موسكو ـ وعرف في ذلك الوقت أن لـه الفضل الأكبر في التقارب الذي حصل بين الدولتين الكبيرتين ، وأنه بدهائه كان من [illegible] الصدام بين ستالين وهتلر ولا زلت اذكر الهالة الضخمة التي كانت تحيط في ذلك الوقـت بهذا الرجل ودهائه وقدرته السياسية والدبلوماسية لدى الرأي العام العالمي أثناء الحرب العالمية الثانية ، اذ كان ينظر اليه ان صوابا وان خطأ على أنه الساحر الانجليزي الذي يحل المعضلات ، ويطوى رجال السياسة تحت ابطه . فقد استطاع بدهائه أن يوقع بـين الدولتين ، ويجر روسيا للصدام مع ألمانيا ذلك الصدام الذي كان ـ ولا زال ينظر اليـه [illegible] أنه الذي وضع حدا لبساط الريح الذي كان يركبه هتلر وقواته في غزو البلاد وسحقها .. في وسط هذه الهالة العظيمة التي كانت تحيط بالداهية الانجليزي والتي نسجتها الدعاية [illegible] في جميع أنحاء العالم أعلنت بريطانيا في ١١ مارس سنة ١٩٤٢ أن كريبس سيذهب الـى الهند للتفاوض مع زعمائها في حل مشكلتها . فمن ذلك الساحر الهندي الذي سيلعـب مع هذا الساحر الانجليزي الداهيـة ؟ .

لم يكن الساحر الهندي هذه المرة غير آزاد الذي تسلم دفـة الحركة الوطنية الهنديـة منذ بدأت الحرب ، وقاد السفينة بمهارته وحنكته وبعد نظره ..

لم يكن هذه المرة " غاندي " الذي قال أمير الشعراء أحمد شوقي في تحيته له قبـل ذلك سنة ١٩٣٠ عند ذهابه لمؤتمر المائدة المستديرة في لندن ومروره بمصـر :

وقل هاتـوا أفـاعيكـم ∴ أتـى الحـاوي من الهنـد

فغاندى فى ظروف هذه الحرب فى الهند لم يكن ساحرها الذى يلقى المحسـرة الانجليز وينازلهم ، بعد ما انعزل عن هذه الظروف فى معبد " اللاعنف " ولم تكن المفاوضات واردة فى منهجه أصلا خوفا من نتائجها ، وان كنت أعتقد أنه حتى بانعزالـه وتمسكه بمبدئه ، قد أعطى المفاوض الهندى قوة أمام المفاوض الانجليزى • فالمعارضة من طبيعتها أن تكسب المفاوض قوة أمام خصمه الذى يفاوضه ،وتتيح له فرصا من النجاح ••

فغاندى له منزلته وتأثيره فى الشعب فاذا خطى غيره نحو المفاوضة خطوة ليتلاقى مع الانجليز فى نقطة مشتركة فليس من مصلحة الانجليز كما يبدو للعقل أن يحطموا ذلك الذى خرج على رأى غاندى ليتلاقى معهم • فيغلقوا الأبواب كلها أمامهم ••

بدء المفاوضـات :

ولقد كانت هذه المفاوضات محكا لقدرة المفاوض الهندى وخبرته ، ومهارته واتسـاع أفقـه ، واخلاصه لقضية وطنه ، أمام مفاوض انجليزى داهية مثل كريبس سبقته شهرتـه الدبلوماسية وبراعته فى المحاورة والمداورة وكسب المواقف لبلاده ، فماذا كان نصيب أزاد من هذا كله ؟ ولهذا أوثر أن أعرض بعض التفاصيل التى تلقى أضواء على هذا القائد المحنك — أزاد — وأن أترك صاحبها نفسه يعرضها كما عاشها تحريا للدقـة فى العرض — يقول :

" كنت فى بلدة " واردها — عند ما أخبرنى الحاكم تلغرافيا بأن المجلس الحربى قرر ارسال السير ستافورد كريبس فى مهمة الى الهند ، فلا بد من حضورى الى دلهى للمباحثة فى المقترحات التى يحملها كريبس لتسوية المسألة الهندية ،فقبلت الدعوة وأبرقت الـى الحاكم بحضورى ••

ثم يقول :

" وكان اللقاء الأول بينى وبين كريبس فى الساعة الثالثة من مساء ٢٩ مارس سنة ١٩٤٢ وكان قد أعد بيانا يتضمن مقترحاته •• وسلم الى البيان قائلا بانه مستعد للمباحثة فى هذه المقترحات ، وشرحها شرحا وافيا ان احتـج الى ذلك ، ونظرت الى البيان فاذا هو يقترح تشكيل مجلس تنفيذى جديد للحاكم العام من المؤتمر الوطنى والهيئات الأخرى ، وتتعهد بريطانيا بأنها ستوجه عنايتها للمسألة الهندية بمجرد انتهاء الحرب • "

ويستمر أزاد فى عرض ما دار بينه وبين كريبس فى المقابلة الأولى التى انتهت كما يقول " الى تفاؤل متبادل " ثم يقول " ودعوت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الى الاجتماع فى مساء اليوم نفسه (٢٩ ابريل) ، وظل اجتماعها مفتوحا حتى ١١ من ابريل وعرضت عليها المقترحات ، وأخذت فى دراستها من جميع نواحيها المختلفة .. وخالف غاندى منذ البدء ، ورفض قبولها ، لنفوره الراسخ غير المتبدل من كل أمر يسوق الهند الى الحرب ، فكل أمر يسوقها الى المساهمة فى الحرب لا يوافق عليه غاندى ، مهما يكثر ربحه ونفعه للهند !! وبجانب ذلك لم يرقه الجزء الأخير من العرض البريطانى الذى قال : بأن المؤتمر والرابطة الاسلامية سيتاح لهما بعد الحرب فرصة لتسوية المسألة الطائفية " .

ولقد كانت الرابطة فى ذلك الوقت تتبنى فكرة تقسيم الهند الى دولتين : اسلامية وهندوسية ، بينما كان غاندى وحزب المؤتمر كله يرفض هذه الفكرة ولا يحب المناقشة حولها ، ويركز كل همه على حرية البلاد ونقل السلطة اليها ، ثم هى التى تتولى بعد ذلك علاج مشكلاتها الداخلية الطائفية وغير الطائفية ، ومن هنا كذلك كان قلق غاندى ورفضه لمقترحات كريبس التى أعطت الرابطة الاسلامية مكانتها فى علاج المشكلة الطائفية ، وقد اعتبر حزب المؤتمر وفى مقدمته أزاد أن ذلك أسلوب من أساليب الانجليز المعروفة " فرق تسد " واستغلال غير حميد للخلاف الطائفى لكى يثبت المستعمر أقدامه فى البلاد .

وقد عرض أزاد لموقعة طريفة نرى أن نسوقها هنا فقد حدثت عند مقابلة كريبس لغاندى ، أن أخذ كريبس يذكر غاندى بزيارته الأولى للهند ، وبالمذكرة التى أرسلها أزاد ردا على مذكرته ، والتى قبل فيها المؤتمر تهنيد المجلس التنفيذى للحاكم مادامت الحرب مستمرة مع شرط الاعتراف بحرية الهند بعد أن تضع الحرب أوزارها .. وقال له : ان المقترحات التى يحملها لا تختلف اختلافا جوهريا عن تلك المذكرة .

" فقال غاندى له : أنه لا يذكر عن المذكرة شيئا ، وكل ما بقى فى ذاكرته عن لقائه فى زيارته الأولى هى بعض المباحثات فى أكل الخضار !! فقال كريبس معلقا على هذا : أنه لسوء الحظ من هذه الناحية فان غاندى يذكر حديثه عن الخضار ، ولا يذكر المقترحات التى

أعدها بكل جهد وكد بعد استشارة غاندى نفسه !! ثم ان غاندى حذر كريبس مازحا من ان أبا الكلام يقدم له حبلا طويلا ، فعليه "كريبس" أن يبقى على حذر منه ، فأجاب كريبس أنه على علم تام بأن الحبل الذى يرخيه ابوالكلام له يكفى لشنق الأول[1] !!

استمرت المفاوضات أياما وامتد اجتماع اللجنة التنفيذية من ٢٩ مارس الى ١١ ابريل سنة ١٩٤٢ وخلال هذا الاجتماع الطويل كرست نشاطى كله للجنة كما كنت بعد اليوم الثانى من ابريل اقابل كريبس كل مساء تقريبا ، واصطحبنى جواهر لال نهرو فى معظم هذه الاجتماعات "

" ونظرا لما طرأ على المفاوضات من تأخر ، ولما أرادته اللجنة من بعض الاستفسارات " زرت كريبس فى مساء ١١ ابريل وكان هذا الاجتماع فاصلا حاسما استمر نحو ثلاث ساعات تبين لى فيه بصورة قاطعة أن الموقف قد أصيب بتغيير جوهرى ، بعد مقابلتى الأخيرة مع ضيفى حيث وجدت اجابات ملتوية مصبوغة بصبغة تختلف عما وجدت فى لقائى الأول ، وذكرت ذلك للمستر كريبس ، وأخذ هو يحاول اقناعى بأن موقفه لم يتغير .. " !!

" وكنت عندما علمت بزيارة كريبس قد بعثت الى جميع الأعضاء فى اللجنة التنفيذية ألا يزوروه فرادى ، تفاديا من أن تفضى هذه المقابلات الفردية - كما هو الغالب - الى التشويش وسوء التفاهم ، وقلت بأن العضو الذى يرغب فى زيارته لغرض ما عليه أن يخبرنى مقدما "

" واشتكى كريبس بأنه استطاع فى رحلته السابقة الاجتماع بكثير من أعضاء اللجنة بينما وضعت العراقيل هذه المرة دون هذه الزيارات ، وأعضاء اللجنة جد مهتمين بأوامر الرئيس ، حتى لا يعرب أحدهم عن رأيه ان وجدت فرصة للاجتماع فى حفلات عامة ، وهذا مخافة انكار رئيس المؤتمر ، فقلت له : ان منظمة مسئولة تقوم بالمفاوضات مع الحكومة لا تتحدث الا بواسطة ممثليها المعتمدين ، وقد عهدت المنظمة هذه المسئولية الى رئيس المؤتمر ، فلا يجدر بالاعضاء الآخرين أن يفاوضوا فرادى ، ثم سألت "كريبس" عما اذا كان يريد الاجتماع

---

(١) ص ٨ مجلة ثقافة الهند ابريل سنة ١٩٦٠

بأحد من الأعضاء لسبب ما ، لأتخذ الترتيبات اللازمة لهذه المقابلة[1] "

صورة اردت ايرادها هنا لأن لها دلالتها على شخصية أزاد ، وتمكنه من الموقف ، ومن قيادة السفينة قيادة سليمة حازمة .

نتيجة المفاوضات :

والى هنا اكتفى بعرض بعض التفاصيل كما رواها أزاد ، لأنتهى الى نتيجة هذه المفاوضات .. فقد قررت اللجنة أن مقترحات الحكومة البريطانية على وضعها الحالى لن تقبل .

وتبادل أزاد وكريبس بعض الرسائل ، وكل منهما يبرر موقفه ، ويشرح وجهة نظره . وقد نشرت هذه الرسائل على الشعب ، كما عقد أزاد مؤتمرا صحفيا رد فيه على ما ورد في بعض الصحف من تحميل غاندى مسئولية اخفاق المفاوضات ، وقال ان وجهة نظر غاندى معروفة ، ومع ذلك سرنا في المفاوضات ، ولم يكن له أى تأثير فيما اتخذته اللجنة من قرار أخير ، فقد أعلن غاندى لأعضاء اللجنة أنهم احرار فيما يذهبون اليه ، وزهد في حضور اجتماعات اللجنة ، ولم يرض بالمكث بيننا بعض الأيام ، الا تحت الحاحى ، وأخيرا شعر بأنه لم يعد يسعه المكث فتركنا " .

وهكذا اخفقت المفاوضات بعد ما حاول الساحر الانجليزى أن يخدع الساحر الهندى ، ولكن الهندى كان أبرع وهو يدرع بحق بلاده في الحرية ، وفى مباشرة أبنائها ، باشتراكهم اشتراكا فعالا في حكم البلاد ، وبقى الموقف بعد المفاوضات كما كان قبلها : المؤتمر لا يوافق على مساعدة بريطانيا في الحرب ، مالم تعترف الأخيرة بحق الهند في الحرية وفى مساهمة أبنائها في تسيير دفة الحكم في البلاد ..

*
* *

ولقد كان هذا الموقف الذى وقفته لجنة الحزب هو الذى يتمشى مع رأى مولانا رس الذى وقف دونه موقفا صلبا ، يريد تحديد الأمور دون غموض ولا ابهام ، ويريد اشتراك الهنود في حكم البلاد فعلا أثناء الحرب ، لا أن يكونوا أصناما صماء بجوار الانجليز ،

(١) ص ٨٨ مجلة ثقافة الهند ابريل سنة ١٩٦٠ .

ويرى فى قبول بريطانيا ذلك دليلا على حسن نواياها ، وعلى صدقها فى وعدها باعطاء الاستقلال .. أما مجرد الوعد بالحرية ، دون أن يكون هناك دلائل من أعمال الانجليز تعين على الثقة بهذا الوعد فأمر جرب كثيرا ، حين كان المستعمرون يسرفون فى الوعود وقت الحرب حتى اذا انتهت نكثوا بكل عهودهم ..

ذلك كان موقف أزاد . وتلك وجهة نظره — عبر عنها فى هذا الحديث الذى أدلى به لمندوب جريدة نيوز كرانيكل : " كانت مسألة استقلال الهند عندى أهم من أية مسألة أخرى . صحيح أننى أوثر الديموقراطيات على الفاشية ، الا أنه لم يغرب عن بالى أن مزاعم ودعاوى الديموقراطيين كلها جوفاء فارغة ، مادامت المبادىء الديموقراطية لاتطبق فى الهند ، كما لم يغب عن فكرى سير الحوادث منذ الحرب العالمية الأولى ، وكانت بريطانيا اذ ذاك قد صرحت بأنها تحارب الاستعمار الألمانى ملصيانة حقوق الشعوب الصغيرة ، ولما دخلت الولايات المتحدة الحرب أعلن رئيسها " ويلسون " مبادئه المشهورة ، ومنها أن لكل شعب الحق فى تقرير مصيره ، على أن مزاعمه هذه لم تكن مشفوعة باحترام ما لحقوق الهند ، كما لم تطبق هذه النقاط على قضية الهند فى وقت من الأوقات . ومن ثم شعرت بأن المزاعم والدعاوى التى يعلنها المعسكر الديمقراطى كلها فارغة جوفاء لاتوجه لقضية الهند اهتماما جديا " (ص ٥٢ اكتوبر سنة ١٩٦٠ مجلة ثقافة الهند) .

وبهذا المنطق رد أزاد على الذين اتهموه بالتشدد ، وألقوا عليه تبعة فشل المفاوضات سواء أكانوا من المستعمرين[1] وصحفهم ، أم كانوا من صفوف الشعب الهندى ، فان من الطبيعى أمام عروض الحرية مثلا أن تختلف وجهات النظر ، وأن يثير بعض ضعاف النفوس أو بعض الذين ليست لهم نظرة شاملة على قضية الهند ، أو بعض الذين يميلون الى الحلفاء ، ويحبون أن يسيروا معهم مدفوعين بحسن النية الى تصديقهم فى وعودهم ، اقول من الطبيعى أن يثير هؤلاء كلاما حول فشل المفاوضات وكل منهم يدلى بوجهة نظره ،

---

(١) يقول نهرو فى كتابه من السجن الى الرياسة ص ٣٥٣ : عاد كريبس الى انكلترا بطريق الجو ، وأدلى بأقوال كانت مخالفة للوقائع ، وأحدثت استياء كبيرا فى الهند .

وكأنه السياسى الكبير والقائد الماهر والغيور الذى ليس له نظير ، محملا مولانا أزاد ولو شيئا من مسئولية فشل المفاوضات .. ومثل هذا وان كان يحدث عادة بعد فشل المفاوضات فى أية أمة من الأمم . لكنه يحدث خللا فى صفوف الشعب المتراصة خلف حزب المؤتمر ، بل قد يحدث بين رجال المؤتمر أنفسهم ذلك الخلل ، فيكون الفشل المرير ، وتكون انجلترا قد كسبت بذلك كسبا عظيما ، كما جربنا ذلك منها فى تاريخنا معها .

لذلك بادر أزاد بحركة التفاف حول هذه الآراء ليقطع خط الرجعة عليها وعلى المستفيدين منها ، وعلى الذين يحسنون الظن بوعودها حتى من بين الوطنيين المخلصين ..

موقف نهرو :

فلقد كان نهرو نفسه من الميالين لقبول مقترحات كريبس مدفوعا بحسن ظنه فى الانجليز وحبه للديموقراطية وعدائه للفاشية . ونهرو ليس رجلا عاديا فى الحزب ، وكان فى أكثر المواقف يؤيده مولانا أزاد حتى ضد غاندى .. فاذا جاء فى هذا الموقف وكان له هذا الاتجاه فان الأمر يكون جد خطير ، ولا سيما لدى مولانا أزاد .. الذى بدأ وكأنه يحمل على كاهله وحده عبء الاستمساك باستقلال الهند غير مخدوع بالوعود ..

ونترك له الكلام فى هذا الموقف :

" ذات مساء زارنى جواهر لال نهرو ، وتحدثنا فى القضية ، وتجلى لى بعد هذا الحوار أن نهرو يوافق على قبول المقترحات ، ولو لم يحدث تغيير فى موقف بريطانيا ، وكانت حجته أن ما يعطينا " كريبس " من ضمانات مشجعة ، من شأنها الا نتردد فى قبولها ، وأزعجنى هذا الحديث ، ولم أنم ليلتها حتى الثانية صباحا ، ثم لم ألبث بعد أن استيقظت صباحا أن توجهت الى نهرو وتناقشنا لأكثر من ساعة ، وكاشفته بأن اتجاهه هذا يعارض أهم مصالحنا ، فاننا اذا اكتفينا بتشكيل مجلس تنفيذى لا سلطة فيه للهنود ، فمعناه أن جل ما نتلقاه من " كريبس " لا يزيد على وعد بعد الحرب ، وفى الظروف الحاضرة لا يكاد هذا الوعد يوزن بشئ ، ونحن على استعداد للمشاركة فى الحرب كدولة حرة ، ولكن لا يعطينا عرض كريبس من هذه الناحية شيئا ، ونحن ان قبلنا عرض كريبس الآن فمعناه أن قراراتنا ومواقفنا السابقة كلها كانت خطأ ، على أننا لم ننل شيئا بهذا العرض ، وأن اخلفت بريطانيا وعدها

بعد الحرب فمن الصعب بدء كفاح جديد ، فالحرب هي الفرصة التي تتيح للهند أن تكسب حريتها ، فلا يليق بنا أن نضيع هذه الفرصة معتمدين على المواعيد "

" وكان جواهر لال خائر النفس شديد الكآبة من سير الحوادث ، والظاهر أنه كان لا يدرك حتى موقفه كما يحق له ، وقد جعله هذا الصراع الفكري مخذولا حائرا ، واجمـا لحظات ثم قال لي : لا أريد مطلقا أن أحكم على الأمور طبقا لنزعاتي الخاصة فاياكم وأن تشكو من هذه الناحية ، وسيكون موقفي هو موقف زملائي " .

ثم يضيف أزاد الى هذا قوله : " ومن طبيعة جواهر لال أنه يتكلم في منامه كلما استحوذ القلق على فكره ، ويحلم بكل ما يقلق باله ويشغله ، ولما خرجت من عنده اخبرتني السيدة " راميشوري نهرو " بأن " جواهر لال " يتكلم في منامه منذ يومين متتاليين ، كأنه يناقش ويباحث ، فيتكلم احيانا بصوت عال ، ويخفض صوته حينا آخر ، وأضافت بأنها سمعت خلال كلامه في نومه اسماء " كريبس ، وغاندى ، وابو الكلام ، وكان كلامها هذا أوضح شاهد على الأفكار والنظريات المتصارعة التي كانت تهاجم جواهر لال حينذاك (ص٤٥ اكتوبر ٦٠ مجلة ثقافة الهند)

أوردت هذا النص بتمامه هنا لأبين ضخامة المسئولية التي كان أزاد يتحملها من أجل موقفه لتحقيق الحرية لبلاده حسبما يرى .. فغاندى موقفه معروف ، ونهرو في داخـل نفسه صراع ويميل الى قبول المقترحات التي رفضها أزاد ، فيتحمل أزاد عبء اقناعه ليتخلى عن موقفه ، حتى استجاب له بالسكوت ، وهذا كله ليس بالأمر السهل .. ولكن أزاد تحمله وقاد وحده سفينة المؤتمر والبلاد الى التمسك بالاستقلال ونقل السلطة الى حكومة وطنية من الهنود ..

وهذا كاف للافصاح عن عظمة هذا الرجل وعن دوره العظيم الذي كان يؤديه لبلاده في أحلك الظروف التي كانت تمر بها .. ثم كان وحده يسير ويقود ، لا غاندى ولا نهرو .. وسارت الأمة كلها وراءه ..

فقد دعا الحزب للاجتماع ، ليعرض عليه نتيجة المفاوضات فاجتمع في ٢٩ ابريل سنة ١٩٤٢ وسرد لهم المقترحات ، وما فيها من غموض وبعد عن آمال الهند في الحرية ، وصدر قرار الحزب

بالموافقة على القرار الذى اتخذ بشأن المفاوضة مع تفويض اللجنة التنفيذية فى اتخاذ أية خطوة تستدعيها الظروف لمواصلة الكفاح الوطنى ..

وماذا بعد ؟ هل تستأنف حركة العصيان ؟

لقد غادر كريبس الهند وأعلن أن بريطانيا لن تبدأ من ناحيتها بطلب المفاوضات وانما الدور على الهند ، فعليها أن تتقدم بذلك اذا أرادت ، وأعلن " أزاد " فى اجتماع الحزب أن مثل هذا الكلام لا يؤثر فينا ، وأن المؤتمر لن يتقدم بشىء فى هذا الأمر ..

ولكن ما الخطوة المنتظرة ؟ هل يستولى الركود على المكافحين فى سبيل الحرية ؟ وهل يتركون الجو للمستعمر كى يمرح فيه كما يحلو له .. واذا كان هناك من خطوة فما هى ؟ وما نوعها ؟

يجيب " نهرو " عن ذلك فيقول[1] :

((بينما كان الشعور باليأس ينمو ويتعاظم كتب غاندى عددا من المقالات وجهت بصورة مفاجئة أفكار الشعب وجهة جديدة أو كما يحدث غالبا بلورت أفكاره الغامضة ، انه لم يحتمل الرضوخ والاستسلام لكل ما كان يحدث ، وكانت الطريقة الوحيدة لمواجهة ذلك الوضع أن يعترف بحرية الهند ، وأن تقاتل الهند الحرة العدوان والغزو بالتعاون مع الأمم المتحالفة (الحلفاء) واذا كان هذا الاعتراف بعيد المنال فعندئذ يجب القيام بعمل ما لتحدى النظام القائم ، وايقاظ الشعب من السبات الذى كان يشله ، ويجعله فريسة سهلة لكل ضرب من ضروب العدوان " اهـ

فأى عمل يريد غاندى دعوة الشعب للقيام به ؟

يقول أزاد " أنه ذهب لزيارته فى يونيو سنة ١٩٤٢ بعد مغادرة كريبس الهند فوجد أراءه قد تبدلت تحت وقع خيبة الأمل من هذه المفاوضات ، فغاندى الذى تمسك بنظرية " اللاعنف " منذ بدء الحرب حتى ولو أدت الى عدم تحقيق حرية الهند بدأ الآن يتغير ويدعو الى وجوب تنظيم حركة شعبية تتخذ لها شعار " ارحلوا عن الهند " .

وكان شبح الهجوم اليابانى فى ذلك الوقت يخيم على الهند ، بعد أن أصبح اليابانيون

---

(١) فى كتابه من السجن الى الرياسة ص ٣٥٥ ، ٣٥٦

قريبين من حدودها .. وأخذت القيادة البريطانية تضع خطة الانسحاب من " كلكتـــا " ومن شرق الهند ، بعد أن تقوم بتدمير المنشآت في البلاد التي تنسحب منها على نحـــو ما خططت في مصر حين اعتزمت الانسحاب منها أمام هجوم " رومل " القادم من الصحـــراء الغربية وكان غاندى متفائلا بنجاح اليابان وعنده اقتناع بأنها لن تؤذى الهند اذا دخلتها ، ومن ثم فلا داعى لمقاومتها ، بينما كان أزاد لا يشاركه هذا الرأى ، ويرى أنه لا يمكن استقبال اليابانيين بالاستسلام ، بل لابد من مقاومتهم " فلسنا ممن يستبدل سيدا بسيد " ولـــذا أعد خطة للمقاومة في كلكتا اذا ما انسحبت بريطانيا منها ..

وكانت مرارة خيبة الأمل في الانجليز عند غاندى ، بالاضافة الى حسن ظنه باليابان ، مما شجعه أو دفعه للتفكير في حركة ضد انجلترا ، حتى ولو أدت الى العنف هذه المرة !! فالحركة الشعبية في أوائل العشرينات لم يتمكن فيها غاندى من السيطرة عليها .. وهو الآن يفكر في قيام حركة " ارحلوا عن الهند " ولا بد فيها من عنف ، أراد أو لم يـــرد .. كما جرب من قبل ..

عودة الخلاف بين القطبين :

وقامت مناقشـات طويلة بين أزاد وغاندى ، وعاد الخلاف بينهما شديدا ، ولكـن على أسس أخرى هذه المرة .. فغاندى يريد الدعوة الى حركة شعبية ، معتقدا بأن الانجليز في هذه الظروف يلفظون آخر انفاسهم أمام اليابانيين ، وأنهم لذلك لا يستطيعون مقاومـــة الشعب اذا ما قام بحركة ، وبالتالي سيرحلون عن الهند ، ولا يبقى لليابان مطمع فيها ، فتنعم البلاد بحريتها ..

أما أزاد فقد كان أبعد نظرا ، ولذلك لم يهضم هذا الرأى ، اذ كان يرى أنهـــم حلفاء طبيعيون للديموقراطية ولا يحول بينهم وبين معاونتها الا عدم حرية الهند .. ومـــع ذلك فانه كان يرى أن الأجدر بهم (بالهنود) أن يربئوا بأنفسهم عن اتخاذ أية خطـــوة تساعد اليابان على ما تريد .. فاليابان نفسها لن تتورع عن غزو بلادنا واحتلالنا .. هـــذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فان الانجليز مهما يكن موقفهم ضعيفا فلن يتركوا أية حركة شعبية

دون أن يبادروها بالقمع واعتقال الزعماء وضربتها ضربة تشبه ضربة اليأس ، وحينئذ تبقى البلاد في هذه الفترة الحرجة دون زعماء لها يرشدونها ويوجهونها أمام الخطرين : الياباني والانجليزي .

واجتمعت اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر في ٥ يوليو سنة ١٩٤٢ وعرض الأمر عليها فوافق الاعضاء على وجهة نظر غاندى شأنهم في الانقياد الاعمى له ، معتقدين أنه يقودهم الى الخير ، ماعدا " جواهر لال " الذى أيد وجهة نظر أزاد .

ومن المفارقات التى يحسن ذكرها هنا أن مولانا أزاد كان ممن دعا أول الحرب الى قيام حركة شعبية لكن غاندى لم يوافق عليها مخافة أن تنقلب الى حركة عنيفة فصرف النظر عنها والآن يدعو غاندى للحركة ، وأزاد لايوافق عليها ، ولكل منهما وجهة نظره فى كل حال من الحالين . وكثيرا ما اختلف القطبان الكبيران فى وجهتى نظرهما لخدمة البلاد ، ومنذ قيام الحرب وهما مختلفان كما سبق أن عرفنا ، ولكن الحكمة ومصلحة البلاد تتغلب دائما ..

غاندى يطلب منه الاستقالة :

لكن يبدو أن الخلاف كان شديدا هذه المرة الى حد أخرج غاندى من طبيعته المعتادة ، وجعله يتصرف مع أزاد وجواهر لال الذى أيده تصرفا غريبا ويظهر أن غاندى شعر بقوة هذه المرة لموافقة الأغلبية الكبيرة على رأيه فأخذ هذه الخطوة ونترك الكلام هنا لمولانا أزاد حيث يقول[1]:

((بدأنا مناقشة الموضوع فى ٥ يوليو ، وظللنا نقلب الأمر على وجوهه لمدة أيام ، ولم تكن هذه أول مرة أخالف فيها غاندى فى وجهة نظره ، بل سبقت موضوعات اختلفت آراؤنا حولها ، غير أننا كنا هذه المرة على طرفى نقيض ، وأدى بنا الخلاف الى أن يبعث غاندى برسالة الى يلتمس منى فيها أن أستقيل من رياسة المؤتمر واللجنة ، فان موقفه يباين موقفى الى حد لايترك مجالا لنا للتفاهم والاتحاد فى الكفاح ، وذلك اذا حرص المؤتمر على أن يقوده غاندى ، وأضافت الرسالة بأن الواجب أن يحذو جواهر لال حذوى ، وبعثت لتوى الى جواهر لال عرضت عليه الموضوع))

(١) ص ٣٦ من مجلة ثقافة الهند عدد ابريل سنة ١٩٦١

كان غاندى هذه المرة كما قلنا فى موقف القوة بالنسبة لتأييد أغلبية أعضاء المؤتمر له فى وجهة نظره فى القيام بحركته وذلك مع ما يدركه ويدركونه معه من أن الشعوب دائما تميل الى مثل هذه الحركات وتعتبرها من أعمال الوطنية ضد المستعمرين دون أن تفكر وتحسب حساب النتائج البعيدة .. وهذا على ما يبدو مع شدة الخلاف المستمر بينهما هو الذى دفعه الى اتخاذ هذه الخطوة .. ولكن ماذا كان رد الفعل بعد ذلك ؟

هنا يمكن أن ندرك وزن أزاد فى حزب المؤتمر وقيادته له وللحركة الهندية ، أمام قرار اتخذه غاندى وأيدته الأغلبية الساحقة فى اللجنة .

يقول أزاد " زارنا فجأة ـ وأنا مع جواهر لال ـ سردار باتيل [1] ، وعندما قرأ الرسالة بهت ، ولم يلبث أن أسرع الى غاندى محتجا عليه ، وصرح له بأن استقالتى واستقالة جواهر لال سيعودان على البلاد بأسوأ النتائج التى تضعضع كيان الأمة ، ولن يفضى هذا التصرف الى الفوضى والنيل من قوة الشعب فحسب بل سيفضى الأمر فى النهاية الى تدمير حزب المؤتمر نفسه " وكان هذا بمثابة انذار لغاندى من احد مؤيديه فى قراره ولكنه لم يؤيده فيما طلبه من استقالة أزاد ، فكان له أثره لدى غاندى .

ثم يعود تائبا الى مولانا :

فأمام هذا الموقف من السردار باتيل ـ وهو من كبار رجال الحزب ومن الذين أيدوا وجهة نظر غاندى فى اللجنة ـ تراجع غاندى وانفضت هذه الأزمة سريعا ، فقد أرسل غاندى الخطاب فى صباح اليوم السابع من يوليو ، وظهر رد الفعل مباشرة لديه ، فلم ينتصف النهار حتى دعا مولانا أزاد الى مقابلته ، فلبى دعوته ، وتلاقيا وتحدثا طويلا .. واعتذر لمولانا بأن الرسالة التى وجهها اليه فى الصباح كانت خطأ منه ، وأنه أنعم النظر فى الأمر ، فرأى أن يسحب الرسالة ، وينتهى الأمر عند هذا الحد !! ورضى أزاد بهذا ، عندما اجتمعت اللجنة التنفيذية فى مساء ذلك اليوم وقف غاندى يتحدث أمامها فى شجاعة نفسية تعودها واستهل حديثه بقوله : هاكم المذنب يعود تائبا الى مولانا ..

---

(١) كان من كبار رجال المؤتمر وزعماء الحركة التحريرية كما كان فى عهد الاستقلال من أبرز الوزراء واقواهم وكان وزيرا للداخلية .

وبقدر ما تدل عليه هذه العبارة فى هذا الموقف من شجاعة نفسية ليست بغريبة على غاندى فانها تدل كذلك على ما كان يتمتع به أزاد من مركز قيادى خطير فى حزب المؤتمر، وبالتالى فى الهند كلها كما صورته عبارة سردار باتيل لغاندى، وهو يعترض على موقفه من أزاد وجواهر لال. ولم يكن هذا غريبا على أزاد حتى لو صرفنا النظر عن مواقفه العظيمة قبل الحرب، فيكفى أنه تسلم قيادة الحزب منذ قامت الحرب بالحاح من غاندى، وساس الأمور بنجاح ودهاء وحنكة. وكان العقل الواعى المدبر، بينما كان لغاندى روحانيته وصوفيته التى أثر بها على الشعب فانقاد له كما ينقاد المريد لشيخه الصوفى ولو بدون تفكير — وكانت روحانية غاندى تجنح به أحيانا بعيدا عن الصواب والهدف الذى تسعى اليه البلاد، فيقف له مولانا أزاد — العقل المدبر الواعى — ليصحح اتجاه الحركة الى الهدف المنشود، كما رأينا من قبل حين كان المؤتمر يبحث مسألة دخول الهند الحرب، وكما سنرى أيضا ما كشف عنه الواقع حين أصر غاندى على رأيه ودفع بالبلاد الى الحركة التى يريدها.

ويعلق نهرو على موقف غاندى الجديد ودعوته للحركة الشعبية فى هذه الظروف فيقول [(١)]:

" والحق أن بعضنا قد قلق لهذا التطور الجديد، ذلك أن العمل فى ذلك الحين بالذات كان شيئا ميتا الا اذا اتسم بالفعالية، وأى عمل كهذا لابد أن يعترض المجهود الحربى فى الوقت الذى كانت الهند فيه مهددة بخطر الغزو، كانت هناك مصاعب جمة بحثناها طويلا مع غاندى، دون أن يقنع احدنا الآخر، غير أن هذه المحادثات جعلت غاندى يقدر فى نهاية الأمر كثيرا من الاعتبارات الدولية التى لفتنا انظاره اليها ".

ويقول عن غاندى بعد ذلك: " لقد تغلب حبه لحرية البلاد وجميع الأمم والشعوب المستعبدة على تشبثه المنيف باللاعنف، حتى أنه هو نفسه رعى قرارا للمؤتمر اعلن فيه أن المهمة الاولى للحكومة المؤقتة للهند الحرة هى قذف جميع مواردها فى معركة الحرية ضد العدوان والتعاون التام مع الأمم المتحالفة فى الدفاع عن الهند بجميع ما تملك من قوات مسلحة وغيرها ".

ولعلنا نلاحظ أن هذا القرار الذى رعاه غاندى أخيرا وكان يعارضه من قبل هو نفسه رأى مولانا أزاد الذى نادى به من أول الحرب، ولكنه رآه غير مناسب فى هذه الظروف الآن.

---

(١) فى كتابه من السجن الى الرياسة ص ٣٥٦

لأن المستعمر سيستعمل منتهى الشدة ويقبض على الزعماء جميعا ، وتجد البلاد نفسها بلا قوادها فى هذه الفترة الحرجة من حركتها وهى فى شدة الحاجة اليهم خارج السجون .

وكان غاندى يعارضه قبل ذلك معارضة عنيفة ، ولكنه قبله هذه المرة ، ورضى باستعمال العنف . الأمر الذى يدل بصرف النظر عن كونه مناسبا الآن أوغير مناسب على صحة نظرية أزاد منذ قامت الحرب بأن مسألة اللاعنف ليست هى الغاية حتى يتمسك بها غاندى طول هذه المدة .. بل الغاية هى حرية الهند من أى طريق تأتى ..

ارحلوا عن الهند :

وقد ظلت اللجنة التنفيذية مجتمعة من ٥ يوليو سنة ١٩٤٢ حتى ١٤ منه وانتهى الاجتماع باصدار بيان تؤكد فيه اصرارها على طلب الحرية ونقل السلطة لأهل البلاد . وتعلن رغبتها فى التعاون مع الحلفاء ، لكن تعاون الحر مع الحر ، وتبدى مخاوفها من عدم استجابة بريطانيا لمطالب البلاد مما سيدفع الشعب للجهاد من أجل حريته حتى يخرج المحتل من أرضه ..

وحددت اللجنة موعد ٧ أغسطس لاجتماع آخر فى بومباى لعل الانجليز فى هذه المدة الفاصلة يفكرون فى الموقف ، ويراجعون انفسهم ، ويعملون على التقدم خطوة نحو تحقيق مطالب البلاد .

وعندما نشر قرار اللجنة أو بيانها تكهرب الجو فى البلاد . وأخذ الجميع يتحدثون عن الحركة المقبلة التى يتحفز لها المؤتمر . وأعطوا القرار الذى اتخذته اللجنة شعار " ارحلوا عن الهند " .

وشعرت الحكومة بما شعر به الشعب من أن ثورة تكاد تهب على البلاد ، فأخذت هى الأخرى تعد عدتها لمنازلتها ، وتحرص على أخذ زمام المبادرة .

يقول أزاد : " ومن ١٤ يوليو الى ٥ اغسطس سنة ١٩٤٢ وانا أقضى معظم اوقاتى فى سلسلة من الاجتماعات والمقابلات مع زعماء المؤتمر من مختلف نواحى البلاد ، وابتغيت بهذه الاجتماعات أن أؤكد لهم أن الحركة المقترحة ستسير فى طريق التطور طبقا لتعليمات غاندى أن تقبلت الحكومة مطالبنا أو على الأقل سمحت لنا بمباشرة نشاطنا ، وأما ان اعتقلت الحكومة غاندى وزعماء المؤتمر الآخرين فان الجمهور يصبح حرا فى اختيار الوسائل التى تروقه سواء أكانت عنيفة أو لاعنيفة " .

وكلما اقترب موعد اجتماع اللجنة فى بومباى ازداد تكهرب الجو ، حتى اجتمعت اللجنة فى ٥ اغسطس برياسة أزاد الذى ألقى كلمة شرح فيها الدوافع التى حدت باللجنة الى دعــوة الشعب ليبدأ حركة الكفاح من أجل الحرية .. ثم أصدرت اللجنة قرارها فى الثامن من أغسطس ببدء حركة " ارحلوا عن الهند " وهنا تتابعت الحوادث واكفهر الجو .

اعتقال أزاد والزعمـاء :

فقد أسرعت الحكومة — بعد صدور هذا القرار فى اعتقال غاندى وأزاد وجميع زعمــاء المؤتمر ، كما كان يتوقع أزاد ، وعلى عكس ما كان يتوقع غاندى ، اذ كان يظن أنها ستضعف عن اعتقالهم واليابان على الابواب ، وساقتهم الى سجن " أحمد نكر " فى اقليم الكجرات ماعــدا غاندى الذى أعتقل فى قصر أغاخان فى مدينة " بونا " .

وفى مذكرات أزاد يحكى مقابلة تمت بينه وبين غاندى وهما فى القطار مسوقان الــى السجن فيقول : " وكانت علائم الضيق بادية على وجهه . ولم يسبق لى قط أن رأيته فى مثل هذا التخاذل . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن هذا الاعتقال المفاجىء ، لم يكن فــى حسبانه ، ولم يكن يقدر أن ينتهى مسعاه الى ما انتهى اليه ، وكان مطمئن البال الى أن الحكومة لن تقدم على خطوة شديدة . والحق اننى أنذرته مرة بعد مرة ، ونبهته على اسرافه فى التفاؤل ، لكنه استمسك بوجهة نظره ، دون أن يلقى بالا الى ما نبهته اليه . فالآن — وقد حدث ما حدث — يشهد الواقع على أنه كان خاطىء الحدس غير صائب التخمين والتفاؤل فبقى حائرا لا يدرى ماذا يأتيه من العمل . "

ذلك ماكان من أمر الزعمـاء .

أما الشعب فقد تسرب خبر اعتقال الزعماء اليه فثار ، وقام بالمظاهرات ، وهاجم كــل ما ظن أن له صلة بالحكومة وخربه ، كما كان الحال فى مصر فى ثورة سنة ١٩١٩ ، واشتــد البوليس فى قمع هذه الحركة بكل الوسائل ، حتى بالطائرات والمدافع . وصدق ظن أزاد حين قال لغاندى من قبل : ان الحكومة فى وضعها الحالى ستسحق بكل امكانياتها كل حركة فــى البلاد ، ويبقى الشعب بدون قائد يوجهه بعد اعتقال الزعماء فيتصرف كما يمليه عليه الغضــب والثورة .. وستقابله الحكومة بأساليب أشد وأقسى حتى تقضى على الحركة — فكان خوف أزاد مــن

فشل الحركة هو الذى يشغله ــ وكان هذا هو الذى حدث كأنما كان أزاد يقرأ من كتاب أمامه . وهذه هى ميزة الرجل السياسى البعيد النظر ، الذى يزن الحاضر والمستقبل ، ويقدر الاحتمالات ، ويرتب عليها ما يناسبها من التصرفات . ولكن غاندى دفع بالبلاد الى هذه الحركة ، واستسلم له أعضاء الحزب ، فكان ما توقعه أزاد .

يقول نهرو(1) : لقد هاجمت الجماهير كل مابدا لها أنه رمز للسلطة البريطانية : مراكز البوليس ومكاتب البريد ، ومحطات السكة الحديد ، وقطعت اسلاك البرق والهاتف ، كل ذلك فى وجه المدافع الرشاشة والطيران المنخفض . واستمرت هذه الاضطرابات طيلة شهرين أو أكثر فى أنحاء مختلفة من البلاد ، ثم تلاشت ، واستمرت بعض المناوشات المتفرقة ، وقال مستر تشرشل فى مجلس العموم : " لقد ألقت الحكومة بكل ثقلها فسحقت الاضطرابات " .

" ولقد نجحت الحكومة البريطانية ــ مؤقتا على الأقل ــ فى سحق المحاولات العنيفة واللاعنيفة ، وفشلت الهند فى ذلك الاختبار النهائى الذى كانت الكلمة العليا فيه للقسوة وحدها . "

وهكذا ساق غاندى البلاد الى هذا المصير بسبب تمسكه برأيه ، وعدم استماعه لنصيحة مولانا أزاد ومعه جواهرلال .. حتى رأيناه يضيق ذرعا بهذه النصيحة ، ويأمرهما بالاستقالة من المؤتمر كما سبق القول ..

وفى ابريل سنة ١٩٤٣ تلقى مولانا أزاد وهو فى سجنه برقية تنعى اليه زوجته التى تركها حين ألقى القبض عليه وهى مريضة . وزاد اعتقاله فى مرضها ، وكانت تأتيه الاخبار المقلقة عنها وهو فى سجنه ، حتى اخبر الأطباء المعالجون لها الحكومة بحالتها ، لتسمح له بزيارتها ، ولكن الحكومة تجاهلت كل هذا ، حتى وافتها منيتها ، دون أن يراها زوجها الوفى العظيم ، ولم يكن لها أولاد يقفون بجانبها ، وسرت بين الشعب آخر كلماتها الحزينة التى تناجى بها زوجها السجين وهى تجود بأنفاسها . وأحاط الشعب زعيمه بكل عواطفه ، وشاركه لوعته وحزنه .

ولم يترك أزاد الموضوع يمر ، دون أن يسجل على الحكومة موقفها الجافى للانسانية

فكتب الى نائب الملك بأنه كان من الميسور للحكومة أن تنقلنى الى كلكتا ، ولو لمدة محدودة ، حتى استطيع أن أكون بجوار زوجتى وألقى آخر نظرة على شريكة حياتى وجهادى وهى تجـود بآخر انفاسها ..

ولاذت الحكومة بالصمت :

وقد ضاعف من حزن أزاد أن أخته لحقت بزوجته بعد ثلاثة أشهر ، وتلقى الرجـل المجاهد هاتين الصدمتين مع تعسف الحكومة بروح المؤمن الصابر .

ولقد لجأ غاندى الى الصيام احتجاجا على الحكومة كعادته حتى ضعفت صحته وقرر الأطباء أنه مشرف على الموت ، فأطلقت الحكومة سراحه ، دون أن تخشى منه بأسا ، لبقاء الزعماء فى سجونهم ، ولأن انتصار الحلفاء بدا أمرا متوقعا فى ذلك الوقت ، وقد قضى مولانـا أزاد والزعماء فى سجونهم نحو ثلاثة أعوام . قضى أزاد بعضها فى سجن " أحمد نكر " غـرب الهند ، ثم نقل الى سجن آخر فى البنغال شرق الهند ، وبقى فيه حتى أفرج عنه فى يوليـو سنة ١٩٤٥ . كما أطلق سراح باقى الزعماء بعد أن انهزم الألمان أمام الحلفاء والروس.

يتولى المفاوضات مرة ثانيـة :

وبذلك تغيرت الأوضاع الحربية فى سنة ١٩٤٥ عما كانت عليه من قبل ، واتجهـت الحكومة الانجليزية الى حل المشكلة الهندية ، وكانت الهند يشغلها أمران فى ذلك الوقـت وتدور المناقشات والاصطدامات حولهما :

أما أولهما فهو حرية الهند واستقلالها ..

وأما ثانيهما فكان أمر تقسيم الهند الى دولتين . وكانت الرابطة قد اشتد ساعدها واعلنت عن رأيها منذ قيام الحرب بوجوب قيام دولة اسلامية منفصلة عن الدولة الهندوسيـة .. وكثيرا ما قامت الاصطدامات والاضطرابات والمذابح بين المسلمين والهندوس وبهذا السبب ، فوجه اللورد " ويفل " نائب الملك فى الهند ، والذى عهدت الحكومة اليه بالمفاوضة ، دعوة الى ممثلى حزب المؤتمر والرابطة الاسلامية للاجتماع به فى " سملا " مقر الحكومة الصيفـى

شمال الهند ، وكان مولانا أزاد رئيس حزب المؤتمر وغاندى يمثلان حزب المؤتمر .. وكانت الرابطة يمثلها رئيسها " محمد على جناح " الذى يصر على التقسيم ، بينما كان أزاد وغاندى يصران على وحدة الهند ، وانجلترا تريد أن تنفض يدها من المشكلة وتسلم البلاد لأهلها مع ميلها الى بقائها موحدة لصالحها الحربى ، ولكن هذه المفاوضات فشلت أمام اصرار حزب المؤتمر ومعه نائب الملك[1] على الوحدة ، واصرار " جناح[2] " على التقسيم ، وحين جاء حزب العمال للحكم بعد تسليم الى ابان ارسل بعثة أخرى فى مارس سنة ١٩٤٦ لتعاون نائب الملك فى ايجاد حل لمشكلة الهند ونظام الحكم فى المستقبل واشترك فى هذه البعثة ستافورد كريبس أيضا .

وبينما كان المفاوضون يتباحثون فى مستقبل البلاد كانت تغرق فى بحر من الدماء بسبب الخلافات الطائفية بين المسلمين والهندوس .. وكلما مر الوقت واشتد الجدل بين النظريتين كثر الرصيد من الاضطرابات والمذابح ، وكان نصيب المسلمين فيها أكثر فاضطر جناح الى الانسحاب من المفاوضات ، فازدادت الاضطرابات ، وحاول المسئولون فى الهند وانجلترا ايقاف هذه الموجة المؤلمة بين المواطنين الهنود ، ولكنها كانت تزداد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ، حتى لم يرى المتفاوضون المصرون على الوحدة بدا من الموافقة على قرار التقسيم ، حتى تقف هذه المذابح ، فانتهى الأمر أخيرا باعلان الحكومة البريطانية قرارها بتسليم السلطة نهائيا الى الدولتين الوليدتين : باكستان ، وبهارت " الهند " فى أغسطس سنة ١٩٤٧ .

وهكذا ظل مولانا أزاد يجاهد منذ فجر شبابه فى سبيل دينه وفى سبيل حرية بلاده ، ويقود المجاهدين ، ويوجه دفة السياسة فى حزب المؤتمر ، ويتولى المفاوضات باسمه

---

(١) انظر ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ من كتابى كفاح المسلمين فى تحرير الهند طبعة أولى ــ ومذكرات أغا خان ص ٣٣٦ ، ٣٢٧ .

(٢) تقلب كتابته فى العربية " جناح " بينما نطقه الأصلى " جنة " ومعنى " جنة " فى اللغة [الكراتشى خيف دالا ء والحاء] يكتبان باللغة الانجليزية [ ] ومن أجل هذا نكتبها أحيانا كاصلها وأحيانا كنطقها المعتاد فى العربية . وقد ولد فى ٢٥ ديسمبر ١٨٧٦ م من أسرة تنتمى الى الشيعة الاسماعيلية الاغاخانية وتلقى تعليمه العالى فى انجلترا وعاد فاشتغل بالمحاماه وانضم لحزب المؤتمر وتفانى فى العمل للوحدة بين المسلمين والهنود حتى سمى رسول الوحدة ثم انضم للرابطة الاسلامية مع اخلاصه للمؤتمر لكنه أخذ شيئا فشيئا يبعد عن المؤتمر للرابطة . ثم يئس من العمل وسافر الى انجلترا ومكث فيها حتى استدعى سنة ١٩٣٤ ليرأس حزب الرابطة وانتهى الى الدعوة لباكستان حتى نجح فى دعوته سنة ١٩٤٧ وتوفى فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

حتى ظفرت البلاد باستقلالها ، وظل بعد ذلك رئيسا للحزب حتى سنة ١٩٥٠ .. حيث اختير وزيرا للمعارف . فى الحكومة المركزية وظل يشغل هذا المركز حتى توفى فى فبراير ١٩٥٨ ! وكان يحكم مركزه فى الحزب المرجع الأول فى توجيه دفة السياسة الداخلية والخارجية للهند ، لا يقطع فيها برأى دون أخذ رأيه والاستنارة بتوجيهاته حتى ليقول نهرو فى كلمته التى ابنه فيها :

" الى من أذهب للتشاور اذا عنت لى مشكلة سياسية ؟ لقد ترك وراءه فراغا عظيما يتسع كلما تقدم الزمن ، حتى لانجد على مروره من يسد مسده " .

موقفه من التقسيم :

رأينا فيما سبق كيف أن مولانا أزاد ، وهو المفاوض المتحدث باسم حزب المؤتمر عارض تقسيم الهند الى دولتين حتى آخر لحظة ، ولم يوافق الا مرغما تحت ضغط الحوادث هو وغاندى ونهرو وزعماء المؤتمر الآخرون .. وهنا نجد سؤالا يفرض نفسه : لماذا عارض آزاد التقسيم وهو زعيم دينى متحمس للاسلام والمسلمين ؟ وقد عمل منذ فجر حياته لايقاظهم وبث الدعوة الاسلامية الصحيحة فيهم ؟

هل يعنى هذا أنه لايهتم بشئون المسلمين أولا يسره أن تقوم باسمهم دولة مستقلة كباكستان ؟ وهل يعنى هذا أنه يناصر الهندوس عليهم ؟ وهل ... وهل .. أسئلة كثيرة تفرض نفسها على كل من عرف موقفه من التقسيم ، ولا سيما من الذين يحبذونه أو ينظرون اليه على أنه من مصلحة المسلمين . ولذلك كان لابد لمن يكتب عن أزاد أو يتحدث عنه أن يقف عند هذه النقطة ليوضح موقف أزاد على حقيقته . لا لمجرد الدفاع عن هذا الرجل العظيم بل لبيان وجهة نظره ، فان مثل هذا الرجل الذى أفنى حياته فى سبيل دينه واخوانه ووطنه ، الذى عرفناه منطقيا مع نفسه ومع الحوادث لايمكن أن يقف هذا الموقف دون أن تكون له حجة قوية ووجهة نظر ، فى تقديره لمصلحة المسلمين أين تكون : فى التقسيم أو فى عدمه ؟

ولكى نجلو ذلك ولو بعض الشىء لابد أن نرجع مع التاريخ الى الوراء قليلا .. فنرى أن فكرة التقسيم لم تكن واردة على ذهن أى مسلم منذ بدأ أزاد وغيره من الزعماء المسلمين جهادهم فى سبيل تحرير الهند .. كانوا جميعا مع زعماء الهندوس يجاهدون من أجل تحرير أمتهم دون نظر الى ما تضمه من المسلمين أو الهندوس أو غيرهم .. ولقد رأينا مولانا أزاد يفزعه أن يتأخر المسلمون عن الجهاد فى حركة التحرير فيكتب لهم التاريخ صفحة عار لا تليق بهم ولا بأمجادهم والسيد " محمد على جنه " الذى صار زعيم التقسيم فيما بعد ، كان من أشد الزعماء المسلمين فى المؤتمر تحمسا للوحدة حتى اطلق عليه ، رسول الوحدة " فى بدء جهاده .

وكان أول زعماء المؤتمر من المسلمين هجوما على تقسيم البنغال الى قسم اسلامى وقسم هندوسى سنة ١٩٠٥ حتى ليقول اغا خان فى مذكراته (١) ص ١٥٧ الطبعة الاولى وكان من أشد المتحمسين لهذا التقسيم .

" من كان - اذن - أشد اخصامنا سنة ١٩٠٦ ؟ انه كان محاميا مسلما فى بومباى يدعى محمد على جنه " . وقد اقام له حزب المؤتمر قاعة باسمه فى بومباى سنة ١٩١٨ أطلقوا عليها قاعة رسول الوحدة وابرقت اليه الشاعرة الهندية سروجينى فى ذلك الوقت وهو فى باريس تقول له " لقد عرفت الأمة فضله فى حياته (٢) " . وظل بعيدا عن فكرة التقسيم حتى بعد أن ترك المؤتمر وترك الهند الى أوربا عدة سنين ، وعاد منها سنة ١٩٣٤ ليرأس الرابطة ولم ينادى بالتقسيم الا سنة ١٩٤٠ برغم دعوة اقبال المبكرة لباكستان .

والذين تركوا حزب المؤتمر لسوء ظنهم به ، مثل مولانا محمد على جوهر لم يتركوه لينادوا بالتقسيم ، بل ليدافعوا عن حقوق المسلمين فى ظل أمة واحدة ولم تنبت فكرة باكستان الا مؤخرا وبعد وفاة مولانا محمد على سنة ١٩٣١ ، وقد ظل فى المؤتمر زعماء كثيرون من المسلمين يشاركون مولانا أزاد رأيه فى وجوب قيام أمة واحدة فى الهند ، وكان من هؤلاء الزعماء أو على رأسهم شيخ الاسلام فى الهند مولانا حسين أحمد مدنى الذى اشترك فى الحركة الوطنية واعتقل أثناء الحرب العالمية الاولى فى مالطا ، كما اعتقل عدة مرات بعد ذلك ، وحكم عليه بالسجن

---

(١) نقلها للعربية دار العلم للملايين فى بيروت

(٢) راجع ص ١٦٣ ، ١٦٤ من كتابى " كفاح المسلمين فى تحرير الهند "

سنتين سنة ١٩٢١ في محاكمة كراتشي المعروفة التي حكم فيها على مولانا محمد على وشوكت على لدعوتهم لمقاطعة الانجليز ..

فلم يكن أزاد وحده من الزعماء المسلمين ضد فكرة التقسيم ، بل كان هناك كثيرون منهم لا يشك في اخلاصهم للاسلام والمسلمين ،ووراءهم كثيرون من الشعب المسلم كذلك ، وكان مولانا حسين مدني زعيما وطنيا وشيخا للاسلام ورائدا صوفيا يتبعه الملايين .

والذين يعرفون أزاد وغيرته على الاسلام والمسلمين ،وجهاده الطويل من أجلهم ، ومن أجل الوطن لا يمكن أن يتطرق الى نفوسهم شيء من اتهام ازاد في غيرته على مصالح المسلمين ،ولا يمكن أن يتصوروا أن هذا الرجل العالم الديني الذي أنشأ المجلات لتبصير المسلمين بدينهم وواجباتهم ، واهتم بشئون القرآن وتفسيره ، وقضى سني حياته حتى من قبل أن يناهز العشرين في الجهاد من أجل دينه ووطنه ، أقول لا يمكن أن يتصوروا أن هذا الرجل أو زميله شيخ الاسلام مولانا حسين مدني أو غيرهم من الزعماء المسلمين في المؤتمر كانوا أقل غيرة على مصالح المسلمين من السيد / محمد على جنه زعيم التقسيم ـ الذي لم يرض أن يشتغل المسلمون في الهند بمسألة الخلافة (ولم يكن سنيا) ، وترك كل نشاط في سبيل الهند في حركات العصيان المدني ثم غادرها ليشتغل بالمحاماة في لندن عدة سنين لم يعد منها الا في سنة ١٩٣٤ ،ولم يقبض عليه مرة واحدة في حركة ضد الانجليز ، أقول لا يمكن أن يتصور أحد أن أزاد كان أقل من هذا الزعيم أو غيره من المنادين بالتقسيم اخلاصا للاسلام والمسلمين وغيرة على مصالحهم .. ولقد كان أزاد مشرفا مع لجنة برلمانية على أعمال الوزارات التي ألفها حزب المؤتمر سنة ١٩٣٧ وقد وجه السيد / محمدعلى جنه في ذلك الوقت عدة اتهامات طائفية ضد حزب المؤتمر ووزرائه ، ويقول أزاد في هذا الصدد " كل حادثة تتعلق بالقضايا الطائفية فحصت الخ . ، ومن أجل ذلك يمكنني أن أقول معتمدا على معلوماتي الخاصة ،وشاعرا بالمسئولية ، أن الاتهامات التي وجهها مستر " جنه " والرابطة الاسلامية من الظلم الواقع على المسلمين والاقليات الاخرى كانت غير صحيحة ، ولو لمست في احداها شائبة من الصدق لأمعنت في اصلاحها وازالة الجور ، وكنت مستعدا لتقديم استقالتي لأجل قضية واحدة اذا أدت الظروف الى ذلك " .

فلا يمكن اذن اتهام أزاد ولا من اعتنق رأيه بشيء من عدم الغيرة على مصالح المسلمين ، ومن الواجب أن ننأى بأنفسنا عن تبادل مثل هذه الاتهامات التي يثيرها التعصب والغضب ، ونعتقد أن الاخلاص للمسلمين ومصالحهم كان متوفرا لدى الجميع : من نادى منهم بالتقسيم ، ومن عارضه .. ولكن اختلفت وجهة نظر كل منهم في تقدير هذه المصلحة ..

فريق رأى أن الخير للمسلمين انما يتحقق في ظل دولة خاصة بهم ، وله أدلته وحجته على ذلك وفريق رأى أن الخير يتحقق في أن يعيشوا — وهم أقلية كبيرة لها وزنها وخطرها — في الدولة الكبيرة الموحدة التي ظلوا يعيشون فيها على مر القرون السابقة .

ولكل من الفريقين حججه وموازينه في تقدير هذا الخير [1] ..

وقد كان أزاد مؤمنا بدينه قوي الايمان ، مؤمنا بوطنه وحقه في الحرية والحياة ايمان المسلم بعزته وكرامته وحريته .. مؤمنا بأن وحدة الهند هي الطريق الى نهوضها من كبوتها ، وتقدمها واسترجاع امجادها ، معتقدا أن كل انسان في الهند ، مهما تكن ديانته ، يجب أن يعطي الهند من اخلاصه وجهاده ما يفرضه الوطن على أبنائه ، وبقي مستمسكا بفكرته هذه عن الوحدة ، لايبالي بما كان يلقى أمامه من حجج لتقسيمها ، كان لايفزع كغيره — من اختلاف الشعب الهندي في ثقافته وديانته ، ولايرى أن ذلك مبرر من مبررات تقسيمه وتمزيقه ، فقد ظل هذا الشعب كذلك مئات السنين ، وعاش في ظل الوحدة طويلا برغم هذه المفارقات بل انك لتعجب حين تراه يفلسف هذه المظاهر المختلفة في الشعب ، ويعدها محاسن في مظهره لانقائص تستدعي تمزيقه .

شكا اليه أحد أصدقائه مرة مما يثيره اختلاف الثقافات والديانات بين شعب الهند من تشاؤم حول مستقبله ، وقال له : كيف يتسنى لمثل هذا الشعب أن يعيش أبناؤه جميعا متحدين متحابين ؟

---

(١) يمكن مراجعة فصل (هل كان التقسيم ضروريا) ص ٢٣٤ من كتابي كفاح المسلمين في تحرير الهند " فليس المقام هنا مقام بحث هذه الحجج وذكر تفاصيلها "

فقال له مولانا أزاد : لاتنزعج ولا تتشاءم ،ألا ترى أن البستان لايسترعى النظر ولا يثير اعجاب أحد اذا كانت أزهاره كلها على شكل ولون واحد ، وأن الانسان لايعجب بباقة تكون أزهارها كلها على نمط واحد ... وأن البستاني الماهر هو الذي يستنبت في حديقته أزهارا متنوعة اللون ، مختلفة الشكل والرائحة ، حتى يستطيع أن يشكل منها باقة جميلة .

ومهما يكن في هذا الرد من البراعة والمهارة في أساليب الاقناع والتأثير الخطابي ، فانه بلا شك يدلنا على مقدار ايمان مولانا أزاد بالوحدة ، وتسخيره كل مواهبه لخدمتها ودعمها في النفوس ، اعتقادا منه بأن الهند الموحدة القوية تستطيع أن تساهم بنصيب كبير في خدمة الانسانية كقوة لها مكانتها وامكانياتها الضخمة ، وأن المسلمين يستطيعون أن يستمروا في حياتهم — مستقرين — ولهم ثقلهم ووزنهم واغلبيتهم في بعض الولايات مما يمنع من طمع الهندوس فيهم وايذائهم . فكان يرد على الذين يدعونه الى التنازل عن رأيه بما يقطع عليهم كل محاولاتهم ويقول : " لو نزل ملك من الملائكة على منارة (1) قطب . " ونادى بأن نيل الحرية ممكن خلال ٢٤ ساعة ، بشرط أن يتنازل المسلمون عن وحدة الأمة ، فانني اجيب على هذا الداعي بلا تردد ، بأني أريد وحدة الشعب ، لا أريد الحرية ، فان التأخير في نيل الحرية خسارة على الهند وحدها ، ولكن الحرمان من الاتحاد خسارة على العالم والانسانية باعتبار أن الهند الموحدة قوة لها تأثيرها في المحيط الدولي بخلاف الهند المقسمة المتنازعة بين دولتين متحاربتين ومتجاورتين ، تظلان مصدرا للمتاعب لنفسيهما ولكل محب للسلام في العالم .. ولعل كثيرا من هذا نراه واقعا الآن ..

وقد ظل وفيا لايمانه بالوحدة عاملا لها ، باذلا كل جهده في سبيلها ، متحملا كثيرا من الاهانات والتهجم المستمر عليه من أجلها .. محاولا بقدر ما وسعه جهده التوفيق بين المتخاصمين والجمع بين المختلفين ، ولكن الحوادث كانت تجرى بسرعة الى غاية غير التي كان يريدها ويرجوها ، والمسلمون تلتهب عواطفهم بما يثيره زعماء التقسيم الداعون اليه من حجج يستمدونها من الواقع المؤلم ، ولا سيما ما حدث أخيرا حين كانت الدماء تراق في كل

---

(1) منارة عالية في ضواحي دهلي الآن منسوبة الى أول ملك مسلم فتح دهلي واتخذها عاصمة له سنة ٦٠٣ هـ — ١٢٠٦ م وهو قطب الدين أيبك من مماليك الدولة الغورية وقوادها وصار اليه الحكم في الهند بعدها .

مكان على يد الهندوس ، ملوحين لهم بالآمال المراض ، وبالأمن والسلام ، في ظل الفردوس الاسلامي المنتظر ، فتغلبت فكرة التقسيم على اتجاه أغلبية المسلمين ، واضطرت كل الأطراف المخالفة له أمام هذا التيار الى النزول على الواقع المر ، الذى كانوا يتحاشونه ، وغرق الشعب في بحور من دمائه ، في اليوم الذى كانت تزف فيه حريته اليه (١) .

حين هجم الهندوس والسيخ على المسلمين في دهلى ، واعملوا فيهم القتل والتمثيل ، وفي بيوتهم ومتاجرهم الحرق والنهب ولاذوا بالقلعة الحمراء ، وبالمسجد الجامع في دهلى ، وقد تملكهم الفزع والرعب واستولت عليهم الرغبة في الفرار من هذا الجحيم ، الى الفردوس الذى ينتظرهم في دولتهم الجديدة " باكستان " .. هرع مولانا أزاد الى أماكن الشغب ، ليهدىء منها ، ويحول دون استفحالها ، وعلى ما وسعه للتخفيف من حدة العواطف وثورتها ، والحيلولة بين المهاجمين وفرائسهم .. وبذل كل جهده ليهدىء من روع المسلمين الخائفين ويعيد الى نفوسهم شيئا من الأمن والشجاعة في تحمل الشدائد والمسئوليات التى انساقوا الى تحملها ، مخدوعين بالكلام المعسول ، والأماني الحلوة ..

ووقف يخطب في الجموع التى التجأت الى المسجد الجامع خائفة مذعورة ، وقال لهم : " أيها الاخوان المواطنون ، ان هذه البقعة التاريخية ليست جديدة على ، فقد ساعدنى الحظ ، وسمح لى القدر أن ألقى بين ظهرانيكم خطبا عديدة هنا من قبل ، يوم أن كان الفرح يهلل وجوهكم ، والغبطة تثلج صدوركم ، والكرامة ترفع رؤسكم .

وبينما الآن أرى آثار الفزع بادية على وجوهكم ، ومظاهر القلق ظاهرة على أساريركم أعود بذاكرتى الى الحوادث الماضية ، والايام السابقة ، حين كنت ادعوكم فيها الى شاطىء النجاة فقطعتم لسانى (٢) وكنت اناديكم بملء قلبى الى التعقل للحوادث ، والتنبه الى الظروف فقطعتم أيدى (أى لم تقبلوا نصحى) ونبهتكم الى المخاطر التى كنت اراها منتشرة في افاقكم ، وأنتم في غفلة عما تساقون اليه ، وغفوة عن أساليب التضليل والتمويه ، فلم تصغوا الى رأيى ، ولم تلبوا دعوتى فوقع ماكنت أتوقع ، واضطربت الأحوال ، وتأزمت الأمور ، وكاد الزمام أن يفلت من الأيدى ،

---

(١) راجع كتابى " كفاح المسلمين في تحرير الهند " ص ٢٤٧ وما بعدها باب " التقسيم كيف صار حقيقة واقعة وما نتائجه " . (٢) أى وقفوا ضده وهو يدعوهم للوحدة ..

وها أنذا الآن بين ظهرانيكم بقلب حائر ، وصدر محزون " .

" أيها الاخوة المواطنون . لاتتركوا للخوف ثغرة يتسرب منها الى نفوسكم ، فانه داء عضال ، ولا تسمحوا لليأس بفجوة ينفذ منها الى قلوبكم ، فانه قاطع للأوصال ، ومثبط للهمم ، فاصبروا واثبتوا ، فان ماترونه الآن ليس الا نتائج اعمالكم ، فلا يلومن أحد منكم الا نفسه .

لقد قلت لكم مرات من قبل ، وأكرر هذا القول مرة اخرى ، الا وهو : ابتعدوا عن التذبذب والشك ، وتسلحوا باليقين وقوة الارادة ، واجعلوا العزم رائدكم ، والحزم قائدكم ، وسيروا الى الأمام بخطى ثابتة ، وتقدموا الى ميدان العمل والنجاح بقلوب مليئة بالأمل والرجاء ، واستأصلوا من عقولكم الخمول والكسل ، فان الخوف مجلبة المصائب ، واليأس منبع الهزائم .

أيها المواطنون الأخوة . لابد أن تطوروا وجهات نظركم تطويرا أساسيا ، وأن تتسلحوا بعقول ثابتة ، وأفكار صائبة ، فان أسلافكم العظام قد ركبوا البحار وعبروا الجبال ، وتحملوا المشقات في سبيل المجد والكرامة ، ولم يعرف اليأس أو الخوف سبيلا الى قلوبهم ، ولم يفتروا ولم يضجروا ، ولم يفشلوا في الوصول الى أهدافهم النبيلة ، وأنتم أبناء هؤلاء العظام فكيف تسمحون لانفسكم بالفرار خوفا من المصائب ، وجزعا من الاهوال تاركين وراءكم تراثكم التاريخي ، وأمانتكم التي تحملتموها على عواتقكم ، فان فعلتم ذلك ولذتم بالفرار فان ذلك يكون جريمة لا تغتفر في حق أجدادكم العظام ، ووصمة عار في جبين تاريخكم ، ونقطة سوداء في مستقبلكم " .

وقد أثار مولانا أزاد في خطبته هذه أمام الفزعين الراغبين في ترك الهند ، أثار نقطة هامة حيوية بالنسبة للمسلمين ، وذكرهم بها ، وهي مصير الآثار والمساجد والمكتبات والمؤسسات الاسلامية التي كانت حصيلة التاريخ والحكم الاسلامي وجهد المسلمين في الهند على مر القرون ، ولو أن المسلمين تركوا الهند وهجروها الى باكستان كما كانوا يريدون وكما كان يدعوهم الداعون لتأسيس باكستان لاصبحت الهند اندلسا ثانية وقضى فيها على كل الآثار الاسلامية الرائعة ، وعلى التراث الاسلامي العريق الماثل في المساجد والمكتبات والمدارس الاسلامية ، وكل ماتركه الملوك والعظماء المسلمون على أرض الهند من مفاخر لاتزال بحق مفخرة الهند الأولى حتى الآن والى ما بعد الآن .

لقد أتيح لى أن أطوف الهند ، وأتغلغل فى مدنها وقراها ، وألمس المدى الطويل القوى الذى طبعه الحكم الاسلامى والحياة الاسلامية فى الهند ، مدنها وقراها فالمدن والقرى على حد سواء تكثر فيها المساجد والمدارس الاسلامية وتقوم فى مدنها الآثار الاسلامية الخالدة التى تعتبر مفخرة الهند ، ودرة آثارها ، وعنوان مجدها ، والمعاهد الاسلامية العريقة والمكتبات الضخمة والمؤسسات الاسلامية الاخرى .. كل هذا ماذا كان مصيره لو هجره المسلمون جميعا الى باكستان ؟ .

ان بعض المساجد التى تقع فى أحياء أو قرى هجرها المسلمون ولم يعد يتردد عليها أحد تحولت عن طبيعتها الى معبد هندوسى أو مخزن أو غير ذلك مما يحلو لسكان الحى !!

وهذا بالطبع هو المصير الذى كان ينتظر المساجد الكبيرة والصغيرة الاخرى لو خلت الهند من المسلمين !! وتصور معى مدى الفجيعة لو تم هذا !! ألا تكون أندلسا ثانية ؟ فعلها المسلمون باختيارهم ؟؟

وقد نجح مولانا أزاد ونجحت دعوته .. ودعوة العقلاء من اخوانه . فى تهدئة المسلمين واقناع الكثير منهم بالتمسك بوطنهم ، وحراسة آثارهم ومفاخرهم وأمجادهم فظلت الاكثرية الساحقة منهم فى مكانها ، وهاجر منهم عدد قدر ببضعة ملايين ، بينما بقى فى الهند نحو خمسة وأربعين مليونا حين التقسيم يحرسون تراثهم ، ويستأنفون حياتهم وسط المصاعب والاهوال وربما زادوا الآن الى خمسة وخمسين أو ستين مليونا ، ولا شك ان هذه المصاعب التى يلاقيها المسلمون فى الهند اليوم ، انما ساعد عليها انهم صاروا قلة موزعة بين كثرة ساحقة هندوسية ، ولم يكن هذا ليحدث لو أن الهند ظلت دولة واحدة تضم عددا ضخما من المسلمين يكونون أغلبية فى كثير من الولايات ويشغلون كثيرا من الاعمال والوظائف الصغيرة والكبيرة فى الجيش والبوليس وجميع الوزارات والمصالح ، كما يحتلون مركزا طيبا فى الاعمال التجارية والصناعية ، كان كل هذا سيجبر الهندوس على احترامهم وعلى التفكير كثيرا قبل أن يتخذوا أية خطوة للانتقاص من حقهم .. وحينئذ يسير الشعب كله على اختلاف طوائفه كما كان من قبل جبهة واحدة تصنع الحياة الجديدة فى الهند الحرة المستقلة ، ويؤلف الباقة الجميلة ذات الزهور المتفتحة المتنوعة الالوان .. كما كان يرى أزاد .. وينظر الى الهند الموحدة ..

واذا كان المسلمون الآن فى باكستان مطمئنين فى حياتهم ، ونحن نشعر بهذا معهم فان القلق الذى يعيش فيه ستون مليونا من المسلمين فى الهند من آثار التقسيم ، وهو الثمن لاطمئنان اخوانهم فى باكستان هذه هى الحقيقة الواقعة دون الدخول فى التفاصيل .. أو هى النتيجة النهائية الحتمية للتقسيم التى لم يكن من الممكن تفاديها . اللهم الا أن يرحل المسلمون جميعا من الهند ليعيشوا فى باكستان . وهذه نهاية مرعبة كما قلنا بالنسبة لآثار المسلمين وثرواتهم فى الهند تعيد لنا ذكرى الاندلس الرهيبة .

الفصل الخامس

أزاد وقضايا البلاد الاسلامية

الفصل الخامس

أزاد وقضايا البلاد الاسلامية

كان أزاد زعيما اسلاميا مبرزا ، وكان شأنه شأن أى زعيم مسلم مخلص لدينه وقضايا أمته الاسلامية تتمدى نظرته واحساسه واهتمامه حدود وطنه الى بقية أجزاء العالم الاسلامى ، ويحمل ماوسعه جهده من أجل قضايا اخوانه المسلمين فى كل مكان .. فلم تنحصر جهوده داخل وطنه برغم مابذله من أجله . بل شارك بقلمه ولسانه وكل ماوسعه جهده لنصرة المسلمين خارج حدود وطنه ، وكان يحرص فى توجيهه للمسلمين فى الهند على أن يبصرهم بواجبهم العام نحو المسلمين فى كل قطر .. وكان من الأسس والمبادىء التى قامت الهلال عليها ، وحرصت على العمل لها أن على المسلمين فى الهند واجبين . واجبا نحو وطنهم ، وواجبا نحو اخوانهم المسلمين خارج حدود وطنهم ..

وقد كانت رحلته فى صدر شبابه ، والمامه الواسع بالحركات الاصلاحية وأحوال البلاد الاسلامية من العوامل التى ساعدته فيما بعد على ابراز عاطفته وروحه الاسلامية نحو قضايا العالم الاسلامى ، وبخاصة نحو قضية الخلافة العثمانية التى كانت أبرز قضية شغل بها منذ أصدر الهلال فى يوليو سنة ١٩١٢ . كما شغل بها غيره من المسلمين فى العالم . وقد صدرت الهلال والعالم الاسلامى يؤرقه ويقض مضجعه هجوم ايطاليا على طرابلس الغرب ثم جاءت بعد ذلك حروب البلقان مع دولة الخلافة ووقوف الغرب ضد تركيا لصالح اعدائها مما أهاج شعور العالم الاسلامى ولا سيما فى الهند .. وكان لأزاد فى ذلك صولات وجولات على صفحات " الهلال " وفى المجتمعات .. واستغل كل ما أوتيه من موهبة القلم واللسان فى اثارة شعور المسلمين وتبصيرهم بواجبهم نحو الخليفة العثمانى خليفة المسلمين جميعا .

ولقد مر بنا أثناء متابعة نشاطه وجهاده شىء من ذلك . لكنى أردت أن أعقد لآرائه ومواقفه نحو قضايا أمته الاسلامية فصلا خاصا سواء كان ذلك متصلا بالخلافة أم بغيرها من قضايا الاقطار الاسلامية الأخرى .

أزاد .. والخلافة

" ان كل مسلم أينما كان في أية رقعة من الأرض اذا كان من أهم واجباته أن يعمل على بقاء الاسلام فان من فرائضه الدينية أن يحافظ على مكانة الخلافة العثمانية في قلبه وأن يمد الدولة التي تعتدي عليها من أعداء الاسلام . "

(أزاد ـ الهلال ١٦/١١/١٩١٢)

كان المسلمون بصفة عامة ، ينظرون الى الخلافة كرمز ديني ، له قداسته في قلوبهم ، وعاشوا على مر القرون ، منذ كانت الخلافة الراشدة ، حتى الخلافة العثمانية ، يعيشون في ظل خلافة أيا كانت هذه الخلافة .. ويدينون لها بالولاء والطاعة .. حتى كان الملوك الأقوياء في مصر أو غيرها ، يرون ألا بد من قيام نظام الخلافة بجانبهم ليستمدوا منه قوة النفوذ على الشعب المسلم .. ويسعون مع قوتهم ونفوذهم ، الى أن يأخذوا موافقة الخليفة ضعيف السلطة على تنصيبهم ملوكا لتكون لهم الصبغة الشرعية في حكم المسلمين ، بالرغم من أن هؤلاء الخلفاء أحيانا لم تكن لهم أية سلطة زمنية ، وكانوا يعيشون في حماية هؤلاء الملوك الأقوياء ..

ولا شك أن سعي هؤلاء الملوك الأقوياء الى استرضاء الخلفاء ، واعلان حكمهم للشعب باسم الخليفة كان راجعا لما لهؤلاء الخلفاء ـ على ضعفهم ـ من سلطة على المسلمين .. تمتد الى قلب كل مسلم في أية جهة كانت ولهذا كان للخلافة العثمانية نفوذ روحي على المسلمين سواء أكانوا يعيشون في دولة الخلافة أم يعيشون في ظل دولة أخرى ..

ولعل أبرز مثل على هذا في عصرنا الحديث ، ما رأيناه من تعلق المسلمين في الهند بالخليفة العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى ، ودفاعهم عن هذه الخلافة ، بكل ما في وسعهم .. ذلك لأنهم كانوا ينظرون اليها على أنها مركز لتجمع المسلمين ، وأنها التي يمكنها بهذا صد التيار الغربي الزاحف عليهم ، وانقاذ مجد الاسلام وتراثه من عبث الغرب به .. فوق أنهم كانوا يتطلعون اليها كحامية لهم ، بعد أن فقدوا ملكهم على أرض الهند .. وكانوا في عاطفتهم نحوها وتعلقهم بها ، أشد حماسا من المسلمين العرب ، الذين كانت تحكمهم ،

ذلك لأن العرب قاسوا من حكم الاتراك الظالم الجائر ، ما بدل عاطفتهم نحوها بعض الشيء وان ظلوا على ولائهم للخلافة ودولتها بصورة عامة ،حتى رأينا البلاد العربية تقف معها في حرب طرابلس الغرب وفي البلقان ويتطوع الكثير منهم للحرب رغم أنف الاستعمار ويجمعون لهـا التبرعات . أما الهنود الذين لم يمسهم هذا الحكم التركي بظلم ، فبقيت عاطفتهم نحوهـا سليمة مشبوبة .

ولذا رأيناهم على بعد المسافة يهبون لمساعدتها في حربها مع دول البلقان ،وفـي حربها مع ايطاليـا في طرابلس ، ويبعثون اليها بالمساعدة تلو المساعدة ، ثم رأيناهم يفزعون أشد الفزع عند دخول انجلترا الحرب ضدها ، ويعلنون أنهم يقفون في صفها ، ويظهـرون العداء من أجلها للدولة الحاكمة لهم ، وهي انجلترا ، مما اضطرها الى أن تصانعهم وتلتمس لنفسها المعاذير في دخولها الحرب ضد دولة الخلافة ، ثم تتعهد لهم بألا تمسها بسـوء اذا خرجت من الحرب منهزمة .

وعندما انهزمت تركيا وبدأت انجلترا تنكث بعهودها ثاروا جميعا عليها ، وعمت الهند كلها ثورة جارفة ، سقط فيها مئات الضحايا ، وقامت جمعية الخلافة برياسة مولانا محمد علي جوهر بتنظيم جهود المسلمين من أجل المحافظة على دولة الخلافة ، حتى أعلن غاندي باسم الهندوس تضامنه مع المسلمين ضد انجلترا .

فكان المسلمون في الهند ــ على ما أعتقد ــ هم وحدهم الذين ناصروا الخلافة في ذلك الوقت ودافعوا عنها وضحوا من أجلها ونحن نعرف موقف البلاد العربية منها أثناء هـذه الحرب ولا يزال الكثير منهم يعتقدون هناك حتى الآن ، أن السبب في نكبة المسلمين ، وتمكن الغرب من السيطرة عليهم ،واستعمارهم ماديا وفكريا انما هو تخليهم عن الخليفة ، وتفريطهـم في الدفاع عن دولتهم الروحية الكبرى التي كانت تجمعهم وتوحد شملهم . اذ لو أن المسلمـين نسوا أو تناسوا مؤقتـا ،ماكان لدولة الخلافة من مظالم ، ووقفوا بجانبها ضد الغرب ، لأمـكن لهم الاحتفاظ بوحدتهم الاسلامية الجامعة ، ولما استطاع المستعمر أن يثبت قدمه في بلادهم ولما أمكن لليهود انتزاع فلسطين من أهلها وطردهم منها ، وكان يمكن للمسلمين بعد ذلـك أن يصفوا حسابهم مع دولة الخلافة ويأخذوا حقوقهم منها ..

سمعت كثيرا من زعماء المسلمين فى الهند ، يدلون بهذه الآراء ، ويبدون شديد الأسف مع كثير من المرارة ، لما أصاب المسلمين ، بسبب تفككهم وتخليهم عن دولة الخلافة ، حتى فى آخر حديث لى مع المجاهد المسلم شيخ الاسلام فى الهند مولانا حسين أحمد مدنى قبيل وفاته سنة ١٩٥٧ م ذكر لى هذا الرأى ، وهو مؤمن به أشد الايمان ، وقال لو أن مصر وغيرها من العرب ، ساندوا دولة الخلافة ، لما حل الاستعمار الغربى ببلادهم ، ولما عانوا منه مايعانون الآن ..

ذلك اجمال لموقف المسلمين فى الهند بصفة عامة من الخلافة العثمانية ..

ولقد كان مولانا أزاد فى مقدمة الزعماء والقادة ،الذين أبلوا بلاء حسنا فى خدمة الخلافة العثمانية ومساندتها ودعوة المسلمين بقلمه ولسانه ، الى شد أزرها ،والوقوف بجانبها واعلان الثورة على الانجليز المستعمرين مما حملهم على اضطهاده ، واغلاق مجلاته ومصادرة مطابعه وسجنه عدة مرات .. كان مسلما عميق الايمان بدينه ، شديد الاحساس بالروابط الدينية ، التى تربطه باخوانه المسلمين فى كل مكان .. كثير العناية والاهتمام بمشاكلهم منذ كان شابا .. حتى دفعه كل هذا الى اصدار مجلة ((الهلال .. ثم .. البلاغ)) لتعبر عن رأيه ، ويبلغ بوساطتها دعوته .

ولقد صدرت الهلال كما قلنا من قبل فى وقت كانت الاحداث تتوالى فيه على دولة الخلافة هجوم ايطاليا على طرابلس الغرب ثم دخول بعض دول البلقان (بلغاريا وغيرها) الحرب ضدها بتأييد من دول الغرب ، وانعكس ذلك كله على نفس الشاب المسلم " أزاد " فأشعل فى نفسه الحماس لمناصرة الخلافة غير مقتصر على الكلمات النارية التى كان يكتبها فى الهلال ، بل كان يستعمل موهبته الخطابية ، وروحه الاسلامية المتأججة ليثير مسلمى الهند ويحثهم لينهضوا لمد يد المساعدة للخليفة ، فخرجت المساعدات العينية والمالية الى طرابلس والى تركيا من الهند ، ولم يكن المسلمون فيها يملكون غير هذا ..

وفى الكلمات التى كتبها أو ألقاها أزاد لمناصرة هذه القضية صورة واضحة عن أزاد الزعيم الاسلامى الذى يتأثر قلبه كل التأثر بقضايا اخوانه خارج حدود وطنه .

كتب في الهلال بتاريخ ١٩١٢/١١/٦م يقـول :

" ان كل مسلم أينمـا كان في رقعة من الأرض اذا كان من أهم واجباته أن يعمـل على بقاء الاسلام فان من فرائضه الدينية أيضـا أن يحافظ على مكانة الخلافة العثمانية في قلبه ، وأن يعد الدولة التي تعتدي عليها من أعداء الاسلام ، والدولة التي تميل اليها من أصدقاء الاسلام ، لأن صداقة المسلمين أو عداوتهم ينبغي ألا تكون لغرض شخصي بل للدين الحنيـف فحسب "

وهذه كلمة اخرى ألقاها في جموع المسلمين الذين تجمعوا لاظهار شعورهم نحـو الخليفة ومناصرته ، يتبين منها صدق احساسه نحو الأخوة الاسلامية قال في خطبته :

أيها الأعزاء ويابقايا حماة الاسلام ، اذا صدق أن الحسام في قطعة من الأرض يهشم على رؤوس أتباع خير الآنام فيا عجبا لو لم نحس أثر هذه المأساة في قلبنا ، اذا مـا استهدفت لخطر نفس مسلم وموحد في مكان ما فوق هذه الأرض فلعنة الله على حياة سبعين مليونا في الهند لم تتفطر قلوبهم عليها واذا ما غلى دم مراكشي محب وقدم روحه فداء لدينه ووطنه فلننتظر أن تحل علينا لعنة اللـه وملائكته ان لم نحس أثر هذا الموقف في نفوسنـا ، واذا ما طارت قلوب المسلمين ورؤوسهم غربا فأي جواب لنا أمام الله ورسوله وملائكته لو أحسسنا الراحة بين جوانحنا لحظة من اللحظات ماذا أقول ؟ انه اذا كانت توجد ذرة من روح الاسلام في تابعيه فيجدر بي أن أقـول :

انه اذا شكت شوكة في ظهر رجل تركي في ميدان المعركة فأقسم بالله أنه لا يمكـن أن يكون مسلما من لم يحس أثر هذه الشوكة في قلبه من مسلمي الهند لأن المسلمين جسـم واحد متكامل والمسلم أينما يكن فهو من أعضاء هذا الجسم ومفاصله .. الخ " .

وكتب في الهلال في ١٩١٢/١١/٢٧ بمناسبة عيد الأضحى عن الجهاد يقول :

" ان الجهاد والاسلام اسمان لشيء واحد ، وما نعني بالاسلام هو جهاد وما نعني بالجهاد هو اسلام فلا يمكن أن يكون الشخص مسلما الا اذا كان مجاهدا ولا يمكن أن يكـون مجاهدا الا اذا كان مسلما ، ولا يمكن للفرد الذي حرم من ذوقه الايماني أن يتذوق الجهـاد ،

ولا لمن يأبى الجهاد أن يتلذذ بالاسلام ولو سمى نفسه مسلما فى هذه الأرض بل قل انه فى السماء فى زمرة الكافرين "

وفى حديث له عن الجهاد من أجل نصرة الخلافة يقول :

" اننى لا أبين الجهاد كركن اسلامى وفرض دينى وحكم شرعى فحسب بل أقول لكم بصراحة تامة ان الجهاد هو عين الاسلام وأساسه أو أن حقيقة الاسلام هى الجهاد وانهما معا (أى الاسلام والجهاد) عنصر واحد اذا خلع رداء الجهاد عن الاسلام فالاسلام يصبح كلمة لامعنى لها واسما لامسمى له ، وقشرا أخوى لبه من داخله "

وحين بدا للعالم أن هناك خلافا بين بريطانيا وتركيا وأن من الممكن أن تنضم الأخيرة لألمانيا ضد بريطانيا أخذ ينبه رجال الحكومة البريطانية فى الهند على تجنب الصدام مع دولة الخلافة حتى لا يقف المسلمون فى موقف حرج فيضطروا للوقوف مع تركيا ضد الحكومة . حتى وقعت الحرب بين بريطانيا وتركيا واضطر الانجليز الى أن يصدروا فى أول أكتوبر سنة ١٩١٤ بيانا فى الهند يبررون فيه تصرفهم بأنه مجرد دفاع ضد الهجوم العثمانى وانهم لن يمسوها بسوء لو انهزمت ، وتصدى مولانا أزاد لهذا الموقف وهاجم بريطانيا هجوما شديدا وقابل " لورد كارمايكل " الحاكم الانجليزى للبنغال وأبلغه رأى المسلمين ثم نشر مقالا يتضمن رأيه الذى أعلنه للحاكم بعنوان " القارعة " فى مجلة الهلال وتضمن النقاط الآتية :

(١) أن من المصائب التى تواجه مسلمى الهند أن تقع الحرب بين بريطانيا وتركيا التى يعتبرها جميع مسلمى العالم صاحبة الخلافة العثمانية ويدينون لها بالولاء ، وأن مسلمى الهند يجب عليهم شرعا أن يكونوا مع دولة الخلافة فيجب على بريطانيا أن تتنبه لهذا ولا تنخدع بأقوال المنافقين .

(٢) أن أكثر ما يستطيع أن يفعله مسلمو الهند فى حالة الحرب هو أن يبقوا على الحياد على أن تتحقق الشروط الآتية :

(أ) ألا تطالبهم بريطانيا بأية مساعدة مادية أو معنوية .

(ب) ألا يكره جندى مسلم على الذهاب لميادين القتال ضد تركيا .

(جـ) ألا يهاجم الحلفاء أى بلد اسلامى ويعلنوا أن الحرب لن تغير من حدود البلاد الاسلامية ويضمنون استقلال الدولة العثمانية .

(٣) ان لم تقبل الحكومة البريطانية هذا فيجب على مسلمى الهند فورا أن يقوموا بالفرض الدينى الواجب عليهم فيبذلوا كل مافى وسعهم لمساعدة دولة الخلافة والمحافظة عليها وعلى كل البلاد الاسلامية لأن الهجوم على أى بلد اسلامى يوجب اعلان النفير العام بين المسلمين قاطبة (١)

من هذا الموقع انطلق مولانا أزاد منذ قامت الحرب مع تركيا يثير الرأى العام بين مسلمى الهند ضد الحكومة البريطانية حتى اعتقلته وظل فى اعتقاله حتى أول سنة ١٩٢٠ بل كان من داخل المعتقل يرسل للحاكم العام برأيه . ولما خرج من معتقله ووجد الانجليز قد خانوا كل عهودهم أزداد غضبا وثورة عليهم ..

ولم يكن هذا الموقف من مولانا أزاد عارضا بمناسبة الحرب . ولكنه - كما عرفنا من قبل - كان رأيه الدينى الذى اعتقه ودافع عنه حتى قبل قيام الحرب .

" مع السيد رشيد رضا "

وكان لا يكتفى بمتابعة الحركات والافكار الاسلامية حول الخلافة فى بلاده فقط . بل كان يتابعها كذلك فى البلاد الاسلامية الأخرى . ويكتب الى القائمين بها . مؤيدا أو ناقدا ..

ولقد أتيح لى الاطلاع على بعض رسائله (٢) التى كان يبعث بها بخطه العربى من الهند الى السيد رشيد رضا فى مصر حول هذا الموضوع فلمست فيها شدة اهتمامه بمسألة الخلافة وحدبه عليها .

ولا أريد هنا أن ألخص هذه الرسائل . بل أحب أن أقدم ثلاثا منها بنصها . كوثائق هامة تؤرخ لمولانا أزاد وترينا مدى اهتمامه وحساسيته . بكل أمر يتصل بموضوع الخلافة ، فهو فى خطابه الأول الآتى يعبر عن مدى انزعاجه . لما ذكرته احدى الصحف الهندية من رأى للسيد رشيد رضا . يتصل بدولة الخلافة . وليس من الأمور الهينة المعتادة أن يسمع واحد فى الهند . رأيا لآخر فى مصر . فينزعج له . ويكلف نفسه الكتابة اليه . ويطلب الجواب منه بما يهدئ روعه ويزيل الشبهة عنه . الا اذا كانت لديه حساسية وعناية خاصة بهذا الموضوع .

---

(١) تلخيصا عن رسالة ماجستير عن " أبى الكلام أزاد وآراؤه الدينية " للاستاذ مقبول احمد

(٢) قدمها لى - مشكورا - فضيلة الاخ الدكتور احمد الشرباصى وقد عثر عليها وهو يبحث فى أوراق السيد رشيد ليكتب بحثا عنه .

ويلاحظ أن مولانا أزاد كان فى أوائل العقد الثالث من عمره حين بدأ هذه الرسائل ، وكان يصدر فى ذلك الوقت مجلته الهلال ، ولا شك أنهما تبادلا رسائل كثيرة مـــدة ، من الزمن كما يفهم ذلك من أسلوب هذه الرسائل وتواريخها :

الرسالة الاولــى

وهذه هى أولى الرسائل وهى صادرة من كلكتا بالهند فى المحرم سنة ١٣٣١ هـ (ديسمبر سنة ١٩١٢م) :

الفاضل الجليل والشيخ النبيـل

سلام عليكم طبتم ودمتم فوق مارمتم ، وبعد :

فانه غير غارب عنكم ما لحضرتكم من المكانة فى فؤادى ، وما ذلك الا لأنى أرى أنكم تخدمون الاسلام والمسلمين خدمة لاتشوبها صوالح الشخصية والجنسية ، لأجل ذلك كلمـــا سمعت كلمة سوء فيكم ، أجدنى مدفوعا الى ردها فى نحر قائلها ، ولقد كتبت بعض الجرائد الهندية ، بأن لكم يدا فى الحركة اللامركزية الحديثة (يريد انفصال بعض البلاد العربيـة عن حكومة الخلافة) وما لبث هذا النبأ أن ذاع فى طول الهند وعرضه ، وطفق النـــاس يتكلمون فى هذا الباب بين مصدق وآخر مكذب ، وثالث مرتاب .. أما أنا فمن الحيـــارى لا أدرى ماذا أقول ؟ لأنى كلما أتذكر نعيكم على محمد على باشا ، أنه وان نفع مصر من وجوه شتى ، الا أنه فارق المركز (يريد الخلافة) وأضر بمصر والدولة العثمانية كلتيهما ، لا أرى لهذا النبأ نصيبا من الصحة ، لأن اللامركزية ما صنع محمد على باشا ، وكلما أصرف النظر عن هذا النعى واقرأ ما نشرته الجريدة لا أجد سبيلا لانكاره .

انكم نصبتم نفسكم للاصلاح ، ومعلوم أن الاصلاح فى أى شأن من شئون الأمـــة لايرجى فوزه الا بالنماذج ، وأن النماذج لا تجدى نفعا ، مالم تكن الأمة حسنة الظن بهـــا وقد قال الله تعالى ((وتعاونوا على البر والتقوى)) ومن معاونة البر درء الريب عن البار ، فنكتب اليكم الأسئلة الآتية ، راجين منكم جوابا شافيا ، لكى ننشرها فى الهند ، ونبرىء ساحتكم :

الأسئلــــة

س ١ ــ هل حضرتكم من أصحاب اللامركزيــة ؟

س ٢ ــ أليس معنى اللامركزية تمزيق أشلاء الدولة العثمانية وتضعيف المجموع بتفريق أجزائه ؟

س ٣ — أليس هذا هو الذى نميتموه على محمد على باشا ؟

س ٤ — أليس هذا يصدق الذين كانوا يرمونكم بفكرة تأسيس الخلافة العربية واحداث الشقاق فى العناصر العثمانية ؟

س ٥ — أليس من البديهى أن العناصر العثمانية اذا تشتتت وتفرقت يبتلعها الأجانب واذن لم تبق لدول الاسلام باقية ؟ والسلام .

المخلص

أبوالكلام الدهلوى

ولعلك لاحظت أنه وقع فى آخر رسالته باسم ((ابوالكلام الدهلوى)) نسبة الى دهلى مع أنه لم يولد فيها ، بل ولد فى مكة ، ثم انتقل مع ابيه الى كلكتا بعد عامين من ولادته وهناك تلقى علومه وخاض غمار الحياة ، ومنها أصدر مجلته ((الهلال)) فمن أين اذن جاءته هذه النسبة ؟

ربما لأن جده كان يسكن دهلى قبل أن يغادر الهند للحجاز ايام الثورة الهندية واحتلال الانجليز للهند سنة ١٨٥٧م ، ومن الجائز أنه اختار أن ينسب لنفسه لمدرسة المصلح الكبير ، امام المجددين شاه ولى الله الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦هـ — ١٧٦٢م والذى اعتاد العلماء والنابهون فى الهند ، أن ينسبوا أنفسهم اليه ، ايذانا بتأثرهم بأفكاره وسيرهم على منواله (قد تأثر به أزاد تأثرا كبيرا)ولعلك لاحظت أنه عبر باللامركزية وأراد تقسيم بلاد الخلافة العثمانية الى دويلات ، ولذلك نعى على دعاة اللامركزية دعوتهم ، وقال انها تؤدى الى تمزيق الدولة العثمانية وتضعيف المجموع بتفتيت أجزائه ، حتى يسهل على الأجانب بعد ذلك ، أن يبتلعوا البلاد ، ولا تبقى حينئذ لدول الاسلام باقية ..

وهذا هو الذى أزعجه حين نشرت احدى الصحف الهندية أن السيد رشيد رضا يدعو اليه ، وأخذ يلقى اليه السؤال تلو السؤال ، وكأنه بهذا يقطع الطريق على السيد رشيد رضا لو صح أنه يدعو الى اللامركزية ..

ولعلنا نلاحظ أيضا من الخطاب مدى حساسية المسلمين فى الهند بكل أمر يتصل بالخلافة

حتى تابعت صحفهم كل ما ينشر عنها ولو بعيدا عنهم فى مصر ، أو غيرها .

ويظهر أن هذا الخطاب بما جاء فيه من أمور تتعلق بالخلافة ، قد أثار السيد رشيد رضا ، ودفعه الى أن يرد عليه فى الحال ، حين وصوله ، كما وجدت ذلك مكتوبا عليه بالقلم الرصاص فى أعلاه اذ كتب يقول : (أجبت عليه فى الحال ١٩/١/١٣٣١ هـ)

والاجابة وان لم يمكن العثور عليها فانها ستكون بداهة قد تعرضت للرد على هذه الأسئلة التى وجهها اليه ابوالكلام فى تفصيل وافاضة ، وقد كان القطبان : رشيد وأبوالكلام ، على خلاف فى بعض النقط حول مسألة الخلافة ولا سيما فى موضوع اشتراط القرشية لها اذ كان يرى أزاد أنها ليست شرطا على عكس رأى السيد رشيد ..

الرسالة الثانية :

أما الرسالة الثانية من مولانا أبى الكلام الى السيد رشيد رضا والتى عثر عليها بين أوراقه أيضا فتاريخها ٢٨ مايو سنة ١٩١٣م جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ وهى صادرة من كلكتا كذلك ، ومكتوبة على ورق كتب فى أعلاه — الهلال — وهو اسم المجلة التى كان يصدرها كما عرفنا وكتب تحت هذا العنوان ((مدير مسئول ورئيس تحرير ، أبوالكلام)) وكانت هذه الرسالة ردا على رسالة من السيد رشيد رضا رد بها على أسئلته التى آثارها فى رسالته السابقة وقد اعتذر ابوالكلام فى أولها عن تأخره فى الرد عليه بكثرة مشاغله وأسفاره لحاجات اسلامية ، وقال فيها انه مع ذلك سيوجز القول الى أن يجد فراغا من الوقت يكتب له فى تفصيل .

وهذه الرسالة أيضا تدور حول موضوع الخلافة ، ويظهر أن رسالة السيد رشيد اليه كانت فى هذا الموضوع نفسه ، كما يظهر أيضا أن السيد رشيد أثار فى رسالته مساوىء الخليفة والحكام الأتراك الذين كانوا يستبدون بالعرب ، ويضطهدونهم ويسومونهم الخسف والهوان ، حتى اضطروهم لكراهية الخلافة والانقضاض عنها ، وقيام الحركات الانفصالية للتخلص من حكمها كما بين فيها ان اتكال المسلمين العرب على دولة الخلافة يدعوهم لاهمال شئونهم ، واستعداداتهم الحربية للدفاع عن أوطانهم ، واقترح لذلك أن يهب العرب ويقوموا قومة رجل واحد لاحياء مجدهم كما اقترح من ناحية ثانية أن يجتمع المسلمون فى مؤتمر عام يبحثون شئونهم ، وينظمون جهودهم

للنهوض ببلادهم .. ويظهر ذلك من رد مولانا أزاد تعليقا على هذه الاقتراحات .. كما ستري .. وهذا هو الرد :

كلكتا فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٣

حضرة المصلح الجليل الله يطيل بقاءه

تحية وسلاما ، وبعد فقد شرفنى كتابكم الكريم ، ولكن يا للندامة فانى لم أستطع رد الجواب ، ولم يكن هذا عن تكاسل وتوان ، فان كتابكم أجل وأهم من أن يكون الى تأجيله سبيل ، بل عن انشغال البال لتراكم الأعمال ، وعروض الترحال فى بعض حاجات اسلامية عامة ، فعفوا عن هذا التأجيل وصفحا .

طال الأمد ولم أرزق بعض ما أجلت الجواب لأجله ولا أدرى الى متى لا أرزق؟ فاجمل لكم القول فى بعض ما أود عرضه عليكم ، واذا تخففت عنى وطأة الأعمال ، وحصلت الفرصة فسأتبع هذا الاجمال بالتفصيل ان شاء الله تعالى .

(١) انكم ترون أن اعتزاز العالم الاسلامى بالدولة العثمانية والاتكال عليها من أهم العوامل التى أعمتهم عن شئونهم ، وأقعدت بهم عن سد ثغورها ، فاذا داهمته النكبة السياسية لم يكن له بها قبل ، وان ظلم العرب ودوسهم باستعمال الولاة الطغاة الذين سفكوا الدماء ، وهدموا البناء ، وأهلكوا الضرع ، وأبادوا الزرع ، وباغلاق أبواب التعليم فى وجوههم حتى الحربية لأكبر جناية سياسية جناها الأتراك على العالم الاسلامى ، بل على أنفسهم أيضا من حيث انهم مسلمون ، وانه قد آن أن يقوم العرب قومة واحدة لاحياء تاريخهم المجيد واستعادة مجدهم التالد وعزهم السالف . ان هذا الرأى رزين ، واننى معكم فى هذا القول ، لكن علينا بالتأنى والتأمل ، فان الطريق ذات غور ونجد ، وانه يمر من مجاهل سياسية يجول فيها أغوال أوربا ويفتكون بالرباب[1] الحذر فكيف بالبسيط الغرير .. ولا سيما أن المسلمين قد بلغ منهم الضرة

---

(١) بكسر الراء الجماعات المركب كل جماعة منها من عشره (المنجد) ويريد بهذا الجمع الكثير الحذر

والبساطة والجهل والخيانة الى أنهم كلما قاموا للاصلاح ازدادوا فسادا ، أو حاولوا اغلاق باب للأجانب فتحوا آخر ..

(٢) رأيت اقتراحكم الجليل من تأليف مؤتمر اسلامي عام فحسبت كأن هناك ترجمانا يترجم لأذني ما يشعر به قلبي ، وكيف ؟ فانه كم من ليال لا أنام ، وأنا غارق فـي هذه الفكرة فيشرد النوم ، ولم أزل أفكر الى أن ينبثق الفجر ، فارحب بهذا الاقتراح العظيم أبرزه الله في معارض الوجود .

لكن أين يحتفل (ينعقد) هذا المؤتمر ؟ هذه مسألة عويصة . فالآن الأجد ربـه اما الهند أو مصر ، وكلاهما تحت نير الانكليز الذين هم أعدى أعداء الاســلام . فاني على يقين بأنهم لن يدعونا نعمل في هذين القطرين عملا نافعا . على كـل حال الموقف حرج والوقت ضيق ، والعدو على الباب ، ثم ان الشئون والأحـــوال معروفة لدى كل منا ، والأفكار متحدة ، والطريق أمام أعيننا ، فيا حبذا لو تركنـا الاقتصار على تداول الأفكار ، ونشر الاقتراحات والمشروعات ، ونأخذ في السير الى المرام .

سامحوني ان قلت لكم بأنكم لستم من المطلعين على أحوال الهند لبعدكم عنه ، وأن نواب وقار الملك ليس من رجال هذا الأمر . نعم هنا رجال آخرون غيره أكفاء فـأي خدمة تريدون أن يقوم بها أهل الهند تفضلوا بتفصيلها .

(٣) قد عزمت على نشر جريدة عربية يكون اسمها ((الاتحاد الاسلامي)) وذلك لتوطيـد الأخوة المسلمة في العالم الاسلامي ، ولا سيما العرب الذين هم مهد الاسلام ، واخبارهم عن احوالنا وأفكارنا ، واستخبارهم عن أحوالهم وأفكارهم ، فهل نرجو من حضرتكم المساعدة في هذه الخدمة الجليلة للعالم الاسلامي ؟ ان الحركة العربية والمسألة اللامركزية أسا#اليكم (فيكم) ظن مسلمي الهند ، وهم يعدون هذه الحركة دسيسة من دسائس الأجانب لبتر عضو آخر من جسم الدولة الاسلامية ، لكني أقول بكل

فخار أن رأيي فيكم لم يزل عن موقفه السالف قيد شعرة ، ولا أزل أراكم مصلحا مخلصا لوجـــه الله ، داعيــا الى القرآن الحكيم ومحيي السنة النبوية وقامع البدع والخرافات ، وأدعـــو الله أن يكشف لي القناع عن حقيقة مسائل سياسية أرى فيها غير ما ترون ، وان شئتم نشر هذا الكتاب فلكم ذلك والسلام .

مخلصكم الوفي
ابوالكـلام الدهلـــوي

لعلك لمست في هذا الخطاب حصافة مولانا أبي الكلام ، وتعقله في تناول الأمـــور ، وعدم تعصبه تعصبا أعمى لرأيه الذي يؤمن به .. فانه بالرغم من تعصبه للخلافة ، وهجومه على كل من يدعو الى تمزيق دولتها ، وتشتيت وحدة المسلمين حولها ، لم ينكر على السيد رشيد دعوته الى أن يهب العرب من نومهم ، ويقوموا قومة رجل واحد لاسترجاع أمجادهم واحيــاء تاريخهم .. ولم يبخس العرب حقهم ، ولم ينكره عليهم ، وانما قال عن رأي السيد رشيد فـــي هذه الناحية : ((انه رأي رزين واني معكم في هذا))

ثم انه — برغم شبابه الثائر الفائر — كان بعيد النظر عميق التفكير ، وكأنه كان ينظر في كتاب مفتوح أمامه ، فرأى أن العرب حين يحاولون هذا ، ويعملون على استرجاع أمجادهم ، بالتخلص أولا من الدولة العثمانية التي تحكمهم وتظلمهم ، فانهم سيقعون فريسة بين مخالـب أغوال أوربــا ويكون العرب حينئذ تخلصوا من ظلم الدولة الاسلامية لهم ، ليسلموا أنفسهـم الى ظلم الأجانب لهم ، واستبدادهم بهم !!

وهذا هو الذي وقع بعد ذلك حين قام الشريف حسين بثورته في الحجاز ضد الدولة العثمانية ، وأمن للانجليز ، ووثق بعهودهم ، وسار معهم ضد الأتراك حتى تم لهم النصر ، فنكثوا بعهودهم واقتسموا مع فرنسا البلاد العربية التي كانت تحكمها دولة الخلافة ، وظلـت هذه البلاد ترزح طويلا تحت نير الاستعمار ، وتعاني من بلائه وشروره ما تعاني حتى الآن فلايزال الغرب يتربص بها ، ويحاول أن يقضي على استقلالها ، ويحطم نهضتها ، هـذا فـوق النكبة الكبرى التي حلت بالعرب في فلسطين منذ سنة ١٩٤٨ م .

ولهذا نصح مولانا ابوالكلام بالتأني والتأمل فيما دعا اليه السيد رشيدوضا لأن الطريق وعرة شائكة ، والعرب حين يسيرون الى غايتهم فانهم يمرون بأغوال أوربا الذين يفتكون بالجماعات الحذرة المستعدة ، فكيف بالمسلمين فى بساطتهم وجهلهم بالأمور ،وخيانتهم للمصلحين فيهم ((الى حد أنهم كلما قاموا للاصلاح ازدادوا فسادا أو حاولوا اغلاق باب للأجانب فتحوا أبوابا أخرى)) .

ويبدو أن مولانا أبا الكلام كان يعاني — مثل سائر المصلحين فى الشرق — مرارة شديدة من حال المسلمين ،وتفككهم وضعفهم ، وانصرافهم من المصلحين ، بل وخيانتهم لهم ، وهذه الحال كثيرا ما تعترى الأمم حين تقوم من رقدتها الطويلة تتلمس طريق البعث والنهوض ويقودها المصلحون الى هذا الطريق ، اذ تقوم فى وجوههم مخلفات عصور النوم والضعف ، وتتمثل فى عقليات جامدة ، أو نفوس حاقدة أو عملاء للاستعمار لهم مصلحة فى استمرار الأمة فى ضعفها ونومها .. والمصلحون الحقيقيون هم الذين يثبتون على الطريق ،ممسكين بشعلة الاصلاح ، غير عابئين بهذه المخلفات ، ولا يائسين من الوصول الى الهدف بالرغم مما يصيبهم من جحود واهانات .. وهكذا كان مولانا أزاد .. لم ييأس ولم يلق الشعلة التى فى يده ، ولكنه كان يتخذ من معرفته بالأوضاع المكسية التى تحيط به درعا يتقى به الفشل ، ويدفعه الى السير فى طريقه بتأن وحذر .

وبهذه الروح كان ينظر الى اقتراح السيد رشيد رضا الخاص بعقد مؤتمر اسلامى . و بالرغم من أنه صرح بأن موضوع هذا المؤتمر كان موضع تفكيره المستمر من زمن طويل ، وكان شغله الشاغل الذى كثيرا ما طرد من جفنيه النوم حتى ينبثق الفجر ، وهو يتقلب على فراشه ، غارقا فى التفكير فيه ، الا أنه كان ينظر الى العقبات التى تعترض طريق هذا المؤتمر ، ويرى أن انعقاده فى مصر أو الهند وهما البلدان اللذان يمكن عقده فيهما يجعله تحت سيطرة الانجليز وهم أعدى أعداء الاسلام ، ولا يدعون المسلمين يعملون عملا نافعا لهم ..

وليس معنى هذا عنده اهمال الفكرة وتركها يأسا من نتيجتها ، ولكنه يعرض هذا ليكون فى الحسبان عند بدء العمل ، ولهذا نجده يشير الى أن الخطر على الباب ، وأن الواجب يقضى

بعدم الاقتصار على الكلام ، ونشر المشروعات بل لابد من البدء في عمل فورى جدى يفيد المسلمين .

ونراه أخيرا يخطو خطوة واسعة في سبيل تدعيم العلاقة بين مسلمى الهند واخوانهم العرب ((الذين هم مهد الاسلام)) فيكتب للسيد رشيد رضا عن عزمه على استصدار مجلة باسم ((الاتحاد الاسلامى)) لتوطيد الروابط بين المسلمين وايقافهم على شئون اخوانهم في كل مكان ، ويرجو من السيد رشيد مساعدته على اخراج هذا المشروع الحيوى بمده بالأخبار والمقالات ..

ويظهر أن الظروف لم تساعده على تنفيذ هذا المشروع في ذلك الوقت ، وان كان من المعروف عن تاريخ الصحافة العربية في الهند أن مولانا ازاد أخرج مجلة عربية باسم ((الجامعة)) ولكن في سنة ١٩٢٣ م وكانت تصدر عن كلكتا ، واستمرت عدة سنين ، وكان لها صدى في الأوساط العلمية في الهند والبلاد العربية ، وقامت بدور رائع في تاريخ الصحافة العربية والهندية لاينكر فضله (مجلة صوت الهند التى تصدرها السفارة الهندية في مصر ٧ يونيو ١٩٥٩ مقال الصحافة العربية في الهند للاستاذ : سعيد الرحمن الندوى) .

ولشدة حساسية مولانا أزاد نحو الخلافة والابقاء عليها يعود في آخر الخطاب الى ما نشر عن السيد رشيد في الهند من أنه يدعو الى الحركة الانفصالية والقومية العربية فيؤكد له أنه وان أساء فيه ظن مسلمى الهند الا أنه لايزال عند رأيه فيه من تأييده لحركة الخلافة ، ومن أنه لايمكن أن يدعو لبتر جزء آخر من دولة الخلافة ويكون العوبة في يد الأجانب الذين يريدون بها سوءا ... وهو في هذا يبدو في غاية اللباقة والكياسة مع السيد رشيد .. الذى يرى فيه مصلحا مخلصا لوجه الله داعيا الى القرآن الحكيم ومحييا للسنة النبوية .

رسالة ثالثة :

وهذه رسالة ثالثة عثر عليها أيضا بين أوراق المرحوم السيد رشيد رضا ويبدو منها أن المكاتبات بينهما ظلت مدة طويلة كما يتبين من تاريخ هذه الرسالة (ذو الحجة ١٣٤٢ هـ

يوليو ١٩٢٤ م — وكان أزاد قد مر بأدوار من الجهاد والمحاكمات والاعتقال والسجن كما عرفت وكانت الخلافة قد صدر قرار بالغائها في جمادى الآخرة سنة ١٣٤٢ هـ مارس ١٩٢٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير الى الله احمد

الى حضرة العلامة المصلح الجليل السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فقد تلقيت كتبكم في السنة الماضية وأنا خارج من السجن حديثا ، وقد كانت الأحوال اذ ذاك هنا مرتبكة بسبب الخلاف بين المسلمين والهندوس والزعماء في السجون فاضطررت الى التجول في البلاد ، وكنت متغير الصحة ، مشغلا بمهمات الحركة الوطنية ، واختلافات الأحزاب السياسية ، وأعمال جمعية الخلافة الكثيرة ، فتزاحمت الأشغال وصدتني من الكتابة اليكم مع القصد الدائم عليها ، وعلم الله كم كانت هذه الموانع شديدة ، حتى غلبتني وغلبت ارادتي وعزمي ، ثم لما جاء فصل الصيف اشتد مرضي ، حتى قهرني على الانتقال الى جبل " سملا " — المصيف — وقد وجدت اذ ذاك فراغا فأخرجت كتابيكم اللذين كنت اصحبهما دائما معي في السفر ، لأجيب عند سنوح أول فرصة وكتبت اليكم كتابين في بريدين متواليين ، ولعل هذا كان في ١٥ أو ٢٥ من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٣ م ، وقد فصلت فيهما آرائي في جميع المسائل التي كنتم خاطبتموني فيها ، وكذلك شرحت في الكتاب الثاني أفكاري في مستقبل مسألة الخلافة بعض الشرح .

ثم انهمكت بعد ذلك في المسائل السياسية الهندية ، ولكن مازلت انتظر جوابكم ، واحمل التأخير على قلة فراغكم وكثرة اشغالكم ، وحيث أن التأخير كان حصل أولا من قبلي ، وكان لا يبرحني الاستحياء والخجل من ذلك ، لم أرني أستحق الشكوى اليكم من تباطئكم في الجواب ، حتى اذا رجعت من السفر الأخير الطويل علمت من الشيخ عبد الرزاق بأنه لا يوجد في كتبكم الجديدة ذكر ما عن كتبي ، بل يظهر من كلامكم أن كتبي لم تصلكم مطلقا ، فدهشت لذلك ولم أستطع الى الآن تعليله لأنه مادامت كتبكم تصلنا بدون أي تعويق ، كان يجب أن تصلكم كتبنا كذلك ، والذي زادني أسفا أن كتبكم السابقة ليست عندي الآن فيصعب علي أن أعيد

كل ما كتبته فى كتبى ذلك الحين .

وأرجو أن يصـل هذا الكتاب اليكم فى موعده ، لأنى قد اتخذت الاحتياطـات اللازمة فى ارساله . أما فى المستقبل ، فسيكون أهم أعمالى فى الأسبوع دائما ، أن أكاتبكم بدون انقطاع ، ورجائى من كرمكم ولطفكم أن لاتحرمونى من كتبكم ، فان مطالعتها ستسعدنى وتسرنى دائمـا .

أكتب هذا الكتاب المختصر وموعدى بالمفصل فى البريد القادم ان شاء الله تعالى ، وسأسعى من جديد أن ألخص ما فصلته من الكتب السابقة المفقودة :

(١) لقد ارتكب المفرطون المتفرنجون من الأتراك ما كنا نخشاه[1] منهم ، ولكن لايخفى على فضيلتكم أن مسلكنا فى الهند من أول يوم ، الدفاع عن تركيا أمام الأجانب المحاربين ، والسعى للاصلاح فى داخلية الدولة ، لقد قمنا بالواجب الأول أيام الحـرب ، عندما كان حتى التلفظ باسم تركيا جناية لاتغفر ، فضحينا فى سبيل هذا الواجـب ما استطعناه من أموالنا وانفسنا ، أما الآن وقد جاء أمامنا الباب الثانى ، فسنعمل فى سبيله أيضـا كل ما نستطيع ، بدون أن نبالى بالنتائج ، فان أداء الواجب فوق اعتبار النتائج .

(٢) أما ذلك الاضطراب والهياج الذى أراه فى العوام فى مصر والهند فلا أقيم له وزنـا ، ولا أرجو من ورائه نفعا ، لايوجد فى مصر الا أناس معدودون لهم العلم بغـوامض هذه المسألة ـ قيل أنه يجب نقل الخلافة الى مكان آخر ، ولكن المصيبة أنه لا يوجد اليوم على وجه الأرض مكان توجد فيه أدنى شروط الخلافة ، وقد يقال توجد بالقـوة أى نظريا أمكنة تلائم هذا الفرض ، ولكن لا أرانى أتصور أن هذه المسألة يمكن حلها بالنظريات .

---

(١) كانت الخلافة فى تركيا قد صدر قرار بالغائها فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤م بعد أن أعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٣ وتقرر جعل الخلافة للشئون الدينية فقط ، ومن الجدير بالذكر أن أزاد وقف يشيد فى الهند بانتصار مصطفى كمال على اليونان والحلفاء مما هذا الانتصار الذى حفظ تركيا من الاستعمار وجدد لها استقلالها ، واعتبر هذا الانتصار انتصارا للهند وتركيا وكل البلاد الاسلامية ولم يكن حينئذ يظن أن مصطفى كمال سيلعب بالخلافة حتى يلغيها نهائيا ، ويقضى على الكثير من مظاهر وتعاليم الاسلام .. وسنذكر فى موقع آخر خطبته التى ألقاها فى حزب المؤتمر الهندى عند اجتماعه فى ١٥/٩/١٩٢٣م .

(٣) نعم ءان فكرة المؤتمر الاسلامى فكرة صحيحة ، فان مثل هذا المؤتمر كان ضروريا فى كل الأحوال حتى لو لم يقع ما وقع فى مسألة الخلافة ، لأن من أكبر حاجات المسلمين الاجتماعية الجوهرية من قرون هو ايجاد عصبة صالحة من أهل الحل والعقد ، فان نجحنا فى تكوين جماعة تصح أن تسمى بأهل الحل والعقد ، فلا يبعد أن يأتى حل لمسألة الخلافة بنفسه ، وسأعرض على مسامعكم أفكارى فى هذه المسألة بالبريد القادم .

وفقنا الله سبحانه واياكم لما يحبه ويرضاه .

كلكتا : ٧ ذى الحجة ١٣٤٢ هـ يوليو سنة ١٩٢٤ م

أظن أن هذه الرسالة تعطينا صورة كافية عن مولانا أزاد واهتمامه بالخلافة ومصيرها ، ولا شك أننا نفهم أن جهوده داخل الهند من أجلها كانت أكثر وأعظم ، وهذا هو الواقع ، فقد كانت الخلافة تشغل كل تفكيره مثله فى ذلك مثل بقية المسلمين فى الهند ، ولهذا رأيناه أثناء مرافعته أمام المحكمة التى كانت تحاكمه سنة ١٩٢٢ يثير موقف الحكومة الانجليزية العدائى من الخلافة واعتداءها على أراضيها ، ونقضها للعهود بشأنها ، فيقول :

" وانى لا أفكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الاسلامية ، لأنها أشهر من أن تذكر ، ولكن الذى أريد التصريح به هو أنه لم يمض على يوم ولا ليلة فى خلال السنتين الماضيتين الا وأعلنت تلكم المظالم على رؤوس الأشهاد ، وصرخت بأعلى صوتى قائلا :

" ان الدولة التى تدوس الخلافة الاسلامية تحت أقدامها ، ولا تندم على ما اقترفته فى الهند من الفظائع والمنكرات لاتستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد ، لأنها بأعمالها قد أصبحت عدوا ألد للاسلام وللمسلمين وسكان هذا القطر "

" ولا تلومن الحكومة أحدا غير نفسها على سقوطها فى هذا المأزق الذى يصعب عليها الخروج منه ، لأننى قد نبهتها سنة ١٩١٨ من معتقلى فى كتاب منى الى ((اللورد جيمسفورد)) الوالى السابق ، فصلت لها فيه الأحكام الاسلامية التى تتعلق بالخلافة وجزيرة العرب ،

وصارحتها بأن الدولة البريطانية اذا نقضت عهودها واستولت على الخلافة والبلاد الاسلامية فانها توقع المسلمين فى حالة حرجة جدا ، ولا يبقى لهم اذ ذاك الا أن يكونوا مع الاسلام أو مع بريطانيا . ومعلوم أنهم يؤثرون أن يكونوا مع الاسلام "

وفى موضع آخر من مرافعته يندد فى شدة وصراحة بموقف الحكومة الانجليزية ورئيس وزرائها من الدولة العثمانية واخوانه المسلمين فيها ، ويعدد المساوئ التى من أجلها قام هو وشعب الهند ضد انجلترا ، فيقول — بعد أن عدد مساوئها فى الهند :—

" ثم انهم وجدوها لاترتدع عن دوس الخلافة الاسلامية ، ولا تسمع الصيحات المتوالية التى تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم ، وتسليم أزمير وتراقيا الى اليونان ظلما وجورا ، وتسمح لهم باراقة دماء المسلمين انهارا فى سهول الأناضول ، وقد رأينا جرأتها فى سحق الحق غير قليلة ، وهمتها فى لبس الصدق بالافك غير كليلة ، ولسانها فى تكذيب الحق غير عيى ولا متلعثم، فمع أنه يوجد فى ولاية أزمير ٧٠٪ من المسلمين يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى تحرج أن الأكثرية للمسيحيين ، ولقد وضع اليونان السيف فى رقاب المسلمين وذبحوهم ذبح الأغنام ، وهو يقلب الحقيقة ، فيتهم العثمانيين بالقتل وسفك الدماء ، ويشهر المظالم التركية المخترعة فى العالم بلا مبالاة ، ويخفى بكل وقاحة تقرير لجنة التفتيش الامريكية التى ندبتها حكومته بنفسه ، ويؤلب على الأحرار العثمانيين الدول الغربية كلها ، ويدعوها الى محاربتهم واستئصالهم . "

ثم يقول أيضا فى موضع آخر من مرافعته :

" ثم انى منذ خرجت من الاعتقال الطويل مابرحت أنشر هذه المبادئ — مبادئ الثورة ضد الانجليز — بين الناس ، وادعوهم اليها . ففى مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بكلكتا نفسها والذى رأست جلساته حملت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتى :—

" ان اصرت الحكومة الانجليزية على غوايتها ، ولم تصغ لمطالبنا فى مسألة الخلافة ، يضطر المسلمون بحكم دينهم أن يقطعوا كل أواصر الولاء التى تربطهم بها " .

وفى نفس هذا المؤتمر أعلن أنه لا يحل للمسلمين أن ينسلكوا فى الخدمة العسكرية لهذه الحكومة لأنها تحارب الخلافة والدولة الاسلامية .

وهكذا تشغل مسألة الخلافة بال مولانا أزاد ووقته وجهده بجوار مسألة بلاده وتحريرها . والعدو واحد ، وهو الانجليز . ويبدو مولانا أزاد بهذا رجلا مسلما لا يتنكر أبدا لواجبات المسلم تجاه اخوانه ، بل يحس احساسهم ، ويشعر بشعورهم أينما كانوا ، ويرى أن مساندة الغرب والانجليز بنوع خاص لليونان ضد دولة الخلافة انما هو اعتداء على المسلمين فى كل مكان ، وان من الواجب عليهم أن ينفروا جميعا ضد الانجليز ويحاربوهم ، ما داموا يناصرون المسيحيين اليونان على المسلمين ، ويظهر من هذا شبح حرب صليبية اخرى .

ان مولانا أزاد يبدو فى هذا مسلما بلغ القمة فى اسلامه ، وفى شعوره الدينى ، وفى احساسه بواجبات المسلم والتزاماته نحو اخوانه .. حتى كأنهم جسد واحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر كما يقول صلى الله عليه وسلم . ودولة الخلافة هى فى رأيه قلب العالم الاسلامى ، وكل أذى يمس هذا القلب يهدد المسلمين جميعا بالخطر .. ولهذا كرس كل جهوده لحماية هذا القلب والدفاع عنه ..

وقفة قصيرة :

ربما يبدو هذا الموقف من مولانا أزاد غريبا للذين يعرفون عن دولة الخلافة من الفساد والظلم والانحلال ما يتنافى مع أبسط قواعد الاسلام والحكم الاسلامى ، ويتعجبون لرجل يتفانى فى خدمة مبادىء الاسلام ، ثم يجاهد ويعذب من أجل دولة لا تمثل الاسلام ، وخليفة وولاة له لا يضعون أمام أعينهم هذه المبادىء الاسلامية فى حكمهم للمسلمين لا فى تركيا نفسها ولا فى البلاد التى كانت تخضع لها وربما يقول هؤلاء المستغربون لموقف مولانا أزاد هذا : أنه كان هناك فى الهند بعيدا عن ساحة الحكم التركى ومظالمه ومفاسده ، فكان يحكم حكما نظريا ، ويسير وراء عواطفه الاسلامية ، غير مراع الناحية الاخرى الواقعية التى كان يسير عليها الاتراك فى دولتهم وحكمهم للعرب حيث كان الجميع الاتراك والعرب مما يئنون من حكمهم الجائر .

لكـن مولانـا أزاد وان كـان بعيدا عن حكم الأتراك الا أنـه كان يعرف عنهـم كـل شئ ، ويعرف فسادهم وتعصبهم ،وانحرافهم عن مبادئ الاسلام فى حكمهم ، وكـان يرى مع ذلك كلـه أن من واجب المسلمين جميعا ـ عربا وغير عرب أن يعملوا لاصلاح هـذه الحال وأن يقفوا فى صف دولة الخلافة .. ويدفنوا حزازاتهم ،ويداووا جراحاتهم ـ ولو مؤقتـا فى سبيل مناصرة اخوانهم المسلمين ضـد الغربيين المتربصين بهم ، لأن هؤلاء الغربيـين على اختلاف ما بينهم فى السياسة والمطامع ـ وقفوا جميعا مع دول البلقان المسيحية ضد دولـة الخلافة المسلمة ، عداء للاسلام والمسلمين ، وقام شعراؤهم وخطباؤهم من أجل هذا يؤلبـون المسيحيين الغربيـين ضد الخلافة الاسلامية ،واستطاعوا بكل هذا أن يقطعوا البلقان مـن جسم الدولة العثمانية فى الوقت الذى يستعمرون فيه دولا اسلامية أرقى من البلقان ، كمـا ساعدوا ايطاليـا على اقتطاع ليبيـا منها .

كانت هذه هى روح الغرب التى يعامل بها دولة الخلافة ، والبلاد الاسلامية التابعة لها ، وكان مولانا أزاد يدرك هذا تمام الادراك ، ومن أجله وقف بجهوده مع اخوانه المسلمين فى الهند ، بجانب الدولة ـ القلب ـ ودعا المسلمين فى كل مكان أن يتناسوا مظالم الأتـراك ، وينقذوا دولتهم ـ الدولة الاسلامية ـ من براثن الغرب المتعصب ويحولوا بينه وبين سيطرتـه على بلادهم .. ولهم بعد أن ينجحوا فى هذا أن يحاسبوا دولة الخلافـة ، أو أن يصلحـوا شأنها ، أو يستقلوا عنها اذا أرادوا .. ولكن بعد أن يحافظوا على الجسم كله ، وعلى هيئـة الدولة الاسلامية ، ويحولوا دون غزو صليبى آخر لبلادهم ..

كانت هذه هى وجهة النظر المسيطرة على مولانا أزاد ، وهى وجهة لاتبعد عن وجهة نظر الاسلام الى الخليفة فى مثل هذه الظروف ، حتى ولو كان فاسدا اذا كان خلافهم معـه يؤدى الى ضرر أكبر .. فان الاسلام يوجب على المسلمين أن يتكتلوا ويتوحدوا تجاه العـدو المشترك ، ولا يثيروا فيما بينهم خلافات أو حزازات تذهب بوحدتهم ، وتأتى على بلادهم .. وتجلب لهم ضررا أشد من الضرر الواقع بهم .

ثم جاءت الأحداث التى وقعت بعد الحرب فأيدت وجهة نظره ، فالانجليز لم يفوا بعهودهم فى المحافظة على دولة الخلافة اذا خرجت من الحرب منهزمة ، بل عملوا على تقسيم البلاد الاسلامية التابعة لها بينهم وبين فرنسا ، ولم يستطع القائد الفرنسى الذى دخل دمشق منتصرا أن يخفى روحه الصليبية ، فذهب من فوره الى قبر صلاح الدين الأيوبى الذى طرد أسلافه الصليبيين من الشرق ، ووقف فى تهجمج ووقاحة وحقد أعمى يتحدى رفات البطل مشيرا الى قبره برجله ويقول : " لقد عدنا يا صلاح الدين " ومن قبله قال القائد الانجليزى الذى انتصر على الأتراك ، ودخل مدينة القدس واستولى عليها " الآن انتهت الحروب الصليبية " مستعيدا — فى شماتة ظاهرة — موقفا مرت عليه قرون حين طرد أسلافه على يد المسلمين الأبطال من القدس ومن الشرق العربى كله ..

بل ان الحلفاء عملوا فى معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ على تمزيق الوطن التركى نفسه وتوزيع أجزاء منه لايطاليا واليونان بقصد اذلال تركيا الى آخر حد ممكن مما أثار المسلمين فى كل مكان ودفع بالشعب التركى الى انتفاضة الحياة بقيادة مصطفى كمال فى وقت ظنوا فيه أن لاحياة فى هذا الشعب وانهم يجهزون عليه . وانتصر الشعب بقيادة مصطفى كمال وكان لهذا الانتصار صداه فى العالم الاسلامى وأثره لدى دول الغرب كذلك .

وقد سجل أمير الشعراء المرحوم احمد شوقى هذا الانتصار بقصيدته التى افتتحها بهذا البيت :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب ** ياخالد الترك جدد خالد العرب

ولكن صدى هذا الانتصار فى الهند كان أقوى وأوسع ، اذ اعتبروه نصرا للاسلام على الروح الصليبية التى استيقظت من جديد فى دول الغرب كما اعتبروه نصرا للحق والعدالة والشرف فى وقت تألبت فيه القوى الغربية على دولة الاسلام وعلى الحق والعدل والشرف .. وانطلق صوت أزاد من الهند فى اجتماع عام لحزب المؤتمر الهندى كان هو رئيسه فى ذلك الوقت ١٩٢٣/٩/١٥ يقدم باسم الحزب واسم المسلمين جميعا فى الهند التهنئة والابتهاج

بهذا النصر . وكان الخليفة العثمانى لايزال فى مركزه كما هو [١] وان كانت السلطة الفعلية قد انتقلت لمنقذ تركيا مصطفى كمال . ومما قاله أزاد فى خطبة طويلة [٢] :

أيها السادة : أعتقد أن أول شيء تتوقعونه منى هو أن أعبر عن شعوركم النبيل نحو انتصار تركيا التى يربطنا بها رباط الحب والهدف . لقد شهد العالم انتصار تركيا فى صورة معجزة حية ظهر فيها روح حب الوطن والتضحية الفريدة فى سبيله .

ان الهند مهما افتخرت بهذا النصر وقدمت التهانى من أجله لتركيا فهى ترى أن هذا الانتصار هو انتصار للشرق كله لقد كانت هذه الحرب فى حقيقتها حرب الاصول ومعركة العقائد . كان فى جهة غرور بالقوة وفى جهة اخرى فقر الحق والعدالة . وكان أصحاب القوة يدعون الا حياة الا للقوة بينما كانت العدالة تتشبث بالحياة مع ضعف أهلها وطلابها . واستمر هذا النزاع مدة حتى شاء الله أن تنهزم القوة مع عددها وعدتها وتنتصر العدالة مع فقرها وبأسها . ان انتصار تركيا فى الحقيقة أوسع من أن يكون نصرا لآسيا والشرق كله لأنه انتصار للحق فى كل مكان فى الشرق أو الغرب . والحق أعلى وارفع من أن يكون للشرق أو الغرب والعدالة كذلك ليس لها وطن ولكنها للانسانية ولهذا اهنىء كل انسان فى الشرق والغرب يحترم الحق والعدل والحرية "

وبعد ما ذكر أزاد بعض الامتيازات والحقوق التى حصلت عليها تركيا فى " اتفاقية لوزان " فى ١٩٢٣/٧/٢٤ م قال .. ان كل ذلك لم يتم على سبيل الوفاء بالعهود . بل كان بحد السيف وذلك أكرم وأجود لتركيا ولنا ولكن يبقى بعد ذلك سؤال نوجهه الى بريطانيا : ماذا حصل لبريطانيا التى داست عهودها لنا وللعالم . وأبت أن تخضع للحق طوال اربع سنين ؟ لقد سجدت الآن امام القوة وكم اصدرت احكاما بالقلم . ولكنها قطعت

---

(١) قررت الجمعية الوطنية التركية فى ١ اكتوبر سنة ١٩٢٣ اعلان الجمهورية واختيار مصطفى كمال رئيسا لها مع بقاء منصب الخلافة على أن يقتصر الخليفة على الشئون الدينية ولا يتدخل فى الحكم ثم فى مارس سنة ١٩٢٤ قررت الجمعية الغاء منصب الخلافة نهائيا وطرد الخليفة من البلاد (ص ٥٣٩ من جـ ٥ التاريخ الاسلامى للدكتور احمد شلبى .

(٢) نقلها من اصولها وبعث بها الى الأخ مولانا أسعد مدنى سكرتير عام جمعية علماء الهند [illegible] البرلمان المركزى الهندى مشكورا .

الآن بحد السيف ، وكانت تظن أنها مالكة للقضاء والقدر وكم رفعنا معا أصواتنا نستغيث بالحق والعدالة ولكنها أبت مستحقرة لنا ولكن عند ماكتب مصطفى كمال الاتفاقية بحد السيف استقبلته خاضعة ذليلة .

لاننتظر جواب التاريخ لأن الدنيا كلها قد أجابت ، والحقيقة أن بريطانيا ان حصلت على شئ بعد أن أخذت تركيا كل شئ فقد حصلت على وصمة الظلم والفشل التى كانت أولا على ظهرها وظهرت الآن على جبينها "

بهذه الكلمات الملتهبة ، وبهذه الشماتة الظاهرة ببريطانيا علق أزاد على انتصار مصطفى كمال الذى هو انتصار لتركيا دولة الخلافة التى عاش أزاد يدافع عنها وعن رمز المسلمين فيها وهو الخليفة . واذا كانت فجيعة أزاد ومسلمى الهند تفوق كل فجيعة حين مزق الحلفاء دولة الخلافة وخانت بريطانيا عهودها التى قطعتها لأهل الهند فكم كانت فرحتهم عند انتصار مصطفى كمال ، ومحافظته على الدولة وكيانها .. ذلك هو الذى دعا أزاد الى أن يعبر عن فرحة الشعب فى حفل عام للحزب ويلقى هذه الخطبة الطويلة التى اقتطفنا جزءا منها ..

ولم يكن أزاد يظن حين ألقى كلمته وأعلن فرحته لانتصار مصطفى كمال على الحلفاء أن الخليفة سيتعرض لهزات تنتهى به الى القائه خارج حدود وطنه .. بعد القضاء على الخلافة نهائيا فى تركيا واتجاه المنتصر الى الغرب وقطعه كل صلة لتركيا بالشرق وبالاسلام ..

وقد عبر أزاد بعد ذلك عن خيبة أمله فى المنتصرين وذلك فى رسالته الثالثة التى ذكرناها من قبل موجهة للسيد رشيد رضا التى يقول فيها :

" لقد ارتكب المفرطون المتفرنجون من الأتراك ما كنا نخشاه منهم "

ثم ذكر بعد ذلك للسيد رشيد اقتراحاته بشأن وجوب بقاء الخلافة فى أى مكان لتكون رمزا لوحدة المسلمين .. الخ ..

بحث لـه عن الخلافـة :

ولشدة عناية مولانـا أزاد بالخلافة ،واهتمامه بها ، وحماسه لها وجدناه لا يكتفى بمواقفه وخطبه ورسائله ، بل يكتب بحثا طويلا عنوانه ، الخلافة الاسلامية " باللغـة الأوردية يمنه وجهة نظر الاسلام الى الخلافة من جميع نواحيها .

وقد قام الشيخ عبد الرزاق المليح أبادى الهندى احد المعجبين بمولانا أزاد بترجمة هذا البحث ونشره السيد رشيد رضا فى أعداد مجلة المنار " على أقساط مسلسلة (١).

ولا شك أن أزاد كان يهدف بهذا البحث ونشره بين المسلمين فى الهند أولا الى تدعيم فكرة الخلافـة فى نفوسهم وجمعهم حوله لمناصرتها والدفاع عنها ، والرد على من يقولون بعدم صحة الخلافة العثمانية لعدم توفر شرط القرشية فى خلفائها (٢).

وقد دعانى للعناية بهذا البحث ما لمسته فيه من جوانب مشرقة لتفكير أزاد وطرق استدلاله ، وسعة أطلاعـه ومدى احاطته وتعمقه فى فهم دينه ، وهو جانب مهـم من جوانب شخصيته ، لمسه كل الذين عاشروه وقرءوا له ، واستمعوا الى أحاديثه أو خطبه حتى الهندوس والزعماء منهم بوجـه خاص مما جعل غاندى يقول عنه " انه لا يبارى فى العلوم الاسلامية كما كان متبحرا فى اللغة العربية " ونظرا لطول هذا البحث وعمقه ، جعلته من ملاحق هذه الرسالة ليتسنى الاطلاع عليه فى نصه الحرفى ، وهو ملحق (د)

---

(١) فى المجلد الثالث والعشرين سنة ١٣٤٠ ، ١٣٤١ هـ الموافق سنة ١٩٢٢ م صفحات ٤٥ ، ١٠٢ ، ١٩٣ ، ٢٨٢ ، ٣٦١ ، ٤٦٦ ، ٥٠٩ ، ٦٩١ ، ٧٥٣ بتعليقات من السيد رشيد رضا على الهامش حول أراء أزاد ونقدها حرصت على ذكرها كذلك .

(٢) وكان السيد رشيد ممن يتمسكون بأن الخلافة فى قريش ، وقد نشر بحثا له عن الخلافة تباعا فى المجلدين ٢٣ ، ٢٤ من مجلة المنار ثم جمع هذا البحث فى كتاب سماه : " الخلافة أو الامامة العظمى " وقد وجه هذا البحث الى الشعب التركى الباسـل وحزب الاصلاح فى البلاد العربية والتركية ،وتفضل صديقى المرحوم الشيخ عبد الرحمن عاصم ابن شقيق المرحوم السيد رشيد رضا باهدائه الى حين زرته فى بلدته وبلدة السيد رشيد " القلمون " بجوار طرابلس لبنان فى صيف سنة ١٩٦٩م

قضية فلسطين والاعداء الثلاثى سنة ١٩٥٦

أما فيما يتصل بقضية فلسطين واسرائيل فانى لم أعثر له على شيء خاص به وربما أجد ذلك مستقبلا ، لكن مما لا شك فيه أن نظرته الى اسرائيل كانت مثل نظرة كل مسلم مخلص فى أية بقعة من العالم الاسلامى من استنكار لاحتلال اسرائيل لاجزاء من أرض فلسطين . وما ارتكبت من جرائم يندى لها جبين البشرية ، وعدم رضاء بالواقع المرير . والموقف الطيب الذى وقفته الهند — وعلى الأخص حزبها الحاكم — حزب المؤتمر — من هذه القضية ومن الاعداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، لم يكن من صنع " نهرو " وحده فى الهند ، بل كان مولانا أزاد — حسب مركزه وشخصيته فى الحكومة وفى الحزب — له أثره الكبير فى هذا الاتجاه ، والذى على أساسه قامت الصداقة بين مصر والهند .. والتى لاتزال قائمة حتى اليوم فى عهد كريمة نهرو (انديرا غاندى) رئيسة وزراء الهند حاليا ..

وقد كنت فى الهند حين وقع الاعداء الثلاثى على مصر فى ٢٩ من اكتوبر سنة ١٩٥٦ ولمست من تضامن الشعب الهندى مع شعب مصر ، بل وحماسته وثورته ضد المعتدين ما كاد يشعرنى بأننى أعيش فى بلادى ، وبين الذى يقع عليهم الاعداء فعلا ، وانني لا زلت أذكر — بكل تأثر وتقدير — ليلة قضيتها فى مدينة " أحمد أباد " بدعوة من احدى مدارسها الدينية .. وقد أعد برنامج الاحتفال قبل موعده بمدة كما هى العادة ، وجاء موعده وتجمع الناس .. وقبيل الوصول الى مكان الاحتفال استمعنا الى المذياع — يذيع أنباء الهجوم على مصر من البحر والجو .. فوجم الجميع .. ووصلنا الى مكان الاحتفال ، واذا ببرنامج الحفل يتغير ، وبالخطباء يتحدثون عن مصر زعيمة العالم الاسلامى ، وتعلق المسلمين بها ، وغضبتهم من أجلها .. وعلت الهتافات كالرعد لمصر وضد المعتدين . وتقدم الكثيرون الىَّ راغبين فى السفر الى مصر للدفاع عنها مع أبنائها .. كانت روح الأخوة تملأ كل قلب حتى طفرت الدموع من عينى .

ولا زلت أذكر كذلك اجتماعا كبيرا دعت اليه الأحزاب على اختلاف مشاربها فى مدينة " لكهنو " لتأييد مصر فى تأميمها قناة السويس يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، ودعتنى اليه ،

واستمعت الى خطبائهم المتحمسين ، وكان فيما قرروه : أن قناة السويس هى عنق الهند والشرق ، ولا يمكن أن تسمح الهند أو أى بلد فى الشرق أن يعود الانجليز مرة اخرى للسيطرة على القناة ، ليعيدوا تشديد قبضتهم على عنق الشرق من جديد .

ولا زلت أذكر أننى حين عدت للمرة رحلتى فى " أحمد أباد " أثناء العدوان الثلاثى الى مدينة " ديوبند " حيث كانت " دار العلوم " الجامعة التى أدرس فيها – لا زلت أذكر بكل تقدير وتأثر ما عرفته حين وصولى من اجتماع أساتذة الجامعة وموظفيها وطلابها ، وعلماء البلد ومسلميها فى قاعة " دار الحديث " الواسعة ، ليختموا القرآن والبخارى ، ويدعوا لمصر عقب ذلك ، كعادتهم فى الملمات ، لقد بادرت حينذاك بالذهاب اليهم ، فوجدتهم مجتمعين يقرأون ، وجلست بينهم وقلبى مفعم بالتأثر ، وعيناى تفيضان بالدموع من وراء المنظار . كنت مشغول الفكر أتأمل وأفكر فى هذه الروح الاسلامية الجامعة التى تجمع بينهم فى الهند ، وبين أهل مصر على بعد الدار .. وانتهوا من القراءة ، وارتفعت الأكف ، ولهجت الألسن بالدعاء لمصر وقوادها ..

كان الجميع يتحدثون عن مصر ويتحمسون لها .. ولشد ما كانت فرحتهم حين – انجابت الغمة ، وتخلصت مصر من العدوان ، فقد شعروا بأنهم الذين تخلصوا منه ، وفرحوا كما فرحنا وفرح كل مصرى ومحب لمصر ..

أردت أن أعرض موقف الشعب الهندى من العدوان على مصر لأنتقل منه الى موقف رسمى لمولانا أزاد من هذا العدوان ، وهو وزير معارف عموم الهند وأبرز وزرائها والموجه لدفة السياسة فيها مع الزعيم " نهرو " .

لقد كانت دورة مؤتمر اليونسكو منعقدة فى نيودلهى فى ذلك الوقت (٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦) وكان مولانا أزاد رئيسا لهذا المؤتمر ، وفى جلسته الختامية قام يلقى كلمة باعتباره رئيسا له ، فتحدث عن الأمل الذى يراود البشرية فى انقراض الأساليب الاستعمارية العتيقة ، التى

تلجأ اليها الدول الاستعمارية لاستعباد بعض الدول ، بعد الدمار الذى أنزلته الحربان العالميتان على الجنس البشرى (الاولى من سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والثانية من سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ، وأبدى أسفه لأن بعض الدول الاستعمارية لاتزال تصر على استعمال هذه الأساليب ، مما يدعو الى اليأس ، وأن كان واجب المصلحين والمتطلعين الى معيشة أفضل ، ولا سيما العاملين فى هذه الهيئة ألا يرتكنوا لليأس ، أو يسمحوا له بالتسرب الى نفوسهم ... بل عليهم أن يزيد ذلك من تصميمهم ويشحذ من عزمهم ، لتكوين رأى عام يعشق السلام ، ويعمل على عزل الدول المعتدية ... حتى تقلع عن اعتداءاتها ".

وكان بذلك يمهد للحديث الذى يريد أن يتحدث به الى المؤتمر .. فقال :

" وكلنا يعلم أن منظمة " اليونسكو " ليست بالمنبر الذى يصلح ويليق لمناقشة القضايا السياسية . ومع ذلك فانى اعتقد أن من واجب هذه المنظمة أن تعمل طبقا لرد الفعل المعنوى الذى يحدث فى النفوس كلما تعرض سلام العالم للخطر .

لقد سبق لى أن بينت منذ لحظة فى شىء من الأمل أن الأسباب التى كانت فى الماضى تدعو الى شن الحروب ، والتى تنحصر فى الاعتبارات الاقليمية والدينية والقومية قد أصبحت فى عصرنا الحديث بالية غير مألوفة . وانه لمن دواعى الأسف والحزن العميقين أن أضطر الى الاعتراف بأن الأمل الذى عللت به نفسى قد أخفق . فقد دلت الأحداث التى وقعت فى مصر منذ أيام على أننا ما زلنا فرائس للأساليب العتيقة والدبلوماسية البالية ، واننا ما زلنا فى بعد عن تحقيق آمالنا . أجل أننا فى منظمة " اليونسكو " ليس من مهمتنا أ نعنى بمثل هذه القضايا السياسية ، ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نتغاضى عما لهذه القضايا من تأثير فى ميدان التفاهم الدولى الذى نعمل من أجله ، واننى لأرجو من حضراتكم بكل تواضع أن تبادروا معى الى النظر فى هذه الأحداث ، ودرسها بعين الجد والانصاف . لقد اجتاحت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية لمهاجمة مصر ، بينما قامت بريطانيا وفرنسا بتوجيه انذار الى مصر . ثم ما لبثت قاذفاتها أن هاجمت الأرض المصرية .

واسمحوا لى أيها السادة أن أسألكم هنا سؤالا : أين تقف هيئة الأمم المتحدة من هذه الصور القائمة ؟ واننى لا أستطيع أن أتصور كيف أن دولتين عظيمتين كبريطانيا وفرنسا ، وهما من الدول المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة ، تقدمان على مثل هذا العدوان الغاشم ضد مصر ، كأن منظمة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن ليس فى عالم الوجود .

ثم أضاف يقول :

" ومن دواعى الأسف أن النتيجة التى يمكننا أن نخرج بها بعد كل هذا التفكير هى أن المنظمة لم توفق بعد الى تهيئة العقلية السلمية أو توفير الاحترام الضرورى للسلام . وهى العوامل التى لا مندوحة لمنظمة عن تهيئتها واعدادها .."

وكان مندوبو تشكوسلوفاكيا وبلغاريا فى المؤتمر قد تقدموا بمشروع قرار لبحث الأزمة المصرية ، ولكن أغلب الأعضاء لم يوافقوا على اقتراحهم ، باعتبار أن اليونسكو لا دخل لها فى السياسة ، وخشى مولانا أزاد أن يفهم من هذا أن المؤتمر يؤيد الاعتداء وتستغل دعايات الدول المعتدية هذا الموقف لصالحها ، فحرص مولانا أزاد على أن يزيل هذا الفهم ، ويقضى على هذا الاستغلال ، فقال فى هذه الخطبة الختامية :

" ان تشكوسلوفاكيا وبلغاريا قد تقدمتا بمشروع قرار لبحث الأزمة المصرية الا أن أكثرية المؤتمر رأت عدم ادراج هذه القضية فى جدول الاعمال ، وذلك لاعتبارات ذات مساس بقضية سياسية تقوم هيئة الأمم حاليا بمعالجتها .."

وعلى هذا فان القرار الذى اتخذ بعدم ادراج مشروع القرار المشار اليه فى جدول الاعمال .. انما اتخذ لاعتبارات فنية محضة ، ولا يمكن اعتباره بمثابة حكم أو قرار على حيثيات القضية المصرية ، وواقع الحال أن أغلبية المندوبين الذين اقترعوا ضد هذا المشروع قد سبق لدولهم أن حددت موقفها بصورة قاطعة فى هيئة الأمم المتحدة .

ولما كان المؤتمر قد اهتم مبالغ للمساعدات التدريبية فى مصر والمجر ففى هذا مايبرهن على اهتمام المنظمة وعنايتها وعطفها على المنكوبين والضحايا فى هذين القطرين " أ هـ

وبهذا المنطق وهذا التوجيه قضى مولانا أزاد فى خطبته الختامية الرسمية باعتباره رئيسا للمؤتمر على ماكان يمكن من استغلال الدعايات المسمومة المغرضة لهذا القرار ٠٠٠

وذلك يدل بوضوح على موقف مولانا أزاد من الاعتداء على مصر وحرصه على ألا يساء اليها فى أى مجال دولى ٠٠ وقد كان هو ونهرو صانعى سياسة الصداقة والتعاون التام بين مصر والهند ٠٠

" استقلال مراكش ــ المغرب ــ "

ولم يكن موقفه هذا راجعا الى روح الصداقة التى تجمع بين مصر والهند فقط بل ترجع قبل ذلك الى اهتمامه بقضايا البلاد الاسلامية ، وهذا هو الذى حدا به الى أن يصدر بيانا حين أفرجت فرنسا عن الملك محمد الخامس ، واعادته الى عرشه سنة ١٩٥٥ ، بعد أن خلعته عن العرش سنة ١٩٥٣ ونفته الى جزيرة مدغشقر شرق افريقيا ٠

ان هذا البيان يدلنا على مبلغ اهتمامه بقضية مراكش والمغرب ،ويكشف لنا عن جهود له فى سبيلها ، ما كان له أن يبذلها لولا الروح التى يحملها بين جنبيه ، روح الاخوة الشعوب الاسلامية ، والحرص على استقلالها ٠ قال فى بيانه الذى رحب فيه بعودة الملك الى عرشه [1] ،

---

(١) نشرته مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٥ بعد ترجمته للعربية ٠٠

" عاد السلطان ابن يوسف الى الرباط يوم الأربعاء الماضى ، بعد أن أمضى عامين فى منفاه بجزيرة مدغشقر ، وانى جد سعيد اذ أجد أن الأحداث قد حققت كل ما توقعته بعد حديثى مع المسيو فور رئيس الوزارة الفرنسية ، خلال زيارتى الأخيرة لباريس فى يوليو الماضى ، وكنت قلت له — اذ ذاك ان فرنسا يجب أن تنتهج سياسة جديدة ازاء مراكش ، وانى لمغتبط حقا اذ أجد كل أمنيتى قد تحققت ، وأن المسيو فور قد اتخذ الخطوة الاولى لايجاد تسوية مرضية للقضية المراكشية ،ويزداد اغتباطى حين أجد المسيو فور يتغلب على العقبات الصعبة التى أسفرت عن اتخاذه لهذا القرار "

ثم قال " وانى لممتن بصفة خاصة اذ أجد المسيو فور قد أظهر مثل هذه الحكمة والشجاعة فى التغلب على الصعوبات التى خلقتها الجهات المعارضة ، وان عمله ليزداد عظمة حين نعلم أنه ليس زعيما لجبهة سياسية لها غالبية مطلقة ولكنه مجرد رئيس لحكومة مؤتلفة " .

واختتم بيانه الطويل بقوله : " بعودة السلطان تكون المرحلة الثانية فى حل القضية المراكشية قد بدأت ، وأصبح من الممكن التوصل اليها ، اذ أن معاهدة سنة ١٩١٢ يجب أن تستبدل ، ويحل محلها معاهدة جديدة يرضى عنها الوطنيون المراكشيون واذا كانت لاتزال هناك بعض عقبات تعترض الطريق ، فاننى على يقين بأن الحكومة التى استطاعت أن تحل — بنجاح — القضية الصعبة ، وهى عودة السلطان تستطيع أن تحل المشاكل الأخرى بنفس النجاح " .

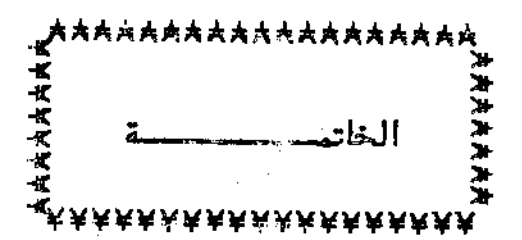
وقد عرض هذا البيان تاريخ العلاقات بين فرنسا ومراكش ،والموقف الكريم الذى وقفه السلطان فى الحرب العالمية الثانية ابان محنة فرنسا ، ووعد روزفلت له باستقلال بلاده ، وعدم تقدير فرنسا لهذا الموقف ولا وفاء الواعدين بوعدهم ..

وهذا يعطينا صورة/ واضحة على تتبع مولانا أزاد لقضايا البلاد العربية واهتمامه بها وهذا

بلاشك ينضمه فى مصاف الزعماء السياسيين ، ويضفى عليه صفة " زعيم سياسى واسلامى " عن جدارة واستحقاق ، وخاصة اذا أدخلنا فى اعتبارنا جهوده الصادقة والمتواصلة فى سبيل مناصرة قضية بلاده ضد المستعمر الغاصب ، وكيف أنه لم ينكص ، ولم يجبن أمام التهديد والاضطهاد والاعتقال ، لأنه من أصحاب المبادئ ، وصاحب المبدأ لا يتهاون فى سبيل نصرة مبادئه مهما صادفه من عقبات ، أو تنزل به من محن وشدائد ، وهكذا كان مولانا أزاد رحمه الله ، فهو يناصر قضايا الحرية والاستقلال فى داخل بلاده وخارجها على قدم المساواة بوازع من عقيدته الدينية ، ومبادئه السياسية .

****

******


الخاتمة

الخاتمـــــة

فى هذه الصفحات الماضية رسمت بقدر ما أتيح لى من مراجع صورة أعتقد أنهـا مصغرة كثيرا لهذا الزعيم المسلم العملاق الذى غطت زعامته مجالى الدين والسياسة معا فى نجاح لا نظن أنه يتوفر لغيره من الزعماء المسلمين .

أردت بتقديمها فى هذه الرسالة أن أرتاد الطريق لغيرى ممن قد تغريه جوانب العظمة فى هذا الزعيم ، فيخطو خطوات أوسع فى كشف جوانب الشخصية التى تستحق كل جانب منها بحثا مستقلا مستفيضا ..

فقد رأينا أن مولانا أزاد يلمع منذ صغره ، ويجذب اليه الأنظار فى مستهل حياته ، حين تخرج فى سن مبكرة لا يتخرج فيها قرناؤه ، ثم لم يقنع بما تلقاه من علوم اسلامية وعربية على المنهج التقليدى الذى كانت تسير عليه المدارس الدينية العربية فى الهند ، بل دفعه طموحه وشوقه المبكر للمعرفة ، وعقله الموهوب الى أن يرتاد طرقا للثقافة جديدة عليه ، قل أو ندر أن يرتادها أمثاله ، فالتقى فى ذهنه القديم والحديث ، وحصل بينهما ما يشبه الصدام الذى أحدث فى نفسه هزة كادت تتوه معها معالم الحق أمامه فقد ظل مضطربا حائرا مدة ، يبحث عن الحق أين هو ؟ حتى رأى أن يجرد نفسه من معلوماته القديمة والا يغريه الحديث لطرافته ويبحث بحث الحر المفكر ، المستقل الرأى ، فى كل أمر يمر به .. وبلغ من ولعه بحرية البحث أن اختار لنفسه لقب " أزاد " أى الحر ، واتخذ هذا اللفظ شعارا له حتى اشتهر به ، فكان يدرس كل مسألة وكأنها جديدة عليه ، حتى اذا اقتنع بها آمن ، واذا آمن فعل ، وانطلق بقوة الايمان ،وقد عبر عن ذلك فى مقدمته لتفسيره حين قال :

" ما وهبت لى أسرتى وبيئتى وأسلمت الى من أوضاع المجتمع وتقاليده ، أبيت أن أقتنع به من أول يوم ، فما حالت دونى قيود التقليد وعوائده فى أية مسألة قضيتها ، ولم تزل عاطفة الفحص والتنقيب منى ظامئة أينما حللت ، فلى فى داخل فؤادى اليوم يقين شاكته الظنون بأصنافها وألوانها ، ولى فى أعماق روحى عقيدة ابتليت بكل بلاء العصيان وعذاب الشك .

ولقد شربت السم من كل كأس واختبرت دواءه المضاد من كل مستشفى ، وحينما كنت ظمـآن لم يكن ظمئي كظمئي وكان مشربي غير المنهل العام الذي يشرب منه الناس "

وانطلق كالطائر يتنقل من فنن الى فنن ويغرد ، ويلتقط الحب حيثما وجده فرحـا بذلك مقتنعا به وتعرض من أجل ذلك لغضب الوالد المحافظ فلم يضعف ذلك من عزيمتـه ، ولم يحل بينه وبين خطته ، ولحبه للحرية انضم وهو فى العقد الثانى من عمره للجمعيات الثورية السرية التى كونها بعض الهنود وضد الاستعمار ، ولظمئه للمعرفة ، ارتحل وهو فى سن العشرين الى خارج وطنه حيث زار البلاد الاسلامية ايران والعراق والشام ومصر وتركيـا ، ثم قطع رحلته وهو فى فرنسا لمرض والده .. وعاد الى الهند بزاد جديد صقل معلوماتـه وحدد مجرى حياته ، فقد تأثر بالحركات الاصلاحية الدينية والوطنية فى مصر والبلاد التى مر بها ، واقتنع ايما اقتناع بمدرسة الافغانى ومحمد عبده والسيد رشيد رضـا ، فقرر عزمه بعد عودته على أن يبدأ طريق اليقظة والنهضة بين المسلمين باحياء الروح الدينية فى نفوسهم وتبصيرهم بحقائق دينهم بعيدا عن البدع والخرافات والجمود على التقليد ، ولم يجد بدا من انشاء مجلة سماها " الهـلال " تحمل افكاره وتبشر بدعوته ويتخذ منها وسيلة لتربية المسلمين وبث روح الحرية والتضحية فى سبيلها ، حتى يقوموا بنصيبهم مع مواطنيهم فى التخلص من المستعمرين ـ وكان موفقا التوفيق كله حين عنى بأن تظهر " الهلال " فى يونيو سنة ١٩١٢ م على نمط جديد فى عالم الصحافة الأوردية الاسلامية من حيث الطباعة والورق حتى يوفر لها حسن المظهر ، وجمال العرض ، ومن حيث الموضوعات والأسلوب الجديد الساحر فى الكتابة ، الذى تميز به ومن حيث الفكرة التى تحملها وتدعو اليها .. فأقبل القراء عليها بصورة غير معهـودة ، حتى اضطر الى اعادة طبع الثلاثة الأعداد الاولى منها تلبية لرغبة القراء الذين فاتهم اقتنـاء هذه الأعداد ، وكان لابد أن تلقى دعوة " الهلال " الجريئـة اعداء لها من الاستعمـار وعملائه ، من الذين خافوا على زعامتهم التقليدية من دعوتها ، وأفكارها ، فنشطوا لمحاربتهـا بل حاولوا القضاء على حياة أزاد نفسه ، ولكنه استمر فى طريقه يكسب كل يوم أرضا جديـدة ضد الاستعمار وعملائه حتى ضاق به الانجليز ذرعا ففرضوا عليه غرامات استطاع دفعها ومضى

فى طريقه فلم يجدوا بدا من اغلاقها ومصادرة مطبعتها فى يوليو سنة ١٩١٥م ، ومع ذلك لم تهن عزيمته فبعد شهور قليلة اصدر بدلا منها " البلاغ " فى نوفمبر سنة ١٩١٥ لتواصل حمل رسالتها ولكن السلطة الانجليزية لم تتركها ولم تتركه هذه المرة فأبعدته عن كلكتا فى مارس سنة ١٩١٦ ، ثم لم تلبث أن اعتقلته فى يوليو سنة ١٩١٦ وبذلك توقفت كل أعماله .

ولكنه بحركته الاصلاحية الدينية ودعوته التحررية قد ترك من الآثار القوية فى النفوس ما يتركه كل مجدد مسلم يقوم بحركة اصلاحية فالتف حول دعوته الكثيرون حتى لقبوه بالامام وحين خرج من المعتقل مع بقية المعتقلين فى يناير سنة ١٩٢٠ وجد النفوس تختمر بالحقد والثورة على الانجليز لنقضهم عهودهم بالاصلاح الداخلى فى الهند ، وبعدم المساس بدولة الخلافة العثمانية ولمس مدى تجاوب المسلمين مع دعوته فلم يجد بدا من النزول لمعترك السياسة عمليا فاحتل مكانه سريعا فى الصف الأول من الزعماء الذين قادوا حركة العصيان المدنى وانضم رسميا لحزب المؤتمر الوطنى وأصبح عضوا بارزا فيه وان كان هذا لم يمنعه من بذل جهوده مع الهيآت الاخرى ضد الانجليز ، فلم يلبث كثيرا حتى اعتقلته الحكومة فى ديسمبر سنة ١٩٢١ واتهمته باثارة الشعب وتحريضه على عصيان أوامر الحكومة .. وحكم عليه بالسجن لمدة سنة بعد أن ألقى مرافعة أمام المحكمة الانجليزية التى حاكمته تعتبر من أروع المرافعات ، كما تعد وثيقة هامة تكشف عن رأى الاسلام فى الحكم الاستبدادى وموقف المسلمين منه ومن حكم الاستعمار ..

ولكنه خرج من السجن ليجد الوحدة التى جمعت بين المسلمين والهندوس فى حركة العصيان المدنى قد تفتتت بسبب ما أثاره الانجليز من عوامل الفتنة الطائفية ، ويجد الخلاف قد تسرب كذلك الى داخل الحزب نفسه فعمل على جمع شمل الحزب ، واختير رئيسا له ، وهو فى سن صغيرة بالنسبة لمن يتولى رئاسته ، ولكن مركزه فيه ، وحكمته فى جمع شمله جعل أنظار الجميع تتجه اليه لقيادته فى ظروف الفتنة والخلاف الذى عم انحاء البلاد بين الهندوس والمسلمين ..

وقد بذل هو واعضاء الحزب البارزين وكبار المسلمين والهندوس جهودهم للقضاء على هذه الفتنة ولكنها كانت أكبر من جهودهم .. فأثرت على مجرى الحركة التحريرية وقوتها حيث اتجهت جهودهم كلها الى مداواة الجراح التى خلفتها هذه الفتنة ، واستمرت هذه الحالة عدة سنين .. انصرف أثناءها غاندى الى صومعته ومنزله ودعوته وسط الشعب كما انصرف الكثيرون الى أعمال داخلية وخاصة ، واستطاع مولانا أزاد فى هذه الفترة أن يعيد كتابة ترجمته وتفسيره للقرآن التى كان قد بدأها قبل اعتقاله سنة ١٩١٦ .. وتبددت أوراقها بيد الشرطة حين التفتيش والقبض عليه ..

وحين نشطت الحركة التحريرية فى سنة ١٩٣٠ واعلنت حركة العصيان المدنى الثانية التى عرفت بحركة الملح .. قبض على أزاد وأودع السجن ..

ولما صدرت حركة الاصلاح الداخلى أقنع أزاد حزب المؤتمر أن يدخل الانتخابات على أساسها برغم عدم رضائه عنها ، ولكنه خشى أن يخلو الجو لعملاء الاستعمار . ودخل أزاد الانتخاب ونجح فيه كما فاز حزب المؤتمر بأغلبية كبيرة فى كثير من الولايات . ودعى الحزب للاشتراك فى الوزارة .. وتغلب رأى أزاد فى الاشتراك فيها لكنه لم يتول وزارة من الوزارات بل كان مع اثنين آخرين يؤلفون لجنة عليا لتوجيه الوزراء .

وظل حزب المؤتمر مشتركا فى الحكم حتى أعلنت حكومة الهند دخولها الحرب فى سنة ١٩٣٩ فى صف الحلفاء دون أخذ رأى الحزب أو ممثليه فى الوزارات فاستقالوا منها احتجاجا على مسلك السلطة الانجليزية ..

وهنا دخل الحزب فى صراع معها .. ولم يجد غاندى والزعماء من يقود الحزب والبلاد فى هذه الفترة الحرجة غير أزاد ، فطلب غاندى منه أن يتولى رياسة الحزب ويقود السفينة فى الظروف الخطيرة التى تقبل البلاد عليها فنزل عند رأى غاندى بعد رفضه للرياسة قبل ذلك ، وتجلت مقدرة ازاد وخبرته السياسية فى هذه الفترة حيث كان الربان الماهر الذى قاد السفينة بحكمة وروية وسداد وبعد نظر برغم وقوف غاندى ضد رأيه فى كثير من المواقف .. ولكنه كان

يظفر في النهاية بالتخلص من المواقف الحرجة التي كان يسببها له غاندي بمواقفه البعيدة عن النظرة الواقعية للأمور ، ثم يقود البلاد في جهادها للاستقلال ، فتقبض عليه السلطة هـو والزعماء وتودعهم السجن ..

ولكنها اضطرت سنة ١٩٤٢ لاخراج أزاد من سجنه باعتباره رئيسا للحزب ومعه الزعماء ليتولى هو المفاوضات باسم الهند مع سير ستافورد كريبس تلك المفاوضات التي لم تنجح وأدى فشلها الى حركة عصيان جديدة اتخذت شعار " اخرجوا من الهند " فقبضت الحكومة من جديد على أزاد وغاندي وبقية زعماء الحزب واودعتهم السجون ثم افرجت عنهم أخيرا بعد انتهاء الحرب ، ليتولى أزاد مفاوضات الاستقلال مع الحكومة الانجليزية ـ في وقت سادت فيه الاضطرابات الطائفية بين المسلمين والهندوس بسبب اصرار الرابطة الاسلامية بقيادة محمد على جنا على تقسيم الهند بعد استقلالها الى دولتين ، واصرار أزاد وممثلى المؤتمر على بقاء الهند دولة واحدة ولكن شدة الاضطرابات ، وكثرة الضحايا وفشل الجهود المبذولة لايقافها أجبرت الجميع على النزول على التقسيم حسما لاراقة الدماء ، فأعلنت انجلترا استقلال البلاد وتسليمها لأهلها في اغسطس سنة ١٩٤٧ وقامت دولة الهند في الولايات التي يكثر فيها الهندوس بينما قامت باكستان في الولايات التي يكثر فيها المسلمون ـ

ولقد كان أزاد خلال هذه الفترة وهذه الأحداث التي مرت بالبلاد هو العقـل المدبر والربان الماهر ، والمتحدث باسم الهند في مفاوضاتها مع الحكومة الاستعماريـة لتحقيق الاستقلال فبلغ القمة بذلك في زعامته وقيادته السياسية ..

بينما كان له أثره الكبير في حركته الاصلاحية الدينية التي بدأها في مستهل شبابه وظل وفيا لها برغم زعامـته الوطنية وقيادته السياسية التي حدت من نشاطه الديني فجمع بذلـك بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية .

ولقد وقف أزاد منذ شبابه ـ مثل كل الزعماء المسلمين ـ لم يدر بخلده الا الهند الموحدة وتحريرها .. ولما بدأت الدعوة الى قيام باكستان وتقسيم الهند . وقف مولانا أزاد في

فى وجه هذه الدعوة اعتقادا منه بأن مصلحة المسلمين فى الهند تقضى ببقائهم فى هند موحدة ولكنه اضطر امام الأحداث الى الموافقة على التقسيم وبعد الاستقلال احتل مكانته فى رياسة الحزب ، وفى وزارة المعارف المركزية الهندية ، وكان أزاد بجهاده من أجل تحرير وطنه وزعامته الوطنية زعيما اسلاميا يمتد نظره وفكره وعاطفته وجهوده الى البلاد الاسلامية كلها باعتبارها الوطن الاسلامى لكل مسلم ومن هنا كانت مواقفه لمناصرة الخلافة والتضحية فى سبيل حراستها ومساندتها وكان موقفه أيام الاعتداء الثلاثى وموقفه من قضية مراكش حين نفى سلطانها السلطان محمد الخامس ..

وكان مع قيادته لحركة التجديد الدينى وزعامته السياسية الوطنية ،واهتمامه بقضايا العالم الاسلامى باعتباره الوطن لكل مسلم زعيم مدرسة أدبية فى اللغة الأوردية حيث ابتكر فيها من الأساليب والتعبيرات مالم يكن موجودا فيها من قبل . وكان القراء يتذوقون حلاوة أسلوبه ، وطلاوة عبارته ، ويقبلون على كل ما يكتبه ، وعلى كل حفل يخطب فيه وقد بدأ هذا منذ أصدر مجلته الأولى " الهلال " حيث رأوا فى مقالاته بها تجديدا لم يألفوه من ناحية الفكرة ومن ناحية الأسلوب حتى ليقول نهرو :

" لو استمر مولانا أزاد فى جهاده الكتابى بعيدا عن تيار السياسة لكان لذلك أثره البعيد المدى فى تكوين الشعب تكوينا فكريا نظيفا ، وتكوينا علميا منظما ، ولكن الظروف السياسية اجبرته على أن يتخلى عن هذا ولا يعطيه كل اهتمامه " ولقد كان بذلك صاحب مذهب جديد فى الكتابة حاول الكثيرون أن يسيروا على منواله حتى وجدنا أحد شعراء اللغة الاوردية النابغين وهو مولانا فضل الحسن حسرت موهانى يقول " مذ قرأت منشورات أبى الكلام لا أجد حلاوة فى منظوماتى " ومع أنه قد شغلته السياسة بأحداثها فقد ترك لنا " ترجمان القرآن " وهو أعظم آثاره العلمية ، كما أن كتابيه " غبار خاطر وكاروان خيال " يعتبران من أعظم آثاره الأدبية ،وهما يضمان رسائله التى كتبها وهو فى سجن " أحمدنكر "

سنة ١٩٤٥ لصديقه النائب حبيب الرحمن خان الشروانى وهى قطع من الأدب الأوردى الرفيع ضمنها احيانا بعض الأبيات والحكم العربية والفارسية ولا يكاد يوجد قارئ فى الهند الا قرأ هذه التحفة الأدبية ..

على أن تلامذته والمعجبين به عنوا بنشر بحوث أخرى له فى الدين فى كتيبات صغيرة بلغت مايقارب العشرين ه كتبها مستقلة للنشر ه أو اقتطفوها مما كان ينشره فى مجلتيه : " الهلال والبلاغ " .

وقد نشرت له مجلة المنار — كما اشرنا من قبل — بحثه عن الخلافة مترجما للغة العربية ه وقد جعلته من ملاحق هذه الرسالة ه

كما كتب مذكرات حياته بقلمه أيضا ه وترجمت للانجليزية بعنوان

(India Wins Freedom) (

أى الهند تظفر بحريتها وهى مذكرات تدور حول حركة الهند التحررية وما قام به هو وغيره من جهود فى سبيل استقلال الهند ه فهى مذكرات تاريخية سياسية حوت الكثير من آرائه ومواقفه السياسية ومواقف الآخرين من الزعماء ه أو من آراء المستعمرين الانجليز وتصرفاتهم وقد تولى نشرها ومراجعتها مع أزاد تلميذاه وصديقاه الدكتور همايون كبير والاستاذ أجمل خان وكما كان أزاد طرازا فريدا فى حركته التجديدية الدينية وزعامته السياسية ه وأسلوبه الأدبى كان طرازا خاصا كذلك فى شخصيته واخلاقه . ولعل اصدق ما يصور لنا هذه الشخصية هو العالم الهندى المعاصر الاستاذ الكبير ابوالحسن على الحسنى الندوى حيث يقول[1] ،

---

(١) وذلك فيما كتبه من تكملة لترجمة حياة أزاد التى بدأها والده المرحوم مولانا عبد الحى وتوفى قبل أن يتمها حيث كتب عن خمس وعشرين سنة فقط من حياة أزاد فأكملها نجله أبوالحسن ووردت فى كتاب نزهة الخواطر الجزء الثامن الذى طبع حديثا فى الهند وقد ضم هذا الكتاب بأجزائه الثمانية ترجمات لأعيان الهند وشخصياتها العلمية والسياسية منذ القرن الأول الهجرى حتى توفى المؤلف سنة ١٣٤١ هـ ١٩٢٢ م

" مما لا شك فيه أنه كان من نوابغ الرجال ونوادر العصر فطنة وذكاء ، وحدة ذهن وتوقد فكر ، وثقة بالنفس واعتداداً بها ، واعتزازاً بكرامته ، وتمسكاً برأيه وعقيدته ، وثباتاً على مبدئه ، وإباء عن الضيم ، وترفعاً عن خسائس الأمور وسفاسفها ، وكان جميلاً وسيماً أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فارع القامة ، قليل شعرات اللحية ، حسن الملبس والشارة ، لطيف العشرة مليح الكلام ، فصيحاً في كتابته وخطبه وحديثه ، ينتقي اللفظ الصحيح والفصيح قوي الذاكرة كثير المحفوظ ، حسن الاختيار للأبيات ، حسن الاقتباس من القرآن والاستشهاد بالآيات خطيباً مصقعاً ، كاتباً بليغاً وصحافياً بارعاً ، وسياسياً ثاقب الفكرة ، سليم الذهن مطلعاً على كتب التاريخ والأدب ، وأخبار الشعوب والبلاد حسن التصرف فيما وعته ذاكرته ، وحواه صدره ، اذا تحدث في موضوع ظن السامع أنه صاحب اختصاص فيه ، سلفي العقيدة ، قد رفض التقليد وخالف أباه — الذي كان شيخ طريقة — في الرسوم والبدع وآثر مذهب شيخ الاسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم ومع ذلك كان يأخذ البيعة من بعض الناس ويرشدهم في الطريق ، وكان ذكياً جيد الفهم لكثير من الآيات القرآنية يفسرها بأسلوبه الادبي القوي فيعجب بها الشاب المتعلم ذكاؤه يسبق علمه ، وقوة بيانه تغلب على تعمقه في العلم ".

تلك هي الصورة التي رسمها العالم الهندي المسلم المشهور الذي عرفته الهند والعالم الاسلامي داعية للاسلام من طراز ممتاز ، رسمها لمولانا أزاد كما عرفه عن قرب ، بعد أن انتقل أزاد الى رحمة الله ، مما يزيدنا ثقة في صدق كل كلمة كتبت عنه ، فوق ما نعرفه من صدق في " أبي الحسن " وعدم مجاملته في الحق للأحياء حتى ولو كانوا أصحاب جاه وسلطان ، وكان أزاد مع ذلك كله حريصاً كل الحرص على الحق والانصاف لا يبالي في سبيل ذلك بأي اعتبار من الاعتبارات التي تميل بكثير من الناس عنه .

ويذكر الدكتور " همايون كبير " — وكان من ألصق الناس بمولانا أزاد في عمله وفي حياته — يذكر لنا واقعة تعتبر مفتاحاً لكل من يريد التعرف على شخصية أزاد في هذه الناحية وهي واقعة كان فيها شاهد عيان وهي تجلو لنا مولانا أزاد الانسان الحريص على احترام حق

الغير وانصافه حتى ولو من نفسه مهما يكن مركز هذا الغير صغيرا وهى تجلو لنا كذلك ماقاله ابوالحسن من أن أزاد كان من نوادر العصر ترفعا عن خسائس الأمور وسفاسفها – يقول همايون كبير[1] :

" جاءنى يوما رجل من كبار الرسميين ، وكان فى حالة شديدة من الضيق والحزن ، وأخبرنى بأن مولانا أزاد غضب عليه ، وسجل ذلك فى الملف الذى كان يقدمه اليه ، فطلبت الملف وقرأته ، فوجدت أن هذا الرجل لم يذكر فى الورقة المقدمة لمولانا بعض الحقائق التى لا بد من ذكرها ، فقلت له : ما الذى دعاك الى ترك هذه الحقائق والمعلومات؟ فأجاب بأنه ذكرها فعلا حين قدم الملف أول مرة ، ولكنه نسى أن يذكرها لما قدم الملف فى المرة الثانية ، فقلت له انه لا يتوقع من الوزير أن يطالع أوراق الملف بأجمعها كلما تقدم اليه ، فكان عليك أن تسجل ملاحظتك فى العرض الأخير للملف وتدون هذه المعلومات اللازمة ، حتى يستغنى الوزير عن مراجعة الملف بأجمعه .

ولكنى مع ذلك قلت لمولانا أزاد : ان فلانا قد أتى بالتفاصيل اللازمة ، والحقائق المطلوبة ، حينما رفع اليك الملف فى المرة الأولى ، واعتمد على ذلك فى المرة الأخيرة وكان من الممكن لمولانا أزاد أن يقول : كان لابد لهذا الموظف أن يلخص هذه الحقائق ، أو يشير اليها فى العرض الأخير للملف كما قلت أنا للرجل ، ولكنه لنفسه الطيبة السمحة المحبة للخير لم يقل هذا ، بل التمس العذر للموظف ، وعفا عنه ، ولم يكتف بهذا بل تناول الملف الذى سجل فيه ملاحظته عليه وكتب عليه بخط يده : (انه لم يكن على حق فى ملاحظته فى شأن الرجل وهو آسف لما حدث منه) .

وسمع الرجل بهذا فدهش وقال كان يكفى أن يكتب : انه عفا عنى ، وما كنت أطمع أبدا فى أكثر من هذا ، وعرف مولانا أزاد هذا فقال له : اننى سجلت أولا ملاحظتى بخطى على الملف ، وطالعه أعضاء المكتب جميعهم ، فكان لا بد لى من أن أسجل اسفى أيضا لما حدث منى ، ليعلموا أنك لم تكن مخطئا "

---

(١) مجلة ثقافة الهند عدد مارس ويوليو ١٩٥٨ م

وأصحاب النفوس الكبيرة لا يحجمون أبدا عن الاعتراف بخطئهم ، لأنهم يدركون أن الاعتراف بالخطأ هو من سمات هذه النفوس .. وهو يزيد من سموهم ، ولا يغض من شأنهم وقديما قال عمر رضي الله عنه على ملأ من الناس وهو على المنبر : ((أخطأ عمر وأصابت امرأة)) .

حادثة واحدة يمكن أن تكون عندنا مفتاحا لأخلاق هذا الرجل ونظرته للأمور . ولسنا بعدها في حاجة الى المزيد ..

ولقد كان مما يحرص عليه أزاد ألا تمتد أصابع السياسة الى الدين لتفرق بين جماعة المسلمين أو تثير الاحقاد فيما بينهم ولا سيما في أمور العبادات .

كانت له وللمسلمين في كلكتا عادة سنوية هي أن يؤمهم في صلاة العيدين ويلقي فيهم الخطبة بعد الصلاة . وفي أحد الأعياد كره زعماء الرابطة الاسلامية في كلكتا . أن يؤمهم — وكانوا على خلاف سياسي معه — فعملوا على تنحيته عن الامامة وافترق المسلمون ، وكانت الاغلبية تريد أن يؤمهم أزاد كعادته . ورأى جماعة منهم أن يحلوا هذا الخلاف باقامة الصلاة في مكانين .. ومن عادة مسلمي الهند أن يجتمعوا في مكان فسيح لاقامة صلاة العيد اتباعا للسنة .. ولكن مولانا أزاد لم يرض أن يثور الخلاف بين المسلمين بهذه الصورة حول من يؤمهم وأن يكون للسياسة دخل في مثل هذا الأمر الديني فأعلن أنه لا يريد أن يؤم الناس متى كانت هناك قلة من المسلمين لا تريد امامته .. وأمكنه بهذا أن يقضي على هذا النزاع ، وتجنب مثل هذه الصور الكريهة .

وأحب أن أضيف الى ما سبق . صورة أخرى لشخصيته يرسمها زملاؤه في حركة التحرير والجهاد من أجل الاستقلال الذين عملوا معه واحتكوا به عشرات السنين قال الدكتور راجندر بوساد رئيس الجمهورية الهندية عن أزاد حين توفي الى رحمة الله :

" كان يمتاز بجمعه بين الحنكة والزعامة والنبوغ في الادارة ، والتضحية في سبيل الوطن ، وبين علم عزيز وسعة اطلاع وتضلع في الفنون والآداب ، وبما أنه رحمه الله قد جمع

فى حياته كل ماجاء به الشرق من تقاليد وحكم وعلوم مع أحسن ماتحويه الثقافة الغربية فسى هذا المضمار ، كان يعتبره كثير منا ملتقى الشرق والغرب ، ثم انه كان كبحر عميق ينبض قلبه الكبير بالعطف والحنان ، فان واجهته أزمات تبدو عويصة الحل اضاءت له طريقته الانسانية فى معالجة المشاكل وصلاحيته الخارقة فى التوفيق بين النزعات طريقا لتحقيق التفاهم بين المختلفين المتعارضين "

ويضيف نهرو الى هذه الصورة صورة أخرى يرسمها فى كلمات قصار فيقول :

كان مولانا أزاد مجموعة من عظمة الماضى وعظمة الحاضر وكان يتسم بكل الصفات الأخلاقية الحميدة التى يندر وجودها فى هذا الزمان ، ان الانسان الآن يحاول الصعود الى القمر ولكنه مع ذلك يفقد هذه الصفات الانسانية التى كنا نرى مولانا أزاد نموذجا لها . وكان مع ذلك ملتقى لثقافات الشرق والغرب قل نظيره فى هذا الزمان "

ومع أن مولانا أزاد كان جم النشاط كثير التنقل بين أرجاء الهند الواسعة لنشر دعوته الدينية والسياسية الا أن هذه الجهود الضخمة التى بذلها وهو فى أوج قوته بالاضافة الى ما ساد الهند من خلافات وفتن ومذابح وما لحقه بسبب ذلك كله من متاعب جسمية ونفسية ، ذلك كله أثر عليه تأثيرا كبيرا بعد أن ظفرت البلاد باستقلالها فوجدناه يميل الى العزلة والهروب من الضوضاء مؤثرا العيش مع الكتب التى يحبها ، ومع الصفوة من أصدقاء حياته وتلامذته ..

ولعله وجد مع ذلك أن فترة ما بعد الاستقلال تحتاج الى العمل الهادىء المتزن أكثر ما تحتاج الى الاثارة والخطب .. فوق أنه كان بطبيعته عالما مفكرا يميل الى ما يميل اليه المفكرون من هدوء وبعد عن الضوضاء لولا أن السياسة وحركة التحرر جذبته اليهما فلما انتهت عاد الى طبيعته التى تغلب عليه .

ويرسم نهرو هذه الصورة الجانبية من حياته فيقول فى كلمته التى أبنه بها :

" كان ذا حياء شديد ، وضمير حى يميل الى الخلوة والانفراد ، ومع أنه كان خطيبا ساحرا مؤثرا الا أنه كان يهرب من الضوضاء والاجتماعات الصاخبة ، ولم يكن من السهل

أن تحمله على الخطابة فى الجماهير ، ذلك لأن طباعه الأصلية فى الحقيقة كانت طباع العالم الفيلسوف أكثر من طباع الرجل السياسى ولكنه اندفع الى السياسة للظروف السيئة التى كان الوطن يعانيها " ونهرو يصور بذلك فترة ما بعد الاستقلال والا فقد كان خطيبا قبله فى كل مكان .

وكان كلما تقدمت به السن ، وناوشه المرض اشتدت حاجته الى العزلة والهدوء ولكن بعض الأحداث المهمة كانت تشده وتخرجه من هدوئه ليلتقى بجماهيره التى تحبه وتعشق لقاءه والاستماع اليه .

اتجهت نوايا العاملين على انصاف اللغة الأوردية ورد اعتبارها الى اقامة مؤتمر عام من أجل هذه اللغة ، ردا على الجهود واللوائح التى وضعت للقضاء عليها بعد الاستقلال مع انها تعتبر لغة الثقافة الاسلامية والتراث الدينى للمسلمين ، كما أنها اللغة التى يتحدث بها أغلبية أهل الهند من مسلمين وغيرهم . وكانت قبل الاستقلال تعتبر لغة رسمية ثانية بعد الانجليزية فى الولايات التى تنتشر فيها وهى اكثر الولايات ولكن بعد الاستقلال تقرر ابعادها وعدم اعتمادها فى الدواوين والمصالح الحكومية .

ورأى المسلمون أن هذا مقدمة للقضاء على هذه اللغة ، وبالتالى القضاء على التراث الاسلامى فى الهند ، وقطع ينابيعه عن الجيل الجديد المسلم فتقدموا الى الحكومة يطلبون منها الاعتراف بها واعتمادها فى دوائر الحكومة ، وتعليمها لأبناء المسلمين فى المدارس حتى يظلوا على صلة بتراثهم وتعاليم دينهم .. وجاهدوا فى سبيل ذلك جهادا مريرا وكثير من المتعصبين الرسميين وغير الرسميين يقف فى طريقهم ، حتى رأوا فى أوائل سنة ١٩٥٨ أن يعقدوا لهذا الغرض مؤتمرا عاما فى " دهلى " ليرفعوا الصوت الجماعى الموحد الى المسئولين ..

وما كان لمولانا أزاد أمام هذه القضية الحيوية بالنسبة للاسلام والمسلمين أن يبقى فى هدوئه أو أن يغلبه مرضه فيظل بعيدا عن هذا الميدان .

وهنا وجدناه يخرج من عزلته ، ويتغلب على نوازع الهدوء ومخاوف مضاعفات المرض ،

ويحضر المؤتمر ويخطب فيه ، واستمع الناس فى شوق وحب الى الصوت الحبيب ، واللسان الساحر والخطيب المفوه الذى طالما زلزل من قبل بنيان الاستعمار ، وقض مضجعه . استمعوا اليـــه يجلجل مجاهدا فى سبيل لغته ولغة دينه وثقافته الاسلامية ..

وسبحان الله . فقد كان كأنــه يودع الشعب فى هذا الاجتماع ، ويتوج جهاده الطويل فى سبيل دينه وبلاده بكلمة حق يقولها فى سبيل لغته بعد ما أبلى بلاء مشكورا فــى سبيل حرية بلاده فبعد هذا الاجتماع بنحو أسبوع لقى ربــه بعد مرض قصير فى صباح السبت لليلة خلت من شعبان سنة ١٣٧٧ هـ ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ م

وقد رجعت الى مذكراتى الخاصة فى ذلك الحين ــ وكنت بالهند فوجدت :

فى يوم ٢٠ فبراير : أصيب مولانا أزاد بالشلل صباح اليوم . أشعر برجفة الخـــوف عليه تعترى كل الناس ــ مسلمين وغيرهم ــ والمسلمون أشد ..

وفى يوم ٢٢ فبراير : أذيع صباح اليوم الباكر أن مولانا أزاد قد توفى الى رحمة اللــــه فى الساعة الثالثة صباحا ، وهكذا يخسر المسلمون رجلا لا نظير له بعد أن خسروا مولانـــا حسين أحمد مدنى شيخ الاسلام منذ ثلاثة شهور . وتخسر الهند رجلا مجاهدا عظيما وهب حياته لخدمتها . انا للـــه وانا اليــه راجعون .

ورأى صديقــه الوفى " نهرو " أن أفضل مكان يضم جثمان هذا الزعيم المجاهـــد هو هذا المكان الذى وقف فيه من نحو اسبوع يخطب فى الجماهير .

وفى هذا المكان فى الرحبة الواسعة التى تقع بين أثرين اسلاميين يعتبران من أعظـم الآثار فى الهند ، بين المسجد الجامع وبين القلعة الحمراء فى دهلى استقر جثمانه الأخـير قريبـا من المسجد ، وعلى بعد قليل من قـبر المغفور له المجاهد المسلم مولانا شوكت علـى

ولم أستطع السفر للاشتراك فى تشييع جنازته ، ولكنى جلست بجانب المذياع أتابــع تشييع الجنازة وكنت أحس كأن الشعب كله قد التف بنعشه يودعه .. أوقفت الاذاعة كــل برامجها فى ذلك اليوم وخصصت الوقت كله لتشييع الجنازة والتحدث عن مآثره .. ولم أكن حين

استمعت الى تشييع الجنازة استمع الى كلام كان يصعب على فهم الكثير منه بل كنت أستمع الـى اللغة المشتركة التى يفهمها كل انسان ، كنت أستمع الى بكاء ونشيج ، وكأن الشعب كله قـد تجمع من حوله ليبكى وينتحب • كان يمثل قصة وفاء الشعب للرجل الذى أحبه وعاش طـــول حياته ومن فجر شبابه وفيا له واهبا نفسه لتحقيق حريته واستقلاله •

وكانت دموعى وانا بجانب المذياع مزيجا من التعبير عن مشاعر الحزن ومشاعر التقديـر لهذا الشعب الوفى •

فما أجمل الوفاء • وفاء الرجال لأوطانهم ، ووفاء الأوطان لرجالها ، وقد كان شعــور المسلمين مزيجا من الحزن والخوف على مستقبلهم ، فقد كان أزاد تاجهم وملاذهم ومنــاط عزهم وفخرهم ، وحصنهم الذى يسندون ظهورهم لـه ، ويلتجئون اليه فى حاجاتهم وملماتهم ففقدوه ، ولم يكن أمامهم من الزعماء المسلمين من يتطلمون اليه مثل أزاد •

*

وفى اليوم الثانى لوفاته أقام حزب المؤتمر اجتماعا عاما لتأبينه فى أحد ميادين دهلـى تحت رئاسة فخامة رئيس الجمهورية دكتور راجندر برساد جمع أحزاب الهند وطوائفها واشتركـت فيه الجموع الحاشدة من أبناء الشعب ، وتحدث فيه رئيس الجمهورية ونائبه ورئيس الوزراء " نهرو " وزعماء الاحزاب المختلفة • وعبر المجتمعون وخطباؤهم عن تقديرهم للفقيد وجهـاده وتضحياته وتأثرهم وتأثر البلاد كلها لوفاته واحساسهم بفداحة الخطب فيه •

ونذكر هنا بعض فقرات مما قاله رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فى تأبينه تعطينا صـورة عن عظمة أزاد فى نفوس العظماء ••

وقف رئيس الجمهورية فكان مما قاله (١) :

((ان تاريخ الهند خلال خمسين سنة مضت مقترن باسم الفقيد ، على وجه لا يمكـن فصله عنه •

ان القلم الذى ألهب الوطنية فى الملايين من أهل هذه البلاد قد وقف اليوم ،

---

(١) مترجما عما نشرته الصحف فى ذلك الحين ••

وان الصوت الذى أثار ملايين الهنود وأيقظ فى نفوسهم الحمية والحماس الوطنى قد خفت اليوم .

أن الجماهير الغفيرة التى احتشدت اليوم فى هذا الاجتماع قد كشفت عن أعمق التقدير والتكريم للزعيم الذى فارقنا فراقا أبديا يوم السبت الماضى ، وكانا بهم شاهدا على ما كان للمغفور له من حب وثقة فى قلوب الهنود ، اذ بادر الملايين بغض النظر عن دينهم وطبقتهم لتوديع الزعيم الجبار الذى اقترنت حياته خلال الخمسة والاربعين عاما الماضية بحركة استقلال الهند وتحريرها اقترانا غير منفصل))

" ان مولانا أزاد أثار الشعب بكتاباته البليغة البديعة ، وبث روح الكفاح لتحرير وطنهم ، وأرشدنا بأعماله الباهرة ، وتضحياته العظيمة الى تذليل العقبات ، وازاحة العراقيل والعوائق التى تعرقل سبيل الأمة ، وكان عبقريا ومفكرا اكتنه الغوامض ، وهو لم يبلغ بعد رشده ، واهتدى فكره الى أنه لامناص للهنود مسلمين وغيرهم من أن يتعايشوا فى هذه البلاد مسالمين متصالحين ، حتى تكون حياتهم ملؤها الود والصداقة ، ومازال مؤمنا بهذا المبدأ الى أن جاد بأنفاسه الأخيرة ، ولم يكترث لما اعتراه فى هذا السبيل من عقبات وعراقيل ومحن وشدائد "

" ولعل أحسن ما نزجيه لزعيمنا الراحل من آيات التقدير والوفاء أن نجعل نصب أعيننا تلك المثل والمبادئ التى كافح عنها طوال حياته ، ونسترشد بها ، ونتخذها نبراسا للهداية ، وعلى الأخص وفاؤه وولاؤه وحبه العميق للبلاد ، واستنكاره للميول والنزعات الطائفية " .

ووقف الزعيم ((نهرو)) وقد غلبه التأثر والحزن ، واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

" توفى مولانا أزاد الى رحمة الله ، وكلنا سنذوق الموت حتما ، وقد يستطيع الزمن التخفيف من هول المصاب ، ولكن أنى لنا بمن يسد الفراغ الذى تركه الراحل الكريم ؟

انني سأبقى طوال حياتى أتذكر هذا المصاب الجلل كلما واجهتنى الخطوب والمعضلات ، وأتساءل فى حزن وألم : أين لى ذلك الصديق العظيم الذى كنت ألجأ اليه دائما ألتمس منه النصيحة والمشورة " .

ودعا رئيس الوزراء الى أن يعبر الجمهور عن تقديره وحبه للراحل بتبرع كل منهم بما يستطيع لاقامة مؤسسات تذكارية تخلد ذكرى الفقيد ، ولاقامة نصب تذكارية على ضريحه ، وذلك وفقا لقرار اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر وقال : اننا نرى من وراء هذه التبرعات الى ثلاثة أهداف كان الفقيد دائما يعمل لها :

أولها : ارسال بعثات الى البلاد العربية والفارسية للدراسة ، وذلك تعزيزا وتوطيدا للروابط الثقافية بين الهند وهذه البلاد .

ثانيها : تأسيس معهد أو أكثر فى الجامعات الهندية للأبحاث العلمية المتعلقة بالنواحى الاجتماعية والثقافية الهندية .

ثالثها : انشاء دور كتب فى جميع أنحاء الهند تحمل اسم الفقيد .

ثم قال ان الاكاديمية العلمية قد قررت مساهمة منها فى تخليد ذكرى الراحل ، وتقدير خدماته أن تنشر جميع اعماله وتآليفه مع ترجمتها الى اللغات الأخرى .

وأكد أن الحكومة الهندية ستبذل أقصى جهدها فى انشاء مؤسسات ونصب تذكارية تناسب منزلة الفقيد وتخلد ذكراه .

ووافق الحاضرون على قرار حزب المؤتمر .

وفى جلسة التأبين التى عقدها البرلمان الهندى يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٨ وقف نهرو يؤبن الفقيد ويعنى بتصحيح خطأ مشهور فى تاريخه فيقول : " اشتهر عن مولانا أزاد أنه تعلم فى الجامع الأزهر ، والحقيقة أن هذا خطأ وقعت فيه ، كما وقع الكثيرون ، حتى كتابات الحكومة ونشراتها الرسمية اشتملت على هذا الخطأ ، !! والواقع انه ذهب الى القاهرة زائرا وزار الجامع الأزهر ، ولكنه لم يقم فيه للتعلم ، انما تلقى تعليمه فى المدارس العربية والانجليزية بكلكتا كما أقام مدة فى البلاد العربية وولد فيها !!

وقد نبه مولانا أزاد فى مذكراته الى هذا الخطأ الذى اشتهر فى حياته ، وأرجع شيوع هذه الفكرة الى أنه تحدث مرة فى مؤتمر صحفى عن الأزهر وبرامجه التى عرفها حين زاره سنة ١٩٠٨

فى جولتــه بالبلاد العربية وهو شاب فاعتقد الكثيرون ومنهم بعض مؤرخى الهند أنه تعلـم فى الأزهر ، والتعلم فى الأزهر شرف يحب كثير من المسلمين فى أنحاء العالم أن يحصلوا عليه ، وفضل يوضع فى أول قائمة الرجل ، لا سيمـا اذا كان على علم بالدين ومعرفة باللغة العربية ، وقد كان مولانا أزاد واسع العلم بدينه عارفـا باللغة العربية حديثا وكتابة ، فساعد كل هذا على أن يعتقدوا أنه اغترف من نبع الازهر ، وأفاد من علمه وثقافته ، وهو حصن الديــن ، ومعقل العربية فى العالم .

ولكن نهرو فى تصحيحه لخطأ وقع فى خطأ آخر حين قرر أن أزاد تعلم فى المـدارس الانجليزية مع أنه لم يلتحق بمدرسة انجليزية ولكنه تعلم اللغة الانجليزية بجهده الخـاص كما عرفنا ذلك قبل .

وقد أخذت الحكومة الهندية تفى بما تقرر فى حفلة التأبين من اقامة مؤسسات تذكاريــة للفقيد اعترافا بفضله ففى ١١ نوفمبر سنة ١٩٥٨ وضع رئيس الجمهورية حجر الأساس لمبـنى مجلس الهند للروابط الثقافية الذى اطلق عليه اسم ((أزاد)) تخليدا لذكراه ، واعترافـا بجهوده فى تدعيم الروابط الثقافية بين الهند والبلاد العربية وغيرها . وألقى الرئيس كلمــة فى هذه المناسبة ، فكان مما جاء فيها [1] :

هذا المبنى سيكون تذكارا خالدا للفقيد الراحل المغفور له مولانا أزاد رحمه اللــه ، هذه الشخصية الكبـيرة التى لم تلعب دورا هاما يميزها بين أقرانها فى سبيل النضـــال لأجل حرية البلاد فحسب ، بـل تمتاز بما لها من أيـادٍ بيضـاء فى سبيل الوطن بعـــد تحقيق الحرية والاستقلال ، وانه لمن حسن حظى أن معرفتى بالفقيد يرجع عهدها الى عـــام ١٩٣٠ " وقـال :

" كان يمتاز بجمعه بين الحنكة والزعامة ، والنبوغ فى الادارة ، والتضحية فى سبيـــل الوطن ، وبين علم غزير وسعة اطـلاع ، وتضلع فى الفنون والآداب ، وبما أنه رحمه اللـــه قد جمع فى حياته كل ما جاد به الشرق من تقاليد وحكم وعلوم ، مع أحسن ما تحويه الثقافـــة

(١) من الخطبة المذكورة كلها فى مجلة الثقافة الهندية يناير وابريل سنة ١٩٥٩ م .

الغربية فى هذا المضمار كان يعتبره كثير منا ملتقى الشرق والغرب ، ثم انه كان كبحر عميق ينبض قلبه الكبير بالعطف والحنان ، فان واجهته أزمات تبدو عويصة الحل أضاءت له طريقته الانسانية فى معالجة المشاكل ، وصلاحيته الخارقة فى التوفيق بين النزعات طريقا لتحقيق التفاهم بين المختلفين المتعارضين ، ومما لا شك فيه أن الدور الهام الذى لعبه مولانا أزاد فى السياسة الهندية مرده الى ذهنه الخارق ، وقلبه اليقظ ، وكان النجاح الذى تكللت به جهوده يرجع الى النهج السليم الذى سلكه فى حياته "

" ان حياته عليه رحمة الله كانت عبارة عن عمل ، كيانه : انكار الذات ، ولذلك تراه قد جعل المصلحة القومية — سواء فى التفكير أو العمل — نصب عينيه ، كما جعل نفسه دائما فوق جميع الاعتبارات الشخصية ، ولذلك كان يتمتع باحترام جميع عارفيه وثقتهم ، اختلفوا معه فى وجهات نظره أم اتفقوا " .

وفى عدد خاص أصدرته جريدة الجمعية : لسان حال جمعية علماء الهند عن مولانا أزاد بعد وفاته نشر به حديث للزعيم ((نهرو)) عن الفقيد يكشف جوانب شخصيته الفذة قال فيه :

" الحديث عن شخصية أعرفها عن قرب أمر صعب ، وهذه الصعوبة تبلغ ذروتها حين يكون صاحب هذه الشخصية رفيقا سياسيا اشتركنا معا فى تحمل المسئولية الضخمة ، والمتاعب الجمة فى سبيل خدمة الوطن ، ولذلك أحس صعوبة بالغة حين أتحدث عن مولانا أزاد " .

" منذ ثلاثين عاما قابلت مولانا أزاد وجها لوجه لأول مرة فى حياتى ، وكنت قبل ذلك أسمع عنه ، وعن اهتمامه بالقضايا القومية بكل ما فيه من عزم وثبات ، وكنت أتابع مقالاته أيام الحرب العالمية الأولى قبل ذلك اللقاء بزمن ، وكنت لذلك تواقا الى مقابلته ، كان مولانا أزاد حينذاك شابا ، ولكن علامات النضج ، وامارات النظر الثاقب ، كانت كأنها منقوشة على جبينه .. ومن هنا كان وجوده بين زعماء الحزب الوطنى أمرا لا بد منه ، ولم أكن حينذاك من أعضاء الحزب حتى يتاح لى لقاؤه والتعرف به ، فكنت أسعى للتعرف به من بعيد ، ثم حين أصبحت عضوا بالحزب وجدت المجال الواسع للتعرف على شخصيته الفذة " .

" وفى السنوات الأخيرة توطدت بينى وبينه أواصر الصداقة والمحبة ، ففى كثير من شئون الحزب وقراراته ورسم سياسته كان مولانا خير رفيق وأعز زميل لى باستمرار " .

" فى تاريخ الحزب بل فى تاريخ الهند قليل من الناس من يعرف أنه كان لمولانا أزاد اليد الطولى فى كل ما أصدره الحزب من قرارات وآراء رشيدة " .

" فقد كان عليه رحمة الله منصرفا الى خدمة الحزب والوطن بكل قواه الفكرية ، واضعا تجاربه فى سبيل هذه الخدمة ، سواء فى ذلك أكان رئيسا للحزب أم عضوا فيه ، وكانت آراؤه الحرة النيرة دائما ناضجة ، ذلك لأنه كان وراءها علم غزير ، وعقل ناضج ، وتدبير حكيم وفراسة نافذة " .

" كان مولانا أزاد وحيدا فى السياسة ، فلم يكن مثل السياسيين الذين يغرمون بالهجوم العنيف على مخالفيه ، ولا يحب منهم هذا التهجم عليه " .

" كان ذا حياء شديد ، وضمير حى يميل الى الخلوة والانفراد ، ومع أنه كان خطيبا ساحرا مؤثرا الا أنه كان يهرب من الضوضاء والاجتماعات الصاخبة ، ولم يكن من السهل أن تحمله على الخطابة فى الجماهير ، ذلك لأن طباعه الأصيلة فى الحقيقة كانت طباع العالم الفيلسوف اكثر من طباع الرجل السياسى ، ولكنه اندفع الى السياسة للظروف السيئة التى كان الوطن يعانيها " .

" كان لمولانا أزاد معرفة نادرة ودراسة فذة بتاريخ الأمم الماضية ، وكانت هذه المعرفة تمتاز بحسن الترتيب والضبط النادر المثال ، ولو لم تكن الخلوة محببة الى نفسه ، لكان له فى خدمة الوطن أكثر مما كان على كثرة ما أداه اليه " .

" لقد كان مولانا أزاد منذ عنفوان شبابه مشهورا لا فى الهند وحدها ، بل فى البلاد العربية ، ومصر أيضا ، وكان هذا بفضل كتاباته ، ولو استمر فى جهاده الكتابى بعيدا عن تيار السياسة لكان لذلك أثره البعيد المدى فى تكوين الشعب تكوينا فكريا نظيفا ، وتكوينا علميا منظما يرسم له طريق العمل الواضح المستنير ، ولكن الظروف السياسية أجبرته على أن يتخلى عن هذا ولا يعطيه كل اهتمامه " .

" ولا ريب أن التاريخ سيشهد كيف قام مولانا أزاد بدور عظيم فى خدمة القضايا الوطنية لبلاده ، ولكننا نحن الذين عرفناه عن قرب قلما ننتظر حكم التاريخ ، فاننا فى غنى عن التاريخ وحكمه ، فقد كان مولانا أزاد لبلادنا وأمتنا قوة راسخة كالجبال ، ومع أننا كما نختلف معه أحيانا فى الرأى ــ وهذا أمر طبيعى ــ الا أننا نشهد بأن آراءه دائما كانت وجيهة وشهيدة مافى ذلك من شك ، ولم يكن من السهل التخلى عنها ، لأنها كانت صادرة عن رجل أخذ بناصية الماضى والحاضر ، ولأنه كانت له تجارب واعية ، وعقل يقظ ، كما كان يملك فهما سليما للأمور ودراية راسخة بها .. وهذه الصفات لايتصف بها الا القليلون من الزعماء .. لقد وجد العظماء فى كل مكان وزمان ، ولكن مولانا أزاد كان طرازا وحده فى عظمته وسوف لاتوجد مثل هذه الشخصية لا فى الهند ولا فى خارجها "

" لقد أدى مولانا أزاد خدمة كبرى للاسلام والمسلمين حين نادى فى الناس : ان البلاد الاسلامية لايمكن أن تتحرر من الاستعمار الا اذا حصلت الهند على استقلالها "

" لقد كان مولانا أزاد مجموعة محبوبة من عظمة الماضى ، وعظمة الحاضر ، وكان يتسم بكل الصفات الأخلاقية الحميدة التى يندر وجودها فى هذا الزمان "

" ان الانسان الآن يحاول الصعود الى القمر ، ولكنه مع ذلك يفقد هذه الصفات الانسانية التى كنا نرى مولانا نموذجا لها " .

" وفوق ذلك كان ملتقى لثقافات الغرب والشرق قل نظيره فى هذه الأيام "

" فلا غرابة اذن ــ ان قلنا ــ ان موت هذا الرجل الصديق الزعيم المعلم قد ترك وراءه فراغا عميقا واسعا يزداد اتساعا وعمقا بمرور الزمن " .

" واذا كان مولانا أزاد قد فارقنا بجسده ، ونفتقده الآن بيننا فلا نجده ، فان رسالته الخالدة وآراءه السياسية سوف تبقى على مر الزمن حية باقية بيننا تضىء لنا طريق المستقبل ، كما أضاءت لنا من قبل الطريق فى الماضى "

تحليل زعيم لزعيم ، وحديث عظيم عن عظيم ، وهل يعرف الفضل من الناس الا ذووه .

" وبعد "

ففى حديقة الاسلام الخصبة المتسعة الأرجاء ، تنبت الاشجار الضخمة الوارفة الظلال اليانعة الثمرات تمنح البشرية من رفدها وخيرها أمتع الظلال وأشهى الثمرات .

ورحم الله أزاد الذى انبتته أرض هذه الحديقة فكان خير عطاء وأطيب مصدر للاعطاء . أعطى دينه وامته ووطنه من حياته وجهوده منذ فجر حياته أجود ما منحته هذه الحديقة . حديقة الاسلام ..

والحمد لله رب العالمين . الموفق والمعين وصلى الله وسلم على خير خلقه ورسله القائد المربى خير المجاهدين وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين ...

* * *
* *

ملحق أ

المسلمون بين الاجتهاد والتقليد

ملحـــــق أ

المسلمون بين الاجتهـــاد والتقليـــد

الحمد لله الذى رضى لنا الاسلام دينا ، ونصب لنا الدلالة على صحته برهانا مبينــا ، وأمرنا أن نستهدبه صراطه المستقيم ، صراط ((الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)) (٤ : ٦٩) غير المغضوب عليهم (اليهود) الذين لعنهم الله بكفرهم (٢ : ٨٨) ((وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله (٢ : ٦١) ولا الضالين (النصارى) الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١٨ : ١٠٤) وبدا لهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ، وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ، ذلكم بأنكم اتخذتم آيات اللــه هزوا ، وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون منها ولاهم يستعتبون (٤٥ ٣٤)فسبحان الذى جعلنا أمة التوحيد ، وجعل ديننا دين التوحيد ، وصراطنا صراط التوحيد ، وسياستنا سياسة التوحيد وأعز من استقاموا منا على التوحيد ، وأذل من انحرف منا عن محجة التوحيد ، ليعيدنا كما بدأنا الى التوحيد " انه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العــرش المجيد فعال لما يريد (٨٥ : ١٤) .

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد خاتم أنبيائه ورسله ، وصفوته من خلقه ، وحجتــه على عباده ، وأمينه على وحيه ، الذى بعثه بتوحيد الألوهية ، ليحرر الخلق من رق العبودية للعوالم السماوية والأرضية ، وبتوحيد الربوبيــة ليعتقهم من رق التقاليد الدينية ، التى ألحقها رؤساء الأديان بالشرائع الالهية ـ وبتوحيد السياسة ، ليكون الشعوب والقبائل أمة واحدة ، تضمها شريعة عادلة مقومة واحدة ، وتتعارف بلغة واحدة ، ليطلقهم من قيود الحكومــــة الشخصية الجائرة ويفكهم من أغلال العصبية الجنسية والوطنية الخاسرة ـ فاهتدى بكتابه العقلاء المستقلون ، وضل به السفهاء المقلدون وعز بأتباعه المؤمنون الصالحون ، وذل باعراضهـــم المعرضون الخاسرون ، (وانه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون) (٥٦ : ٧٧)

تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٣٦ : ٥) وان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (٢٩ : ٥١) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد (٤١ : ٤٢) قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد (٤١ : ٤٣) .

(وبعد :)

لقد أتى على الانسان حين من الدهر كان فى طور أشبه بطور الطفولة ، فسادت الأوهام والخرافات على العقول البشرية ، وكثر بين الناس الدجالون المحتالون ، والفازون الجائرون ، والظالمون الضالون ، والسحرة والمشعوذون ، ملكوا نواصى الناس بافكهم وكذبهم ، وصاروا يتصرفون فى جميع أمورهم ، فما كان أحد يقدم على عمل ما الا بحكمهم ، والاسترشاد برأيهم ، فكان الناس فى أمرهم كالانعام بل هم أضل سبيلا ، عقول فاسدة وآراء كاسدة ، وأفهام سافجة وبصائر قاصرة وجهل وأوهام ، وخرافات وخزعبلات تقيمهم وتقعدهم ، وتفرحهم وتحزنهم ، وتخيفهم وتزعجهم ، فاذا برق بارق من السماء ارتجفوا واضطربوا ، واذا نزلت صاعقة من السحاب ، ماجوا وارتعدوا ، واذا أصابهم مرض حلقوا لدفن الأوراق ، واستنجدوا بسراق ، واذا نظر اليهم ناظر حوطوهم بالتمائم ، وأطلقوا حولهم بخور المهاجر ، واذا كسفت الشمس أو خسف القمر ، صاحوا ودقوا الدفوف وقرعوا الطبول ، لارضاء آلهتهم على ما يزعمون ((وما لهم بذلك من علم الا اتباع الظن (٤ : ١٥٧) بل هم فى شك يلعبون (٤٤ : ٩) وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٦ : ٣٣) .

سار الله تعالى مع تلك الأمم فى هذا الطور سير الأب مع أبنائه فى طفولتهم ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق (٢ : ٢١٣) لهداية الناس واصلاح شأنهم فى معاشهم ، واعدادهم للسعادة فى معادهم ، وقد مضت سنته فى البشر أن يرتقى نوعهم بالتدريج والتحويل ، كما يرتقى أفرادهم من طفولية الى تمييز ، ومنه الى رشد

وتكل ، اذ لك جعل خطاب الرسل والكتب لهم فى كل طور على حسب استعدادهم وعقولهم ،
فخاطبهم طورا بما يناسب مدركات الحس ، وطورا بما يناسب وجدان النفس ، وحملهم أولا على
الطاعة بالقهر والالتزام ، وجذبهم اليها ثانيا بالاقناع وضرب الأمثال ، فرشدوا من وعظهم
ونصحهم ، ووعدهم ووعيدهم وخذلوا من كانوا متسلطين على عقولهم من الملوك والكهنة
والمشعوذين ، بما أجراه الله على أيديهم من المعجزات ، وما أظهره لهم من الآيات البينات ،
ثم أخذ الله المعاندين المنكرين الذين خالفوا ضمائرهم ، وكابروا عقولهم وأبصارهم ، ولم يميزوا
بين الحق والباطل ، والعالم والجاهل والغالب والمغلوب ، والصادق والكذوب ، والظن
واليقين : ((ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى
الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٦ : ٢٦)
كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ؟ (١٦ : ٣٥) .

مضت الأيام والأعوام ، وتوالت القرون والأجيال ، علت فيها الأقوام وسقطت ، وارتفعت
وانحطت ، وخسرت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة
والشقاء أياما ، فانتقل البشر من حال الى حال ، وارتقوا من طور الى طور ، حتى اذا ماارتقت
عقولهم بتقلب الزمان ، واستعدوا لتحكيم العقل والتفكر فى مدركات الحس والوجدان بعث منهم
خاتم النبيين والمرسلين ، الذى جعل الفكر والنظر أساس الدين ، ومنحه دين الاسلام ،
الذى هو كالعقل العام ، والمرشد الحكيم لجميع الأنام ، الموافق لهم فى كل مكان ، المنطبق
على مصالحهم فى كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربى الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام
الحكيم ، كلما سادوا فى العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلى فى ميدان السبق ((سنريهم آياتنا
فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (٤١ : ٥٣) أنزل عليه كتابا احتج على
صحة العقائد بآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وبين فوائد مادعا اليه من العبادة ومكارم
الأخلاق ، وأشار الى مصالح الناس فيما شرعه من الأحكام والسنن ، ونبه على مفاسد ماحرمه
عليهم من المنكرات ، ماظهر منها وما بطن ، وجاء بالبينات والهدى ، فنهى عن التقليد

واتباع الهوى ، وقرر حرية الوجدان والاجتهاد في جميع الأعمال والاعتقاد ، وعظم شأن الفكر والعقل ، وجعله هو المخاطب لفهم النقل ، فامتاز دينه على سائر الأديان ، بأنه دين الحجة والبرهان ، الناعي على متبعي الأوهام والظنون ، بأنهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، بل وصفهم بقوله ((ان هم الا كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (٧ : ١٧٩) صم بكم عمي فهم لا يرجعون (٢ : ١٨) .

كان لضلال البشر قبل الاسلام علتان : احداهما ضعف قوى الخلقة ، وثانيهما : الانحراف عن سنة الفطرة فكان من الضعف أن يعتقد الناس في كل مظهر من مظاهر الخليقة لا يعرفون علته ، انه هو القوة الغيبية التي قامت بها جميع المظاهر ، وهو القوة الالهية ، فيعبدون ذلك المظهر وكان من الانحراف عن قوانين الفطرة ما كان من الأوضاع والبدع والخرافات والتقاليد والرسوم ، حتى جاء القرآن ينادي اليهم وهم غافلون (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٠ : ٣) فعلم الناس ان الدين الحق اقامة الفطرة لا مقاومتها ، والاستفادة بنور العقل لا اطفاؤه ، وان العمدة في معرفة الأحكام ، والحلال والحرام ، اجتناب المضار واجتلاب النافع ، ودرء المفاسد وطلب المصالح ، فبهذا كان الاسلام هو الدين الأخير الذي أخرج البشر من حجر القصور وعبوديته ، الى فضاء الرشد وحريته ، وكان ناسخا لما قبله من الأديان ، ولا يمكن أن ينسخ أو ينقضي الزمان ، فتبارك الله الذي أنزل على عبده الفرقان ، وعلمه البيان " ليكون للعالمين نذيرا (٢٥ : ١) ! جاء الاسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجوه : من جهة الدين — من جهة العلم — من جهة المدنية — من جهة السياسة — فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله دينا قيما ، وعلما محكما ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الأرض ومغاربها ، بقوة الحق وسرعة البرق ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وارتفعت كلمة الحق غاية الارتفاع والاعتلاء بحيث صارت " كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (١٤ : ٢٤) .

قضى الاسلام القضاء المبرم على الوثنية التى أذلت البشر ، واستعبدتهم للملوك المستبدين والرؤساء الروحانيين ، والسادة الظالمين ، والقادة الغازين ، الهواة الضالين واستعبدتهم لمظاهر الطبيعة ، وما يمثلها فى الهياكل من الأصنام والطواغيت والأوثان ، فى أى لباس وجدت وفى أية صورة ظهرت ، وتحت أى اسم عرفت ، تقرر حرية الوجدان والاعتقاد ، والاجتهاد والاستقلال فى العقائد والاعمال ، والشورى فى السياسة والأحكام ، وأبطل امتيازات الأنساب والأجناس التى كان الناس يستطيلون بها على الناس بغير علم نافع ، ولا عمل رافع ، وجعل قاعدة الانسانية العامة قوله عز وجل : " يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم (٤٥ : ١٣) .

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا — الا قليلا — فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك أنهم يحبل الله يستمسكون فرقة وتخالف وشيع وشعب ، يظنونهما فى سبيل الله أقوى سبب فأنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد " ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم " (٣ / ١٩) " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " (٤٢ : ١٣) .

وجملة القول كان الاسلام نورا وضياء ، سطع فى أفق الجزيرة ، فعم الكون بأسره وبهر الناظرين ، وكان المسلمون عصبة صالحة نبتت فى مهبط الحجاز ، فتدلت على الشرق والغرب وقبضت على نواصى المجد الأعلى ، فملكت زمام العالمين ، هذا هو شأن الاسلام وهكذا كان المسلمون ، نورا ساطعا ومجدا طالعا ، ونفوذا قاهرا ، وعزا باهرا ، وعلما زاهرا ، وخلقا ساحرا ، سياسة ملكت الأقطار ، ومصرت الأمصار ، وكياسة ارتاحت لها القلوب ، واطمأنت لها الأمم والشعوب ، لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب " تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا (١٩ / ٦٣) .

هكذا كان شأن الاسلام والمسلمين والامر على ذلك ، حتى عمل الشيطان مكائده عليهم ، والقى بأسهم بينهم ، وأفشى فيهم فتنة الشبهات والشهوات ، وزين لهم التقاليد والمبتدعات فضلوا عن هدى القرآن المجيد بما وضع فى عنقهم من رهن التقليد ، ودب الفساد الاجتماعى فى جسم الامة ، وعم الظلم والطغيان والاسراف ، فأفسد الأخلاق ، وأضعف النفوس وطبع على قلوب الامة بطابع القهر والعبودية ، فلا أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر ، ولا تعاون على بر ، ولا تناصر على رفع ضير ، فذهبت ريح الدولة وقوة الأمة ، واستعد الفريقان بعملهم لنقمة الله تعالى بدلا من النصر والنعمة ، فتمزق شمل المسلمين ، واضاعوا السياسة والدين ، وردوا الأمر أسفل السافلين ، فخسروا الدنيا والآخرة ، " ذلك هو الخسران المبين (٢٢ : ١١) .

الاسلام دين التوحيد ، وما أمر المسلمين الا ليعبدوا الها واحد ، ويتبعوا نبيا واحدا ، ويقيموا لهم اماما واحدا ، ويكونوا أمة واحدة ، لا يفرقهم نسب ولا لغة ولا وطن ولا جنس ، وقد نهوا عن التفرق كما نهوا عن الكفر ، فقال الله تعالى : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا (٣ : ١٠٣) (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (٢ : ١٠٥) ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ (٦ : ١٥٩) وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين (٩٨ : ٢) فما اختلفوا حتى جاءهم العلم (٩٣:١٣) وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم (٤٥ : ١٧) ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (٨ : ٤٦) .

ان النبى صلى الله عليه وسلم بين مثل ذلك فى قوله وعمله ، حتى لم يكن يغضب لشئ كما يغضب اذا رأى الاختلاف بين أصحابه قد أفضى أو كاد يفضى الى التفرق . والقول فى هذا كثير ، وحسبك ما رواه البخارى من وصيته صلى الله عليه وسلم " لا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم أعناق بعض " .

ولكنا خالفنا كل هذه النصوص ، فتفرقنا وتنازعنا ، وشاق بعضنا بعضا بشبهة الدين اذ اتخذنا مذاهب متفرقة كل فريق يتعصب لمذهب ، ويعادى سائر اخوانه المسلمين لأجله ، زاعما أنه ينصر الدين ، وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين !! هذا سنى يقاتل شيعيا ، وهذا شيعى يقاتل أباضيا ، وهذا شافعى يغرى التتار بالحنفية ، وهذا حنفى يقيس الشافعية على الذمية ، وهؤلاء مقلدة للخلف ، يحادون من اتبع طريق السلف ، حتى جنوا على التوحيد نفسه ، توحيد الألوهية بالتوجه الى غير الله ، ودعاء سواه ، وتوحيد الربوبية بشرع مالم يأذن به الله ، فسلط الله على جميع هذه الأحزاب اعداء خضدوا شوكتها وزلزلوا دولتها " ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم (٨ : ٥٣) .

طريق الحق هو الوحدة والاسلام (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (٦ : ١٥٣) وطرق الشيطان هى مثارات التفرق والخصام (ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (٨ : ١٤٢) لقد كان اليهود أمة واحدة مجتمعة على كتاب واحد ، فسول لهم الشيطان فتفرقوا ، وجعلوا لهم مذاهب وطرقا ، أضافوا الى الكتاب ما أضافوا ، وحرفوا ما حرفوا ، واتبعوا السبل ، فتفرقت بهم عن سبيل الله ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ومزقوا كل ممزق ، وباءوا بغضب من الله ، وكذلك فعل غيرهم ، كأنهم رأوا دينهم ناقصا فكملوه ، وقليلا فكثروه ، وسهلا فصعبوه ، فثقل عليهم بذلك فوضعوه ، فذهب الله بوحدتهم ، حتى لم تغن عنهم كثرتهم ، وسلط عليهم الأعداء ، وأنزل الله بهم الهلاء (سنة الله التى قد خلت ~~فى عباده~~ من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) (٤٨ : ٢٣) .

كان المسلمون فى خير القرون أمة واحدة ، وكان العلماء فيهم أدلاء ونقلة لدين الله ، متعاضدين متناصرين ، متحابين متعاشرين ، وما كان من اختلاف قليل رد الى الكتاب والسنة ، ثم جاء عصر التابعين ، وائمة المجتهدين رضوان الله عليهم اجمعين ، فسلكوا على آثارهم إقتصاصا ، واقتبسوا من مشكاتهم اقتباسا ، وكان دين الله أجل فى صدورهم من أن يقدموا عليه

رأيا أو تقليدا ، وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين وليس فيهم مقلد ، بل كلهم مجتهدون يستمدون من الأصلين الجليلين ، وهما كتاب الله وسنة رسوله (فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول) (٤ : ٥) .

ولكن خلف من بعدهم خلف فرقوا دينهم وكانوا شيعا (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون) (٢٣ : ٥٣) فاستقرت المذاهب المدونة وهجر غيرها ، وجعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التى يدينون ، ورؤس أموالهم التى بها يتاجرون ، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد ، واتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله (٩ : ٣١) وحجروا على رب العالمين مثل اليهود ، ان لا يبعث بعد أئمتهم وليا مجتهدا ، وانكروا ماقاله الرسول حيث قال (لا يزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها) وقالوا لم يبق فى الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة .

فقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر ومحمد بن الحسن والحسين بن زياد واللؤلوى (رحمهم الله) . وقال بكر بن العلاء المالكى : ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعى والثورى ووكيع وابن مبارك (رضى الله عنهم) .

وقالت طائفة : ليس لأحد ان يختار بعد الشافعى والمزنى (شكر الله مساعيهما) وكذا قالوا فى التفسير والحديث والأصول حتى فى العلوم الالهية والعقلية !! فانظر كيف استبدلوا الباطل بالحق ، واشتروا الضلالة بالهدى (فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين) (٢ : ١٤) .

واختلف المقلدون فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين اليه ، ويكون له رأى يفتى ويحكم به من ليس كذلك . فجعلوهم ثلاث مراتب ، وقسموهم عدة طبقات ثم اختلفوا ، حتى انسد باب الاجتهاد ، وعلى أقوال كثيرة ما أنزل الله من سلطان بها وقالوا : ان الأرض قد خلت من قائم لله بحججه ، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم والبصيرة ، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر فى كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام والعلوم منها ، ولا يقضى ولا يفتى بما فيها ، حتى

يعرض على قول مقلده ومتبوعه ، وهذه الأقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم ، وإبطال حججه والزهد فى كتابه وسنة رسوله وتلقى الأحكام منهما مبلغهما .

ويكفى فى فساد هذه الأقوال ان يقال لأربابها : فاذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم ، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم ؟ وكيف حرمتم على الرجل أن يختار ما يؤديه اليه اجتهاده ؟ وابحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه ، واوجبتم على الأمة تقليده وحرمتم تقليد سواه ؟ فما الذى سوغ لكم هذا الاختيار الذى لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا قياس ولا قول امام من أئمتكم ؟ فاذا كان لا يجوز الاختيار بعد المائتين عندكم ، فمن اين يجاع لكم وأنتم لم تولدوا الا بعد المائتين ؟ .

يا للعجب !! ان الامام اشهب وابن الماجشون ، ومطرف بن عبد الله وسحنون بن سعيد ، ومن فى طبقتهم من الفقهاء فى المئة الثالثة كان لهم أن يختاروا الى انسلاخ ذى الحجة من سنة مائتين ، فلما استهل هلال المحرم من سنة احدى ومائتين ، وغابت الشمس من تلك الليلة حرم عليهم فى الوقت بلا مهلة ما كان مطلقا لهم من الاختيار !! فانظر (كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) (١٧ : ٤٨) .

شهد الله فى كتابه انه جعل دين الاسلام يسرا ، لا عسر فيه ولا حرج (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٢ : ١٨٥) (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج) (٢٢ : ٧٨) واشهد رسوله صلى الله عليه وسلم أنه ينهى عن كثرة السؤال ، لأنه سبب لكثرة التكاليف ، وبين لنا أن الله سكت عن أشياء رحمة بنا ، وان لا نكون كبنى اسرائيل ، شددوا فشدد الله عليهم ، ولكن هؤلاء المتفقهة المقلدة جعلوا اليسر عسرا ، والسعة ضيقا وحرجا ، والسمحة شرسة ، وشددوا على أنفسهم وعلى الناس ، وان لم يشدد الله عليهم .

وبسبب هذا الغلو الذى نهى الله عنه وذم أقواما عليه فى قوله (يا أهل الكتاب لا تغلوا

فى دينكم) (٥ : ٧٧) هجر السلاطين المسلمون الشريعة فى أمر القضاء والسياسة ، بزعم ودعوى أن الشريعة شاقة ، وغير مطابقة لمصلحة الزمان ، وتركتها عامة الأمة أيضا فى أكثر أحوالها ، وهم يمسون ويصبحون ، ولا يدرون ماذا يعملون ، تراهم فى عدو الى الجهل يخبطون (ظلمات بعضها فوق بعض) (٣٤ : ٤) .

ولا تظن أن هذا الترك قريب العهد ، فانه لم ينقل الينا التاريخ ان طائفة من طوائف التقليد استطاعت اجراء شؤونها على جميع القواعد والمسائل الفقهية ، فمذهبهم ليس هو مذهب عمل واكتساب ثوا بل اعتقاد وأقوال ونزاع وجدال ، وتخاذل وافتراق ، وبلاء وشقاق ، وكان نتيجة هذا التقليد أن شوهوا وجه الشريعة الغراء ، حتى ظن من ضعف ادراكه ، أن الشريعة ليست سوى ما بأيدى المقلدة ، فيا لله للمسلمين من هذه الفاقرة التى هى أعظم نواقر الدين ، والرزية التى ما رزىء بمثلها سبيل المؤمنين .

كان أهون الاختلاف اختلاف الصحابة وغيرهم من السلف فى فهم الأحكام ، مع عذر كل منهم لمخالفه بحيث لم يكونوا شيعا تتفق فى الدين ، وتتعصب كل شيعة منها لبعض المخالفين ، فان مثل هذا الاختلاف طبيعى فى البشر لا يمكن اتقاؤه ، ولكن لما جاء دور التقليد والتخريب والتعصب للمذاهب حلت النقمة ، وتفرقت الكلمة ، وذ هبت الريح والشوكة ، الى أن وصلنا الى هذه الدرجة من الضعف والذل .

ذهب ملكنا وصارت الملكة الكبيرة من ممالكنا تقع فى قبضة الأجانب ، فلا يبالى بهم سائر المسلمين !! فأين الوحدة والأخوة ، والتواد والتراحم ، والتعاون والتناصر ؟ وأين تمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟ كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف :
(فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (٤ : ٧٨) .

اقرأ فى التاريخ حوادث الفتن بين أهل السنة والشيعة ، وبين المنتسبين الى السنة بعضهم مع بعض ، بين الأشاعرة والحنابلة ، بين الحنفية والشافعية ، وبين الشافعية والحنبلية ، ومن أغرب ما تجد أن العداوة بين الشافعية والحنفية كانت من أسباب حملة التتار

على المسلمين ، تلك الحملة التى كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعا لم يلتئم من بعده أو يعد كما كان : ((ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد)) (٣ : ١٨٣) .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم " متفق عليه ولا يفقه هذه الحكمة النبوية الا العليم بصفات الانفس البشرية وأخلاقها ، ونظام الاجتماع الانسانى ، ومن سنن الله فى ذلك ما يتفق فيه الأفراد من الأعمال الظاهرة المشتركة بينهم ، يكون سببا لائتلافهم واتفاقهم ووحدتهم ، والضد بالضد .

لذلك تتحرى الأمم المرتقية فى العلم والنظام ، أن تربى أفرادها على نظام واحد فى الأعمال الظاهرة ، وأن تنشر عاداتها فى الأمم الأخرى ، لتجذب بها قلوبها اليها .

ياسبحان الله !!! ان رسولنا لم يسمح لنا أن يختلف أفرادنا فى صف الصلاة فيتقدم بعضهم على بعض وأقسم على أن ذلك يكون سبب اختلاف قلوبنا ووقوع التفرق بيننا — ثم نحن نجيز لأنفسنا ان نقيم فى المسجد الحرام عدة جماعات فى وقت واحد لاختلاف المذاهب (١) ونعد هذا رحمة بنا ونعتقد بأن الاختلاف بيننا رحمة ؟ فأى رحمة استفادها المسلمون من الاختلاف والافتراق ، غير التذلل والتسفل والشقاق ؟ .

أرأيت لو لم توجد بدعة التحزب والتفرق من كل طائفة لتعليم معين ، هل كان يوجد هذا الضلال ؟ ارأيت لو أن المسلمين يعملون فى كل عصر بقوله تعالى : " فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول " هل كان يوجد هذا التفرق والتمزق والانحلال ؟ لا ، لا ، وانما وجد بالتقليد الأعمى ، لأن كل طائفة وثقت برؤسائها ، فاتبعتهم بغير دليل ، وسنزيد هذا بيانا فى وقت آخر ، وحسبى الله ونعم الوكيل .

لقد بعث الله فى القرون الخالية علماء أصفياء يجددون لهذه الأمة أمر دينها ، فكانوا فيها كأنبياء بنى اسرائيل ، منهم من اهتدى بدعوته النفر والرهط والجماعة ، ومنهم من حال الاضطهاد وضعف الاستعداد دون الاهتداء به ، وكانت العامة المسكينة تغتر بمقاومة فقهاء الرسوم ، وساداتهم الحكام لأولئك المصلحين المجددين ، وتتبعهم فى تضليلهم ، لأن الناس

---

(١) كان هذا موجودا من قبل فى المسجد الحرام أيام مولانا أزاد ثم التغى وصار الناس الآن يصلون جميعا وراء امام واحد .

على دين ملوكهم ، حتى ان صوت حجة الاسلام احمد بن تيمية قد خفت في هذه الأمة المسكينة ، وهو أندى أصوات المصلحين ، وكتبه خفيت فيهم عدة قرون ، وهي أقوى وأظهر حجة من سائر كتب المسلمين !!! .

آه : ما أشد غفلة الناس عن حقيقة الاسلام .. أي سعادة للناس تملؤ هوتان كل فرد من أفرادهم أنه أوتي من الاستعداد ما أوتيه من يوصفون بالولاية والقداسة ، ويدلون بالزعامة والرياسة ، فمنهم من يستعبد الناس استعبادا روحانيا ، ومنهم من يستعبدهم بها استعبادا سياسيا ، واخلاص كل فرد من أفرادهم في علمه الديني لله وعلمه الدنيوي للناس .

هذه السعادة هي روح الاسلام وحقيقته حجبتها عن بعضهم الرسوم العملية والتقاليد المذهبية ، وعن آخرين النزعات النظرية ، والتقاليد الوضعية ، فالأولون يرمون بالكفر أو البدعة كل من خالف مذاهبهم ، والآخرون يرمون بالغباوة والتعصب كل من لم يستعذب مشربهم ، فمتى يكثر المسلمون الخالصون المخلصون للأولين والآخرين ، فيكونوا حجة الله عليهم وعلى جميع العالمين وآية الوحدة الفاضحة للمتخلفين ؟ !! " ومن أحسن قولا من دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين) (٤١ : ٣٣) .

لا اصلاح الا بدعوة ، ولا دعوة الا بحجة ، ولا حجة على بقاء التقليد فاغلاق باب التقليد الأعمى وفتح باب النظر والاستدلال هو مرد كل اصلاح . والسلام على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب . (٣٩ : ١٨) .

تابـــع الملحـــق "أ"

التفسـير والمفســـرون :

من الطبيعى أن تتطلع الأذهان الى التعرف على مباحث الكتاب وموضوعات "ترجمة القرآن" ومعرفة الأسس التى اعتمدت عليها قبل البدء فى مطالعته وقد كان رأيى أن أوضح ذلك وأفصله حتى وقت تسطير هذه المقدمة ، ولكن عند الشروع فى كتابتها بدا لى أن دقة الموضوع وعمقه لا يمكن لى استيعابه بغير تفصيل يكفى لتوضيح المسائل للقارىء .. واذا تشعبت أطراف كل مبحث على هذا النحو فلا الاختصار ممكن ، ولا الاجمال واف بالغرض .. ولهذا اضطررت للتخلى عن هذه الفكرة بالقاء نظرة سريعة وخاطفة على تلك المشكلات التى قامت عوائق على الطريق حتى يمكن تقدير الخطوات والظروف التى مرت بها تفاسير القرآن .. وذلك حتى أتمكن من تقديم الكتاب التالى الوافى بالغرض الذى يعد بمثابة "مقدمة فى أصول التفسير" التى أقوم باعدادها الآن وترتيب ما كتبته فيها من قبل (١) ..

معيار القرون السابقة فى دراسة القرآن وتدبره :

بمرور الزمن بعد الصدر الأول فى الاسلام نشأت عوامل وأسباب ليس هنا محل تفصيلها وهذه العوامل أخفت وجه الحقيقة من القرآن وحجبت معانيه وأسراره عن القلوب ..

وقد أخذت هذه الأسباب تنمو شيئا فشيئا على مر القرون فزاد الخفاء ، ونشأ معيار متخلف لتدبر القرآن وفهمه ، ولم يكن هذا التخلف قاصرا على توضيح المعانى والمقاصد ، بل شمل كل شىء حتى ان لغة القرآن وألفاظه وتراكيبه وبلاغته لم تتبوأ مكانتها الرفيعة التى تليق بها . ومن المعروف أن كاتب أو مفكر أى عهد انما هو نتاج البيئة التى يعيش فيها ، ولا يستثنى من هذه القاعدة الا الموهوبون الذين يسبقون زمانهم فى ذكائهم وتفكيرهم

---

(١) لم يتمكن من الوفاء بوعده لمشاغله السياسية .

بعد نظرهم ..

والواقع أنه منذ القرون الأولى للاسلام وحتى العصور الأخيرة تجد التفسير يؤيد هذه الظاهرة ويمثل سلسلة فكرية تأخذ فى الانحدار . كل حلقة فيها أعلى من لاحقتها والعكس صحيح .. فكلما صوبت نظرك الى أعلى اتضحت الحقيقة وكلما نظرت الى أسفل بدا العكس..

وهذه الصورة نتيجة انحدار المسلمين فى تفكيرهم العام ، فلما أدركوا أنهم لا يسيرون مع القرآن فى سموه ، حاولوا أن يهبطوا به الى أفقهم ويجروه معهم فى هبوطهم .

والآن اذا أردنا أن نرى القرآن فى صورته الحقيقية ، فلا بد أولا أن نرفع عن وجهه الحجب ونزيح ستائر التأثير الدخيل والعهود المتخلفة التى سترت وجهه ، ثم نتقدم ونبحث عن حقيقة القرآن فى صفحات القرآن نفسه .

بعض المؤشرات والمواثق فى فهم الحقيقة :

هذه المؤشرات التى تجمعت واحدة تلو أخرى ليست قليلة ، بل كثيرة جدا ، وفى كل زاوية وناحية وليس ممكنا أن نكشف عنها أو نتصورها فى اختصار ولكنى فى مقدمة التفسير حاولت أن اجمعها تحت بعض الأصول والملاحظات التالية الجديرة بالنظر :

١ ـ القرآن الحكيم فى أسلوب بيانه ، أو طريق خطابه ، أو منهج استدلاله ، وباختصار فى كل أمر من أموره ليس مقيدا أو أسيرا لمنهجنا المصنوع ، ولا ينبغى أن يكون كذلك ، بل انه فى كل أموره ينهج طريقا فطريا سليما تتميز به هدايات الأنبياء عن الفلسفات الوضعية .

عندما نزل القرآن ، كانت أذهان مخاطبيه الأوائل وأفهامهم غير مصبوبة ومصاغة فى قوالب التمدن الوضعى والصناعى ، وكان فهمهم فطريا بسيطا ، وكانت النتيجة أن القرآن دخل فى قلوبهم كما أنزل ، ولم يحسوا صعوبة فى فهم القرآن .

كان الصحابة الكرام يقفون على معنى أية سورة أو آية تتلى ، لأول وهلة ، ولكن لم يكد القرن الأول ينتهى حتى بدأت تهب رياح التمدن الرومى والفارسى ، ثم بدأ

دور التقنين لما ترجم من علوم وفنون يونانيـة وكانت النتيجـة أنه كلما ازداد التـذوق الوضعى للعلوم بعدت الأفهام عن بساطة القرآن وفطريته .. وبالتدريج أصبحت القضايا القرآنية فى كل الزوايا والاتجاهات تتناول أو تصب فى قوالب صناعيـة ووضعيـة ، ونظرا لأن القضايا القرآنيـة لم تتشكل تماما فى تلك القوالب ، نشأت عقد واشكالات متعـددة وكلما بذلت جهود لحلها ، ازداد تعقدهـا .

ولهذا كان لتفسير القرآن عهدان : عهد لم تكن فيه العلوم الاسلاميـة قد دونـت وهذا هو الدور الأول فى التفسير ، والدور الثانى بدأ بعهد التدوين والكتابـة وانـى أعتقد أن اللباس المصنوع للقرآن بدأ منذ ذلك التاريخ ، وقد بلغ فى عصر ازدهـار الفلسفة والعلوم المترجمة ، وفى نفس ذلك العصر كتب فخر الدين الرازى تفسيره الكبير واجتهد أن يزين صورة القرآن بذلك اللباس القشيب المصنوع ولو أدرك الرازى تلك الحقيقة لعرف أن ثلثى تفسيره على الأقل ان لم يكن جميعه ، غير ذى قيمة كتفسير للقرآن وعلـى كل حال ينبغى أن نعرف أنه كلما تكسرت من حول القرآن القوالب الشكليـة والمصنوعة تبرز حقيقته واضحة جليـة .

فليس فى أسلوب القرآن ولا فى لغته ما يدعوك الى التعقيد والأشكال ، فان بلاغتـه من أيسر ما تصل اليه مداركنا ، ويقبله وجداننا ، وآياته التى يعبر عنها بالحجة والبرهان هى براهين تخضع لها الأفئدة ، ولكن فن الصنعة المجلوبة هو الذى عقد كل بسيـط بسبب من خمود الحس والذوق الفطرى ، فأثرنا المشكلات حول الأسلوب واللغة والبلاغـة وربط الآيات وطرق الاستدلال ، وغلبت علينا الصنعة حتى أصبحنا نطلب ونتصور أن يكـون القرآن على نحو ترتيب الكتب المصنوعة من كتابنا وأدبائنا والمنطقيين منا ، ومن هنا حجبت عنا حقيقة القرآن التى لا تشرق فى ظل الموازين الصناعية التى نريد أن نزن بها القـرآن ـ ونصبه فى قوالبهـا .

٢ ـ ان أى كتاب كان اذا سألوك من محتواه والهدف منه أو اختلفوا حول ذلك فمن الطبيعـى أن الفهم الأرجح يكون لمن فهم من صاحب الكتاب مباشرة .

وقد نزل القرآن تدريجيا خلال ثلاثة وعشرين عاما . كان الصحابة الكرام يستحضرون القدر الذى كان ينزل . ويرددونه فى الصلوات ، وكانوا يستفسرون من الرسول نفسه عما يكون من أسئلة . وكان بعضهم له ميزة خاصة فى فهم القرآن وقد شهد الرسول نفسه (ص) بذلك .

فمن الطبيعى أن يكون هؤلاء هم المرجع الأول فى فهم القرآن . وليس ترجيحهم فى الفهم مبنيا على التحمس الدينى والمقدى ، بل من الطبيعى أن نفهم أن يرجح فهمهم للقرآن فهم من بعدهم . ولكن لسوء الحظ لم نفهم كذلك ، وشرع أهل كل عصر يبذلون جهودا جديدة فى الفهم تحت التأثير الفكرى لعصرهم . وخالفوا صريح تفسير السلف فى كثير من الزوايا . وقيل ايمان السلف أقوى ، ولكن طريقة الخلف فى العلم أقوى . مع ماكان شائعا من أن السلف أبرهم قلوبا واعمقهم علما . فانتهى ذلك الى أن الحقيقة أخذت تختفى شيئا فشيئا . وأصبح كل أمر معقدا غير قابل للحل . وقد حاولوا الوصول الى الحل فزادوا من الشروح والحواشى والتعليقات ولكنهم مع الأسف زادوا بذلك الأمر تعقيدا .

ولتقدير هذه الحالة ، خذ مقاما ما أو آية ما وابحث عن جوهرها فى تفسير الصحابة والتابعين ، ثم فتش عنها فى دنيا الخلف من المفسرين ، ثم قارن بين الاثنين . وسيبدو جليا ، أن المسألة طبقا لتفسير الصحابة كانت واضحة ثم أخذت تتعقد شيئا فشيئا .

مثلا : بداية سورة البقرة ورد فيها عن ابن عباس وابن مسعود " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة .. الخ " المقصود المؤمنون من العرب (والذين يؤمنون بما أنزل اليك .. الخ " المقصود أهل الكتاب . وقد ارتضى ذلك ابن جرير الطبرى ، ولكن لم يقنع اللاحقون من المفسرين بذلك (ويلاحظ هنا أن أزاد كان يؤثر قول الصحابى فى القرآن ـ حين يوجد ـ على ماعداه ..) .

٣ ـ وقد كانت روايات وقصص من دخلوا فى الاسلام حديثا ، قد انتشرت من أول يوم ومنهـا خرافـات واسرائيليـات اليهـود .

وقد أراد المحققون استبعادها ولكن كانت الآثـار الخفيـة لتلك العناصـر قد انتشرت وسرت الى حد بعيد ، فبقيت ممزوجة ومختلطـة بالتفسير .

٤ ـ ومن ناحية أخرى لم يعنوا بالتمييز بين ماروى عن الصحابة وبين ماروى عن التابعين ،وكانت النتيجة ان أقوال التابعين اعتبرت من تفسير السلف ووضعوها فى صف تفسير الصحابـة وكانت هذه بلوى أصيب بها التفسير (مثل مايروى عن قتادة ومجاهد وغيرهما) .

<u>المنهج القرآنى فى توضيح الحقائـق :</u>

٥ ـ وكان أشد ما يؤسف له ، أن طرق الاستدلال القرآنى (منهج القرآن فى تقريـر وتوضيـح الحقائـق) قد افتقدت ، اذ لا يخفى أن منهج القرآن فى استدلاله هو المحـور الذى يدور عليه بيانـه وحديثـه ، ارشاداته وتنبيهاته قصصه وأمثالـه ، مواعظه وحكمـه ، مقاصده وأهدافـه ، فلما ضعف فى نفوس الناس فهم هذا المنهج والاعتمـاد عليه كان بمثابة انعدام وانقطاع النبع الذى يرتوى منه الانسان ، وحيل بين المسلمين وبـين الارتواء من القرآن . لأن طريق استدلال الأنبياء الكرام لا تقوم على مقدمـات نظريـة حسب الطريقة المنطقيـة ، التى نقلها المسلمون عن اليونانيين .. بل هم يختـارون طريق التلقـين المباشـر ، والاذعان الفطـرى بحيث يدرك كـل فـرد ذلك بطريق وجدانـى .

كل قلب يتقبل ذلك فطريـا ، ولكن انهماك مفسرينا فى الفلسفة والمنطق ، لم يتح الفرصة لرؤية حقيقـة ما أو تقبلها فى شكلها البسيط الفطرى .

انهم فهموا أن من العظمة للأنبياء أن يجعلوا منهم مناطقة ، وأن جلال القـرآن وعظمته تبدو ولو صبت فى القوالب الأرسطية ، ولما كان القرآن لا يقبل الانصيـاع لتلـك القوالب ، فقد صارت النتيجة أن جمال الاستدلال القرآنى ولطفه ، وتغلغله فى القلب .

ذهب فى التصنع والتكلف . فتاهت الحقيقة . وما حصل الناس على ماكانوا يبتغــون .
وفتحت أبواب غير محدودة للشك والاعتراض وظهرت يد الامام الرازى بوضوح فى فتح تلك
الأبواب . وللحشد والجمع ولم نرها للأسف تعمل على غربلة ما جمعه وحشده .

القــرآن والعلم الحديــث :

٦ ـ ولقد كان من الآفات التى أصابت العقول فى فهم القرآن أو أصابت تفسير القــرآن . ماشهم
من أنه ينبغى معاضدة القرآن بالبحوث العلمية (يعنى أن القرآن فى حاجة الـــى
معاضدة هذه العلوم) . ومن ثم ترى محاولات قديمة لطبع معانى القرآن بالطابــع
البطليموسى كما نرى فى عصرنا الحديث محاولات لطبع التفسير بالطابع العلمى الحديث
فى المسائل العلميــة والآيات التى تتحدث عن الكون وما فيه من مظاهــر .

٧ ـ بعد القرن الرابع الهجرى . انتهى دور الاجتهاد فى العلوم الاسلامية . وأصبح المنهج
العام هو التقليد الا ماندر . واستشرى هذا الداء العضال فى جسم التفسير أيضــا .
فكان كل شخص يعمل فى ميدان التفسير يختار اماما ثم يظل يمشى خلفه مغلق العينين .
واذا حدث أن أحد مفسرى القرن الثالث أخطأ فى شىء فانك ترى أن هذا الخطأ استمر
نقله حتى مفسرى القرن التاسع الهجرى . وما أحس أحد ضرورة التأمل للحظات بعيــدا
عن التقليد . حتى يعرف أصل المسألة . وبالتدريج تقاصرت هم المشتغلين بالتفسير
ولم يتجاوزوا التحشية على تفاسير معروفة . انظر حواشى تفسيرى البيضاوى والجلالين .
وكيف أن قوة التصنيف تحولت الى ما يشبه تبييض البناء القائم الموجود .

ان سوء ذوق العصر . أجاز كل انحراف . فنحن نرى فى القرون الأخيرة نفــس
التفاسير التى خلت من محاسن السلف . تختار للدرس والتحصيل . وهذا الانتخاب السىء
كان جاريا فى كل علم وفن . ففى ذلك العصر كان السكاكى يرجح ويفضل الجرجانى .
والتفتازانى يرجح السكاكى . فمن السهل واليسير قطعا أن يجد أمثال تفسير البيضـــاوى
والجلالين اعترافا وسندا من مملكة ذلك الزمن . (يحيى بذلك الانصراف الى كتـــب

المتأخرين دون الاستفادة بكتب المتقدمين الواضحة) •

٨ ـ ولقد انفتح أكبر باب للمشاكل والمصاعب بالتفسير بالرأى وهو ماكانت ترتجف منه قلوب الصحابة والسلف •

ليس المقصود من كراهة التفسير بالرأى ، تناول المسائل بغير عقل أو بصيرة • لأنه لو كان هذا هو المعنى ، لكانت دراسة القرآن غير ذات موضوع ، علما بأن القرآن ذاته من أوله الى آخره دعوة للتفكر والتأمل ، ويطلب ذلك فى كل موضع " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " •

ان كلمة " رأى " فى الحقيقة فى عبارة " التفسير بالرأى " ليست مرادة بمعناها اللغوى ولكنها مرادة فى مصطلح الشارع ، والمقصود بذلك : التفسير بما لا يقوله القرآن ذاته ، بل يتم ذلك انتصارا لآراء نتمسك بها ، أو تطويع القرآن وجذبه ليطابق ما ننسجه من مذاهب ومن الأمثلة على ذلك :

مثلا : عندما صار الجدل العقائدى نشأت المذاهب الكلامية ، وأراد منا ظرو كل مذهب أن يطوعوا النصوص القرآنية لمذهبهم • لم يكن يعنيهم ماذا يقول القرآن ولكن كان همهم أن يظهروا القرآن ويؤولوه ليؤيد مذهبهم • ذلك هو التفسير بالرأى •

وعندما احتدت مشاعر المقلدين فى المذاهب الفقهية ، بدأ كل منهم يجذب الآيات القرآنية لمساندة أحكامه ومسائله • لم يلتفتوا الى المدلول العربى الواضح • ولا المقتضى الطبيعى لأسلوب البيان ، ولا ماذا يقول العقل والبصيرة النيرة بل كانت كل المحاولات أن يظهروا بأى وسيلة ـ أن القرآن فى جانب مذهبهم ، هذا الطريق هو التفسير بالرأى •

وعندما أغرق الصوفية فى البحث عن الاسرار والباطنيات بدءوا يطوعون القرآن لعقائدهم الموضوعة • فلم ينج حكم قرآنى ولا عقيدة ، ولا بيان من التحريف المعنوى •

هذا التفسير كان تفسيرا بالرأى •

وفى طرق الاستدلال القرآنى حاولوا أن يلبسوا القرآن (بيجامة) منطقية علمية فحيثما وردت ألفاظ السماء والأرض والكواكب حاول المغرمون بالمنطق وعلوم الفلك أن يجروا القرآن الى علوم اليونان فكان هذا هو التفسير بالرأى . أو مثلا هذه الأيام بعض مدعى الاجتهاد فى مصر والهند اختاروا طريق اثبات هذه العلوم بالقرآن أو استنباط التحقيقات العلمية . كأن القرآن نزل فقط ليسر فى آذان الدنيا من قرون ألغازا اكتشفها نيوتن وكوبرنيكس وداروين . وظل ذلك غير مفهوم من المسلمين حتى ولد مفسر العصر الخاص ليفسر معميات ثلاثة عشر قرنا .

قطعا مثل هذا التفسير تفسير بالرأى .

حقيقة البحث :

هذه اشارات . نظرا لمقتضى الاختصار وضيق المكان أشرت اليها . والا فشرح ذلك يطول . ومن هذه الاشارات المجملة يمكن الوقوف على المشكلات والموانع على الطريق . وكيف يمكن العمل على ازالة هذه الحجب . لا من جانب واحد . بل ينبغى أن يتم النظر والمحاولة فى كل الجوانب .

وأنا فى هذه المحاولة . لا يمكن أن أقول الى أى حد نجحت . وان كان من الممكن أن أقول فى جرأة أن طريقا جديدا لدراسة القرآن وتدبره قد فتحت . وسيجد أهل النظر أن هذه الطريق التى سلكتها مختلفة عن كل الطرق . ولا عهد لهم بمثلها .

هدف هذه الدراسة القرآنية :

توجد ثلاث ضرورات لدراسة وتعليم القرآن . قسمتها فى ثلاثة كتب : مقدمة تفسير . تفسير البيان . ترجمان القرآن .

مقدمة التفسير :

حول أهداف وغايات القرآن .

تفسير البيان :

للدراسة . وترجمان القرآن : لنشر دعوته عالميا .

آخر هذه الكتب وهو " ترجمان القرآن " ينشر أولا ، لأنه فى مقصده ونوعه أشد ضرورة وهو أساس للمقدمة والتفسير .

والغرض من ترتيبه أن يوجد كتاب لفهم القرآن ، ليس فيه تفصيلات ولكنه ضرورى لفهم سليم لمطالب القرآن .

ولكى يتحقق هذا الغرض حاولت أن تكون الترجمة الأوردية للقرآن واضحة سهلة بحيث لا تحتاج فى وضاحتها الى شىء آخر . ثم وضعت من مكان لآخر ملاحظات تتمشى مع مطالب السورة ترفع الحجب عن المقاصد والوجوه ، وتلقى الضوء على الدلائل والشواهد .

وهذا كأنه لقارىء القرآن ضوء التدبير والتفكير يمشى معه دائما لا يتركه " يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم " .

وهذه الملاحظات مع الترجمة انما هى لزيادة الايضاح والا فان الترجمة وحدها تكفى لبيان المعنى .

* * *

ذو القرنين

ملحق " ب "

(١)

شخصية " ذى القرنين " المذكور

فـــــى القـــــرآن

جاء فى سورة الكهف ذكر شخص من التاريخ القديم ، لقب بـ (ذى القرنين) والآيات هى :

" ويسئلونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فـــى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا ، فأتبع سببا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدهـــا تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب وامـــــا ان تتخذ فيهم حسنا ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم اتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم مـــــن دونها سترا ، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلـــغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنـــــين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننـــــا وبينهم سدا ، قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردمـــــا ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ، قال هـــذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا " ـــ (١٨ ـــ ٨٢)

سبب النزول وبعض الروايات :

الظاهر من أسلوب الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنـــين فجاءت الآيات جوابا للسؤال ، فروى الترمذى والنسائى والامام أحمد فى مسنـــده : أن قريشا ـــ بايعاز من علماء اليهود ـــ سألت النبى عن أمور ، منها : ذو القرنين ،

فقالت : " من هذا الرجل وما هى أعماله ؟ " وروى القرطبى عن السدى :
" قالت اليهود أخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة الا فى مكان واحد • قال ومن ؟ قالوا : ذو القرنين " • وقد أحصى ابن جرير وابن كثير والسيوطى الروايات بهذا الصدد فى تفاسيرهم •

خصائص ذى القرنين فى القرآن :

ان ما ذكر فى الآيات من خصائص " ذى القرنين " يتلخص فيما يأتى :

١ ـ الرجل الذى سألوا النبى عنه كانوا يسمونه بـ " ذى القرنين " اى أن هذا الاسم أو اللقب لم يضعه القرآن من عنده ، بل الذين سألوا عنه ، هم الذين أطلقوه عليه • ولذلك قال : " ويسألونك عن ذى القرنين " •

٢ ـ أعطاه الله الملك ، وهيأ له أسباب الحكم والغلبة •

٣ ـ كانت مهماته الحربية الكبرى ثلاثة :

الأولى : غربية ـ زحف من بلاده متوجها الى الغرب حتى وصل مكانا كان له حد المغرب ، فوجد الشمس هناك كأنها تغرب فى عين •

والثانية : شرقية ـ فما زال يتقدم حتى بلغ أرضا لا عمران فيها تقطنها القبائل البدوية •

والمهمة الثالثة : وصلت به الى مكان به مضيق جبلى ، يشن من ورائه قوم الغارات على الأهالى الذين أطلقوا عليهم اسم يأجوج ومأجوج • وكان هؤلاء همجا ، حرموا من المدنية والعقل •

٤ ـ أقام الملك سدا فى المضيق الجبلى لمنع غارات القوم •

٥ ـ لم يتكون هذا السد من الحجر والآجر فقط بل استهلك فيه الحديد ، وأفرغ عليه النحاس كذلك ، فأصبح سدا منيعا تعجز دونه هجم المغيرين •

٦ـ كان الملك مؤمنا بالله وبالآخرة .

٧ـ كان ملكا عادلا رحيما برعيته ، لا يبيح الفتك والقسوة بالمفتوحين فانه لما تغلب على قوم في الغرب ، ظنوا أنه يرهقهم كغيره من الملوك الفاتحين . فلم يفعل ذلك . بل قال لهم : لا خوف على الأبرياء منه ، أنه من يعمل خيرا يجزيه كان القوم في قبضة يده لا ناصر لهم ، الا أنه أشفق عليهم ، وكسب قلوبهم بعدله واحسانه .

٨ـ لم يكن حريصا على المال . فانه لما أراد المفتوحون أن يجمعوا له المال لاقامة السد ، أبى أخذه منهم قائلا ان ما أعطاني الله يغنيني عن أموالكم ، ولكن أعينوني بقوة أيديكم ، أشيد لكم سدا حديديا .

حيرة المفسرين :

فالشخصية التاريخية التي هذه أعمالها وصفاتها ، هي شخصية " ذى القرنين " ولكن من هو هذا الرجل ومتى وأين وجد ؟؟

ان أول مسألة شغلت بال المفسرين في هذا الصدد ، هي اسم الرجل أو لقبه ، اذ لم يعرف أن يكون لانسان قرن أو قرون ، ولم يعرف في التاريخ ملك لقب لهذا اللقب ، فتحيروا وتخبطوا في تفسيره خبط عشواء .

فقال بعضهم : أن " القرن " لم يستعمل في معناه الظاهر بل أريد به الزمن . ولما كان هذا الملك قد امتد حكمه ، واتسع نطاق فتوحاته الى عهدين كبيرين ، لقب بذى القرنين . ثم اختلفوا في تحديد مدة القرن ، فقيل ثلاثون سنة وقيل خمس وعشرون سنة ، وقيل عشر سنين ، ــ أقوال لا طائل تحتها .

وقد جمع ابن جرير الطبرى في تفسيره آثار الصدر الأول في الباب . غير أنها

لا تلقى ضوءا على شخصية خاصة ، بل تبحث فيما اذا كان ذو القرنين نبيا أو غير نبى ، بشرا أو ملكا ؟ ولكن الآثار أجمعت على أن هذه الشخصية قديمة غارقة فى القدم . قيل فى بعض الروايات انه عاصر ابراهيم عليه السلام ، وانه كان من الانبياء فذكره البخارى مع الانبياء القدماء ، وقدم ذكره على ابراهيم ، فكأن البخارى رأى أن ذا القرنين وجد قبل ابراهيم بزمن قليل أو فى عصره .

ولما بدأ عهد جديد للبحث والنقد ، اتجهت اذهان بعض المؤرخين الى اليمن ، فظنوا أنه كما ذكرت الروايات أسماء الملوك الحميريين كـ " ذى المنار " و " ذى الآذار " فلا يبعد أنه وجد ملك يمنى سمى بـ " ذى القرنين " كذلك . وقد صرح به أبو الريحان البيروتى فى " الآثار الباقية " (1) ووافقه عليه ابن خلدون . ولكن هذه النظرية قامت على افتراض مخطئ لا يدعمه دليل تاريخى ، وتخالفه القرائن والشواهد كلها .

فنرى أولا أن الآثار أجمعت على أن الذين سألوا النبى عن ذى القرنين ، هم اليهود ، أو قريش بايعاز من اليهود . فليس هنالك سبب يدعو اليهود الى معرفة ملك يمنى ، والاهتمام به الى حد أن يسألوا عنه ، أو يشيروا على قريش بالسؤال عنه .

وثانيا ان فرضنا أن قريشا هم الذين تقدموا بالسؤال من تلقاء أنفسهم ، فمعناه أن أحوال الملوك الحميريين كانت معروفة لديهم ، وهذا الافتراض كذلك غير صحيح اذ لو كان الأمر هكذا لوجدنا له أثرا وذكرا فى روايات العرب وأساطيرهم ، أو فى أحاديث الصحابة والتابعين . وهذا لا وجود له البتة . ثم لا يعزب عن البال أن السائلين أرادوا تعجيز النبى ، فكانوا على يقين من أنه لم يصله خبر عن ذى القرنين من أبناء وطنه ، فيعجز عن الجواب . ولو كان ذو القرنين رجلا من العرب وكان

---

١ — الآثار الباقية صفحة (٤٠)

أهل الحجاز على علم منه ، لشاركهم النبى فيما يعلمونه ، ولما كان ثمة وجه للسؤال عن شئ معروف عنده .

والمسألة الحقيقية التى نحن بصددها هى : هل تنطبق الخصائص والأعمال التى ذكرها القرآن لذى القرنين على ملك حميرى يذكر القرآن فتوحا له فى الغرب ، وفتوحا له فى الشرق ، واقامة سد حديدى يمنع هجمات يأجوج ومأجوج ؟

ولم توجد الى الآن شهادة تاريخية على وجود ملك حميرى ، أمعن فى الشرق والغرب مغيرا فاتحا ، وبنى سدا حديديا كما ذكره القرآن . أما كون بعض ملوك اليمن لقبوا بـ " ذى " فلا أهمية له . وكذلك التشبث بسد مأرب لا يجدى نفعا اذ لم يذكر أن هذا السد بنى لصد هجمات قوم ، واستخدمت فى بنائه ألواح من الحديد . ثم أن القرآن أشار الى سد مأرب فى مكان آخر ولا شبه بينه وبين سد ذى القرنين بوجه من الوجوه .

ثم جاءت طبقة أصحاب النظر فذهبوا الى أن الاسكندر المقدونى قد اشتهر بملكه وانتصاراته فى الشرق والغرب ، فيكون هو ذا القرنين . والظاهر أن الشيخ أبا على بن سينا هو أول من قال بهذا فى كتابه " الشفاء " فانه عند بيان مناقب أرسطاطاليس ذكر أنه كان معلما للاسكندر ، الذى ذكره القرآن باسم ذى القرنين ، وأثنى على ايمانه وسلوكه القويم . وتابع الامام فخر الدين الرازى ابن سينا فى رأيه . وسرد فى تفسيره الشهير — على عادته — كل ما قيل خلاف هذا الرأى . ولكنه اقتنع كذلك — على عادته — بالأجوبة الواهية ، فى حين أن الاسكندر المقدونى لا يمكن أن يكون ذا القرنين الذى ذكره القرآن بحال ، ولا يقال عن فتوحه انها فتوح فى الشرق والغرب ، وكذلك انه لم يبن سدا فى حياته كلها . ثم اننا نستطيع أن نجزم بأنه ما كان مؤمنا بالله ولا شفيقا عادلا مع الشعوب المغلوبة . ان هذا المقدونى قد دون تاريخ حياته ،

ولا يوجد شبه بين أحواله وأحوال ذى القرنين • وفوق هذا ليس ثمة سبب يسوغ تلقيبه بذى القرنين ، حتى أن الامام الرازى نفسه • مع تفننه فى ايجاد النكات، قد عجز عن اثباته •

(٢)

" تاريخ اليهود القومى وتصور شخصية ذى القرنين "

والحاصل ان المفسرين لم يصلوا الى نتيجة مقنعة فى بحثهم عن ذى القرنين القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق ، والمتأخرون حاولوه ولكن كان نصيبهم الفشل •

ولا عجب ، فالطريق الذى سلكه المفسرون كان طريقا خاطئا • لقد صرحت الآثار بأن السؤال كان من قبل اليهود فكان لائقا بالباحثين أن يرجعوا الى أسفار اليهود ، ويبحثوا هل يوجد فيها شىء يلقى الضوء على شخصية ذى القرنين • انهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة •

سفر دانيال ورؤياه :

يوجد بين دفتى " العهد القديم " سفر نسبوه الى دانيال النبى ، وذكروا فيه بعض أعماله ، وما كشف له عنه فى رؤياه أيام أسر اليهود ببابل •

لقد كان عهد الأسر هذا ، عهد ابتلاء عظيم لليهود ، فقد دوخت بلادهم، وديست قوميتهم ، وخرب هيكلهم المقدس ، فكانوا فى حزن ويأس عظيمين ، لا يدرون كيف ومتى يتبدل أسرهم بالحرية ، وحزنهم بالسرور ، وموتهم القومى بحياة جديدة •
يقول لنا السفر المذكور آنفا انه ظهر فى تلك الأيام السود دانيال النبى ، فتقرب

بنبوآته العجيبة ، وحكمته البالغة الى ملوك بابل الذين تقبلوه بقبول حسن ، فأنسوا به وأكرموه ، ورفعوه فوق السحرة والعرافين ، وان دانيال رأى رؤيا فى السنة الثالثة لجلوس الملك " بيلش فر " ، كشفت له ما هو واقع من الأحداث ، فجاء فى الباب الثامن من الكتاب :

" فى السنة الثالثة لجلوس (بيلش فر) الملك ، كنت بمدينة سوس هيرا من أعمال عيلام ، على شاطئ نهر أولاى ، فرأيت الرؤيا للمرة الثانية ، رأيت كبشا واقفا على شاطئ النهر ، له قرنان عاليان ، وكان الواحد منهما منحرفا الى ظهره ، ورأيت الكبش ينطح بقرنيه غربا وشرقا وجنوبا ، لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه ، فهو يفعل ما يشاء وصار هو كبيرا جدا ، وبينما أنا أفكر فى هذه الظاهرة اذ رأيت تيسا أقبل من جهة الغرب ، وغشى وجه الأرض كلها ، وكان بارزا بين عينى التيس قرن عجيب ، ثم ان التيس اقترب من الكبش ذى القرنين ونفر منه مغضبا ، ثم عمد اليه فكسر قرنيه وصرعه وداسه ، فأصبح الكبش ذو القرنين عاجزا عن مقاومته ، محروما من ناصر ينصره عليه " — سفر دانيال ٨ : ١

ثم ذكر الكتاب على لسان دانيال أن الملك جبريل ظهر له وشرح رؤياه قائلا : ان الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد المملكتين ، مادا وفارس ، فيملكهما ملك قوى لا تقدر دولة على مواجهته ، أما التيس ذو القرن الواحد الذى رآه بعد الكبش ، فالمراد منه ملك اليونان ، والقرن البارز بين عينى التيس ، يدل على أول ملك من اليونان (٨: ١٥)

فهذه الرؤيا أو النبوة مثلت فيها المملكتان ، مادا (ميديا) وفارس ، بقرنين، ولما كانت المملكتان ستتحدان وتصبحان مملكة واحدة مثلت شخصية ملكهما بكبش ذى قرنين ثم الذى يقضى على هذا الكبش ذى القرنين ويسيطر على الارض كلها هو قرن تيس اليونان ، أى الاسكندر المقدونى ، فقد حمل الاسكندر على دارايوش ، امبراطور مادا وفارس ، وانهارت به سيادة أسرة هخامنشى او المملكة الكيانية الى آخر الدهر ،

ومما ينبغى ذكره هنا أن كلمة (القرن) عامة فى اللغتين : العربية والعبرية. فقد وصف الكبش فى سفر دانيال العبرى بـ (لوقرنائيم) معناه بالعربية (له قرنان) أى أنه ذو القرنين .

كانت لليهود فى رؤيا دانيال بشارة بأن نهاية أسرهم ببابل ، وبدء نشأتهم الجديدة ، منوط بقيام هذه المملكة ذات القرنين . أى أن ملك مادا وفارس يغير على ملك بابل ، ويتغلب عليه ، ويحرر اليهود من أسرهم . وان هذا هو الملك الذى اختاره الله لاعانة اليهود ورعايتهم ، فيأمر بتعمير بيت المقدس من جديد ، ويجتمع الشعب الاسرائيلى الممزق مرة أخرى تحت رعايته .

وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك " غورش " الذى سماه اليونان بـ (سائرس) واليهود بـ (خورس) ، فوحد مملكتى مادا وفارس ، وأنشأ منهما سلطنة عظيمة ، ثم هاجم بابل واستولى عليها دون عناء . رأى دانيال فى رؤياه ، أن الكبش ذا القرنين ينطح بقرنيه فى الغرب والشرق والجنوب ، أى يحوز انتصارات باهرة فى الجهات الثلاثة . هكذا كان أمر غورش فقد كان انتصاره الأول فى الغرب ، والثانى فى الشرق ، والثالث فى الجنوب ، أى فى بابل . وكذلك صدقت النبوءة بخلاص اليهود وازدهارهم ، فقد أطلقهم غورش بعد فتحه بابل من الأسر ، وأذن لهم بالعودة الى فلسطين ، وبناء الهيكل من جديد . وحذا حذو غورش خلفاؤه من ملوك مادا وفارس ، فما زالوا يحمون اليهود ويرفقون بهم .

__نبوءات يشعياه ويرمياه :__

وفى العهد القديم نبوءات فيما نحن بصدده فى سفرين غير سفر دانيال وهما سفر النبى يشعياه وسفر النبى يرمياه . نجد فى الاول منهما اسم غورش بعينه وان كان النطق به فى العبرية (خورش ( ) . ويعتقد اليهود أن كتاب يشعياه

ألف قبل غورش بمائة وستين سنة ، وكتاب يرمياه بستين سنة . ونجد في كتاب عـــزرا تفصيلا كاملا للأمر . فقد ذكر أن نبوءات دانيال هذه وصلت الى مسامع الملك غـــورش بعد فتحه بابل ، فتأثر بها أى تأثر ، وكانت النتيجة أن قام لحماية اليهود ، فأطلـق سراحهم وأمر بتجديد بناية الهيكل .

وكتاب يشعياه يخبر أولا بخراب يروشلم على أيدى البابليين، ثم يبشر بتجديـــد عمرانها . ويذكر في هذا الشأن (خورس) أي الملك غورش فيقول :

" يقول الرب المنقذ ... تعمر يروشلم من جديد ، وتقوم مدن يهودا مـــرة أخرى . أنا أبنى بيوتها المخربة كرة أخرى " (٤٤ : ٣٤) .

" وانى أقول في حق خورش (غورش) بأنه راع لى وهو يتم مرضاتى كلها ..... يقول الرب في شأن مسيحه خورس . أنا أخذت بيده اليمنى لاجعل الامم فى حوزتـــه وأنزع القوة من سواعد الملوك ، وأفتح له الأبواب تلو الأبواب . أجل ، انى أمشى بـين يديك ، وأقوم ما اعوج من سبلك ، وأكسر الأبواب النحاسية ، وأمنحك الخزائن المدفونة والكنوز التى في البيوت المخبية . أفعل كل ذلك لتعلم أننى أنا الرب ، اله اسرائيل الذى ناداك باسمك صراحة لأجل اسرائيل ، شعبه المختار " (٤٥ : ١) .

وشبه غورش بعقاب الشرق فى مكان آخر من الكتاب فقال :

" هــا ! انظروا ، انى أدعو عقابا من الشرق أدعو ذلك الرجل الذى يأتى مـــن أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتى " (٤٦ : ١١) .

وهكذا نقرأ فى كتاب يرمياه :

" نادوا فى الأمم ولا تخافوا ، قولوا أخذت بابل ، خزى البعل (صنم بـابـل الشهير) بهت مردوك (صنم بابلى آخر) ، لحق العار بجميع أصنامها ، جعلـــت أوثانها شذر مذر ، لأن شعبا من الجنوب مقبل زاحفا نحو بابل . يخرب أرضها ، حتى لا ترى بها بشرا " — يرمياه ٥٠ : ١

وهذا السفر كذلك يتنبأ بأسر اليهود ودمارهم ثم يبشر بتجديد عمارة يروشليم فيقول :

" يقول الرب لما تكمل سبعون سنة على أسر بابل ، آتى اليكم . اذ ذاك تدعوننى فأجيبكم ، تنشدونى فتجدونى . أفك القيد عنكم ، وأعود بكم الى أوطانكم " (٣٩ : ١)

فيتجلى من نصوص أسفار اليهود هذه أن تصور " ذى القرنين " للملك غورش كان قد بدأ ، لأنه مثل فى رؤيا دانيال النبى بكبش ذى قرنين ، وأن شخصية الملك غورش كانت قد احتلت مكانا هاما فى عقيدة اليهود .

المنهج الحديث لنقد العهد العتيق وزمن تأليف أسفار يشعياه ويرمياه ودانيال :

ان أسلوب نقد العهد العتيق الذى بدأ فى القرن التاسع عشر باسم " النقد الأعلى " والذى فاز فيه بالقسط الأوفر العلماء الألمان ، قد دونت نتائجه ، وكذلك انضمت اليها بحوث علماء القرن العشرين ، فنجدهم قد انتهى بحثهم فى نهايات الأسفار الثلاثة وفى زمن تدوينها الى ما يأتى :

ان الكتاب الذى نسب الى يشعياه النبى ، تنطق موضوعاته ولغته ، وكل ما احتوى عليه بأنه تأليف ثلاثة من المؤلفين ، وجدوا فى أزمان ثلاثة مختلفة .

فهى من بابه الاول الى الباب التاسع والثلاثين تأليف مؤلف .

ومن بابه الأربعين الى الآية الثالثة عشرة من الباب الخامس والخمسين تأليف مؤلف ثان .

والذى بعده من الكتاب ألفه مؤلف ثالث .

ولتسهيل المراجعة اصطلحوا فى المباحث النقدية على أن يقولوا : يشعياه

الاول ، وبشعياه الثانى وبشعياه الثالث •

فهم يرجحون أن يشعياه الاول كان فى العهد الذى يرويه اليهود ، أى قبل الملك غورش بمائة وستين سنة •

أما يشعياه الثانى الذى تنبأ بظهور غورش ، فكان عائشا أيام أسر بابل ، كما هو ظاهر من أقواله التى تشعر بظروف غير ظروف لصاحبه الأول •

وأما كلام يشعياه الثالث فعهده بعد الثانى • وهو يقدم لنا ظروفا وحالات تختلف عن سمعة الذى تقدمه • فالنبوءات بغارة بختنصر وأسر اليهود ببابل وظهور غورش ، نجدها فى كلام يشعياه الثانى ، وهو فى الواقع كان عائشا فى ذلك العهد ولا يمكن نسبة كلامه الى يشعياه الأول • ان الرجل صبغ حوادث زمنه والتى قبل زمنه بصبغة القدم • ونسب كلامه الى يشعياه الاول ، ليوهم الناس بأنه كلام قديم مضت عليه مائة وستون سنة •

قال الباحثون ان أكبر دليل على اختلاف شخصيات المؤلفين ، هو الاختلاف الفكرى وتباين المزاج التصورى الذى يوجد فى الكتاب • فاليهود من أول يومهم تخيلوا الله كاله قبائلى • وافترضوا معبده معبدا قبائليا • فكان " يهوا " اله اسرائيل الشعبى والقبائلى لا يمت بصلة الى شعوب أخرى • ولكنا نجد فى كتاب يشعياه لأول مرة تصورا الهيا جديدا — تصور اله عام للبشر كله ، ونجد الهيكل الاسرائيلى بيروشلم يتحول من معبد قبائلى الى معبد عام لسائر الامم الانسانية • هذا التصور الجديد هو تصور يشعياه الثالث خاصة ، لأن الظروف التى كانت لازمة لخلق هذا التصور ، لم توجد فى زمن يشعياه الاول •

وهكذا ما نجده فى سفر يرمياه من النبوءة بانتهاء أسر بابل وتجديد عمارة الهيكل لا يراه الباحثون سابقا للحوادث بستين سنة ، بل يقولون أنه كتب وألحق بالكتاب بعد

يشعياه الثاني ودعوة غورش لفتح بابل :

اجمعت روايات العهد العتيق وروايات المؤرخين اليونانيين على ان اهل بابل كانوا قد ضجوا من عسف ملكهم ، بعل شازار ، فتآمروا على دعوة امبراطور فارس ، غورش للاستيلاء على بابل . وقد علموا المعاملة الحسنة التي عامل بها هذا الملك اهل ليديا بعد الغلبة ، فرجوا مثلها منه لانفسهم .

يقول مؤرخو اليونان ان واليا من ولاة بابل ، غوب رياس ، كان قد هرب الى بلاط غورش وصحبه في زحفه على بابل . وقال هيرودوتس : ان فتح بابل انما كان بتدبير هذا الوالي . فلما دقق الباحثون النظر في نبوءات يشعياه الثاني بعد درسهم هذه الحوادث التاريخية ، وصلوا الى نتيجة منطقية حاسمة للوقائع .

ان كلام يشعياه الثاني لا يخلو من ان يكون قبيل فتح بابل او بعده ، فان فرضنا الاول فلا مناص من الاعتراف بان يشعياه الثاني كان من اصحاب المؤامرة المدبرة لدعوة غورش الى الفتح ، او على اقل تقدير كان مطلعا على ظروف الزمن السياسية اطلاعا تاما ، فصاغ تلك الظروف والآمال على ديدنة مؤلفي اسفار اليهود — في صيغة النبوءات والحقها بكلام يشعيا ، الأول وان فرضنا أن ماقاله يشعياه الثاني كان بعد الفتح لسهل الامر ، فقلنا ان المصالح القومية حملت الرجل على ان يصور الحوادث التي وقعت فعلا بنبوءات وانباء بالمستقبل ناسبا كلامه الى يشعياه الأول .

النبوءات اليهودية والامبراطور غورش

نجد في سفر اخر من التوراة نسب الى النبي عزير (عزرا) ما وقع بعد فتح بابل ويخبرنا هذا السفر ان روءساء اليهود عرضوا النبوءات التي تقدم ذكرها على الملك غورش ، قائلين له : ان الرب سماه في كلامه وجعله المنقذ لشعبه المختار .

وأن الملك قد تأثر بما سمع ، فكان أن أصدر أمره بتجديد بناية الهيكل .

ومما لا ريب فيه أن غورش بعد فتح بابل وخلفاءه ، من بعده قد خصوا اليهود بعطفهم ورعايتهم ، وأن بعض اليهود نالوا الحظوة فى بلاطهم .

هذه واقعة تاريخية لا يمكن تكذيبها وقد يكون بعض ما جاء فى كتاب عزير خلوا من الصحة ، الا أن الحوادث الأساسية يجب التسليم بها . فمن المعلوم أن أسر اليهود ببابل قد انتهى باستيلاء غورش عليها ، وأن عددا كبيرا منهم رحل الى فلسطين ليتوطن بها وأن الامبراطور غورش هو الذى أذن لهم بسكنى فلسطين وتعمير المدن الخربة ، وذلك بمنشورات ملكية خاصة .

ومن المعلوم كذلك أن الهيكل بيروشليم قد بنى من جديد وصدرت فى شأنه أوامر ملكية مرة بعد أخرى . وقد نقلت أحكام غورش وداراريوش وأرد شير (ارتخششت) فى كتاب عزير ، تؤيدها بعض كتابات مؤرخى اليونان .

ثم ان روايات اليهود القومية تقول ان عزرا ونحميا وحجى الأنبياء قد وصلوا الى مقام كريم فى بلاط الامبراطور أرد شير (ارتخششت) وانهم هم الذين حملوا الملك على اصدار اوامره الخاصة باليهود . وليس هناك سبب ظاهر يدفع لانكار كل هذا .

فان صحت هذه الحوادث فعلينا أن نبحث عن العوامل التى حملت غورش على الرفق باليهود ، ونتساءل : ألم تكن هذه النبوءات من تلك العوامل ؟ ان أهم ما فى النبوءات اليهودية نبوءة دانيال التى مثلت فيها المملكة المتحدة من مادا وفارس فى شكل كبش ذى قرنين . لكن ما فى هذه النبوءة من الكلام الدال على الاسكندر المقدونى الحاقيا . ولكن الجزء الأول منها الذى يتعلق بظهور غورش كان من شأنه أن يشهره فى ذلك الزمن ومن المحتمل جدا أنه اشتهر فعلا فيكون غورش قد تلقاه

بحسن القبول . وسنتكلم فيما يأتى على التمثال الحجرى لغورش الذى عثروا عليه فى حفريات ايران ، وهو يحل المسألة الى حد بعيد .

اما ارتياب الباحثين الحديثين فى وجود دانيال ، فالقرائن والأخبار لا تدعمه يجوز أن يكون دانيال أسطورة مختلقة ، ولكن الكلام الذى احتوى عليه لابد له من أصل حقيقى ، فان كنا لا نسلم بقصة دانيال كلها ، فيجب علينا أن نسلم بأن شخصا وجد بهذا الاسم ، وأنه نال الحظوة فى بلاط بابل بعلمه وحكمته .

علاقات اليهود والزردشتيين :

لنقف هنا قليلا فنرى ناحية أخرى هامة من البحث . لا ينبغى أن ننسى أن غورش كان من متبعى مذهب مزديسنا أى الدين الزردشتى ، وهذا أمر له أهمية خاصة فى العلاقة التى كانت بين الفارسيين والاسرائيليين . فمن المعلوم أن الوثنية كانت عامة شاملة فى العالم كله ، لم يشذ عنها الا فئتان اثنتان : اليهود والزردشتيون فقد اجتنب الدينان الوثنية وأشكالها من كل الوجوه . وليس فى تاريخ أهلهما مجال للاعتراف بالوثنية .

وما دام الأمر هكذا فمن المعقول أن نفرض أن غورش بعد تغلبه على بابل بلغته عقائد اليهود والأحكام الاخلاقية التى جاء بها دينهم ، ووجد تصوراتهم الدينية ، فاندفع بطبيعة الحال الى احترامهم ، وتلقى نبوءاتهم برغبة خالصة .

وهنا أمر آخر جدير بالتدبر ، وهو أن مؤرخى العرب عندما أقبلوا على تدوين التاريخ قبل الاسلام ، وجدوا فى الروايات الاسرائيلية ما يربط زردشت وأتباعه بأنبياء بنى اسرائيل . ذكر الطبرى هذه الروايات ، واستشهد بها المؤرخون بعده .

ولا ريب انها روايات باطلة واهية لا أصل لها ، الا أن وجودها يدل على

الفكرة اليهودية التى كانت ترمى الى التقرب من الدين الزردشتى ، وأن هذه الفكرة على مر الأيام اتخذت أشكال الروايات الخرافية ، وما زالت تروج وتتطور حتى حاول اليهود أن يثبتوا أن الدين الزردشتى انما اقتبس من دينهم ، وأن زردشت وخلفاءه كانوا تلاميذ لأنبيائهم .

عقيدة اليهود الدينية والقومية فى شأن غورش :

ذكرنا فيما سبق آراء الناقدين الحديثين فى الأسفار اليهودية ولكن هذه الناحية من البحث لا تعنينا . جاءت النبوءات قبل وقوع الحوادث أو اخترعت بعدها ؟ لا تأثير له فيما نحن بصدده . انما الأمر الذى نريد لفت الأنظار اليه هو عقيدة اليهود القومية فى المسألة .

اذ من المسلم أن أسفار يشعياه وارمياه ودانيال من كتب اليهود الالهامية بلا نزاع ، فهم يؤمنون بأن كل ما جاء فيها من النبوءات قد تنبأ به الانبياء قبل حدوث الحوادث بزمن طويل ، وصدقتها الأيام حرفا بحرف .

وكذلك يعتقد اليهود عقيدة راسخة أن ظهور غورش كان من عند الله ، بعثه لانقاذ بنى اسرائيل مما كانوا من البلاء العظيم ، ولتجديد عمارة يروشليم ، فغورش لقب فى كلام يشعياه النبى براعى الله ومسيحه ، وقيل فيه انه ينفذ ارادة الله وان الله ناداه باسمه ، وأرسله لحماية بنى اسرائيل وانهاضهم . وفى رؤيا دانيال مثل غورش فى صورة كبش ذى قرنين ، ورآه يشعياه فى شكل " عقاب الشرق " .

فعقيدة اليهود القومية فى الباب واضحة جلية ، وهى تثبت أنهم مستندون الى أسفارهم المقدسة ، كانوا يتصورون غورش بأنه ذو القرنين ، ويرون ظهوره مصدقا لبشارات أنبيائهم الالهامية .

مادام الأمر كما ذكر فطبيعة الحال يكون المقصود فى سؤال اليهود عن " ذى

القرنين " هو شخص غورش لا غير ، أى ذلك الملك الذى رآه دانيال فى شكل كبش " لو قرانائيم " ترجمته بالعربية " ذو القرنين " اذ لفظ " القرن " اشتركت فيه اللغتان العربية والعبرية على سواء . ومن المؤكد أن يهود العرب كانوا يسمون غورش بـ " ذى القرنين " . ورواية السدى التى ذكرناها سابقا تؤيد هذا التفسير ، اذ جاء فيها أن اليهود قالوا ان ذا القرنين ذكر فى التوراة مرة واحدة فقط . هذا هو الواقع بعينه . فالكبش ذو القرنين لم يرد ذكره فى التوراة الا مرة واحدة ، وذلك فى سفر دانيال وحده .

بهذا التفسير قد ارتفعت سائر الاشكالات دفعة واحدة . فلا حاجة الآن أن نصرف كلمة " القرن " عن معناها اللغوى العام ، ولا أن نتيه فى بيداء التأويلات والتكلفات الباردة . فشخصية " ذى القرنين " التاريخية قد برزت للأعين . أما ما ذكره القرآن من أحوال ذى القرنين ، فسنراها تطابق اوصاف غورش مطابقة تامة دون أن نجهد انفسنا فى هذا التطبيق .

العثور على تمثال غورش الحجرى :

خطر فى بالى لأول مرة هذا التفسير لـ " ذى القرنين " المذكور فى القرآن وأنا أطالع سفر دانيال . ثم اطلعت على ما كتبه مؤرخو اليونان . فرجح هذا الرأى عندى . ولكن شهادة أخرى خارج التوراة لم تكن قامت بعد ، ولم يوجد فى كلام مؤرخى اليونان ما يلقى الضوء على هذا اللقب . ثم بعد سنوات لما تمكنت من مشاهدة آثار ايران العتيقة ، ومن مطالعة مصنفات علماء الآثار فيها ، زال الحجاب حين ظهر كشف أثرى قضى على سائر الشكوك فتقرر لدى بلا ريب أن المقصود من " ذى القرنين " ليس الا غورش نفسه ، فلا حاجة بعد ذلك أن نبحث عن شخص آخر غيره .

ان هذا الكشف الأثرى الهام ، هو تمثال حجرى لغورش بعينه ، وجدوه منصوبا

فى مكان يبعد عن عاصمة ايران القديمة " اسطخر " ره نحو خمسين ميلا علــــى شاطئ نهر " مرغاب " • وقد سبق جيمس موير (morior) فاخبر بوجوده • ثم جاء بعد سنوات السير روبرت كير بورتر (SUR R. kerter) فقاس المكان وفحصه فحصا دقيقا • ونشر رسما للتمثال بقلم الرصاص • وذلك فى كتاب رحلته الى ايــران وجورجيا •

وقد تكلم القس فوستر (Foster) سنة ١٨٥١ فى المجلد الثانى مـــن كتابه (onpirevt langueg) على التمثال • واستدل به على نصوص التــوراة وكذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الأولـــى •

ولم يكن اللثام عن الخط المسمارى قد أزيح كلية الى ذلك الحين • الا أنــه كان قد تقرر أن التمثال لسايروس أى لقورش لا غير • وقد دعمت البحوث المتأخــرة هذا القرار تدعيما لا يدع المجال للريب فيه •

ثم لما ألف الكاتب الفرنسى الشهير ذى لافواى (deulafoy) كتابـــه عن الآثار القديمة فى ايران (l. artantique arPerse) نشر فيه صــــورة عكسية للتمثال • فعرفه الناس معرفة تامة •

وقد اعترف علماء الآثار فى القرن التاسع عشر بحسن التمثال الفنى • ويــرى ذى لافواى انه نموذج ثمين جدا للنحت الفنى القديم قائلا : انه النموذج الفــنى الآسيوى الوحيد الذى يضاهى أحسن التماثيل الاغريقية • فلا عجب أن احتل التمثال أهم مكان فى الآثار المتبقية الفارسية • وقد تحمل عدد من علماء الألمان مشاق السفر الى ايران لا لشىء الا ليشاهدوا التمثال الجميل •

انه تمثال على القامة الانسانية • ظهر فيه قورش وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب • وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش يده اليمنى ممتدة بها الى الامام • ولباســه نفس اللبـاس المعهـود الـذى نراه فــى صــور ملـوك بـابل وايران فهذا التمثال

يثبت بلا شك أن تصور " ذى القرنين " كان قد تولد لغورش ، ولذلك نجد الملك فى التمثال وعلى رأسه قرنان . جاء فى رؤيا دانيال أن الكبش الذى رآه ، كان على رأسه قرنان ، ولكن ليس كسائر الأكباش ، بل كان القرن الواحد منهما وراء الآخر. هكذا نرى القرنين فى التمثال أمام الجناحين ، فوجودهما يطابق في سفر يشعياه من قوله " ادعو عقابا من الشرق ، ادعو ذلك الرجل الذى يأتى من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتى " ولهذه الأجنحة اشتهر التمثال بالطير . والنهر الذى يجرى تحته سمى بـ " مرغاب " اى نهر الطير .

ونحن نضم الى هذا المقال نقل صورة التمثال التى نشرها القس فارستر فى كتابه وهى جلية واضحة تقدم للناظر التمثال بجزئياته .

أما متى صنع التمثال ؟ صنع بأمر غورش فى حياته أم بأمر خليفة من خلفائه؟ أمر يصعب البت فيه . ان عاصمة الميلاميين والفرس كانت مدينة " سوسان " التى تسمى الآن بأهواز ، وهى واقعة فى ايران الجنوبية . وكانت عاصمة مادا أى ميديا ، مدينة " هغ متانا " التى حرفها العرب فقالوا " همدان " ، وهى موجودة الى الآن بنفس هذا الاسم ، الا أن محلها انحرف قليلا عن مَحلها القديم .

ولما ملك أرتخششت (الذى سمته العرب بأردشير) بعد دارايوش ، اتخذ اسطخر عاصمة له ، وعمرها بقصور وبنايات . وظلت هذه حاضرة الملك الى آخر امبراطور من أسرة هخامنشى ، وهو دارايوش الثالث ، وتخربت بعد هجوم الاسكندر بالحريق . ولما فتح العرب البلاد ، كانت اسطخر قرية حقيرة ، فأسسوا على مقربة منها مدينة " شيراز " الحاضرة التى تبعد عنها بستين ميلا .

ويظهر لى أن تمثال غورش أقيم فى عهد الملك أردشير ، لأنه موجود بناحية من اسطخر التى لم يبق من خرائبها الا منصة حجرية قام فوقها التمثال . فلنا أن

نفهم أن التمثال كذلك يرجع عهده الى أردشير كما يرجع عهد سائر مباني أسطخر اليه • ان كان رأينا هذا صحيحا فهو يقوى ما قلناه من كون غورش هو ذو القرنين وذو الجناحين ، اذ يدل على أن لقب غورش هذا كان قد أصبح مشهورا ومسلما به في ذلك العصر ، حتى انهم توارثوه بعد غورش كذلك • ولما ارادوا نصب تمثال له في زمن أردشير • حملهم ذلك التصور على تصويره بهذه الصورة •

تصور غورش بذى القرنين ورواية الأسفار اليهودية المقدسة :

وهنا تواجهنا مسألة أساسية • لقد أثبت التمثال أن تصور ذى القرنين لغورش كان قد شاع ، وأصبح مسلما به عند أسرة هخامنش الملكية • ولكن من أين نشأ هذا التصور ؟ ان قبلنا رواية الصحف المقدسة اليهودية ، قلنا انه مبدأ التصور الحقيقى رؤيا دانيال ونبوءة يشعياه النبى • فهل نقبل هذا الرأى ؟

أرى أن مالدينا من المعلومات ، يحملنا على الأخذ به • وأقل ما ينبغى أن نفعله ، هو التسليم بأمرين : الأول : أن رؤيا دانيال قد اشتهر امرها من بعد فتح بابل ، أى الزعم بأن رؤيا كهذه قد وجدت • أجل ، ان ما يتعلق منها بالاسكندر المقدونى ، لم يكن فيها اذ ذاك بل ألحق بها فيما بعد • والثانى : أن هذه الرؤيا ونبوءة يشعياه الثانى قد وصلتا الى مسامع غورش كما ذكره كتاب عزرا ، وأن غورش ورجال بلاطه لم يستحسنوهما فحسب ، بل تمسكوا بهما ، واتخذوا تصور القرنين والعقاب شعارا رسميا للملك فصار بعد ذلك بـ " ذى القرنين " و بـ " ذى الجناحين " وصفا رسميا خاصا به ، ولما نحتوا له لتمثال ، أبرزوا فيه هاتين الصفتين له ، وبعبارة أخرى ، ان اكتشاف التمثال قد صدق ما قاله كتاب عزرا من أن نبوءات الأنبياء ، عرضت على غورش فقبلها كنصوص روحية على اصطفائه وفضله •

قد يقال الا يجوز أن يكون الأمر على عكس ما ذكرت ، فلا يكون تصور

" ذى القرنين " و " ذى الجناحين " تصورا يهوديا ؟ بل ربما كان غـــــورش نفسه أو الفرس هم الذين تخيلوه ، وأن هذا الفارسى لما اشتهر بعد أن اتصـف به غورش ، اقتبسه مؤلفو صحف اليهود وحاكوا حوله نبوءاتهم ، تزعموا بالكبـــش " قرنيه " فى رؤيا دانيال ، وبعقاب الشرق فى كلام يشعياه ؟ .

ان باب المفروضات مفتوح على مصراعيه ومن العسير القطع برأى فى مثل هـــذه هذه البحوث . ولكن لابد لكل فرض من وجود سند خارجى يستند اليه . وسنـــد نهذا لا يوجد هنا ، يسوغ لنا رفض شهادة الصحف اليهودية رفضا باتا لمجـــرد عرض شبهة كهذه . وعدا ذلك ، لا يظهر من التفكر والبحث أن هذا التصور فـــى مزاجه يوافق المزاج الفارسى الفكرى ، وأن شهادته الداخلية تنطق بأعلى صوتهـــا أنه تصور يهودى بحت ، اذ اليهود مازالوا من الأول يمثلون بعض الحقائق والحـــوادث للحياة الانسانية بكبش أو خروف ، فمن ضحية اسحاق ، الى كفارة المسيح ، ومـــن كتاب الخلق الى مكاشفات يوحنا نجد مرة أخرى تمثيلات بالكبش أو الخروف أو الجدى. وبالعكس لا يوجد فى الخيال الفارسى والزردشتى تمثيلا بالكبش ، فان أدب أوستا كلـه خلو من مثل هذه التصورات .

(٣)

" أسرة هخامنشى الفارسية وغـــورش " (1)

لننظر الآن فى أحوال غورش التى حفظها لنا التاريخ ، ثم نرى الى أى مـــدى

١ ــ اسم غورش باللغة البهلوية " كورش " بالكاف الفارسية وسماه اليهود بكورش أو خورش . أما العرب فقالوا " قورش " كما نجده فى " الاثار الباقية " للبيرونى . وقد عدلنا عن هـــذا فكتبنا غورش لما تعوده الكتاب المعاصرين من العرب من ابدال الكاف الفارسية بالغين (المترجم) والنطق المناسب هو أن الكاف الفارسية تنطق كما ينطق أهل القاهرة الجيم او كما ينطـــق أهل الريف القاف .

تطابق ما ذكره القرآن منها :

الأدوار الثلاثة لتاريخ ايران :

قسم المؤرخون فى العصر الحاضر تاريخ ايران الى ثلاثة أدوار :
فالدور الاول منها هو ما كان قبل هجوم الاسكندر المقدونى .
والدور الثانى هو الدور البارثوى الذى سمته العرب بملوك الطوائف .
والدور الثالث هو العصر الساسانى .

وقد وصلت بلاد ايران فى الدور الاول من تاريخها الى ذروة المجد والفخار ، وقد بدأ بظهور كورش نفسه ، غير أنه ، بالأسف ، دور قد أسدل الزمان ستائره عليه ، فليس لدينا وسيلة لمعرفته مباشرة ، وجل ما علمنا منه ، لم يصلنا من طريق الفرس أنفسهم ، بل من قبل شعب معاصر لهم نعنى اليونان . فلولا الكتابات اليونانية لنسى التاريخ أفخر وأعظم قصة لمجد ايران العتيقة ، نسيا منسيا .

أجل ، ترك المترجمون العرب قصة ايرانية كبيرة باسم التاريخ ، أفرغها بعدهم هوميروس فارس " الفردوسى " ، فى النظم والشعر فجعلها خالدة ، ولكن كل ما ذكر فى هذه القصة من الأخبار قبل هجوم الاسكندر ، ليس بتاريخ ، بل أسطورة بحتة ، ينظر اليها التاريخ بالعين التى ينظر بها الى أساطير الهند القومية ، مهابهارتا ، وراماثنا ، أو الى الاساطير اليونانية القديمة الياذة . فكما أننا لا نجزم بشىء فى شأن أشخاص مهابهارتا ، وراماثنا ، والياذه كذلك لا نستطيع البت فى شأن اشخاص شاهنامه ، فلا نعلم هل لهم أصل تاريخى أو هم من نتاج الأفكار ؟ لقد احتل أبطال الفرس القدماء ، جمشيد والضحاك ، ورستم ، واسفنديار ، وسام ، ونريمان مكانا بارزا فى مخيلتنا ، ولكنا لا نعرف هل وجدوا حقا ، أم خلقتهم أساطير فارس القومية العتيقة ؟

وان من مآسي التاريخ البشري العجيبة أن قطرا عظيما — كفارس — قد فقد أخبار أفخر دور من حياته في طيات أساطيره القومية ، حتى أصبحنا لا نجد لها أثرا في صفحات التاريخ ! ومن الصعب القول متى تولـــــدت مبادئ هذه الاسطورة ، وفي أي عصر اتخذت صورة أسطورة مفصلة ، الا أن أمرا واحدا قد ظهر بكل جلاء وذلك أن " أوستا " سفر الزردشتيين الديني هو الذي هيأ المادة الأصلية لها ، ثم تطورت المادة ، ومازالت تتوسع حـــتى أصبحت أسطورة كاملة ، فنجد في أجزاء " أوستا " التي وصلت الينا ، أسمـــاء الأشخاص الذين زعمت الأسطورة بأنهم الملوك البيشداديون • ولعل المـــادة الأولية ظلت تتطور على الألسنة مدة طويلة ، ثم لما اتخذت شكل الاسطـــورة في العصر الساساني ، اختفى في حطامها القومي العنصر التاريخي • ولمــــا كانت الكتب البهلوية قد انعدمت في الخراب الذي صحب حملة الاسكندر علــى فارس ، حلت الأسطورة محل التاريخ الحقيقــي •

ولما أراد المؤرخون العرب تدوين تاريخ فارس القديمة ، لم يجدوا منــه شيئا ، الا هذه الأسطورة التي دونت في العصر الساساني ، فالكتب البهلويــة التي ذكرها أبو حمزة الأصفهاني ، وابن النديم ، والمسعودي وغيرهم ، كخداي نامه ، وآئين نامه ، ورستم أسفنديار نامه ، أو الكتب التي اشتهرت بسير ملــوك الفرس ، لم تكن الا حكاية لهذه الأسطورة القديمة ، فترجمت ونقلت كلها الـــى العربية • وقد أخذ هذه المادة ابو علي البلخي أولا ، ثم الفردوسي فنظمهــــا باسم " شاهنامه " • وقد عثر فيما بعد على الاساطير البهلوية ، فعرض عليهـا باحثو القرن التاسع كتاب شاهنامه ، فعلموا أن العرب ترجموا الأساطير البهلوية بكل أمانة ، وكساها الفردوسي كذلك حلل النظم الفارسي الزاهية بكل أمانة •

والذي يستحق الذكر أن مؤرخي العرب لم تخف عليهم حقيقة هــــذه

الاساطير . فانهم نقلوها الى العربية كما وجدوها ، ولكنهم لم يمضوا الى وجهتها التاريخية ، فقصر أبو حمزة الأصفهانى (وتاريخه أقدم التواريخ العربية فى الباب) بحثه على العصر الساسانى ، وأغفل العصور التى سبقته قائلا بأنه لا سبيل الى معرفة أحوالها ، لأن الكتب البهلوية قد ضاعت فى الدمار الذى صحب الهجوم الاسكندرى (١) .

ونقل اليعقوبى هذه الاساطير الا أنه كذلك صرح بأنها ليست من التاريخ فى شئ . ورفضها البيرونى قائلا " لا تقبله العقول " (٢) ومر بها ابن مسكويه فى " تجارب الأمم " مرا ، معللا انها من بنات الوهم ، ولا يدخل فى التاريخ الا العصر الساسانى (٣) .

ولم يجهل مؤرخو العرب ، أقوال مؤرخى اليونان ، بل كانوا يعلمون أن ما كتبه اليونان واليهود يختلف عن الأسطورة الفارسية القومية ، ولذلك قسموا تاريخ الفرس الى قسمين أساسيين : الرواية الرومية أى اليونانية ، والرواية الفارسية . فالمسعودى بعد ذكره الاختلاف بين الروايتين ، يقول فى كتابه " التنبيه والاشراف" انى صرفت النظر عن الرواية اليونانية ، لأنها تخالف الرواية الفارسية ، ولأنه ينبغى أن يؤخذ تاريخ الفرس من لسانهم ، لأن صاحب البيت أدرى بما فيه (٤) .

ولكن ، ويا أسفا ! خاب أمل المسعودى ، لأن الفرس كانوا قد فقدوا تاريخهم كلية !

---

١ — تاريخ سنى ملوك الأرض طبع ألمانيا ص ٢٢ ٢ — الآثار الباقية طبع أوربا ص ١٠٠

٣ — تجارب الأمم (تذكار ((غب))) ص ٤ ٤ — طبع أوربا ص ١٠٥

أما أبو الريحان البيروني فلم يقتنع ذهنه الوثاب الى البحث والتحقيق بالرواية الفارسية ، فجمع بين الروايتين في كتابه " الآثار الباقية " ووضع جداول لأسماء ملوك الروايتين ، فنجد في جدول الرواية اليونانية جميع الأسماء الحقيقية التي ذكرها مؤرخو اليونان يصدرها اسم غوروش . أما جدول الرواية الفارسية ، فلا يعدو عما ذكره الفردوسي في شاهنامه من الاسماء (١) .

وقد بذل علماء العصر الحاضر جهدهم في الجمع والتطبيق بين الروايتين فلم يفلحوا . ومباحث المستشرق الألماني اسبيجل في الباب تستحق المطالعة والدرس ، الا أنه كذلك عجز فن التطبيق بين الروايتين .

وأهم مسألة تشغل بال الباحث ، هي شخصية " غوروش " فنتساءل : هل لها ذكر في شاه نامه ؟ وقد ظن بعض الباحثين أن نيلوس نامه ، وغوروش الرواية اليونانية شخص واحد ، غير أن الاختلاف بين حياة الشخصين كبير ، فلا يدع المجال لمثل هذا الافتراض .

وذهب الآخرون الى أن كيخسرو المذكور في شاه نامه ، هو في الحقيقة غوروش ، لأن أسطورة ولادة كيخسرو تشبه أسطورة ولادة غوروش الى حد كبير . أجل ، يستحق هذا التشابه الاهتمام والبحث ، ولكنه وحده لا يسوغ الجزم بوحدة الاثنين التي تتطلب توافق أحوال حياتهما أيضا ، وهو لا يوجد الى حد كبير .

مأخذ أحوال غوروش :

فنحن والحالة هذه مضطرون الى الاستعانة بما كتبه مؤرخو اليونان وحدهم من أحوال غوروش . أما المأخذ الفارسي ، فلم يبق منه الا الآثار القديمة أهمها لوحات دارايوش التي كتبت بالخط المسماري ، والتي حل رموزها

١ — طبع أوربا ص ١٠٢

علماء القرن التاسع عشر . وأهم من كل ذلك تمثال قوروش نفسه الذى عجزت أيدى الزمان عن العبث به . وهو يعلن من ألفى وخمسمائة سنة بلسانه الصامت:

تلك آثارنا تدل علينـــــا فاسألـــوا بعدنا عن الآثار!

أما مؤرخو اليونان فثلاثة منهم فصلوا فيما كتبوه عن قوروش ، وهم هيرودوتس وتى سياز ، وزينوفن . وقد اعتبر هيرودوتس حقا أبا للمؤرخين ، فقد ولد الرجل سنة ٤٨٤ ق . م . أما تى سياز فاشتغل بالطب وكان طبيبا أمبراطوريا فى البلاط الفارسى . وأما زينوفن فكان فيلسوفا يونانيا من تلاميذ سقراط ، وظل متصلا ببلاط ايران مدة طويلة .

وقد صدقت اللوحات بعض ما كتبه هؤلاء المؤرخون كل التصديق . فمثلا شجرة نسب قوروش التى ذكرها هيرودوتس وزينوفن ، توجد بعينها فى لوحة داريوش ، وكذلك ختم قوروش الذى عثر عليه فى حفريات بابل . يلقى الضوء على بعض التواريخ والسنين .

فارس وميديا سنة ٥٦٠ ق . م . :

كانت بلاد ايران منقسمة قبل الميلاد بخمسمائة وستين سنة الى قسمين : فكان القسم الجنوبى يسمى بفارس ، والقسم الشمالى بمادا . وقد نطق بها اليونان " ميديا " والعرب " ماهات " .

ولما كانت الحكومتان الأشورية والبابلية تملكان سلطانا عظيما فقد بقيت فارس بقسميها تحت ضغطهما . وكان يحكمها أمراء القبائل . ثم تخربت نينوا فى سنة ٦١٢ ق . م . وقضى على السلطان الأشورى ، فتحرر أمراء ايران الشمالية وهى مادا من نفوذه ، وبدأت تتكون مملكة محلية بها ، ووجدت القبائل الفارسية كذلك الفرصة لرفع رأسها ، فتأسست فى بلادها مملكة أخرى باسم " انشان " غيرأن المملكتين لم يكن لهما من الحول ما يذكر ، فظلتا

مجهولتين ، لاسيما لأن بابل بعد خراب نينوا دخلت فى دور جديد من النشاط والقوة ، ودوخ ملكها بنوخذ نضر (بخت نصر) آسيا الغربية كلها فبقيت المملكتان منزويتين لا يقام لهما وزن .

أسرة هخامنش وظهور غوروش :

ثم ظهرت فى سنة ٥٥٩ ق . م . شخصية فذة فى ظروف غريبة التفتت أنظار العالم كله اليها فجأة كان صاحب هذه الشخصية ، شاب من أسرة هخامنش اسمه " غوروش " الذى سماه اليونان بحاثرس ، والعرب بقورش وخيارشا . وتسد قبله أمراء فارس حاكما عليهم . وبعد برهة من الزمن تم له الاستيلاء على مادا بدون صعوبة . هكذا تشكلت من قسمى ايران مملكة متحدة لأول مرة فى التاريخ ونشأت فى آسيا الغربية امبراطورية جديدة .

ثم بدأت فتوح غوروش المتوالية — فتوح ليست لسفك الدماء جريا وراء الحرص على جمع المال وحب القهر ، بل فتوح الأمن والحق لبسط العدل للمظلومين ، والأخذ بأيدى المقهورين ، فلم تمض على ارتقائه العرش اثنتا عشرة سنة ، حتى سقطت أمامه جميع المملكات الآسيوية من البحر الأسود الى صحراء بلخ .

وقد كسوا حياة غوروش الأول هذا حلل الأساطير ، كما هو شأن أكثر الشخصيات العظيمة فى العالم ، فزعموا له نشأة غريبة فى ظروف غريبة نادرة . وقد حكى لنا هيرودوتس وزينوفن هذه الاسطورة مفصلة ، فقالا : ان جده من قبل أمه وهو استياغس ، عزم على قتله قبل ولادته ، فأصدر أمره بذلك ، الا أن الحكمة الالهية فتحت للمولود قلب أمير من أمراء البلاد ، فنشله بطريقة عجيبة من براثن الموت .

وقد اقفلت فى وجهه أبواب التربية الملكية ، ففتحت له المشيئة الأزلية أبواب المدرسة الفطرية وأخذه فضاء الجبال والصحارى يربيه فى حجره ، حتى

أتت الساعة التى ظهرت فيها مواهبه العظيمة ، وفضائل سيرته الرشيدة ، فاشتهر أمره وانتشر صيته ، وعرفته بلاده فكان له الآن أن ينتقم لنفسه من أعدائه الذين كادوا له ، وحاولوا هلاكه ، ولكنه آثر العفو على النقمة فصفح عنهم أجمعين حتى أن جده القاسى الفظ ، استبقاه ، لم ينله من قبله بسوء !

هجومه الأول وفتح ليديا :

وقد بادره بعد ارتقائه العرش ، كروسس (   ) ملك ليديــــــا ([illegible]) ، واتفقت كلمة مؤرخى اليونان على أن كروسس هو الذى بدأه بالعداء وأن غوروش حمل السيف مضطرا اليه ، وأن دفاعه انتهى الى النصر المبين وهكــــذا نجحت مهمته الأولى فى الحرب .

كانت ليديا واقعة فى القسم الشمالى من آسيا الصغرى ، وهو يسمى الآن بأناضول ، حيث مستقر الحكومة التركية الحاضرة . وكانت حكومة هذه البلاد اذ ذاك يونانية الصبغة . انتصر غوروش فى الحرب ، وكانت عاقبة البلاد المقهورة فى ذلك العصر الدمار والهلاك على أيدى الفاتحين الا أن مؤرخى اليونان كلهم يشهدون بأنـــــه لم يقع شىء من هذا ، بل عامل غوروش المفتوحين بكل سخاء وجميل ، حتى أنهـــم لم يشعروا بأنه كانت هناك حرب بساحتهم ، الا ما رواه هيرودوتس من أمــــــر كروسس ، الملك المغلوب ، فقال : ان غوروش أمر بادى ذى بدء بأن يبنوا مصطبــــة من الحطب ويشعلوها بالنار بعد أن يقعدوا كروسس فوقها . ولعله قصد بذلـــــك ان يمتحن شجاعته وثباته ، أو يبطل أوهام البلاد الوثنية ، ولذلك لما رآه جالســا غير هياب ولا وجل ، نسخ أمره وعفى عنه ، فعاش بكنفه فى بحبوحة العيش والعـــز التام الى آخر أيامه . وقد علمت شعوب العالم من هذه الحروب أن غوروش ليـــس فاتحا جديدا فحسب بل مصلحا اخلاقيا جديدا كذلك يؤسس ، خلافا لما كانـــت عليه الملوك والحكومات من الاخلاق والسيرة — امبراطورية جديدة على اخلاق سياسية جديدة .

هجومه الثاني في الشرق :

وكان هجومه الثاني في الشرق ، لأن القبائل الهمجية من نجد روسيا وبكتريا ، قد تمردت فلم يكن له مناص من السير اليها لسلامة البلاد وحفظ نظامها . أما نجد روسيا فهي البلاد الواقعة بين ايران الجنوبية والسند ، وهي التي تسمى الآن بمكران وبلوخستان . اما بكتريا فهي بلخ . وقد ذكر المؤرخون اليونان مهمته هذه ، الا أنهم لم يبينوا تاريخها . والمظنون أنها كانت بين سنة ٥٤٠ وسنة ٥٤٥ ق . م .

ووصول قوروش الى بلخ كان بمثابة وصوله الى نهاية الشرق ، لأنه يكون قد خرج من ايران الجنوبية ، فوصل الى مكران ، ومنها الى كابول مارا ببلوخستان ومن كابول توجه الى بلخ . والغالب أنه فتح بلاد السند كذلك في هجومه هذا . وقد سمى الفرس السند باسم الهند ، فنجد في لوحة داريوش اسم " الهند " بين أسماء البلاد الثمانية والعشرين المفتوحة التي ذكرها فيها .

فتح بابل :

وفي نحو هذا الزمن (سنة ٥٤٥ ق . م) رجى منه أمراء بابل وأكابرها بأن يقدم الى مدينتهم وينجيهم من عسف الملك بيل شيلشازار (Belshazzar)

وقد قامت الامبراطورية البابلية على أنقاض نينوا المخربة ، وأخذت تتوسع بسرعة في سائر الجهات . وكان " بلو خذ نصر " الذي سماه العرب " بخت نصر " امبراطورا قاهرا وملكا جبارا في دورها الجديد ، فانتشرت سطوته وعمت هيبته الى القريب والبعيد ، وأغار على فلسطين والشام مرارا ، وقضى بغارته الاخيرة على البقية الباقية من حكم اليهود . فما سجلته صفحات العهد العتيق وليست أسفار حزقيال ، ورمياه ، وشمباه الأنبياء الا رثاء يفتت الأكباد على الدمار

الذى أصاب اليهود وقد كانت الاغارة البابلية سيلا مخيفا يحمل معه الهـــلاك فوق الهلاك ، فخربت مدن اليهود ، ودمرت هيكلهم المقدس ، وعفت على آثارهـــم الدينية وغيرها ، وليس هذا فحسب بل ضاعت من جرائها أكبر ثروته الدينيـــة وهى التوراة ، الى الابد . وقد أكلت سيوف الفاتحين جمعا عظيما من اليهـــود وتشرد جمع عظيم منهم فى نواحى العالم . أما الباقون فوقعوا فى الأسر وساقهـــم الجيش البابلى المنتصر كالبهائم الى بابل . فلم يبق فى يروشلم الا الأنقـــاض وأصبح بقية السيف من اليهود يعيشون فى بابل عيشة الأسر والذل . وقـــد دام هذا الحال سبعين سنة .

ثم ضعفت شوكة بابل بعد موت جبارها بخت نصر ، اذ لم يخلفه رجـــل قدير محنك ، وكان أمراء البلاد هم سدنة المعابد ، فأقاموا نابونى دوس مقام الملك المتوفى ، فوضع مقاليد الحكم فى يد بيل شازار الذى قيل عنـــه أن الظلم والفسق والشر كان قد تجسم فيه ، فلقى الأهالى منه الأمرين وتنغصـــت حياتهم بسببه . وكان صيت غوروش قد انتشر فى أكناف العالم ولهجت الألســـن بمحامده فما كان من أهالى بابل الا أن أرسل أكابرهم الدعوة اليه ليقدم الـــى بابل وينجيهم من العسف والعذاب .

وقد أجمع المؤرخون على أن بابل كانت اذ ذاك أمنع مدينة على وجـــه الأرض فقد بلغ سورها من المتانة والمنعة والطول ، والعرض مبلغا جعله من عجائب الدهر وخوارقه ، وفى مأمن من سلاح عصره . وعلى رغم ذلك لبى غوروش دعـــوة البابليين ، فقام من مكانه ، وما زال متوغلا فاتحا حتى وصل أمام أسوار المدينة . قال هيرودوتس أن والبا سابقا لبابل يدعى غوبرياس ( ) كان يصحـــب جيوش غوروش ويهديهم الطريق ، فما كان منه الا أن حفر جداول من الدجلة قبـــل المدينة ، فتحول مجرى النهر ويبس ما كان يدخل منه الى المدينة ، فانفتـــح الطريق للغزاة من داخل النهر فدخل منهم جمع عظيم اليها فى احدى الليالـــى استولى عليها .

نهاية أسر اليهود وأمر اعادة بناء الهيكل وعقيدة اليهود القومية فى هذا الشأن :

تقول لنا أسفار اليهود المقدسة ان ظهور غوروش وفتحه بابل كان معجزة من عند الله وذلك لينتهى أسر اليهود الذى دام سبعين سنة ، وليعاد بناء يروشلم ، فيزعمون أن هذا كله وقع كما أخبر به يشعياه النبى قبل وقوعه بمائتوستين سنة ويرمياه النبى قبل ستين سنة .

تكون تاريخ اليهود من خمير معتقداتهم الدينية ، فكتاب العهد العتيق ليس كتاب شريعتهم فقط ، بل هو النبع لتاريخهم أيضا . وقد خلق اليهود تصورا خاصا لتاريخ العالم وعضدوه بالوحى والنبوة ولذلك أصبحت كل رواية من العهد العتيق تصورا أساسيا لعقائدهم الدينية ، وهم يؤمنون بها كل الايمان ، فتقول هذه الاسفار : ان جميع تلك النبوءات عرضت على غوروش بعد فتح بابل فتقبلها بقبول حسن ، وتأثر بها أيما تأثر ، فما كان منه الا أن أصدر أمره بأن تعاد الى اليهود جميع الأوانى المقدسة من الذهب والفضة التى نهبها " بخت نصر " وجلبها من هيكل يروشلم وسمح لهم بالرجوع الى فلسطين ليعمروا مدنهم المخربة ويبنوا هيكلهم المتهدم فتقول صحيفة عزرا :

" أعلن الملك غوروش بعد فتحه بابل فى سائر مملكته قائلا ، ان رب السماء قد وهبنى جميع بلاد العالم ، وأمرنى أن أبنى لعبادته هيكلا فى يروشلم الواقعة بأرض يهوديا ، فعلى كل من هو من شعب الرب ههنا أن يرحل الى يروشلم ويبنى بها بيت الرب ، وعلى جميع الناس فى مملكتى أن يساعدوا اليهود فى عملهم وأن يحضروا لهم كل ما يحتاجون اليه من الذهب والفضة وغيرهما " .

فعاد بعد اعلان غوروش خمسون ألف أسرة يهودية من بابل الى فلسطين وباشروا تعميرها حتى والهيكل ، ولكن العوائق كانت تحول بين العمل فتقول صحيفة عزرا : ان نائب الملك دلرايوش بالحلم وفلسطين تدخل فى العمل وأوقفه

فرفع اليهود شكواهم الى البلاط الملكى فنالت القبول ، وأصدر دارايوش أمــــرا جديدا وثق به أمر غوروش ، وقد ظهر النبى عزرا فى زمن أردشير ، فجاء بقافلــة يهودية ثانية من بابل الى فلسطين ، وكتب التوراة من جديد . وكان عمل بناء الهيكل وقف مرة أخرى ، فأصدر أردشير بسعى النبى حجى أمرا جديدا فـــى هذا الشأن وهكذا تم بناء الهيكل .

وتقول الرواية اليهودية القومية عن دانيال ، وعزرا ونحمياه ، وحجـــى بأنهم كانوا مقربين الى الملك غوروش ، ودارايوش ، وأردشير ، ويعاملون باحـــترام خاص فى بلاطهم . وقالوا عن أردشير ان فتاة يهودية " أستر " أصبحت ملكة لـه ، وأن بعض أمراء البلاط لما دبر الفتنة ضد اليهود ، حالت هى دونها وخلصتهــم من المؤامرة . فيوجد بين صحف العهد العتيق التى تسمى ب " ابو كريفـــا " صحيفة أستر كذلك ، والمقصود من صحف " ابو كريفا " (Apocryphe) تلـــك الصحف التى ضمت الى ترجمة العهد العتيق اليونانية السبعينية (١) ، والتى لـم توجد فى النسخة العبرية ولا النسخة الفلسطينية .

هجومه الثالث فى الشمال :

ويخبرنا مؤرخو اليونان عن هجوم ثالث قام به غوروش لاصلاح بعض بــلاد الحدود من مادا وتقويتها . ولابد ان يكون هذا الهجوم فى جهة الشمــال لأن مادا هى ايران الشمالية التى تتاخم الجبال الشمالية الفاصلة بين بحـــر الخزر والبحر الأسود . وقد سميت هذه البلاد فيما بعد بالقوقاز وسماها الفرس ب " كوه قاف " وبلاد قوقاز الحاضرة واقعة فى وديان هذه الجبال . وقد وصـل

١ ـ الترجمة السبعينية (Septuagint) قام بها اثنان وسبعون عالما من احبار اليهود بأمر ملك مصر البطليموس ، فلادلفس (من سنة ٢٨٤ الى سنة ٢٤٧ ق م) ويشار الى هذه الترجمة بالاعداد اللاتينية : LXX

غورش بهجومه هذا الى نهر ، نزل عليه جيشه ، فسمى النهر من ذلك الحين بـ " نهر سائرس " أى نهر غوروش ولا يزال يدعى بهذا الاسم الى الآن . ومما لا ريب فيه أنه فى هجومه هذا صادف قوما من سكان الجبال ، شكوا اليه أمر يأجوج ومأجوج ، فأمر ببناء سد حديدى هناك كما سنراه مفصلا فيما بعد . ومما يؤسف له أن مؤرخى اليونان لم يعتنوا بتدوين حوادث هذا الهجوم .

وفاة غوروش سنة ٥٢٩ ق . م . :

لقد لهجت الألسنة فى الشرق والغرب بعظمة غوروش بعد فتحه بابل لأنه لم يبق على وجه البسيطة أحد يعارض هذه الامبراطورية الجديدة . فكان غوروش وحده امبراطور العالم كله فى ذلك الحين . وكان هذا الأمر أعجوبة العصر القديم . لقد كان الرجل قبل أربع عشرة سنة راعيا مجهولا ، يعيش فى الغابات الجبلية ، فاذا هو يملك الآن وحده جميع الممالك التى مثلت عظمة الأمم وشوكتها لقرون ، فأصبح وحده ملجأ يلجأ اليه سائر الشعوب من الساحل الغربى لآسيا الصغرى الى صحراء بلخ !

عاش غوروش بعد استيلائه على بابل عشر سنين فمن سنة ٥٢٩ ق . م . وأن آثار ايران القديمة التى نقبت فى هذا العصر تشتمل على مدفنة كذلك وهو بناء مربع جميل من المرمر ، وقد ثبت بظهور هذه المقبرة ان دفن الأموات كان شائعا بين الزردشتيين القدماء وعلى الاقل كان الملوك وأعاظم الناس منهم يدفنون كما يظهر ذلك أيضا من العثور على قبر داريوش . وكانت العامة تسمى هذا القبر بنقش رستم .

سلف غوروش وخلفه :

يستحسن الآن أن نذكر أسماء سلف غوروش وخلفه الأقربين لان الاختلاف فى النطق بها فى اللغتين : البهلوية واليونانية ، أوقع بعض المؤرخين فى الخطأ .

ان شجرة نسب غوروش التي ذكرها هيرودوتس وزينوفن ، قد صدقت لوحة دارايوش ، فكان والد جد غوروش ، هخمنش الذي دعاه اليونان بـ " ايكي مينس " (   ) • وقد اجمع المؤرخون ولوحة دارايوش على أن ملوك مادا وفارس كانوا ينتسبون اليه ، وقد جعلوا اسمه اسما لاسرتهم أي سموا أسرتهم بـ " هخامنش " •

وولد لهخامنش ابنه " شائش بير " الذي حرف اليونان اسمه فقالوا " تائزيز " وولد لهذا كبوشيه ، الذي أصبح في اليونانية " كم بي سز " (Cambyses) وفي العربية كبوشيا ، وولد لكبوشيا ، صاحبنا غوروش •

وقد سمى غوروش بكره بكبوشيا ، وأضيف اليه اللقب الملكي " أهشورش " وظل يستعمل للملوك بعده ، الا أن اليونان حرفوه كذلك فقالوا " أهاسورس " والعرب " أخشويش " •

ارتقى كمبوشيا العرش بعد أبيه غوروش وهاجم مصر في سنة ٥٢٥ ق • م • واستولى عليها ووصلت الأنباء وهو في مصر بأن أهل مادا شقوا عصا الطاعة وأن رجلا يدعى " غوموتا " زعم بأنه أخ لكبوشيا وأن اسمه " برديه " ولذلك يستحق الملك • وقد سمى اليونان ، برديه هذا ، بسمرديز ، والحاصل لما علم كمبوشيا بالثورة قفل من مصر قاصدا بلاده ولكنه توفي بالشام وقيل مات غيلة •

ولما لم يبق من ولد غوروش بعد هلاك كمبوشيا أحد توجه أمراء البلاد ابن عم له وهو دارايوش • فتغلب هذا على الثوار وقتل المدعي ، غوموتا ، ووصل بملكه الى الذروة العليا من العز والمجد •

أما دارايوش ، أرتخشت الذي سماه اليونان بـ " أرتازركس " والعرب بـ " اردشير " • هؤلاء الملوك الأربعة ، هم الذين نجد أسماءهم في أسفار اليهود ، أي غوروش ، وأخشورش ، ودارايوش ، وأردشير • وقد بدأ اليهود باعادة

بناء هيكل يروشلم فى عهد غوروش وتمموه فى أيام ارد شير .

الهجوم الثانى على بابل ونهاية ملكها :

كان غوروش فى فتوحه سمحا كريما كما رأينا . كان يفتح البلاد بدون أن يقضى على حكوماتها المحلية ، أو أديانها ودساتيرها وعوائدها بل كان يكتفى بأخذ الخراج ووضع المراقبة العالية . هذه كانت عادته ، وهذا ما فعله ببابل فترك فيها نائبه ، وعاد بنفسه قافلا الى بلاده . فكانت بابل تابعة لامبراطورية غوروش ، وتتمتع باستقلالها الداخلى ، وكان لها ملكا .

يقول مؤرخو اليونان ان هذه الحالة دامت نحو عشرين سنة ، حتى توفى غوروش واشتغل داريوش بثورة مادا ، فرأى ملك بابل فرصة للتحرر من التبعية الفارسية ، فأعلن استقلاله التام . وعلى ذلك نهض داريوش اليه لمهاجما . وقد دون مؤرخو اليونان حوادث هذه الحروب فقالوا انه كما نال غوروش النصر التام باعانة أمير بابلى ، اسمه غوب رياس ، كذلك تم لداريوش الفتح بحيلة رجل مغامر دخل المدينة ، حيث دبرت المؤامرة ضد الملك فقتل بغتة وفتحت أبواب بابل للمغيرين .

ونجد فى صحيفة دانيال صورة أخرى لهذا الحادث نفسه مصبوغة بصبغة خاصة . فقد قالت الصحيفة ان الليلة التى سبقت ليلة القتل ، أقام فيها الملك حفلة سرور وحبور ، وأمر ساقيه أن يقدم اليه الخمر فى اقداح الهيكل المقدسة المنهوبة من يروشلم ، فامتثل الساقى بأمره فلما رفع الملك القدح الى فيه اذا هو يرى يدا غيبية تمتد الى الجدار وتكتب عليه عبارة آرامية ترجمتها " منى منى تقهل وفرسين) فدهش الملك برؤيته هذه ، وامتلأ رعبا فطلب السحرة والعرافين وأمرهم بشرح العبارة ولكنهم عجزوا عنه وأخيرا ذكرت له الملكة اسم دانيال ، فدعاه اليه ، فشرح له العبارة قائلا ، انه انذار من قبل الله اليك بأن أيامك قد انتهت

" منى منى " أى عدت أيامك و " تقيل " أى وزنت فعلم وزنك و" فرسين"
أى دالت دولتك وآلت الى فارس ! فلم يمض على هذا الكلام يوم الا وذبح
الملك ، واستولت جيوش داريوش على بابل .

وقد انتهت بانتصار داريوش مملكة بابل وأصبحت ولاية خاضعة لامبراطورية
فارس .

لا ندرى ألرواية دانيال هذه أصل أم لا ؟ لا يسهل البت في
المسألة لأن الصحيفة ألفت بعد فتح بابل بزمن طويل . ولا نقصد بقولنا
هذا أن الرواية صيغت أثناء التأليف ، اذ يجوز أن تكون مادة الرواية موجودة
من قبل ، وكذلك يجوز أن يكون لمادة أصل . ان كان الأمر كما قلنا فما هو
ذلك الاصل ؟ ذهب بعض البحاث المصريين الى القول بانه ينبغى لنا أن
نبحث عن ذلك الأصل فى مؤامرة بابل المذكورة . فان كانت هنالك مؤامرة ضد
ملك بابل ، فمن الذين كانوا أشد بغضا له ، حتى دبروا هذه المؤامرة ؟ لا يخفى
أنهم كانوا يهود بابل ، فقد قيل فى الرواية ان الملك أراد أن يشرب الخمر
فى أوانى الهيكل المقدسة ، متعمدا اهانة الهيكل . فمن الذى يكون قد تأذى
من هذا العمل ، وسخط على الملك ؟ أولئك هم رؤساء يهود بابل . فلم
لا نفرض أن هؤلاء الرؤساء اشتركوا فى المؤامرة وهم الذين اوجدوا اليد السرية
التى كتبت الانذار على الجدار ؟ ولكن اليهود لا يعترفون بذلك بل يقولون
كانت معجزة ظهرت لتأييدهم .

حديث القرآن والتاريخ

عن غوروش

=============

لنا أن نقول الآن أن مسألة لقب " ذى القرنين " قد حلت نهائيا ، وليس ثمة ريب فى أن تصور ذى القرنين لغوروش كان قد وجد ، وان غضضنا النظر عن الشهادات الصريحة التى يشهد بها العهد العتيق ، فان تمثال غوروش نفسه لشهادة حسية ملموسة على صحة ما نقول ، وبقى الآن أن نرى هل الحلة التى فصلها له القرآن توافقه أم لا ؟ وسنرى أنها توافقه كل الموافقة .

وقد سبق لنا فى بدء المقال أن أتينا على خلاصة ما قاله القرآن فى شأن ذى القرنين ، ويحسن بنا أن نعيد النظر اليها مرة أخرى .

انا مكنا له فى الأرض :

١ — ان أول ما وصف به القرآن ذا القرنين هو قوله " انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا " (٨٤) ، أى أننا منحناه السلطان والتثبت فى الملك وهيأنا له جميع الوسائل والمعدات التى كان يحتاج اليها لتدعيم حكمه واتمام فتوحه ومن أسلوب القرآن انه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه الى الله مباشرة — كما نراه فى هذه الآية — يريد بذلك أمرا عظيما قد وقع على خلاف المعهود ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لدنه ، فمثلا نرى فى سورة يوسف

أنه يقول " وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض " (١٢ : ٥٦) ، أى جعلنـــا يوسف متمكنا فى أرض مصر وذلك لأن يوسف عليه السلام وصل الى حكم مصـــر بطريقة عجيبة غير معهودة ، ولذلك نسب الى الله ، ليبين أنه كان من نعـــم الله الخصوصية عليه أن أخرجه من السجن وأجلسه على عرش البلاد • ولمـــا كان أسلوب الكلام عن ذى القرنين نفس هذا الاسلوب كان لزاما أن يكون وصـــول ذى القرنين كذلك الى مقام الملك والسلطان فى ظروف غير عادية فيكون منحـــة خصوصية من عند الله •

واذا نظرنا من هذه الناحية الى غوروش ، نجد كأن صورا صور ذى القرنين صورة مطابقة للأصل تماما ، فقد بدأ حياته فى ظروف أحاطت بها الحوادث المحيرة للعقول ، حتى سبكتها فى قالب اسطورة : انه لم يولد بعد الآن والد أمه أصبح عدوا لدودا له ، يريد الفتك به ولكن الرجل الذى انتدبه لقتله ، امتـــلأ قلبه عطفا وحنانا عليه ، فاختطفه من براثن الموت • ثم انه ينشأ فى الغابـــات والصحارى والجبال ، ويعيش عيشة الرعاة السهليين المجهولين فبينما هو كذلـــك اذ تتغير الأحوال بغتة ، وتقوده الى ساحات الجد والعمل ، مشمرا عن ساعديه فيخلو له عرش مادا بدون مزاحمة ! لاريب أن سير الحوادث الحياة العاديـــة لا يكون هكذا • انه حقا أمر فذ ، نادر ، عجيـــب !

وآتينـــا من كل شـــىء سببـــا :

ثم قال " وآتيناه من كل شىء سببا " أى وهيناه كل الوسائل للعمل والنجاح •

انظر كيف تطابق هذه الكلمات من الاية الأمر الواقع ؟ ان الشاب الذى كان بالأمس راعيا مجهولا ، قد استوى اليوم على عرش الملك ، وملك جميع ما يحتاج اليه من وسائل العمل بدون حرب ونضال ! يقول مؤرخو اليونان أن جميع قبائل فارس قد اتفقت على طاعته من تلقاء نفسها ، وظهرت فى التاريخ أول مرة المملكة الفارسية المتحدة • ثم احتشدت له جيوش عظيمة لم تملكها مملكة من قبل •

المهمة الأولى الغربية :

٢ – ثم ذكر القرآن لذى القرنين ثلاث مهمات ،

كانت الاولى منها الى " مغرب الشمس " والغرض الواضح من " مغرب الشمس" الجهة التى نرى الشمس تغرب نحوها ، أى جهة الغرب ، وليس معنى ذلك مكان غروب الشمس الحقيقة ، اذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مكان كهذا • وان كل اللغات لتعبر عن الغرب والشرق بـ " مغرب الشمس " وبـ " مطلع الشمس " ونجد فى العهد العتيق كذلك تعبيرات كهذه ، فنقرأ مثلا فى صحيفة زكريا " يقول رب الجموع انى أنجى شعبى من البلد الذى تطلع منه الشمس ، ومن البلد الذى تغرب فيه الشمس " (٨ : ٧) ، أى أنجى بنى اسرائيل من مصر وبابل ، اذ مصر لفلسطين بلاد المغرب ، وبابل بلاد المشرق • هذا أمر واضح لا يحتاج الى البحث ، الا أن أمرا جليا كهذا أصبح معقدا لولع المفسرين بالعجائب ، فتوهموا أن ذا القرنين وصل الى المكان الذى تغرب فيه الشمس حقيقة !

والحاصل أن مهمته الاولى كانت الى الغرب ، ولا ريب أنها كانت مهمة ليديا ، لأنك ان مشيت من ايران الشمالية الى آسيا الصغرى ، تكون قد مشيت نحو الغرب تماما •

وقد رأيت آنفا أن غوروش ما كاد يضع تاج فارس ومادا على رأسه ، حتى فاجأه

ملك آسيا الصغرى ، كروسس ، بالجهوم وقد تكونت مملكة آسيا الصغرى التي عرفت باسم ليديا ، في القرن السابق للحوادث التي نحن بصددها ، وكانت عاصمتها مدينة ساردييز (   ) • ولقد سبقت حروب بين مادا وليديا قبل ارتقاء غوروش العرش ، وأخيرا صالح والد كروسس ، جد غوروش ، استياغس ، ولأجل تصميم الاتحاد ، تصاهرت الأسرتان المالكتان ، ولكن كروسس داس كل هذه الملاقات والقرابات حين كبر عليه أن تنشأ امبراطورية عظيمة باتحاد فارس ومادا تحت زعامة غوروش الناجحة ، فحرض أولا حكومات بابل ، ومصر واسبارتا عليه ، ثم استولى باغارة فجائية على بلدة بتريا (   ) الواقعة على الحدود •

فاضطر غوروش الى رد سيف المهاجم الى نحره ، فخرج من عاصمة مادا ، هغمتانا (همدان) وانقض كالصاعقة على خصمه ، ولم يطل النضال ، بل سقطت مملكة ليديا كلها ساجدة أمام قدميه بعد موقعتين : بتريا وساردييز !

وقد أتى هيرودتس على تفاصيل هذه الحروب ، وهي ممتعة ، فقال ، كان انتصار غوروش سريعا جدا لم يتوقعه أحد ، فما مضت على معركة بتريا أربعة عشر يوما الا وخضعت عاصمة ليديا المنيعة ، ووقف ملكها ، كروسس ، أسيرا بين يدي الفاتح ! فأصبحت آسيا الصغرى كلها من بحر الشام الى البحر الأسود خاضعة لغوروش ، ولكنه مازال يتقدم ويتوغل ، حتى بلغ آخر المغرب ، أي الى ساحل البحر، وهنا — طبعا — وقفت أقدامه ، كما وقفت بعد اثني عشر قرنا أقدام موسى بن نصير على الساحل الشمالي من افريقية •

واجتاز غوروش من هغمتانا الى ليديا ألفا وأربعمائة ميل وكان لا يقدر على المشي فوق أمواج البحر ، فوقف ، فاذا هو يرى الشمس تغرب في عين الخليج الساحلي • وكان له هذا المقام بلا ريب مغرب الشمس أي نهاية المغرب •

وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما :

لنفتح خريطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى أمامنا . نرى فيها معظم الساحل قد تقطع فى خلج صغيرة ، لاسيما على مقربة من أزمير ، حيث اتخذ الخليج صورة عين . كانت ساردیز على مقربة من الساحل الغربى ، ولا تبعد كثيرا من أزمير الحاضرة . فانا أن نقول أن غوروش لما تقدم بعد استيلائه على ساردیز ، وصل من ساحل بحر ايجه الى مكان قريب من أزمير ، ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين ، وكان الماء قد انكدر من وحل الساحل ، فرأى الشمس تغرب مساء فى هذا العين . هذا هو ما عبر عنه القرآن بقوله " وجدها تغرب فى عين حمئة " أى انه تراءى له كأن الشمس تغرب فى بقعة كدرة من الماء .

ومن المعلوم أن الشمس لا تغرب فى مكان ما ولكنك ان وقفت على ساحل بحرى ، لرأيت الشمس كأنها تغرب رويدا رويدا فى البحر .

المهمة الشرقيـــة :

٣ — وكانت مهمته الثانية الى مشرق الشمس ،أى فى جهة الشرق . فهيرودتس وتى سياز كلاهما يذكران هذه المهمة الشرقية التى قام بها غوروش بعد فتحه ليديا ، وقبل استيلائه على بابل ، فقالا " ان طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية حمله على القيام بهذه المهمة " .

وهذا يطابق ما قاله القرآن " حتى اذا بلغ مطلع الشمس ، وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا " أى أنه لما وصل الى نهاية الشرق، رأى الشمس تطلع على قوم ليس لديهم ما يستترون به عن قيظها ، يعنى أنهم كانوا من القبائل الرحالة التى لا تسكن المدن ولا تبنى لهما البيوت .

٤٧

قبائل الشرق الرحالة :

من كانت هذه القبائل الرحالة ؟ يظهر من بعض ما صرح به مؤرخو اليونـان أنها كانت قبائل بكتريا ، أى بلخ ، ولو نظرنا فى الخريطة لوجدنا " بلخ " بمثابة الشرق الأقصى لايران ، لأن الأرض بعدها ترتفع وتسد الطريق ، والظاهـر أن قبائل جدروسيا كانت أخذت تسعى فى الفساد على حدوده الشرقية ، فقام من مكانه حتى وصل بلخ فاتحا ، والمقصود من جدروسيا ، البلاد التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان .

المهمة الثالثة الشمالية وسد يأجوج ومأجوج :

٤ — وقام بهجوم ثالث على بلاد جبلية كانت تغير عليها من ورائها يأجوج ومأجوج وهنالك بنى السد . كانت هذه مهمته الثالثة ، وصل بها ، تاركا على يمينه بحر الخزر ، الى جبال القوقاز (   ) حيث وجد مضيقا بين جبلين منهما .

ذكر القرآن هذا الخبر قائلا " حتى اذا بلغ بين السدين ، وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا " ، أى أنهم كانوا جبليين ملوحشين ، حرموا من المدنية والعقل والفهم .

والمقصود بسدين ، مضيق فى جبال القوقاز . وانك تجد على يمين القوقـاز بحر الخزر الذى يسد طريق الحافة الشرقية منها ، وعلى اليسار البحر الأسود الذى يسد طريق الحافة الغربية ، وترى فى الوسط سلسلة جبالها الشاهقة التى صارت جدارا طبيعيا ، فلم يكن هنالك منفذ للمهاجمين من الشمال الا مضيق وسطى فى هذه الجبال ، يجتازه المهاجمون ويشنون الغارات على البلاد الواقعة وراءه . فبنى قوروش فى هذا المضيق سدا حديديا ، وأقفل به الطريق على المغيرين ، ولم يأمن أهل سهول قوقاز وحدهم بهذا السد بل أصبح السد بابا مقفلا منيعا لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية ، فأمنت جميع الشعوب القاطنة فى آسيا الغربية وفى مصر من جهة الشمال .

انظر الخريطة ، تجد آسيا الغربية تحتها ، وبحر الخزر فوقها ، والبحر الأسود على يمينها ، وقد سدت جبال القوقاز ما بين البحرين ، فهذان البحران وسلسلة جبال القوقاز ، أوجدت سدا طبيعيا يمتد الى مئات الأميال ، ولم يكن هناك خلل في هذا الجدار الهائل ، ينفذ منه شعوب الشمال الا ذلك المضيق ، فعمد غوروش اليه وقفله ببناء سد حديدي لا يتسلق عليه ولا ينقب فيه ، فكان السد بمثابة باب قد أحكم أقفاله بين آسيا الغربية والبلاد الشمالية .

أما القوم الذين وجدهم ذو القرنين هنالك ، وكانوا خلوا من العقل ، فيحتمل أن يكونوا القوم الذين ذكرهم اليونان باسم " كولش " وذكروا في لوحة داريوش باسم " كوشيا " . هؤلاء الذين شكوا الى غوروش هجمات يأجوج ومأجوج ، ولما كانوا مجردين من الحضارة وصفهم القرآن بقوله " لا يكادون يفقهون قولا " أي لا يفهمون الكلام .

أوصاف ذي القرنين الأخلاقية في القرآن :

٥ ـ والآن تأتي أمامنا أوصاف ذي القرنين الأخلاقية التي ذكرها القرآن ، فأولها عدله وحبه لرعيته . لنرى الى أي حد ينطبق هذا الوصف على حياة غوروش ؟

يخبر القرآن أن الله قال له في شأن الذين وجدهم في الغرب : " اما أن تعذبهم واما أن تتخذ فيهم حسنا " . أي أصبح هؤلاء في قبضة يدك فلك أن تعاقبهم أو تعاملهم بالحسنى .

لاشك في أن هؤلاء كانوا الشعب اليوناني في ليديا . هاجمه ملكهم كروسس ، بدون حق ناسيا العهود والقرابات ، ولم يكتف بهجومه ، بل حرض عليه جميع الدول القوية المعاصرة . والآن بعد أن خاب سعيه ، وعاد كيده في نحره ، كان لغوروش أن يعاقبه على سوء عمله . ولو فعل ذلك

لما عوتب فيه ، لأنه كان له الحق في ذلك . هذا هو الأمر الذي عبر عنه القرآن بقوله : " اما أن تعذبهم واما أن تتخذ فيهم حسنا " .

فماذا فعل ذو القرنين ؟ انه قال : بل أعاملهم بالحق ، لأني لست من الذين يميلون الى الظلم ، " أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا " (٨٧،٨٨) [1] ، أي لا أعاقبهم على ما سبق لهم من الشر ، بل أعفو عنهم . أجل . من يأت بمنكر بعد هذا فسينال جزاء عمله ، ثم يرد الى الله ليعاقبه بما هو أشد وأدهى ، وأما من يعمل الخير ويطع أمري ، فأجزيه بالحسنى . هذا هو اجمال ما فصله مؤرخو اليونان من سيرة الرجل ، وقد قبله مؤرخو العصر الحاضر كحقيقة تاريخية لا مراء فيها .

وقد اتفقت كلمة مؤرخي اليونان على أن ما فعله غوروش بعد فتحه ليديا لم يكن العدل الصراح فحسب ، بل كان أكثر من ذلك . كان كله سماحة ومرحمة وكرما ونبلا . فلو عاقب أعداءه ، لكان ذلك عدلا لأنهم كانوا جناة مجرمين ولكنه لم يقف عند حدود العدل ، بل صعد الى المقام الأعلى من الانسانية الفاضلة .

يقول هيرودوتس ، أمر غوروش جنوده بأن لا يرفعوا السلاح على أحد غير المحاربين من الأعداء ومن يخفض رمحه منهم فلا يقتلوه . أما كروسس ، الملك المنهزم ، فأمر في شأنه أن لا يؤذيه أحد ، حتى ولو هاجمه بسلاحه . وقد أطاع الجيش أمره طاعة تامة ، حتى لم يشعر عامة الأهالي بويلات الحرب غير

الملك والسلطان ، ولم تتغير حالة الأهالى .

وهنا يجب أن لا ننسى بأن انتصار غوروش كان هزيمة منكرة لآلهة اليونان ، لانها لم تقدر على صون عابدها الخاص ، كروسس من المحنة الكبرى .

قال المؤرخون ، استخار كروسس الآلهة ، قبل اقدامه على الهجوم ، وان هاتف " دلفى " قد بشره بالفتح المبين ، ولما انعكست الآية وانكسر كروسس ، استاء اليونانيون ، فأخذوا يؤولون ويحاولون أن يجعلوا من هذه الهزيمة الشنيعة فتحا دينيا لآلهتهم . فقد روى هيرودوتس ما قاله الناس فى ليديا بعد اندحار ملكهم فزعموا أن هاتف دلفى لم يخطئ وانما أخطأ كروسس فى فهم جوابه لتحمسه الحربى . لأن الهاتف كان قد قال له " ان هاجم كروسس الفرق ، فيدمر مملكة عظيمة " أى أنه يقضى بهجومه على مملكته العظيمة نفسها ، ولكنه أساء الفهم ، فظن أن الهاتف بشره بانهيار المملكة الفارسية .

وكذلك زعموا أن غوروش لما أمر باحراق كروسس فوق مصطبة الحطب ، تذكر كروسس ، وهو فوق المصطبة المشتعلة بالنار قول فيلسوف يونانى له فأخذ يتبسم وقد أخبروا غوروش بذلك فتأثر به أيما تأثر وأمر باطفاء النار حالا ، ولكن النار كانت قد تأججت وعجز رجال الملك عن اطفائها ، فنادى عند ذلك كروسس الاله " أپولو " وعلى رغم أنه لم يكن على السماء غيوم ، فقد أخذ المطر ينهمر ، فانطفأت النار فى لمحة من البصر ، وأنقذ الاله حياة كروسس بعد أن عجز عنه كل البشر !!

هذه هى مزاعم القوم ، ولكننا حين نرجع الى ما صرح به هيرودوتس وزينوفن نعلم الحقيقة . فقد قام كروسس بهجومه بعد أن تقوى قلبه ببشارة آلهة اليونان وقد اشتهرت البشارة قبل بدء الحرب ، فأراد غوروش أن يبطل ما اعتقده القوم ،

ويريهم أن الذين اتخذوهم آلهة ، لا يستطيعون لهم نصرا ، حتى أنهم لا يقدرون على انقاذ من أحبوه وشروه بالفتح من الاحتراق وهو حى ، ولذلك أمر غوروش أولا أن يقصدوه على خشبة الحطب ، ويشعلوا النار فيها ، ليرى الناس بأعينهم أن آلهتهم لا قدرة لها ، وأنه ليست هنالك معجزة تنقذ ملكهم من النار ، بل مصير رمادا تذروه الرياح . فلما تجلت هذه الحقيقة للعيان ، أطفئت النار بأمر الملك ونجا خصمه المكسور من الهلاك . وأن معجزة " ابولو " المزعومة في أسطورة اليونان لتشير صراحة الى الحقيقة التى أراد غوروش اثباتها بعمله ، ولذلك حاول القوم نقضها باختراع هذه المعجزة الواهية الكاذبة .

وجاء فى القرآن أن ذا القرنين قال : " وسنقول له من أمرنا يسرا " . أى ان أحسن القوم ، فيرون انه ليس فى معاملتى ما يشق عليهم أو يسوءهم . وقد شهد مؤرخو اليونان بأن معاملته كانت كما ذكره القرآن ، فقد كان هو للبلاد المغلوبة كله عطفا ورحمة . وقد نجاهم من كل ما كانوا يئنون تحته من الخراج الثقيل ، والضرائب الباهظة التى كان الملوك فى ذلك العصر يفرضونها على الرعية . وقد فتح يسر أوامر غوروش ورحمة قوانينه دورا جديدا للرخاء ورغد العيش للناس قاطبة .

خصائص غوروش العامة :

٦ ـ هذه كانت معاملته فى مهمته الغربية . أما كيف كانت عاداته وخصائله ؟ وماذا شهد به مؤرخو اليونان فى شأنها ؟ والى أى مدى تطابق هى ما ذكره القرآن عنها ؟

لا ينبغى لنا أن ننسى الأمر الواقع ، وهو أن المؤرخين الثلاثة الذين كتبوا عن غوروش ، لم يكونوا من قومه ، ولا من أبناء وطنه ودينه ، بل كانوا من اليونان ليس هذا فحسب بل لم يكونوا من أصدقائه ومحبيه ، فقد هزم غوروش ليديا وهزيمة ليديا كانت فى الحقيقة هزيمة لقومية اليونان ، والحضارة اليونانية ، ولدين اليونان . ثم خلفه داريوش وأردشير ، فأغارا على بلاد اليونان نفسها . وهكذا تولد العداء بين الشعبين وتمكن .

ثم أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة ألفوا كتبهم فى عصر أردشير أو بعده ، أى فى العصر الذى اشتعلت عواطف اليونان القومية فيه الى آخر حد ، وأخذ شعراء اليونان يكتبون أشد التمثيلات العدائية ضد الفرس ، وهى موجودة الى يومنا هذا . فما كان ينتظر فى مثل هذه الظروف العدائية من رجل يونانى أن يغنى بأناشيد المدح لعدو شعبه اللدود ، ويطلق العنان لقلمه فيجرى بالثناء عليه . ومع كل ذلك نرى كل واحد من المؤرخين الثلاثة يعترف بعظمة غوروش الخارقة للعادة وبفضائله الأخلاقية الفذة .

وهذا دليل قاطع على أن محاسن غوروش كانت قد اشتهرت اشتهارا ما كان يسع أحدا معه أن ينكرها أو يمارى فيها ، حتى ولو كان من أكبر أعدائه فقد شهدت بها الأعداء كالأصدقاء على سواء . ولله در من قال :

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ويقول هيرودوتس " كان (غوروش) ملكا كريما ، جوادا سمحا للغاية . لم يكن حريصا على جمع المال كغيره من الملوك ، بل كان حرصه على الكرم والعطاء . يبذل العدل للمظلومين ، ويحب كل ما فيه خير البشر " .

ويقول زينوفن " كان ملكا عاقلا ، رحيما . اجتمعت فيه مع نبل الملوك فضائل الحكماء . همته تفوق عظمته ، وجوده يغلب جلالته ، خدمة الانسانية شعاره "

وبذل العدل للمظلومين ديدنه ، حل فيه — مكان الكبر والعجب — التواضع والسماحة"

بروز شخصية غوروش :

٧ — وأظهر ما نجد في صفحات هؤلاء المؤرخين ، هو رفعة شخصية غوروش الفذة فقد أجمعوا على أنه لم يكن من نبت عصره، بل شخصا فذا ، كأنه سبق خلق عصره لم يعلمه معلم ، ولم يربه حكيم ، ولم ينشأ في بلد متحضر ، وانما كان ربيب الفطرة، وصنيع أيدي الحكمة الأزلية ، مضت الأيام الأولى من حياته في حجر الصحارى وكنف الجبال . كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس، فواعجبا ! لما برز هذا الراعي أمام أعين العالم ، كان أكبر مظهر للحكم ، وأعظم شخصية للحكمة والفضيلة !

لقد نشأ الاسكندر الأكبر على يد أرسطاطاليس ، ولاريب أنه كان فاتحا عظيما ، ولكن هل فتح زاوية من زوايا الانسانية والأخلاق ؟ لم يوجد لغوروش أرسطاطاليس يعلمه ، بل انه عوضا من المدارس البشرية ، نشأ في مدرسة الفطرة ومع ذلك لم يكتف بتسخير البلاد كالاسكندر ، بل سخر مملكة الانسانية والفضيلة كذلك .

ان عمر فتوح الاسكندر لم يتجاوز عمر الاسكندر نفسه ، ولكن المعاقل التي شيدتها فتوح غوروش ، صارعت حوادث الدهر الغلابة قرنين كاملين دون أن يصيبها تلف . ان الاسكندر لم يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى تقطعت أوصال مملكته المفتوحة ، ولكن غوروش عندما انتقل من الدنيا ، كانت مملكته مستعدة للتوسع والتمكن . لم يكن ينقص فتوحه الا مصر ، فأتم النقص ولده ، باستيلائه على مصر الخالدة ، وبرزت بعد بضع سنين تلك الامبراطورية العالمية التي لم ير العالم العتيق مثلها قط ، فبسطت سلطانها على ثمانية وعشرين قطرا من قارتي آسيا وأوربا ، وكذلك على مصر وكان على عرشها خلف غوروش ، يحكمها وحده بلا منازع !

كانت فتوح الاسكندر ، فتوحا مادية ، بينما فتوح غوروش شملت الجسد والروح معا . تولع الأولى رأسها ، فلا تقدر على البقاء ، بينما تبقى الأخرى غير متزحزحة !

اعتراف المؤرخين المصريين :

وقد اعترف بهذه الحقيقة محققوا التاريخ فى العصر الحاضر . فهذا المستر غرندى (GBEYundy) أستاذ جامعة اكسفورد ، والاختصاصى الثقة فى التاريخ القديم ، والذى ناله تأليفه " الحرف الفارسية الكبرى " قبولا عاما ، يقول فى مقال له :

" لقد كان نجاحه ، نجاحا عالميا . كان قبل اثنتى عشرة سنة أميرا مجهولا لامارة مجهولة وهى "انشان" فاذا بنا نراه قد خضعت له جميع تلك البلاد التى كانت مراكز العظمة للشعوب الكبيرة السابقة . فهذه البلاد التى ادعت ملكية الأرض فى أيامها لم يعد أحد منها يتجرأ الآن على ادعاء الزعامة لنفسه ، فمن بلاد سارغون ، الملك الأساطيرى للمملكة الأكاديمية الى بلاد بخت نصر ، امبراطور بابل ، سجدت كلها لهيبة الامبراطور الفاضل الجديد " .

" انه لم يكن فاتحا عالميا ، بل حاكما كبيرا كذلك . وان الشعوب لم تقبل الدور الجديد فقط ، بل رحبت به أيضا . ففى السنين العشرة الأخيرة من حياته بعد فتح بابل ، لم تحدث ولا ثورة واحدة فى مملكته الواسعة . أجل كانت رعيته تهابه ، ولكن لا تخشى قسوته ، اذ حكومته لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب ، ولم يكن المذنبون يجلدون ، ولا تصدر الأوامر بالمذابح العامة ، ولا تخاف الشعوب الجلاء من الأوطان ، بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع ، وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل . لقد محيت آثار مظالم الملوك الآشوريين والبابليين ، وارجعت الشعوب المنفية الى أوطانها ، وأعيدت اليها آلهتها ومعابدها ، لم يبق اعتساف ضد العوائد والعبادات القديمة "

" بذل العدل لسائر الشعوب ، ومنح الحرية التامة لجميع الأديان والمذاهب

(١)
وقد حل محل الخوف العام السابق ، عدل عام ، وسماحة كريمة ، ومساواة تامـــة"

أرأيت كيف يشرح ويفصل قصاص اليوم ما أجمله القرآن الكريم فى كلمات وجيـــزة من فضائل الرجل وخصائله الحميدة !

---

١ ــ راجع أيضا كتاب تاريخ العالم لهمرتن ، ج ٢ ص ١٠٨٥ :

((٥))

" معتقدات ذى القرنين المذكورة فى القرآن وغوروش "

وآخر وأهم ما يلفت نظرنا اليه من أوصاف ذى القرنين ، هو اخلاصه العبادة لله وحده ، وايمانه بالحياة الآخرة • وقد مر بنا ما ذكره القرآن منه ، فلننظر الآن هل كان غوروش كما وصف به ذو القرنين ؟

أجل تدل القرائن والشواهد كلها على ذلك •

فأول ما يواجهنا من الأمر ، هو عقيدة اليهود القومية فى المسألة •

صرحت صحف اليهود الدينية عن غوروش بأنه كان موعودا من الله ومسيحه بعثه الله لينفذ مشيئته ويتم مرضاته •

ومن المعلوم أن اليهود ماكانوا ليعتقدوا ذلك فى شأن رجل وثنى لا يوحد الله ، فلابد من أن يكون غوروش ممن يوحد الله ويؤمن به •

ولا يخفى أن عصبية اليهود الجنسية كانت شديدة جدا ضد الأجانب غير الاسرائيليين ، فما كان أشد على عصبيتهم القومية من أن يعترفوا لأجنبى بكرامة وشرف ، وقد شهدتم هذه العصبية نفسها فى بدء الاسلام من الاعتراف بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول بعضهم لبعض ، " ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم " (٣ : ٧٣) ولكنهم على رغم ذلك خفضوا جناحهم لفضائل غوروش الذى كان أجنبيا عنهم من كل الوجوه ، ولم يكتفوا بالاعتراف بكرامته ، بل حسبوه موعودا به على لسان الأنبياء وصفى الله ، فهذا الأمر الواقع يحملنا على البت بأنه كان فى دين غوروش ما استحسنه اليهود ، وهو الذى حملهم على الاعتراف بفضله رغم عصبيتهم ضد الأجانب •

ومن البديهى أن يحمد الانسان من أحسن اليه ويحترمه ، فما كان عجيبا من اليهود أن يغنوا بعظمة الملك الذى نجاهم من الأسر والذل ، غير مبالين بدينه ، ولكن الذى ما كان ينتظر منهم ، أن يقولوا عن ذلك الملك بأنه مرسل من عند رب اسرائيل وأنه من أصفيائه وأوليائه .

" مزديسنا " أى الدين الزردشتى :

لنرى الآن ما عندنا من المعلومات من معتقدات كورش الدينية ؟

اذا نظرنا الى الشواهد التاريخية ، نكاد نقطع بأن كورش كان يدين بدين مزديسنا ، أى انه كان يتبع الدين الذى جاء به زردشت الشهير (١) .

متى وأين ظهر زردشت ؟ لا نعلم حق العلم ، وقد ذكر مؤرخو اليونان فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد ما كان شائعا فى عصرهم عن زمنه ، فقالوا ، مضت عليه ألوف السنين . ولا يخفى أن اطلاق القول بالقدم كهذا لا يكون الا اذا بعد العهد

---

١ ــ الاسم الصحيح لاسم زردشت فى اللغة البهلوية " زاراتوشترا " حرفه اليونان فقالوا : " زارا سترو " والحروف الأخيرة للاسماء البهلوية كالسنسكرتية مهموزة دائما ، أى تنطق مفتوحة تقريبا ، ولاظهار هذه الحالة النصبية ، يكتبون الألف فى اللاتينية الحاضرة ، وعلى ذلك ينطق الألف الأخير من " زاراتوشترا " بصوت يشبه النصب . وتتبدل تاء الكلمات البهلوية القديمة فى بهلوية العصر الساسانى ، بالدال ، فمثلا " يزتا " الذى ذكر فى أوستا أصبح فى البهلوية الساسانية " يزدا " ثم حرفوه فقالوا " يزدان " وكذلك " امرتات " كان اسما لملك من الملائكة ، واسما لشهر فارسى كذلك ، تغير فى البهلوية الساسانية فأصبح " امرداد " وهذا هو ما وقع لاسم مؤسس الدين الفارسى ، فصار زاراتوشترا " زارادهشترا " ثم صار بكثرة الاستعمال " زردهشت " فقال الدقيقى : متى خسرون رنك وكيش زردهشتى . وجاء فى شاه نامه :

خجسته پئى نام أو زردهشت	كه أهريمن بدكيش را بكشت

وحرف العرب " زردهشت " هذا بدورهم فقالوا : زرتشت أو زردشت .

وضت عليه ألف أو أكثر من السنين ، ولكن علماء العصر الحاضر يرون أن القـــول مبالغ فيه ، فلا يتصور لزردشت مثل هذا القدم • وقال الاستاذ جلدنر (Geldner) ان زمن زردشت لا يتجاوز ستة قرون قبل الميلاد ، وقد قبل العلماء رأيه هـــذا ، فان كان الأمر كما ذكر ، فيكون زردشت وغوروش قد عاشا فى عصر واحد •

أما مكان ظهوره ، فترجح عند العلماء أنه ظهر فى ايران الشمالية ، نسمى بها آزربيجان (١) (آتر بايكان) بالكاف الفارسية) التى سميت فى الجزء المسمى ب " وندى " من أوستا بكلمة " ايريانا ويجو " أورياناديجو (٢) أى أرض ايريانا الطاهرة • وقـال كلدنر ان سلمنا برواية شاهنامة ، فيكون المقصود بفشتاسب (٣) ذلك الرجل الـذى كان والدا لداراپوش على رواية مؤرخى اليونان • وسواء ظهر زردشت فى زمن غـوروش أو تقدمه بقليل ، فليس هنالك ما يحملنا على الريب فى أن غوروش كان من متحمسى الدين الزردشتى •

أجل ، ليس عندنا من الشواهد التاريخية المباشرة ما يؤيدنا فيما قلناه ، ولكنا اذا نظرنا فى القرائن التى تركتها لنا النصوص التاريخية ، فلا مناص من الوصـــول الى ما وصلنا اليه •

---

١ ــ " آتر " فى اللغة البهلوية القديمة معناه النار • وقد حرفت الكلمة فصارت " آزر " ثم " آذر " وعلى ذلك " آتربائكان " معناه بستان النار ، وذلك لأنه توجد بهذه الأرض ينابيع الغاز ، والتراب فى بعض الأماكن يغلب عليه الزيت ، حتى اذا اقتربت منه النار اشتعلت ، فلا عجب أن سميت هذه البلاد بهذا الاسم •

٢ ــ قرأت هذه الكلمة فى قراءة اسبيغل " ويج " لا " ويجو " فجاء فى الآية الثانية من ونديداد فرغرد الأول " يقول أهورا مزدا ، ان أول ملك خلقته هو ايريانا ويج " وقد ذكر هو فى الآية الحادية والعشرين من هرمزديشت مع الصلاة عليه •

٣ ــ حرف اليونان اسم فشتاسب فقالوا " هوستازيز " (   ) وهو فى البهلوية القديمة " وستاسب " •

لنتدبر في حادثين تاريخيين لاشك فيهما وهو ثورة "غوموتا " التي نشبت بعد وفاة غوروش بثماني سنين ، وكتابات داراپوش على الصخور التي تلقي الضوء على معتقداته الدينية .

لقد أجمع المؤرخون على أن غوروش توفي سنة ٥٢٩ ق.م . وخلفه ولده ، كمبوشيه ("كم بي سيز " في اليونانية) الذي استولى على مصر في سنة ٥٢٥ ق.م . ثم علم ، وهو بمصر أن ثورة نشبت في مادا ، قام بها رجل يسمى " غوموتا " زاعما بأنه الولد الثاني لغوروش الذي كان يسمى " برديه " (سمرديز) في اليونانية وكان قد توفي من قبل ، فرجع كمبوشيه من مصر ، الا أنه مات في طريقه بالشام . ولما كان نسل غوروش قد انقطع بوفاة كمبوشيه ، فقد ارتقى العرش ابن عمه ، داراپوش فقضى على الثورة وقتل زعيمها . وكذلك أجمع المؤرخون على أن داراپوش ، ارتقى العرش سنة ٥٢١ ق.م . أي بدأ عهده بعد وفاة غوروش بثماني سنين .

وقد صرح مؤرخو اليونان أن ثورة مادا انما قام بها أتباع دينها القديم ، وقد وصف داراپوش نفسه زعيم الثورة بكلمة " موغوش " أي متبع دين مادا القديم (١) . وقد تكررت ثورات أصحاب هذا الدين فيما بعد كذلك ، فنشبت الثورة الثانية بزعامة موغوش " براورتيش " الذي قتل في هغ متانا ، أي همدان ، والثورة الثالثة قام بها " شترت خمه " الذي أعدم في أردبيل .

---

١ ـ وهنا ينبغي أن ننبه على خطأ شائع . نقلوا كلمة " موغوش " في اللغة العربية " مجوسا " وأطلقوها على أتباع الدين الزردشتي ، ولم يكن في الاصل اسما لهم فقد ثبت الآن بلا ريب أنه كان اسما يعرف به أتباع الدين الذي كان شائعا في مادا قبل زردشت ، فقد وردت الكلمة في أوستا كذلك واستعملت في شأن معارضي زردشت ، ولكن لما كان قد اشتهر أهل مادا في بلاد العرب والشام باسم موغوش أخذوا يسمون به اتباع زردشت كذلك . والغين في اسم " غوروش وموغوش " وأمثالهما أصلها كاف فارسية تشبه في النطق حرف G في الانجليزية وكما ينطق أهل القاهرة الجيم ، ولذلك كثيرا ما تكتب عند تعريبها جيما فلا غرابة اذا نطق العرب موغوش " مجوس "

أما كتابات داراپوش ، فان من حسن حظ التاريخ أنه اختار لها الصخور الجبلية التي عاشت على رغم الدمار الاسكندرى ، وأهم هذه الكتابات ، الكتابة التي اشتهرت بـ " الكتابة من دون عمد " يذكر فيها داراپوش تفصيل ارتقاءه العرش وثورة غوموتـا المجوسى •

وهنالك صخرة أخرى في اسطخر ذكر الملك في كتابتها أسماء البلاد التابعة له • وقد تكرر في هذه الكتابات اسم " اهورا مزدا " الذي يرجع الملك داراپوش جميع مساعيه الناجحة الى فضله وتوفيقه • ولسنا بحاجة الى التنبيه على أن "أهورامزدا" هو الله في الدين الزردشتي •

وينبغي أن لا ننسى هنا أنه لا يوجد فيما كتبه مؤرخو اليونان ما يستدل به على أن كمبوشيه أو داراپوش اختار دينا جديدا ، وقد ولد المؤرخ هيرودتس بعد وفاة داراپوش في سنة ٤٨٤ ق • م • وألف تاريخه بعد وفاته بنحو خمسين سنة ، فكان عصر داراپوش ليس بعيدا عنه ومع ذلك لم يذكر شيئا عن دين داراپوش •

ما معنى ذلك ؟ ان كان كمبوشيه وداراپوش لم يعتنقا دينا جديدا بعد غوروش وقد ثبت نهائيا أن داراپوش كان يتبع الدين الزردشتي ، أفلا يظهر من ذلك أن دين زردشت كان قد دخل في الأسرة المالكة قبل داراپوش وكمبوشيه ، ولذلك نرى أصحاب الدين القديم يثورون بعد وفاة غوروش بسنين قليلة مرة بعد أخرى ، أفلا يثبت ذلك جليا أن غوروش كان قد اعتنق الدين الجديد ، دين زردشت ، وأن رؤساء الدين القديم كانوا يحرضون العامة وغوغاء الناس باسم الدين ، ويحملونهم على الثورات •

كانت شخصية غوروش ، ثورة على الميول العقلية والاخلاقية لعصره ، وانا لا نجد لخصائله الروحية والأخلاقية معينا في البيئات العيلامية ، والأشورية ، والبابلية ، فلابد من أنه استقى من معين آخر ، ومما لا ريب فيه أنه وجد هذا المعين في تعاليم زردشت الأخلاقية المثلى : " هومت " و " هوخت " و " هوورشت " أي صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل • هذا هو أساس تعاليم زردشت الدينية • ومن مثل هذه الأخلاق كان يمكن أن يتكون مزاج غوروش الملكي •

وان ما نجده فى كتب ويدا الهندية من شعائر عبادة الآلهة والضحايا ، ربما كان شائعا مثله فى قبائل مادا وفارس المشتغلة بالزراعة . وكان شرب الخمر من الشعائر الدينية ، وان الشراب المسكر الذى ذكر فى كتب ويدا باسم " سوم " كان يسمى عند الماديين والفرس بـ " هوم " وأن زردشت ناجى الله فى أوستا فى شأن هذا الشراب فقال :

" الهى ، متى يؤثر رؤساء هذه البلاد الهداية على الضلال ؟ ومتى يتحرر الناس من شرور الكاربين والكاويين ؟ ومتى يقضى على هذا الشراب النجس الذى يخدعون به الناس ، فيستأصل أصله ويمحى أثره ؟ " (يسنا ٤٨ : ١٠) .

ويقول فى مكان آخر :

" ان هؤلاء الضالين المضلين يذبحون الذبائح ويقدمون الضحايا ، ويفرحون بعملهم " (يسنا ٣٢)

مزديسنا :

وقد دعى زردشت الى دين " مزديسنا " أى الى دين التوحيد الذى يحرم الشرك بالله وعبادة الأوثان .

وقد أبطل زردشت جميع معتقدات موغوش ، أى المجوس القدماء قائلا : ليس هنالك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عفاريت كثيرة للشر . بل انما هو اله واحد ، اسمه " أهورا مزدا " الذى ليس كمثله شئ ، وهو الواحد ، الأحد ، القدوس الصمد وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه فى ملكه وربوبيته شئ . وان القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير ، ليست بخالقة ، بل هى نفسها من خلق أهورا مزدا ، وهى تسمى " أمش سبند " (بالباء الفارسية) و " يزتا " أى الملائكة وانا لنجد فى جزء أوستا الذى يسمى بـ " گاتها " أسماء ملائكة عديدة مثل " أشا " و " هوفنا " و " خشترا " و " أرمتى " و " هورويتات " و " أمرتات " وكذلك ذكرت أسماء ملائكة أخرى فى الكتب التى تلت أوستا ، وقد سميت الأيام والشهور عند الفرس بأسماء هؤلاء الملائكة .

وكذلك صرح زردشت بأنه ليس للشر اله ، بل الذى يأمر بالشر ، هو " انضرامنى نيوش " أى الشيطان . وقد حرف الاسم ، فأخذوا يقولون : " آنرومين " وبعد مدة حرفوه ، كذلك ، فأصبحوا يقولون : " أهرمن " .

وان من العناصر الأساسية للدين الزردشتى ، الاعتقاد بالحياة الأخروية ، فهو يقول لا تنتهى حياة الانسان بموته فى هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، فيرى فى تلك الحياة عالمين : عالم السعادة وعالم الشقاء فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا ، يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور ، يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزردشتى الأساسية ، فهو يقول بفناء الجسم ، أما الروح فيبقى بعد الموت ويلاقى الجزاء وفق أعماله .

وأهم ما فى الدين الزردشتى هو قانونه الأخلاقى ، فليست الأخلاق فى نظره منفصلة عن الدين ، كما كان الأمر عند اليونان ، بل هى جزء من الدين ، لا انفصال بينهما . وكذلك لم يكن الدين عنده شعارا قوميا ، واسما لرسوم وعوائد ظاهرية فقط ، بل قانونا ونظاما للحياة اليومية . وان طهارة النفس وحسن العمل ، لهو المحور الذى تدور عليه تعاليمه الدينية . وهو يطالب بموافقة النية والقول والعمل لهذا القانون موافقة تامة . وهذا القانون يتلخص فى كلمات ثلاثة : هومت ، هوخت ، هوورشت ، أى صدق النية وصدق القول ، وصدق العمل . وان دينه ، كما قال الأستاذ غرندى " كان دين الحقيقة والعمل ، فقد جعل الدين حقيقة حياة الفرس اليومية ، وجعل مكارم الأخلاق ، عنصرا مركزيا له (١) "

وكان دينه لا تشوبه شائبة من الوثنية ، فهو لم يبح عبادة الأصنام فى شكل من الأشكال . وقد مضت على دينه أدوار من التحريف والتبديل ، الا أن متبعيه ما زالوا مجتنبين الوثنية . وقد اعترف بذلك " مالكهم " فى كتابه " تاريخ ايران " قائلا : " لم يجنح الفرس من بين الشعوب القديمة الى الوثنية من أى نوع فى دور من أدوار تاريخهم " .

---

١ - راجع مقال الاستاذ فى التاريخ العالمى (Universal History the World ج ٢ ص ١١٣٠

عرفت الهند القديمة كذلك التوحيد ، ولكن بقى تصوره محصورا فى الخاصة من أهاليها ، أما العامة ، فاستحسنوا لها الوثنية ، أما زردشت ، فلم يفرق فى ذلك بين العامة والخاصة ، فظل شعبه من سائر الطبقات يوحدون الله على السواء • ولا نكون مخطئين ان قلنا : لم ير التاريخ القديم الا دعوتين للأعوان الى التوحيد فى العالم الوثنى ، وهما دعوة ابراهيم عليه السلام من الشعوب السامية ، ودعوة زردشت من الشعوب الآريـة •

زردشت والثنويـة :

ظن الناس أن الدين الزردشتى قام على الالوهية الثنوية (   ) أى الاعتقاد بوجود الهين اثنين فى الكون : اله للخير ، واله للشر ، كما كان المجوس يعتقدون قبل زردشت ، ولكن ثبت بعد البحث والتحقيق أن هذا الظن ليس من الحق فى شئ • أجل قال زردشت بأصلين كونيين : أصل الخير ، وأصل الشر ، ولكنه لم يقل بالهين متوازيين• كما كان المجوس يعتقدونه قبله ، فقد أنكره هو انكارا تاما • نعم انه كان يقول بالأخلاق الثنوية ، لا بالألوهية الثنوية •

وقد حاول بعض الفرس الزردشتيين فى العصر الحاضر أن ينزهوا الدين الزردشتى عن الثنوية كلية ، الا أن محاولتهم هذه لا تخلو من التكلف ، ولم تكن ثمة حاجة اليها •

ماهى حقيقة الثنوية عند زردشت ؟ انها ليست الا القول بأنه يوجد فى الكون أصلان : أصل للخير وأصل للشر ، وأن الذى يجلب الشر هو " انغراس نهسوش " (أهرمن) وهو الشيطان فى لغته ، وهذه الثنوية لا يخلو منها دين ، وان تفاوتت درجات الأديان فيها ، فاليهودية والنصرانية والاسلام ، كل من هذه الأديان الثلاثة يقول بوجود الشيطان ، وان عمدنا الى تحليل " انغراس نهوش " الذى ذكره أوستا • والشيطان الذى حدثنا عنه كتاب الخلق من التوراة تحليلا منطقيا ، فاننا لا نجد بينهما فرقا جوهريا •

وهنا تعرض لنا مسئلة أساسية : أليس فى الكون شئ يصح أن يسمى بالخير أو الشر ؟ وهل الذى نسميه بالخير أو الشر ليس له وجود فى الخارج بل هو تأثر

اضافى لنا فقط ؟ ان قلنا بذلك فطبعا لا يبقى مجال لوجود الشيطان او انغرامنيوش ، ولكن ان قلنا بوجود حقيقتين متوازيتين للخير والشر ، فلا مناص من قبول الثنوية فى شكل من الأشكال ،وسواء سميناها بهذا الاسم أو بغيره ، فانها تحتل مكانها فى معتقداتنا .

وهذا أفلاطون ينقل لنا فى كتابه " الجمهورية " قول سقراط ، ان الشر فى العالم أكثر من الخير، ولما كان من المستحيل أن يكون الله علة الشر ، فلابد من البحث عنها فى شخص آخر . وهذا البحث يصل بنا الى الشيطان أو الى انغرامنيوش . وقد حكى كتاب الخلق من التوراة قصة آدم والشيطان وقص أوستا قصة " جم " و " انغرامنيوش " والحقيقة واحدة فى القصتين وأن اختلفت الأسماء والأشكال .

روح مزديسنا الأخلاقيـــة :

وقد اجتمعت كلمة محققى العصر الحاضر على أن تعاليم زردشت قد لعبت دورا هاما فى الرقى الانسانى الفكرى والأخلاقى ة وأنه وصل بأهل مادا وفارس قبل خمسمائة سنة من الميلاد الى المستوى الأخلاقى الطاهر الرفيع بينما كان اليونان والروم فى حضيض من الأخلاق . وأن الدين الذى جعل هدفه الوحيد تطهير الحياة الفردية من أدران الشرور ، كان خليقا أن يسبك قوالب مثالية للأعمال الحسنة والخصائل الحميدة .

ومن الذين شهدوا له بذلك ؟

هم أولئك الذين لا يمتون بصلة صداقة للفرس ، بل كانوا ألد أعدائهم . وعلى رغم ذلك نراهم لا يمارون فى فضل الفرس الأخلاقى ، فهذا هيرودوتس وزينوفن يعترفان صراحة بأن الفضائل التى تحلى بها الفرس ، خلت منها اليونان . ولنستعر من الأستاذ غرندى كلمته التى قالها فى هذا الباب " ان ما كان الفرس قد اتصفوا به من الصدق ومحاسن الأخلاق ، لا نرى له مثيلا فى الشعوب المعاصرة لهم " .

كتابات داراريوش :

بلغ الدين الزردشتى ذروة مجده فى عصر داراريوش . وهنا نحن أولاء نرى

الامبراطور يردد صوت هذا الدين في كتاباته الخالدة • على الصخور ، فيقول في واحدة منها ، وقد مضت عليها ألفان وخمسمائة سنة :

" ان الاله العلي ، أهورامزدا ، هو الذي خلق الأرض ورفع السماء ، وفتح سبل السعادة على البشر ، وهو الذي أقام دارايوش وحده حاكما على الكثيرين ، وجعله واضع الشرائع لهم " •

ويقول في كتابة أخرى :

" يعلن دارايوش للناس قاطبة بأن أهورامزدا ، قد وهبني الملك بفضله ورحمته وقد نجحت بتوفيقه تعالى في تدعيم الأمن والسلام في الأرض ، واني ابتهل الى أهورامزدا الهي ، أن يرعاني أنا ، وأسرتي ، وجميع البلاد التي جعلني حاكما عليها • يارب ، أهورامزدا ، اسمع دعائي واستجبه " •

الدعوة الى الصراط المستقيم :

وكذلك يقول الملك :

" يأايها الانسان ، أمرك أهورامزدا أن لا تخوض قط في الشر ، ولا تحيد عن الصراط المستقيم أبدا ، واحذر الاثم في جميع الأحوال ! "

ولا تنس أن دارايوش كان ابن عم غوروش ، وقد خلفه بعد وفاته بثماني سنين فقط وعلى ذلك ما يقول دارايوش ، فكأنه قول غوروش نفسه ، وان نسبة دارايوش ملكه وكل نجاحه الى فضل أهورامزدا وتوفيقه ورحمته ، تطابق قول ذي القرنين في القرآن " هذا رحمة من ربي " (٩٨)

تأخر مزديسنا وتحريفه وامتزاجه بغيره :

وقد بدأ تأخر الدين الزردشتي من القرن الثالث قبل الميلاد ، فرفعت المعتقدات المجوسية القديمة رأسها من جهة (٢) وأخذت المؤثرات الخارجية تعمل عملها فيه ،

---

1 - 6 Rawlinson' Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World

٢ - يشبه هذا ما حصل للديانة البوذية في الهند فقد طغت على الهندوسية والديانة القديمة مدة في الهند ثم انحسرت وتقلص ظلها وعاد أكثر الناس تدريجيا الى ... الديانة الهندوسية

حتى نرى هذا الدين ، دين غوروش وداراوش فى عصر الامبراطور الرومانى ، "أنتونين (Antonin) قد تحول الى شكل آخر ففقد سذاجته الأولى ، وانضمت اليه عقائد معوجة معقدة .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن حرب الاسكندر لم تقض على دولة الفرس السياسية وحدها بل جرحت مجد دينها القومى كذلك جرحا بليغا . تقول لنا الأسطورة الفارسية أن صحيفة زردشت الدينية المقدسة كانت دونت فى جلود اثنى عشر ألف ثور بحبر من الذهب ، واحترقت أيام حرب الاسكندر .

ولاشك أن القول بجلود اثنى عشر ألف ثور ، مبالغ فيه ، ولكن مما لا ريب فيه أن ما فعلت اغارة بخت نصر مع التوراة ، فعلته اغارة الاسكندر مع أوستا كتاب زردشت ، أى أن الدينين فقدا معظم بضاعتهما .

ولما تأسست الامبراطورية الساسانية بعد خمسمائة سنة من الاسكندر ، حاول الفرس لم شعث الدين الزردشتى من جديد ، فكما جمع النبى عزرا التوراة بعد أسر بابل ، كذلك يقال ان " أردشير بابكان " أمر بجمع كتاب أوستا من جديد الا أن خصوصيات الدين الحقيقية كانت قد تحرفت بتغييرات واضافات كثيرة ، ومسخت حقيقتها فالدين الزردشتى فى شكله الجديد ، لم يكن دينا خالصا ، بل أصبح خليطا من المجوسية القديمة ، واليونانية ، والزردشتية . وقد زاد المفسرون له الطين بلة وذلك بحواشيهم وشروحهم وتفاسيرهم التى ذهبت بالدين بعيدا عن أصله .

الأسلام والزردشتيون :

ولما جاء الاسلام ، كان هذا الدين الزردشتى المحرف معروفا للعرب باسم المجوسية وهذا خطأ كما سبق أن نبهنا فى الهامش - غيرأن نبى الاسلام صلى الله

عليه وسلم لم يخف عليه أصله ، فقال " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " أى عاملوا الزردشتيين كما تعاملون أهل الكتاب ، فترى من هذا أن نبى الاسلام عليه السلام لم يقم الزردشتيين مقام المشركين ، بل وضعهم بمقام أهل الكتاب .

وهكذا اعترف الاسلام لدينهم بما اعترف به دين اليهود والنصارى ، وانك لتعلم أن الاسلام بينما يصدق بأصل دين اليهود والنصارى ، ينكر عقائدهم المحرفة المبدلة . وهذا هو ما فعله بالدين الزردشتى ، فلم ينكر أصله ، بل أنكر المجوسية المحرفة المبدلة .

وقد روى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : (انى أعلم ما عليه المجوس . عندهم شريعة يعملون بها ، وكتاب يؤمنون به ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب) .

فما زال المسلمون يرون أن الدين الزردشتى فى أصله لم يأمر بعبادة النار ، بل أمر بالتوحيد ، وأن زردشت كذلك كان نبيا من الأنبياء القدماء . وقد أفصح الفردوسى صاحب " شاه نامه " الخالدة عن هذا الرأى بقوله :

مكوئى كه آتش برستان بدند   برستند كان نيك يزدان بدند

أى لا تقل عن الزردشتيين أنهم كانوا عبدة النار ، بل كانوا يعبدون الله الواحد .

وكان أبو الريحان البيرونى فى عصر الفردوسى يحقق التواريخ والسنين للأمم القديمة . وقد قال فى كتابه " الآثار الباقية " ما يستنبط منه أنه كان يفرق بين الدين الزردشتى والمجوسية . وقد صرح شيخ الاشراق ، شهاب الدين المقتول فى كتابه " حكمة الاشراق " بأن زردشت كان نبيا . ليس هذا فحسب بل وصل بين

(١) الخـــلافـــة

" الخلافة " : مصدر من خلف يخلف خلافة ، ومنها الخليفة ، من قولك : خلف فلان فلانا ، في هذا الأمر ، اذا قام مقامه فيه بعده (ابن فارس) . فالخليفـــة هو الذي يخلف من قبله ، ويقوم مقامه ، اما بموته أو اعتزاله أو غيبته أو نصبه اياه فـــي منصبه وسلطته ، وفي مفردات الامام الراغب الأصفهاني " الخلافة : النيابة عن الغـير اما لغيبة المنوب عنه ، واما لموته ، واما لعجزه ، واما لتشريف المستخلف " (ص١٥٥)

وهذه الكلمة أيضا من تلك المختارات اللغوية التي اختارها القرآن الحكيم ، فنقلها من معانيها اللغوية الى المعاني المصطلحة الشرعية (كالايمان والغيب والتقدير والبعث والصلاة) وغيرها من الكلمات التي انتقاها من اللغة لمعنى خاص به ، فكلمة (الايمان) مثلا تستعمل في اللغة لليقين والطمأنينة وزوال الخوف والشك ـ ولكن القرآن يستعملهـا في يقين أخص من الأول ، يصحبه اقرار باللسان وعمل بالجوارح ، فصارت اصطلاحـــا خاصا دالا على معنى خاص به دون دلالتها في اللغة .

وكذلك كلمة الخلافة كان معناها في اللغة ، فوضعها القرآن لمعنى أخص مـــن الأول ، واستعملها ـ وكذلك الاستخلاف في الأرض ، ووراثتها والتمكين فيها ـ فـــي العظمة القومية ، والرئاسة الملية ، والحكومة العامة ، والسلطة التامة على الأرض ومن فيها من الامم والشعوب ، وعدها أكبر منة وجزاء من الله سبحانه تناله الأمم في هذه الحياة الدنيا ، على ايمانها وحسن عملها .

١ـ نشر هذا البحث في مجلة المنار في المجلد الثالث والعشرين الصادر سنة ١٣٤٠ ، ١٣٤١ هـ الموافق سنة ١٩٢٢ صفحات ٤٥ ـ ١٠٢ ـ ١٩٣ ـ ٢٨٢ ـ ٣٦١ ـ ٤٦٦ ـ ٥٠٩ ـ ٦٩١ ـ ٧٥٣ . وقد تعرض السيد رشيد بالنقد في الهامش لبعض آراء مولانـا أزاد حول الخلافة وكان السيد عبدالرازق تلميذا للسيد رشيد رضا كذلك في مدرســة الدعوة والارشاد حيث قضى مدة بمصر وظل يراسل أستاذه كذلك بعد رجوعـــه للهنـــد وهو الذي قام بترجمة هذا البحث .

اما المراد من هذه الخلافه فهو ان تقوم في الارض امه وحكومة تأخذ على عاتقها هداية النوع البشري وسعادته ، وتنشر لواء القسط الالهي ، وتمحق الظلم والجور والضلال والطغيان ، حتى لاتذر له اثرا على وجه البسيطه • وتمد رواق الامن والسكينة والراحة والطمأنينه على العالم باسره وتقيم ناموس العدل الالهي الذي يسميه القرآن " الصراط المستقيم " الذي هو نافذ من الارض الى السموات العلى ، ومن ذرات الرمل في الصحراء الى الشمس والقمر والنجوم وما هو تحت الثرى ، تقيم ذلك الناموس في مشارق الارض ومغاربها ، وتنفذه في جميع بقاعها ونواحيها ، حتى تصبح الكرة الارضية جنة ودار قرار ، وتكون السعادة ضاربه فيها بأطنابها والامنة باسطة جناحيها من فوقها •

وانما اطلق لفظ الخلافة على هذه الخلافة المصطلحة ، لان اول امه واول فرد لما قام في الارض باعباء الخلافة كان نائبا عن الله في اقامه عدله ، ثم الذين جاءوا بعد تلك الامه وذلك الفرد كانوا نائبين عنهم في هذا الامر ، حتى ظهر الاسلام ، وقامت الامه الاسلاميه ، فانتقلت الخلافة الارضية الالهية اليها • فكان اول خليفة من هذه السلسلة المباركة صاحب الشرع المتين ، ورسول رب العالمين محمد صلى الله وسلم ، فكان خليفة الله العظيم مباشرة ، ثم الذين استووا بعده على منصه الحكومة الاسلامية المركزية ، فكانوا خلفاء هذا الخليفة الالهي ، والنائبين عنه في الدنيا فلذا سموا " الخلفاء " ولا يزالون يسمون به الى الان •

وقد تقلبت خلافه الارض ووراثتها في امم كثيرة قامت كل واحدة منها في نوبتها بخدمه دين الله الحق • وقد ذكرت هذه الخلافه في الايات الاتية : " هو الذي جعلكم خلائف الارض " (٦ : ١٦٥) " ويستخلف ربي قوما غيركم " (١١ : ٥٧) " ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون " (١٠ : ١٤) " واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح " (٧ : ٦٨) " يا داود انا جعلناك خليفة في الارض " (٣٨ : ٢٦) •

وعبر عن هذه الخلافة " بوراثة الارض فقال تعالى : " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون (٢١ : ١٠٥) وايضا : بالتمكن في الارض ، وهو استفحال القوة ، وكمال العظمه الذي ناله فتى اسرائيلي في ارض الفراعنة

بعد أن بيع فيها عبدا ، ثم وصل الى عرش الحكومة وتاج الملك بعلمه الحق وسيرة القويم " وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض " (١٢ : ٥٦) .

وقد وعد الله به سبحانه المسلمين فقال : " الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور " (٢٢ : ٤٣) وثبت أيضا من هذه الآية أن الله تعالى انما يريد من التمكن فى الأرض أن تقام عبادته فيها ، ويعم الصلاح والصدق والهداية ، ويصد الانسان العنود عن غيه وعمل المنكر .

وعبر فى الآية الأخرى عن التمكين فى الأرض " بالخلافة " فقال تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون " (٢٤ : ٥٥) .

نزلت هذه الآية العظيمة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة ، وكانوا فيها خائفين من الكفار ، ومحاطين بالأعداء من كل جهة : يصبحون فى السلاح ، ويمسون فى السلاح ، فضجر منهم رجل من هذه الحالة وقال : " ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ، فبشرهم الله بهذه الآية أن لا يهنوا ولا يحزنوا فانه لا يضيع أجر ايمانهم وحسن صنيعهم ، فسينالونه باذنه ، ويأمنون أعداءهم ، فيذهب عنهم الخوف ، ويحل محله الأمن ، ويصيرون ملوكا وسلاطين ، فيكون الأمر أمرهم ، والكلمة كلمتهم ، وأكبر من ذلك كله أن خلافة الله ستنتقل اليهم ، فيرثونها وتطمئن قلوبهم بها (ذكره الطبرى بالمعنى فى تفسيره عن أبى العالية (ج ١٨ص ١٠٩) .

وقد تضمنت هذه الآية أن مراد القرآن الحكيم " بالخلافة " انما هو " خلافة الأرض " أى الحكومة والسلطان فيها . فاذا لابد للخليفة الاسلامى من أن يكون صاحب الأمر والنهى والحكومة التامة ، لأنه ليس كبابا المسيحيين وبطارقتهم ، فأولئك سلطتهم روحية ، وهى خضوع القلوب ، وانحناء الرؤوس أمامهم . بل هو حاكم وسلطان بالمعنى الحقيقى ، الا أن سلطته يجب أن تكون تحت الشريعة الالهية ، وليس له حق التشريع

البته ، ولا اعطته الشريعة سلطة دينيه روحانية كما اعطت المسيحية البابوات ، لانهـا تعد كل سلطة لغير الله ورسوله شركا به وكفرا ، تمقته اشد المقت ، وتسحقه من اول ظهـوره قال الله تعالى : " اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله " (٩ : ٣٢) وقال : ماكان لبشر ان يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون اللـه ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (٣ : ٧٩) .

هذا وقد وفى الله تعالى للمسلمين وعده بالخلافه ، كما وفى جميع وعوده ، وعهوده ، فلم تمض بضع سنين والرسول بين اظهرهم ، الا واصبحت جزيرة العرب في قبضة يدهـم وشوهدت جيوشهم خارجة من اسوار المدينه لمقاومة الروم ـ اعداء دينهم ـ وسيقـت الخلافة الارضية اليهم بعد ان نزعت من غيرهم . فكان اول خليفة منهم هو حامل الشريعـة الغراء بنفسه صلى الله عليه وسلم ثم الذين قاموا في مقامه من بعده كانوا خلفاءه . وقد اوضـح النبي صلى الله عليه وسلم بتسميتهم " خلفاء " انهم ينوبون عنه بعده ، فقال للمسلمين : " عليكم بسنتي وسنه الخلفاء الراشدين من بعدي " (رواه ابن ماجة عن العرباض بن سارية) ولذا سمي ابو بكر الصديق رضي الله عنه لما خلفه خليفة رسول الله صلى اللـه عليه وسلم .

الخلافـة النبويـة الخاصـة
والخلافة الملكيـة

انصبغت الخلافة الاسلامية بعد النبي صلى الله عليه وسلم بصيغتين مختلفتين وظهرت بمظهرين متباينين ، وكان عليه السلام قد اخبر عنهما ، ورفع الستار عن خصائصهما والاحاديث التـي وردت في هذا الباب تكاد ان تكون متواترة لكثرة طرقها وشهرة متونها ـ فخلافه الخلفاء الراشدين المهديين كانت مصبوغة بصبغة الرسالة ، وسائرة على منهاج النبوة ، فكانت خلافة الرسول حقا ، والخلفاء الراشدون خلفاء ، حقا لا في منصب الحكم والسلطان فحسب ، بل في جميـع اعماله وهديه ، فكانوا مثله دعاة الدين هداة الامم ، قضاة الشرع ، قادة الشعوب ساسة البلاد ، قواد الجيوش ، اخوة الحروب ، رايات .

وقد كان هذا الدور أكبر مصيبة ابتليت بها الأمة ، فبعد أن كانت ترتع فى بساتين النبوة ، وتجنى ثمار الخلافة الراشدة آمنة مطمئنة اذ نعق ناعق الشر بينها ، وقتـل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه بين يديها ، تقلص ظل هدى النبـوة شيئا فشيئا ، وذهبت بركاتها واحدة واحدة ، وأخرجت البدع رؤوسها ، وزحفت الفتن بخيلها ورجلها ، فأحاطت بها من كل جوانبها ، فكلما بعدت الأمة عن عهد الرسالة حرمت نصيبا من بركاته وبركات الخلافة الراشدة .

ولم يكن حرمانها محصورا فى أمر الامامة العظمى والخلافة الكبرى فقط ، بـل تعداها الى غيرها ، وتغلغلت جراثيم الفساد فى هيكلها الاجتماعى ، فزعزعت نظامهـا وقوامها ثم سرت الى حياتها الشخصية ، فأفسدت عقائدها وعواطفها ، ونفثت فى أعمالها سمومها ، فغيرت من صغيرها وكبيرها — ولم تكن فتنة واحدة أو فتنا قليلة محصـورة يسهل اتقاؤها ، بل سالت سيول من الفتن دهمت المسلمين بغتة ، فماجت عليهم أمواجها وثقلت عليهم وطأتها ، فكانت — كما قال أعلم الصحابة بالفتن حذيفة رضى الله عنه — " تموج كموج البحر " ، وبين لهم أنه ليس بينها وبينهم سد الا عمر بن الخطـاب رضى الله عنه ، وانه متى سقط هذا السد المنيع طغت السيول الجارفة وبغت ، فلـم يقدر أحد على صدها ، فما زالت حتى أخذت الخلافة النبوية فى تيارها وحطمتهـا وتركتها أثرا بعد عين .

نعم وقع ما وقع ، الا أن الأمة الاسلامية قد بشرت على لسان نبيها بأنها ستـرى فى آخر أيامها عهد نجاح وفلاح ، تقتر به عينها ، وينشرح صدرها ، وتصلح أمورهـا حتى لا يدرى أولها خير أم آخرها ، ويتم فيه نور الله " والله متم نوره " الخ " ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " ولذا لا يزال قلب المؤمن قويا برجاء الله ، مملـوءا باليقين ، لم يخالطه ريب ولا دخله زيغ ، ولا صادفه يأس وقنوط ، حتى فى هذا الزمان الذى انصبت فيه على المسلمين المصائب ، ونزلت بهم النوازل ، وزلزلوا فيه زلزالا شديدا . بل كلما ازدادت العواصف شدة والليل ظلمة ، والأرض عداوة ، يزداد المؤمن رجـاء ويقينا ، ويبصر بعينه نور الصبح الجميل من بين هاتيك الظلمات والغيوم والعواصف ولسان حاله يقول " ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ " .

عهد الاجتماع والائتـــلاف
ودور التشـــتت والانتشـــــــــار

==========

قبل أن نخوض غمار هذا البحث نتكلم فى هذا الفصل على كلمتين مصطلحتين زيادة فى الايضاح وتفصيلا للبيان — نقول :

" الاجتماع والائتلاف " كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، فيهما سر حياة الأمم ومماتها ، نهوضها وهبوطها ، وسعادتها وشقوتها . فالاجتماع مــــن الجمع ، وهو ضم الشئ بتقريب بعضه من بعض (مفردات ص ٩٥) ويقرب منه "الائتلاف" من الألف واجتماع من التئام . " والمؤلف ما جمع من أجزاء ، ورتب ترتيبا ، فقدم فيــه ما حقه أن يقدم ، وأخر فيه ما حقه أن يؤخر " . (مفردات ص ١٩) .

أما عهد الاجتماع والائتلاف " فهو ذلك العهد الذى تجتمع فيه القوى الاجتماعيــة الفعالة فى مكان واحد ، وفى نقطة واحدة ، وفى سلسلة واحدة ، وفى ذات واحـــدة ، وفى يد واحدة ، بترتيب طبيعى لائق بها ، فتصبح كل المواد والقوى والأعمال الاجتماعية وأفراد الأمة متماسكة متشابكة ، حتى لا ترى فيها خللا ولا خرقا ولا فتقا . بل تجدهــا كلها كحلقات السلسلة التى التحم بعضها مع بعض فأصبحت شيئا واحدا .

فدور الاجتماع والائتلاف اذا جاء على المادة ظهر فيها الخلق ، واستعدت للحياة ، وعبر القرآن عن هذا " بالتخليق والخلق والتسوية " فقال " الذى خلق فسوى "(٢:٨٧) — فالوجود والحياة ليس الا اجتماع لأجزاء المادة مؤتلفة ، وكذلك الموت والفناء ليــس الا تفرقها وتشتتها .

واذا جاء على الأعمال سماه علماء الأخلاق " بالخير " وسمته الشريعة " بالعمـــل الصالح " — والحسنات " واذا جاء على الجسم سماه علم الطب " بالصحة " وقــــال الطبيب " هذه حياة " ثم اذا جاء على القوى والأعمال الاجتماعية القومية سمى " بالحياة الملية الاجتماعية " وكان موجبا لنبوغ الأمة ونفوذها وسلطانها — فالعبارات مختلفة كثيرة . والحقيقة واحدة لا تتعدد ولا تتبدل . ولا غرو فان الله الحكيم واحد منفرد . وحكمتــه

واحدة • وناموسه واحد ــ ولنعم ما قيل •

عباراتنا شتى وحسنك واحــــد •°• وكل الى ذلك الجمال يشير

وضد الاجتماع والائتلاف " التشتت والانتشار " فالتشتت من " الشتات " ومعناه فى اللغة التفرق يقال شت جمعهم شتا وشتاتا • وجاءوا اشتاتا أى متفرقى النظـــام (مفردات ص ٢٥٦) وفى القرآن " يومئذ يصدر الناس أشتاتا " (٦/٩٩) مـــن نبات شتى (٥٣/٢٠) وقلوبهم شتى (١٤/٥٩) اى مختلفـة " والانتشار " من النشر وهو ايضـا التفرق والبسط كما فى القرآن " فاذا قضيـت الصلاة فانتشـروا " أى تفرقوا ــ

واما دور " التشتت والانتشار " فهو ان تتفرق المواد والقوى والاعمال والافـراد فيصير كل شئ على ضد ماكان عليه فى عهد الاجتماع ــ فاذا عرضت هذه الحالة للمادة قيل " فساد وانحلال " وللجسم قيل " مرض وداء ثم موت " وللاعمال قيـل فى تعبير القرآن " عمل السوء والعصيان والفسق والاجرام " وللامم قيل " المـــوت الملى • والموت الاجتماعى " فتصبح الامة فى هذا الدور فى هبوط بعد الصعـود وذلة بعـد العزة • وضعف بعد القوة • وعبوديـة بعد الحريـة والسيادة• ثـم تسير الى الموت والهلاك بعد ان كانت صحيحة قوية حية فيالك من بلاء ليـــس فوقـه بلاء والعياذ باللـه •

ولذلك تجد القرآن ينبه مرة بعد مرة على ان " الاجتماع والائتلاف " الاساس الاكبر لحياة الامم • ويعده اكبر نعمة من اللـه سبحانه على البشر • ويعبر عنـه بالعبارات العظيمة الشأن " كالاعتصام بحبل الله " وغيره • ويقول للأمة " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقـوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بيـــن قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا " ثم يخبر بعـد هذا بان لاحياة مع التشتت والانتشار فانـه نار موقـدة تحرق كل شئ يقربها ولا سيما شجرة الحياة الاجتماعية• فانهـا اذا مستها لا تبقى عليها ولا تـذر ــ فقال تعالى " وكنتم على شفا حفـرة مـن النار فانقـذكم منها • كذلك يبين الله لكم اياتـه لعلكم تهتدون " (١٠٣/٣) ثم يخبر بان الحياة الاجتماعيـة فى الأمـــــــــــــــم

الأمم ليست من تدبير البشر (١) ، فمهما بلغ الانسان من القوة والعظمة والعقل ، لا يقدر على أن يكون أمة ، بل هو الله الواحد القدير يجمع الأشتات ويؤلف بينهما ويسلكهما في نظام واحد فقال " لو أنفقت ما في الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم " (٨/٦٤) .

وأخبر القرآن أيضا بأن أول ثمرة تثمرها الفريضة الآلهية وأعظم بركة تجود بهما على النوع الانساني في الدنيا هي " الاجتماع والائتلاف " وكرر مرة بعد أخرى أن التفرق والتشتت والانتشار لا يجتمع مع الدين أبدا ، وأنه عاقبة الاعراض عن الله وعصيانه والبغي فيه . فقال " وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (٢/٢١٣) وما اختلفوا حتى جاءهم العلم " (١٠/٩٣) وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم " (٤٥/١٦) .

ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام والحياة الاسلامية في الجماعة وعد الخروج عنها من الجاهلية ، والحياة الجاهلية ، فقال " من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية " (كما ستراه مفصلا ان شاء الله) وأمر المسلمين أمرا مؤكدا بالتزام الجماعة في كل حال ، وطاعة الأمير سواء كان برا أو فاجرا ، أهلا للأمارة أو غير أهل ، عادلا في حكمه أو ظالما ، الا أن يمرق من الدين جهارا أو يترك الصلاة فحينئذ لا طاعة له عليهم (٢) ــ وأخبر أن كل من تنكب عن الجماعة شبرا فقد كسب

---

١ ــ ليس المراد أنه لا ينبغي لزعماء الشعوب والأقوام المتفرقة أن يسعوا الى تكوينها وجعلها أمة عزيزة لعجز البشر عن ذلك بل المراد أن هذا التكوين للأمم قد جعل بسنة الله تعالى في الاجتماع أثرا وغاية لأعمال أطوار كثيرة بعضها من كسب الافراد وبعضها ليس من كسبهم فلا تقع بتدبيرهم ولكن عليهم أن يعملوا ما في طاقتهم من وسائلها ويكلوا الى عناية الله تعالى انجاح سعيهم واتمام عملهم .

٢ ــ انما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما صح في الحديث وأجمع عليه المسلمون ، وصرح الخلفاء الراشدون على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم بمطالبة المسلمين بتقويم زيغهم وعوجهم ، وانما يمتنع عند علماء اهل السنة الخروج على الامام الجائر اذا كان يخشى من الخروج عليه فتنة تفرق الأمة وشق عصاها لضعف القائمين بذلك من الأمة ، واذا كان المؤلف قد وعد بتفصيل ــ القول في المسألة فاننا منتظرون ما يجيء به فاما أن نقره واما أن نذيله بحاشية نبين فيها ما نرى انه الحق كما بيناه في المنار مرارا .

زردشت وبين المذهب الافلاطوني الجديد (١) ، ووافقه في قوله ، شارح " حكمة الاشراق " قطب الدين الشيرازي . وقد صرح من بين متصوفي الهند ، الصوفي السمح ، الواسع الفكر الميرزا مظهر جان جانان بمثل هذا الرأي في شأن قادة الأديان القدماء بالهند وايران " (٢)

ولما نقل العرب ما وجدوه من الكتب الفارسية القديمة الى اللغة العربية ، ترجموا كذلك كتاب (أوستا) الذي دون في العصر الساساني ، واليه يشير مرة بعد أخرى أبو حمزة الأصفهاني في تاريخه . وكذلك بين المسعودي والبيروني نوعية أوستا ، وذكرا ترجمته العربية ، فقالا ، ان أوستا يحتوي على واحد وعشرين جزءا يكتب كل جزء منها في نحو أربعمائة صفحة ، وأنه يسمى أحد الأجزاء بـ " جسترشت " الذي ذكرت فيه بداية العالم ونهايته ، ويسمى الجزء الأخير منها بـ " هادوخت " الذي يحتوي على وصايا أخلاقية (٤).

---

١ ـ نفي الفلاسفة من الاسكندرية بأمر امبراطور الرومان جستينين في سنة ٥٢٩ م . فتوجه بعضهم الى ايران ولقوا كل ترحيب في بلاط أنوشروان ، وقيل ان : سمس تس ودبط ستس ، قد خصا باحترام كبير في البلاط ، وقد عرفت اللغة الفارسية مذهب أفلاطون الجديد بسبب هؤلاء الحكماء ، وليصبغوه بالصبغة القومية ، نسبه بعض حكماء ايران الى زردشت وجاماسب ، ولما نقلت الآداب الفارسية الى العربية توهم الناس أنه كانت لزردشت وجاماسب فلسفة ذات أسرار ، تشبه فلسفة الاسكندرية الى حد كبير ، ولعل الذي كتبه شيخ الاشراق في مقدمة " حكمة الاشراق " ناتج من هذا الوهم . وقد أخطأ حكماء العرب في ظنهم أن مذهب أفلاطون الجديد الاسكندري ، مذهب أفلاطون نفسه . وقد وقعوا في هذا الخطأ لأنهم لم يفرقوا بين بلاتينس وأفلاطون ، أو خدعتهم نسبة المذهب الى افلاطون .

٢ ـ كلمات طيبات ، مكتوب ١٤ ص ٢٧

٣ ـ تاريخ سني ملوك الأرض ص ٦٤ ٤ ـ المسعودي ج ٢ ص ١٢٦ والآثار الباقية ص ١٠٥

ومن المؤسف أن نسخة أوستا العربية هذه التي كانت موجودة الى القرن الرابع من الهجرة ، كما صرح به أبو حمزة الأصفهاني ، قد فقدت ، ولم يبق لها أثر في دور الكتب العالمية الحاضرة • وكل ما عندنا من الذى يسمى بأوستا ، هو جزء ناقص من أوستا العصر الساساني الذى وصل الينا بواسطة الفرس الزردشتيين المهاجرين الى الهند • ونحن مدينون لمساعي المستشرق الفرنسى " آنك تيل " وتضحياته العلمية في معرفتنا بهذا الجزء وأما محتوياته ، فنجد على خمسة فصول (غاتهــا) منه صحة من العصر الزردشتي ، والباقي ينطق بلسانه أنه دون في العصر الساساني أو بعده •

(سد يأجوج ومأجوج)

ها نحن قد فرغنا من البحث في شخصية ذى القرنين ، ولم يبق لنا الا النظر في مسألة يأجوج ومأجوج ، فيا ترى أى سد أريد به ؟ وأين نبحث عنه في أوراق التاريخ وفي خريطة الأرض الجغرافية ؟

وعلينا أن نتذكر في معالجة هذا البحث أن القرآن ذكر أمرين من السد بخصوصية وهما :

أنه اى السد ، بني في مكان ارتفعت الجبال كجدارين على جانبيه ، أى كان المكان مضيقا جبليا •

وأن السد الذى أقيم به ، استخدمت فيه زبر الحديد (أى قطع الحديد) وأفرغ عليها النحاس المذاب •

وعلى ذلك يجب

١ ــ ان نجد السد في مضيق جبلي ٢ ــ وأن يكون هوجدارا حديديا لا جدارا من الحجر والاجر •

٣ ــ ويكون قد سد بابوة المضيق الجبلي •

نبهنا الى هذه الأوصاف لأن مفسرينا غضوا النظر عنها ، فهم اذا سمعوا بوجود جدار فى مكان ما ، سبق الى أذهانهم أنه هو السد الذى بناه ذوالقرنين حتى أن المرحوم الشهير السيد أحمد (خان) من الباحثين المصريين ، ذهب الى أن جدار الصين هو سد ذى القرنين ، فى حين أن هذا الجدار لا يمكن أن يكون ذلك بحال ، لأنه لم يبن فى مضيق جبلى ، ولا استخدمت فيه قطعات الحديد ، بل هو جدار من الحجر يمتد الى مئات من الأميال .

يأجوج ومأجوج :

ولنبحث عن يأجوج ومأجوج أولا : فاذا وجدناهم ، سهل علينا الوصول الى السد .

ذكر القرآن يأجوج ومأجوج فى سورتين ، فقال فى سورة الأنبياء " حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون " (٢١ : ٩٦) وفى سورة الكهف التى قصت قصة ذى القرنين .

ان كلمتى " يأجوج " و " مأجوج " تبدوان كأنهما عربيتان ، ولكنهما فى أصلهما قد لا تكونان عربيتين ، انهما كلمتان أجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية ، فهما تنطقان باليونانية (گاگ Gog) و (ماگاگ Magog) وقد ذكرتا بهذا الشكل فى الترجمة السبعينية للتوراة ، وراجتا بالشكل نفسه فى سائر اللغات الأوروبية .

وقد ورد هذا الاسم لأول مرة فى التوراة فى كتاب الخلق عند ذكر خروج أمم العالم من ذرية نوح ، فقال " ولد ليافث بن نوح ، جمر ، ومأجوج ، ومادى ، ويونان وتوبال ، ومسك ، وتيراس " (١٠ : ٢) .

ثم تكرر ذكرهم فى الصحف الأخرى وقد ذكروا بصراحة وتعيين واضحين فى صحيفة حزقيال كما ستراه ، وكذلك جاءت نبوءة بظهورهم فى مكاشفات يوحنا فى

العهد الجديد .

فمن كان هؤلاء القوم ، ياترى ؟

لقد تضافرت الشواهد التاريخية على أنهم لم يكونوا الا قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية ، تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخى الى القرن التاسع الميلادى نحو البلاد الغربية والجنوبية وقد سميت بأسماء مختلفة فى عصور مختلفة ، وعرف قسم منها فى الزمن المتأخر باسم " مغر " فى أوربا ، وباسم التتار فى آسيا .

ولاشك أن فرعا لهؤلاء القوم ، كان قد انتشر على سواحل البحر الأسود فى سنة ٦٠٠ ق ٠ م ٠ وأغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز .

وقد سماه اليونان باسم " سى تهين " (   ) وذكر بنفس هذا الاسم فى كتابة دارايوش باسطخر . ولنا أن نجزم بأن هؤلاء هم الذين شكت غاراتهم الشعوب الجبلية الى غوروش ، فبنى السد الحديدى لمنعها .

<u>القبائل المنغولية واليواشية :</u>

تسمى هذه البقعة الشمالية الشرقية من الأرض بـ " منغوليا " وقبائلها الرحالة بـ " منغول " وتقول لنا المصادر الصينية ان أصل كلمة منغول ، هو " منكوك " (بالكاف الفارسية بعد النون) أو (منجوك) (بالجيم الفارسية) وفى الحالتين تقرب الكلمة من النطق العبرى " ماكوك " (بالكافين الفارسيتين) والنطق اليونانى " مكاك " (بالكافين الفارسيتين) . ويخبرنا تاريخ الصين عن قبيلة أخرى من هذه البقعة ، كانت تعرف باسم " يواشى " (Yuechi) والظاهر أن هذه الكلمة مازالت تحرف عند الأمم حتى أصبحت " يأجوج " فى العبرية .

منغوليا مهد الشعوب القديمة :

ان الجزء المرتفع من الكرة الأرضية الواقع فى الشمال الشرقى الذى يسمى الآن منغوليا وتركستان الصينية ، كان مهدا لشعوب قديمة لا تحصى . كان معينا بشريا تتدفق مياهه وتتجمع ، حتى اذا بلغت النهاية ، طفت وانصبت الى الغرب والجنوب .

وجدت الصين فى الشرق منه ، وآسيا الغربية والجنوبية فى غربه وجنوبه ، وأوربا فى الشمال الغربى منه ، فما زالت سيول القبائل والشعوب تتدفق ، فيستوطن بعض القبائل آسيا الوسطى والبعض الآخر يتقدم فيصل الى أوربا ، أو ينزل بآسيا الغربية والجنوبية .

وكانت هذه القبائل بعد خروجها من مسقط رأسها ، وحط رحالها فى البلاد الجديدة ، تفقد خصوصياتها الأولى وتصطبغ بصبغة أوطانها الجديدة ، فتصير على مرور الأيام شعوبا بنفسها . ولكن كان موطنها القديم لا تتغير أحواله ، ولا تزال تنشأ فيه قبائل جديدة وتتدفق فى دورها الى الخارج كأخواتها السابقة .

لا تتغير هذه البقعة بل تظل على همجيتها القديمة ، ولكن الذين كانوا ينزحون منها ويسكنون البلاد الأخرى ، يتحضرون مع مر الزمن ، فتختلف حالتهم الجديدة عن الحالة القديمة ، فبينما كانت المدنية تهذبهم وتزيل بربريتهم فيشتغلون بالزراعة والصناعة ، ويعيشون عيشة سهلة هنية ، كان اخوانهم فى مسقط رأسهم يظلون على حالتهم الأولى من الهمجية والخشونة والقسوة ، ولذلك يظلون شبحا مخيفا للمتحضرين .

الأدوار السبعة لخروج يأجوج :

يسهل علينا أن نقسم زمن خروج هذه القبائل الى سبعة أدوار:

فالدور الأول منها كان قبل العصر التاريخى عندما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقى ، وتنتشر فى آسيا الوسطى ٠

وكان الدور الثانى فى فجر التاريخ ، فنرى فى ضوئه معالم حياتين مختلفتين : حياة البداوة وحياة الاستقرار فتخلد القبائل المهاجرة الى السكينة ، وتباشر الحياة الزراعية ، الا أن سيولا جديدة لا تزال تتدفق من الشرق ٠ ومدى هذا الدور من نحو سنة ١٥٠٠ ق ٠ م ٠ الى سنة ١٠٠٠ ق م

ويبدأ الدور الثالث : من سنة ألف قبل الميلاد ، فنجد قوما همجا من البدو فى بلاد الخزر والبحر الأسود ٠ ثم نرى قبائل " سى تهين " أخذت تظهر على مسرح التاريخ من سنة ٧٠٠ ق ٠ م ٠ وتهاجم آسيا الغربية ٠

وكانت الحضارة الأشورية قد بلغت أوج مجدها ، وسادت مدنية نينوا وبابل على آسيا كلها ٠ قال هيرودوتس " ان حدود الآشوريين الشمالية كانت عرضة لغارات قبائل " سى تهين " المستمرة ، وكانت هذه الحدود تمتد الى جبال أرمينا ، فكانت قبائل سى تهين تجتاز مضيق القوقاز ، وتشن الغارات المدمرة على شعوب السهول ، حتى أن جموعا كبيرة منها تقدمت سنة ٦٢٠ ق ٠ م ، ووصلت الى نينوا ، داست فى طريقها ايران الشمالية ٠ ويرى مؤرخو اليونان أن هذا الحادث كان من أهم أسباب سقوط نينوا (١).

أما الدور الرابع : فينبغى أن نجعله فى سنة ٥٥٠ ق ٠ م ٠ ـ الزمن الذي ظهر فيه غوروش وتكونت مملكة مادا وفارس المتحدة ، فتغيرت الظروف فجأة ، وأمنت آسيا الغربية من هجمات قبائل سى تهين ٠

---

١ ـ هيرودوتس ، ١ ـ ١٠٤

وكان الدور الخامس : فى القرن الثالث قبل الميلاد ، تدفق فيه سيل جديد للقبائل المغولية وانصب على الصين • وقد سمى مؤرخو الصين هذه القبائل بـ " هيسو نغ نسو " (Hsiung-nu) • وقد حرف الاسم فأصبح " هن " فيما بعد •

وفى هذا العصر بنى امبراطور الصين ، شين هوانغ تى ، ذلك الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين لصد هجمات هؤلاء المغيرين ، والذى لايزال يوجد الى يومنا هذا • وقد بدأوا ببنائه سنة ٢٦٤ ق • م • وأتموه فى مدة عشر سنين • ولما صد هذا الجدار حملات المغول من الشمال والغرب توجهوا الى آسيا الوسطى من جديد •

وكان الدور السادس : فى القرن الرابع الميلادى عندما رفعت هذه القبائل رأسها فى أوربا بعد أن حظيت بقائد كبير ، هو اتيلا ( ) وقضت على الامبراطورية وعلى المدنية الرومانية معا •

وقد كان الدور الأخير ــ الدور السابع ــ فى القرن الثانى عشر الميلادى فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا ، وخرجت بزعامة جنكيز خان فقضت على الحضارة العربية وخربت بغداد ــ مدينة السلام •

فتعلم مما سبق أن معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات قبائل سى تهين المغولية من القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الزمن الذى وقفت فيه هذه الهجمات بغتة ، هو زمن غوروش ، فلابد من أن تكون هذه القبائل (سى تهين) هى التى سميت باسم يأجوج ومأجوج ، ولصد غاراتها بنى ذو القرنين ، أى غوروش ، السد الحديدى فقفل هذا السد الطريق الذى كان يسلكه هؤلاء الهمج لشن غاراتهم على آسيا الغربية ، فأصبحنا لا نسمع لهجماتهم خبرا بعد •

من أى طريق كانت هذه القبائل تشن غاراتها ؟ يخبرنا مؤرخو اليونان بأنه كان مضيقا فى جبال القوقاز ، وقد ظل هذا المضيق بابا مفتوحا على المغيرين زمنا طويلا ، فان كان غورش يريد صون آسيا الغربية من غاراتها ، فما كان له الا أن يسد هذا الباب ، وقد فعل ذلك ببناء سده الحديدى .

نبوءة حزقئيل ويأجوج ومأجوج :

ظهر النبى حزقئيل فى الزمن الذى كان اليهود يحيون حياة الأسر فى بابل ويقول التاريخ اليهودى بأن بخت نصر هو الذى جاء بحزقئيل الى بابل مع قومه اليهود فعاش الى زمن غورش . وقد وجدت فى السفر المنسوب اليه نبوءات خوطبت بها الشعوب المختلفة ، منها نبوءة فى شأن يأجوج ومأجوج كذلك وهى كما يلى :

" وصلنى كلام الرب قائلا ، يا ابن آدم ول وجهك شطر جوج وتنبأ ضده ، نعم شطر جوج الذى هو رئيس أرض مأجوج ، ومسك وتوبال ، فقل له ، ان الرب يقول لك، انى أصبحت ضدك وانى أبدلك ، وأجرح فكيك ، وأطرد جميع جندك وفرسانك الذين يرتدون الملابس العسكرية ، ويحملون السيوف والتروس ، وأطرد معهم الفارس ، وكوش والقوط كذلك "

ويلى هذا من التفاصيل ما يتلخص فى أن جوج يقدم من الشمال ناهبا مدمرا ولكن يحل بالقوم الدمار ، فيهلكون فى " وادى المسافرين " الواقع فى شرق البحر ، وتبقى جثثهم تتعفن الى زمن طويل ، ثم يدفنها الناس ليخلو لهم الطريق (٣٨ : ٣٩)

وصف جوج فى النبوة بأنه رئيس "مسك " و " توبال " فكأن النبوءة صورت موقع " مس تهين " الجغرافى بهذا الوصف ، فليس " مسك " الا ما نسميه الآن بموسكو ، أما توبال ، فهى بلاد البحر الأسود المرتفعة .

ثم جاء فى النبوءة " انى أردك " وهذا هو ما وقع على أيدى غورش ، فانه أقفل

الطريق بسده على قبائل سن تهين ، فارتدت الى ورائها ، ثم قال: ان جيش ماجوج كله يخرج ، وكذلك يبرز جيش فارس ، ويشترك معه القول (غالة) أيضا . ويكون هلاك ماجوج في " وادي المسافرين " وهذا هو عين ما وقع عند ما هاجم داراپوش ، بلاد اوربا ، فقد خرجت لمحاربته جموع قبائل سن تهين ، ولكنه تقدم الى الدانيوب بعد أن قتلهم شر تقتيل ، وبقيت جثث المقتولين منهم تتعفن على ساحل البحر الأسود لمدة من الزمن .

ذكر كل هذا في صحيفة حزقئيل كنبوءة ، الا أن البحاثة اليهود يرون أنه ألحق بها بعد ما شهد العالم هجوم داراپوش وما تبعه من الحوادث . وقد ذهبت طائفة من شراح التوراة في العصر الحاضر الى أن المقصود من ماجوج ، هو قبائل سن تهين (1) .

سد يأجوج ومأجوج :

لنبحث الآن عن المكان الذي أقام به غوروش سده .

توجد في البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال قوقاز كأنها جدار طبيعي . وقد سد هذا الجدار الجبلي ، الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب الا طريقا واحدا بقي مفتوحا ، وهو مضيق في وسط سلسلة الجبال ، يوصل بين الشمال والجنوب . ويسمى هذا المضيق في أيامنا هذه بمضيق داريال ، ويشار الى موضعه في الأطالس الحاضرة بين فولادي كيوكز (Vladikavkaz) وتفليس ، حيث يوجد الى الآن جدار حديدي من قديم الأزمان .

ولاريب أن هذا هو الجدار الذي بناه غوروش ، اذ تنطبق عليه الأوصاف التي وصف بها القرآن سد ذي القرنين قائلا انه استخدمت في بنائه زبر الحديد " تطمه"

---

1 _ See Encyclopedia Britannica and Jewish Encyclopedia

وأفرغ عليه النحاس بعد أن أذابوه لتتصل مفاصله فلا يبقى به خلل ، وقال انه بنى بين جدارين جبليين .

وهذا هو ما نراه في مضيق داريال : جدارين جبليين شامخين أقيم بينهما هـذا السد الحديدي الذي أقفل باتصاله بالجدارين الطريق الذي كان مفتوحا بينهما .

وان الكتابات الأرمنية لها أهمية كبيرة في المسألة لانها لقرب المكان أصبحت بمنزلة الشهادة المعلية ، وقد سمي هذا السد أو الجدار الحديدي في اللغة الأرمنية مـن الدهور السالفة بـ " بهاك غورائي " و " كابان غورائي " ومعنى الكلمتين واحد ، وهـو " مضيق غوروش " أو " ممر غوروش " . ولا يخفى أن " غور " جزء لاسم غوروش بلاريب أفلا يثبت هذا أن غوروش هو الذي بنى الجدار ، واليه نسبوه من قديم الزمان ؟

وهنالك شهادة أخرى لا تقل في أهميتها عن الأولى ، وهي شهادة لغة بـلاد جورجيا التي هو القوقاز بعينها ، فقد سمي هذا المضيق باللغة الجورجية من الدهور الغابرة بـ " الباب الحديدي " وترجمه الأتراك الى لغتهم بـ " دامركبو " وهـو مشهور الى الآن عندهم (١) .

أما المؤرخون القدماء ، فأول من ذكره منهم ، هو الرحالة اليهودي الشهير يوسف الذي كان عائشا في القرن الأول الميلادي ، ثم ذكره بعد أن عاينه بنفسه المـؤرخ بروكوبيس (Procopius) في القرن السادس الميلادي ، وذلك أن القائد الروماني بلي ساريس (Belisarius) لما أغار على هذه الجهة في سنة ٥٢٨ م كان الرجل معه فشاهد الأرض وما عليها .

وقد سبق لنا أن أشرنا الى " نهر سائرس " الذي يثبت وصول غوروش الـى هذه البقعة ، فهنالك في القوقاز أنهار تنبع كلها من هذه الجبال . وقد سمي واحد منها بنهر سائرس أي غوروش . وقد وثقت المصادر الأرمنية والجورجية هذا الاسم ، وذكـره كذلك بعض السياح الأوربيين من القرن السادس عشر .

---

١ ـ ألف الكاتب التركي وأستاذ التركية والفارسية في سنت بترسبورغ ، كاظم بك في سنة ١٨٤٥ تاريخا لهذه الجهات باسم " دربند نامه " وترجم الكتاب الى الانجليزية باسم تاريخ دربند ، فراجعه ص ٢١

فهذا انتوني جن كنسن (Anthoni Jinkinson) الذى أرسلته شركة تجارية في لندن الى ايران من طريق روسيا سنة ١٥٥٧ م ، وهو يذكر هذا النهر في رحلته بانه يسمى بنهر سائرس (١) .

ثم ان جميع الخرائط التى وضعت لهذه الجهات في القرن الثامن عشر ، ذكرت " نهر سائرس " هذا بصراحة تامة .

جدار دربند الحجرى وباب الأبواب :

ويوجد هنالك عدا جدار " مضيق داريال " الحديدى ، جدار آخر من الحجر في نفس هذه البقعة ، وبوجوده تعقدت المسألة بعض التعقد ، فلابد من معالجتها .

توجد على ساحل بحر الخزر الغربي بلدة ، اشتهرت من العصر الساساني باسم " دربند " وسمتها العرب ب " باب الأبواب " وهى واقعة في نفس المكان الذى انتهت اليه سلسلة جبال القوقاز واتصلت بساحل بحر الخزر ، وقد وجد هاهنا جدار حجرى من الزمن القديم ، يمتد من ساحل البحر ، ويرتفع على منحدرات الجبل صاعدا الى مرتفعاته ، حتى يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلا .

وتفصيل ذلك أنك تجد قبل وصولك بلدة دربند ، جدارا يسد الطريق كله من الساحل الى مرتفعات الجبل ، فلا يمكنك الدخول في البلدة الا من باب في الجدار نفسه ، وكذلك اذا خرجت من البلدة ، وجدت جدارا آخر مثل الأول يسد الطريق ، الا أنه به كذلك باب يمكنك من التقدم ، ويمتد الجداران جنبا لجنب الى مرتفعات الجبل ، وينقص الفصل بينهما كلما تقدما ، حتى يصبح عند الساحل خمسمائة يارد ، وفي هذا الفصل تقع البلدة ثم ينقص الفصل بعد ميلين كذلك فلا يجاوز مائة يارد وهنا تنتهي سلسلة الجدارين فيصيران جدارا واحدا .

ويمتد هذا الجدار الى ثمانية وعشرين ميلا ، وينتهى على المرتفعات العالية من الجبل . وقد اشتهرت سلسلة الجدارين عند الفرس باسم " دوبارة " والمكان الذى انتهت اليه هذه السلسلة أقيمت فيه قلعة .

وقد سدت هذه السلسلة جميع الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب سدا محكما لأنها توغلت الى داخل البحر فسدت طريق الساحل كلية ، ثم امتدت فوق الجبل الى ثلاثين ميلا ، فسدت سائر الطرق التى وجدت في منحدرات الجبل سدا تاما وليس لأحد أن يخترق من الشمال الى الجنوب الا بطريق واحد وهو الطريق الذى يفتحه البابان في سلسلة الجدار نفسه .

---

1 – Hakluyt's Voyages, Vol. 1, 456

ومن المحقق أن هذا الجدار العظيم وجد قبل الاسلام ، وسمى المكان فى العصر الساسانى بـ " دربند " لوجود الجدار به ، أى باب المملكة المقفل ، وقد ذكر الاصطخرى والمسعودى ، والمقدسى ، وياقوت الحموى ، والقزوينى وغيرهم من المؤرخين والجغرافيين العرب هذا المكان باسم " دربند " قائلين انه كان يعد أهم مكان فى العصر الساسانى لأن المغيرين ما كانوا يستطيعون مهاجمة ايران الشمالية الا من هذا الطريق ، فكان المكان مفتاحا للمملكة الايرانية ، يملكها من الذى يملكه ، (١)

ولما فتح العرب هذه الجهات فى القرن الأول من الهجرة ، أدركوا أهمية المكان كالساسانيين ، فدعوه به " باب الأبواب " عوضا من " دربند " وسماه البعض " باب الخزر " أو " باب الترك " لأنه كان الطريق لغارات هذه الشعوب ، والاسم ترجمة حرفية لاسمه الروسى " كاسبين بورتا " أى " باب الخزر " ،

من الذى بنى جدار دربند ؟

ولنرى الآن من الذى بنى جدار دربند ؟

ان مفسرينا لما كانوا يجهلون سد مضيق داريال ، وكان هذا الجدار أمام أعينهم جزم بعضهم بدون ترو بأنه هو سد ذى القرنين ، كما فعل البيضاوى وغيره ، واليه ذهب الرازى كذلك ، وكان حريا بهم أن يروا هل ينطبق على هذا الجدار وصف من أوصاف سد ذى القرنين ؟ ولما كان الأمر ليس كذلك ، فلا يجوز أن يقال انه السد المذكور فى القرآن ،

ويذكر القرآن أن ذا القرنين وصل الى مكان قام على جانبيه جداران جبليان فهل يوجد فى دربند جداران جبليان ؟

ويقول أن ذا القرنين طلب زبر الحديد وأذاب النحاس ، ولكن جدار دربند مبنى من الحجر ، ولا وجود فيه للحديد ولا للنحاس ،

---

١ — ذكر جغرافيو العرب هذا المكان باسم " دربند " الا انه كان اشتهر باسم " باب الابواب " فألف بعض الكتاب هذا الاسم ، وقد ذكره ياقوت فى معجم البلدان بهذا الاسم و " بند " مشهورة بأنها بمعنى " أغلق " فيقولون " دروازة بند " بمعنى اغلق الباب أو الباب مغلق ،

وفوق ذلك بنى ذو القرنين سده بين جدارين جبليين ، ليسد به الطريق بينهما ، ونجد هنا فى دربند جدارا ممتدا الى ثلاثين ميلا ، ولا يسد ممرا جبليا مثل يمتد من ساحل بحر الخزر الى مرتفعات الجبل أى انه بين ساحل البحر والجبل لا بين جبلين .

ولكن لما وجد جدار مضيق داريال أو سده وجدار دربند فى بقعة واحدة من الأرض ، لا يفصل بينهما الا مسافة قليلة اختلط الأمر على الناس . ومما يثير العجب أن بعض المؤرخين المصريين كذلك وقعوا فريسة باردة لهذا الخلط .

نسبة الجدار الى الاسكندر والاشكال التاريخى :

ذهب مؤرخو العرب بناء على الروايات الساسانية الى أن الذى بنى هذا الجدار — جدار دربند — هو أنو شروان ، فقد ذكر المسعودى والحموى تفاصيل البناء ونقل عنهما المؤرخون بعدهما (١) .

ولكن يوجد هنا اشكال ، وهو أن المؤرخ يوسف الذى كان عائشا فى القرن الأول ميلادى ، وبروكوبيس (   ) الذى وجد فى القرن السادس الميلادى قد ذكرا جدارا فى هذه الجهة ، كما أشرنا اليه آنفا غير أنهما يقولان كذلك ان الذى بناه هو الاسكندر المقدونى ، فى حين أن حوادث الفتح الاسكندرى معروفة وليست بخافية عن التاريخ ، ثم لم يرو قط أن الاسكندر قدم الى هذه الجهة او بنى جدارا بها ، ومن المعلوم أن مثل هذه الحصون والمعاقل لا تشيد الا اذا دعت اليها الدواعى الدفاعية .

ومن المعلوم كذلك أن الاسكندر لم تصادفه داعية كهذه فى سائر حروبه . صحيح ان هذه البقعة كانت تابعة للامبراطورية الايرانية . ولكنه هاجمها من طريق الشام وتوجه من ايران الى بنجاب (الهند) . ولما قفل راجعا من بنجاب دهمه الموت فى بابل . فما هى الظروف التى اضطرته — والحالة هذه — الى تشييد مثل هذه المعاقل فى بلاد القوقاز ؟ وان كان شيدها ، فمتى كان ذلك ؟ ولماذا أغفل جميع مؤرخيه ذكر حادث هام كهذا الحادث ؟

ثم هنالك اشكال آخر . ان كان جدار قوقاز بناه أنو شروان ، فكيف يكون ذلك ؟

---

١ — مروج الذهب ص ٢٠

لقد أجمع المؤرخون على أن عصر أنوشروان كان من سنة ٥٣١ م الى سنة ٥٧٩ م ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون بنى شيئا قبل هذا الزمن ، ولكن يوسف يذكر الجدار فى القرن الأول وبروكوبيس يشهد بوجوده سنة ٥٢٨ م ، فنعلم من هذا أن أنوشروان لم يبن هذا الجدار .

وقد زار هذه الجهة المؤرخ الأمريكى المصرى « ا . ف . وى . جيكسن » فى سنة ١٩٠٤ فضعف رواية يوسف فى رحلته واقترح من عنده قائلا ، لم يشيد الاسكندر هذه الحائط ، ولكن بناها بعض قواده . ثم انهم ربما زادوا فيها فى العصر الساسانى !

هذا كلام مردود ، يرد على نفس الأساس الذى رد عليه قول القائلين بأن الاسكندر بناها . وذلك لأنه ان كان شيدها بعض قواد الاسكندر ، فمن كان هو ؟ ولماذا شيدها ؟ ولم أهمل مؤرخو ذلك العصر ذكر هذا الأمر الهام ؟ لقد وجدت رواية — مهما كانت واهية — فى شأن الاسكندر ، ولم يوجد شىء مثل ذلك فى شأن قواده أبدا .

نشأ هذا التعقد كله لأن الناس لم يميزوا بين جدار مضيق داريال وجدار دربند ، فاختلط الأمر عليهم . لقد كان مفتاح المعضلة فى القول بأن الذى بنى الجدار الأول — جدار مضيق داريال — هو غوروش ، ولكن الناس لم يفعلوا ذلك ، فأخذوا ينظرون تارة الى الاسكندر وقواده ، وتارة أخرى الى أنوشروان ، وكان جديرا بهم أن ينظروا الى غوروش الذى هو صاحب الجدار ، لا غيره .

حل المشكلة :

يوجد فى البقعة جداران ، ليس من الضرورى أنهما بنيا فى زمن واحد . فأول ما ينبغى لنا أن نفعله ، هو أن نقرر أى جدار ذكره المؤرخ يوسف وبروكوبيس : أهو جدار مضيق داريال أم جدار دربند ؟ فان كان هو جدار دربند ، فلا يمكن أن يكون بناه أنوشروان .

فاذا نظرنا الى الشواهد التاريخية من هذه الوجهة ، يتجلى لنا أن يوسف وبروكوبيس لا يقصدان بما ذكراه ، جدار دربند ، بل انما يريدان به جدار مضيق داريال الذى

بناه غوروش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، أى قبل يوسف بنحو خمسمائة سنة ، وقبل بروكوبيس بألف سنة ، الزمن الذى لم يكن لجدار دربند فيه أثر ولا خبر . أما الجدار الذى ذكره المؤرخون بعد عصر يوسف وبروكوبيس ، وهو الذى سمى بجدار الخزر كذلك ، فهو بلا ريب جدار دربند ، لأن مضيق جدار مضيق داريال ، لا يمكن أن يطلق عليه اسم جدار الخزر بحال .

لقد ارتفع الاشكال الآن بدفع هذه الشبهة الطفيفة التى تتعلق بكون أوشروان هو الذى بنى الجدار ، ولم تبق حاجة لتضعيف ماقاله مؤرخو العرب الذين كتبوا ماكتبوا مستندين الى روايات العصر الساسانى . وقد أطنبوا فى ذكر تفاصيل البناء ، فذكروا مثلا كيف وضع أساس الجدار فى داخل البحر ، وما هى الوسائل التى لجأ اليها البناءون لذلك . ليس منا أن نرتاب فى صحة ماذكروه والاقرب الى الصواب أن أنوشروان هو الذى بنى جدار دربند ، وأن هذا الجدار ماكان يمكن أن يوجد فى عصر بروكوبيس الذى زار المكان قبل أنوشروان بثلاث سنوات .

ولك أن تقول ، ان كان الأمر كما ذكرت ، فلماذا نسب يوسف وبروكوبيس جدار مضيق داريال الى الاسكندر ؟ . والجواب أنهما اما خدعا بالشهرة العامة أو وقعا فريسة للشبهة التاريخية .

لقد راجت أساطير كثيرة بعد فتوح الاسكندر فى عامة الناس ، فاعتادوا أن ينسبوا اليه الاعمال العجيبة ، والأمور الخارقة للعادة . وقد تسربت هذه الأساطير الى الكتب التى ألفت فى سيرة الاسكندر ، ولما ترجمت هذه الكتب الى العربية ، راجت الأساطير بين المسلمين كذلك فالنظامى لما ألف منظومته ((سكندرنامه)) استخدم هذه المادة ، وجعل من التاريخ قصة ممتعة ، فيغلب على الظن أن أسطورة كانت اشتهرت فى شأن مضيق داريال الحديدى كذلك ، فنقلها يوسف وحذا حذوه بروكوبيس ، ولذلك نجد المؤرخين غيرهما يذكرون معاقل هذه الجهة ولكن لا ينسبونها الى الاسكندر ، فهذا تسى تس (*Tacitus*) وليدس (*Lydus*) يقولان بأن الرومان يسمون المكان بباب الخزر ، دون أن يزعما أن الجدار أو المعاقل شيدت فى عصر الاسكندر .

ثم أن بعض المؤرخين وقعوا فى خطأ عظيم بشأن جبال القوقاز ، ذكره استرابو فى جغرافيته ونعنى بذلك أنهم توهموا الجبال الواقعة فى شرق بحر الخزر بأنها

جبال القوقاز ، فنسبوا الى تلك جميع خصوصيات هذه الجغرافية • لاريب أن الاسكندر مربطك الجبال فى طريقه الى الهند ، وأقام بها مدة • ولا يبعد أن يوسف ـ بنـاء على هذا الوهم ـ ظن أن الاسكندر قدم الى بلاد القوقاز أيضا ، فبنى هذا الجـدار بأمره • وقد أصاب المستر جيكسن فى قوله • ربما كان هذا الوهم هو أساس الرواية القائلة بأن الاسكندر شيد الجدار •

والحاصل ان التفاصيل المقدمة قد أزالت الاشكالين معا •

الحالة السياسية فى القرن السادس وأهمية دربند :

ثم نرى هنا أمرا واضحا جليا وهو أن الاسكندر ما كان يهمه أمر حدود ايـران الشمالية والدفاع عنها • أما أنو شروان فكان يهمه ذلك • ولذا اضطر الى تشييد جدار دربند •

لقد كان فى عصر غوروش أكبر خطر على آسيا الغربية من جهة قبائل مى تهـين ، وكان طريق غاراتهم من مضيق داريال • ولكن الوضع الجغرافى تغير بعد ألف عام • فلـم يبق خطر من قبل مى تهين • ولكن حلت محله أخطار أخرى • كان أكبرها من جهـة الامبراطورية الرومانية الشرقية فى بيزنطة التى كانت تنافس الامبراطورية الفارسية • وتحـاول القضاء عليها • وهى لم تكتف بطرق آسيا الصغرى المطروقة فى حروبها • بل كانـت تطرق هذا الطريق كذلك • ثم كانت هنالك القبائل التركية فى سهول بحيرة بوال وبحـر الخزر التى انتشرت جماهيرها فى الشمال • وكانت هى تهاجم الجهات الشمالية ممـن الامبراطورية الفارسية فكان لزاما أن يحصن هذا المكان باهتمام كبير • وعلى ذلك شيـد أنو شروان • جدار دربنـد وسـد بـه هذا الطريق على وجه المهاجمين •

x x x x x x x x x

x x x x x x x

x x x x x

x x x

x

ملحق ج

المرافعة التي ألقاها أمام المحكمة الانجليزية

ملحـــــق "ج"

المرافعـــة التى ألقاها أمام المحكمة الانجليزيـــة

هذا هو نص المرافعة التى ألقاها أمام المحكمة التى كانت تحاكمه بتهمة اثارة الشعب ضدها ومع مولانا أزاد أخطر وأجرأ ساعات من أيام وسنى جهاده وبطولته .

قال : وكأنه يخاطب الأجيال ، ويلقى درسا بليغا لكل من ينشد كرامته وكرامة بـــلاده ولا يبالى بما يدفعه من ثمن :-

أيها القضـــاة :

انى كنت عازما على ألا أقدم للمحكمة بيانا ما ، لأنها مكان لا رجاء لنا فيه ، ولا طلب منه ، ولا شكوى اليه ، وانما هى كمنعرج الطريق الى المنزل ، لابد من قطعه للسابل ، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا ، والا لدخلنا السجن توا .

ان الجمعية الوطنية ، وجمعية الخلافة ، وجمعية العلماء ، قد أبحن تقديم بيـان الى المحاكم ، لا للدفاع بل لاعلام الأمة بالحقيقة ، بيد أنى ما برحت أشير على النــــاس بأن يؤثروا الصمت على الكلام ، وأن يقاطعوا المحاكم مقاطعة تامة ، وذلك لأنى أرى أن كل من يقدم بيانا لدحض التهمة وكشف الحق — وان كان قصده به اعلام الجمهور — لا يسلم من الظنة اذ يجوز أن يكون فى نفسه أدنى هوى للتخلص من العقاب ، أو فى أعماق قلبه أقل رجاء فى عدل المحاكم ، مع أن سبيل ((تارك التعاون)) مستقيم منير ، لا ينبغى أن توسخه الظنون والشبهات .

<u>اليأس التام من العـدل :</u>

ان ((اللاتعاون)) نتيجة لليأس التام من الحالة الحاضرة ، وهذا اليأس هو الـذى ألجأ الأمة الى أن تغيرها ، وتبدل غيرها بها ، فكأن من يقاطع الحكومة ويأبى معاونتهـــا ، يعلن بأنه يئس من عدلها وحبها للحق ، وأنه لا يعترف بها ، بل يعدها حكومة غاصبـــة جائرة وغير شرعية ، لهذا يود أسقاطها وتحطيمها . أفبعد هذا يرجع القهقرى ، فينتظـر منها أن تنصفه كحكومة عادلة صالحة للبقاء والدوام ؟ .

وان غضضنا الطرف عن هذه الحقيقة الثابتة ، فان السعى للتبرئة من التهمة ، ليس الا عملا عبثا وانكارا للحقائق ، اذ كل بصير يعلم أنه لا رجاء فى المحاكم أن تنصف وتعـدل فـى

العدالة الحاضرة ، لا لأن رجالها لا يحبون العدل بل لأنها سائرة على نظام لا يستطيع معه حاكم أن ينصف أولئك الذين لا تريد الحكومة نفسها أن تنصفهم !

واني ههنا أصرح بأن خطاب ((اللاتعاون)) ليس مع الأفراد والآحاد ، بل مع الحكومة ونظامها ومبادئها .

موقف أصحاب الحق أمام المحاكم والقضاة

ان هذه الحالة مثل سائر حالات عصرنا ليست بفذة ، فالتاريخ شاهد على أنه كلما طغت القوات الحاكمة ، ورفعت السلاح فى وجه الحرية والحق ، كانت المحاكم آلات مسخرة بأيديها تفتك بها كيف تشاء ، وليس بغريب فان المحاكم تملك قوة قضائية ،وتلك القوة يمكن استعمالها فى العدل والظلم على السواء ، فهى فى يد الحكومة العادلة أعظم وسيلة لاقامة العدل والحق وبيد الحكومات الجائرة أفظع آلة للانتقام والجور ومقاومة الحق والاصلاح .

والتاريخ يدلنا على أن قاعات المحاكم كانت مسارح للفظاعة والظلم ، بعد ميادين القتال ، فكما أريقت الدماء البريئة فى ساحات الحروب ، حوكمت النفوس الزكية فى ساحات المحاكم ، فشنقت وصلبت وقتلت وألقت فى غياهب السجون .

وليس هناك عصبة صالحة محبة للحق من الأنبياء والحكماء والعلماء والصالحين ،الاونراها قد وقفت كالجناة والمجرمين فى قاعات المحاكم أمام القضاة .

نعم ان كر الأيام ومر المضى قد محا كثيرا من مساوىء العهد القديم ، فلا يوجد الآن شىء من المحاكم الرومية للقرن الثانى المسيحى ، ولا محاكم التفتيش السرية ، التى كانت فى القرون المتوسطة ، ولكنى لا أستطيع الاعتراف بأن عصرنا هذا قد نجا من تلك العوامل النفسية التى كانت تعمل فى تلك المحاكم .

حقا ان تلك الأبنية التى كانت مكامن للأسرار الرهيبة قد دكت دكا ، ولكن من ذا الذى يقدر أن يقلب تلك القلوب التى تكمن فيها الأسرار المخيفة لحب الذات والظلم ؟ .

<u>قصص عجيب ولكنه عظيم :</u>

ان جدول مظالم المحاكم وفظائعها طويل عريض ، تلك المظالم التى لم يفرغ التاريخ الى الآن من البكاء منها ، فنرى فيه اسم المسيح (عليه السلام) الانسان الكامل الذى أوقف مع اللصوص فى محكمة أجنبية .

وسقراط الحكيم الذى اضطر الى شرب كأس السم ، لأنه كان أصدق رجل فى بلاده ٠

وكذا فلورنس غيليلو الذى لم يكذب مشاهداته العلمية ، لأنها كانت جناية فى عين القضاة والمحاكم ٠

وقد وصفت المسيح بالانسان الكامل لأنى أعتقد أنه انسان ٠ ولكن الملايين من الناس يعتقدون أنه فوق هذا ٠٠

اذن ما أعجب قفص الجناة ٠٠ وما أعظم شأنه ٠٠ انه موقف للصنفين معا (الأبرار والأشرار) حتى أنه كان لائقا بهذا الوجود العظيم ٠٠

حمدا وشكرا

وانى اذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف ، وأرانى قد شرفت بالوقوف فيه ، تسبح روحى بحمد الله ، ويلهج لسانى بشكره من غير قصد منى ، وهو وحده يعلم ما أجده من الجذل والابتهاج ، اذ أحسبنى فى هذا القفص محسودا للملوك والسلاطين العظام ، فأين لهم فى قصورهم المريحة تلك المسرة والراحة ، التى يرقص لها قلبى فى صدرى ؟ وياليت الانسان الغافل والعاكف على هواه يشعر بنفحة منها ٠ وانى أقول حقا : انه لو أدركها الناس ، لتمنوا المثول فى هذا المكان ، ولنذروا النذور لأجله ٠

قانون الحقيقة

انى كنت عازما على السكوت فى المحكمة ، ولما أحضرت فيها ، ورأيت الحكومة تقدم فى اثبات جريمتى الخطبتين اللتين ألقيتا فى بعض مجامع (كلكتا) ، وهما لا يحتويان على جميع الأمور التى مازلت أكررها فى جميع خطبى ، ورسائلى ومقالاتى ، التى تمد و الحصر ، والتى ان قدمت كانت أنفع لمقصدها ، علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة ذلك المستند الذى يعتبر فى هذه الأيام كافيا لانزال العقاب ، مع شدة رغبتها وحرصها على سجنى ، فغيرت مقصدى ، وقلت بأن العلة التى كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له ٠ فأردت أن أثبت بلسانى الأمر الذى لا تستطيع الحكومة اثباته مع علمها به ، وشدة رغبتها فى اثباته ٠

وانى أعلم أن قوانين المحاكم لا توجبه على ، ولا تضطرنى الى الاعتراف من تلقاء نفسى ٠

ولكن قانون الحقيقة فوق هذه القوانين الوضعية ، وهو الذى يسوقنى الى ما سأقوله . اذ ليس من الحق أن نذر شيئا مستورا ، لأن الخصم لا يستطيع اثباته .

سنة تنازع البقـــــاء :

ان الاستبداد الذى ابتليت به الهند ، نوع من ذلك الاستبداد الذى يصيب الأمم فى طور ضعفها ووهنها . وهو من طبعه يبغض الحركة الوطنية والحرية ، والمطالبة بالحقوق بغضا شديدا ، لأنه يعلم انها اذا نجحت سقطت قوته الظالمة وانمحى وجوده الفاحش .

وما من وجود يحب سقوط نفسه وزواله مهما يكن زواله ضروريا فى عين الحق والانصاف ، فالتدافع بين الحرية والاستبداد ، (تنازع للبقاء) و (تزاحم فى الحياة) كل من الفريقـــين يجد للفوز والبقاء . الأمة تريد أن تنال حقها المغصوب ، والاستبداد يأبى عليها ، ولا يريد الترحزح عن مقامه ، ولا تثريب عليه ، لأنه وان كان وجوده خلافا للحق — يدافع عن نفسه وحياته ، وليس لنا أن ننكر مقتضيات الطبيعة فكما يسعى الخير لبقائه ، يسعى الشر أيضا ، ومهما يكن ملوما فى نفسه ، لا يلام على رغبته فى الحياة .

وقد بدأ التزاحم فى الهند ، بين هاتين القوتين القويتين : الحرية والاستبداد — فليس ببدع أن تكون الحرية والمطالبة بالحقوق جناية فى عين الاستبداد . وأن يكون محاربــــو وجوده الباطل جناة وأثمة ، وأهلا للعقاب الشديد .

انـــى أعـــترف :

فما دام الأمر كذلك ، فانى أعلن على مسمع من المحكمة والحكومة بأننى أنا قد ارتكبت هذه الجناية ارتكابا ، واقترفتها اقترافا ، وان كانت الحكومة لا تعلم ، فلتعلم الآن أنى من أولئك الجناة ، الذين بذروا بذور هذه الجناية فى قلوب أمتهم ، ووقفوا حياتهم على سقيها وتنميتها وتثميرها .

بل انى — ولا فخر — أول مسلم فى الهند ، دعا أمته من اثنتى عشرة سنة الى هــذه الجناية دعوة عامة ، وحول وجهتها فى خلال ثلاث سنوات ، عن العبودية التى كانت الحكومـــة زينتها لها ، الى الحرية التى قد اشرقت شمسها الآن ، ولن تنكسف أبدا .

فان كنت آثما فى زعمها فلتعاقبنى بما تشاء . فها أنذا معترف بالجناية بصدر رحب ، ولسان طلق ، غير جزع منها ، ولا نادم عليها . لأن هذا هو ماكنت أتوقعه وأعرفه من قبل .

وانى لا أنتظر من الحكومة الا الغلظة والقسوة ، لأنى - وان ألفيتها تدعى العصمة من الخطأ والزلل ، ولا تعترف بذنوبها - أعلم أنها تدعى أبداً أنها مثل المسيح فى لينه وحنانه ! ! فاذن كيف أنتظر منها أن تقبل أعداءها وتحبهم كأصدقائها ؟ وأعلم أنها لا تعاملهم الا بتلك المعاملة التى نراها منها الآن ، والتى مازال الاستبداد يختارها لمحق الحرية والحق ، وخنق أصحابه وحماته .

فالشدة والغلظة من الحكومة شئ طبيعى ، لا ينبغى لنا أن نشكو أو نغضب منه ، بل على كل من الحزبين أن يعملا على مكانتهما ، حتى يفصل الله بينهما وهو خير الفاصلين .

(ثم قال بعد هذا : انه لم يقبض عليه لأجل الخطبتين اللتين قدمتا الى المحكمة ،بل لتخلو للحكومة " كلكتا " كيلا يقاطع احتفال ولى عهد انجلترا عند قدومه اليها ، وتضعف الحركة الوطنية والاسلامية . ثم ذكر أشد مافى الخطبتين وهو مايلى :-

أشد ما فى الخطبتين :

ان الحكومة التى تأسست على الظلم لظالمة ، وهى اما أن تتوب من ذنوبها وفظائعها ، وتخضع للحق ، واما أن تزول من الوجود .

أيها الناس (ان كنتم تتألمون لاخوانكم الذين قبض عليهم فعلى كل منكم أن يسأل نفسه الآن . هل هو راض بأن تظل هذه الحكومة قائمة فى بلادنا ، كما كانت عند القبض على اخواننا ؟

اذا كنتم تريدون تحرير بلادكم من رق العبودية ، فلا يوجد الا طريقة واحدة ، وهى : أن لا تدعوا فرصة لأعدائكم الماكرين لاستعمال أسلحتهم القتالة التى عندهم بغير حساب .

ان بعض الناس يظن أن الخطيب اذا فاه بمثل هذه الأقوال يحتاط لنفسه ، والا فانه بالحقيقة لا يقصد بها شيئا ، ولكنى أيها الاخوان أعتقد أنه ليس فيكم أحد يحسب أولئك الذين يتحببون لأجلكم خوافين من السجن أو الاعتقال ، أو مخلصين لهذه الحكومة الظالمة فى نفسها وقوتها ، حين يقولون : ان أعمالنا يجب أن تكون بالأمن والنظام .

لا ، لا ، أن هذا لا يتصور أبدا ،بل الحق الذى لا مراء فيه أنهم يقولون ذلك ، لأنهم يرون نجاحكم متوقفا على الأمن والنظام ،مادمتم لا تملكون تلك الآلات الجهنمية التى تتسلح بها هذه الحكومة ، وانما الأسلحة التى لديكم هى الايمان والضمير وقوة التضحية ، فاستعملوها فى

وجهها تجحويه ، والا فلا نجاح لكم بالأسلحة الماديـة ٠

أيها الناس : ان كنتم تريدون أن تعرقلوا الحكومة برهة من الزمان فطرق ذلك كثـيرة ، ولو كنت لا سمح الله — من المحبين للحكومة لبحثت بها ودعوتكم اليها ، ولكن الذى أريده منكم هو (الحرب الحرب) والحرب لا تنتهى فى يوم واحد ، بل تمتد الى يوم الفصل ٠ وما أدراكم ما يوم الفصل ؟ اليوم الذى اما أن تمحى فيه هذه الحكومة الجائرة ، واما أن تفنى ثلاثمائة مليون من النفوس البشريـــة ٠

الاعتراف فوق الاعـــتراف :

ان كانت هذه التصريحات جناية فانى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها ، ولسانى نطـق بها ، وانى أنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس ٠ ليس فى هاتين الخطبتـين فقط ، بل فى خطب أكثر من أن تعد وتحصى ، بل مابرحت أقول أكبر وأشد منها ، ذلك بأنـــى أعتقد أن التصريح بها واجب على ، ولم يمنعنى من أداء الواجب كونه معاقبا عليه بقانـــون ١٢٤ من القوانين الهندية (١) بل انى لأجدنى الآن مدفوعا الى التصريح بها أمام المحكمة ، ولا أزال قائلا بها مادام لسانى بين أسنانى ، وروحى فى جثمانى ٠ وان لم أفعل ذلك أكـن ظالما لنفسى ، وعاصيا عند الله ، وعند الناس أجمعين ٠

الحكومـة الحاضرة (ظالمـــة)

نعم انى قلت أن الحكومة الحاضرة ظالمة ، وان لم أقل هذا فماذا أقول ياترى ؟ وأيم الله انى لأعجب كيف يطلب منى أن أسمى شيئا بغير اسمه ، وأن أدعو الأسود بالأبيض ؟

ان ماقلته هو أهون ما يجب أن يقال فى هذا الباب ، اذ لا أعلم حقيقة ملفوظة أخف منه٠

لا ريب أنى مازلت أقول : انه ليس أمام الحكومة الا أن تتوب من آثامها ، وتغير خطتهـا ، وترجع عن ظلمها ، فان لم تستطعه فبعدا لها وسحقا ٠ وليت شعرى ماذا يقال غير هــذا ؟ الشر اما أن يصلح ، واما أن يزول ٠ وهل بينهما طريق آخر ؟ ٠

---

(١) مادة ١٢٤ خاصة بالذين يحرضون على كراهية الحكومة بأى واسطة من وسائط النشر والصور أو الكلام أو الخطابـة ٠٠٠٠ (المترجم) ٠

ان هذه الحقيقة قديمة العهد ،طويلة العمر ، لا يضاهيها فى الكبر الا الجبال والبحار ، وانى مادمت أعتقد أن هذه الحكومة من أولها الى آخرها شر على شر فكيف أدعو لها ، وأقول : دومى ولا تصلحى ؟ !!

لماذا أعتقد هذا ؟

نعم لماذا أعتقده أنا وملايين من أبناء وطنى واخوان دينى ؟ الجواب أصبح الآن واضحا جليا ، حتى يصح أن يعبر عنه بقول الشاعر الانجليزى (ملتون) : " أنه بعد الشمس أوضح شيء ، وأجلى محسوس " على أنى أصرح ههنا بأنى أعتقد ذلك لأنى هندى ، ولأنى مسلم ، ولأنى انسان .

الحكم الشخصى ظلم بالذات :

انى أعتقد أن الحرية حق طبيعى لكل انسان ولكل أمة . فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وليس لشخص ما أو حكومة أن تستعبد عباد الله ، وتتخذهم خولا (خدما) . وسم الاستعباد والرق بأى اسم شئت . غير أنه على كل حال استعباد ورق . ومشيئة الله وناموسه يمقتانه .

وانى لأجل هذا لا أعترف بالحكومة الهندية ، بل أعدها حكومة غير شرعية ، لأنها مستبدة طاغية ، استعبدت البلاد ، وقهرت العباد ، وداست الشرائع ، وخانت المواثيق ، ليسخطها الشعب ، ويمحها الحق ، فهى معدومة فى نظر الأمة ، وان كانت موجودة بقوة السلاح ، وأرى واجباتى الدينية والوطنية والانسانية تطالبنى بأن أحرر بنى جلدتى من رقها وعبوديتها الشائنة .

كلام خداع :

ولا يقاطع كلامى (بالاصلاحات الادارية) ، ولا الترقى التدريجى ، كلمات خطتها الحكومة وزخرفتها ، لتخادع البله والحمقى . أما أنا فلا أخدع بها ، اذ الحرية فى اعتقادى حق طبيعى للانسان ،وليس لأحد أن يحدد ويقسم فى تأدية الحقوق . وان مثل الذى يقول أن أمة تنال حريتها تدرجا ، كمثل الذى يقول للدائن يرد اليك الدين قسطا قسطا . نعم ان لم يستطع أخذه دفعة واحدة ،يضطر الى قبوله بالأقساط ، ولكن لا يسقط به حق الأخذ مرة واحدة .

(الاصلاحات) وما هى (الاصلاحات) وان هى الا كما قال الفيلسوف الروسى (تولستوى) أن أبيح للمسجونين انتخاب سجانيهم بالأصوات ، فانهم لا يصيرون به أحرارا .

الحكومة الحاضرة حسنة أو قبيحة ؟ سؤال ثانوى .

أما السؤال الأساسى فهو : هل وجودها حق وشرعى ؟ .

انى لأعتقد أن مثل هذه الحكومة الأجنبية المتسلطة باعتبار أصل خلقتها غير شرعية ، لأن نفس وجودها ظلم وشر ، فهى لو لم ترتكب جميع تلك الفظائع التى ارتكبتها بهذه الكثرة ، لكانت فى اعتقادى ظالمة وجائرة ، ويكفى لقبحها وشناعتها أنها موجودة — نعم ، ولنعترف بحسناتها ان كان لها حسنات ، ولكن يظل وجودها على كل حال ظلما وغير شرعى ومثاله لو تسلط أحد على بيتنا ، وأداره ادارة حسنة ، وعمل أعمالا صالحة ، فانه بهذه الحسنات لا يصير تسلطه حقا شرعيا !

ان الشر يصح أن ينعت ويقسم بالكم والكيف ، فنقول : كم هو وكيف هو ؟ ولكن لا يصح نعته وتقسيمه بالحسن والقبيح . فلا نقول : أحسن هو أم قبيح ؟ نعم يقال : سرقة قبيحة وسرقة أقبح ولكن لا يقال : سرقة حسنة وسرقة قبيحة !! وهكذا الاستبداد ، فانى لا أستطيع أن أتصوره حسنا وشرعيا فى حال من الأحوال لأنه بذاته ووجوده قبيح وشر وغير شرعى .

نعم ، سيوجد نوع من الاستبداد أخف وطأة ، وأقل ظلما ، وأكثر لينا من غيره ولكن الاستبداد الذى دهم الهند لم يقف عند قبحه الخلقى ، بل مازال يكتسب السيئات فوق السيئات ومنكرات تلو المنكرات ، وظلمات بعضها فوق بعض ، فكيف لا يعلن ظلمه ، ولا يشهر بقبحه ، ولا يشدد النكير عليه ؟ .

الاسلام والاستبداد :

انى مسلم ، ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وقبحه ، وأشهر بمساوئه ، وليعلم أن الاسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية ، ولا بحكومة عصبة من الموظفين ينقدون رواتبهم ، لأنه نظام كامل للجمهورية ، وانه جاء ليرد الى النوع الانسانى حريته المغصوبة التى كان اغتصبها الملوك المستبدون ، والحكومات الأجنبية ، والرؤساء الروحانيون ذوو الأهواء ، والرجال الأقوياء من الجماعة ، وقد كانوا يعتقدون أن الحق للقوة والتسلط والقهر والغلبة ، ولكن الاسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس فى القوة ، ولا هو القوة ، بل الحق هو الحق ، وأنه ليس لأحد من البشر أن يستعبد عباد الله

وبذلهم وسخرهم ، ثم قضى على سائر الامتيازات والمناصب المؤسسة على الغلبة القومية والوطنية قضاء تاما ، وبين أن الناس كلهم متساوون في الانسانية ، متساوون في الحقوق ، متساوون في الحياة ، وليس اللون أو الجنس والنسل معيارا للفضل والحسب ، وانما معياره العمل وحده ، فأعلاهم قدرا ، وأكرمهم حسبا أحسنهم عملا ، وأتقاهم لربهم (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

الاسلام نظام جمهوري :

ان الاسلام أعلن حقوق الانسان قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرنا ، وليس مجرد اعلان ، بل وضع نظاما عمليا للجمهورية الحقة بالغا في الكمال منتهاه ، ومتناسيا معه في الاتقان كما قال المؤرخ الشهير (غيبون) ، فكانت حكومة نبي الاسلام وخلفائه الأربعة جمهورية كاملة ، تتشكل برأى الأمة وانتخابها ونيابتها ، ولذا توجد في مصطلحات الاسلام كلمات جامعة لهذا الغرض ، لا توجد مثلها في لغة ما ، حيث أنه لم يعترف بوجود ملك منصب ، وعوضه بمنصب لرئيس الجمهورية سماه بالخلافة ، وهي في اللغة : النيابة ، وسمى صاحبها بالخليفة أى النائب الذى لا يملك قوة ولا نفوذا بنفسه ، كذلك اختار لنظام الجمهورية كلمة الشورى ، ووصف المسلمين بقوله (وأمرهم شورى بينهم) والشورى ضد الاستبداد ، تقرر به أن جميع أعمال الحكومة يجب أن تكون برأى الجماعة ومشورتها ، لا برأى شخص وحكمه ، فأى اسم للجمهورية ورئيسها ونظامها يكون أحسن وأجمع من هذه الأسماء الاسلامية .

البيروكريسى الوطني والاسلامي ظلم أيضا :

فمادام الاسلام ينهى المسلمين عن قبول حكومة اسلامية لم تتشكل برأى الأمة وانتخابها ، فما تكون قيمة هذا (البيروكريسى) الأجنبي في نظر المسلمين ؟ وهب أنه لو تقوم الآن في الهند حكومة اسلامية على نظام شخصي أو تكون (بيروكريسية) لطائفة من الوطنيين ، فان الاسلام يوجب على أن أسميها أيضا ظالمة وجائرة ، وأسعى لخرابها ونقضها كما أفعل الآن .

ولست ببدع في ذلك ، فعلماء الاسلام مازالوا يجاهرون بنقد الولاة ، ويحاسبون المستبدين من المسلمين أنفسهم ، وانى لأعترف بكل الأسف أن نظام الاسلام الجمهورى لم يعمل به طويلا ، بل أدخلت القيصرية والكسروية ولاة المسلمين ، فمالوا عن الطريق ، وآثروا التشبه بقيصر وكسرى ، واستنكفوا

من التشبه بأسلافهم الخلفاء الراشدين ، الذين عاشوا طول حياتهم فى ثياب رثة كآحاد الناس ، بيد أنه لم يخل عهد من أصحاب الحق الذين ناقشوا الملوك والسلاطين فى استبدادهم وتحملوا بجموع تلك المصائب التى صبت عليهم فى هذه السبيل بوجوه مستبشرة .

الوظيفة الملية للمسلمين اعلاء الحق واعلانـــه :

ولعمرى ان المطالبة من مسلم بأن يحكت عن الحق ، ولا يسمى الظلم ظلما ، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الاسلامية . فان كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحدا بأن يرتد عن دينه ، فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظلم : أنه ظلم . لأن معنى كلتا المطالبتين واحد .

ان التصديق بالحق واعلانه عنصر ضرورى للحياة الاسلامية . فان فصل عنها فقدت أكبر مايمتاز به . لأن الاسلام أسس قومية المسلمين عليه ، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله ، فكما يجب على الشاهد ألا يتوانى فى ابداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ألا يتمتع فى اعلاء الحـــق ، ولا يبالى فى أداء فرضه بمصيبة وابتلاء ، بل يصدع به حيثما كان ، ولولاقى دونه الحمام .

وتصير هذه الفريضة أوكد وأوجب عندما يسود الظلم والجور ، ويمنع الناس من اعلان الحـق بالعنف والشدة ، لأنه ان أجيز السكوت عنه خوفا من بطش الجبارين ، الذين يقطعون الألسنة ، ويفتنون الأبدان بأنواع من العذاب ، يصبح الحق فى خطر دائم ، ولا يبقى لظهوره وقيامه مـن سبيل ، مع أن ناموس الحق فوق القوة ، وليس يحتاج فى ثبوته الى تصديق القوة ، ولا يضـــره سكوت الناس عنه قاطبة ، بل أنه يظل على كل حال حقا ، حقا عندما نجد فى سبيله ما نحـــب ونشتهى ، وحقا عندما يكون دونه الموت الزؤام . وهل تصير النار بردا والثلج نارا لأننا نحبـــس ونسجن ؟ !!

وجوب الشهادة بالحق وخطر كتمانهـــا :

لهذا أنبىء المسلمون فى كتابهم أنهم شهداء الحق فى أرض الله ، فالشهادة بالحـــق والصدع به وظيفتهم الملية ، وديانتهم القومية التى ميزتهم عن سائر الأمم الغابرة والآتية ....

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقال لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم " أنتم شهداء الله فى الأرض " .

فالمسلم مادام مسلما لا يستطيع كتمان هذه الشهادة ، وان حبس أو قتل ، أو ألقى جسده فى

النيران المتأججة .

وأخبر القرآن بأن من يكتم شهادته يبوء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المهاد ، وكذلك انبأ أن الأمم الكبيرة لم تهلك الا لأنها كتمت الحق " ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " وقال " لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون " .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ولذا نجد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر من أكثر الفرائض الاسلامية ، وقد أخبر القرآن أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس لعظمة المسلمين وفخارهم القوى ، وأنهم خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأنهم ان حادوا عنه يفقدوا سؤددهم ومجدهم الشامخ (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقال النبي عليه الصلاة والسلام (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم (الترمذى) .

وأما أداء هذه الفريضة فعلى ثلاث درجات في ثلاث حالات مختلفة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) (رواه مسلم) .

وحيث أننا لسوء حظنا لا نقدر في هذه البلاد على تغيير منكرات الحكومة بأيدينا فاننا ننتقل الى الدرجة الثانية التي في وسعنا ، وهي : أن نعلن بألسنتنا ظلمها ومساوئها ، ونندد بمثاليها ونشهر بمعايبها .

الأركان الأربعة :

ان القرآن وضع أساس الحياة الاسلامية على أربع دعائم : (الايمان . العمل الصالح . التوصية بالحق . التوصية بالصبر) .

فالايمان والعمل الصالح معناهما ظاهر ، أما التوصية بالحق فهي أن يوصى كل منا أخاه

بالتزام الحق والتوصية بالصبر : هى أن يتواصيا بتجشم المهالك ، وتحمل النوازل فى سبيل الحق ، وانما قرنت هذه بتلك لأن وقوع المحن والمشاق أمر لا مناص منه فى سبيل الحق (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

التوحيد الاسلامى والأمر بالمعروف :

التوحيد أساس الاسلام وقطب رحاه ، وضده الشرك الذى أشرب المسلمون بغضه فى قلوبهم ، ومعنى التوحيد أن يوحد الله فى ذاته وصفاته ، والشرك أن يجعلوا له سبحانه شريكا فى ذاته وفى صفاته .

والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون الا لله الواحد العظيم ، أما غيره فلا يخاف منه ، ولا يخشع له ، وأن من يخشى غير الله فهو مشرك به ، وجاعل غيره أهلا للخوف والطاعة ، وهذا ما لايجتمع مع التوحيد أبدا .

الاسلام من أوله الى آخره دعوة عامة الى التضحية والبسالة والجرأة والاستهانة بالموت فى سبيل الحق ، والقرآن يكرر هذا مرة بعد أخرى (ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا)[1] (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله)[2] (ولا يخافون لومة لائم)[3] (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)[4] (أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد)[5] .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله) رواه الحاكم عن جابر على شرط الصحيحين ، وفى رواية (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) رواه أبو داود وابن ماجة والترمذى ، وقد كان يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا الحق أينما كان ، كما رواه عبادة بن الصامت وأخرجه الشيخان .

---

(١) آية ٣٩ سورة الأحزاب .

(٢) آية ١٨ سورة براءة

(٣) آية ٥٤ سورة المائدة .

(٤) آية ١٧٦ سورة آل عمران .

(٥) آية ٣٦ سورة الزمر .

وقد أبيضت عين الدهر ولم ترمثل هذه التضحايا الكثيرة العظيمة فى اعلاء كلمة الحق التى قدمتها الأمة الاسلامية فى كل دور من حياتها . فتراجم علمائها ومشايخها وسادتها عبارة عن هذه التضحايا .

الا فلتعلم الحكومة الانجليزية أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ، ويتغلغل فى اللجج الدواهى والكوارث ، ولا يقبل السكوت عن الحق ، لا يخيفه قانون ١٢٤ من العقوبات الهندية ، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته ، اذ أكبر عقاب فى هذا القانون حبس المرء طول حياته . والمسلم يرحب به ويتمناه ان كان لا بد منه فى سبيل الحق .

لا يوجد فى الاسلام قانون ١٢٤ :

ان تاريخ الامة الاسلامية ينقسم الى دورين مختلفين :

الدور الأول دور نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة : وقد كان النظام الجمهورى فيه قائما بأتم معانيه ، فكانت الأمة متمتعة بالجمهورية الحقة ، ترتع فى رياض المساواة الاسلامية العامة ، وتعيش عيشة هنيئة فى ظلال الحرية الكاملة ، لا تخيفها الملكية المطلقة ، ولا تثقل كواهلها القيصرية والكسروية .

خليفتها ورئيس جمهوريتها من آحادها ، تنصبه بأيديها ، وتحاسبه فى جليل الأمور وحقيرها ، ولا تسمح له أن يجحف بها ، أو يستبد برأيه دون رأيها .

وهو نفسه يكون من أعدل الناس وأفضلهم وأعلمهم فى وظائف الخلافة والحكومة ، يعيش عيشة الفقراء والمساكين ، يستر جسده بأطمار بالية ، ويسكن فى كوخ حقير ، ولم يكن اذ ذاك بدار الخلافة الاسلامية القصر الأبيض لجمهورية أمريكا .

وقد كان المسلمون فى هذا الدور يقاطعون الخلفاء ويناقشونهم وهم على المنابر يخطبون[1] حتى ان عجزوا من عجائز العاصمة (المدينة) كانت تتجرأ عليهم وتخاطب الواحد منهم على مسمع من الناس أن تزغ عن الحق نقومك بسيوفنا والخليفة لا يؤاخذها ولا يعاقبها على ذلك ، بجناية

---

(١) يشير بذلك الى المرأة التى قاطعت سيدنا عمر وهو يخطب على المنبر ينهى عن التغالى فى المهور فذكرته بقوله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطارا) فرجع عمر عن كلامه وقال أخطأ عمر وأصابت امرأة ...

الثورة ، بل يشكر الله ويحمده أن وجد فى الأمة السنة صادقة فى اعلان الحق كهذه العجوز[1] .

وقد قام الخليفة مرة يوم الجمعة خطيبا وقال : اسمعوا واطيعوا فرد عليه رجل قائلا : والله لا نسمع ولا نطيع لأنك خنت الأمانة ، وأخذت من القماش أكثر من سهام المسلمين . فنادى الخليفة بابنه (عبد الله) فشهد أن أباه لم يخن المسلمين وقال : بل انى قد أعطيته سهمى من القماش ، ومن سهمينا كان الرداء الطويل الذى يلبسه .

وقد كان سير الأمة هذا مع ذلك الخليفة الذى كانت تقشعر من رهبته جلود الملوك فى عقر دارهم ، وتخر أمام هيبته عروش فارس ومصر ، وتتزلزل من بأسه جدران القسطنطينية ، ولكن مع هذا كله لم يكن هذه الحكومة الاسلامية قانون ١٢٤ يحاكم به الخليفة معارضيه من أصحاب الحق ..

أما الدور الثانى فدور الحكومة الشخصية والملكية المطلقة :

وقد بدأ باستيلاء بنى أمية على الخلافة قهرا وعنوة ، فانقلبت الجمهورية الاسلامية فيه على رأسها ، وحل الاستبداد والقهر محلها ، وظهر مكان الخليفة الاسلامى ملك تكلل بتاج الملك ، وتربع على عرش الحكومة المذهب ، ولكن استبداد هذا الدور مع سائر عقوباته المرعبة من الجلد بالسياط ، والحبس فى السجون ، والقتل بالسيوف ، لم يستطع أن يصد المسلمين عن اعلان الحق ، ويقعدهم عن الذود عنه وحمايته ، بل ظلت ألسنتهم حادة ذلقة فى اعلانه ، ونفوسهم متهيئة لتقديم المهج فى سبيله .

وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم عاشوا ظلوا يندد ون بمظالم الولاة ، ويشهرون بـه ، ويطالبونه بتغييره ، وجعل الحكومة شورى من المسلمين .

ثم قام مقامهم التابعون الذين تربوا فى حجورهم ، وتخلقوا بأخلاقهم ، فكانوا خير خلف لخير سلف ، ماهابوا غير الله ، وما داهنوا أحدا من خلقه ، بل كانوا يجهرون بالحق ، ويقولون للجبابرة أو الطواغيت : أصلحوا أو زولوا .

وقد عد الامام محمد الغزالى أولئك الصحابة والتابعين الذين كانوا الى زمن الخليفة

---

(١) المشهور أن الذى قال ذلك رجل وعمر رضى الله عنه يخطب فى أول توليته الخلافة: وقال: ان رأيتم فى اعوجاجا فقومونى . فقال رجل من المستمعين والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فلم يثر عمر بل قال : أحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوم عمر بسيفه .

هشام بن عبد الملك ، وأنكروا ظلم الأمراء ، وطالبوهم بحكومة الشورى والنيابة فبلغ عددهم أكثر من ثلاثة وعشرين رجــلا .

واني أنبه هنا أنه لا يوجد فى شريعة الاسلام قانون ١٢٤ من القوانين الهندية الذى كان يمنع هؤلاء الأخيار من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واعلان الحق وتقبيح الظلم .

هشــام وطــاووس :

طلب الخليفة الأموى الشهير هشام بن عبد الملك (طاووس اليمانى) يوما الى مجلســه ، فلما دخل عليه لم يسلم عليه بامرة المؤمنين ، ولكن قال السلام عليك ياهشام ، وجلس بحذائه ، وقال : كيف انت ياهشام ؟

فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله ، وقال له : ياطاووس ما الذى حملك علــى ماصنعت ؟ فقال له : وما الذى صنعت ؟ فازداد غضبا وغيظا ، وقال : (خلعت نعليـــك بحاشية بساطى ، ولم تقبل يدى ، ولم تسلم على بامرة المؤمنين ولم تكننى ، وجلست بازائى بغير اذنى ، وقلت : كيف أنت ياهشام : !!

قال طاووس : أما مافعلت من خلع نعلى بحاشية بساطك فانى أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات .

وأما قولك لم تقبل يدى فانى سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لا يحــــل لرجل ان يقبل يد احد الا امرأته من شهوة ، أو ولده من رحمة .

وأما قولك : لم تسلم على بامرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بامرتك ، فكرهت أن أكذب .

وأما قولك جلست بازائى ، فانى سمعت أمير المؤمنين عليا يقول : اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام .

فقال هشام : (عظنى) . فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن فى جهنم حيات كالاقلال ، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته ثم قام .

وكان مالك بن دينار ينادى فى جامع البصرة (ان الله دفع الى هؤلاء الملوك غنما سمانا صحاحا فأكلوا اللحم ، ولبسوا الصوف ، وتركوها عظاما تقعقع) .

أبوحازم وسليمان :

وخاطب أبوحازم سليمان بن عبد الملك الجبار بقوله : (ان آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ، ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة . وقد ارتحلوا . فلو شعرت بما قالوا وما قيل فيهم .

فقال له رجل من جلسائه : بئس ماقلت .

قال أبوحازم : (ان الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

وقال سليمان : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال أن تأخذه من حله فتضعه في حقه .

فقال سليمان : (ومن يقدر على ذلك ؟ .

فقال : من يطلب الجنة ، ويخاف من النار .

فقال سليمان : ادع لي . فقال أبوحازم : اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وان كان عدوك فخذ بناصيته الى ما تحب وترضى .

فقال سليمان : أوصني . فقال أوصيك وأوجز : عظم ربك ، ونزهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك من حيث أمرك .

وكان سعيد بن المسيب التابعي الكبير يقول على رؤس الأشهاد في ولاة زمنه (يجيعون الناس ويشبعون الكلاب) .

وقد ظل علماء الاسلام على هذه الديدنة بعد عهد خلفاء بني أمية غير هيابين ولا وجلين في عهد الدولة العباسية .

سفيان والمنصور :

فهذا المنصور الخليفة العباسي القهار لما قال لسفيان الثوري : ارفع الينا حاجتك . رد عليه قائلا : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا .

وهرون الرشيد :

ولما استقر على منصة الخلافة (هرون الرشيد) الخليفة العباسي الشهير كتب الى سفيان الثوري كتابا بيده يقول فيه :

((من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد بن منذر . أما بعد :

فيا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أني قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك ، ولم أقطع منها ودك ، واني منطولك على أفضل المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من اخواني واخوانك أحد الا وقد زارني ، وهنأني بما صرت اليه ، وقد فتحت بيوت الأموال ، وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي ، وقرت به عيني ، واني استبطأتك فلم تأتني ، فكتبت اليك كتابا شوقا مني اليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فاذا ورد اليك كتابي فالعجل العجل)) .

فهل يعلم اللورد ((ريدنج)) من كان هذا الرشيد الذي يكتب الى عالم من علماء المسلمين بهذه اللهجة اللينة ؟ انه قد كان يحكم ربع الكرة الأرضية ، ويخاطب قيصر الروم في كتاب منه اليه ((يا ابن الكلب)) كما صرح به المؤرخ جين الانكليزي . ثم هل علم بما رد به ذلك العالم عليه ؟ ان لم يعلم فليسمع مني جوابه ، ثم يتدبر فيه ، فانه يجلي له ما خفي عليه من حقيقة الاسلام ، وجرأة المسلمين في اعلان الحق ، ويبين له أن ما تطلبه حكومته منا لا ينال ، وأن المسلم لا يمتنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو فجع في النفس والمال .

قد كان من حديث سفيان أنه لما أتاه الرسول بكتاب الخليفة ، كان في مسجد الكوفة وحوله أصحابه ، فرمى اليه الرسول الكتاب فلما رآه ارتعد وتباعد منه ، كأنه حية عرضت له ، ثم أدخل يده في كمه ، ولفها بعباءته ، وأخذ الكتاب فقلبه ، ثم رماه الى من كان عنده ، وقال : ((يأخذه بعضكم يقرؤه ، فاني استغفر الله ان أمس شيئا مسه ظالم بيده . فلما فرغ من قراءته قال : ((اقلبوه واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله انه خليفة ، فلو كتبت اليه في قرطاس نقي ؟ فقال اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه ، فان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وان كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا ، فيفسد علينا ديننا ، ثم قال : اكتبوا :

كتاب سفيان اليه :

((من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري الى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان .

أما بعد : فانى قد كتبت اليك أعرفك أنه قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقلبت موضعك فانك قد جعلتنى شاهدا عليك ، باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فانفقته فى غير حقه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى ، حتى كتبت الـــى تشهدنى على نفسك ، أما أنى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى " ياهرون ، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ؟ هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله ، والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد ياهرون مئزرك وأعد للمسألة جوابا ، وللبلاء جلبابا " ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، وقد رزئت فى نفسك ، اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما ، وللظالمين اماما ، ياهــــرون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة بـرب العالمين ، ثم أقعدت احفادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفـــون ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ " .

فكيف بك ياهرون غدا اذا نادى المنادى من قبل الله تعالى ويداك مغلولتـان الى عنقك ، لا يفكهما الا عدلك وانصافك . الظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام الى النـار ، كأنى بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك ، وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمـــــة ، فاحتفظ بوصيتى ، واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية والسلام " .

فلما وصل هذا الكتاب الى هرون أقبل يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهـــق ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفى .

ولم يكن العلماء والائمة هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وحدهم ، بل كان يوجد من دهماء المسلمين وعامتهم من يؤدى هذه الفريضة بكل شجاعة ورباطة جأش .

المنصور حول الكعبـــة :

(فبينما كان الخليفة المنصور العباسى يطوف بالبيت اذ سمع رجلا عند الملتزم يقـــول : اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله مـــن الظلم والطمع) فدعاه المنصور وقال : ماهذا الذى سمعتك تقوله عن ظهور البغى والفساد فى الأرض ؟ وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ؟ .

فقال الرجل : الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ،واصلاح ما ظهر مـــن البغى والفساد فى الأرض ، أنت ، قال المنصور : ويحك كيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدى والحلو والحامض فى قبضتى ؟

قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ أن الله استرعاك أمور المسلمـــين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها منهم ، وبعثت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ، ان نسيت لم يذكروك ، وان ذكرت لم يعينوك ، وأقويتهم على ظلم الناس فى الأموال والكراع والسلاح ، وأمرت بألا يدخل من الناس الا فلانا وفلانا ، نفـر سميتهم فائتمروا على الا يصل اليك من علم أخبار النـــاس شىء الا ما أرادوا ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ... الخ) فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته .

الحجاج وحطيط الزيـــات :

ومن ذا الذى لم يسمع بظلم داهية بنى أمية الحجاج بن يوسف الثقفى ، وغلظته وسفكه للدماء ولكنه مع جبروته وغطرسته لم يستطع صد المسلمين عن اعلان الحـق .

فلقد جىء اليه يوما بحطيط الزيات أسيرا فلما دخل عليه قال : انت حطيط : قـــال : نعم . سل ما بدالك . فانى عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : ان سئلت لأصدقن ، وان ابتليت لأصبرن ، وان عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول فى ؟ قال : انك من أعداء اللـه فى الأرض تنتهك المحارم ، وتقتل بالظنة ؟ قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول أنه أعظم جرما منك . وانما أنت خطيئة من خطاياه .

ودخل رجل من المسلمين على المأمون بن الرشيد وقال له على ملأمن رجاله : ياظالم • انا ظالم ان لم أقل لك يا ظالم ، فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبلى فلم أجد لنفسى فيه حظا ، فتعلقت بموعظتك لعلى ألحقهم فأمر بضرب عنقه •(١)

فهكذا كان المسلمون فى الأيام الأولى يتقربون الى مولاهم بتعرضهم للملوك والسلاطين وتخشينهم لهم فى القول ، وتقديم مهجهم للهلاك ، ولقد ظلوا على هذه الوتيرة بعد ، ولا يزال يوجد منهم الربانيون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، حتى يأتى أمر الله ، كما ورد فى الخبر ((لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون)) •

الفتنة التتارية ، والفتنة الغربية :

فلا تفتنهم الفتنة الحديثة الغربية ، ولا تستطيع ردعهم عن علمهم الحق ، اذ هى ليست بجديدة عليهم ، فلقد دهموا قبلها بالفتنة التتارية ، وزلزلوا بها زلزالا شديدا ، فكما نرى الدول الأوربية ولا سيما انكلترا قد دمرت البلاد الاسلامية ، ومزقت شمل الخلافة العثمانية ، وقضت على حرية الممالك الشرقية ، وأباحت سفك دماء المسلمين أنهارا فى السهول الأناضولية ، كذلك كانت الفتنة التتارية والتتار ، لم يكونوا أناسا ، بل سباعا ووحوشا ، انهالوا على البلاد الاسلامية كالسيل الجارف ووضعوا السيف فى رقاب المسلمين ، ودمروا الخلافة العباسية ، ودخلوا بغداد فجاسوا خلال الديار ، ولكن هل قدرت سيوف هولاكو ومنكو وباتان السفاكين أن تقهر العلماء الربانيين وتسكتهم عن الحق ؟ كلا فهذا شاعر ايران الشهير السعدى الشيرازى قد قال لهولاكو خان وجها لوجه : انك ظالم ودعا شمس الدين التترى على طوخان وهو يسمع ويرى ، ولعن شيخ الاسلام احمد بن تيمية ايا قا آن فى حضرته وعلى ملأ من جنوده •

نعم كانت فى أيدى التتار السيوف البتارة تطير الهامات فى طرفة عين ، ولكن لم يكن فى الشورة الجنكيزية قانون ١٢٤ الذى امتازت به الدولة البريطانية المدنية فى بلاد الهند •

---

(١) ربما لأنه كان متكلفا فى هذا الموقف كما يظهر من كلامه •

الحجاج وريدنج :

فاذا كنا نحن المسلمين قد عاملنا حكومتنا الاسلامية هذه المعاملة ، فماذا يرجوه منا عمال هذه الحكومة الأجنبية ؟ وهل تكون الحكومة الانكليزية الهندية ((القانونية)) أكرم علينا من الحكومات الاسلامية التى طاعتها واجبة علينا ((شرعا ودينا)) ؟ وهل دولة الملك جورج الخامس ونيابة اللورد ريدنج أعز علينا من خلافة عبد الملك بن مروان ونيابة الحجاج بن يوسف الثقفى ؟ ولو غضضنا الطرف عن الفرق الشرعى العظيم بين الحكومة الأجنبية غير الاسلامية والحكومة الوطنية الاسلامية وأنزلناهما منزلة واحدة ، أفلا نقول فى حكومات (جيمسفورد) و (ريدنغ) ماقلناه فى حكومات الحجاج وخالد القسرى من قبل ؟ قد قلنا يومئذ : اتق الله ، فقد ملأت الأرض ظلما وجورا وهذا هو الذى نقوله اليوم ، ولا نزال نقوله حتى يزول الاستبداد أو نزول نحن .

والحقيقة أن ما نعمله الآن فى الهند من ترك التعاون ومقاطعة الحكومة ، انما كما أمرنا به فى مقابلة ظلم الولاة من المسلمين ، لا فى مقابلة الأجانب — ولو فهم أساطين بريطانيا ودهاتها هذه الحقيقة ، لاعترفوا بأن مساهمة المسلمين معهم ومداراتهم قد بلغت منتهاها ، وأنه لا ينبغى أن ينتظر منهم أكثر من هذا ، اذ ليس وراءه الا الارتداد عن الاسلام أو النفاق فيه ، ولا يمكنهم أن يفعلوا ذلك حبا فى سواد عيون البريطانيين (أو زرقتها) ..

موقف المسلمين اذا ظلموا :

ان الشريعة الاسلامية رسمت للمسلمين خطتين اذا ظلموا ، خطة ضد استبداد الحكومة الاسلامية ، وخطة ضد استبداد الحكومة الأجنبية ، والأولى تنحصر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واعلان الحق ، وتقبيح الظلم من استطاع اليه سبيلا ، أما الثانية فليست الا السيف والحرب العوان وضرب الرقاب ، وفى كلتيهما أمر المسلمين بأن يزهقوا نفوسهم ، ويرحبوا بالموت صابرين ، ثابتين ، شاكرين ، راجين رحمة ربهم وفلاح الدنيا والآخرة . ولذا تجدهم كما تجرعوا كؤوس المنايا بين الولاة الظلمة من أنفسهم فى سبيل الحق ، كذلك باعوا رؤوسهم بيد الأجانب فى أعلاء كلمة الحق وقد سبقوا سائر الأمم فى هذا المضمار ، فلا يوجد (لسجيهم العربى) مثال ، ولا يوجد (لسجيهم المدنى) مثال .

ولقد كان يجب على مسلمي الهند الآن أن يتخذوا الخطة الثانية ، فيحاربوا الحكومة الانكليزية بالسلاح ، ويتفانوا في جهادهم ، غير أنهم آثروا الأولى ، وأعلنوا أنهم لا يرفعون عليها السلاح ، ولا يسفكون الدماء ، بل يظلون متمسكين بعرى الأمن والسلم ، وانما يقاطعونها وينفضون أيديهم من التعاون معها ، ويشهرون بسوآتها ، ويطلبون تغييرها (بالسعى المدنى) أى يعاملونها كما كانوا يعاملون الحكومات الاسلامية الجائرة .

أجل ان فيهم ضعفا ووهنا ، ولا يستطيعون محاربة الدولة البريطانية القوية ، الا أنهم لم يكونوا عاجزين عن القاء أنفسهم فى أفواه مدافعها وسد طريقها بجثثهم الممزقة ، ولكنهم مع قدرتهم عليه اختاروا الخطة الأولى ، ولم يذيقوا عليها السبل ، فهلا كان يجب عليها أن تنكر فى صنيعهم وتسامحهم معها ؟ فحسبها أنهم يعاملونها كمعاملتهم لحكوماتهم الاسلامية .

انقلاب الحـــال :

وانى أقول حقا انه لا يؤلمنى أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتى ، وانها لا تحاكمنى الا لأن تزجنى فى السجون ، اذ هذا أمر لا بد منه وانما الذى يؤلمنى فيفتت كبدى هو أن أرى الحالة تنقلب انقلابا تاما فبدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق يطلب منه كتمان الشهادة والا يقول للظالم (انك ظالم (لأن قانون ١٢٤ يعاقب عليه) .

ولقد كان المسلم فى العهد الأول يوقف بين يدى ملك جبار لقوله له انك ظالم فيصب عليه العذاب الى أن تتشقق القصب ثم يعدون قصبة حتى يذهب لحمه كله ، فلا يسمعونه يستغيث أو يندم أو يتألم ، بل لا ينفك لسانه يقول ماقالــه أولا [1] فوازنوا بيـن هذا وبـين قانونكم ١٢٤ .

ولست أنكر أن الحقيقة المحزنة هى أن المسلمين أنفسهم مسئولون عن هذا الانقلاب المخزى وتسلط الأجانب عليهم ، لأنهم قد فقدوا خصائص الحياة الاسلامية ، وكسبوا جميع رذائل العبودية حتى أصبحوا بحالتهم الحاضرة أكبر فتنة للاسلام . أقول هذا وقلبى يذوب حزنا ، وكمدا على وجود أناس من المسلمين فى هذه البلاد يتخذون أربابا من دون الله ، ويعبدون الظلم والظلمة جهرا وعلنا ، فالى الله المشتكى ثم الى الله المشتكى .

---

(١) وقد فعل هذا الحجاج بن يوسف الثقفى مع حطيط الزيات الذى مرت حكايته آنفا (المترجم)

الحريـــة أو المـــوت :

ولكن سوء حال المسلمين لا يعود ناحية تعاليم الاسلام الحق البيضاء المصونة بين دفتى الكتاب الحكيم ، وهى لا تبيح للمسلمين فى حال من الأحوال أن يصبحوا عبيدا وخولا للأذلاء والمستبدين ، بل توجب عليهم أن يحيوا أحرارا .. أو يموتوا كراما ، وليس بينهما سبيل .

وهذا الذى حملنى قبل اليوم باثنتى عشرة سنة على أن أذكر المسلمين فى (الهلال)[1] بأن الجهاد فى سبيل الحرية وبيع الرؤوس فى سبيل اعلاء كلمة الحق هو ارثهم الاسلامى القديم الذى ورثوه عن أجدادهم العظام ، وانه يجب أن يحافظوا عليها بكل قوة ، وأن دينهـــم يحتم عليهم أن يسبقوا جميع أبناء وطنهم فى الجهاد الوطنى ، فلا يكونوا فيه أذنابا ، بـــل رؤوسا وأعلاما ، يهتدى بهم . ولقد كان من فضل الله أن دعوتى لم تذهب أدراج الريـــاح ، بل لقيت القبول والاجابة منهم ، وها نحن أولاء نراهم اليوم قد شمروا عن ساعديهم ، وعزمـوا عزما أكيدا على السعى والعمل مع اخوانهم الوطنيين من الهندوس والنصارى والمجوس لتحريـر وطنهم من ربقة العبودية الأجنبية ، ولا يقر لهم قرار الا بعد نيل المرام .

مسألـة الخلافـــة :

وانى لا أذكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الاسلامية ، لأنها أشهر من أن تذكر ، ولكن الذى أريد التصريح به هو أنه لم يمض على يوم ولا ليلة فى خلال السنتين الماضيتـــين الا وأعلنت تلك المظالم على رؤوس الأشهاد ، وصرخت بأعلى صوتى قائلا : ان الدولـة الـتى تدوس الخلافة الاسلامية تحت أقدامها ، ولا تندم على ما اقترفته فى الهند من الفظائع والمنكرات لا تستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد ، لأنها بأعمالها قد أصبحت عدوا لـــد للاسلام والمسلمين ولسكان هذا القطـــر .

ولا تلومن الحكومة أحدا غير نفسها على سقوطها فى هذا المأزق ، الذى يصعب عليهــــا الخروج منه ، لأننى قد نبهتها سنة ١٩١٨ من معتقلى فى كتاب منى الى (اللورد جيمسفورد) الوالى السابق ، فصلت له فيه الأحكام الاسلامية التى تتعلق بالخلافة ، وجزيرة العرب ، وصارحته بأن الدولة البريطانية اذا نقضت عهودها واستولت على الخلافة والبلاد الاسلامية ، توقع المسلمين

---

(١) المجلة التى سبق أن تحدثنا عنها والتى أصدرها مولانا آزاد .

فى حالة حرجة جدا ، ولا يبقى لهم اذ ذاك الا أن يكونوا مع الاسلام أو مع بريطانيا ومعلوم أنهم يؤثرون الاسلام عليها .

ولكنها لتكبرها وعجرفتها لم تبال بما كتبت ، فألقت كتابى ظهريا ، ونكثت أيمانها من بعد توكيدها ، فاحتلت دار الخلافة الاسلامية ، واستولت على العراق والشام وفلسطين ، وبسطت نفوذها على جزيرة العرب ، فعادت الاسلام والمسلمين علنا ، واضطرتهم الى مقاطعتها ، ونبذ معونتها والتبرؤ من طاعتها ، وهو أقل ما توجبه الشريعة فى مثل هذه الحالة كما مر ، ثم انها باصرارها على غيها واعراضها عنهم ، واستنكافها من الانصات اليهم أيأستهم من نفسها ، حتى أيقنوا أن لا سبيل الى الحياة ونيل حقوقهم المغصوبة الا باسقاط هذه الحكومة ، واقامة حكومة وطنية بحتة ، وهى التى يسمونها فى لغتهم (بالسوراج) .

أعدل هذا أم ظلم ؟

وخلاصة القول ان اعترافاتى فى هذا الباب جلية وصريحة ، فانى لا أعد الحكومة الحاضرة الا (بيروكريسيا) غير شرعى ، وعدما محضا فى عين الحق والقانون ومئات الملايين من أبناء البلاد ، فهم يمقتونها أشد المقت ، ويطلبون زوالها وسقوطها بأسرع ما يمكن ، لأنهم ألفوها دائما تؤثر الرهبة والشدة فى أعمالها ، على العدل والحق ، وتبيح سفك الدماء البريئة بدون رحمة ولا شفقة فى (جليانو لا باغ) [1] وتجلد الصبيان الذين ماعرفوا الذنوب بعد لينحنوا أمام العلم البريطانى المثلث — ثم انهم وجدوها لا ترتدع عن دوس الخلافة الاسلامية ، ولا تسمع الصيحات المتوالية التى تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم ، وتسلم أزمير وتراقية الى اليونان ظلما وجورا ، وتسمح لهم باراقة دماء المسلمين أنهارا فى سهول الأناضول .

ولقد رأوا جرأتها فى سحق الحق غير قليلة ، وهمتها فى لبس الصدق بالافك غير كليلة ، ولسانها فى تكذيب الحقائق غير عيى ولا متلعثم ، فمع أنه يوجد فى ولاية أزمير (٧٠ ٪) من المسلمين ، يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى تحرج أن الأكثرية للمسيحيين !! ولقد وضع

---

(١) هو ميدان محاط بالجدران بمدينة أمرتسر من مقاطعة بنجاب فى الشمال ، قتلت فيه الجيوش الانجليزية مئات من الوطنيين رجالا وشيوخا وأطفالا ، كانوا قد اجتمعوا فيه ليتشاوروا فى بعض القوانين الجائرة .

اليونانيون السيف فى رقاب المسلمين ، وذبحوهم ذبح الأنعام ، وهو يقلب الحقيقة فيتهم العثمانيين بالقتل وسفك الدماء ، ويشهر المظالم التركية المخترعة فى العالم بلا مبالاة ، ويخفى بكل وقاحة تقرير لجنة التفتيش الأمريكية التى ندبتها حكومته بنفسها ، ويؤلب على الأحرار العثمانيين الدول الغربية كلها ، ويدعوها الى محاربتهم واستئصالهم !!

ثم انهم وجدوها لا تخجل ولا تندم على هذه الفضائح والمنكرات ، ولا ترغب فى تلافيها واصلاح عوجها ، بل تعود ، فتستبد أكثر من قبل ، وتقهر البلاد وتكبح سميها الشرعى السنى ، وتحمل كل ماعملته فى الحقبة الماضية ، وما تعمله منذ ١٨ نوفمبر ، الى الآن ، من الأعمال الشنيعة التى تشمئز منها الانسانية وتعافها .

فياليت شعرى ان لم أقل لمثل هذه الحكومة : (انك ظالمة ، فاما ان تتوبى واما أن تزولى فماذا أقوله ؟ أفأكذب وأقول لها : لا بل انك عادلة فلا تتوبى ولا تزولى ؟ !! لعمر الله ان هذا لن يكون أبدا .

ولا يستحق الظالم أن يبدل اسمه ، ويسمى بغير اسمه ، لأنه يملك القوة والسجون والمشانق ، كلا بل أقول كما قال زعيم ايطالية وبطل الحرية (ميزنى) :

قسوة عينى فى (هذه الجناية)

انى لأعجب كيف تقدم الحكومة هاتين الخطبتين الناقصتين ضدى ؟ أفما كانت تجد غيرهما ؟ أفلا توجد هذه الأقوال بعينها وأكثر منها فى الآلاف المؤلفة فى الصحاف التى حررتها ، وفى جميع خطبى التى خطبتها فى سائر أنحاء الهند ؟ فلو أنها رجعت اليها لوجدتها ممتلئة من هذه الأفكار الثورية .

الحكومة تعلم أنى لست حديث عهد (بمبادىء الثورة) لقد مارستها وأنا صغير ، وباشرت الخطابة والكتابة فيها وأنا ابن ثمانى عشرة سنة ، وأفنيت شبابى فى عشقها والهيمان بها ، ودعوت أمتى اليها جهرا على مسمع من الحكومة ، وحرضتها على المطالبة بحقوقها منها ، ولذا اعتقلتنى أربع سنوات ، ولكن الاعتقال لم يكن ليمنعنى من أداء واجباتى ، فظللت تحت المراقبة الشديدة أرفع صوتى بها ، وأدعو الناس اليها ، لا سرا بل علنا فى رابعة النهار ، وكيف لا ، وفيها قرة عينى ، وهى مقصدى من الحياة ، أن أعشر لأجلها ، وان مت مت عليها ، (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

الحركة الاسلامية الاخيرة :

كيف استطيع التبرؤ من هذه (الجناية) وأنا الذى قمت بهذه الحركة الاسلامية التي احدثت انقلابا عظيما فى أفكار المسلمين السياسية وأوصلتهم الى حيث تراهم الآن ، فانهم بقبولهم أفكارى أصبحوا شركائى فى الجريمة واستحقوا العقاب الذى تفرضه الحكومة ولقد اصدرت سنة ١٩١٢ صحيفة باسم ((الهلال)) بثثت بها جراثيم هذا الذنب لدى المسلمين ، فملكت بقلوبهم وسممت أفكارهم ، فبعد أن كانوا أعداء لاخوانهم الهندوس وعقبة كأداء فى جهادهم الوطنى ، وآلة صماء فى يد الحكومة ، يعتقدون أن البلاد اذا استقلت تغلب عليهم الهندوس ، وأسسوا دولتهم لأنهم اكثر عددا منهم ، أصبحوا بدعوة ((الهلال)) يرجحون قوة الايمان ، قوة الايمان والحق على قوة العدد والعدد ، ودعوتهم الى المساهمة مع الهندوس فى الجهاد الوطنى ، فأصبحوا متحدين معهم ، وقاموا جميعا بالحركة الحاضرة ، وغنى عن البيان أن الحكومة لم تكن لتتحمل الحركة التى أحدثتها ((الهلال)) فعمدت الى مصادرتها ، واغلاق مطبعتها ، ثم انشأت جريدة اخرى باسم ((البلاغ)) فاعتقلتنى ،

وانى أصرح هنا بأن ((الهلال)) لم تكن الا دعوة للحرية والموت وأن ما يعمله الآن ((المهاتما غاندى)) من بث الروح الدينية فى النفوس كانت ((الهلال)) قد فرغت منه سنة ١٩١٤ وأن من المصادفات العجيبة أن المسلمين والهندوس ماقاموا بالحركة الجديدة القوية الا بعد أن حلت فيهم الروحانية الدينية محل المدنية الغربية المادية ،

مؤتمر الخلافة بكلكتا :

ثم انى منذ خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أنشر هذه المبادىء بين الناس، وادعوهم اليها ، ففى مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بكلكتا نفسها والذى رأست جلساته ، وحملت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتى :

((ان اصرت الحكومة على غوايتها ولم تصغ لمطالبنا فى مسألة الخلافة اضطر المسلمون تلبية لأوامر دينهم أن يتخلوا عن جميع روابط الولاء التى تربطهم بها)) ،

وألقيت في هذا المؤتمر خطبة طويلة بينت فيها جميع الأمور بيانا تاما ، وهي توجد ناقصة في هاتين الخطبتين اللتين أحاكم عليهما ...

التعاون والخدمة العسكرية :

ولقد شرحت في هذه الخطبة أن الشريعة توجب على المسلمين في الحالة الحاضرة أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة ، وأن يقاطعوها مقاطعة تامة ، وهذا هو ((اللاتعاون)) الذي أطلق عليه فيما بعد اسم (Non Cooperation) وتولى ((مهاتما غاندى)) قيادته .

وفي نفس هذا المؤتمر المنعقد بكلكتا أعلن ((أنه لايحل للمسلمين أن ينخرطوا في الخدمة العسكرية لهذه الحكومة ، لأنها تحارب الخلافة الاسلامية)) وأن من أعجب العجب أن تؤاخذ الحكومة أناسا [1] وتعاقبهم لاعلانهم هذا الحكم في مدينة كراتشي ولا تؤاخذني به ، مع أني صرحت مرارا على صفحات الجرائد وفي خطبي أن أول من قدم هذا الاقتراح وأعلن هذا الحكم الديني هو أنا بعيني ، فقد تقرر هذا وصودق عليه في ثلاثة مؤتمرات تحت رياستي ((أولا في كلكتا ثم في بريلي ثم في لاهور ، وقد أعلنته في غير هذه المؤتمرات ودعوت الحكومة الى معاقبتي ، مع أني كنت أحق الناس وأولاهم بالعقاب عليه .

وقد طبعت خطبة مؤتمر كلكتا بعد زيادات فيها ، ونشرت مع الترجمة الانجليزية مرارا ، وهي بمثابة جدول مكتوب لجرائمي وذنوبي .

حياتي كلها ((جناية)) :

لقد طفت البلاد الهندية كلها عدة مرات خلال السنتين الماضيتين وحدي ، ومع ((مهاتما غاندى)) ولا توجد بلدة الا وخطبت فيها على مسألة الخلافة وبنجاب ((وسوراج)) (الحرية) واللاتعاون ، وبينت جميع تلك الأمور التي تحتوى عليها هاتان الخطبتان .

ولقد انعقدت جمعية الخلافة الكبرى في ديسمبر سنة ١٩٢٠ مع المؤتمر الوطني في ((ناكبور)) وجمعية العلماء في ابريل سنة ١٩٢١ في ((بريلى)) وجمعية الخلافة لمقاطعة ((أوهرو)) في اكتوبر ((بأجرا)) وجمعية العلماء العامة في نوفمبر ((بلاهور)) وقد رأست

[1] وقد سجنت الحكومة الاخوين الشهيرين محمد على وشوكت على وغيرهما مدة سنتين لاعلانهم مثل هذا في مؤتمر الخلافة الذي عقد في كراتشي سنة ١٩٢١ .

هذه الجمعيات كلها ، وخطبت فيها خطبا طويلة قلت فيها ماقلت فى هاتين الخطبتين بل أكثر منه وأشد .

فان كانت محتويات هاتين الخطبتين لا تلائم الحكومة وتراني أستحق العقاب لأجلها تحت قانون (١٢٤) ، فلم لاتعاقبني على جميع خطبي ، وهي كلها مثلهما بل أشد وطأة على الاستبداد منهما ؟ بل اني مضطر هنا الى التصريح أمامكم بأني ارتكبت هذه الجناية مرارا يستحيل عدها بل ماعملت فى السنتين الماضيتين غير هذه الجناية .

اللاتعاون السلمي :

اننا وضعنا لجهادنا الحق خطة (اللاتعاون السلمي) . أجل أن القوات المادية واقفة أمامنا بجميع أسلحتها القتالة ، وموادها المظيمة تريد أن تسحقنا سحقا ، وتمحق الحرية والحق معنا ، ولكن هذا لا يهولنا ، لأننا لانثق بالمادة والأسلحة المادية . انما اتكالنا على الله الواحد القهار وثقتنا فى الضحايا المتوالية التى نقدمها ، والثبات القوي الذى نظهره فى هذه المعمعة القائمة بين الحق والباطل والحرية والاستبداد .

واني لا أرى مثل ((مهاتما غاندي)) أن استعمال السلاح لايجوز بحال ، لأنني مسلم واعتقد أن استعماله مباح فى المواقع التى ابتاحه الاسلام فيها ولكني مع هذا أسلم بجميع أدلة ((المهاتما غاندي)) فى المسألة الحاضرة وأعتقد صحتها ، واني لعلى يقين من أن الهند ستفوز فى قضيتها بخطة اللاتعاون السلمي ، ويكون فوزها مثالا عظيما لفوز القوة الروحانية والاخلاقية والحق على الباطل والمادة ..

الحالة الحاضرة طبيعية :

واني أكرر ما قلته أولا وهو أن ما تعمله الحكومة معنا ليس بأمر عجيب ولاغير منتظر فنلومها عليه ، أو نتبرم منه ، فان القهر والعنف لقمع الحرية والحق دأب الحكومات الجائرة وديدنها منذ الأيام الخالية الى اليوم ، ولا ينبغي لنا أن نمني انفسنا بتغيير الطبيعة لأجلنا .

وهذا الضعف الطبيعي كما يوجد فى الأفراد يوجد فى الجماعات ، فكم من الناس من يرد النزر اليسير المغصوب لأنه لاحق له فيه ؟ ! وكيف ننتظر من دولة أن تتخلى عن قارة تسلطت عليها ووجدتها تدر كالبقرة الحلوب ؟ انها لاتقبل شيئا لأنه حق وعدل ، بل تنتظر قوة مقاومة

مثلها . فاذا تصادمت بها خضعت لكل طلب مهما كان فاحشا . فالحرب التى شبت الآن بين البلاد والحكومة لابد من طولها وامتدادها . ولا تأتى النتيجة الا بشق الانفس وان هذا لواضح جلى لكل بصير . بل هو عادى مثل سائر احوالنا المادية . فلا ينبغى أن نعجب منه أو نضجر .

وانى أسلم بأننا لم يصبنا ما أصاب الأمم قبلنا فى هذا السبيل . من العسف والظلم ونقص الأموال والأنفس . ولا أدرى أهذا لضعف فى مطالبتنا بالحقوق . ووهن فى سعينا وجهادنا أم لأن ظلم الحكومة لم يبلغ منتهاه بعد ؟ ان المستقبل وحده كفيل بكشفه وبيانه .

وقد علمنا التاريخ أن هذا التزاحم كما يبتدىء فى كل زمان متشابها . كذلك ينتهى دائما متشابها . فالحرية والحق ينتصران ويغلبان . والاستبداد والباطل يخذلان ويسقطان . فاذا كنا صادقين فى قضيتنا . صابرين فى بلائنا فاننا ننجح ونفوز بلا ريب . وتضطر هذه الحكومة التى تعاملنا اليوم كالمجرمين الى أن ترحب بنا غدا كالأبطال الفاتحين ...

الثـــــورة :

لقد اتهمت بالثورة . فمهلا . ذرونى أفهم معنى ((الثورة)) أهى ذلك السعى الذى لم ينجح بعد ؟ ان كان هذا هو الثورة فنعم . انى ثائر وواقف بين يديكم فعاقبونى بأى عقاب شئتم . ولكن اعلموا أن هذا السعى اذا تكلل بالنجاح فانه يسمى (بحب الوطن) وجهاد الحرية . لقد كنتم بالأمس تسمون قادة ايرلندا (ثوارا عصاة) ولكن أى اسم تختاره الدولة البريطانيـــة لرديماليرا وجريفث ؟ أهم ثوار الآن أم أبطال الحرية ؟

ولقد قال مرة قائد ايرلندا بارنل : مازال عملنا هذا يسمى فى البداية ثورة . ثم كــان فى النهاية جهادا وحربا مقدسة للحرية والوطن .

ناموس القضاء بالحق :

اننى مسلم وحسب المسلم يقينا كتابه الذى يؤمن به . فالقرآن يدل على أن ناموس انتخاب الطبيعة وبقاء الأصلح . ناموس عام . كما يعمل عمله فى الأجسام والمادة فيبقى فيها الأصــح والأصلح للبقاء . كذلك يعمل فى العقائد والأعمال . فالأعمال الصالحة تخلد وتثمر . والأعمـال

السيئة تفنى وتصير هباء منثورا ، واذا وقع بينهما نزاع غلبت الأولى وحلت محل الثانية (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال[1] .

ولذا يسمى القرآن العمل الصالح ((بالحق)) الذى معناه الثبوت والقيام ، ويسمى الشر والسوء ((بالباطل)) الذى من شأنه أن يزول (ان الباطل كان زهوقا) .

فالتدافع الذى نراه قائما بين الحزبين سينتهى غدا بفوز الحق والصدق وبخسران الباطل تلك سنة الله ((فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا)) .[2]

وانى لا أدرى أقريب يوم الفصل أم بعيد ؟ ولكنى أرى الجو قد اكفهر وتلبد بالغيوم ، واجتمعت الآيات على سقوط الامطار ، والويل كل الويل لمن يرى الآيات والنذر ثم لا يأخذ أهبته ، ولا يسد ثغرته ، وانى لأرى الحكومة من أولئك الذين لا تغنيهم الآيات والنذر فانها لاتزال فى تيهها وطغيانها .

وقد قلت فى هاتين الخطبتين : ان الحرية لا يسطع نجمها ، ولا تستوى على سوقها الا اذا سقيت بماء الظلم والقهر ، فها هى ذى الحكومة قد أخذت تسقيها بظلمها وقهرها .

وكذلك قلت فيهما : اخوانى – لاتحزنوا على من حبس منكم ، بل ان كنتم تطلبون الحق والحرية حقا فهلموا الى السجون واملئوها ، فها نحن أولاء نرى السجون قد ازدحمت وامتلأت حجرها حتى لم يبق فيها محل للصوص والقتلة ، واضطرت الحكومة الى تشييد سجون جديدة .

وكيل الدعوى ، والبوليس ، والقاضى :

وفى الختام أريد أن أسوق كلمة الى هذا النفر من بنى جلدتى الذين يعملون ضدى فى هذه القضية ، فأقول : " أصحابى ، ثقوا بأنى لا أغضب ولا أحقد عليكم ، بل لا أتهمكم بالكذب والزور على ، لأن كل ما قلتموه فى الشهادة حق وصدق ، ولكنى أراكم قد عصيتم الله ربكم بمساعدة الحكومة فى استبدادها وظلمها ، ومحاربتها للاسلام والانسانية ، انى أعلم أن صوت الضمير يوبخكم فى أعماق سرائركم على ما تعملونه ، ولكنكم انما اضطررتم اليها اضطرارا ، لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم وترتزقون به أهليكم ، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء فى سبيل الحق ، فلذا لا أضيق عليكم ولا أعنفكم بل أعفو عنكم وأستغفر لكم الله " .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد (٢) آية ١٣ من سورة فاطر .

وأما وكيل الدعوى فهو أيضا أحد أبناء وطني ، ولا علم لي بسريرته . وانما أرى علانيته ، وهي تشهد أنه لا حظ له في هذه القضية غير ما يفقده من النقود . فانه أجير يعمل لأجرته ، فلذا لا أسخط ولا أحقد عليه ، بل ادعو لجميع هؤلاء بدعوة نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم لقومه (اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون) .

فاقض ما أنت قاض :

وأنت أيها القاضي ما ذا عسى أن أقول لك ؟ ما أقول الا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقفي هذا : (فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا) .

انني لا أحس بأدنى هم ولا ألم مهما تبالغ في العقاب ، لأن خطابي مع الحكومة لا مع شخص واحد سوما دامت الحكومة فاسدة فلا رجاء في صلاح عمالها .

واني لأختم خطابي بكلمات لفقيد ايطاليا وشهيد الحق ((غارد ينيوبرونو)) الذي كان أوقف مثلي أمام المحاكم فقال ((عاقبوني بأكثر ما يمكنكم أن تعاقبوني به ، فاني أؤكد لكم أن ما يشعر به قلبكم من العطف والحنان عند كتابتكم الجزاء لا يشعر قلبي في مقابلته بذرة من الفزع والهلع عند سماعي هذا الجزاء)) .

وختاما :

أيها القاضي لقد طال الحديث ، وآن أوان الوداع ، فليودع كل منا صاحبه ، وان ما يدور الآن بيننا سيسجله التاريخ بين دفاتره ، ويعتبر به المعتبرون ، ولقد تشاركنا في ترتيبه على سواء ، انا من هذا القفص للجناة ، وأنت من ذلك الكرسي للقضاة . واني أعلم بأنه لابد من هذا الكرسي ، وكذلك لابد من هذا القفص فهلم بنا نفرغ من هذا العمل الذي سيكون عبرة وتذكرة للآتين ، فالمؤرخ ينتظرنا ، والمستقبل يترقب فراغنا ، لنسرع في المجيء اليك ولتسرع أنت في القضاء علينا ، وأن هذا العمل لايطول قليلا حتى يفتح باب لمحكمة اخرى . وتلك المحكمة محكمة قانون الله والحق ، الزمان يقضي فيها ، ويكون قضاؤه حكما ، وحكمه نافذا . " أ هـ

" ملحق ١ "

الخلافة

على وجهه فى النار • وجعل زمامه بيد الشيطان • وقضى على نفسه بالخسران والهلاك — وذلك لأن الجماعة كالسلسلة الفولاذية التى يعيى الأشداء كسرها • وآحاد الأمة كالحلقات التى سلامة كل واحدة منها فى سلسلتها • فانها ان انفصلت عنها صارت حلقة واحدة تكسر أو تلقى فى الزبالة — •

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كثيرا ما يروى فى خطبه " عليكم بالجماعة — فان الشيطان مع الفذ • وهو من الاثنين أبعد " وفى رواية " فان الشيطان مع الواحد " وقد ذكره فى خطبته الشهيرة بالجابية التى رواهاعبدالعزيز ابن دينار وعامر بن سعد وسليمان بن يسار وغيرهم ونقل البيهقى أن الشافعى رضى الله عنه كان يستدل بهذا على صحة الاجماع — وورد فى الحديث المتواتر بالمعنى " عليكم بالسواد الأعظم " وحديث " فانه من شذ • شذ الى النار " وحديث " يد الله على الجماعة " وحديث "لا يجمع الله أمتى على الضلالة "وكما قال على عليه السلام فى خطبة له " اياكم والفرقة • فان الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب • الا من دعا الى هذا الشعار فاقتلوه • ولو كان تحت عمامتى هذه " (١) وغير هذا كثير من الأحاديث والآثار فى هذا الباب —

فجملة القول أن المسلمين أمروا أمرا مؤكدا بأن يكونوا مع الجماعة أبدا • لأن من انقطع عنها انقطع فى النار — ولأن الأفراد والآحاد المتفرقة لا حياة لهم بل انما هم للموت والفناء والهلاك • وأما الأمة الصالحة فحياتها باقية على وجه الدهر • ولن تهلك أبدا — ولأن يد الله مع الجماعة • وهو لا يرضى أن تجتمع الأمة بأسرها على الضلالة •

ولتعويد المسلمين على الحياة الاجتماعية أمرتهم الشريعة بالتزام صلاة الجماعة (٢) فى كل حال • حتى انها لا تترك لفقدان الامام الأهل للجماعة • بل يداوم عليها مع السعى فى نصب الأهل لقوله صلى الله عليه وسلم " صلوا خلف كل بر وفاجر(٣) •"

ولذلك نرى سورة الفاتحة التى هى دعاء اجتماعى للمؤمنين عامة يدعو بها كل

---

١ — روى هذا فى الروايات الأخرى مرفوعا — اه من حواشى الاصل
٢ — تقديم التعليل يفيد الحصر ولا حصر ففى صلاة الجماعة فوائد أخرى •
٣ — رواه البيهقى فى سننه بسند ضعيف وله تتمة •

واحد منهم على حدته استعملت فيها صيغ الجمع لا الواحد – فقال " اهدنا الصراط المستقيم " ولم يقل " اهدني " وذلك لان القرآن كما قلنا من قبل لا يرى للفرد حياة قائمة بالذات ، بل الحياة عنده الجماعة فقط – وما الافراد واعمالهم في نظره الا لان تتكون منهم ومنها الهيئة الاجتماعية ، فلهذا عبر بصيغ الجمع في هذا الدعاء الذي هو حاصل الايمان ، وزبده القرآن ، ومخ الاسلام – وكذلك جعل الدعاء الذي يدعو به كل مسلم لاخيه لما يلقاه " السلام عليكم " بالجمع لا " السلام عليك " ، كذلك السلام حين الخروج من الصلاة – والعلة فيه ايضا ما ذكرناه لا ما فهمه كثير من الناس .

وانك اذا امعنت النظر ترى جميع احكام الشريعة واعمالها مبنية على هذا الاساس – اساس الاجتماع والائتلاف – وقد علمت ما في صلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، ومثلها الحج ، فليس هو الا عبارة عن اجتماع المسلمين على اداء شعائر الله ، وكذلك الزكاة التي ما جعلت الا لقيام الهيئة الاجتماعية ، فيؤخذ من رؤوس اموال الافراد شيء معين ليصرف على الجماعة وطريقة ادائها ايضا اجتماعية فليس لكل احد ان يصرف زكاته بمشيئته وارادته ، بل عليه ان يؤديها الى الامام الذي له وحده ان ينفقها في الامور العامة ويعين لها مصرفا من المصارف المنصوصة في الكتاب – لا كما يفعله الناس في الهند فينفق كل واحد زكاته بنفسه نعم ليس في هذه البلاد التعسة امام ، ولكن هذا لا يمنعنا من ان نعمل لها نظاما مخصوصا كما عملنا للجمعة والعيدين .

ولعمر الله ان هذه الحقيقة واضحة لا غبار عليها تنجلي كالشمس لمن دقق النظر في الاحاديث النبوية التي تنص على ان المسلمين يجب ان يعيشوا عيشة واحدة ويحسبوا انفسهم ابناء امة واحدة – فانظر مثلا حديث مسلم " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد . اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وحديث الصحيحين " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ثم شبك بين اصابعه فأوضح صلى الله عليه وسلم ان المسلمين ليسوا آجرا أو حجارة متفرقة بل هم جدار بل حصن مشيد يشد بعضه بعضا – ولا يذهبن عن بالك ان الامر بتسوية الصفوف في الصلاة انما هو لنفس هذه الحكمة – قال صلى الله عليه وسلم " لتسون

صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم " (البخارى) وفى رواية السنن " سووا صفوفكم فان تسوية الصفوف من اقامة الصلاة " — (البخارى) ومثله كثير من الآيات والاحاديث فى هذا الباب ، يحتاج فى شرحها وبيان حقائقها الى مجلد ضخم ، وقد وفينا البحث حقه فى تفسيرنا " البيان فى مقاصد القرآن " فليراجعه من يشاء .

اجتماع القوى والمناصب وانتشارها

لما كان المسلمون سائرين على هذا الناموس الالهى — ناموس الاجتماع والائتلاف — كانوا فى الذروة العليا من التقدم والرقى ، ولما حادوا عن هذا السبيل القويم سفلوا وانحطوا ، فحل محل الاجتماع الانتشار — فتفرق جمعهم وتمزق شملهم ، وتبددت قواهم ، فكانوا قوما بورا . ولم تقتصر هذه البلية على جانب دون جانب بل عمت وأحاطت الأمة من جميع الجوانب وهى لا تزال ضاربة بأطنابها منذ ألف وثلاثمائة سنة ، بل آخذة فى الازدياد وما يمر يوم الا وتشتد وطأتها فيها —

وقد لهج الناس كثيرا فى انحطاط المسلمين ، فعللوا له عللا ، واخترعوا له اسبابا — غير أن القرآن الحكيم والسنة النبوية والعقل الصحيح لا يقيم لهذا القيل والقال والثرثرة وزنا ، ويرى أن الفساد والانحطاط نتيجة الانتشار والتشتت فقط ، وكل ما عدا هذا من العلل والأسباب فمتفرعة منه ، وراجعة اليه ، فعلة سقوط المسلمين واحدة لا اثنتين ، وان سميت بأسماء مختلفة ، وذكرت بألفاظ عديدة .

نعم قد عمت الفوضى جميع شئون الأمة ، غير أنا نذكر ههنا واحدا منها فنقول . كان النبى صلى الله عليه وسلم مركزا للأمة الاسلامية ترتكز عليه ونقطة لقواها تجتمع فيها ، فلهذا لم يخل بوفاته محل نبى وحامل شريعة فقط ، بل قد خلا محل مركز جامعة الأمة ومصدر قواها ونفوذها — وحكومتها الى غير ذلك من الأوصاف والخصائص التى كانت مجتمعة فى شخصه الشريف — اذ أنه لم يكن كالمسيح عليه السلام معلما وواعظا ، ولا كالملوك الذين فتحوا وحكموا ودمروا وخربوا ، أو عمروا وشادوا ، بل كان صلى الله عليه وسلم جامعا لصفات ومزايا كثيرة فى حين واحد كان نبى الله ورسوله وهادى الخلق وواعظهم وواضع الشريعة ومؤسس الأمة وحاكم

الله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا "

نعم تمت هذه الوظائف النبوية الأساسية ، ولكن بقيت لها وظائف أخرى فرعية وستبقى على حالها ما بقى من الناس باق ، وقد عبر عنها النبى صلى الله وسلم بعبارات مختلفة ، فقال عن عمر رضى الله عنه انه " محدث هذه الأمة " وقال عن العلماء انهم " ورثة الأنبياء " وقال " الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءا من النبوة " وانه " لم يبق الا المبشرات " وحديث " التجديد " أيضا من هذا النوع .

فخلفاؤه الراشدون كانوا خلفاءه فى جميع وظائفه النبوية غير تلقى الوحى وحق التشريع ، اذ هما خاصان به ، لا يشاركه فيهما أحد من الخلق (١) — فكانوا مثله خلفاء الله فى أرضه ، وأصحاب السلطان — والنفوذ فيها ، وسواس الأمم وقواد الجيوش وقضاة المحاكم ، وأصحاب الاجتهاد والفتيا ، ومنظمى البلاد ، وفاتحى الأقطار ، وحكام الأمم والشعوب ، وذلك لأن " الخلافة والامامة " فى ذاتها كالنبوة مشتملة على الدين والدنيا ، وخليفة المسلمين كنبيهم مجتهد دينى ، وحاكم سياسى — فكنت ترى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مثلا فى دار شوراه بالمسجد النبوى يفتى فى

---

١ — المنار . حق التشريع فى الاسلام لله فهو الذى شرع الدين وأحل الحلال وحرم الحرام . واختلف العلماء فى كونه تعالى أعطى للنبى أن يشرع من تلقاء نفسه ابتداء أم لا ، فذهب الجمهور الى أن — جميع ما ثبت فى سنته من الاحكام فهو بوحى من الله تعالى غير القرآن أو باجتهاد فى فهم أحكامه والاستنباط منها ، ولهم دلائل كثيرة على هذا أظهرها أسناد الشرع اليه تعالى بقوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك) الخ وقوله (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) واذا أطلق عليه صلى الله عليه وسلم لقب الشارع فانما يراد به على هذا القول مبلغ الشريعة ومبينها وقال بعضهم ان الله أذن له بالتشريع من تلقاء نفسه واستدلوا بتحريمه للمدينة كما حرم ابراهيم مكة أن يباح صيدها أو يعضد شجرها أو يختلى خلاها (أى يقطع حشيشها) ولما قال له عمه العباس . الا الاذخر يارسول الله — وهو نبات عطر كانوا يضعونه على الموتى عند دفنهم قال " الا الاذخر " ووراء هذا التشريع الدينى ما جعل الله أمره مفوضا الى الرسول والى أولى الأمر يقررونه بالمشاورة وهو جميع ما يتعلق بالمصالح الدنيوية ويسمى فى عرف علماء الحقوق والقوانين تشريعا وسنعود الى بيانه عند الكلام على أولى الأمر .

فى المسائل الدينية من حيث أنه مجتهد وفقيه ويقضى ويحكم بين الناس من حيث انه قاض وحاكم — وينظم الجيوش ويفرق عليهم الجراية من حيث انه ناظر الحربية — ويضع الخطط الحربية من حيث أنه القائد العام — ويقابل سفراء الروم من حيث انه ملك وسلطان ، ثم تراه فى سواد الليل متفقد أحوال المدينة كأنه حارس وخفير وأب رحيم للمسلمين .

بل الأمر أكبر مما ذكر ، فقد ناب الخلفاء الراشدون عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وظائفه النبوية التنفيذية المتعلقة بهداية البشر التى جعلها القرآن ثلاثة أقسام بقوله تعالى " يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (٣/٦٢) فوظائف النبوة التنفيذية . تلاوة الآيات —وتزكية النفوس— وتعليم الكتاب والحكمة — فقاموا بهذه خير قيام ، ونابوا عنه فيها أحسن نيابة ، فكانوا أسوة بيتلون على الناس الآيات الالهية ويزكون القلوب والأرواح ويربون الأمة بتعليمها الكتاب وحكمة السنة — فكأنهم كانوا فى آن واحد أبا حنيفة والشافعى ، وجنيدا والشبلى ، وحمادا والنخعى ، وابن معين وابن راهويه والبخارى ، ولم يكن سلطانهم على الأجسام فقط ، بل كانوا يحكمون على القلوب والأرواح أيضا ببصيرتهم القوية وروحانيتهم القوية — ولذا سميت خلافتهم (بالخلافة الراشدة) — وجعلت أعمالهم تتمة لأعمال النبوة — فقال صلى الله عليه وسلم من وصية له " فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ "(١) فذكر مع سنته وأوصى الأمة بأن تمضى عليها بالنواجذ —

ولكن واأسفاه . لم تبق الخلافة النبوية والهيئة الاجتماعية الاسلامية على هذا المنوال طويلا ، بل انتهت بأمير المؤمنين على عليه السلام ، فعم الانتشار والتشتت جميع شئون الأمة فتزلزلت بناية الأمة الاجتماعية وسقطت جدرانها فهى خاوية على عروشها ، وانتقض النظام الشرعى وتبعثرت سائر القوى بعد أن كانت كتلة واحدة مجتمعة على نقطة واحدة ، وتفرقت المناصب والوظائف على أناس كثيرين بعد أن كانت

---

١ — رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية وقال الترمذى حديث حسن صحيح ، وأول المرفوع منه " أوصيكم بتقوى الله ".

فى يد واحدة — فمن ثم انفصلت الحكومة والسياسة ، من الدين والشريعة ، وأصبحت الخلافة عارية من خصائصها الروحية ، ومجردة عن وظائفها المتضمنة عن نهج النبوة فصارت ملكا عضوضا طبقا لقوله صلى الله عليه وسلم " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم ملك " وقد تقدم واما وظائفها الدينية فانقسمت أيضا وقام بها أناس آخرون فحمل القضاء والاجتهاد الفقهاء والمجتهدون فاصبحوا فرقة ، وحمل وظيفة الارشاد وتربية الأرواح وتزكية النفوس الصوفية وصاروا فرقة ، مع أن هذه الوظائف كلها كانت فى بدء الأمر بيد الخليفة الاسلامى فكان قائما بها كلها خير قيام ، وكانت بيعته تغنى عن غيره — بيد أنه بعد الانتشار والتشتت أصبح ملكا محضا ، نائيا عن وظيفة الافتاء والقضاء ، بعيدا عن التعليم الروحى وتزكية النفوس ، فهرع الناس الى أصحاب الطرق والمتصوفة وأخذوا يبايعونهم " بيعة التوبة والارشاد " " على اصطلاحهم " فبعد أن كانت القوى والمناصب والوظائف مجتمعة فى شخص الخليفة فكان ملكا وفقيها ومرشدا وقاضيا وقائدا ومحتسبا ، تفرقت فى دور الفتات وأصبحت لا نظام لها ولا زمام ، بل كلما امتد الزمان ، زاد الدين بلة ، والخرق سعة ، حتى بلغ السيل الزبى ، وعمت البلوى ، فتعارضت القوى وتصادم بعضها ببعض ايما تصادم — هذه هى الداهية الدهياء التى دهمت الأمة الاسلامية فقضت عليها ، لا ما يتخبط فيه الناس من اختراع الأسباب والعلل لسقوط المسلمين تقليدا للأفرنج —

والحاصل أن الخلافة التى تلت الخلافة الراشدة — سواء اكانت قرشية أو غير قرشية كانت حكومة دنيوية محضة وملكا عضوضا بعيدة عن النيابة النبوية فى وظائفها السياسية والحكم (اللهم الا خلافة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه) وهى لا تزال على هذه الطريقة الى الآن الا ما كان فى عهد السلطان عبدالحميد من الانقلاب وتأسيس الحكومة الدستورية فانه مما لا ريب فيه عود محمود الى الخلافة الراشدة قليلا (١) — لأن الشورى هى الشرط الأول والميزة الكبرى للحكومة الاسلامية الحق — اما فى غير هذا فلم تتغير من أحوالها شيئا .

---

(١) — المنار . ان الانقلاب الذى وقع فى آخر عهد عبدالحميد بالرغم منه وكان قاضيا على سلطته لم يكن شرعيا ولا وقع انتصارا للشرع وعودا اليه بل تقليدا للافرنج ، ومن أصوله أن يسلب من الخليفة السلطة المستقلة فى كل شىء ولكنه مع ذلك أدنى الى تمكين الأمة من اقامة الحق والعدل ومراعاة الشرع من السلطة الاستبدادية التى كان يتمتع بها اذا كان امرأ ى

طاعـة الخليفـة والـتزام الجماعـة

============

بعد هذه التوطئة الضرورية للبحث نقول أن الشريعة الغراء فرضت على المسلمين طاعة الخليفة مالم يأمر بمعصية ، كما فرضت طاعة الله وطاعة رسوله ولا عجب ، فإن نظام الشريعة الاجتماعي يقتضي ذلك وهو مطابق لناموس الفطرة تمام المطابقة ـ بل هو حلقة من سلسلة هذا الناموس الآلهي الذي يخضع له كل ما في السموات والأرض ، وذلك لأننا نرى كل شيء من هذا الكون البديع على نظام طبعي مخصوص وهو الذي يسمونه " بناموس المركزية " أو " بناموس الدوائر " ففي كل جهة من هذا الكون " مركز تحيط به الأجسام والذوات على شكل الدائرة وعلى هذا المركز تتوقف حياتها وبقاؤها ونماؤها فلو تحولت هذه الدائرة أو انحرفت عن طاعتها تتحول حالا ويعتريها الخراب والدمار في طرفة عين ـ وعن هذه الحقيقة عبر بعض الصوفية بقوله " ان الحقيقة كالكرة " وعنها قال صاحب الفتوحات " بأنها دائرة قاب قوسين "

" ناموس المركزية " هذا نافذ في الكائنات كلها ، فما هذا النظام الشمسي الذي فوقنا ، وهذه السيارات الحائمة والنجوم المتلألئة ، والكرات النيرة المتبعثرة على بساط السماء ، وهذه الحياة العجيبة والحركة المدهشة للعقول ؟ ان هي الا مظاهر من مظاهر هذا الناموس ـ فالنجوم لها دوائر ، وكل دائرة منها قائمة على نقطة في الشمس ، حولها حركتها ودورانها ، وعليها حياتها وبقاؤها ، بها قيامها ودوامها ـ وستبقى هكذا مادامت مرتبطة بمركزها ومنقادة له ـ (ذلك تقدير العزيز العليم) وكذلك أرضنا حلقة من تلك الدائرة خاضعة لمركزها كل آن ـ فكل من الأرض والسموات يدور في محوره ويسبح في فلكه ومطيع مركزه ولا يخرج عن دائرته أبدا حسب قوله تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض)(٢ / ٨٣) وقوله (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم) الخ (١٩/٢٢) وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)(٣٦/٤١)

مركزا للعبادات عليها مدارنا ولضياعها ضياعها وبطلانها لقول النبي صلى الله عليه وسلم " فمن أقامها أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين " وفي حديث الترمذي " كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة " وقد جعل الكعبة مركزا أرضيا لسائر الأمم والشعوب والبلاد فقال تعالى " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس " ولذا أوجب أن تتوجه الى هذا المركز دوائر الناس ووجوههم فقال (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (١٤٥/٢)

ثم لما كان للأجسام والأشخاص والمعتقدات والأعمال مراكز ، وجب أن يكون للحياة الاجتماعية مركز ، فجعل الله لها مركزا ، وجعل الأمة حوله كالدائرة ، وأوجب عليها مرافقته وموافقته وطاعته ، فاذا نادى لبت ، واذا تحرك تحركت ، واذا وقف وقفت ، واذا نهض نهضت بخيلها ورجلها وسائر قواها — وجعل عصيانه من الجاهلية التى لا مخرج منها الا بطاعته والرجوع اليه ، وقد سمى المسلمون هذا المركز — الاجتماعى " بالخليفة والامام " وفرض على المسلمين قاطبة أن يعينوه وينصروه ويطيعوه كما يطيعون الله ورسوله ، فقال تعالى " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا " (٦٣/٤)

فصل

أولو الأمر

============

أمر الله سبحانه فى هذه الآية بثلاث طاعات ، طاعة الله ، وطاعة الرسول ، وطاعة أولى الأمر ، وقد علمنا أن طاعة الله تكون بطاعة كتابه ، وطاعة الرسول بطاعة سنته القولية والفعلية ، فمن أولو الامر الذين أمرنا بطاعتهم ؟ لقد تضافرت الأدلة القطعية والبراهين النيرة على أن المراد بأولى الأمر " الخليفة والامام " الذى ينفذ أحكام الله وسنة رسول الله ، ويقوم بمصالح الأمة ويحكم ويستنبط الأحكام من الشريعة عند النوازل برأيه واجتهاده ، وانما ذهبنا الى هذا القول لوجوه :

١ — قاعدة " القرآن يفسر بعضه بعضا " فاذا رجعنا اليه نجد فى نفس هذه السورة قول الله تعالى (واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " (٤/٨٦).

ذكر الله سبحانه فى هذه الآية تلك الآونة التى كانت تروج فيها أخبار الأمن والخوف ، والفتح والهزيمة ، فيسمعها الناس ، فيضطربون من أجلها اضطرابا شديدا ، وقد أشاع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بعض المنافقين مثل هذه الأخبار ، فهلع منها بعض ضعفة الايمان من المسلمين ، فأمرهم الله أن اذا سمعتم هذه الاشاعات ، فلا تأخذوها على علاتها ولا تصدقوها بل ردوها الى الرسول والى " اولى الأمر " ليحققوها ويمحصوها ويستنبطوا منها ما يجب استنباطه —

فالحالة التى ذكرت فى الآية ، حالة الحرب والصلح والأمن والخوف ولا يخفى على أحد أن النظر فى هذه الحالة والاهتمام لها واتخاذ التدابير اللازمة لها من وظائف الأمراء والحكام ، لا من وظائف العلماء والفقهاء ، لأن المسئلة مسئلة نظام البلاد ، وقيام الأمن ، ونشوب الحرب ، لا مسئلة الحلال والحرام التى ينظر فيها العلماء ، فاذن لا مناص من أن نسلم بأن المراد " بأولى الأمر " هم الذين بيدهم الحرب والصلح وتنظيم البلاد وسياسة العباد ، والذين من شأنهم أن يحققوا مثل هذه الأخبار المؤثرة على السياسة العامة وما هم الا الأمراء والحكام (١).

---

١ — المنار ، هذا الوجه حجة على الكاتب لا له فان الرسول صلى الله عليه وسلم كان عند نزول الآية هو الامام الأعظم وصاحب الأمر فى السياسة وغيرها ولم يكن معه أمراء ولا حكام فتعين أن يكون المراد بأولى الأمر أهل الشورى من زعماء الأمة وأهل الرأى فيها اذ كان صلى الله عليه وسلم يأخذ برأيهم واستنباطهم فى أمر الأمن والخوف وسياسة الحرب وغيرها لقوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) وهذا نص فى موضع النزاع

" اولى الامر " الحكام والولاه بالاية التى قبلها والتى ذكر فيها الامراء والحكام قد روى الطبرى بسند صحيح عن ميمون بن مهران وابى هريره وغيرهما " اولو الامر هم الامراء " وعد ابن حزم ـ الصحابة والتابعين الذين نقل عنهم هذا التفسير فبلغوا ثلاثه عشر رجلا ٠

نعم قد روى عن بعض الصحابة والتبعين ان المراد من اولى الامر العلماء فقال جابر بن عبدالله رضى الله عنه " انهم اهل العلم والخير " وقال مجاهد وعطاء وابو العاليه " انهم العلماء " ولكن لاتعارض بين التفسيرين ، وذلك ان الشريعة جعلت الحكومة والولاية مركزا لسائر شئون الامه الدينيه والسياسية والعلمية ولم تكن المناصب والوظائف قد انقسمت الى ذات الحين ، فأمير المؤمنين كما كان حاكما وسائسا كذلك كان عالما وفقيها ايضا ٠ فالصحابة والتابعون الذين فسروا اولى الامر " بأهل العلم والخير " قد احسنوا التفسير ، اذ اثبتوا به ان امراء المسلمين يجب ان يكونوا من اهل العلم والخير ، لا مافهمه المتأخرون من هذا القول بانهم قصدوا به تلك الفئة التى عرفت " بالعلماء والفقهاء " بعد انقراض ذلك العهد وانهدام نظام الجماعة الشرعى لان هذه الفئه لم تخطر على بال احد من الصحابة والتابعين فى الصدر الاول ، ومن هذا القبيل مانقله ابن جرير ايضا عن عكرمه انه قال " أولو الامر هم ابوبكر وعمر " اى ان المراد من أولى الامر الخلفاء والائمه مثل ابى بكر وعمر رضى الله عنهما (٢)

وهذا التفسير مطابق لحالة البلاد الاجتماعية اذ ذاك ، لان بلاد الحجاز كانت فى الفوضى قبل الاسلام ولاسيما قريش مكه ، فانهم لم يكونوا يعرفون الامارة ولا ينقادون لاحد من الناس ، فجاءهم الاسلام " بنظام الجماعة " و " نظام الامارة " واوجب على كل الناس أن يطيعوا الامراء ويلتزموا الجماعة والى هذا ذهب الامام ←

١ـ ليس فى الاية التى قبلها ذكر للحكام والامراء وانما هى خطاب للامه بانه يجب على من اوتمن منهم على شىء ان يؤديه الى اهله وعلى من حكم بين الناس بولاية عامة او خاصة او تحكيم من بعضهم ان يحكم بالعدل ٠

٢ـ ليس هذا معنى قوله بل معناه هم اهل الشورى عند الرسول صلى الله عليه وسلم كأبى بكر وعمر لانه كان يستشيرهما فى كل امر ٠

الشافعي رضي الله عنه كما نقل عنه العسقلاني في الفتح حيث يقول " ورجح الشافعي الأول واحتج بأن قريشا كانوا لا يعرفون الامارة ولا ينقادون لأمير ، فأمروا بالطاعة لمن ولى الأمر " ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " من أطاع أميري فقد أطاعني " (فتح الباري ١٩١/٨) (١) .

٥ — هذا هو قول أكبر فقيه قام في الأمة الاسلامية ، ألا وهو الامام محمد ابن اسماعيل البخاري رضي الله عنه ، فقد بوب في كتاب الأحكام من صحيحه بابا على هذه الآية فقال " باب أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " وروى تحته حديث أبي هريرة " من أطاع أميري فقد أطاعني " فأثبت بهذا أن أولي الأمر في مذهبه أيضا هم الأمراء والأئمة لا الفقهاء والعلماء كما قال ابن حجر في شرح هذا الحديث " في هذا اشارة من المصنف الى ترجيح القول الصائر الى أن الآية نزلت في طاعة الأمراء ، خلافا لمن قال نزلت في العلماء " (فتح الباري ٩٩/١٣) (٢) .

٦ — أن أقدم التفاسير عهدا وأغزرها مادة تفسير ابن جرير الطبري ، ومكانة صاحبه في معرفة تفسير الصحابة والتابعين واستقصائه معلومة ، وهو قد رجح هذا القول بعد أن ذكر سائر الأقوال .

٧ — لايذهبن عن بالك أن الاقاويل الكثيرة في تفسير القرآن انما جاءت من المتأخرين الذين سحرت ألبابهم الفلسفة اليونانية في زمن كانت العجمية المعوجة اندست في الفكر والنظر ، واستولت على العلوم والمعارف ، وتقهقرت العربية الصالحة وهجرت علوم السنة وعشق الناس "التعمق" في كل شيء ، حتى في العلوم الدينية ، ذلك التعمق الذي ورد فيه " هلك المتعمقون " .

---

(١) ان طاعة الائمة والأمراء واجبة في المعروف باجماع المسلمين والنصوص فيها معروفة ومنها هذا الحديث الصحيح ولكن هذا ليس دليلا على تفسير الآية بما ذكر .

(٢) قد صرح الكاتب من قبل كغيره بأن المسألة خلافية فترجيح بعض كبار العلماء لأحد الوجوه التي يحتملها اللفظ ليس حجة على غيرهم وانما العبرة بقوة الدليل .

وأما السلف الصالح فلم تكن فى عصرهم مناورات ولا مشاجرات ولا قيل ولا قال بل كانوا يفهمون كتاب الله بملكتهم اللغوية ، بدون أن يتكلفوا أو يتعمقوا ، أو يجهدوا أفكارهم فى نحت المعانى البعيدة واختراع الاحتمالات الباردة ، فاذا سمعوا كلمة " أولى الأمر " التى نحن بصددها فهموا منها بلا أدنى تكلف معناها المتبادر الى الذهن ، مثل ما يفهم الأعراب والرعاع .

ولكن الدهر كان خبأ أمثال فخر الدين الرازى الذين لا ترضيهم هذه السماحة والسذاجة و فجاؤا من بعدهم يخترعون لكل كلمة معانى عديدة واحتمالات كثيرة ويظهرون بذلك براعتهم وجودة ذهنهم ، فلا تروعك أقاويل المتأخرين واختلافهم لأنهم انما اتخذوا العلم صنعة لهم ومباراة بينهم ، بل أن كنت تنشد الحق فعليك بالسنة النبوية الصحيحة والآثار الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، فما وافقهما فخذوه وما خالفهما فاضرب به عرض الحائط — اذ صاحب القرآن صلى الله عليه وسلم أعلم به وكذلك أصحاب الذين شهد الله العليم بعلمهم وعلمهم ورضى الله عنهم ورضوا عنه (١)

ومالى لا أعجب من هؤلاء الناس الذين يعرضون عن السلف الصالح ولا يقيمون لهم وزنا فى تلك العلوم التى اخترعوها اختراعا ، لأجل أنهم لم يكونوا يعلمون أصول الفقه وعلم الكلام اليونانى اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان ، فلم لا يسلمون لهم فى علم الكتاب الالهى ؟ أليس بعجيب أن يؤمنوا بأن القرآن نزل على محمد العربى صلى الله عليه وسلم ثم يستشهدوا فى فهم معانيه بارسطاطاليس اليونانى ؟ نعم ان هذا لشىء عجاب .

وأما الذى حير الرازى وغيره فى فهم الآية فانما هو ذكر الطاعة لأولى الأمر معطوفة على طاعة الله ورسوله — فقالوا كيف تكون طاعتهم مثل طاعة الله ورسوله ؟ وأين الملوك والسلاطين من هذا المقام الرفيع ؟ فاخترعوا لذلك معنى يوافق فلسفتهم ، وقالوا

---

١ — هذا الكلام حق ولكنه وضع هنا فى غير موضعه اذ ليست هذه المسألة مما خالف الخلف فيها السلف ولا مما أكثروا فيها الأقوال .

هم " العلماء والفقهاء"؟ (١) ولقد تعبوا سدى ، لأن المسئلة واضحة جلية لا تحتاج فى حلها وظهورها الى التفلسف البارد ، وذلك لأن القرآن والسنة شريعة وقانون وماذا يجدى القانون اذا لم تكن وراءه قوة منفذة — فطاعة هذه القوة ، طاعة القانون نفسه وطاعة واضعه — ولا يخفى على أحد من الناس حتى السوقة والاعراب أن طاعة والى البلد طاعة للملك الذى أرسله وعينه ، وعصيانه ، عصيان للملك بلا ريب حتى ان الذى يحارب الشرطى فى عمله الرسمى يعد مخالفا للقانون وللقوة التى سنته — وانما تخبط الناس فى فهم الآية لأنهم لم يتأملوا النظام الشرعى الاجتماعى ، اذ أنهم لو امعنوا النظر فيه لما تحيروا هذا التحير ولعلموا حق العلم بأن لابد لقيام الشريعة وبقاء الأمة من قوة مركزية ، وماهى تلك القوة الا (٢) الخليفة والامام والأمراء ونوابه ولو أنهم فعلوا ذلك لما خفى عليهم معنى " أولى الأمر"

وقد علمنا أيضا من آية " فان تنازعتم " الخ أن بين الخليفة الاسلامى والبابا المسيحى بونا شاسعا اذ البابا ليس بيده الخلافة الأرضية بل هو صاحب السلطة فى ملكوت السماء ، وقد عد الاسلام هذه العقيدة كفرا وشركا ، قال تعالى " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " وأما الخليفة الاسلامى فهو الحاكم والسلطان فى الأرض فقط ، يذود عن حوض الأمة وينفذ أحكام الشريعة ولايملك أدنى سلطة فى السماء ، ولا بيده القوة التشريعية ، فهو لا يستطيع أن يغير من الشريعة شيئا ، ولا أن يزيد فيها أو ينقص ، بل عليه أيضا مثل سائر آحاد الأمة أن يخضع لها خضوعا تاما ، واذا تنازع فى شئ مع المسلمين فلا حق له بأن يحملهم على حكمه ورأيه الخاص ، بل يجب عليه وعليهم جميعا أن يرجعوا الى كتاب الله وسنة رسول الله ، فيحكموهما بينهم ويسلموا لهما تسليما ، قال الله تعالى

١ــ قد نقل الكاتب هذا القول عن بعض السلف وجمع بينه وبين القول الأول الذى اختاره وأطال فيه فعزوه الى الرازى خطأ وهبه صوابا فلماذا أنحى عليه بهذه اللائمة فى قول سبقه اليه من ذكر من السلف ؟ على أن الرازى على تفلسفه وكثرة غلطه قد اهتدى فى تفسير أولى الأمر الى الصواب فى الجملة كما بيناه فى تفسير الآية فى موضعها من التفسير .

٢ ــ الحق أنهم عرفوا ما رواهم بجهله كما تقدم .

" فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والى الرسول " ففى هذه الحالة لا حكم للخليفة ، وانما الحكم لله وللرسول ، وكذلك طاعته طاعة الله ولرسوله ، ولاجل هذا كرر الفعل فى الآية فقال " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " ولم يكرره فى " أولى الأمر " ليعلم أن طاعتهما مطلوبة أصلا وطاعة أولى الأمر ليست كذلك بل انما جعلت ليطاع الله ورسوله (قاله الطيبى فى الشرح) .

ولذلك لما أراد أمراء بنى أمية أن يحملوا المسلمين على طاعتهم فى المنكر والبدعة والظلم ، قائلين أليس الله أمركم أن تطيعونا فى قوله " وأولى الأمر منكم ؟ " رد عليهم بعض الأئمة من التابعين أحسن رد فقال أليس قد نزع عنكم بقوله " فان تنازعتم " ؟

والحاصل أن الله سبحانه فرض على الأمة الاسلامية بهذه طاعة الخليفة والامام ، اذ به قيام الجماعة وبقاء الهيئة الاجتماعية (*)

---

*) المنار ، من أراد الوقوف على ملخص أقوال السلف والخلف فى أولى الأمر وتحقيق الحق فيها وفهم الآية حق الفهم ومعرفة مصلحة المسلمين فى ذلك اليوم فليراجع تفسيرها فى الجزء الرابع من تفسيرنا من صفحة ١٨٠ — ٢٢٢ .

فصـــــــــل

شـرح حديث الحارث الأشعــــرى

==========

أما طاعة الخليفة فى السنة ، فقد تضافرت الأحاديث الصحيحة فى وجوبها واشتهرت اشتهارا عظيما حتى انه لم يصل حكم بعد عقيدة التوحيد والرسالة الى هذه الشهـــرة والتواتر —

وها أنا ذا ذاكر ههنا أولا حديثا من مسند الامام أحمد وسنن الترمذى يوضـــح نظام الاسلام الاجتماعى توضيحا حسنا ، فأقــول .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بهن . الجماعة والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله — فانه من خرج من الجماعـــة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا أن يراجع — ومن دعا بدعوى جاهليـــــة فهو من جثى جهنم — قالوا يا رسول الله . وان صام وصلى ؟ قال وان صلى وصــــام وزعم أنه مسلم " أخرجه الترمذى وأحمد والحاكم من حديث الحارث الأشعرى على شـرط الصحيحين ، قال ابن كثير هذا حديث حسن وله شواهد .

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بخمس .

أولهن " الجماعة أى يجب على الأمة أن تجتمع على الامام وتعيش مرتبطة بمركزهـا الاجتماعى ، وسترى كثيرا من الأحاديث التى تحذر من الاختلاف والفرقة وتعدها حيـــاة جاهلية شيطانية ، اذ الاسلام لا يحسب الحياة الفردية حياة ، وانما الحياة هــــذه الحياة الاجتماعية "

وما " الجماعة " ؟ كتلة من الآحاد ، تربط بعضهم ببعض رابطة " الاتحـــــاد " و " الائتلاف " ويكون فيهم " الامتزاج " و " النظام "

هاتيكم الجماعة ولوازمها الأربعة . الاتحاد والائتلاف والامتزاج والنظام .

أما " الاتحاد " فهو أن يكون الأفراد متصلا بعضهم ببعض ، فلا عوامـــــل مفرقة ، تفرقهم ولا التشتت يبددهم ، بل يكونوا جميعا متقاربين ، وأن تكـــــون

أعمالهم كذلك متوافقة غير متخالفة ، وجهتها واحدة وغايتها واحدة ،

وأما " الائتلاف " فهو أخص من " الاتحاد " اذ الاتحاد مجرد الاتصال "والائتلاف " هو الاجتماع والاتصال بتناسب صحيح وترتيب حسن ، فيقدم فيه ما حقه أن يقدم ، ويؤخر فيه ما حقه أن يؤخر ، ويوضع الفرد في الجماعة بالمكان الذي يؤهله له استعداده وقوته ، فلا يستخدم في الشرطة من هو أهل للسيادة والقيادة ولا يرفع — الى رياسة السياسة — من لا يصلح الا للشرطية .

وأما " الامتزاج " فهو أخص منهما ، ويراعى فيه اتحاد الكيف أكثر من اتحاد الكم — أى ينظر فى طبائع الأفراد حيث استعدادهم الاجتماعى ، فيلحق كل واحد بالذى يكون أكثر موافقة لطبعه ليتحدا تمام الاتحاد ، اذ لو لم يراع ذلك لا يتأتى الاتحاد بين أفراد مختلفة الأمزجة والطبائع ، كما لا يتحد الزيت والماء — وان الله سبحانه كما خلق العناصر ليتكون باجتماعها المناسب مركب مخصوص ، كذلك خلق الأفراد ليكونوا باجتماعهم " جماعة " فالأفراد " عناصر " والجماعة " مركب" ، وكما أن العناصر لا تكون " مركبا " الا اذا امتزجت امتزاجا تاما ، كذلك الأفراد لا تكون " جماعة " الا بهذا " الامتزاج " فاذن يجب أن يتمازج الأفراد بعضهم ببعض ويفنوا وجودهم فى سبيل تكوين الجماعة بحيث يحسبهم من يراهم شيئا واحدا ، ولا يكون ذلك الا بعد الامتزاج التام .

وأما " النظام " فهو أن يحل كل فرد فى الجماعة محله ، يدور فى دائرته ويمضى فى داخل حدوده ، ويعمل عمله الاجتماعى فيه .

ولا تتحقق هذه الأمور اذا لم تكن قوة مسيطرة على الاجتماع ، ويد مدبرة للجماعة ، فتوحد الآحاد المنتشرة وتؤلف بينهم وتمزج بعضهم ببعض وتخرطهم فى نظام الجماعة — فلابد اذا من " امام وخليفة " ولا مفر للأفراد من طاعته والخضوع له اذا كانوا يريدون أن يحيوا حياة اجتماعية طيبة — فمقام الامام أو الخليفة فى الهيئة الاجتماعية مقام النقطة من الدائرة ، وعماله بمنزلة الدائرة نفسها ، فآحاد الأمة يدورون حول هذه الدائرة ، وهى تدور حول تلك النقطة — وبهذه الصورة تتكون من اجتماع الأفراد " الجماعة " ويصيرون كتلة واحدة وجسدا واحدا

اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد — وبهذا أمر المسلمون ومنعوا من الوحدة الفرقة وأوجب عليهم أن لا يعيشوا بدون امام ، سواء كثروا أو قلوا ، حتى لو كانــوا ثلاثة وجب عليهم أن يؤمروا أحدهم لقوله صلى الله عليه وسلم " اذا كان ثلاثة فــى سفر فليؤمروا أحدهم " .

وقد جعل الله سبحانه صلاة الجماعة — التي هي عماد الدين ومثال كامــل للعقائد والأعمال — نموذجا ليهتدى بها المسلمون الى تنظيم حياتهم الاجتماعيــة فانظر كيف يجتمع مئات الألوف وأوطانهم متنائية ، وجهاتهم متباعدة ، وألوانهــم متغايرة ، وألسنتهم متخالفة ، فبينما هم فى هذه الحالة ، اذ — تقرع سمعهم التكبيرة فيتحول الانتشار الى الاجتماع والتفرق الى الائتلاف ، فهم وقوف فى صف واحــد ، أجسامهم متلامسة ، أكتافهم متلاصقة ، أقدامهم متقاربة ، ووجوههم متوجهة الى جهــة واحدة ، اذا كانوا قياما ، فكلهم قيام ، كأنهم بنيان مرصوص ، واذا كانوا قعــودا فكلهم قعود ، باطنهم كظاهرهم متحد ومؤتلف ، قلوبهم بذكر واحد مشغولــة ، وألسنتهم للفظ واحد مرددة ، ثم انظر أمامهم فلا ترى هنالك الا رجلا واحــدا يؤمهم ويقودهم ، متى شاء أقامهم ، ومتى شاء أقعدهم ، كلهم طوع أمره وسماعـون لكلمته ، لا يخالفونه ولا ينازعونه ، بل يتبعونه ويقتدون به ويطيعون له (١) .

هذه هى " الجماعة " التى يطالب بها الاسلام ، ويأمر المسلمين أن يجعلــوا هيئتهم الاجتماعية على أسلوبها لا كما يزدحم الهمج فى الأسواق .

هذا وكل ما ذكرناه من أوصاف الجماعة وخصائصها مأخوذة من الكتاب والسنة ، وقد أغفلنا ذكر الشواهد عمدا لضيق المقام وعدم الحاجة اليها .

٢ — ثانيهن " السمع " وهو أن تستمع الأمة أوامر الامام وتستهدى به فكلمة " السمع " توضح أن مقام الامام فى الأمة مقام المعلم والمرشد — فعليها أن تتلقى أوامره بالقبول وتسترشد به فــى مهماتهــا .

---

١ — المنار : وظاهر أن هذا الاتباع يتقيد به الامام كالمأموم بنصوص الشرع فمشيئة فيه لاقامة المأمومين واقعادهم ليست مطلقة فاذا خرج عن الشرع فارقوه وأدبوه وكذلك الامام الامام الأعظم وهو الخليفة وقد أشار الكاتب الى ذلك فى الكــلام على الطاعة .

٣) ثالثهن " الطاعة " وهى أن يطاع الامام طاعة تامة ، ويفوض اليه جميع القوى العاملة تفويضا كليا (١) ويعمل كل فرد من الأمة بأمره بدون أدنى عذر ولاضجر ومعلوم أن الطاعة فى المعروف لا فى المنكر .

٤ ــ رابعهن (الهجرة) وهى من " الهجر " ومعناه " الترك " ففى المفردات " الهجر والهجران مفارقة الانسان غيره ، أما بالبدن أو باللسان أوبالقلب والمهاجرة مصارمة الغير ومتاركته " (صفحة ٥٥٨) وأما فى الشريعة فهى أن يترك رجل أو جماعة الملاذ الدنيوية والرغائب النفسية فى سبيل الحق والسعادة (٢) فمثلا اذا ترك أحد لغرض سام وقصد عال ماله وراحته وأهله وأقاربه وعشيرته وبيته ووطنه يسمى عمله هذا فى الشريعة " الهجرة الى الله والذهاب الى الله " وقد غلب استعمال " الهجرة " فى ترك الوطن ، لأن تركه يستلزم ترك المال والأهل والاصدقاء وكل ما يحب ويألف فى الوطن ــ ولذا أذا أطلقت يكون معناها ترك الوطن ، واذا أضيفت الى شئ يفهم معناها حسب الاضافة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم " وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه (البخارى عن عمر رضى الله عنه) فالهجرة أنواع وأقسام تجدها مبينة فى الكتاب والسنة وليس هنا محل تفصيلها .

٥) خامسهن " الجهاد فى سبيل الله " وهو من " الجهد " ومعناه " استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ظاهرا أو باطنا " (مفردات) فالجهاد هو السعى البليغ لدفع الأعداء والذود عن الأمة ، ويكون باللسان والمال والنفس، فكل ما يبذله الرجل فى سبيل الله حسب الحاجة والضرورة فهو جهاد فى سبيل الله كما قال النبى صلى الله عليه وسلم " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " (رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان عن أنس رضى الله عنه)

---

١ ــ المنار : الحق أن الخليفة مقيد فى الاسلام بمشاورة أهل الحل والعقد كما انه مقيد بالشرع ، فتفويضه ليس مطلقا .

٢ ــ الهجرة الشرعية هى ترك دار الكفر الى دار الاسلام وكذا كل مكان لا يستطيع فيه أن يقيم دينه بحرية وليس هو المعنى الشرعى الأصلى ويحتجون له بحديث "والمهاجر من هجر السوء " وهو وصف للمهاجر الكامل كحديث "المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه " فان لم يهجر السوء لا يكون صادقا فى هجره وطنه لأجل الحق الذى يرضى الله تعالى كما يؤخذ من حديث النيـة .

ولسنا فى حاجة الى أن نثبت أن على هذه الخمسة تتوقف الأمم وقيامها وبقاؤها اذ كل من له ذرة من العقل يعلم حق العلم أنه لا يستطيع أمة أن تفوز فى معترك الحياة بدونها ، أو تنجح فى أعمالها صغيرة كانت أو كبيرة بغيرها ، فسواء عليها أن تسعى لحصول خبز من البر ، أو تذهب لكشف القطب الشمالى ، فهى على كل حال تحتاج الى هذه الأصول الخمسة ، والتى تعوض عنها تخسر ثم تسقط حتما وان كل ما نراه الآن فى هذه المعمورة العظيمة من الحضارة والرقى والصناعة ، نتيجة لهذه الخمسة : الجماعة ، والسمع والطاعة والهجرة ، والجهاد .

ان النزاع والخلاف الذى ملأ الخافقين ، انما هو ناتج عن شىء واحد ، وهو تعدد الأسماء لمسمى واحد ، وكثرة المصطلحات لحقيقة واحدة ، فانك ان دققت النظر فى جدال الناس ، ترى معظمهم متشاجرين فى الأسماء والألفاظ والمصطلحات مع أنهم لو جردوا الحقيقة عن الظواهر لعلموا أنها واحدة ، وعند الجميع سواء لكنهم لسوء الحظ لا يفعلون ذلك فيتخبطون طول عمرهم فى تيه الألفاظ والمصطلحات يتلاطمون عليها .

وقد كثر مثل هذا النزاع فى العلوم والمعارف ، والموفق من لا تخدعه الظواهر فلا يرى الحقيقة بمنظاره الخاص المصنوع من الألفاظ والمصطلحات ، بل يراها مجردة كما هى — وهذا المقام مقام الرسوخ فى العلم ويسميه الشيخ أحمد ولى الله صاحب " حجة الله البالغة " : " بعلم الجمع بين المختلفات " وعامة أصحاب السلوك والإشارات يسمونه : " بمشهد الوحدة " ويقصدون به نفس هذا المقام الذى يحصل للسالك بعد زوال الحجب والاستار عن عينيه .

فاذا بحثت بعد هذا ، تعلم أن الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد — من تلك الحقائق العامة المسلمة التى لا ينكرها أحد من البشر — والأمم بأجمعها — سائرة عليها من أول خلقها ومتمسكة بها أشد التمسك — وانما النزاع فيها والانكار عليها جاء من تلك البلية التى ذكرناها آنفا ، أى التعبث بالأسماء والمصطلحات لأجل هذا أنكرها كثير من الناس لأسمائها الاسلامية ، ولكنهم يقبلونها ويعملون

بها بغير هذه الأسماء . والذى يرد هذه الحقائق نفسها يحرم من الحياة ولا يرى فى دنياه الا الخيبة والخسران .

وها أنا ذا أسوقها اليك واحدة واحدة مع بيان وجيز لتفهم ما مر حق الفهم . فانظر الى أولهن . وهى "الجماعة" التى علمت معناها وخصائصها . فقل أى شىء يتم بدون الجماعة والاجتماع ؟ دع ماقالت فيها الفلاسفة والحكماء فانه دقيق يخفى على كثير من الناس . وألق عليها نظرة عامة ترى أن الغرض من الهيئات والاحزاب والجمعيات والمنتديات والمجالس والمحافل والبرلمان و بل من الأمة والوطن والجيش " الجماعة والتزام الجماعة " أيمكن لأحد أن يستغنى عن الجماعة ؟ حتى أن أولئك الذين يعيشون فى الغابات عراة متوحشين يضطرون الى الاجتماع اذا أهمهم أمر . أو وقع فيهم شقاق ؟ يجتمعون للبحث فى شئونهم واصلاح ذات بينهم . ولو تحت شجرة على التراب — فتلك " الجماعة " .

ولكن ماذا تغنى الجماعة اذا لم يوجد من يرأسها ويرشدها ؟ ولذا اذا اجتمع بضع رجال لأمر جامع بينهم . تبادروا الى انتخاب الرئيس وقالوا اذا لم يرأس الجلسة أحد لا تكون قانونية ونظامية . وكذلك اذا أرادوا تنظيم جيش قسموه فرقا من ألف ومائة وعشرة . وجعلوا على كل منها رؤساء (أى تابعين لرئيس واحد وهو القائد العام) وقالوا بدون هذا لا يكون الجيش جيشا . ولا يستطيع أن يعمل عملا . فاذا كان قولهم هذا عن جماعة من عشرة أو خمسة . فماذا يقال عن أمة مكونة من الوف وملايين من الرجال والنساء أفلا تحتاج الى قائد يقودها ورئيس يرأسها ؟ وهل تقدر على عمل اجتماعى بدون الأمير ؟ ثم أى فائدة من الأمير اذا لم يطاع ؟ خذ لك أقرب مثال اليك وهو بيتك الذى تسكنه مع زوجتك وولدك — فان عصت الزوجة أمرك وتنمر عليك أولادك . أفلا تغضب عليهم وتقول والناس معك هذا بيت لا يفلح أهله أبدا . لأنه لا نظام فيه ولا راحة . بل هو مبتلى بحرب أهلية . وهل هذا الذى تقول غير " الجماعة " والسمع . والطاعة " — ؟ فكما أن هذا البيت لا يفلح . كذلك لا تفلح الأمة التى لا جماعة فيها ولا — سمع ولا طاعة " —

وأما " الهجرة " فينفر منها كثير من الناس ، لأنهم يحسبونها من بقايا ذلك العهد الذى كان فيه الانسان فى جهل ووحشية وهمجية ومصابا بالجنون الدينى — فكان يهلك نفسه ويقتل عواطفه ويترك راحته لأجل الدين — ولكنهم ينسون أن ما يفرون منه ، تدعو اليه البشر مدنيتهم أيضا ، وانك قد علمت معنى " الهجرة " وهو أن يؤثر الانسان المقاصد العليا الدنيا — وأن اضطر فى هذه السبيل الى هجران أهله وماله ووطنه وأمته وملاذه هجرها فرحا مطمئنا ، فقل أى نجاح يصادفه الانسان فى العلم والعمل ان لم يكن صدره مملوءا بهذه العاطفة العالية ؟ وما هذا التقدم المدنى والعلمى ، وماهذه الاختراعات العجيبة والاكتشافات المدهشة ، والأموال الكثيرة ، والتجارة الواسعة ، والمستعمرات العظيمة ، ووسائل المعيشة المتنوعة ، ورقى البلاد ، وعلو الأمم ، وسعة المدنية ؟ أليست نتائج " الهجرة " وثمراتها ؟ وذلك لأن الانسان — أفراده وجماعاته — لو لم يؤثر المقاصد العالية والعزائم الكبيرة على راحته وأهله ووطنه ولم يهجر كل شئ فى سبيلها لما رأينا اليوم ما نراه فى الدنيا ، بل لرأينا الجهل مقام العلم ، والوحشية مقام المدنية ، والخراب مقام العمران — وماقولك فى علم الطب وتقويم البلدان وعلم الحياة الانسانى ؟ أكان يمكن أن تصل هذه العلوم الى ما وصلت اليه ، لو لم يهاجر كثير من البشر فى سبيلها ، لأجل معرفة تفاصيلها واستقراء جزئياتها ؟ لو لم يهاجر كولمبوس لما علمنا عن نصف الدنيا شيئا ، ولو لم يهاجر الغربيون لما شاهدنا فى واشنطون ونيويورك المبانى الفخمة والقصور العالية ، ولو لم تهاجر الأمم الأوربية لما أصبحت أغنى الأمم — عجبا ، اذا رأوا المهاجرين زرافات ووحدانا يقصدون الى منطقة القطب الشمالى قالوا هؤلاء عظماء الرجال حقا كمل العلم فيهم ، وحلت الوطنية الصادقة فى قلوبهم ثم اذا علموا أنهم هلكوا على بكرة أبيهم دون أن ينالوا بغيتهم ، أقاموا عليهم المآتم ورثوهم وبكوا عليهم وقالوا مات النجباء ، ولكن اذا سمعوا الشريعة الالهية تسمى مثل هذا العمل " بالهجرة " وتدعو الناس اليه نفروا منه وانكروا واسودت وجوههم — تراهم يمجدون أولئك الرجال الذين هجروا أوطانهم لكشف منبع النيل وهلكوا فى مجاهيل أفريقية ، ولكن اذا علموا برجال

هاجروا فى سبيل الحق واعلاء كلمة الله ، ذموهم أشد الذم وسموهم " مجانين وهمجا " ثم اذا رأوا نيوتن يهجر نومه ويسهر الليالى الطويلة ليحقق " ناموس الثقل " اعظموه وسموه بأسماء كريمة ، ولكن ان رأوا رجلا يجهد نفسه مثل نيوتن لا لناموس الثقل بل لناموس نجاة العالم وسعادته وهدايته أنكروا عليه عمله وعدوه من الوحوش ، فما هذا الجنون ؟ وما هذا التناقض ياترى ؟ ترى اليوم الأمم الغربية تعتقد أن فلاحها وحياتها فى الاستعمار (كانونيل سعتم) — وتتصادم وتتناطح ويهلك بعضها بعضا لأجل المستعمرات — ولكن ما الاستعمار ؟ أليس الفرض منه ترك الوطن والهجرة من أرض الى أخرى ، وتعميرها واستحصال الثروة منها ، وتكثير غنى الأمة بها ؟ فما رأيك بعد هذا ؟ أليست الدنيا كلها متمسكة بنظام " الجماعة والسمع والطاعة والهجرة ؟ نعم هى متمسكة بها الا أنها لاتسميها بأسمائها الاسلامية !

وأما "الجهاد " فما أكثر استفظاع بعض الناس له ، وما أشد انكارهم عليه ، اذا سمعوه جعلوا أصابعهم فى آذانهم واضطربوا منه اضطرابا شديدا ، وقالوا الاسلام يستحل الدماء البريئة ، ويدعو البشر الى القساوة والبربرية ، والمجزرة الانسانية ، فهو دين وحشية وهمجية — ولكن ما أشد استماعهم لقول " دارون ورسل وويلسن" ان من الحقائق الثابتة " ناموس تنازع البقاء " " وناموس — انتخاب الطبيعة " " وناموس بقاء الأصلح " فاذا سمعوا هذه الكلمات أصغوا اليها هادئين ، ساكتين ، وآمنوا بها مصدقين ، موقنين ، ولم ينزعجوا من هذه النواميس القتالة والداعية الى سفك الدماء ، بل قالوا انها كلها حق ، ومؤيدة بالبراهين القوية ، والمشاهد العينية ، لانا نرى الحياة كلها عراكا ومزاحمة ، الانسان وما دونه من الأحياء كله يزاحم معارضه فى الحياة ويدافع غيره ويهلكه ويحل محله ، وهذا طبيعى ، ولا بقاء لحى بدونه ، ثم اذا أخبرهم بأن النواميس التى يخضع لها سائر الموجودات يخضع لها الجنس البشرى ، وأن الأمة التى تثبت أنها أصلح للقيام بالحق والهداية ، تعيش وتحيا ، والأمة الفاسدة وغير الصالحة تهلك وتفنى ، وتحل محلها الأولى " ليظهره على الدين كله " لم يقبلوا هذا وتولوا عنه مدبرين ولو

يرجعوا الى رشدهم ليحكموا على أنفسهم ان الذى يريدونه باسم "الجهاد" [1] يقبلونه بأسماء أخرى ناقصة الدلالة على مسماها . والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

فصـــــل

الجماعة والتـزام الجمـــاعـــة

==========

وفى هذا الحديث الذى نحن بصدده أمر مهم يستحق أن نتأمل فيه ، وهو أن الشريعة نصت على أن الحياة الاسلامية انما هى فى التزام الجماعة وطاعة الخليفـــة ، والحياة الجاهلية فى الانحراف عنها — ولقد أوضح القرآن أن الجاهلية هى التفـرق والتشتت وانتشار الكلمة وعدم الاجتماع على مركز واحد ، وأن الحياة الاسلامية هــــى الحياة الاجتماعية والاتحاد والائتلاف بين الأمة واجتماع الآحاد المنتشرة — قال تعالـى (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانـــا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) الخ .

فالجاهلية الفرقة ، والاسلام الجماعة ، ولذا أكد النبى عليه الصلاة والسلام مرة بعد مرة أن من يحيد عن الجماعة وينزع يده عن طاعة الخليفة ، يكاد يخرج من الاســلام ، وتكون ميتته على الجاهلية لا على الاسلام وان صلى وصام وزعم أنه مسلم .

وهاهى ذى بعض الاحاديث الصحيحة المشهورة فى هذا الباب .

قال صلى الله عليه وسلم " من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعـنى ومن عصى أميرى فقد عصانى " رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وفى رواية أخــرى لمسلم " من أطاع الأمير " أى أطاع أمام المسلمين .

وقال " اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة " رواه البخارى ومسلم عن أنس .

---

١ — المنار . أوجز الكاتب واختصر فى بيان هذه المسألة وأسهب فيما عداها وأطنب . صـواب القول فى الجهاد الاسلامى أنه بذل الجهد فى حفظ الحق ودفع الباطل ، لتقرير المصالح وازالة المفاسد ، وأما الجهاد العام غير المقيد بهداية الاسلام فهو بذل الجهد من كل حى لحفظ حياته ومنافعه شخصا كان أو جماعة بالحق أو بالباطل ولكن قصروا فى بيان حقيقة الاسلام حتى لأهله وأعداؤهم جدوا وشمروا فى تصويره بضد حقيقته فنفروا منه حتى الكثير من اللابسين لباسه .

يظهر أن هذه الجملة كثيرا ما كان يكررها صلى الله عليه وسلم ولاسيما في خطبه ولذا تجدها مروية بألفاظ مختلفة ونسبت الى مواقع مختلفة ، وقد قال يوم الحج الأكبر في حجة الوداع التي كانت مشهدا عظيما للمسلمين ، والتي لم يعش صلى الله عليه وسلم بعدها الا بضعة أشهر " ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا وأطيعوا " (مسلم) .

وقال " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية " وفي لفظ " فانه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه الا مات ميتة جاهلية " (متفق عليه) ومعلوم أن الجاهلية كانت قبل الاسلام ، فمعنى الحديث أنه مات على ضلالة عرب الجاهلية — والعياذ بالله . وفي رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه " من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " .

وقال " من فارق الجماعة شبرا فكأنما خلع ربقة الاسلام من عنقه " (الترمذي) وفي رواية أخرى " دخل النار " (أخرجها الحاكم على شرط الصحيحين .)

وقال " كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وانه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون — قالوا فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول فالأول ، ثم أعطوهم حقهم ، فان الله يسألهم عما استرعاهم " (متفق عليه .

وغير هذا كثير من الأحاديث التي لا تحصى ، وشواهد الاجماع ونصوص كتب العقائد والفقه لسنا في حاجة اليها بعد الحديث .

فصل

في شروط الامامة والخلافة

اذا استقصيت نصوص الكتاب والسنة واجماع الأمة ، تعلم أن الشريعة الاسلامية اعتبرت الأمامة والخلافة على شكلين متضادين ، واحد منهما أصلي ومطلوب ، والثاني اضطراري .

وبيان هذا أن الشكل الأصلي المطلوب هو انتخاب الأمة خليفتها بحيث تجتمع آحادها وأهل الحل والعقد والرأي والبصيرة منها ، فيتباحثون ويتشاورون طبقا للآية (وأمرهم شورى بينهم) ثم ينتخبون الخليفة مراعين فيه شروط الخلافة الشرعية ومقاصدها الاساسية ، غير ناظرين الى الوجاهة الذاتية والجنسية النسبية (١) اذ الشريعة تعتبر في الانتخاب شورى الأمة ، لا جنسية الخليفة وعشيرته ونسبه — وقد تأسست الخلافة الراشدة على هذا الأساس الجمهوري ، فالخليفة الأول انتخبته الأمة مباشرة والخليفة الثاني انتخبه الخليفة الأول (٢) ورضي به أهل الحل والعقد من الأمة ، والخليفة الثالث انتخبه جماعة الشورى ، والرابع بايعته الجماعة بأسرها — فانتخاب هؤلاء الخلفاء الأربعة كان انتخابا شرعيا وجمهوريا ، ولم تراع فيه الجنسية والقبلية والعهد البتة ولو روعي فيه شيء من هذا القبيل لبقيت الخلافة في بيت الخليفة الأول ولم تخرج منه الى آخر الدهر ، ولكن لم يكن شيء من ذلك ، بل لم يدع الخليفة الثاني مجالا للأمة في أن تنتخب ابنه خليفة لأنه منع وأوصى بذلك وصية حين احتضاره — رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

فاذا كان الأمر على هذا المنهج الجمهوري واستطاعت الأمة انتخاب خليفتها فقد شرطت الشريعة فيه شروطا تراعى عند الانتخاب .

وأما الشكل الثاني وهو اذا تغلب متغلب بقوته وعصبيته على الخلافة ولم يترك مجالا للانتخاب فحينئذ ماذا يجب على الأمة اذا كان المتغلب غير أهل لها وظالما وفاقدا لشروطها ؟ فهل يجب عليها أن تخرج عليه وتقاتله ؟ أم يجب عليها أن تطيعه وتنقاد له وتؤدي اليه الزكاة وتقيم وراءه الجمعة والجماعة وتعمل تحت سيطرته سائرالاعمال التي لا تتم الا بوجود الخليفة والامام ؟

---

١ — أي لم يراع فيه الا شرف نسبها من بيوت قريش التي حصر الرسول الخلافة في جملتها بل يرجحون كفاءته من أي بيت منهم كان ويعللله بعد بأنها لو جعلت وراثية في بيت معين لبقيت في بيت الخليفة الأول كما هو الشأن في بيوت الملوك الى عهدنا هذا وضرب له المثل بالخلفاء الراشدين .

٢ — يعني انه رشحه والأمة رضيته ~~تبايعته~~ تابعته .

لما كانت هذه المسئلة أهم المسائل الحيوية ، وأساس حياة الأمة الاجتماعي لم تكن الشريعة لتغفل عنها وتترك الأمة بلا هداية ولا بصيرة فيها ولذا تجدها قد اهتمت بها أشد الاهتمام وبينتها — بيانا وافيا بعبارات واضحة ونصوص صريحة ومن أجل هذا لم يتردد الصحابة رضوان الله عليهم في تعيين خطتهم لما قامت الخلافة الأموية الاستبدادية بعد انقراض الخلافة الراشدة ، فعاملوهما معاملة واحدة كأنهم كانوا عينوهما من قبل ، وصارت تلك المعاملة سنة لمن بعدهم ، وأجمعت الأمة على استحسانها ، واتخذتها خطة اجتماعية لها ، نعم قد اختلف بعض الفرق الاسلامية في الشكل الاول للخلافة ، ولكن لم يختلف أحد منهم في الشكل الثاني لا قولا ولا عملا (١) .

وقد شرطت الشريعة في الشكل الأول الجمهوري شروطا بالغة في الكمال منتهاه وأوجبت على الأمة أن تنظر في الخليفة كل الأمور التي تلزم لهذا المنصب الرفيع ولهذه المسئولية العظيمة . وقد اشتهرت شروط الخلافة هذه اشتهارا عظيما حتى انك تجدها في عامة كتب العقائد والفقه التي يتداولها طلبة العلم في المدارس الدينية فترى فيها " ويشترط أن يكون الخليفة من أهل الولاية المطلقة الكاملة بأن يكون مسلما حرا ، ذكرا ، عاقلا ، بالغا ، سائسا بقوة رأيه ورويته ومعونة بأسه ، وشوكته قادرا بعلمه وعدالته وكفايته وشجاعته على تنفيذ الأحكام ، وحفظ حدود الاسلام وانصاف المظلوم من الظالم ، عند حدوث المظالم " الخ — راجع شرح المواقف والنسفي والتمهيد وشرح الفقه الأكبر للقارئ وشرح المقاصد — ومن كتب المحدثين شرح عقيدة ابن عقيل وفتح الباري وشرح منظومة الآداب وخلاصة ابن مفلح ونيل الأوطار ~~ونيل~~ المرام الشوكاني والاقناع وشرحه وغيرها من الكتب .

---

١ — اطلاق النفي خطأ فالخلاف وقع قولا وعملا ذهب كثيرون الى مقاومة السلطة الجائرة وغير الشرعية ، وكثيرون الى طاعتها وسيأتي تحقيقه ، ومازالوا يستعدون لاسقاط خلافة الأمويين حتى أسقطوها وهي في ريق شبابها .

وأما شرط القرشية ففيه اختلف (١) وقد كان يقول به أكثر العلماء والفقهاء الى زمن الدولة العباسية وبعدها بيسير (سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م) لقوله صلى الله عليه وسلم (ان هذا الأمر فى قريش) ولذا ذهبت الامامية الى أن الخليفة يجب أن يكون من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وتقول على القاعدة أن الخلافة لعلى عليه السلام ثم لائمة العترة • رضوان الله عليهم أجمعين — وذهبت الزيدية

---

١ — يظهر أن للكاتب — عفا الله عنه — ميلا الى انصاف هذا الشرط الذى أجمع عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الشقاق فى الأمة وهم أهل الاجماع الصحيح دون غيرهم والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة متفق عليها وقد ذكر حديثا واحدا منها لم يقرنه بذكر من خرجه من رواة الصحيح وقد صرحت الكتب التى ذكرها كلها بشرط القرشية ولما ذكروا أن الخوارج وبعض المعتزلة خالفوا سائر المسلمين فى اشتراط القرشية ردوا عليها بأن الاجماع كان قد انعقد على ذلك من عهد الصحابة مستندا الى النص فلا عبرة بخلافه •

قال السعد التفتازانى فى شرح المقاصد • ويشترط أن يكون مسلما عدلا حرا ذكرا مجتهدا — شجاعا ذا رأى وكفاية سميعا بصيرا ناطقا قرشيا فان لم يوجد من قريش من يستجمع الصفات المعتبرة ولى كنانى فان لم يوجد فرجل من بنى اسماعيل فان لم يوجد فرجل من العجم الخ (ص ٢٧١ ج ٢ طبع استانة)

وقال الحافظ فى شرح البخارى بعد ايراد الأحاديث فى حصر الامامة فى قريش المؤيدة لما رواه البخارى منها ما نصه •

" ويؤخذ منه أن الصحابة اتفقوا على افادة المفهوم للحصر خلافا لمن أنكر ذلك والى هذا ذهب جمهور أهل العلم أن شرط الامام أن يكون قرشيا " — ثم ذكر علق قيده ببعض قريش كالشيعة ورأى الخوارج وبعض المعتزلة بعدم اشتراط القرشية وتعقبه بقوله (قال أبو بكر بن الطيب لم يعرج المسلمون على هذا القول بعد ثبوت حديث الأئمة من قريش " وعمل المسلمين به قرنا بعد قرن وانعقد الاجماع على اعتبار ذلك قبل أن يقع الاختلاف (ص ٥٨١ ج ٢٩ طبعة الهند)

ثم ذكر الحافظ ما رواه أحمد عن عمر من ميله الى استخلاف ابى عبيدة وهو غير قريشى أو معاذ بن جبل وهو أنصارى وجمع بينه وبين نقلهم للاجماع باحتمال أن يكون رجع عن ذلك أو يكون الاجماع قد انعقد بعده • والصواب أن أبا بكر قد احتج على الانصار — وعمر يظاهره — بحديث حصر الائمة فى قريش فأذعنوا ولم يعارض فيه أحد منهم ولا من غيرهم فانعقد الاجماع من ذلك اليوم وكفى هذا اعلالا لرواية قول عمر انه كان يحب أن يستخلف أحد الرجلين • وهل يوجد شئ يرد به أثر آحادى أقوى من هذا الاجماع وهذه النصوص المتفق عليها ؟ =

الى أن الخلافة في بنى فاطمة كلهم ولا خصوصية فيها لائمة أهل البيت فالامامية تشترط فى الخليفة مع سائر الشروط المذكورة آنفا ، أن يكون من أهل البيت النبوى، والزيدية توسع فيها وتقول كل بنى فاطمة أهل للخلافة وهم يستحقونها دون غيرهم .

ولا تنسين أن هذا الاختلاف فى الشكل الأول . أما فى الشكل الثانى — أى اذا لم تقدر الأمة على انتخاب الخليفة لتغلب المتغلبين — فلا خلاف فيه بين المسلمين لكثرة الأحاديث الصحيحة واجماع الصحابة وائمة أهل البيت فى هذا الباب ولذا ترى الأمة قد اتفقت كلمتها على أنه اذا استولى مسلم بقوته وشوكته وعصبيته على الخلافة وتمكن فيها وقامت حكومته وقوى أمره وجب على الامة أن تطيعه وتسمع له وتخضع لخلافته مثل مالو كان أصابها بحق ، ولا يجوز لأحد الخروج عليه والقيام على وجهه ، ومن يفعل ذلك يقاتله المسلمون ويعينون الخليفة عليه ، مهما كان الخارج ذا فضل وصلاح وأهلية لأنه مفارق للجماعة وخارج على السلطان (١)

= وذكر الحافظ قبل ذلك ما أورد على حديث " لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان " على القول بأنه خبر محض من أنه تولى أمر المسلمين كثير من غير قريش وأجاب عنه أولا بأن تولى هؤلاء لم يمنع وجود أئمة من قريش فى اليمن والمغرب وغيرهما وأن بعض أولئك كان يدعى القرشية كبنى عبيد ثم قال " وأما سائر من ذكر ومن لم يذكر فهم من المتغلبين وحكمهم حكم البغاة فلا عبرة بهم (قال) وقال القرطبى هذا الحديث خبر عن المشروعية أى لا تنعقد الامامة الكبرى الا لقرشى مهما وجد منهم أحد . وكأنه جنح الى أنه خبر بمعنى الأمر وقد ورد الأمر بذلك فى حديث " قدموا قريشا ولا تقدموها " أخرجه البيهقى . وذكر له شواهد من الصحاح وغيرها (ص ٥٨١ ج ٢٩ أيضا) .

١ — حكاية الاجماع باطلة كما أشرنا اليه فى حاشية سابقة وان الحافظ ابن حجر قال انهم يعدون — المتغلبين على الخلافة من البغاة الخارجين على السلطة الاسلامية مزيد بيان لذلك .

هذا هو حكم الشريعة فى هذه الصورة ، وحكمته واضحة جلية ، وهى أن قيام الشريعة وبقاء الأمة يتوقف على الحكومة القوية . اذ هى أساس للحياة الاجتماعية وقد جعلت لها الشريعة نظاما فى غاية من الكمال والجودة ، فخولت للأمة حق انتخاب الأمير وجعلت الشورى أساسا للانتخاب ، وشرطت — شروطا فى الأمير ولم تعتمد فى الامارة على امتيازات الجنس والعصبية والملوكية — بل جعلتها حرة وجمهورية محضة لا يشوبها الاستبداد والضغط ابدا ، ثم حذرت الناس من أن يتصدوا لها ويرشحوا أنفسهم لأجلها ، ويتنافسوا فيها ويتطلعوا اليها ، فيقاتلوا ويحاربوا عليها ويسفكوا الدماء فى سبيلها — وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الناس على هذا فيقول " لا ينازع الأمر أهله " (١) هذه كلمة صغيرة فى ظاهرها ، كبيرة فى ذاتها وكافية لابطال الحروب والمنازعات بأسرها . وقد بوب البخارى فى صحيحه عليها بابا فقال " باب ما يكره من الحرص على الامارة " وروى فيه حديث أبى موسى الأشعرى قال . قال النبى صلى الله عليه وسلم " أنا لا نولى هذا الأمر من سأله ولا من حرص عليه " وكان الغرض من هذا التحذير والمنع لأن الناس اذا لم يحرصوا عليها سهل للامة إنتخاب الأصلح والأهل لها .

هذا هو النظام الحقيقى الذى جعلته الشريعة للخلافة الاسلامية ولو بقى معمولا به لصلحت الدنيا كلها ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم إنه لا يدوم أكثر من ثلاثين سنة فبين للأمة ما يجب عليها عندما ينهدم ذلك ويحل محله الاستبداد والقهر .

لنفحص المسئلة فحصا جيدا ، لنرى أية خطة أحسن عند تغلب المتغلبين على الخلافة ، فان هنا خطتين (احداهما) أن يقبل الاستبداد ويخضع له صيانة للجماعة وحفظا لنفوس الأمة وذودا عن البلاد الاسلامية من الأعداء وصونا لأوامر الشريعة من التعطيل وغيرها كثير من المصالح العامة ولا تنس أن هذه الحكومة وان كانت مستبدة قاهرة الا أنها اسلامية تغار على الدين وترفع شأن الامة فى نظر الأعداء ، نعم

١ — يتأمل كلمة أهله وما يراد بها شرعا هل يمكن أن يكون منها الظالمون المستبدون ؟

انه تنشأ عن هذا مفاسد كثيرة (١)

وأما الخطة الثانية فهى أن يقاتل المتغلب ويخرج عليه وترد الخلافة الى من هو أصلح لها منه ولكن اذا فعل ذلك جرت الدماء انهارا فى حروب تشيب من هولها الولدان ، واختلت المصالح العامة ، وتزلزلت الهيئة الاجتماعية ، وبطل الأمن وعمت الفوضى وتعطلت أوامر الشريعة وهدمت الجوامع ، ونهبت البيوت ، وخربت البلاد ، وانصبت على رأس الأمة المصائب ، وأصابها كل ما يصيب الأمم فى مثل هذه الحروب التى تثيرها الأهواء والشهوات . ومع هذا لا يعرف متى يستتب الأمن وتعود الراحة ؟ اذ كل صاحب عصبية وذى مطامع كبيرة ينهض قائلا . أنا أحق بالخلافة من صاحبها فعلى الناس أن — يبايعونى ويقاتلوا فى صفى وينصرونى على عدوى (٢) . فماذا تكون حال الأمة اذ ذاك ؟ ألا تكون كالريشة فى مهب العواصف تقلبها الرياح كيف ما شاءت ؟ أولا تصبح كسفينة فى بحر مضطرب لا ربان عليها ، تتقاذفها الأمواج يمنة ويسرة فتعلو تارة وتسفل أخرى ويخشى عليها الغرق كل آن ؟ ولا ينكر أن مع هذه المخاوف والأهوال يحتمل أن ترد الخلافة الى الأصلح لها ، فأى صورة أحق أن ترجحها الشريعة الغراء ؟ أتلك التى مصالح الأمة فيها مصونة مضمونة ، والمفاسد محتملة ؟ أم هذه التى يكون الخراب والدمار فيها محققا ، ورد الحق الى أهله محتملا ؟

كل من له أدنى حظ من العقل الصحيح لا يتردد فى الجواب بأن الصورة الأولى أحق أن تقبل ويعول عليها فى مثل هذه الحالات ، وقد فعلت الشريعة ذلك جريا على قاعدة " المنافع تجلب والمضار تدفع " واذا اختلطت المصالح والمفاسد تختار الشريعة طريقا أقل مضرة وأكثر مصلحة وترجح أهون الشرين ، اذ لو لم تفعل

---

١ — أكثر هذه المفاسد على جرثومتها أن الأمر يجرى على القوة لا على الشريعة وأى حاكم تخضع له الأمة خضوعا أعمى ثم يقف عند حدود الحق والعدل فلا يتعداها على علم ولا عن جهل .

٢ — الصواب أن هذا من لوازم الخضوع لكل قوى يتغلب اذ لو كان أصحاب هذه المطامع يعلمون أن الأمة انما تخضع للحق لا للقوة وانها لا تزال تقاتل المستبد الخارج حتى يهلك أو تهلك لما خرج عليها خارج ولا تغلب مستبد ظالم وكلام الاستاذ أبى الكلام هنا متعارض متدافع ويحضرنا فرقه من صور المسألة غير متعين الوقوع بل نادر ومقاومة الظلم والاستبداد وتغيير المنكر فرض لازم ، ولكن يراعى فى تنفيذه ارتكاب أخف الضررين عند التعارض . =

ذلك وفرضت على الأمة عدم الخضوع لأحد سوى جامع شروط الخلافة والمنتخب على الطريقة الجمهورية الصحيحة لقام كما قلنا كل من اتخذ الهه هواه لنيل الخلافة وقال هذا الخليفة ليس بأهل وأنا أحق منه وأجمع للشروط — ثم ماذا بعد ذلك؟ القتل والسلب واهراق الدماء وزهق النفوس وانهدام الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان الأمة . فمن كان يحافظ على — البلاد ويحكم بين العباد ويعاقب المجرمين ويحد السراق وقطاع الطريق ويأخذ الزكاة ويقيم الجمعة والعيدين ويدافع عن الثغور ويرابط على الحدود ؟

وايم الله لو كان كذلك لتداعت الأمم الاكالة على المسلمين ولاحتلت بلادهم وخضدت شوكتهم واستعبدتهم وأذلتهم وفعلت بهم ما فعلت . فقبول خلافة المتغلب أحسن وأهون ، أم هذا الخراب والدمار الذى ليس فوقه خراب ولا دمار ؟ ولذا أمرت الشريعة بطاعة الخليفة المسلم مهما كان ظالما ومستبدا وكيفما كانت سيرته مالم يأمر بمعصية الله ، وما أقام الصلاة — والله تعالى أعلم بما يأمر وهو بصير بمصالح العباد *

فصل

(نصوص السنة واجماع الأمة)

=========

من يلقى نظرة سطحية على الأحاديث النبوية يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخبر بما سيكون فى المستقبل من انقلاب الحال وتغير الناس ، ويبين لكل حالة وكل دور علائم وآيات ، ويرسم للأمة خطة تناسب كل وقت وزمان . وان هذا لمن أكبر الأدلة على صدقه وصدق نبوته ، اذ كل ما أخبر به جاء كفلق الصبح ، وان كان الناس لا يصدقون بذلك فبأى دليل يثبتون ما جرى فى الزمان الغابر ، فكل أحد يستطيع أن ينكر حينئذ وجود الاسكندر المقدونى والدولة الرومانية ، بل نابليون وحرب واترلو .

---

* الكاتب فرض صورة للتعارض بين الحق والتغلب لا تطرد بل قلما تقع وجعلها قاعدة للترجيح ، ان مجموع الأحاديث الواردة فى الامامة والامارة تدل على أمور يعز أن تجدها مجموعة فى مكان واحد فتجمع بها بين ما يتراءى لك فيها من التعارض =

والحاصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم بما يقع بعده ، ولهذا جعل لكل حالة ووقت أمرا وحكما ، وأمر الأمة بامتثال أمره ، فيجب على الباحث أن لا يخلط بين الأوامر والأحوال خلطا ، بل يضع كلا منها فى موضعه ، والذين لم يفعلوا ذلك أخطأوا وغلطوا فى فهم الأحاديث ولم يستطيعوا التوفيق والتطبيق بينها .

يرى الناظر أولا الأحاديث التى ذكرت فيها الخلافة الراشدة ، ولكونها كانت معلومة لديه بأنها ستقوم على منهاج النبوة تماما ، أوصى الأمة بطاعتها واتخاذ اعمالها

---

١ — ان الامام الأعظم (الخليفة) يجب أن يكون من قريش .

٢ — أن طاعة الامام واجبة شرعا مادام مسلما يقيم الصلاة بالناس ويقودهم بكتاب الله وانما الطاعة بالمعروف ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

٣ — أن طاعة الامراء والولاة والعمال الذين يوليهم الامام قيادة الجيوش ، والادارة والقضاة والجباية يطاعون وتؤدى اليهم الحقوق بالشرط الذى يطاع فيه الامام بالأولى . وفى حديث يحيى بن حصين عن جدته أم الحصين بنت اسحق الاحمسية انها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فى حجة الوداع وهو يقول " لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا " رواه مسلم وفى أحاديث أخرى ولو كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف ومنه حديث على عند الحاكم مرفوعا باسناد جيد ورجح الدارقطنى وقفه قال فى آخره " وان أمرت قريش فيكم عبدا حبشيا مجدعا فاسمعوا وأطيعوا " .

٤ — ان ظلم الائمة والأمراء وفسقهم وأثرتهم لا تبيح لأفراد الأمة عصيانهم فيما يأمرون به من المعروف لأن ذلك يستلزم ما هو شر منه وهو الفوضى وفساد جميع الأمور العامة . فكل ما ورد فى كتب الكلام والفقه وشروح الأحاديث من وجوب الطاعة فالمراد به ما ذكرناه لما عللناه به .

٥ — ان ذلك كله لا يدل على وجوب رضى الأمة بالظلم والبغى والأثرة ولو من قريش ولا على الخضوع لكل قوى مستبد ويستحيل ان يكون هذا حكم الدين وهو يهدم الحق والعدل والفضيلة ويفسد على الامة دينها ودنياها ولا يمكن ترجيح أحاديث الطاعة المطلقة على الاحاديث المقيدة لها بالمعروف والشرع وعلى سائر النصوص المعلومة من الدين بالضرورة . وانما يظهر الجمع بينها بان على الافراد السمع والطاعة وعلى أهل الحل والعقد من زعماء الأمة التى هى صاحبة السلطان وهم أهل الشورى والزعامة فيها أن يوقفوا الأئمة والأمراء عند ما أوجب الله من الحق والعدل والتزام الشرع بما دون الخلع لغير الكافر ان أمكن وأن يعتمدوا لذلك بما تترجح به المصلحة على المفسدة . وكذلك فعلت كل الامم التى استقام أمر حكومتها ولم توطن أمة نفسها على الخضوع الا كانت من الهالكين واطلاق القول بالخضوع للمستبدين الجائرين لاجل قوتهم خطأ عظيم واية حكومة قامت بالقوة ثم قاومتها الامة برأى زعمائها ولم تسقط ؟ وسيأتى ما يقرب من هذا الجمع من النووى .

قدوة وسنة كسنته نفسه صلى الله عليه وسلم فيها — روى عرباض بن سارية حديثه المشهور قال " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقيل يارسول الله ، وعظتنا موعظة مودع فاعهد الينا بعهد ، فقال " عليكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وان كان عبدا حبشيا ، وسترون بعدى اختلافا شديدا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " (ابن ماجة والترمذى) وحديث " خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم " الخ وحديث " أما طبقتى وطبقة أصحابى فأهل علم وايمان الخ (رواه البغوى عن أنس) وحديث عبدالله بن مسعود " ما من نبى بعثه الله فى أمته قبلى الا وكان له حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره " الخ (مسلم) وغيرها كثير .

ففى هذا الدور أمرت الأمة بأمرين ، الطاعة والاقتداء بالخلفاء — ثم تأتى بعده أحاديث الدور — الثانى ، فيبقى حكم الطاعة على حاله فتطيع الأمة خلفاء هذا الدور أيضا مثل طاعتها لخلفاء الدور الاول ، ولكن يتغير الحكم الثانى ، أى حكم الاقتداء ، فلا يقتدى بهم ولا تتخذ أعمالهم سنة متبعة ، لأنه كان معلوما من قبل أنهم لا ينالون الخلافة على النظام الشرعى ، ولا يكون سيرهم طبقا للكتاب والسنة فيكون — فيهم الصالح والطالح والقبيح والحسن ، فلذا أمرت بطاعتهم ونهيت عن اتباعهم والاقتداء بهم — بل اذا قاموا لنشر بدعتهم ، وترويج فسادهم وجب على كل أحد السعى لسد فسادهم ومنع منكرهم بيده ولسانه ، وان لم يستطع فبقلبه ببغض أعمالهم " وذلك أضعف الايمان وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل فعن عبادة بن الصامت (رض) قال " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، الا أن تروا كفرا بواحا ، عندكم فيه من الله برهان " (متفق عليه) أى يطاع الامام فى كل حال الا أن يظهر منه كفر صريح .

وقال خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم " قال قلنا أفلا ننابذهم عند ذلك ؟

قال : " لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة " (رواه أحمد ومسلم)

وعن حذيفة قال ، قال صلى الله عليه وسلم " يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهديى ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان انس قال ، قلت كيف يارسول الله ان أدركت ذلك ؟ قال " تسمع وتطيع وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع " (أحمد ومسلم) •

وقال صلى الله عليه وسلم " ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها — قالوا فما تأمرنا ؟ قال تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم " (متفق عليه عن ابن مسعود وأخرجه أيضا الحارث بن وهب وأورده الحافظ فى التلخيص) •

وعن جابر بن عتيك مرفوعا عند أبى داود بلفظ " سيأتيكم ركب مبغضون فاذا أتوكم فرحبوا بهم وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فان عدلوا فلانفسهم وان ظلموا فعليهم"

وعن وائل بن حجر قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يسأله فقال أرأيت أن كان علينا أمراء يمنعونا حقنا ويسألونا حقهم ؟ " اسمعوا وأطيعوا فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " (مسلم والترمذى وصححه) •

قال صلى الله عليه وسلم " على المرء المسلم ، السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " (أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر) — اذ لا يعصى الله خالق السموات والأرض فى شئ مهما صغر وقل لمخلوق مهما كبر وعظم وارتفع شأنه — وان هذا ما قاله الاسلام وجميع الأديان وكل العقلاء والحكماء •

ولذا أمرت الشريعة بأداء الصدقات والزكاة الى العاملين عليها ، مهما كانوا ظلمة وفسقة وخونة ، ولا يجوز منعها عنهم لأجل ذلك — نعم يجوز السعى عند الامام فى عزلهم ولكن ماداموا على عملهم لا يجوز منع الزكاة عنهم لئلا يختل نظام الأمة — كما فى رواية بشير بن خصاصة أنه قال قلنا " ان قوما من أصحاب الصدقة قد يعتدون

علينا أفنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا ؟ فقال " لا " (قال ابو داود رفعه عبد عن معمر) وفى رواية سعد ابن أبى وقاص قال " أدفعوا اليهم ما صلوا " وروى ابن أبى شيبة انه قال رجل لابن عمر ، الى من نؤدى الزكاة ؟ قال الى الأمراء ، فقال الرجل " اذا يتخذون بها ثيابا وطيبا " قال وان فعلوا ذلك اد اليهم الزكاة !

ولذا ترجم أصحاب الحديث " باب براءة رب المال بالدفع الى السلطان مع العدل والجور " (كما فى المنتقى) وبه قال جمهور الفقهاء وائمة أهل البيت • كما نقل عن الامام الباقر عليه السلام فى الأصول والى هذا ذهب المحققون من الامامية والزيدية (١) •

---

(١) قال الحافظ فى شرح حديث البخارى فى المبايعة على السمع والطاعة الذى تقدم فى الاصل عند قوله فيه من كتاب الفتن " وان لا ننازع الأمر أهله " أى الملك والامارة ثم ذكر زيادات فى الحديث من روايات أخرى منها " وان نقوم بالحق حيث كنا لا نخاف فى الله لومة لائم •

فتحى

فصـــــل
(اذا بويع الخليفتان فاقتلوا آخرهما)

أى اذا قامت خلافة خليفة وتمكنت حكومته فى الأرض فلا يجوز لأحد الخروج عليه ، ومن يخرج يجب قتله ؛لأنه غادر وفتنة ومهلكة للهيئة الاجتماعية ،يريد أن يفرق بين المسلمين ويهدم النظام القائم (والفتنة أشد من القتل)(١)

وعن عرفجة الأشجعى قال : (" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول : " من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أويفرق جماعتكم فاقتلوه ")أحمد ومسلم) .

ولذا اتفقت كلمة المسلمين(٢) ان الخليفة سواء كان أهلا أوغير أهل اذا قامت خلافته ،لايخرج عليه ، ومن يخرج يقتل بعد اتمام الحجة عليه والدعوة الى الصلح (فقاتلوا التى تبغى) ٤٩/ ٩)

وفى نيل الأوطار ، قد حكى فى البحر عن العترة جميعا ان جهادهم أفضل من جهاد الكفار فى ديارهم ؛اذ فعلهم فى دار الاسلام كفعل الفاحشة فى المسجد (ج ٧ص٨٠)

وحكمة هذا الحكم ظاهرة ؛لأنه لولم يسد باب الخروج بتاتا لاتسلم الحكومة الاسلامية من الخارجين والثائرين مهما كانت صالحة وحسنة ،ومهما كان صاحبها أهلا وجامعا للشروط ؛اذ كل ذى عصبية يدعى لنفسه الحق والفضيلة أكثر منه والناس لايستطيعون التفاضل بينهما فيتفرقون حزبين حزب مع هذا وحزب مع ذلك ،ثم يخوضون غمار حروب لاتنتهى أبدا فوجب أن يمنع الخروج منعا تاما ،ويعاقب الخارج عقابا شديدا ليكون

---

(١) المنار ،الفتنة المرادة من الآية هى ماكان من اكراه المشركين للمسلمين على الرجوع من الاسلام بالتعذيب والنفى من الوطن فاللام فيها للعهد لا للجنس.

(٢) المسألة خلافية فيما ذكره وهو أعم مما ورد فى الحديث .

عبرة لغيره ،فقتل نفس واحدة خير من قتل الألوف ،وقد أشير الى هذه الحكمة فى الحديث "يريد أن يشق عصاكم" .

وقد وردت فى هذا الباب أحاديث كثيرة من يرد الاطلاع عليها فليراجع كتب الصحاح .

فصـــــل

(اجماع الأمة وجمهـــور الفقهـــاء)

قد قامت حكومة أمراء بنى أمية على القهر والاستبداد فى زمن كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل بيته موجودين فيه بكثرة زائدة ،ثم تلتها الخلافة العباسية وظلت خمسة قرون ،وفى عصرها دونت العلوم الشرعية ،وألفت الكتب الدينية ،ووجدت أئمة المذاهب . بيد أنه لم يختلف طول هذا الزمن أحد من الصحابة والعترة . والأئمـــة والفقهاء فى هذه المسألة بل كلهم أجمعوا على قول واحد ،وعمل واحد ولعله لا يوجـــد بعد العقائد الأساسية وأركان الاسلام الأربعة اجماع على شيء غير هذا .

فعمل الصحابة معلوم ومشهور كان مروان بن الحكم واليا على المدينة وأبوهريـــرة صحابى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فى المسجد النبوى وكان مروان يستعجـــل فى الصلاة الى درجة لا يقول "التأمين" استثقالا ،ولا يقف بعد الفاتحة وقفة ليقولـــه المأمون بل يسرع ويبدأ بعد أم الكتاب بسورة أخرى ،مع أن فضل التأمين ثابت فى السنـــة كما فى حديث "فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه". (بخـــارى) ولكن مع هذا لم يتخلف أبوهريرة عن الصلاة وراءه ولم يخرج من طاعته الا أنه كان يأخـــذ عليـــــه العهد فيقول "لا تفتنى بآمين . (١)

(١) استدل على دعوى الاجماع بسكوت الأفراد وسكونهم ومن الضرورى أن الفرد لا يقاوم الدولة لعجزه وقد روى البخارى وغيره أن أباهريرة كان يكنى ويعرض بما سمع من النبى صلى الله عليه وسلم فى افساد أغيلمة من قريش لأمر هذه الأمة — وهم هم — ويقول انه لو صرح لقطع بلعومه ولا شك فى أنه لو كان له قوة من الأمة لا ستطيعها امارتهم كما فعل المسلمـــون بعد ذلك عند ما أسسوا العصبية والمراد أن المسلمين لم يجمعوا على الخضوع لأهل الجـــور والباطل وتقدم نقل الخلاف فى حاشية سابقة .

وكذلك كان الناس في عهد بني أمية يكرهون سماع خطبهم الخرافية فكانوا يتفرقون بعد صلاة العيد ولا ينتظرون الخطبة فأراد مروان أن يخطب قبل الصلاة ليضطر الناس الى سماعها ــ فقام رجل في وجهه وأنكر عليه عمله فروى اذ ذاك أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حديثه " من رأى منكم منكرا فليغيره " الخ (١)

وهكذا كان أمراء بني أمية يخالفون صريح السنة كل يوم ، وينكر عليهم الصحابة بكل جرأة وشجاعة ، ولا يتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن مع كل هذا لا ينزعون اليد عن طاعتهم ولا يخرجون عليهم ولا ينكرون خلافتهم لأجل أن خالفوا النظام الشرعي وتسلطوا على الخلافة بغير حق وحادوا عن الصراط السوي .

وكان سيد التابعين سعيد بن المسيب يقول في بني مروان "يجيعون الناس ويشبعون الكلاب " (تذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ٤٧) ويعاقب بأنواع من العذاب ولكن يطيعهم ولا ينكر خلافتهم (٢)

وقد ثارت فتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون والمعتصم ، وابتلي بها علماء السنة ابتلاء شديدا فجلد الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ثمانين جلدة وحبس في السجن سنين عديدة ، ولكن لا داهن المأمون والمعتصم في بدعتهما ولا خرج عن طاعتهما بل كتب في وصيته "والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، ولا تخرج عليهم بالسيف ، ولا تقاتلهم في الفتنة (كذا نقل عنه ابن الجوزي في سيرته) .

وقد نقل ابن حجر العسقلاني قولا لابن التين يخالف ما قلناه من الاجماع فقال وقد أجمعوا أنه (أي الخليفة) اذا دعا الى كفر أو بدعة أنه يقام عليه ثم رد عليه قائلا ما أدعاه من الاجماع على القيام فيما اذا دعا الى البدعة مردود الا اذا حمل على بدعة تؤدي الى صريح الكفر والا فقد دعا المأمون والمعتصم والواثق الى بدعة القول بخلق القرآن وعاقبوا العلماء من أجلها بالقتل والضرب والحبس وأنواع الاهانة ، ولم يقل أحد بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك ، ودام الأمر بضع عشرة سنة حتى ولي المتوكل الخلافة فأبطل المحنة (فتح ج ١٠٣/١٣) .

---

(١) المنار . تتمة الحديث ــ "بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان .

والحقيقة التى لامراء فيها أن كل ماكان النبى صلى الله عليه وسلم أمر به من طاعة الخلفاء وما ينبغى أن يعاملوا به ،فسره السلف الصالح بعطهم الحق ، وقد علمت فى الفصول الماضية الأحاديث التى تبين أدوار الخلافة الاسلامية وماالكل دور من الأحكام ،فدور الخلافة الراشدة كان دور رحمة واسعة للأمة ، وأما دور الملك العضوض فكانت خصائصه المتضادة ،وأحواله المتناقضة ،ابتلاء عظيما لها ، فكان ذا وجهين مختلفين اجتمع فيه البياض والسواد ،والنور والظلمة ،والحق والباطل ،ويستلزم الحب والبغض والترك والطلب،والقطع والوصل،والطاعة والخلاف ... وطولبت الأمة بالقيام بكل منهما فى وقته ومحله فتطيع هؤلاء الملوك وتسمع لهم لأنهم أولياء الأمور والقائمون بالحكومة الاسلامية ،فلا تخرج عليهم ولاتقوم فى وجههم ،ونهيت من جهة أخرى أن تتبعهم وتقتدى بهم لأن أعمالهم لاتكون مرضية ،فتطيعهم ولكن لاتستن بسنتهم ،وان دعوا الى المنكر ردت دعوتهم ،وخالفتهم فى ذلك باليد واللسان والقلب ولا تزيغ عن الحق ابتغاء لمرضاتهم .

فما أصعب هذا المقام ، ولعمرى ان الانسان ليزل قدمه دون أن يبلغ هذا فكيف السبيل الى القيام فيه ؟ لأن الانسان طوع عواطفه فلا يستطيع أن يجمع بين عاطفتين متناقضتين ،فانه اما أن يحب ويطيع واما أن يبغض ويعصى ،فمن يحسبه أهلا لحبه وطاعته يحلو منه كل شىء فى عينه فيطيعه بكل قلبه ولا يعصى له أمرا ، ومن يبغضه يبغضه بكل قلبه فلا يطيعه البتة ، نعم لاسبيل الى النجاح الا أن يدركه الله بتوفيقه ،فيجعل كل عاطفة فى محلها ،ولا يدع بعضها يغلب بعضها الآخر فيهلك ويضل ضلالا بعيدا ـ لأنه لوتجاوز الحد فى الطاعة دخل فى الاقتداء والتأسى الذى يجر الى الغلو فى الباطل ـ والانحراف عن الحق ،ثم أنه لوتصلب فى المخالفة وغلا فى الأمر بالمعروف خشى عليه الخروج من الطاعة ومن ثم الولوغ فى الحروب وقتل النفوس والفوضى ،وهذه هى علة تلك الفتن التى لاتزال تنزل بهذه الأمة من ثلاثة عشر قرنا ، لأن الناس لايستطيعون التوازن بين العواطف فكم من أناس غلوا فى التمسك بالحق والأمر بالمعروف فخرجوا على السلاطين والخلفاء ، وأضعفوا بعملهم هذه الخلافة والأمة معا ، وكم مثلهم من غلوا فى الطاعة فجعلوا الحق باطلا ، والباطل حقا ،مداراة للأمراء والملوك فأفسدوا بذلك نظام الأمة .

ولقد ابيضت عين الدهر ولم تر أمة سارت على مثل هذا الطريق الاجتماعي المحفوف بالمصائب والمصاعب سالمة آمنة الا الأمة الاسلامية ، فانها ولا شك سارت عليه بكل فوز ونجاح وسلامة ، مراعية كل جوانبه ، متجنبة جميع مزالقه ، فعملت في آن واحد عملين متناقضين فأطاعت الخليفة وخالفته ، أطاعت فيما تجب فيه طاعته ، وخالفت فيما تجب فيه مخالفته ، وقد شرحت بعملها مسألة " الاقتداء والطاعة " والفرق بينهما بكل وضاحة تحير منها علماء الأخلاق اذ لم يكونوا وفقوا الى حلها من قبل .

وأى طاعة للحكومة القومية تكون أكمل من طاعة الصحابة والتابعين للأمراء الجائرين المستبدين من بنى أمية ، ثم من بعدهم من طاعة علماء السلف لدعاة البدعة من الخلفاء العباسيين ؟ فقد عذبوا بأنواع من الظلم والعسف ، وحبسوا فى السجون ، وقتلوا وأوذوا بكل ما كان يمكن أن يؤذوا به ولكنهم تحملوا كل ذلك ولم يخرجوا عن الطاعة قيد شبر ، بل اذا حرضهم أحد على العصيان قالوا "ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ونحن بايعناهم"

هكذا كانت حالهم فى الطاعة ، أما التمسك بالحق والأمر بالمعروف والعمل بالسنة فكانوا فيه كالجبال راسخين ، فلم يهابوا سيف عبد الملك ولا قهر الحجاج ولا تنمر المأمون والمعتصم ، فاذا نطقوا نطقوا بالحق ، واذا عملوا عملوا بالحق ، ولم يكن فى قلبهم سعة لشىء الا لكتاب الله وسنة رسول الله ، فهم عملوا بكل دقة على أمر "تسمع وتطيع وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع " (مسلم) وعلى أمر " فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان " (مسلم) .

وحسبنا محنة الامام أحمد بن حنبل عبرة ، فقد كان يجلد ظهره تسعة رجال والمعتصم واقف على رأسه ينظر الى دمه الطاهر الذى يفور من جسمه فورا ويأمره بأن يقول كلمة فى القرآن ما قالها الله ولا رسوله ولا أمر بها ، فكان يتحمل كل هذا العقاب الشديد ولكن لا يفوه بشىء الا قوله "أعطونى شيئا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول "[1]

---

(١) المنار : قد سدد الكاتب فى آخر هذا الفصل وقارب ، ولا شك فى أن عمل علماء الصدر الأول من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار كالامام أحمد خير قدوة فى كل محنة — ولا شك فى أن أفراد الأمة لا يجوز لهم الخروج على أمرائهم وان ظلموا ، ولا يجوز لهم طاعتهم فى معصية الله الا من أكره بالتعذيب أو القتل على الشىء وحكمه وشروطه معروفة وأما جماعة أهل الحل =

فصـــــل

(اجماع أهل السـنة والشـيعة)

ومثل الصحابة والتابعين كانت سيرة أئمة العترة عليهم السلام مع خلفــاء بني أمية وبني العباس ، وان كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة منهم ولكن مع ذلك لـم يخرج عليهم أحد منهم ولا انصرف عن طاعتهم ،بل ظلوا تحت أمرهم طائعين لأن حكومتهـم كانت قد تمكنت ولما خرج من أهل البيت زيد ،أنكر عليه الامام جعفر الصادق عطه لنفس هذه العلة ولأجلها قبل الامام على الرضا عهد المأمون بالخلافة اليه ،لأنه لولم يكن مـن المسلمين لخلافته لما قبل العهد بل لرده وأجتنبه منه ، ولكنه لما لم يفعل ذلك ثبـت أنه كان يرى خلافة المأمون صحيحة وشرعية .

ولا يؤثر عن هؤلاء الأئمة الاطهار شيء يثبت أنهم منعوا أحدا من طاعة خلفـاء بني أمية أوبني العباس ،بل في كتب الحديث للامامية (مثل أصول الكافي وغيره) مـا يثبت أنهم مع اظهار استحقاقهم للخلافة وشكوى الغصب والتعدي عليهم منعوا الناس من الخروج والغدر .

وأنطع برهان على ذلك عمل أميرالمؤمنين على عليه السلام نفسه ، الذى تدعـي الامامية أن خلافته كانت منصوصة ،وأنه لم تكن الخلافة جائزة لغيره في حياته — ولكن مع ذلك معلوم لكل الناس أنه عليه السلام لم يخرج على الخلفاء الثلاثة الذين مضوا قبله ،ولا تخلف عن بيعتهم ،ولا تنحى عنهم ،بل ظل عشرين سنة على طاعتهم وموازرتهم ومناصحتهم ، حتى لحقوا بربهم ،وآلت الخلافة اليه ،فأثبت بعمله هذا أن الأمة اذا اجتمعت على رجل فـلا تجوز مخالفته وعصيانه والخروج عليه، بل على كل الناس أن يطيعوه ويسمعوا له، فاذا كـان هذا غير جائز للخليفة المنصوص على خلافته فكيف يجوز لعامة الناس ؟

والعقد من زعماء الأمة الذين لا تنعقد الخلافة الا ببيعتهم وبتقيد الخليفة بمشورتهـم فحكمهم غير حكم الأفراد — هؤلاء هم الجماعة يمثلون الأمة صاحبة السلطة في الاجماع الواجب الاتباع الذين خاطبهم الخليفة الأول بقوله في خطابته الأولى بعد البيعة ،فان استقمت فأعينوني واذا ازغت فقوموني ،فعليهم أن يقوموا الخليفة ان لم يستقم بنصحهم خلعوه وولوا غيره ، فاذا

غلبهم المستبد المتغلب على أمرهم أوفقدوا من الأمة مدة الجور والقهر فقد زالت الجماعة وصار أمر الأفراد أمرضرورة والضرورة تقدر بقدرها ،ويجب السعي الدائم لازالتها .

فأهل السنة والامامية كلاهما متفقان فى هذه المسألة وأما الخلاف المشهور بينهما فانما هو فى الخلافة الجمهورية ، أى اذا قدرت الأمة على نصب الخليفة فمن تنصب ؟ فالشيعة تشترط أن يكون من أهل البيت فقط ،وأهل السنة ينكرون هذا الشرط ، ولكن اذا لم يبق هذا النظام ولم تقدر الأمة على الانتخاب لتغلب المتغلبين على الخلافة ، فان قويت شوكتهم وانقادت لهم الأمور انقيادا فكل من الشيعة وأهل السنة يقول قولا واحدا وهو أن يجب طاعته والى هذا ذهبت الزيدية وغيرها من الفرق الاسلامية .

فصل

(الشواهد من كتب العقائد والفقه)

وانا لنورد ههنا بعض مقالات كتب العقائد والفقه التى يتدارسها المسلمون فى مدارسهم ومساجدهم من قرون عديدة ليسهل على الناس مراجعتها .

ففى شرح المقاصد " وأما اذا لم يوجد من يصلح لذلك ،أولم يقدر على نصبه لاستيلاء أهل الباطل وشوكة الظلمة وأرباب الضلال ،فلا كلام فى جواز تقليد القضاء ،وتنفيذ الأحكام واقامة الحدود وجميع ما يتعلق بالامام من كل ذى شوكة " ثم بعد بيان شروط الامامة يقول : "نعم اذا لم يقدر على اعتبار الشرائط ، جاز ابتناء الأحكام المتعلقة بالامامة على كل ذى شوكة يقتدر ،متغلب أواستولى " وفيه أيضا "فان لم يوجد من قريش من يجمع الصفات المعتبرة ،ولى كنانى ،فان لم يوجد ،فرجل من ولد اسماعيل ،فان لم يوجد ،فرجل من العجم ".

وفى المرقاة شرح المشكاة "وأما الخروج عليهم وقتالهم فمحرم وان كانوا فسقة ظالمين "ويكتب فى شرح حديث "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد "أى له أهلية الخلافة أوالتسلط والغلبة " .

وفى الشامى "ويثبت عقد الامامة اما باستخلاف الخليفة اياه كمافعل أبوبكر ،وأما ببيعة جماعة من العلماء أومن أهل الرأى ".

وفى المسامرة " والمتغلب تصح منه هذه الأمور (اى ولاية القضاء والامارة والحكم بالاستفتاء ونحوها) للضرورة وصار الحال عند التغلب كما لولم يوجد قرشى عدل ،أووجد ولم يقدر

(أى لم توجد قدرة على توليته لغلبة الجورة) اذ يحكم فى كل من الصورتين بصحة ولاية من ليس بقرشى ومن ليس بعدل للضرورة ."

وفى شرح المواقف بعد بيان شروط الامامة "ولكن للأمة أن ينصبوا فاقدها دفعا للمفاسد التى تندفع بنصبه " (٦٣٤)

وقد أعطى البحث حقه الحافظ بن حجر العسقلانى فى فتح البارى حيث يقول "وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه ، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما فى ذلك من حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، ولم يستثنوا من ذلك الا اذا وقع من السلطان الكفر الصريح ، فلا تجوز طاعته فى ذلك ، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها كما فى الحديث " (ج ٧/١٣) ويكتب فى شرح حديث حذيفة "فاعتزل الفرق كلها " الخ "قال ابن بطال : فيه حجة لجماعة الفقهاء فى وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم دعاة على أبواب جهنم ومع ذلك أمر بلزوم الجماعة " (كتاب الفتن ج ١٣ صفحة ٣١) .

ويشرح حديث "اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى "بقوله : "وأما لو تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة فان طاعته تجب اخمادا للفتنة " (فتح ١٠٩/١٣)

وقال النووى فى شرح مسلم "وهذه الأحاديث فى الحث على السمع والطاعة فى جميع الأحوال ، وسببها اجتماع كلمة المسلمين فان الخلاف سبب لفساد أحوالهم فى دينهم ودنياهم ، وقوله (ص) "وان كان عبدا مجدع الأطراف "يعنى مقطوعها ، والمراد أخس العبيد ، أى اسمع وأطع للأمير وان كان دنىء النسب ... ويتصور امارة العبد اذا ولاه بعض الأئمة أو تغلب على البلاد بشوكته " (ج ١٢٥/٢) .

وقال الشوكانى فى الدرر/٤١٤)

وفى حجة الله البالغة لشاه ولى الله الدهلوى "ان الخليفة اذا انعقدت خلافته ثم خرج ينازعه حل قتله ".

وقال رضى الله عنه فى كتابه "أزالة الخفاء " بالفارسية ما ترجمته - وقد بحث فى

هذا الكتاب مسألة الخلافة بحثا مفصلا وجامعا لم يبحث مثله أحد قبله " والخروج على السلطان الفاقد للشروط أيضا حرام بعد اجتماع المسلمين عليه ، الا أن يظهر كفرا بواحا وقد تواتر هذا المعنى " (ج ا ص ١٣٢) .

وحاصل هذه الشواهد ما مر بك من قبل ، وهو أنه يجب أن يكون للأمة امام وخليفة ذو شوكة ومنعة في كل زمان ، فان استطاعت الأمة نصبه فعليها أن تراعي الشروط التي شرطتها الشريعة في الخليفة وان استولى على الخلافة رجل مسلم بقوته وعصبيته وانعقدت حكومته فيجب على كل الناس طاعته وقبول خلافته سواء أكان قرشيا أو غير قرشي عادلا أو ظالما ، عالي النسب أو دانيه ، حتى وان كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف فيجب طاعته ومناصرته على أعدائه الا أن يرى منه كفر ظاهر ، فلا طاعة في هذه الحالة ولا سمع ولا بيع ، بل يجب الخروج عليه ومقاتلته — ومن لم يستطع ذلك يهاجر من بلده ، قال العسقلاني في الفتح " فمن قام على ذلك فله الثواب ، ومن داهن فعليه الاثم ، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض " (١٣ / ١٠٩) .

وعلم من هذا أيضا أن الكفار اذا استولوا على بلد اسلامي يجب على أهله الخروج عليهم ، ولا يحل لهم أن يداهنوهم ويداروهم ، ومن عجز فعليه الهجرة من ذلك البلد ، لأنه لا يجوز لمسلم البقاء تحت حكم الكفار .

فصل

واقعة الامام الحسين عليه السلام)

ولمعترض أن يقول لو كانت طاعة الخليفة واجبة في كل حالة كما ذكرت ، لما خرج الامام الحسين على خلافة يزيد بن معاوية ، ولما عدته الأمة محقا وشهيدا مظلوما .

والجواب على هذا أن الامام لم يحارب أهل الشام في ذلك الحين الذي كان يدعي الامامة لنفسه ولطلب الخلافة دون يزيد والذي يعتقد غير هذا فكأنه لم يطلع على واقعة كربلاء ، كما ينبغي ، ويجب أن يفرق الناس بين الحالتين حالة خروجه من المدينة وحالة قتله بكربلاء ، فانهما مختلفتان اختلافا كليا ولهما حكمان مختلفان في الشريعة .

فالحالة التي كانت عند خروجه من المدينة أن حكومة يزيد لم تكن تمكنت بعد ولم تتم بيعته بالخلافة في المراكز الاسلامية المهمة والعواصم والقصبات ، ولا أجتمع عليه أهل الحل والعقد من المسلمين ،لأن صوت أهل المدينة كان من الأول أقوى الأصوات في مسألة الخلافة لكونهم كانوا في العاصمة الاسلامية وفيهم أهل الحل والعقد ثم لما انتقلت العاصمة في زمن علي عليه السلام الى الكوفة ،أصبح للكوفة شأن عظيم في السياسة ،فلما خرج الامام كانت المدينة غير متفقة على يزيد ، أما الكوفة فجميع أهلها كانوا ضده ، وكانوا يلحون على الامام أن يقوم للخلافة ويأخذ بيعتهم عليها فالحسين عليه السلام لا حرص على الخلافة ولا خرج على الامام ،بل قام في الحسين الذي توفي خليفة المسلمين فيه وخلا محله ، ولم يتمكن أحد في مقامه تمام التمكن مجيبا لطلب الجم الغفير من المسلمين الذين كانوا في المراكز المهمة — مثل أهل الكوفة والعراق — ولا ريب أنه كان يراعي في قيامه مصلحة كبيرة أخرى أيضا وهي صون الأمة من مثل يزيد وخلافته —

وان قيل : ان معاوية كان عهد بالولاية اليه فما كان يجوز للامام أن يخرج عليه ،فجوابه أن الشريعة لا تعتبر عهد الأب الى ابنه بالخلافة شيئا — ولذلك لما ألح معاوية على عبدالله بن عمر (رض) بأن يبايع يزيد ،قال "لا أبايع لأميرين" (رواه ابن حبان ونقله في الفتح) .

وان سلمنا جدلا أن هذا العهد معتبر وصحيح ،فلا يعتد به مالم تتمكن الحكومة اذ الشرط الجوهري للخلافة كما علمت انعقاد الحكومة فمن انعقدت حكومته ، فقد صحت خلافته والا فلا .

فهذه الحالة كانت عند خروجه من المدينة ،ولكن تغيرت عند وصوله الكوفة ، لأن أهلها بايعوا يزيد على يد ابن زياد ،وقلبوا للامام ظهر المجن ،كما فعلوا مع أبيه من قبل — لما رأى عليه السلام أن الناس دخلوا في طاعة يزيد وتمكنت حكومته ،أقلع عن المطالبة بالخلافة وعزم على أن يعود الى المدينة الا أن ابن سعد

وجيشه لم يسمح له بذلك بل حاصره وحاول أسره وأهله وحرمه - فقال لهم الامام خلوا سبيلى لأذهب الى دمشق فأخاطب يزيد فى شأنى - ولكن الظالمين أبوا الا أسره.

فلم يكن للامام حينئذ الا طريقان ، أما أن يسلم نفسه وأهله الى هؤلاء الطغاة ، واما أن يستشهد بطلا مغوارا ، والشريعة لم تجبر أحدا على أن لا يدافع عن نفسه ويدعها أكلة للآكلين فاختار عليه السلام الطريق الثانى بالشجاعة الهاشمية وكمال العزيمة واستشهد مظلوما •

فتأمل فى هذه الحالة ، فانها غيرما كانت عند خروجه من المدينة ، فانه اذ ذاك كان مطالبا بالخلافة ، أما فى كربلاء فلم يكن مدعيا لها ولا محاربا لأجلها بل كان معصوما ، طاهرا زكيا ، وقع فى مخالب الظلمة الأشقياء الذين لا يعرفون الحق ولا الانسانية ، فأبت نفسه الأبية ان تخضع لهم وتذل أمامهم ، فقام وجها لوجه يدافع عن شرفه وناموسه فقتل ظلما وعدوانا وبغير حق ، ومن العجيب أن الناس منقرون يخطئون فى فهم هذه الواقعة ، مع أنها واضحة - ومن أراد التوسع فعليه بمنهاج السنة ج ٢ لشيخ الاسلام ابن تيمية •

فصل

شروط القرشية

قد علمت مما مر أن الخليفة اذا انتخب فله شروط ، وقد ظل العلماء الى زمن طويل يحسبون منها القرشية أيضا ، أى أن الخليفة مع سائر الشروط يجب أن يكون قرشيا ، والا لا تصح خلافته - هذا فى صورة الانتخاب أما اذا استولى عليها مستول ، فلا ينظر فيه الى شروط ما الا الاسلام وانعقاد حكومته ولا خلاف فى أنه لم توجد بعد الخلافة الراشدة خلافة جامعة لسائر الشروط ، فخلافة بنى أمية وبنى العباس ان كانت قرشية ، فقد كانت فاقدة لشروط أخرى كثيرة سيما الشرط الأساسى لها ، وهو أن تكون بانتخاب الأمة ، لا بالسيف والدم - وهذا الشرط

لم يوجد فى أى خلافة بعد الخلافة الراشدة (١) ، ثم بعد هذا الشرط يشترط أن يكون الخليفة عادلا ، غير مستبد يحكم برأيه بل بالشورى ويسير على كتاب الله وسنة رسول الله وسنة الخلفاء الراشدين ، ومعلوم أنه لم يكن أحد من الخلفاء هكذا غير عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه (٢) وقد استولى الأعاجم على الحكومة بعد العباسيين ، ثم انتقلت الخلافة من العباسيين الذين كانوا بمصر الى الترك والعثمانيين ، فهى فيهم من ذلك الحين الى الآن بلا نزاع ، وقد أجمعت (٣) الأمة الاسلامية على طاعة هذه الخلافة العثمانية وتحسب السلاطين العثمانيين خلفاء من قرون عديدة ، فإن كان خلفاء بنى أمية وبنى العباس فاقدين لخمسة شروط مثلا ، فنفرض الخلفاء العثمانيين فاقدين لسبعة شروط ، فاذا لم يضر الأولين فقدان هذه الشروط ، فكيف يضر بالآخرين ؟ فان كان العثمانيون ليسوا من العرب ولا قريش ، فلا يقدح ذلك فى خلافتهم لأن المسألة هنا ليست مسألة انتخاب الخليفة حتى ينظر فى شروطه ، وانما الذى يهم فى هذه الصورة هو أن يقوم قائم بالخلافة والحكومة الاسلامية ، لئلا يضطرب أمر الأمة ، ويصبح فوضى ، فلذا لا أهمية لشروط الخلافة ههنا وجدت أولم توجد .

ومن شروط الخلافة المتفق عليها الحرية ، أى يجب فى الخليفة أن يكون حرا لا عبدا ، ولكن العبد اذا تغلب بشوكته وقوته وقامت حكومته ، فلا خلاف فى أن طاعته واجبة ، ولا يوجد مثال فى تاريخ الأمم بأسرها الا فى الأمة الاسلامية ان العبيد صاروا فيها أئمة وملوكا وقوادا ، وخضع لهم المسلمون من العرب والعجم بلا عذر ولا انكار ، والأحاديث النبوية أكبر شاهد على ذلك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم " اسمعوا وأطيعوا وأن استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة " وفى رواية مسلم عن أبى ذر " وان كان عبدا مجدع الأطراف " وفى رواية ابن حصين " ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا وأطيعوا له " والنووى يقول فى شرحه

---

(١) هذا مبالغة والواقع ان بدء خلافتهما كان بالقوة لا خلافة كل فرد منهما .

(٢) هذا الحصر غير صحيح على اطلاقه .

(٣) دعوى الاجماع ممنوعة .

والمراد أخس العبيد أسمع وأطع وان كان دنيء النسب ، حتى لو كان عبداً أسود مقطوع الأطراف ، فطاعته واجبة ، وتجوز امارة العبد اذا ولاه بعض الأئمة ، أو تغلب على البلاد بشوكته وأتباعه ، ولا يجوز ابتداء عقد الولاية له مع الاختيار ، بل شرطها الحرية (ج ٢ / ١٢٥) وفي فتح الباري " لو تغلب حقيقة بطريق الشوكة فان طاعته تجب اخماداً للفتنة " (١٣ / ١٠٩)

فمادام هذا النووي الذي هو من أكبر أنصار القرشية يقول بنص هذا الحديث ، ان امارة العبد مهما كان دنيء النسب ، خسيس الحال ـ صحيحة في صورة الاستيلاء والغلبة ، فكيف يعترض على الخليفة العثماني القائم المتمكن بكونه ليس من قريش ؟ ان سلمنا أن القرشية شرط ضروري للخلافة (١) .

---

(١) لا شك في أن صديقنا مؤلف هذه الرسالة لا غرض له من تأليفها الا تأييد الخليفة العثماني التركي واثبات صحة خلافته ووجوب طاعته شرعاً ، وهذا الغرض لم يوضع موضع خلاف جديد لأجل القرشية فيحتاج في تأييده الى التحريف والايهام الذي ارتكبه في نقل نصوص العلماء والتصرف فيها وهو غافل عن الحقائق الواقعة في هذا العصر وأهمها أن الخليفة العثماني في حكم الأسير المحجور عليه من سلطة أجنبية غير اسلامية وأن القوة المتغلبة في الأمة التركية خصم له وانما يمثلها مصطفى كمال باشا فهو الذي تجب طاعته اذا أمر أو نهى بحسب القاعدة التي ذكرها ، وان لم يتحل بلقب الخلافة ، وهذا اللقب ليس بواجب شرعاً ، ومقتضى هذه القاعدة يجب طاعة كل متغلب بالقوة أينما كان ومهما يكن لقبه وان تعدد ، وعليه الحكومات الاسلامية في الشرق كالفرس والأفغان ، وفي الجنوب كاليمن ونجد ، وفي الغرب كمصر ومراكش ، فالخليفة العثماني غير متغلب عليها ولا أمر له فيها ولا نهي فيطاع أو يعصى سواء منها ما سيطرت عليه دولة أجنبية وما لا سيطرة عليه لأحد والمعترف بهذه الخلافة وغيره ، اذ وجد في كل عصر من يؤيد كل متغلب مهما تكن حالته ، وجعلوا الضرورة العارضة أمراً شرعياً ثابتاً ، والذنب الأكبر في هذه السنة السيئة على معاوية الذي سنها ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة على أن أكثر خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا قائمين بأهم واجبات الخلافة من نشر الاسلام وحماية دعوته والجهاد في سبيلها واقامة الحدود والحكم بالشرع في كل شيء وانما كان أكثر ظلمهم في التصرف في أموال الأمة وفي التنكيل بمن يتصدون لنزع السلطة منهم ، وأقلهم في أمور اجتهادية أخطأوا فيها كحمل الناس على القول بخلق القرآن .

واذا ماري المؤلف في الاجماع على شرط القرشية فهل يماري في الاجماع على الحرية ؟ وهل يجهل أن المتغلبين "حكمهم حكم البغاة وقطاع الطرق فلا يعتد بهم" كما صرح به الحافظ بن حجر في شرح حديث ابن عمر "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان" من شرحه للبخاري ؟ انه لا يجهل ذلك .

وانا ندعو كل مسلم يستطيع أن ينصر الترك على أعدائهم المعتدين على ملكهم أو يساعدهم عليهم ولو بالمال أن يفعل لأنهم مسلمون معتدى عليهم واذلالهم اذلال للاسلام لا لأجل وجود الخليفة فيهم ، والا فان هذا الخليفة حكم بفتوى من شيخ الاسلام عنده بأن

والحقيقة أن البحث في شروط الخلافة لا علاقة له بالمسألة التي نحن بصددها، الا أننا لانرى بأسا في أن نتكلم على شرط القرشية، اذ هو مزلة لاقدام كثير من الناس.

باب "الأئمة من قريش"

فصل

تحقيق امارة قريش واشتراط القرشية

اذا تتبعت الكتاب والسنة والآثار والدلائل الشرعية والعقلية، لاتجد فيها نصا قطعيا على تخصيص الخلافة والامامة بقريش نعم، نجزم بصحة الأحاديث التي وردت في الباب، وكذلك خطبة أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة على مسمع من الصحابة، وعدم انكارهم عليها، وشهرة هذا الأمر فيهم ومن بعدهم الى انقراض الدولة العباسية أيضا صحيحة — ولكن الحقيقة مع ذلك كله على خلاف مايفهمه الناس، لأنه كما لا ينكر ما ذكرناه آنفا، لا ينكر أن الشريعة الغراء لم تحصر الخلافة قط في قوم دون قوم وقبيلة دون أخرى قل ماشئت عن هذه الشريعة، ولكن لا يمكنك أن تقول هذا، لأنها انما جاءت لتحرير الانسانية من القيود والاغلال التي كانت عليها، ولاعلاء شأنها ورفع مصالحها واعلان ناموس العمل وهدم أوثان العصبية والامتيازات القومية الباطلة، فهل ترجع بعد هذا القهقرى وتشيد بأيديها هيكلا جديدا لتلك الأوثان المجذوذة؟ (١)

لسنا في حاجة الى الأطناب والتفصيل، اذ كل من له أدنى معرفة بالشريعة يعلم حق العلم أنها من أول نشأتها انقضت على قصور الامتيازات القومية الفخمة ودكتها

الكماليين خارجون عليه يجب قتالهم فانكر السواد الأعظم من المسلمين عليه ذلك وكان عطفهم على الكماليين عاما ومساعدتهم لهم بالمال ترد من كل قطر، وقد كان لانتصارهم على اليونان من السرور والابتهاج في الشرق والغرب مالم يسبق لمثله نظير ولو أطاعوا هذا الخليفة كما يوجب عليهم المؤلف لأستأصلوا الكماليين، ذلك بأن قاعدة السياسة العامة، هي ترجيح المصلحة العامة، ولا نحتاج فيها الى الخروج عن الأحكام الشرعية الاجماعية أو القريبة من الاجماعية بقوة أدلتها وضعف الخلاف فيها.

---

(١) ياللعجب. اعترف الكاتب بصحة الأحاديث واجماع الصحابة ومن بعدهم قولا وعملا على كون الخلافة في قريش ثم شرع ينفي هذا الاثبات بنظرية ظاهرة البطلان وهي كون ذلك يعارض تحريرها للانسانية .. الخ ثم بني على ذلك تأويل الأحاديث وانكار الاجماع بما سيأتي من الروايات الشاذة والآراء التي سنبين بطلانها في مواضعها، ثم نعرضها على القراء ليميزوا راجحها من مرجوحها.

ناكة واحدة ، حتى جعلتها أثرا بعد عين — ماذا كان حال العرب قبل الاسلام ؟ كانوا فى غاية من العصبية ، بالغين فى اعتبار النسب ، غير عابئين بمن سواهم ، لا يرون لأحد شرفا ولا فضلا ، حتى الرعاة منهم كانوا يشمخون أمام الملوك والعظماء ويعدون القياصرة والأكاسرة مهينين أمام عزهم القومى وشرفهم النسبى — ليست العرب وحدها بل الدنيا كلها كانت سائرة على هذا المنهج ، عاكفة على هذه الأوثان ، موثقة بهذه القيود والأصفاد ، ظهر الاسلام فهاجم قبل كل شىء هذه الأصنام ، ونادى بنداء يه بأعلى صوته (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله أتقاكم) (٤٩/ ١٤) فجعل أساس الشرف والفضل العمل وحده ، فمن علا به عمله فهو شريف فاضل ، ومن سقط به عمله فهو ساقط مهين ، مهما كان كريم النسب عالى الحسب ، وقال (أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى) (٥٣/٤٦) وكان صاحب لوائه صلى الله عليه وسلم يصيح بين الأنام "ليس منا من دعا الى عصبية ، ليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية " وأوصى أمته فى آخر حياته يوم الحج الأكبر قائلا " لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، كلكم أبناء آدم " (الشيخان) وقال : "ليس لأحد فضل على أحد الا بدين وتقوى ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب " (رواه الجماعة) فظهور الاسلام وقيامه ضمان للمساواة فى النوع الانسانى ، فلا فضل بعده لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، الناس كلهم اخوان ، أبوهم آدم وأمهم حواء وانما الأفضل أحسنهم عملا وأقومهم طريقة وأتقاهم لربهم .

أما عمله صلى الله عليه وسلم فشاهد على ذلك ، فانه لما بعث آخر بعث فى حياته أمر عليه أسامة بن مولاه زيد ، فأنكر على هذا بعض السذج فقال صلى الله عليه وسلم "لقد طعنتم فى امارة أبيه وقد كان لها أهلا ، وان أسامة لها أهل " فتأمل فى قوله عليه السلام كيف كرر كلمة "الأهل" ليعلم أن الامارة والرئاسة تتوقف على الأهلية لا غير[1] — وقول عائشة رضى الله عنها فى زيد مشهور حيث قالت : لو كان زيد حيا

---

(١) هذا لا يعارض الأحاديث التى هى أصح منه والاجماع فى الامامة العظمى وهو فى امارة سرية من الجيش ولو عارضها لكانت هى أولى بالترجيح .

ما استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره (١) وسرية أسامة التي نحن بصددها كانت مشتملة على سادات من المهاجرين والأنصار وفحول من العرب العرباء وقريش أصحاب المجد البادخ ، وكان فيها أبوبكر الصديق الذى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار بعد بضعة أيام أميرا للمؤمنين ، ورئيسا للمسلمين (٢) .

وهكذا أمر بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى معلوم مشهور حتى أن عمر الفاروق القرشى كان يقول فى بلال « سيدنا ومولانا وإذا رأى صهيبا يقول : نعم العبد صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه » وأوصى حين وفاته أن يصلى عليه صهيب وأمير المؤمنين على عليه السلام القرشى الهاشمى كان يقول فى سلمان : سلمان منا أهل البيت (٣) فكان من أمر العرب بعد الاسلام أن انجلت عصبيتهم فى خلال قرن وسبقهم

(١) رأى عائشة هذا شاذ وقد ثبت بطلانه بنصوص الأحاديث فى امامة قريش حتى ماكان منها اخبارا عن المستقبل اذ كيف نستخلفه وقد أعلمه الله بأن الخلافة ستكون فى قريش عدة قرون وما ظهر من حكمة الشرع فى عدم استخلاف شخص بعينه .

(٢) سبحان الله ، كيف يذكر المسلمون اليوم أن الأنساب والأحساب التى يفتخرون بها ويعدونها موازين الشرف بينهم كانت منبوذة فى ذلك الزمن المبارك فلم يكن ينظر اذ ذاك الا فى العمل والتقوى . فأتقاهم وأقربهم الى الله والى رسوله كان أشرف وأكبر من غيره ، وهذا أسامة مع تأخره فى النسب كان يقدم فى العطاء على شرفاء قريش ، وقد اعترض مرة عبدالله بن عمر على تقديم أسامة عليه فقال له أبوه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين « كان أبوه أحب الى رسول الله من أبيك ، وكان أحب الى رسول الله منك » فما أعجب هذا الانقلاب الذى أحدثه الاسلام فى أولئك الذين كانوا يحتقرون سائر الناس ويعدون كافة البشر أدنى وأحط منهم . حتى أنهم أنفوا يوم بدر من منازلة كماة يثرب فرد وهم بلا قتال ولكنهم بعد الاسلام يخضعون لامارة العبيد وأبناء العبيد ولا يستنكفون منها .

(٣) بل هذا حديث مرفوع رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم عن عمرو ابن عوف .

العجم فى مضمار المحاسن والفضائل ، وخضعت العرب أمام علمهم وعلهم كما كانت تخضع أمام قريش وبنى هاشم ، حتى اضطر الخليفة القرشى هشام بن عبد الملك أن يقوم للامام الزهرى ، والله ليسودن الموالى العرب ،ويخطب لهم على المنابر والعرب تحتهم (العقد الفريد) .(١)

فهل يتصور بعد هذا أن داعى الاسلام صلى الله عليه وسلم الذى دعا النوع الانسانى الى نبذ العصبية وغرور النسب واقامة المساواة العامة ـ يرجع القهقرى (؟) فيتبع هواه (؟) ويحصر الحكومة والسلطنة والخلافة فى قومه وقبيلته الى آخر الدهر ؟ ويقول لسائر الناس لافضل ولا شرف ولاحق الا بالعمل والأهلية ثم ينسى هذا ويترك العمل وراء ظهره ويقول لنفسه ،النسب ،القبيلة ،الوطن ، ويسلط قومه على العالم كله ،لعمر أبيك أن هذا لشيء عجاب .(٢)

نعم انه من أعجب العجب ولكن ماكنا لنبالى به لونطق به كتاب الله وسنة رسوله ،لأن ميزان الحق عندنا الكتاب والسنة ،فاذا ثبت فيهما شيء فهو حق ،سواء فهمناه أولم نفهمه ،ولذا لم نستبعد ، بمجرد فهمنا وعقلنا ،بل استبعدناه لانا ماوجدناه فيهما وقلنا : انه لايليق بهذا الدين ،دين الفطرة دين المساواة ،دين العمل . أ هـ

---

(١) القول فى سبق العجم للعرب باطل كما يعلمه كل منصف يعرف التاريخ ،نعم ساموهم ولكن مافاقوهم فى شيء وقد قصدوا اذلال العرب ولم تقصد العرب الا عزهم ومساواتهم فى الاسلام .

(٢) كل ماذكره شعريات وخطابيات متكلفة تعود على ماأراده ، من جعل الخلافة فى بنى عثمان المحصورين بالنقض وأما جعلها فى قريش فلايقتضى ذلك ولاعدم المساواة بين الناس فى الدين والفضل والحقوق والجزاء فى الآخرة ومن أدلته أنه لم يمنع من ارتفاع شأن الموالى والأعاجم حتى فى أزمنة الخلفاء الجائرين من قريش وقد كان أكثر ولاة بنى العباس وقواد هم من الأعاجم فى النسب ولولا ذلك لما سادوا قريشا وغيرها وأفسدوا أمر الاسلام حتى بالغوا فى تعظيم آل الرسول صلى الله عليه وسلم وقد زل قلمه زلة فاحشة بل زلت قدمه بماقاله فى حيز هذا الاستفهام انكاريا ،ولو يكن كذلك لكان كفرا صريحا وقذفا فظيعا وانما نشرناه أداء لأمانة النقل ونستغفر الله تعالى منه لنا وله ،ومن لوازمه أن جميع أهل السنة القائلين بحصره صلى الله عليه وسلم للامامة فى قريش ... صلى الله عليه وسلم بمابرأه الله تعالى منه من اتباع الهوى !! وهو تكفير لهم غيرمقصود للكاتب ولازم المذهب غير مذهب فى الأغلب .

المراجـــع

يلاحظ انه لم يصـــدر كتـــاب عربـــى حتى الآن عن ابى الكـــلام ازاد ونظـــرا لانـــه من المعاصـــرين وتوفى سنة ١٩٥٨ فان تاريخه موزع بين الصحف والمجلات والنشرات ولا سيما الاورديـــة منهـــا ولم يترجـــم عـــن حياته للعربيـــة الا بعض ماجـــاء فى مـــذكراته التى كتبهـــا فى حياتـــه عـــن الهنـــد وحركتها لنيـــل حريتهـــا ‥ وقـــد جمعت وانا فى الهنـــد ما استطعت جمعه عن حياتـــه ٠ كمـــا جمعت عـــن زعمـــاء مسلمين آخرين فى حركـــة التحرير الهنـــديـــة توطئة لتعريف القارئ العربى بهـــم ‥

وهذه اهم المراجـــع التى استعنت بها فى هذه الرســـالة :

كتب التفســـير والتاريخ الاســـلامى كابن الاثير وابن كثير ٠

تاريخ الاسلام فى الهنـــد) ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ عبد المنعم النمـــر
) بمراجعتهـــا
كفاح المسلمين فى تحرير الهند) ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ عبد المنعم النمـــر

التاريخ الاســـلامى ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ د : احمد شـــلبى

حاضر العالم الاسلامى ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ تأليف لوثروب ستودارد الامريكى وتعريب عجاج نويهض وعليه تعليقات ضافية للامير شـــكيب ارســـلان ٠

مشكلات القـــرآن ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ محمد يوسف البنورى الباكستانى

المسلمون فى الهنـــد ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ابو الحسن الندوى الهنـــدى

حقائق عن الهنـــد ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ اصدار مكتب النشر الهنـــدى

دراسة لاحوال الطوائف والهيئات الاسلاميـــة فى الهنـــد : تقرير لبعثة الازهر للهند ١٩٣٦

الاسلام فـــى المشارق والمغارب ٠٠٠٠٠٠٠٠ د : جمال الدين الرمادى

دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٣ عـــدد ٢١ اعداد ابراهيم زكى خورشيد وزميليه

فى سبيل الحـــق ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ المهاتما غـــانـــدى ٠

تجاربى مع الحقيقـــة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ للمهاتما غـــانـــدى ٠

حضارتهم وحضارتنـــا ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ " "

مـــن السجن للرياســـة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جواهـــر لال نهـــرو ٠

لمحات من تاريخ العالم ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ " " "

نهـــرو ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ بقلمـــه ٠

عنـــد قـــدمى غـــانـــدى ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ د : راجندر برســـاد

غـــانـــدى ابو الهنـــد ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ قـــدرى قلمجـــى

الشمس الحزينة .... محمد كاظم
غاندى .... فتحى رضوان
غاندى حياته وجهاده .... عباس العقاد
محمد على جناح .... " "
مذكرات اغا خان .... اغا خان
باكستان فى ماضيها وحاضرها : محمد عطا وعبد الحميد البطريق " سلسلة اخترنا لك"
الهند والغرب .... سلسلة " اخترنا لك "
جمال الدين الافغانى .... د : محمود قاسم
الشيخ محمد عبده .... سلسلة اعلام العرب
رشيد رضا .... " " "
زعماء الاصلاح .... احمد امين
أبو الكلام وأراؤه .... رسالة ماجستير .
مذكرات ازاد : بقلمه ومترجم بعضها ومنشور فى اعداد مجلة ثقافة الهند كما ترجمت للانجليزية بعنوان :

ترجمان القرآن .... ابو الكلام ازاد
نزهة الخواطر فى اعيان الهند وعلمائها .. عبد الحى الحسنى اللكنوى .
جريدة الجمعية عدد خاص عن ازاد ...... لسان حال جمعية علماء الهند تصدر فى دهلى

وذلك عدا المراجع الاخرى التى اشير اليها فى الرسالة وعلى الهامش

بسم الله الرحمن الرحيم

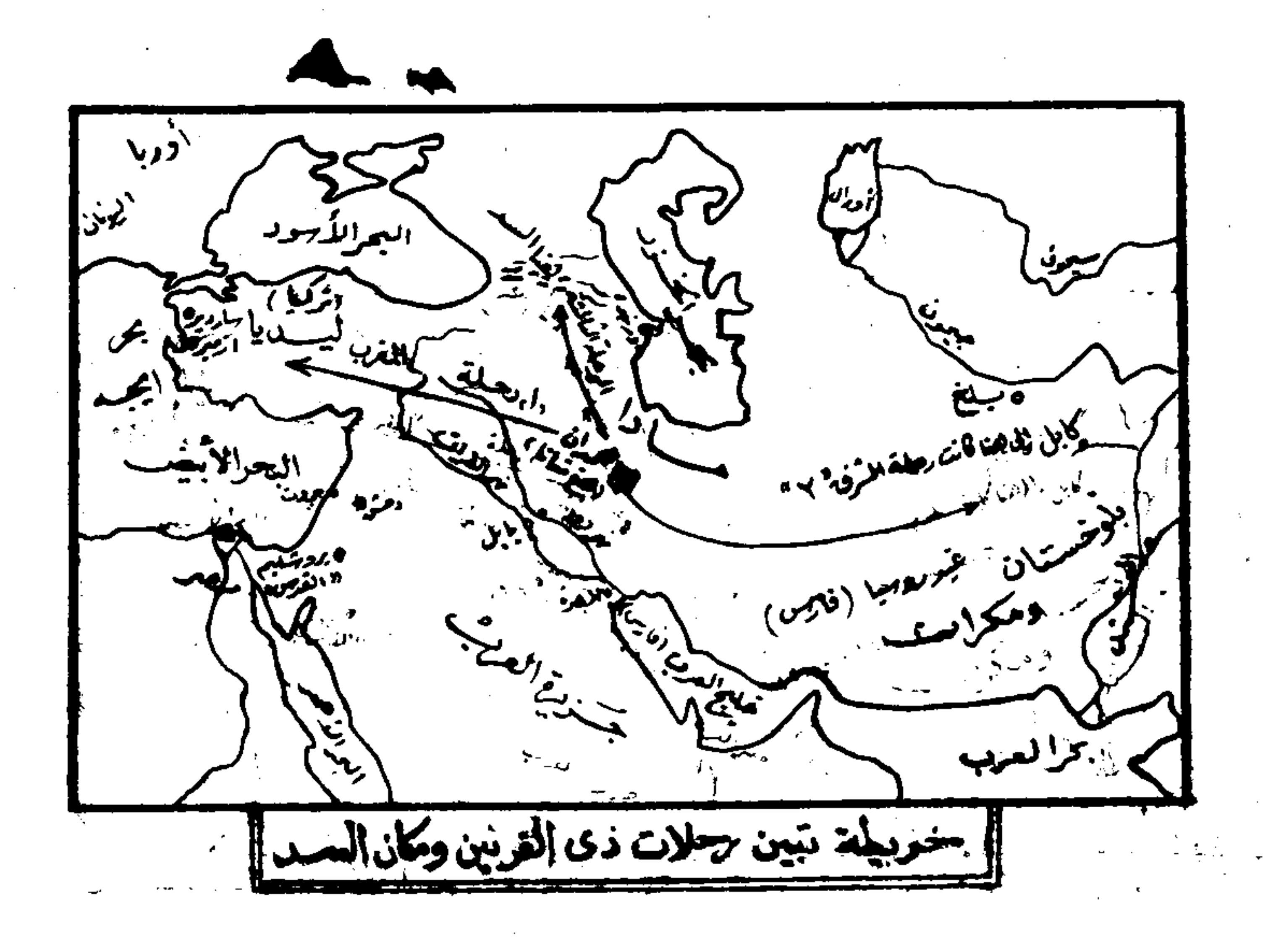
فهرس الموضوعات

=========

الملاحق : أ • ب • ج • د

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع



خريطة تبين رحلات ذى القرنين ومكان السد



تمثال غورش الذى عثر عليه فى خربات اصطخر بايران